



آلَةُ مُرْتَفَاتٍ
فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

٦٩

الحِكَايَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعَثِيمِيِّ
عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِالْمُسْلِمِينَ

المَجْلَدُ الْأَوَّلُ

مِنْ إِصْدَارَاتِ

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعَثِيمِيِّ الْخَبَرِيَّةِ

أَحْكَمُ مِنَ الْقُرْآنِ كَرِيمٍ

①

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

أحكام من القرآن الكريم ج ١ / محمد بن صالح العثيمين - ط ٣ -

عنيزة، ١٤٤٣هـ

٧٣٣ ص : ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين: ٦٩)

ردمك: ٣-٣٢-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١ - العنوان

١ - القرآن - أحكام.

١٤٤٣/٢٢٢٠

ديوي ٢٢٦.٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٢٢٠

ردمك: ٣-٣٢-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ
إِذَا لَمْ يَأْرَدْ طَبْعَ الْكِتَابِ لِتَوْزِيْعِهِ خَيْرِيًّا بَعْدَ مَرَاجَعَةِ الْمُؤَسَّسَةِ

الطبعة الثالثة

١٤٤٣هـ

يُطْلَبُ الْكِتَابُ مِنْ:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٥٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

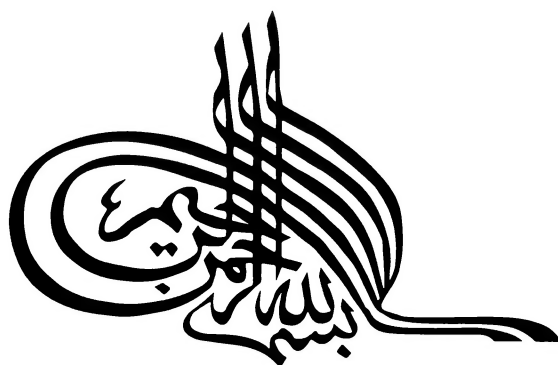


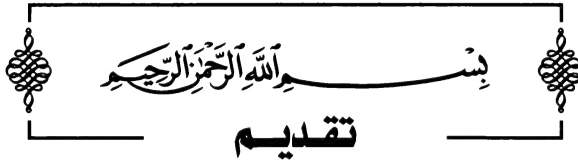
الحِكْمَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية





••❦••

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَتْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ لِصَاحِبِ الْفَضِيلَةِ شَيْخِنَا الْوَالِدِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، عِنَايَتُهُ وَاهْتِمَامُهُ وَحِرْصُهُ التَّامُّ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَيَانِ مَعَانِيهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مِنْ آيَاتِهِ؛ فَأَثْمَرَتْ جُهِودُهُ الْمُبَارَكَةُ -بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى- فِي هَذَا الْمَقَامِ الْجَلِيلِ ثَرَاثًا عِلْمِيًّا نَافِعًا.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا كَانَ مِنْ سَعْيِهِ الْمَوْفَّقِ وَمُشَارَكَتِهِ الْفَعَّالَةِ فِي بَرْنَامَجٍ بِعُنْوَانٍ (مِنْ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)، مِنْ إِذَاعَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، ضِمْنَ حَدِيثِ أَعَدَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَدَّمَهُ فِي حَلَقَاتٍ بَدَأَ فِيهَا عَامَ (١٤٠٨ هـ) مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ حَتَّى بَلَغَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

هَذَا وَقَدْ طُبِعَتْ بِدَايَاتُ هَذَا الْعَمَلِ عَامَ (١٤١٥ هـ)، ثُمَّ رَأَى فَضِيلَتُهُ -رَحْمَةُ
 اللَّهُ تَعَالَى- أَنْ يُرَاجَعَ الْمَطْبُوعَ قَبْلَ إِعَادَةِ طَبْعِهِ، فَشَرَعَ فِي ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
 ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ
 وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

وَسَعْيًا لِتَعْمِيمِ النِّفَعِ وَالْفَائِدَةِ، وَإِنْفَاذًا لِلْقَوَاعِدِ وَالضُّوَابِطِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي
 قَرَّرَهَا شَيْخُنَا -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- لِإِخْرَاجِ ثُرَاثِهِ الْعِلْمِيِّ نَمَّ تَجْهِيْزُ الْمَادَّةِ الْعِلْمِيَّةِ لِلطَّبَاعَةِ
 وَتَقْدِيمُهَا لِلنَّشْرِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ نَافِعًا لِعِبَادِهِ،
 وَأَنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمُثُوبَةَ
 وَالْأَجْرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ
 عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، وَخَيْرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ
 وَالْآخِرِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

الْقِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ الْخَزِيرَةِ

١٩ صَفَرُ ١٤٤٣ هـ

نُبذة مُختصرة عن

فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين

١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ

•••••

نَسَبُهُ وَمَوْلَدُهُ:

هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ، الْفَقِيهَ الْمَفْسَّرُ، الْوَرَعَ الزَّاهِدُ،
مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ عَثِيمِينَ مِنَ الْوَهْبَةِ مِنْ بَنِي
تَمِيمٍ.

وُلِدَ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، عَامَ (١٣٤٧ هـ)
فِي عُنَيْزَةٍ - إِحْدَى مُحَافَظَاتِ الْقَصِيمِ - فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

نَشَأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

أَلْحَقَهُ وَالِدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لِيَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَ جَدِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
مُعَلِّمِ الْقُرْآنِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، ثُمَّ تَعَلَّمَ
الْكِتَابَةَ، وَشَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ، وَالنُّصُوصَ الْأَدَبِيَّةَ؛ فِي مَدْرَسَةِ الْأُسْتَاذِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ
صَالِحِ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِمَدْرَسَةِ مُعَلِّمِ الْقُرْآنِ الشَّيْخِ
عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّحِيحَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَيْثُ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَهُ عَنْ
ظَهْرِ قَلْبٍ وَلَمَّا يَتَجَاوَزِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ بَعْدُ.

وَبِتَوْجِيهِ مِنْ وَالِدِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَكَانَ

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١) - رحمه الله تعالى - يدرس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتب اثنين من طلبته الكبار^(٢) لتدريس المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقة الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع - رحمه الله تعالى - حتى أدرك من العلم - في التوحيد، والفقه، والنحو - ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى -، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويعد فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى -

(١) ترجم له الكثيرون، وقد كان على جانب كبير من العلم الغزير والأخلاق الفاضلة وسعة الأفق والعناية البالغة بالتدريس والتأليف، والوعظ والإرشاد والإفتاء والدعوة إلى الله عز وجل، فألف في التوحيد، والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، والآداب، وغيرها، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٣٧٦هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ٢١٨ - ٢٧٣)، روضة الناظرين للقاضي (٢١٩/١).

(٢) هما الشيوخان:

١ - الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع.

لازم شيخه عبد الرحمن السعدي ملازمة طويلة، حتى صار أكبر تلامذته، وتولى القضاء بعنيزة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٣٨٧هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٦/ ٧٨)، روضة الناظرين للقاضي (٢٩١/٢).

٢ - الشيخ علي بن حمد الصالحي.

لما رأى شيخه عبد الرحمن السعدي منه المثابرة في التحصيل، أمره أن يجلس لتدريس الصغار من الطلبة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤١٥هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٥/ ١٨٠).

هُوَ شَيْخَهُ الْأَوَّلُ؛ إِذْ أَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ -مَعْرِفَةً وَطَرِيقَةً- أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِ، وَتَأَثَّرَ بِمَنْهَجِهِ وَتَأَصَّلِيهِ، وَطَرِيقَةِ تَدْرِيسِهِ، وَاتَّبَاعِهِ لِلدَّلِيلِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عُدَانَ^(١) -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَاضِيًا فِي عُنْيَةِ قَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ، كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي^(٢) -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ مُدَرِّسًا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا فُتِحَ الْمَعْهَدُ الْعِلْمِيُّ فِي الرِّيَاضِ أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِهِ^(٣) أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فَاسْتَأْذَنَ شَيْخَهُ الْعَلَّامَةَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، وَالتَّحَقَّقَ بِالْمَعْهَدِ عَامِي (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

وَلَقَدْ انْتَفَعَ -خِلَالَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ انْتَضَمَ فِيهِمَا فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ الْعِلْمِيِّ- بِالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُدَرِّسُونَ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَمِنْهُمْ: الْعَلَّامَةُ الْمُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ^(٤)، وَالشَّيْخُ الْفَقِيهَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ رَشِيدٍ^(٥)، وَالشَّيْخُ

(١) توفى -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٤هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ١٣٠)، روضة الناظرين للقاضي (٢١٥/١).

(٢) ولد في مصر، وتلقى تعليمه في الجامع الأزهر، وقدم إلى المملكة عام (١٣٦٨هـ)، ودرَّس في مناطق شتَّى من المملكة، ثم اختير عضواً بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ). انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ٢٧٥).

(٣) هو الشَّيْخُ عَلِيٌّ بْنُ حَمْدِ الصَّالِحِيِّ -رحمه الله تعالى-.

(٤) نشأ وتعلَّم في شَنْقِيطٍ مِنْ بِلَادِ مَوْرِيْتَانِيَا، ثُمَّ قَدِمَ إِلَى الْمَمْلَكَةِ لِلْحَجِّ عَامَ (١٣٦٧هـ)، وَتَوَلَّى التَّدْرِيسَ فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ بِالرِّيَاضِ، ثُمَّ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَاخْتِيرَ عَضْوًا بِهَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ، تَوَفَّى -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَامَ (١٣٩٣هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٦/ ٣٧١).

(٥) نشأ في الرَّسِّ إِحْدَى مَحَافِظَاتِ الْقَصِيمِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الرِّيَاضِ، وَدَرَّسَ بِالْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ، وَتَوَجَّهَ

المُحَدِّثُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِفْرِيقِيُّ^(١) - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى -.

وفي أثناء ذلك اتَّصَلَ بِسَمَاحَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ: مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَمِنْ رَسَائِلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ؛ وَانْتَفَعَ بِهِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَالنَّظَرِ فِي آرَاءِ فُقَهَاءِ الْمَذَاهِبِ وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا، وَيُعَدُّ سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هُوَ شَيْخُهُ الثَّانِي فِي التَّخْصِيلِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى عُيُوزَةِ عَامَ (١٣٧٤هـ)، وَصَارَ يَدْرُسُ عَلَى شَيْخِهِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ، وَيَتَابِعُ دِرَاسَتَهُ انْتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ بِالرِّيَاضِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى نَالَ الشَّهَادَةَ الْعَالِيَةَ.

= للوعظ والإرشاد والتدريس بالمسجد الحرام والمعهد العلمي بمكة المكرمة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤٠٨هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٣/ ٥٣١).

(١) نشأ في بلاد مالي بأفريقيا، ثم قدم للحج، وجاور بمكة والمدينة، وطلب العلم على علماء المسجد النبوي، ودرس بدار الحديث بالمدينة النبوية، وعُيِّن مُدَرِّسًا بِهَا، توفى - رحمه الله تعالى - عام (١٣٧٧هـ).

(٢) ترجم له الكثيرون، وأفردوا ترجمته في مؤلفات عديدة، تولى قضاء الحُجَّج، ثم انتقل إلى الرياض للتدريس في المعهد العلمي ثم كلية الشريعة، إلى أن عُيِّن نائِبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ثم رئيسًا لها، ثم مفتيًا عامًا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤٢٠هـ).

انظر ترجمته في: روضة الناظرين للقاضي (٣/ ١٤٤).

تَدْرِيسُهُ :

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- النَّجَابَةَ
وَسُرْعَةَ التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ فَشَجَّعَهُ عَلَى التَّدْرِيسِ وَهُوَ مَا زَالَ طَالِبًا فِي حَلَقَتِهِ، فَبَدَأَ
التَّدْرِيسَ عَامَ (١٣٧٠هـ) فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بَعْنِيزَةَ.

وَلَمَّا تَخَرَّجَ فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ فِي الرِّيَاضِ عَيْنَ مُدْرَسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ بَعْنِيزَةَ
عَامَ (١٣٧٤هـ).

وَفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوفِّيَ شَيْخُهُ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ
-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَتَوَلَّى بَعْدَهُ إِمَامَةَ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وَإِمَامَةَ الْعِيدَيْنِ فِيهَا،
وَالتَّدْرِيسَ فِي مَكْتَبَةِ عُنَيْزَةَ الْوَطَنِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْجَامِعِ؛ وَهِيَ الَّتِي أَسَّسَهَا شَيْخُهُ
-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطُّلُبَةُ، وَصَارَتِ الْمَكْتَبَةُ لَا تَكْفِيهِمْ؛ بَدَأَ فَضِيلَتُهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-
يُدْرُسُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ نَفْسِهِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَابُ وَتَوَافَدُوا مِنَ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهَا؛
حَتَّى كَانُوا يَبْلُغُونَ الْمِائَاتِ فِي بَعْضِ الدُّرُوسِ، وَهَؤُلَاءِ يَدْرُسُونَ دِرَاسَةً جَادَّةً يَهْدَفُ
التَّحْصِيلُ الْعِلْمِيُّ، وَلَيْسَ لِمُجَرَّدِ الْاسْتِجَاعِ. وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ -إِمَامًا وَخَطِيبًا وَمُدْرَسًا-
حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدْرَسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ مِنْ عَامَ (١٣٧٤هـ) إِلَى عَامِ (١٣٩٨هـ)
عِنْدَمَا انْتَقَلَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ بِالْقَصِيمِ، التَّابِعَةِ
لِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَظَلَّ أَسَازًا فِيهَا حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى-.

وكان يُدرّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي، في مواسم الحجّ ورمضان والإجازات الصيفية، منذ عام (١٤٠٢ هـ) حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

وللسّيح -رحمه الله تعالى- أسلوبٌ تعليميٌّ فريدٌ في جودته ونجاحه، فهو يُناقش طلابه ويتقبّل أسئلتهم، ويُلقي الدُّروسَ والمحاضراتَ بهمةً عاليةً ونفسٍ مطمئنّةً واثقةً، مُبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلميّة:

ظَهَرَتْ جُهودُهُ العَظيمةُ -رحمه الله تعالى- خِلالَ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا مِنْ العَطَاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدريسِ والوعظِ والإرشادِ والتَّوحيهِ وإلقاءِ المحاضراتِ والدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ولقد اهتمَّ بالتَّأليفِ، وتَحْرِيرِ الفَتاوى والأجوبة، التي تميَّزَتْ بالتَّأصيلِ العِلْمِيِّ الرَّصينِ، وصَدَرَتْ لَهُ العَشْرَاتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسَائِلِ والمحاضراتِ والفتاوى والخطبِ واللقاءاتِ والمقالاتِ، كما صَدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوتيةِ التي سَجَلَتْ مُحاضراتِهِ وخطبَهُ ولقاءاتِهِ وبرامجهُ الإذاعيَّةَ ودروسَهُ العِلْميةَ؛ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، والشُّروحاتِ المُميّزةِ للحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، والمُتُونِ والمنظوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرعيةِ والنَّحويَّةِ.

وإنفاذاً للقواعدِ والضوابطِ والتَّوجيهاتِ التي قَرَّرها فَضيلَتُهُ -رحمه الله تعالى- لِنَشْرِ مُؤلَّفَاتِهِ، ورَسَائِلِهِ، ودُرُوسِهِ، ومحاضراتِهِ، وخطبِهِ، وفتاواه، ولقاءاتِهِ؛ تُقُومُ مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِينَ الخَيْرِيَّةُ -بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ- بِوَاجِبِ وَشَرَفِ الْمَسْئُولِيَّةِ لِإِخْرَاجِ كَافَّةِ آثَارِهِ العِلْميةِ والعِنايةِ بِهَا.

وَبِنَاءً عَلَى تَوْجِيهَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أُنْشِئَ لَهُ مَوْقِعٌ خَاصٌّ عَلَى شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ الدَّوْلِيَّةِ^(١)، مِنْ أَجْلِ تَعْمِيمِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ - بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى -، وَتَقْدِيمِ جَمِيعِ آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ مِنَ الْمَوْلُفَاتِ وَالتَّسْجِيلَاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وَجُهْدُهُ الْآخَرَى:

إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْجُهُودِ الْمُثْمِرَةِ فِي مَجَالَاتِ التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِمَامَةِ وَالْحَطَابَةِ وَالْإِفْتَاءِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كَانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عَضُوءًا فِي هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، مِنْ عَامِ (١٤٠٧هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- عَضُوءًا فِي الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي الْعَامَيْنِ الدَّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨ - ١٤٠٠هـ).
- عَضُوءًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ، بِفَرْعِ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقَصِيمِ، وَرَئِيسًا لِقِسْمِ الْعَقِيدَةِ فِيهَا.
- وَفِي آخِرِ فِتْرَةِ تَدْرِيسِهِ بِالْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ شَارَكَ فِي عَضُوءَةِ لَجْنَةِ الْخِطَطِ وَالْمَنَاهِجِ لِلْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الْكُتُبِ الْمُقَرَّرَةِ فِيهَا.
- عَضُوءًا فِي لَجْنَةِ التَّوَعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، مِنْ عَامِ (١٣٩٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، حَيْثُ كَانَ يُلْقِي دُرُوسًا وَمُحَاضِرَاتٍ فِي مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ، وَيُفْتِي فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

- ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عُنيزة مُنذُ تأسسها عام (١٤٠٥هـ) حتى وفاته.
- ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
- من علماء المملكة الكبار الذين يُجيبون على أسئلة المُستفسرين عن الأحكام والمسائل؛ عقيدةً وشرعيةً وسلوكًا، وذلك عبر البرامج الإذاعية في المملكة العربية السعودية، وأشهرها برنامج (نور على الدرب) من إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية.
- نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين؛ مُهاتفةً ومُكَاتبةً ومُشافهةً.
- رتب لقاءات علمية مُجدولةً، أسبوعيةً وشهريةً وسنويةً.
- شارك في العديد من المؤتمرات التي عُقدت في المملكة العربية السعودية.
- ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم الكثيرة المتنوعة، والاهتمام بأمورهم.
- وللشيخ -رحمه الله تعالى- أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرِّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم وكتابة الوثائق والعقود بينهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مَكَاتَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ- تَأْصِيلاً وَمَلَكَهُ عَظِيمَةً فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ وَاتِّبَاعِهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَبَرِ أَغْوَارِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَانِي وَإِعْرَابًا وَبَلَاغَةً.

وَلَمَّا تَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْجَلِيلَةِ، وَأَخْلَاقِهِمُ الْحَمِيدَةِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحَبَّةً عَظِيمَةً، وَقَدَّرَهُ الْجَمِيعُ كُلَّ التَّقْدِيرِ، وَرَزَقَهُ اللهُ الْقَبُولَ لَدَيْهِمْ، وَاطْمَأْنَنُوا لِاخْتِيَارَاتِهِ الْفَقْهِيَّةِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وَفَتَاوَاهُ وَآثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ وَمَوَاعِظِهِ.

وَقَدْ مُنِحَ جَائِزَةُ الْمَلِكِ فَيَصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الْعَالَمِيَّةُ لِحُدُومَةِ الْإِسْلَامِ عَامَ (١٤١٤هـ)، وَجَاءَ فِي الْحَيْثِيَّاتِ الَّتِي أَبَدَتْهَا لَجْنَةُ الْإِخْتِيَارِ لِمُنْحِهِ الْجَائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحَلُّيهِ بِأَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي مِنْ أُبْرَزِهَا: الْوَرَعُ، وَرَحَابَةُ الصَّدْرِ، وَقَوْلُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ لِمَصْلُحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالنُّصْحُ لِحَاقِصَتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.
- ثَانِيًا: انْتِفَاعُ الْكَثِيرِينَ بِعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وَإِفْتَاءً وَتَأْلِيفًا.
- ثَالِثًا: إِلْقَاؤُهُ الْمُحَاضَرَاتِ الْعَامَّةَ النَّافِعَةَ فِي مُخْتَلَفِ مَنَاطِقِ الْمَمْلَكَةِ.
- رَابِعًا: مُشَارَكَتُهُ الْمُفِيدَةَ فِي مُؤْتَمَرَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ كَثِيرَةٍ.
- خَامِسًا: اتِّبَاعُهُ أَسْلُوبًا مُتَمَيِّزًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وَسُلُوكًا.

عَقْبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَنِينَ، وَثَلَاثٌ مِنَ الْبَنَاتِ، وَبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ، وَعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي مَدِينَةِ جَدَّةَ، قَبِيلَ مَغْرِبِ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ، الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ، عَامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلْكَ الْأَلْفُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَالْحُشُودِ الْعَظِيمَةِ فِي مَشَاهِدَ مُؤَثَّرَةٍ، وَدُفِنَ فِي مَقْبَرَةِ الْعَدْلِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ.

وَبَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْيَوْمِ التَّالِي صُلِّيَ عَلَيْهِ صَلَاةُ الْغَائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

رَحِمَ اللَّهُ شَيْخَنَا رَحْمَةً الْأَبْرَارِ، وَأَسْكَنَهُ فَيْسَحَ جَنَّاتِهِ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِمَغْفِرَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَجَزَاهُ عَمَّا قَدَّمَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

الْقِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإننا نستفتح هذا الكتاب: (أحكام من القرآن الكريم)، راجين الله سبحانه وتعالى
أن يكون مباركاً، نافِعاً لنا ولإخواننا المسلمين.

وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية
والدنيوية، والفردية، والاجتماعية، ولا ريب أن كل آية في كتاب الله تتضمن فوائد
عظيمة، يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه، ولا ريب كذلك أن الإنسان يؤتى
العلم بحسب ما معه من الإيمان، والهدى، والتقى، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ
الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانِسَهُم
تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وكلما كان الإنسان أشد إقبالاً على القرآن الكريم، وإيماناً به، وحباً له، وتدبراً
لآياته، كان به أفهم، وبما يدل عليه من الفوائد العظيمة والأحكام أوسع.

ولهذا فإنني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله عز وجل، وتفهم معانيه،
والرجوع فيما لا يعرفونه إلى أهل العلم؛ ليسيئوه لهم، وإن لم يتيسر ذلك فإلى كتب

التفسير الموثوق بها، كتفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، وتفسير شيخنا عبد الرحمن بن سعدي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني رَحِمَهُمُ اللهُ، وغيرها من التفاسير المعروفة الموثوقة بمؤلفيها في علمهم ودينهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية (تلاوة الآيات الحرفية)، بل نزل من أجل هذا، ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو تدبر الآيات، وتفهم معانيها، ثم التذكُّر بها فيها من القصص، والأخبار، والمواعظ، والأحكام.

ولهذا كان الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا^(١)، وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني: جانب المعنى، وجانب التدبر، وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام، ولا يهتمون به، وهذا قصور - بلا شك - في الإنسان، وتقصير منه.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَجَرَّأُ وَيَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فكل إنسان يتكلم في معنى آية من كتاب الله فهو شاهدٌ على الله تعالى بأنه أراد بها كذا وكذا، وهذا أمر خطير؛ لأنه سيُسأل عنه يوم القيامة، فيقال: ما الذي أعلمك بأن الله تعالى أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن برأيه.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤١٠).

ومن النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى كَذَا وَكَذَا، ولكن لديه عَقِيدَةٌ سَابِقَةٌ، وَنَحْلَةٌ يُؤْمُّهَا وَيَقْتَدِي بِهَا، وَتَقْلِيدٌ لِمَنْ يَتَّقُ بِهِ، فَتَجِدُهُ مُحَرِّفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَصْرِفُ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنْ وُجُوهِهَا إِلَى مَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ وَيَتَّحِلُّهُ مِنْ هَذَا الْمَذْهَبِ، وَهَذَا أَشَدُّ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الْحَقَّ عَنْ عِلْمٍ بِهِ.

فَالوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ حِينَ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْنَى آيَةٍ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى حَذَرٍ، فَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الْمَرَادُ، أَوْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ هُوَ الْمَرَادُ، وَأَمَّا مَعَ الشَّكِّ فَلَا يُجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ.

وَنَحْنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لَنْ نَتَكَلَّمَ كَثِيرًا عَنْ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ، وَبَيَانِ وُجُوهِهَا اللَّغَوِيَّةِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ الْمُفَسِّرِينَ، وَلَكِنْ يَهْمُنِي أَنْ أُبَيِّنَ الْفَوَائِدَ الَّتِي تُسْتَنْبَطُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَأُبَيِّنَ وَجْهَ ذَلِكَ غَالِبًا فِيهَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، وَفِيهَا خَفِيَ دَلَالَتُهُ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِفَادَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَحْصُلُ بِهَا عِلْمٌ كَثِيرٌ، وَلِهَذَا سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهَدَ إِلَيْكُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: «لَا، وَالَّذِي بَرَأَ النَّسَمَةَ، وَفَلَقَ الْحَبَّةَ، إِلَّا فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»، وَهِيَ فَكَأَكِ الْأَسِيرِ، إِلَى آخِرِ مَا فِيهَا^(١)، لَكِنْ الْمَهْمُ أَنَّهُ قَالَ: «إِلَّا فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ»، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَهْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَحْصُلُ بِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَعِلْمٌ غَزِيرٌ.

وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْفَهْمُ مَبْنِيًّا عَلَى أُسَاسٍ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ

أَقْسَامٌ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

١- فمنهم مَنْ عنده عِلْمٌ ولكن ليس عنده فَهْمٌ.

٢- ومن النَّاسِ مَنْ عنده فَهْمٌ ولكن ليس عنده عِلْمٌ.

٣- ومن النَّاسِ مَنْ عنده عِلْمٌ وفَهْمٌ.

٤- ومن النَّاسِ مَنْ لا عِلْمَ عنده ولا فَهْمَ.

والمرادُ من هذا الكتاب: هو استنباطُ الفوائد من كِتَابِ الله عَزَّجَلَّ؛ لِيَحْصُلَ بذلك خيرٌ كثيرٌ.

واعلم أنَّ الدَّلالةَ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أَقْسَامٍ: مُطَابَقَةٌ، وَتَضَمُّنٌ، وَالتَّزَامُ.

■ فدلالةُ اللَّفْظِ على جميعِ معناه دلالةٌ مُطَابَقَةٌ.

■ ودلالتهُ على جُزْءٍ معناه دلالةٌ تَضَمُّنٍ.

■ ودلالتهُ على أمرٍ لازمٍ خارجٍ دلالةٌ التَّزَامِ.

ولنضرب لذلك مَثَلًا معنويًّا ومَثَلًا حِسِّيًّا:

أمَّا المَثَلُ المعنويُّ فانظر إلى اسمٍ من أسماءِ الله، وهو (الخالِقُ)، تجد أنَّه دَلٌّ على صِفَةِ الخَلْقِ، وعلى الخَالِقِ نَفْسِهِ، فدلالتهُ على الخَالِقِ نَفْسِهِ وعلى صِفَةِ الخَلْقِ جميعًا دلالةٌ مُطَابَقَةٌ، ودلالتهُ على الخَالِقِ نَفْسِهِ وَخَدَهُ أو على صِفَةِ الخَلْقِ وَخَدَهَا دلالةٌ تَضَمُّنٍ، ودلالتهُ على العِلْمِ والقُدْرَةِ دلالةٌ التَّزَامِ؛ لأنَّ الخَلْقَ لا بُدَّ فيه من عِلْمٍ وقُدْرَةٍ، فمَنْ لم يكن عالمًا لا يستطيعُ أن يَخْلُقَ، ومَنْ لم يكن قادرًا لا يستطيعُ أن يَخْلُقَ.

أمَّا المَثَلُ الحِسِّيُّ فكأنْ نقول: «هذا بيتٌ»، فكلمة (بيت) تدلُّ على كلِّ ما يُحِيطُ به سورُ البيتِ دلالةٌ مُطَابَقَةٌ، وتدلُّ على هذه العُرْفَةِ، والعُرْفَةِ الثانية، والعُرْفَةِ الثالثة،

والغُرْفَةُ الرَّابِعَةُ، وعلى الحَوْشِ (البراح)، وعلى الْمَجْلِسِ، والصَّالَةِ، دَلَالَةٌ تَضْمِنُ،
وتدلُّ على أَنَّ لهذا البيت بانيًا دَلَالَةُ التَّرَامِ.

وهذه الأنواعُ الثلاثةُ من الدَّلالةِ إذا اسْتَعْمَلَهَا الإنسانُ اسْتِعْمَالًا جَيِّدًا حَصَلَ
بها فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، ولهذا تجدُّ بعضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إذا تَكَلَّمَ عن آيَةٍ أو حَدِيثٍ -لا سِتْنَابَ
أَحْكَامِهَا- اسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً؛ لاسْتِعْمَالِهِ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ مِنَ الدَّلَالَةِ،
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْصُرُ فَهْمُهُ عَنْهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَنْبِطَ إِلَّا فَوَائِدَ قَلِيلَةً.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ مَا يُذَكَّرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْفَوَائِدِ لَيْسَ اسْتِيعَابًا لِلْفَوَائِدِ، فَإِنَّ
كَلَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَسْتَوْعِبَ فَوَائِدَهُ، وَلَكِنْ يَقُولُ
الْإِنْسَانُ مَا يَسْتَطِيعُ الْوُضُوءَ إِلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ، وَإِلَّا فَفِي كِتَابِ اللَّهِ
عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْفَوَائِدِ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَكَبِيرٌ.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَنَا لخدمَةِ كِتَابِهِ، وَأَنْ يُفَقِّهَنَا فِي دَلَالَتِهِ وَاسْتِنبَاطِ فَوَائِدِهِ،
وَأَنْ يَنْفَعَ بِهَذَا الْعَمَلِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

مَحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينِ



(١) سورة الفاتحة

.. ❦ ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾
 إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
 ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ
 سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾
 [الحجر: ٨٧]، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي: هِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَهِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا
 فُرِضَتْ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَوَاتِ، فَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يقرأ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ.

افْتَتَحَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْحَمْدِ، وَالشَّانِ، وَالتَّمجِيدِ، وَالْحَمْدُ: هُوَ وَصْفُ
 الْمَحْمُودِ بِالْكَمَالِ، وَالشَّانُ: تَكَرُّرُ هَذَا الْوَصْفِ، وَالتَّمجِيدُ: ذِكْرُ الْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ
 وَقُوَّةِ السُّلْطَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ
 النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ،
 وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 حَمَدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا
 قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: قَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا
 قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ،

فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥٠﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٥١﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ: هَذَا لِعِبْدِي، وَلِعِبْدِي مَا سَأَلَ^(١).

ففي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على كمال صفات الله عزَّوجلَّ، وعلى كثرة نِعَمه على عباده؛ لأنَّ الحمد لا يستحقُّه إلا مَنْ كان كاملاً في وصفه، كاملاً في فعله، وأعني بالحمد: الحمد المطلق الكامل، وإلا فقد يُحمد الإنسان حمداً كاملاً على فعلٍ ناقصٍ، أو على كمالٍ ذاتيٍّ ناقصٍ.

وفي قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ دليل على ثبوت ألوهية الله عزَّوجلَّ، فالله سبحانه وتعالى إله الحق، وما سواه فهو باطل.

وفي الإتيان باللام دليل على استحقاق هذا الحمد لله وحده، لا يُشاركه فيه أحد، فالحمد المطلق الكامل لا يكون إلا لله عزَّوجلَّ؛ لأنَّ كلَّ ما سواه إنما يُحمد على شيءٍ مُعيَّن حمداً يليقُ بهذا الشيء المُعيَّن، ويكافئُ هذا الشيء المُعيَّن.

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إثبات ربوبية الله عزَّوجلَّ، والرَّبُّ هو الخالق المالك المدبِّر، فلا خالقَ إلا الله، ولا مالكَ إلا الله، ولا مدبِّرَ إلا الله عزَّوجلَّ، وإضافة الخلق إلى غير الله، أو الملك إلى غير الله، أو التدبير إلى غير الله إضافة ناقصة في ذاتها، وناقصة في شمولها وعمومها، أمَّا خلق الله ومُلْكُ الله وتدبيرُ الله فهو كامل شامل عام.

وفي الآية الكريمة: إِبْتِاثُ رَبٍّ وَمَرْبُوبٍ، ممَّا يدلُّ على التباين بين الخالق والمخلوق، ويكون فيه ردٌّ على قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٥).

وفي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْمَلِئِمْتِ﴾ دليلٌ على أَنَّ الْعَالَمِينَ كُلَّهُمْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لَا قِيَامَ لِلْمَرْبُوبِ إِلَّا بِالرَّبِّ، فَالرَّبُّ هُوَ الْمُرَبِّي الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْمَلِئِمْتِ﴾ دليلٌ على أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّسُلَ وَالْأَوْلِيَاءَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْخَلْقِ، وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُو هَؤُلَاءَ، وَأَنْ يَسْتَغِيثَ بِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَنْصِرَ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ، هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الرَّبِّ، غَيْرُ مُسْتَغْنِينَ عَنْهُ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا مَلَجَأً لِلْعِبَادِ، وَمَلَاذًا لَهُمْ، يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَرْحَمُونَ بِهِمْ؟!!

وفي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْمَلِئِمْتِ﴾ دليلٌ على أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى -يَعْنِي نَفْسَهُ-: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَفْسِيرِهَا: «أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ، فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(١).

وفي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْمَلِئِمْتِ﴾ دليلٌ على أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ عِلْمٌ وَأَيَّةٌ دَالَّةٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ مِنَ الْإِنْتِظَامِ الْبَدِيعِ، وَالْأَطْرَادِ، وَعَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَالْإِحْكَامِ، دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ مُوْجِدِهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣/٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَطَعَ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَبٍ وَزَرَعَ وَنَحَلَ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُقِضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الرعد: ٤﴾، فهذا الكون المَرْبُوبُ المخلوقُ عِلْمٌ على خالقه عَزَّجَلَّ، ودليلٌ عليه، وآيةٌ من آياته.

وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إثباتُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ صِفَةٌ من صفات الله عَزَّجَلَّ الثَّابِتَةُ له حَقِيقَةً على وَجْهِ الْكَمَالِ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وهي غَيْرُ الْإِرَادَةِ، وَغَيْرُ الْإِحْسَانِ، بل هي صِفَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ يَنْشَأُ عَنْهَا إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، وإِصَالُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ.

وَوَصَفُ الله نَفْسَهُ بـ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد ذكر رُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ، ففي ذلك دَلِيلٌ على أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ عَزَّجَلَّ رُبُوبِيَّةٌ رَحْمَةٌ وَإِحْسَانٌ إِلَى الْخَلْقِ، بِجَلْبِ النِّعَمِ، وَدَفْعِ النِّقَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي وَصْفِهِ بـ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ دَلِيلٌ على سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وهذا مُسْتَفَادٌ من ﴿الرَّحْمَنِ﴾؛ لِأَنَّ (رَحْمَانَ) على وَزْنِ (فَعْلَانِ)، وهذه الصَّيْغَةُ تدلُّ على الْإِمْتِلَاءِ وَالسَّعَةِ، كما يقولون: «غَضَبَان»، و«نَدَمَان»، وما أشبه ذلك، لِلْمُتَمَلِّئِ غَضَبًا وَنَدَمًا.

وفي قَوْلِهِ: ﴿الرَّحِيمُ﴾ دَلِيلٌ على إِصَالِهِ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ. وَرَحْمَةُ الله عَزَّجَلَّ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، فَأَمَّا الْعَامَّةُ فَهِيَ لْجَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ مَرْحُومُونَ بِرَحْمَةِ الله، وَلَوْ لَا رَحْمَةُ الله مَا أَكَلُوا، وَمَا شَرَبُوا، وَمَا اكْتَسَوْا، وَمَا سَكَنُوا، وَلَكِنَّ الله رَحِيمٌ، فَهَيَّا لَهُمْ مَا تَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ مِنَ الْمَعِيشَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَأَمَّا رَحْمَتُهُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَسْتَمِرُّ رَحْمَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا: رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِحُصُولِ مَا تَقُومُ بِهِ أَبَدًا لَهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ: رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِحُصُولِ مَا تَقُومُ بِهِ أَدْيَانُهُمْ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ رَدٌّ عَلَى مُنْكَرِي الرَّحْمَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّحْمَةَ لَيْسَتْ صِفَةً حَقِيقَةً لِلَّهِ، بَلْ هِيَ إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، أَوْ الْإِحْسَانُ نَفْسُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْوَصْفِ الْحَقِيقَةِ، فَإِذَا قِيلَ: «الرَّحْمَنُ» أَي: ذُو الرَّحْمَةِ فَالْأَصْلُ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِهَا حَقِيقَةً، وَلَا يَلْزَمُ مَنْ اتَّصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ أَنْ يَكُونَ مُثَآثِلًا لِلْمَخْلُوقِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ نَاقِصًا؛ لِأَنَّ النِّقْصَ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِي صِفَةِ الرَّحْمَةِ - إِنْ كَانَ - إِنَّمَا ذَلِكَ فِي رَحْمَةِ الْمَخْلُوقِ الَّتِي قَدْ لَا تَكُونُ عَنْ حِكْمَةٍ، فَتَكُونُ نَاقِصَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالدِّينُ هُنَا بِمَعْنَى: الْجَزَاءِ، وَكَمَا يَكُونُ الدِّينُ بِمَعْنَى: الْجَزَاءِ، يَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى: الْعَمَلِ، فَمِنْ مَحِيَّتِهِ بِمَعْنَى الْعَمَلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَمِنْ مَحِيَّتِهِ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ: هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَوْلُهُ: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَي: مَالِكِ يَوْمِ الْجَزَاءِ الَّذِي يُدَانُ فِيهِ كُلُّ عَامِلٍ بِمَا عَمِلَ.

وَأَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُلْكَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكًا لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ مُلْكِيَّتَهُ تَظْهَرُ جَلِيلَةً وَاضِحَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَعْتَرِفُ بِهَا كُلُّ مَخْلُوقٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ النَّفَاقِ﴾ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُنَّ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ [غافر: ١٥-١٧]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة: دليلٌ على أَنَّ الملِكَ في ذلك اليوم -يَوْمُ القيامة- لا يكون لأحدٍ، لا جُزئياً ولا غَيْرَ جُزئِيٍّ، لا حَقِيقَةً ولا مَجَازاً؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهُم يَوْمَ القيامةِ يُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا^(١)، حُفَاةً: ليس في رِجْلٍ أَحَدِهِم نَعَالٌ، وُعرَاةً: ليس عليهم ثِيَابٌ، وُغُرْلًا: لَيْسُوا مَخْتُونِينَ، لا فَرْقَ في ذلك بين السَّيِّدِ والعَبْدِ، ولا بين الرَّاعي والرَّعيَّةِ، ولا بين الأبِّ والابنِ، فكلُّ النَّاسِ على حدٍّ سواء.

وفي قَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أيضًا دليلٌ على أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في ذلك اليومِ تَأَمُّ الملِكَ والسُّلْطَانَ، كما تدلُّ عليه القِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ الصَّحِيحَةُ السَّبْعِيَّةُ، وهي ((مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ))، فهي قِرَاءَةُ صَحِيحَةُ سَبْعِيَّةٍ^(٢)، فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْرَأَ بها أحياناً، لكن لا بِحُضُورِ الْعَامَّةِ؛ لِثَلَاثِ شَوَاشٍ عَلَيْهِم، فَإِنَّ الملِكَ لَهُ مِنَ السُّلْطَةِ والنُّفُوزِ ما ليس للمَلِكِ، لكن الملِكَ أحياناً لا يَمْلِكُ، فيكون مَلِكًا قَاصِرَ الملِكَ، فباجْتِمَاعِ القِرَاءَتَيْنِ يكونُ الكَمَالُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَلِكٌ أَي: ذُو سُلْطَانٍ وَقَهْرٍ وَعِظْمَةٍ وَكَلِمَةٍ نَافِذَةٍ، وَمَلِكٌ ذُو تَصَرُّفٍ كَامِلٍ فِي مَلَكُوتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إِبْتِثَاتُ اليومِ الْآخِرِ، وهو حَقٌّ، والإِيمَانُ به أَحَدُ أَرْكَانِ الإِيمَانِ السَّتَّةِ، فالْيَوْمُ الْآخِرُ حَقٌّ ثَابِتٌ، كما أَنَّ الدُّنْيَا الْآنَ حَقٌّ ثَابِتٌ لا يُنْكَرُهُ أَحَدٌ، فكذلك اليومُ الْآخِرُ الْمُسْتَقْبَلُ الْمَوْعُودُ حَقٌّ ثَابِتٌ، ولا بُدَّ مِنْهُ، كما قال تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فلو كَانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، رقم (٢٨٥٩).

(٢) قرأ عاصم والكسائي بـألف بعد الميم، وقرأ باقي السبعة بدون ألف، كما في «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٢٥).

النَّاسُ خُلِقُوا لِهَذِهِ الدُّنْيَا يَعِيشُونَ فِيهَا مَا يَعِيشُونَ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ
وَاللَّأْوَاءِ وَالْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، لو كانوا خُلِقُوا لِهَذَا فَقَطَّ لَكَانَ ذَلِكَ
نَقْصًا بِالْغَا فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لَأَنَّهُ سَفَهَ وَبَاطِلٌ وَلَعِبٌ، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذَا
الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، وَقَوْلِهِ:
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ وَحُجَّازَةِ عَلَى
هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلْنَاهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ بِشَرْعِ اللَّهِ حَقَّ الْقِيَامِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا بِأَنَّ هُنَاكَ
يَوْمًا يُلَاقِي فِيهِ الْإِنْسَانَ رَبَّهُ، فَيُحَاسِبُهُ عَلَى عَمَلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ
كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمُلْقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَيْضًا إِثْبَاتُ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، وَأَنَّ
الْإِنْسَانَ يُحَاسَبُ عَلَى عَمَلِهِ، وَيُجَازَى عَلَيْهِ، وَهُوَ حَقٌّ ثَابِتٌ، وَلَكِنَّهُ -أَي: الْحِسَابَ-
عَلَى وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: حِسَابُ الْمُؤْمِنِ، وَهَذَا لَا يُنَاقَشُ الْحِسَابَ، وَإِنَّمَا يُخْلَوُ بِهِ الرَّبُّ
عَزَّوَجَلَّ، فَيَكْلُمُهُ وَحْدَهُ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، حَتَّى يُقَرَّرَ بِهَا، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: «قَدْ سَتَرْتُهَا
عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١)، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سِتْرِهِ، مَا أَكْثَرَ الذُّنُوبَ
الَّتِي يَفْعَلُهَا الْعَبْدُ، إِمَّا بَاطِنَةً فِي قَلْبِهِ، وَإِمَّا ظَاهِرَةً فِي جَوَارِحِهِ، لَكِنْ لَا يَعْلَمُ بِهَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رَقْمُ (٢٤٤١)،
وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، رَقْمُ (٢٧٦٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النَّاسُ! وَمَعَ هَذَا فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُنُّ عَلَيْهِ وَيَسْتُرُهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي حِسَابِهِ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

أَمَّا الوجه الثاني من الحِسَاب: فهو حِسَاب الْخِزْيِ وَالْعَارِ -والعياذ بالله- وهو حِسَابُ الْكَافِرِ، فَإِنَّهُ يُخْزَى بِأَعْمَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ: تَرْغِيبٌ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَقَنَ بِأَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَلَى عَمَلِهِ، وَيُثَابُّ عَلَيْهِ حَرِصَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَاجْتَهَدَ، وَرَغِبَ فِيهَا؛ وَتَرْهِيْبٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِأَنَّهُ سَيُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ، وَيَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ عَلَى سَيِّئِهِ فَإِنَّهُ يَخْشَى مِنْ ذَلِكَ، وَيَتَجَنَّبُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ؛ خَوْفًا مِنْ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي يُجَازَى فِيهِ الْعَامِلُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، كَمَا قِيلَ: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»، فَعَلِينَا أَنْ نَأْخُذَ لِهَذَا الْيَوْمِ عُدَّتَهُ، وَأَنْ نَعْمَلَ صَالِحًا يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيُسْعِدُنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ جَعَلَ لِهَذَا الْخَلْقِ مَا لَا يُدَانُونَ فِيهِ، وَيُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ الْأَمْرُ عَبَثًا كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إِمَارَةٌ إِلَى كَمَالِ الْعَدْلِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمُجَازَاةُ: مُجَازَاةُ الْعَامِلِ بِقَدْرِ مَا عَمَلَ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا نَقُولُ: إِنَّ مُجَازَاةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَافِرِ عَدْلٌ مُحَضَّرٌ لَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ، فَالْكَافِرُ عُقُوبَتُهُ الْخُلُودُ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ، لَا يُخْرَجُ مِنْهَا أَبَدًا، وَلَا تَفْنَى

النَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُ فِيهَا أَبَدًا؛ لَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فالآية الأولى في سورة النساء: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وتأييد الخلود يدل على تأييد المكان الذي فيه الخلود.

والآية الثانية في سورة الأحزاب: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].
والآية الثالثة في سورة الجن: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

ولا قول لأحد بعد أن صرح الله عز وجل بتأييد الخلود في نار جهنم، وكل قول يخالف هذا فهو مردود على قائله؛ لأنَّ القائل بالتأييد هو العالم بما سيكون، وهو الخالق عز وجل، فمجازاة الله الكافر بالخلود في النار أبد الأبدين هو عدل، وليس فيه ظلم.

قد يقول قائل: إنك إذا قسست مدة بقاء الإنسان في الحياة الدنيا فإنها لن تكون شيئاً بالنسبة إلى التأبيد الأبدي، فيكون تعذيبه على أكثر من بقائه في الدنيا شيئاً من الظلم!

والجواب عن هذا: أن لا ظلم في ذلك:

أولاً: لأنَّ هذا الإنسان استغرق جميع حياته في الكفر، فيكون من العدل أن يستغرق جميع بقائه في الآخرة في العذاب.

وثانيًا: أَنَّ هذا الإنسان الكافر قد أُرْسِلَتْ إليه الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ معهم الكُتُبُ، وَبَيَّنُّوا للنَّاسِ الطَّرِيقَ، وَرَغَّبُوا النَّاسَ فِي الْحَقِّ، وَحَذَّرُوهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي اخْتَارَ لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ الْأَبَدِيَّ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَافِرَ سَيَبْقَى فِي هَذَا الْمَكَانِ الْأَبَدِيِّ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ هُوَ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧، والأعراف: ١٦٠].

أَمَّا الْجَزَاءُ الْفَضْلِيُّ الَّذِي هُوَ فَضْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِ، فَالْمُؤْمِنُ يُجَازَى بِالنِّسْبَةِ لِلْحَسَنَةِ: الْحَسَنَةُ بَعَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلسَّيِّئَاتِ فَإِنَّهُ تَحْتَ الْمِشِيئَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ تَعَالَى غَفَرَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

إِذَنْ: فَجَزَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ مِنْ نَوْعِ الْجَزَاءِ الْفَضْلِيِّ، وَأَمَّا الظُّلْمُ فَهُوَ مُتَمَتِّعٌ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا، فَيَزِيدَ فِي سَيِّئَاتِهِ، أَوْ يَنْقُصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

الْعِبَادَةُ: هِيَ التَّذَلُّلُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ: طَلْبُ الْعَوْنِ، وَالْإِنْسَانُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ؛ أَمَّا افْتِقَارُهُ إِلَيْهِ فِي الْعِبَادَةِ فَلِأَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ مَادَّةُ سَعَادَتِهِ، وَأَمَّا الْاسْتِعَانَةُ فَلِأَنَّ اللَّهَ

إذا لم يُعْنَهُ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَكِلُهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ وَعَوْرَةٍ، وَلَا قِيَامَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ: ﴿إِيَّاكَ﴾، وَلَوْ جَاءَتْ عَلَى التَّرْتِيبِ لَقَالَ: «نَعْبُدُكَ»، فَلَمَّا قَدَّمَ الْمَعْمُولَ دَلَّ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَتَخْصِيسِ الْعِبَادَةِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْحَصْرَ، أَي: الْاِخْتِصَاصَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مُتَضَمِّنًا لِمَعْنَى قَوْلِ الْإِنْسَانِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُوَافَقَةِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وَلِهَذَا نَقُولُ: لَا إِشْرَاكَ وَلَا ابْتِدَاعَ، فَالْإِشْرَاكُ يُنَافِي الْإِخْلَاصَ، وَالْإِبْتِدَاعُ يُنَافِي الْإِتِّبَاعَ، فَعِبَادَتُنَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِخْلَاصٌ وَاتِّبَاعٌ، لَا شِرْكَ وَلَا ابْتِدَاعَ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ إِذَا أَشْرَكَ بِهَا مَعَ اللَّهِ أَحَدٌ لَمْ تَكُنْ عِبَادَةً لِلَّهِ، وَلَا تُقْبَلُ مِنَ الْعَابِدِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِفْرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِالِاسْتِعَانَةِ، وَوَجْهُهُ: تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ - عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ - الْحَصْرَ، أَي: الْاِخْتِصَاصَ، فَلَا اسْتِعَانَةَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَقُومَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ لَهُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب تحريم الرياء، رقم (٢٩٨٥).

وفي قوله: ﴿وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي للإنسان حالَ العِبَادَةِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ أَنَّهُ مُسْتَعِيْنٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِتَيَسَّرَ لَهُ العِبَادَةُ، وَلِتَكُونَ عِبَادَةٌ؛ لَكُونِهَا مُتَبِعًا فِيهَا الرَّسُولَ ﷺ، مُخْلِصًا لِلَّهِ فِيهَا، وَلِكُونِهِ مُسْتَعِيْنًا بِاللَّهِ عَلَيْهَا.

ولهذا نقول: ينبغي للعابد أَنْ يَسْتَحْضِرَ ثلاثةَ أَشْيَاءَ: الإِخْلَاصَ، وَالْمُتَابَعَةَ، وَالِاسْتِعَانَةَ، فَالِإِخْلَاصُ وَالِاسْتِعَانَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِيُوصَلَ إِلَى اللَّهِ.

أَمَّا الإِخْلَاصُ لِلَّهِ فَإِنَّ يَقْصِدَ الْإِنْسَانُ بِعِبَادَتِهِ وَجَهَ اللَّهِ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَمَّا الِاسْتِعَانَةُ فَإِنَّ يَشْعُرُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَعَانَهُ عَلَى هَذَا، وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ الْقِيَامِ بِهِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ أَعَانَهُ مَا حَصَلَ، وَأَمَّا الْمُتَابَعَةُ فَإِنَّ يَسْتَحْضِرُ كَأَنَّهَا الرَّسُولَ ﷺ أَمَامَهُ، وَهُوَ خَلْفَهُ يَقْتَدِي بِهِ.

فهذهِ ثلاثةُ أُمُورٍ ينبغي للعابدِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحْضِرًا لَهَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْوَنَ لَهُ فِي إِمْتَامِ الْعِبَادَةِ.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ :

١- أَنَّ الْإِنْسَانَ دَائِرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَاسْتِعَانَةِ لِنَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»^(١)؛ فَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ، وَالْمُعُونَةُ لِلْعَبْدِ.

٢- وفي هذه الآية دليلٌ على تخصيصِ الله بِالِاسْتِعَانَةِ، أَي: أَنَّ الْإِنْسَانَ

(١) هو جزء من حديث سبق تخريجه (ص: ٢٤).

لَا يَسْتَعِينُ اسْتِعَانَةً مُطْلَقَةً إِلَّا بِاللَّهِ؛ لَأَنَّ الاسْتِعَانَةَ الْمُقَيَّدَةَ جَائِزَةٌ حَتَّى بغيرِ اللَّهِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُ، وَلِهَذَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ، صَدَقَةٌ»^(١)، فَأَثْبَتَ عَوْنُ الْإِنْسَانِ لِأَخِيهِ، فَالاسْتِعَانَةُ بِمَخْلُوقٍ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا بِأَسْ بَهَا، وَلَا تُنَافِي الْعِبَادَةَ وَلَا الْإِحْلَاصَ، لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِعَانَةٌ مُقَيَّدَةٌ، وَلَيْسَتْ عَامَّةً شَامِلَةً، وَاسْتِعَانَةٌ قَاصِرَةٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهَا عَلَى عَمَلٍ مُعَيَّنٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمُسْتَعَانُ بِهِ.

وعلى هذا: فالاستعانة بأصحاب القبور على قضاء الحوائج مُحَرَّمَةٌ، بَلْ هِيَ مِنَ الشَّرْكِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَصْحَابَ الْقُبُورِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُعِينُوا أَحَدًا وَهُمْ أَمْوَاتٌ، فَهَمُّ بَأَنْفُسِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْمَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا، فَكَيْفَ يَعْمَلُونَ لِغَيْرِهِمْ؟! فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَعِينَ فِي أَمْرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِنْ إِلَّا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٣- وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُثِيرُ فِطْنَةَ الْمُخَاطَبِ وَتُنَبِّهُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَاتِ الْأُولَى الثَّلَاثَ كُلَّهَا فِي سِيَاقِ الْغَيْبَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③، وَلَكِنْ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَهَذَا الْفَتْاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ، وَالْإِلْتِفَاتُ -بَلَا شَكٍّ- يُوجِبُ اسْتِيقَاطَ الْمُخَاطَبِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ أَنْسَابَ الْإِنْسَانِ وَغَفَلَ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ انْتِبَاهٌ، فَإِذَا تَغَيَّرَ الْأَسْلُوبُ فَإِنَّ الدَّهْنَ يَنْصَدِمُ بِهَذَا التَّغْيِيرِ، ثُمَّ يَنْتَبِهُ، فَكَأَنَّهُ صَوْتُ مُنْبِهٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُنَبِّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَا سَيُخَاطَبُ بِهِ، ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولم يقل: «إِيَّاهُ نَعْبُدُ».

٤- وفي هذه الآية دليلٌ مبنيٌّ على الالتفات الذي ذكرناه - وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب - ففيها دليل على أهميّة العبادَةِ والاستِيعَانَةِ، وإخلاصهما لله، كأنَّ هذا الذي أَثْنَيْتَ عليه فيما سبق من الآيات الثلاث - وهو الله عَزَّوَجَلَّ - كأنَّه لِقُوَّةُ إيمانك به أمامك تُخاطَبُهُ، ولا شكَّ أَنَّ الإنسان إذا قرأها في الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، والله تعالى يكون قِبَلَ وجهه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ولكن ليعلم أَنَّ الله تعالى قِبَلَ وَجْهِه، وإن كان هو في السَّمَاءِ فَوْقَ العرشِ، ولا تناقض في ذلك؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾.

٥- وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليلٌ على اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ؛ فَإِنَّهُ لم يقل: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ»، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْأُمَّةِ أَنْ تَتَّفِقَ وَتَجْتَمِعَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِيعَانَةِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٦- وقد يُؤْخَذُ منها: إثباتُ عِلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ فُرِضَتْ قِرَاءَتُهَا فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ، ومنها الصَّلَاةُ الْجَهْرِيَّةُ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا الْإِمَامُ وَالْمَأْمُومُ، ولو جاءت بصيغة الإفراد: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ» لكان في ذلك إخلالٌ بالنسبة للمؤمنين؛ لأنَّ الْإِمَامَ سَيَكُونُ - في هذه الحال - وَحْدَهُ هو الَّذِي يَقُولُ: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ»، فمن المعلوم أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَهُ لَمْ يَنْلُكْهُمْ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا لو كانتِ الْآيَةُ بصيغة الإفراد، أَمَّا إِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَإِنَّ الْمَأْمُومَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ هو الْإِمَامُ عَلَى حَدٍّ سِوَاءٍ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِيعَانَةِ بِهِ.

٧- وفي الآية دليل على أن الإنسان ينبغي أن يستعين بالله في كل شيء، حتى في الأمور الصغيرة، كالذهاب والمجيء والأكل والشرب واللباس، فينبغي للإنسان أن يستعين بالله في كل شيء؛ حتى يكون بذلك مذكرًا لحاجته، متعبداً لربه عز وجل؛ لأن الاستعانة من العبادة، وإذا استعان الإنسان بربه سر له الأمر، وسهله عليه؛ ولهذا يؤمر الإنسان إذا حلف على شيء مستقبل أن يقول: «إن شاء الله»؛ حتى يشعر باستعانته بربه، فإنه إذا قال: «إن شاء الله» كان ذلك عوناً على قضاء حاجته، وفي الصحيحين في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ! فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشَقِّ رَجُلٍ، وَائِمُّ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»^(١)، وهنا لم يقل سليمان عليه السلام: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ اعتماداً على ما في قلبه من العزيمة، فلم تلد إلا امرأة واحدة، جاءت بشق إنسان، لا إنسان كامل، وذلك ليتبين له ولغيره أن الأمر بيد الله، قال النبي ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَخْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ»^(٢).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟، رقم (٦٦٣٩)،

ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (٢٥ / ١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم:

كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (٢٣ / ١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

هذه الآيات الثلاث كلها للإنسان، فسورة الفاتحة سبع آيات: ثلاث منها لله خالصة، وثلاث منها للإنسان خالصة، وآية وسط بينهما، كما جاء في الحديث الصحيح: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَحْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَحْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية بمعنى: الدلالة والتوفيق، فإن كانت مُعَدَّاةً بـ: (إلى) فهي للدلالة، وإن كانت مُتَعَدِّيةً بِنَفْسِهَا فهي للتوفيق والدلالة، وهنا الهداية مُتَعَدِّيةٌ بِنَفْسِهَا، فيكون المرادُ بها: الدلالة والتوفيق، أي: أن الله تعالى يرزقك علماً تهتدي به إلى شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، ويوفِّقك لهذه الشريعة حتى تقوم بها.

وقوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الصِّراطُ: هو الطريق الواسع، والمستقيم: الذي

ليس فيه اغْوَجَاجٌ، ولا اَرْتَفَاعٌ، ولا اَنْحِدَارٌ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ:

١ - في قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يدعوا الله عَزَّجَلَّ بهذا الدعاء: أن يهديه صراطه المستقيم.

٢ - وفي قوله: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أيضاً دليل على أن الإنسان مُفْتَقِرٌ إلى الله عَزَّجَلَّ في الهداية، ويتفرَّع عن ذلك: أنه يجب على الإنسان أن يطرد الإعجاب بنفسه، وألا يقول: «اهتديت لأنني أعرف الحق، وهذا مني!» فيمنُّ باهتدائه على الله عَزَّجَلَّ، وقد أنكر الله عَزَّجَلَّ على الأعراب الذين يمتنون على رسول الله ﷺ أن أسلموا، فقال: ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتد، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

فإن قال قائل: إن قلتم هكذا فتحتُم الأبواب للمُتهاونين والكُسالى الذين إذا دُعوا إلى الحق قالوا: الهداية بيد الله، واحتجوا بذلك!

فالجواب أن نقول: إن الله تعالى لما قال: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، وأرشدنا إلى أن ندعوه هذا الدعاء، لم يرد منا أن نتوقف عن أسباب الهداية، بل نحن نسأل الله الهداية، ونسعى في أسبابها، ولهذا قلنا: إن الهداية هداية دَلَالَةٍ وهداية تَوْفِيقٍ، فهداية الدلالة: التي هي العلم، هل يمكن أن تحصل للإنسان بلا تعب على تحصيله؟ لا، لو قال الإنسان: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَا لَا فِهْلَ مَعْنَى ذَلِكَ: أن يبقى في

بيته، ولا يتحرك؟! بل عليه أن يتحرك ويسعى لأسباب الرزق، كذلك الهداية إذا سألت الله إياها فاسع في أسبابها، فلو سألت الله تعالى أن يرزقك أولاداً فهل تبقى لا تتزوج؟ لا، فلا بُدَّ أن تتزوج حتى تُرزق بالأولاد، فسؤال الشيء من الله لا يستلزم أن يبقى الإنسان جامداً لا يتحرك، ولا يفعل الأسباب التي تُوصل إلى هذا الشيء، إذن: فلا حجة لهذا الذي يحتج بهذه الآية وأشباهها على فسقه وفجوره.

ثم إن الله سبحانه وتعالى إذا حرم الإنسان الهداية فلعلِّمه سبحانه وتعالى أنه ليس أهلاً لها؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، كما أن الله عز وجل جعل الهدى في قلوب أهل الهداية؛ لعلِّمه أنهم أهلاً لذلك، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٣- ومن الفوائد أيضاً التي تُستفاد من الآية الكريمة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أن فيها دليلاً على أن دين الإسلام دينٌ واسعٌ شاملٌ يسعُ لكلِّ أحدٍ؛ لقوله: ﴿الصِّرَاطَ﴾، والصِّرَاطُ في اللغة العربية: هو الطريق الواسع الذي يتسع لجميع السالكين.

٤- وفي الآية: دليلٌ على عموم الإسلام وشموله؛ لأنه شاملٌ لكلِّ ما يتعلَّق بالإنسان في معاشه ومَعَادِهِ، ولهذا كان مُنظَّمًا للعباد فيما يتعلَّق بعبادة الله سبحانه وتعالى، وفيما يتعلَّق بالمعاملة فيما بينهم.

ويَتَفَرَّغُ على هذه الفائدة: الرَّدُّ على مَنْ زَعَمَ بأنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ إنما يُنظَّمُ العملَ فيما يتعلَّق بين العبدِ وربِّه، ويرى أنَّ أُمُورَ الدُّنْيَا لا علاقةَ لها بدينِ الله عز وجل، وهذا خطأ عظيمٌ؛ فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ نظَّم كلَّ شيء، وعَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ كُلَّ شَيْءٍ

تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُؤَيِّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا طَائِرٌ يُقْلِبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عَلِمًا^(١).

ويُدُلُّ عَلَى شُمُولِ الشَّرْعِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ لِكُلِّ شَيْءٍ: أَنَّ أَطْوَلَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ آيَةُ الدِّينِ، وَكُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، فَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا نَظَّمَ الْمُعَامَلَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ نَظَّمَ الْمُعَامَلَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَغَيْرِهِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، بَلْ نَظَّمَ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَهِيمِ غَيْرِ النَّاطِقِ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عُذِبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ رَبَطْنَهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢)، وَثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا^(٣) رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِيَرِّ^(٤)، قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ^(٥) مِنَ الْعَطَشِ، فَزَعَتْ لَهُ بِمَوْقِفِهَا، فَعَفَرَ لَهَا»^(٦)، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفَرَ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ رَغْمَ أَنَّهَا بَغِيٌّ زَانِيَةٌ، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَهُ تَنْظِيمٌ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَبْدِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَرَأَاهُمْ يُؤَبِّرُونَ النَّخْلَ -أَيِ:

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٣/٥)، والطبراني في «الكبير» (١٥٥/٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٨٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أي: زانية.

(٤) يطيف بيئر: يدور حولها.

(٥) أذلع لسانه: أخرجه؛ لشدة العطش.

(٦) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٦٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُلَقِّحُونَهَا بوضع طَلْعِ الْفُحَّالِ فِي ثَمْرِ النَّخْلِ - قال: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا»، فَتَرَكُوهُ، فَنفَضْتُ أَوْ فَنفَضْتُ، قال: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فقال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١)، وهذا يدلُّ على أَنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا مُفَوَّضٌ لِلْعِبَادِ!

والجوابُ عن ذلك: أَنَّ هذا الَّذِي أَشارَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِحِرْفَتِهِ قَدْ يَكُونُ أَعْلَمَ مِنْ عَالِمٍ بِشَرِيعِ اللَّهِ وَأَدْرَى بِهَا، فَالنَّجَّارُ - مثلاً - يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْرِفُ الْخَشْبَةَ حَتَّى يَجْعَلَ مِنْهَا بَابًا، وَالصَّانِعُ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْنَعُ الْحَدِيدَ، فَيَجْعَلُهُ طَائِرَاتٍ وَسَيَّارَاتٍ، أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْعَالَمُ الشَّرْعِيُّ فِي هَذَا، هَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

٥ - وفي قَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ صِرَاطًا غَيْرَ مُسْتَقِيمٍ، وَهُوَ كَذَلِكَ، بَلْ هُنَاكَ سُبُلٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فَهُنَاكَ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ لِلْبَاطِلِ مُتَنَوِّعَةٌ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ وَإِنْتِهَاكَاتٍ وَتُرُوكٍ، وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ طَرِيقٌ وَاحِدٌ، يُوصِلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ.

٦ - وفي قَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ كَامِلٌ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، وَأَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ فِيهِ قُصُورًا فَهُوَ الْقَاصِرُ، وَلَا أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ قُصُورًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَاصِرًا فِي فَهْمِهِ، أَوْ قَلِيلًا فِي عِلْمِهِ، أَوْ سَيِّئًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، أرقام (٢٣٦١) (٢٣٦٢) (٢٣٦٣) من حديث طلحة ورافع وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

في قصده، أمّا حسنُ النِّيَّةِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَفَهْمًا فَإِنَّهُ يَدْرِي وَيَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ لَيْسَ فِيهِ قُصُورٌ، بَلْ هُوَ مُسْتَقِيمٌ لَا اغْوِجَاجَ فِيهِ، وَأَنَّ النَّاسَ لَوْ طَبَّقُوهُ لَكَانُوا عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالسَّادِدِ وَالصَّوَابِ، وَلَكِنَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ السُّبُلُ، وَلَكِنْ قَاصِرُ الْفَهْمِ أَوْ نَاقِصُ الْعِلْمِ أَوْ سَيِّئُ الْقَصْدِ هُوَ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ فِي الْإِسْلَامِ قُصُورًا، فَيَذْهَبُ بِأَتْيِ الْقُشُورِ مِنْ هُنَا وَهَنَا؛ لِيُطَبِّقَهَا فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

٧- وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّجَلَّ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ؛ حَيْثُ جَعَلَ الصِّرَاطَ الْمَوْصِلَ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا لَا مَتَاهَةً فِيهِ وَلَا ضَلَالًا.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يُوصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ بِسُرْعَةٍ، بِخِلَافِ الطَّرِيقِ الْمُعَوَّجِ الَّذِي يَنْحَرِفُ بِالْإِنْسَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ إِيصَالِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ يَكُونُ شَاقًّا وَبَعِيدًا؛ بِسَبَبِ التَّعَرُّجَاتِ أَوْ الطُّلُوعِ أَوْ النُّزُولِ، بَلْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

٨- وفي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا هَادِيَ إِلَّا اللهُ عَزَّجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْهَدَايَةِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟

فَالْجَوَابُ: بَلَى، قَدْ قَالَ اللهُ ذَلِكَ، وَهُوَ حَقٌّ، لَكِنِ الْهَدَايَةُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللهُ لِرَسُولِهِ هِيَ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالشَّرْعِ فَإِنَّهُ يَهْدِي النَّاسَ بِهَذَا الْعِلْمِ إِلَى الشَّرْعِ، فَالدَّلَالَةُ عَلَى الْحَيْرِ لَيْسَتْ هِيَ التَّوْفِيقَ إِلَى

الْحَيْرَ، أَمَّا الْهَدَايَةُ التَّامَّةُ الَّتِي فِيهَا الدَّلَالَةُ وَالتَّوْفِيقُ فَهِيَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ بِتَوْفِيقِهِمْ لَشَرِيعَتِهِ، وَهُمْ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ، ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿[النساء: ٦٩-٧٠].

وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعني: صِرَاطَ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الْحَقَّ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَالضَّالُّونَ: الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ، فَأَخْطَوْا فِي الْعَمَلِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِي الضَّالِّينَ: هُمُ النَّصَارَى.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- وفي الآية الكريمة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ دليلٌ على أَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَهَدُّوا إِلَى الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَقِسْمٌ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَهَدُّوا إِلَى الْحَقِّ عِلْمًا، لَكِنْ لَمْ يُوقَفُوا لِلْعَمَلِ بِهِ، بَلِ اسْتَكْبَرُوا عَنْهُ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وَقِسْمٌ ثَالِثٌ لَمْ يَهْدُوا إِلَى الْحَقِّ لَا عِلْمًا وَلَا عَمَلًا، فَتَعَبَّدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ، فَضَلُّوا، وَهُمْ الضَّالُّونَ، فَمِنْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ، وَمِنْ الضَّالِّينَ: النَّصَارَى.

٢- وفي قَوْلِهِ تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي أن نبحث عن سيرة هؤلاء الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مَنْ هم؟ وكيف كانت حالهم؟ حتَّى نَهْتَدِيَ بِطَرِيقَتِهِمْ.

ويتفرَّعُ على ذلك: الحثُّ على معرفة سيرة النَّبِيِّ ﷺ؛ لَأَنَّهُ خَيْرٌ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وهذه المناسبةُ فَإِنِّي أُحِثُّ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ على قِرَاءَةِ السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ من الْكُتُبِ الْمُوثُوقِ بها، مثل: (البداية والنَّهَاية) لابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ جَيِّدٌ جَدًّا في بابه.

٣- وفي قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أَنَّ نِعْمَةَ الدِّينِ أَكْبَرُ من نِعْمَةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ في الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمِ وَالضَّالِّينَ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمًا عَظِيمَةً في الدُّنْيَا، لكن هذه النِّعَمَ ليست بشيءٍ بِالإِضافةِ إِلَى نِعَمِ الدِّينِ، ولهذا قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وَلَمَّا دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَجَدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ تَأَثَّرَ جَنْبُهُ مِنَ الاضْطِجَاعِ عَلَى سُرِيرِ اللَّيْفِ الَّذِي عِنْدَهُ بَكَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟» قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ، وَكُسْرَى وَفَيْصُرٌ عَلَى أَسْرَةِ الذَّهَبِ! قَالَ: «يَا عُمَرُ! أَمَا تَرْضَى أَنْ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الْآخِرَةُ؟»^(١).

وعلى هذا نقول: إِنَّ النِّعْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الْكَبِيرَةَ الْعَظِيمَةَ هِيَ نِعْمَةُ اللَّهِ تعالى على عِبَادِهِ بِدِينِهِ، وَلَا يَخْفَى عَلَى الْجَمِيعِ أَنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿تَبَنَّى مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، رقم (٤٩١٣)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٩) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿[المائدة: ٣]﴾، فجعل إكمال الدين من تمام النعمة، وهو كذلك.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أن من سلك هذا الصراط فهو في نعمة، في سرور، في انشراح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فمن كان من هؤلاء كان في نعمة وإن كان في ضيق من العيش باعتبار نعمة الجسد؛ لأن النعمة بالدين تقتضي أن يكون الإنسان دائماً منشرح الصدر، مطمئن القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١)، وقال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيُوف.

٥- وفي قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أَسَدُ النِّعْمَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وقال في الآخرين: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فَأَتَى بِالْغَضَبِ عَلَى وَجْهِ الْإِبْهَامِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْمِنَّةُ الْكُبْرَى عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا مِنَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ بِمَا أَعْطَاهُم اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويتفرع على ذلك: أن يحمد الإنسان ربه على كل عمل صالح يفعله؛ لأن ذلك بمعونة الله وبنعمته.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- وفي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمِ ذَنْبِ مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْغَضَبَ؛ حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِوُجُودِ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ يَهْتَدِي، وَلَكِنَّهُ اسْتَكْفَرَ وَاسْتَكْبَرَ.

٧- وفي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْرِفَ سِيرَةَ هَؤُلَاءِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَلِمَاذَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟ وَبِمَاذَا أَخَذَهُمْ؟ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٨- وفي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ، فَكَمَا سَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَعِصِمَهُ مِنْ طَرِيقِهِمْ فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ، وَلْيُبْعِدْ عَنْهُمْ، وَلْيَتَجَنَّبَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ، بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَجَنَّبَ مَا يَخْتَصُّونَ بِهِ حَتَّى فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ، وَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا تَشَبَّهْنَا بِهِمْ فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ، وَفَعَلْنَا مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ فَإِنَّ هَذَا يُجْرُنَا إِلَى أَنْ نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي الْعِبَادَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ التَّشَبُّهَ بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ يُجْرِي إِلَى التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، فَيَهْلِكُ الْإِنْسَانُ كَمَا هَلَكُوا.

٩- وفي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا مُعَادَاةَ هَؤُلَاءِ، وَبُغْضَهُمْ، وَعَدَمُ مُنَاصَرَتِهِمْ، سَوَاءً نَاصَرْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ نَاصَرْنَا هُمْ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَكُلُّ ذَلِكَ حَرَامٌ، لَكِنِ الثَّانِي أَشَدُّ وَأَعْظَمُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٥٠ / ٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَمَّا مُحِبَّتَنَا أَنْ يَنْتَصِرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، إِذَا كَانَ هَذَا الْمُتَنَصِّرُ أَهْوَنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْآخَرِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم: ١-٥]، يعني: يَنْصُرِ اللَّهُ الرُّومَ عَلَى الْفُرسِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْرَحُوا بِذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْرَحُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ مُحِبُّوبٌ إِلَيْهِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْنَا إِذَا أَحْبَبْنَا أَنْ يَنْتَصِرَ بَعْضُ الْكُفَّارِ عَلَى بَعْضٍ؛ لَكُونِهِمْ أَهْوَنَ مِنَ الْآخَرِينَ، وَأَقْلَّ خَطَرًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّ الْجَمِيعَ يُحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَأَنْ نُعَادِيَهُمْ، وَأَلَّا يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَلَاَاءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْمَةِ أَوْلِيَاءِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينٌ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

١٠- وفي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كِلْتَا الطَّرِيقَتَيْنِ سَيِّئَةٌ، يُحِبُّ الْبُعْدُ عَنْهَا، وَالتَّنَزُّهُ مِنْهَا؛ لَا الْاسْتِكْبَارَ عَلَى الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ، وَلَا الْجَهْلَ بِالْحَقِّ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَأَنْ يَتَعَبَّدَ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ.

وطلب العلم قد يكون فرضاً على الأعيان، وقد يكون فرضاً على الكفاية، وقد يكون مستحباً، فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان، فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب، وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج، وكذلك في الزكاة.

وأما فرض الكفاية فهو ما لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمه فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي.

وأما القسم الثالث - وهو السنة - فهو ما يكون فرض كفاية، إذا قام به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقي.

وإنني - بهذه المناسبة - أحث إخواني - ولا سيما الشباب منهم - على أن يحرصوا على العلم الشرعي؛ لأن الناس الآن في حاجة ماسة - بل في ضرورة - إليه؛ لكثرة الجهل البسيط والجهل المركب؛ لأن كثيراً من الناس لا علم عندهم، وكثيراً من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فهم.

وإنني أضرب مثلاً لذلك بما سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل للإنسان إذا كان عنده ماء في أيام الشتاء: ماء دافئ، وماء بارد، الأفضل أن يتوضأ بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن مما يرفع الله به الدرجات، ويكفر به الخطايا: إسباغ الوضوء على المكاره^(١)، قال: فينبغي أن يختار الأبرد؛ لأنه أكره إلى الإنسان، وهذا جهل عظيم، وفهم قاصر، والرسول

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقُلْ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ بالماءِ الباردِ، لكن قال: «إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»، يعني: أَنَّ الإنسانَ لَا يَمْنَعُهُ كَرَاهَةُ اسْتِعْمَالِ المَاءِ عَنْ إِسْبَاغِ الوُضُوءِ، بَلْ يُسَبِّغُ الوُضُوءَ مَعَ كَرَاهَةِ اسْتِعْمَالِ المَاءِ؛ لَشِدَّةِ بُرُودَتِهِ، وَلَا يُرِيدُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَعْدِلَ الإنسانُ عَنِ المَاءِ الدَّافِئِ الْمُنَاسِبِ لِطَبِيعَتِهِ إِلَى المَاءِ البَارِدِ الَّذِي قَدْ يَفُوتُهُ الإِسْبَاغُ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْ قَاعِدَةِ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ أَيْسَرَ فَهُوَ أَفْضَلُ وَأَوْلى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(١)، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ أَصْحَابَهُ، وَيَقُولُ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢)، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُخَيِّرُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا^(٣)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِسْرَ لِلْإِنْسَانِ -إِذَا كَانَ عِنْدَهُ مَاءٌ دَافِئٌ وَمَاءٌ بَارِدٌ- أَنْ يَتَوَضَّأَ بِالمَاءِ السَّاحِنِ، وَوُضُوءُهُ بِالمَاءِ السَّاحِنِ لَيْسَ إِثْمًا، إِذَنْ: فَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَوْ خَيَّرَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا لاختار الدَّافِئَ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْقَوْلُ بِأَنْ يَخْتَارَ المَاءِ البَارِدَ قَوْلًا بَلَا عِلْمٍ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: قَوْلًا بَلَا فَهْمٍ.

لِذَا فَإِنِّي أُحِثُّ إِخْوَانِي -وَلَا سِيَّما الشَّبَابَ- عَلَى الْعِلْمِ، وَالْفَهْمِ، وَالتَّائِي فِي الْأُمُورِ، وَعَدَمِ التَّسْرُّعِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الشَّيْءِ؛ حَتَّى يُتَقْنُوا ذَلِكَ إِتْقَانًا بَيْنًا؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، رقم (٣٠٣٨)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير، رقم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباحثته ﷺ للأثام، رقم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

خطيرٌ، والكلمة الخطأ قد يصعبُ انتِشالُ النَّاسِ منها فيما بعدُ.

١١- وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَنْ عِلِمَ الحقَّ ولم يتَّبِعْهُ أسوأُ حالاً مِمَّنْ جهَلَهُ؛ لأنَّ الأوَّلَ جُعِلَتْ عُقُوبَتُهُ الغَضَبُ؛ حيثُ قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وَيَتَفَرَّعُ على هذا: التحذيرُ من عدمِ عَمَلِ العالمِ بما عِلِمَ؛ لأنَّ العالمَ إذا عِلِمَ قامت عليه الحُجَّةُ، وليس المرادُ هنا بالعالمِ: مَنْ كان عِلْمُهُ واسعاً، بل المراد: كُلُّ مَنْ عِلِمَ بمسألةٍ من مسائل الدين فهو عالمٌ بها، حتَّى وإن كان وَصْفُهُ عامياً، فكلُّ مَنْ عِلِمَ حكماً من أحكام الله عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّ عليه أن يُطَبِّقَهُ، وإن لم يفعل كان مُسْتَحَقّاً لغضبِ الله عَزَّوَجَلَّ غضباً بحسب ما خالف به أمرَ الله.

والله تعالى قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: «غَيْرِ مَنْ غَضِبَتْ عليهم»، كما قال في القسم الأوَّل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليلٌ على أنَّ مَنْ غَضِبَ الله عليه فَإِنَّهُ يغضبُ عليه كُلُّ وليٍّ لله.

وَيَتَفَرَّعُ على ذلك: أَنَّهُ يجبُ علينا- نحنُ المسلمون- أن نغضبَ على كُلِّ مَنْ غَضِبَ الله عليه، وأن نعلمَ بأنَّ كُلَّ مَنْ كان حَرَباً لله فهو حَرَبٌ لنا، وأنَّ كُلَّ مَنْ كان عَدُوًّا لله فهو عَدُوٌّ لنا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١٢- وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على مَهَانَةِ هَؤُلَاءِ، وخَسَّتِهِمْ، ودُنُوِّهِمْ، ولهذا ذُكِرُوا باسمِ المفعول، ولم يُعْطَوْا حقَّ اسمِ الفاعل؛ لأنَّهم مغضوبٌ عليهم، مُهَانُونَ، مَطْرُودُونَ، مُبْغَضُونَ.

١٣ - وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على إثباتِ الغضبِ لله عزَّ وجلَّ، وهو من صفاته الثَّابتة له في كتابه، وأجمعَ عليها السَّلفُ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والغضبُ صفةٌ من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ، تدلُّ على كمالِ سُلْطَانِهِ وقُدْرَتِهِ، وتُستلْزَمُ عُقُوبَةُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا آتَنَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ولا يصحُّ تفسيرُ الغضبِ بالانتقام ولا بإرادة الانتقام؛ لأنَّ الغضبَ شيءٌ ينشأ عنه إرادة الانتقام، ثُمَّ الانتقامُ، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا﴾ أي: أغضبونا، ثُمَّ قال: ﴿آتَنَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٤ - وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارةٌ إلى أَنَّ الضَّالَّالَ صِفةٌ مَقْوُوتَةٌ؛ لأنَّ الْمُؤْمِنَ يسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يعصمه من طريقِ الضَّالِّينَ، فَيَتَفَرَّغُ على ذلك: أَنَّ الْعِلْمَ صِفةٌ كَمَالٍ، وهو كذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ولكن ما هو العلمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ المرءُ الثَّناءَ عليه به؟

الجواب: إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ المرءُ الثَّناءَ عليه به هو العلمُ بِشريعةِ الله، والعلمُ بِأَسْمَاءِ الله وصفاته، والعلمُ بِأَفْعَالِ الله؛ لأنَّ ذلك هو الَّذِي يُحَقِّقُ الْعِبَادَةَ الَّتِي خَلَقَ مِنْ أَجْلِهَا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَأَمَّا الْعِلْمُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْأُمُورِ السُّفْلِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ فَهَذَا لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ إِنْ أَدَّى إِلَى خَيْرٍ وَنَفْعٍ كَانَ مُحْمُودًا، وَإِنْ أَدَّى إِلَى شَرٍّ وَضَرَرٍ كَانَ مَذْمُومًا، وَإِنْ لَمْ يُؤَدِّ إِلَى هَذَا وَلَا إِلَى هَذَا كَانَ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ، إِلَّا أَنْ يَفُوتَ بِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ وَأَصْلَحُ، فَإِنَّهُ قَدْ يُذَمُّ عَلَى ذَلِكَ.

١٥ - وفي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دُونَ أَنْ يُعَلَّقَ الْغَضَبُ عَلَى ضَلَالِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الضَّالَّ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، أَي: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ جَاهِلًا بِالشَّيْءِ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لَكِنْ إِنْ كَانَ مُفَرِّطًا بِتَرْكِ التَّعَلُّمِ فَقَدْ يُؤَاخِذُ عَلَى تَفْرِيطِهِ، لَا عَلَى جَهْلِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ أَحْكَامِ دِينِهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وقد اختلف العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي الرَّجُلِ يَتْرُكُ الْمَأْمُورَ جَهْلًا بِهِ: هَلْ يُؤْمَرُ بِقَضَائِهِ، أَوْ لَا يُؤْمَرُ بِقَضَائِهِ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُؤْمَرُ بِالْقَضَاءِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ لَا يَسْقُطُ بِالْجَهْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْقَضَاءِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرِ الْمُسِيئَ فِي صَلَاتِهِ بِقَضَاءِ مَا كَانَ قَدْ فَعَلَهُ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ يُصَلِّي وَلَا يَطْمِئُنُّ، فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَصَلَّى، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَرَجَعَ، فَصَلَّى كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا أَحْسَنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي

صَلَاتِكَ كُلَّهَا»^(١)، فلم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما سَبَقَ من الصَّلَاةِ، مع أَنَّهُ كَانَ لَا يُصَلِّي عَلَى وَجْهِ مُجْزٍ.

وكذلك المرأةُ المُسْتَحَاضَةُ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَحَاضُ، فَلَا تَطْهَرُ، وَتَدْعُ الصَّلَاةَ فِي وَقْتِ الاسْتِحَاضَةِ مَعَ وُجُوبِهَا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَأْمُرْهَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ، قَالُوا: فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَاهِلَ لَا يُؤْمَرُ بِقَضَاءِ مَا تَرَكَهَ جَهْلًا.

وَمِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى هَذَا: حَدِيثُ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَأَجْنَبْتُ^(٢)، فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدِكَ هَكَذَا»، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالِ عَلَى الْيَمِينِ وَظَاهَرَ كَفَّيْهِ وَوَجْهَهُ^(٣)، فَلَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَضَاءِ مَا صَلَّاهُ بِذَلِكَ التَّيْمُمِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ.

وهذا القول - بلا شك - مُوَافِقٌ لِعُمُومِ قَاعِدَةِ الشَّرِيعَةِ، وَهِيَ: الْيُسْرُ وَعَدَمُ الْعُسْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ أَخْلَ بَوَاجِبَ لِسَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ قُلْنَا: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ قَضَاءُ مَا فَاتَ لَكَانَ فِي هَذَا صُعُوبَةٌ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فِيهِ تَنْفِيرٌ، وَرُبَّمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقُومَ بِالْعِبَادَةِ؛ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَشَقَّةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي: أصابته جنابة.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم هل ينفخ فيها؟، رقم (٣٣٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نعم، لو فُرِضَ أَنَّ الإنسانَ بَلَغَهُ شيءٌ من العلم، ولكنَّهُ تَهَاوَنَ وسَكَتَ، وقال كما يَقُولُ البَطَّالُونَ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فهذا قد نُلْزِمُهُ بِقَضَاءِ مَا فَاتَ؛ مِنْ أَجْلِ تَفْرِيطِهِ وَتَهَاوُنِهِ فِي الْأَمْرِ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَلَا يُفْتَى فِيهَا بِوَجْهِ عَامٍّ لِكُلِّ النَّاسِ، بَلْ تَكُونُ الْفَتْوَى فِيهَا حَسَبَ حَالِ كُلِّ قَضِيَّةٍ بَعَيْنِهَا، وَبِمَكَانِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ مِنَ الْمُفْرَطِ مِنْ غَيْرِهِ.

١٦ - وفي هذه السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي سَمَّاهَا الرَّسُولُ ﷺ: «أُمُّ الْكِتَابِ»^(١)، وَ«أُمُّ الْقُرْآنِ»^(٢) دَلِيلٌ عَلَى مَضْمُونِ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، فَهِيَ أُمٌّ وَفَاتِحَةٌ؛ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى الشَّرَائِعِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَى الرُّسُلِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَعَلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَلَى أَقْسَامِ النَّاسِ، فَكُلُّ مَعَانِي الْقُرْآنِ تَتَضَمَّنُهَا هَذِهِ السُّورَةُ بِالْإِشَارَةِ، وَالذَّلَالَةِ التَّضْمِينِيَّةِ، وَالْإِلْتِزَامِيَّةِ.

ففيها مِنْ تَوْحِيدِ الْأَلُوْهِيَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ ذُو الْأَلُوْهِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ.

وفيها مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَالرُّبُوبِيَّةُ تَكُونُ عَامَّةً، وَتَكُونُ خَاصَّةً، وَقَدْ اجْتَمَعَ التَّوْحِيدُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣)

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فاتحة الكتاب، رقم (١٤٥٧)، والترمذي: كتاب التفسير،

باب سورة الحجر، رقم (٣١٢٤)، وأحمد (٤٤٨/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، رقم

(٤٧٠٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٥/٣٩٤) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فَرُبُّوِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ وَأَمْثَالِهِمَا مِنْ الرُّسُلِ لَيْسَتْ كَرُبُّوِيَّةِ لِفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ؛ لِأَنَّ رُبُّوِيَّةَ مُوسَى وَهَارُونَ وَأَمْثَالِهِمَا مِنَ الرُّسُلِ رُبُّوِيَّةٌ خَاصَّةٌ، بِهَا عِنايةٌ وَتَوْفِيقٌ لِأَمْرِ لَمْ يُوفَّقْ لَهُ أَكْثَرُ الْخَلْقِ.

أَمَّا الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ فِيهَا -أَي: فِي السُّورَةِ- الْأَلُوهِيَّةُ، وَالرَّحْمَةُ، وَالْوَصْفُ بِالْحَمْدِ، وَالشَّانُ، كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ كَمَالِ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا الْيَوْمُ الْآخِرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وَأَمَّا الْعِبَادَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَهِيَ تَشْمَلُ جَمِيعَ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ وَاعْتِقَادَاتٌ، إِمَّا شَيْءٌ يُطْلَبُ إِيجَادُهُ، وَإِمَّا شَيْءٌ يُطْلَبُ اجْتِنَابُهُ، وَكُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي ضَمَنِ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعَ شَيْئًا إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ، وَلَا يَقُومَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ.

وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لِأَنَّ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الرُّسُلُ، وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، ثُمَّ إِنَّ صِرَاطَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ.

وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الرُّبُوبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

وَأَمَّا أَقْسَامُ النَّاسِ فِيهَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى رُسُلِهِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ قَوْلُهُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ① غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فالمهم: أن من تدبر هذه السورة وجدّها كما وصفها رسول الله ﷺ: أمّ القرآن، وفاتحة الكتاب، ولهذا أوجب الله تعالى على لسانِ رسوله ﷺ قراءتها على كلّ مُصلٍّ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديثِ عبادة بن الصّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثّابت في الصّحيحين: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١)، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ»^(٢)، يعني: فاسدة، وهذا يدلُّ على أهميّة هذه السورة وعِظَمِها.

ولكن هناك شيء ينبغي التنبُّه له، وهو أن بعض الناس يَسْتَفْتِحُ بها كلّ شيء، ويجعلها السورة التي يُتَبَرَّكُ بها في كلّ مُناسبة، وهذا شيء من البدع؛ لأنّه لم يَرِدْ عن النبي ﷺ أنّه كان يَسْتَفْتِحُ الأمورَ بها، وإنّما كان يبتدئُ بها قِراءة الصّلاة، نعم، هي رُقِيَّةٌ إذا قُرِئَ بها على المريض أو على اللّديغ بإخلاصٍ فإنّه يتنفعُ بها بإذن الله، والله الموفِّق.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٦)، ومسلم:

كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم -بمعناه-: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٥) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

• • • • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿الْمَرْ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

في هذه الآيات يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وهو القرآن الكريم، وأشار الله سبحانه وتعالى إليه بإشارة البعيد؛ لعلَّو مرتبته، وعظيم منزلته؛ فإنه كلام الله عزَّ وجلَّ الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وقد وصفه الله تعالى في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة.

وسمَّاه الله: كتاباً؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: ليس فيه ريب ولا شك في أنه حق نازل من عند الله.

وفي قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا عذاب الله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإخبار الله تعالى به ورسوله، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة،

﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّكَّاتِ الْوَاجِبَةِ، وَالصَّدَقَاتِ الْمُسْتَحَبَّةِ، وَالتَّقَاتِ اللَّازِمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الرُّسُلِ، مِثْلُ: التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالزَّبُورِ، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: إِيْقَانًا كَامِلًا لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَعِلْمٍ نَافِعٍ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهَدَايَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ، فَأَصْبَحَ مَأْلَهُمْ هُوَ الْفَلَاحُ، وَالْفَلَاحُ: هُوَ حُصُولُ الْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

١ - فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِشَارَةٌ إِلَى الصَّنْفِ الْأَوَّلِ وَالْأَعْلَى مِنْ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ نَحْوُ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَقِسْمٌ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا وَكَفَرُوا بِهِ بَاطِنًا، وَقِسْمٌ كَفَرُوا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَبَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ثُمَّ ثَنَّى بِالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا، وَكَفَرُوا بِهِ بَاطِنًا، وَهَذَا التَّقْسِيمُ مِنْ أَحْسَنِ التَّقَايِمِ، وَأَجْمَعِهَا، وَأَوْضَحِهَا، فَبَدَأَ بِالْأَعْلَى، ثُمَّ بِمَا يُقَابِلُهُ تَمَامًا، ثُمَّ بِمَا هُوَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَأَخَّرَ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ؛ لَطُولِهِ وَلِيَّانِ أَوْصَافِهِمْ حَتَّى يُخْتَرَزَ مِنْهُمْ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَعْجَزَ أَمْرَاءَ الْفَصَاحَةِ وَمَنْ هُمْ الْغَايَةُ فِي الْبَلَاغَةِ لَمْ يَكُنْ بِأَخْرَفٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْأَخْرَفِ الَّتِي

كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِهَا، بَلْ هُوَ مِنْ نَفْسِ الْأَخْرُفِ الَّتِي كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْجَزَهُمْ، فَعَجَزُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وَهَذَا يَشْمَلُ مَا يَكُونُ بِهِ الْإِعْجَازُ وَإِنْ قُلَّ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَعْجَزَكُمْ -أَيُّهَا الْبُلْغَاءُ وَالْفُصَحَاءُ- لَمْ يَأْتِ بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ حَتَّى تَقُولُوا: لَيْسَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ مَعْلُومَةً لَنَا، فَلَا نَسْتَطِيعُ، هَذَا هُوَ الْأَصَحُّ فِي الْحِكْمَةِ مِنْ ذِكْرِ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّورِ، أَمَّا الْحُرُوفُ نَفْسُهَا فَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَهَذِهِ الْحُرُوفُ الْهَجَائِيَّةُ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

٢- وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَلْكَتَبَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ مَرْتَبَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، فَهُوَ أَعْلَى الْكَلَامِ فِي الْفَصَاحَةِ، وَالبَلَاغَةِ، وَمَا يَخْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ.

٣- وَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَلْكَتَبَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَكْتُوبٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢-١٦]، وَهُوَ كَذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ الَّتِي بَأَيْدِينَا.

٤- وفي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ (أَل) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ مَعْرُوفٌ مَعْهُودٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كَانَ مَعْرُوفًا مَعْهُودًا بَيْنَ الصَّحَابَةِ، لَمْ يُفْتَقَدْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ حَرْفًا وَاحِدًا اتَّفَقَ الْقُرَّاءُ عَلَى إِثْبَاتِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَأَمَّا اخْتِلَافُ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَ كُلَّهَا حَقٌّ تَجُوزُ الْقِرَاءَةُ بِهَا.

٥- وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُدًى لِّلنَّاصِيَةِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْاِهْتِدَاءَ بِالْقُرْآنِ مَرْبُوطٌ بِالتَّقْوَى، فَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتَقَى اللَّهَ كَانَ أَهْدَى بِكِتَابِ اللَّهِ.

٦- وفي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلنَّاصِيَةِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُتَّقِي لَا يَهْدَى بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْهُومٌ ﴿٩﴾ وَلِلْيَوْمِذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٧-١٤]، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا إِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى قَلْبِهِ، وَلَمْ يَرِ لَهَا شَأْنًا عَظِيمًا، بَلْ يَقُولُ: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، يَعْنِي: مِثْلَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي تُحْكَى عَنِ الْأَوَّلِينَ، وَيُتَحَدَّثُ بِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ رَانَ عَلَى قَلْبِهِ مَا كَانَ يَكْسِبُهُ مِنَ الْآثَامِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِالْقُرْآنِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتَقَى اللَّهَ كَانَ أَهْدَى بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيدُلُّ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَكُلَّمَا نَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّقْوَى نَقَصَ مِنْ اهْتِدَائِهِ بِكِتَابِ اللَّهِ بِقَدْرِ مَا نَقَصَ مِنْ تَقْوَاهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾

هنا بيّن الله تعالى أوصاف هؤلاء المتّقين، فوصفهم سبحانه بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: بما غاب عنهم ممّا أخبر الله به ورُسُلُهُ؛ لأنّهم يُصدّقون بما أخبر الله به ورُسُلُهُ أكثر ممّا يُصدّقون بما شاهدوه بأعينهم أو سمعوه بأذانهم، وأمور الغيب التي أخبر الله بها ورُسُلُهُ كثيرةٌ معروفةٌ في كتاب الله وفي سُنّة رسول الله ﷺ.

ومن أوصافهم: أنّهم يُقيمون الصّلاة، أي: يأتون بها قائمة تامّة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ويتمّمون ذلك بمكملاتها من المُستحبات.

ومن أوصافهم أيضًا: أنّهم يُنفقون ممّا رزقهم الله عزّ وجلّ على حسب ما تقتضيه الشريعة إنفاقًا دائرًا بين الإفراط والتفريط، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يُخبر الله تعالى في هذه الآية بأن هؤلاء على هدى، وعلى علمٍ ممّا وهبهم الله عزّ وجلّ، وبيّن الله تعالى مآلهم، وهو الفلاح، والفلاح: هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد الآيات الكريمات:

١- أن الإيمان بالغيب من تقوى الله عزّ وجلّ، وهو أساس التقوى؛ لأنّ ضدّ الإيمان الشكّ والتكذيب، فإنّ النَّاسَ فيما أخبر الله به ورُسُلُهُ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ يؤمنون بذلك ويوقنون به، وقسمٌ ينكرون ذلك ويحسدونه، وقسمٌ

يترددون فيه ويشككون فيه، والناجي من هذه الأقسام هو القسم الأول الذين يؤمنون به ويصدقون به.

٢- أن الإيمان بالشئ المشاهد لا يجدي ولا ينفع؛ لأنه إيمان يقتضيه الواقع؛ فلا يمدح الإنسان عليه، فالإنسان الذي يقول: أنا أؤمن بالشمس، وأؤمن بالقمر، وأؤمن بالنجوم لا تمدحه على ما يؤمن به من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن به من الأشياء الغائبة، ولهذا لا ينفع الإنسان إيمانه إذا شاهد الأمر عياناً، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿[غافر: ٨٤-٨٥]، وقال الله تعالى في فرعون لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠)، فقيل له: ﴿ءَاَلْتَنَزَّلَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

٣- فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلك من تقوى الله عز وجل، والصلاة هنا شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة.

٤- أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه الإقامة لها، مثل: أن يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات.

فمن النقص في الأركان الذي يتهاون به الكثير من الناس: الطمأنينة، فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينة، ولا يطمئن، لاسيما في القيام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركعتين وفي غيرها من أركان الصلاة، وأن الصلاة لا تصح بدون الطمأنينة فيهما وفي غيرها من الأركان،

ففي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ، وَقَالَ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَرَجَعَ، فَصَلَّى كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ، فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي! فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئَنَ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١)، وَإِنَّمَا أَمَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْتَدَّ تَوَقُّعُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصَّلَاةِ وَأَحْكَامِهَا؛ حَتَّى يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِنَفْسٍ مُشْرِئَةٍ مُتَطَلِّعَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَرْسَخَ فِي قَلْبِهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ»^(٢)، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ»، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُشَاهِدْهُ ﷺ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ؛ لِأَنَّ مَنْ جَهِلَ هَذِهِ الْأَرْكَانَ فِي صَلَاتِهِ قَدْ يَكُونُ جَاهِلًا لِلْوُضُوءِ، فَأَرْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، الْمَهْمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَطْمِئَنَ فِي هَذِهِ الْأَرْكَانِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصَحُّ دُونَ الطَّمَأْنِينَةِ فِيهَا، فَالكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ يُضَيِّعُ الطَّمَأْنِينَةَ فِي هَذِهِ الْأَرْكَانِ؛ فَيَكُونُ غَيْرَ مُقِيمٍ لِلصَّلَاةِ.

(١) سبق تخريجه (ص: ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب مَنْ رَدَّ، فقال: عليك السَّلَام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصَّلَاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ رَكْعَةٍ، رقم (٤٦/٣٩٧) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن إقامة الصَّلَاة: صلاتُها في المساجد مع الجماعة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا، فَأَمَرَ بِهِمْ، فَيُحَرِّقُوا عَلَيْهِمْ بِحُزْمِ الحَطَبِ بَيُوتَهُمْ»^(١).

وعن أبي هريرة قال: أتى رجلٌ أعمى، فقال: يا رَسُولَ الله! إِنَّه ليس لي قائدٌ يَقودُنِي إلى المسجدِ، فسأل رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ، فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فلما وَلَّى دَعَاهُ، فقال: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» فقال: نَعَمْ، قال: «فَاجِبْ»^(٢)، فَمَنْ لم يَأْتِ بِصَلَاةِ الجماعةِ، مع قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا وَعَدَمِ وُجُودِ عُدْرٍ شَرْعِيٍّ فِي تَرْكِهَا، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُقِيمٍ لِلصَّلَاةِ، فلا يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ الْجَلِيلَةِ.

أَمَّا النِّسَاءُ فلا تَجِبُ عَلَيْهِنَّ صَلَاةُ الجماعةِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ لِأَنَّ الرِّجَالَ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِالاجْتِمَاعِ إِلَيْهَا، أَمَّا النِّسَاءُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَبَيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَّهُنَّ»^(٣)، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ مَأْمُورَةٌ بِأَنْ تَحْضُرَ صَلَاةَ الْعِيدِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ، حَتَّى الْحَيْضُ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ الْحَيْضَ أَنْ يَعْتَزِلْنَ الْمُصَلَّى^(٤)؛ لِأَنَّ مُصَلَّى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم (٦٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٢٥١/٦٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم (٦٥٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلَاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (٥٦٧)، وأحمد (٧٦/٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) يُنْظَرُ: صحيح البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحائض إلى المصلى، رقم (٩٧٤)، وصحيح مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحتها خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠) من حديث أم عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

العيد مسجد، تَبَّتْ له أَحْكَامُ الْمَسْجِدِ كُلِّهَا.

ومن إقامة الصَّلَاةِ: الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا، بَلْ هَذَا مِنْ أَهَمِّ إِقَامَتِهَا، وَأَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ مَعْرُوفَةٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَهِيَ خَمْسَةٌ:

فَالْفَجْرُ: مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَالظُّهْرُ: مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ -أَي: مِيلِهَا إِلَى جِهَةِ الْمَغْرِبِ- حَتَّى يَصِيرَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ بَعْدَ فَيءِ الزَّوَالِ، وَالْعَصْرُ: مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ -أَي: مِنْ صَيُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ- إِلَى أَنْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ، هَذَا وَقْتُ الْاخْتِيَارِ، وَالضَّرُورَةِ: إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ.

أَمَّا صَلَاةُ الْمَغْرِبِ فَوَقْتُهَا: مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ، وَالْعِشَاءُ: مِنْ مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ.

وَطُلُوعُ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ يُمَكِّنُ إِذْرَاكَه بِالْمُشَاهَدَةِ.

وزوال الشَّمْسِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُعْرَفَ بَوَاضِعُ عَصَا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ قَائِمَةً فِي الشَّمْسِ، وَيُنْظَرُ إِلَى ظِلِّهَا، فَمَا دَامَ الظِّلُّ يَنْقُصُ فَالشَّمْسُ لَمْ تَزُلْ، فَإِذَا بَدَأَ الظِّلُّ يَزِيدُ وَلَوْ يَسِيرًا جَدًّا فَقَدْ زَالَتْ الشَّمْسُ، وَحِينَئِذٍ اضْبِطْ مَكَانَ الزِّيَادَةِ، فَإِذَا صَارَ مِنْ مَكَانِ الزِّيَادَةِ إِلَى مُتَنَهَى ظِلِّهَا طُولُهَا فَقَدْ خَرَجَ وَقْتُ الظُّهْرِ، وَدَخَلَ وَقْتُ الْعَصْرِ، أَمَّا انْتِهَاءُ وَقْتُ الْعَصْرِ فَهُوَ مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ، وَهُوَ اصْفِرَارُ الشَّمْسِ؛ أَي: أَنْ تَكُونَ الشَّمْسُ صَفْرَاءَ، وَمِنْ اصْفِرَارِ الشَّمْسِ إِلَى الْغُرُوبِ أَيْضًا مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ.

أَمَّا صَلَاةُ الْمَغْرِبِ فَوَقْتُهَا مِنَ الْغُرُوبِ إِلَى مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ أَيْضًا، وَتَقْرِيْبُهُ فِي السَّاعَةِ: مَا بَيْنَ سَاعَةٍ وَرُبْعٍ أَوْ سَبْعَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً مِنْ

الْغُرُوبِ، إِلَى سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً بَعْدَ الْغُرُوبِ؛
لَأَنَّ طُولَ مُدَّةِ وَقْتِ الْمَغْرَبِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْفُصُولِ.

ومن بعد ذلك يَدْخُلُ وَقْتُ الْعِشَاءِ مُبَاشَرَةً إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ، وبيان ذلك: أن
تَنْصِيفَ مَا بَيْنَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، فَالنِّصْفُ هُوَ مُتَمَتِّهِ وَقْتُ صَلَاةِ
الْعِشَاءِ.

فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا الْمُحَدَّدِ لَهَا شَرْعًا، إِلَّا لِعُذْرٍ
يُبَيِّحُ الْجَمْعَ، فَيَجُوزُ أَنْ يُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ الْأُولَى الَّتِي تُجْمَعُ لَهَا بَعْدَهَا إِلَى دُخُولِ وَقْتِ
الثَّانِيَةِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ الْمُبِيحَ لِلْجَمْعِ يَجْعَلُ وَقْتَ الصَّلَاتَيْنِ وَقْتًا وَاحِدًا، فَمَنْ أَخَّرَ
الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَصَلَّاهَا بَعْدَ الْوَقْتِ بِدُونِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ، فَإِنْ صَلَّاهُ مَرْفُوضَةً
لَا تُقْبَلُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(١)
[الطلاق: ١]، وَقَوْلِهِ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ
هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وَالظَّالِمُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ؛ لِأَنَّهُ ظَلَمَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.

وَيُؤَيِّدُ الْقَوْلَ بِأَنَّ الصَّلَاةَ بَعْدَ وَقْتِهَا لَا تَصِحُّ بِدُونِ عُذْرٍ: قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَخَّرَ الصَّلَاةَ عَنْ
وَقْتِهَا بِدُونِ عُذْرٍ فَقَدْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَيَكُونُ مُرَدَّدًا غَيْرَ
مَقْبُولٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨/١٨)، وأخرجه
بمعناه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على حكم جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)
عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٥ - فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ؛ حَيْثُ نَصَّ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى إِقَامَتِهَا بِخُصُوصِهَا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّصَّ عَلَى الشَّيْءِ بِخُصُوصِهِ يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ كَامِلَةٍ بِهِ، وَعَلَى مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ لَهُ.

٦ - فَضِيلَةُ الْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْمَالِ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، وَأَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ: الزَّكَاةُ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ قَامَ بِهَا وَأَدَّاهَا فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ.

وَيَدْخُلُ فِي الْإِنْفَاقِ أَيْضًا: الْإِنْفَاقُ عَلَى مَنْ يَجِبُ الْإِنْفَاقُ عَلَيْهِ مِنْ زَوْجَةٍ، وَقَرِيبٍ، وَمَمْلُوكٍ.

وإِنِّي - بهذه المناسبة - أُنْذِرُ بَعْضَ النَّاسِ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَيَطْنُونَ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَنْمِيَةٌ لَأَمْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ خَيْرًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أُنْذِرُ هَؤُلَاءِ الْبُخْلَاءِ مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ، وَأُنْذِرُهُمْ مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا الْإِنْفَاقَ عَلَى زَوْجَاتِهِمْ، وَأُنْذِرُهُمْ مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا الْإِنْفَاقَ عَلَى مَنْ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَاقَ عَلَيْهِمْ، وَأُنْذِرُهُمْ مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنَ الْمَالِ: مِنْ إِطْعَامِ جَائِعٍ، أَوْ كِسْوَةِ عَارٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَجُوبَ الْإِنْفَاقِ فِيهِ.

وَلْيَعْلَمْ الْإِنْسَانُ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُهَا يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثِيبُهُ عَلَيْهَا، وَيَأْجُرُّهُ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِيدُ مَالَهُ إِلَّا نِهَاً وَبِرَكَّةً؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ❦

من فوائد وأحكام هذه الآية: أَنَّ هؤلاء الْمُتَّقِينَ الْمُتَّصِفِينَ بهذه الصفات على هُدًى مِنَ اللَّهِ، وعلى بَصِيرَةٍ، وعلى بُرْهَانٍ، وَأَنَّ مَالَهُمُ الْفَلَاحُ، وهو الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وهذا غَايَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِجَ عَنِ الْكَارِ وَأَذْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ نَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ السَّعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ❦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❦

يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَالَهُمْ أَمَّا حَالُهُمْ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، سواء أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ، وذلك لِأَنَّ اللَّهَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وَلَا يُنَافِي هَذَا مَا عَلِمَ مِنْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ كَافِرًا بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، ثُمَّ يَهْدِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى الْإِسْلَامِ، فَيَكُونُ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَدُعَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْصَارِ الدِّينِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيمَنْ كَانَ كَافِرًا، وَقَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، أَمَّا مَنْ كَانَ كَافِرًا، وَلَمْ تَحَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَعَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ سَيُتُوبُ، وَيَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي: جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْخَتَمَ، وَهُوَ الطَّبْعُ بَعْدَ الْإِغْلَاقِ وَالِاسْتِثْنَاءِ، يُخْتَمُ عَلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَبْقَى خَتْمًا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ خَيْرٌ، فَهَؤُلَاءِ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْإِيَانُ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ، فَلَا يَسْتَمِعُونَ إِلَى مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ، أَمَّا الْأَبْصَارُ -وَالْعِيَاضُ بِاللَّهِ- فَجَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا غِشَاوَةً، لَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الَّتِي تَدُلُّهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُؤْمِنَ، سِوَاءِ أُنذِرَ أَمْ لَمْ يُنذَرَ، وَسِوَاءِ رُغِبَ أَمْ لَمْ يُرَغَّبْ؛ لِأَنَّهُ قَدْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يُمَكِّنُ وَصُولَ الْهَدَايَةِ إِلَيْهِ.

٢- ومن فوائد هذه الآية أيضًا: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى لَا يَضِيقَ صَدْرُهُ، وَلَا يَكُونَ فِي نَفْسِهِ حَرَجٌ، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، فالنبي ﷺ وَمَنْ وَرِثَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَيْهِمُ الْبَلَاغُ وَالِدَعْوَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وبعد ذلك لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ ضَلَّ مَا دَامُوا عَلَى الْإِهْتِدَاءِ، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ أَضَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَمَّا اهْتَدَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ، مَعَ بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَامَ بِإِنذَارِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ؛ فَلَمْ يُجِدْ فِيهِمُ الْإِنذَارُ شَيْئًا.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ يَشْرَحُ اللَّهُ لَهُ صَدْرَهُ، وَيُسِّرُ لَهُ أَمْرَهُ، يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ حَتَّى يَفْرَحَ بِهِ وَيَسْتَبَشِّرَ بِهِ، وَيَتَّسِعَ صَدْرُهُ لِقَبُولِهِ، فَيَقْبَلُهُ، وَيُنْفِذُ أَحْكَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَذَا، فَيَضِيقُ صَدْرَهُ حَرَجًا بِمَا سَمِعَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾
[الأنعام: ١٢٥].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا، وَيُضِلُّ آخَرِينَ؟

فالجواب: أَنَّ هذا السؤال لا يَرُدُّ؛ لأنَّ الله تعالى له أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، فله أَنْ يَمُنَّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَهْدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، كما قالت الرُّسُلُ لأَقْوَامِهِمْ: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

ونقول ثانيًا: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَهْدِي إِلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ، وَلَا يُضِلُّ إِلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلضَّلَالَةِ، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فلا يُضِلُّ مَنْ ضَلَّ إِلَّا بِسَبَبٍ مِنْ نَفْسِهِ، يَكُونُ قَلْبُهُ غَيْرَ مُرِيدٍ لِلْحَقِّ، وَغَيْرَ قَابِلٍ لَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْهُ ذَلِكَ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ الشَّقَاءَ وَالضَّلَالَ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْهُدَايَةَ.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا عَلَى حَذَرٍ، وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنْ يَحْشَى مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ، وَالْمَوْتَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ الَّذِي مَنْ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ، وَقَدْ أَضَلَّ قَوْمًا آخَرِينَ.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجزاء في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾.

٨- ومن فوائدها: إثبات حكمة الله؛ فإنه سبحانه وتعالى لم يُعَذِّب هؤلاء إلا لاستحقاقهم العذاب بكفرهم بالله سبحانه وتعالى، وبما يجب عليهم الإيمان به.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ الله بها هذه السورة، وهم: المؤمنون الخالص، والكافرون الخالص، والمؤمنون بالسِتِّهم دون قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴿٨﴾ أَي: بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ
الْآخِرُ﴾، لكن يَقُولُ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩﴾ أَي: مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ
بِقُلُوبِهِمْ، بل هم في قُلُوبِهِمْ مُنْكَرُونَ، لَا يَعْتَرِفُونَ بهذا، وَلَا يُقِرُّونَ به، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.
وقوله: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛
أَي: أَنَّهُمْ فِي عَمَلِهِمْ هَذَا وَسِيرَتِهِمْ هَذِهِ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا، وَمَا يُخَذِّعُونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

وَالْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ وَالْكَيْدُ مَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ، وَهِيَ الْإِيْقَاعُ بِالْخِصْمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يَشْعُرَ، فَهَؤُلَاءِ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِيْمَانِ؛ لِيُخَادِعُوا اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ أَحْسَنُوا
صُنْعًا، وَلَكِنَّهُمْ أَسَاؤُوا صُنْعًا وَسَبِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، فَهَمْ - فِي الْحَقِيقَةِ - خَدَعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَعِبُوا بِهَا، وَغَرُّوَهَا، وَاغْتَرُّوا

بُصْنِعِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ هَذَا الْخِدَاعُ؛ لِأَنَّ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ،
 كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾
 [الطارق: ٨-١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [العاديات: ٩-١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ظَنُّوا
 أَنَّهُمْ خَدَعُوا اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَتَظَاهَرُونَ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، لَا يَخْدَعُونَ
 إِلَّا أَنْفُسَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ غَرُّوْهَا، وَاعْتَرَوْا بِهَا صَنَعُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فَهَذِهِ
 الْمَخَادَعَةُ ضَرَرُهَا وَوَبَالَهَا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي: لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ خَدَعُوا أَنْفُسَهُمْ، حَيْثُ زَيَّنَ لَهُمْ
 سُوءَ عَمَلِهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَي: شَكٌّ وَرَيْبٌ وَنِفَاقٌ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أَي:
 أَعْطَاهُمْ مَرَضًا أَكْثَرَ مِنَ الْمَرَضِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ
 فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا
 وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، فَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَرَضَى
 صَارُوا يَزِدَادُونَ مَرَضًا فَوْقَ مَرَضِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كُلَّمَا كَذَّبُوا شَيْئًا وَأَنْكَرُوا شَيْئًا زَادُوا
 بِذَلِكَ كُفْرًا وَبُعْدًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: مُؤْلِمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أَي: بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ؛ حَيْثُ
 قَالُوا: إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ.

في هذه الآيات الكريمة: يُبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُنَافِقُ، وَالنَّفَاقُ: هو إظهارُ الخير، وإبطانُ الشرِّ، وهو بالنسبة لحقِّ الله نفاقٌ عقديٌّ مُخْرِجٌ عن الإيمان، وقد يَكُونُ نِفَاقًا عَمَلِيًّا كالرياء، وبالنسبة لحقِّ المخلوق نفاقٌ عَمَلِيٌّ لا يُخْرِجُ من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١).

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَاتِ:

١- إثباتُ النِّفاقِ في بَعْضِ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، والنِّفاقُ لم يَحْدُثْ في هذه الأُمَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَوِيَتْ، وَكَانَ لَهَا سُلْطَانٌ وَعِزَّةٌ وَرِفْعَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ النِّفَاقُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ حَيْثُ انْتَصَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَوَجْهُ هَذَا ظَاهِرٌ؛ فَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِنَّمَا يُنَافِقُ؛ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ الْخَوْفُ عَلَى النَّفْسِ وَالْمَالِ إِلَّا مَعَ قُوَّةِ الْمَخَوْفِ مِنْهُ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْأَقْوَالَ لَا تَنْفَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْقَلْبُ مُطَابِقًا لَهَا، فَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ قَوْلًا، وَلَكِنْ قَلْبُهُ مُنْكَرٌ لَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللهِ، بَلْ لَا يَزِيدُهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا تُجْرَى عَلَى الظَّاهِرِ، أَيْ: عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الْإِنْسَانِ دُونَ الْأَمْرِ الْبَاطِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ الْبَاطِنَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ عَزَّجَلَّ، أَمَّا الْأَمْرُ الظَّاهِرُ فَيَعْلَمُهُ كُلُّ مَنْ ظَهَرَ لَهُ، وَلِهَذَا لَمْ يَقْتُلِ النَّبِيُّ ﷺ الْمُنَافِقِينَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، رقم (١٠٧/٥٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال حين استُؤذِن في قَتْلِهِمْ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

ويتفرَّع على ذلك: أننا نُجْري النَّاسَ في أَحْكامِ الدُّنْيَا على ظاهِرِ حالِهِمْ، ولا نُسَيِّئُ الظَّنَّ بأحدٍ إذا لم تَظْهَرْ لَنَا قِرائِنُ قُوَّةٍ تُزِيلُ هَذَا الْأَصْلَ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُ يَحْزُمُ سُوءُ الظَّنِّ بِمُسْلِمٍ ظَاهِرُهُ الْعَدَالَةُ.

ومن هنا أَحْذَرُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ الَّذِينَ يُطْلِقُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: هَذَا مُنَافِقٌ، هَذَا كَافِرٌ، هَذَا كَذَّابٌ... إلخ، وَيَصِفُونَهُ بِأوصافٍ تُخَالِفُ ظَاهِرَ حالِهِ؛ بِنَاءً على ما يَظُنُّونَهُ في قَلْبِهِ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَحْكُمَ إِلَّا بِمَا ظَهَرَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ»^(٢)، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَحْكُمَ إِلَّا بِمَا هُوَ ظَاهِرٌ، أَمَّا مَا هُوَ بَاطِنٌ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَرْمِيَ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ حالِهِمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا وَجَدَتْ قِرائِنُ قُوَّةٍ تُبَيِّنُ كَذِبَهُ، فَهَذَا يُحْكَمُ لَهُ بِمَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْمُنَافِقَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ هَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُسْلِمٌ؟ يَرَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ عَنِ الْمُنَافِقِ: إِنَّهُ مُسْلِمٌ؛ لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ ظَاهِرًا، وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا عَيْرَ بَيْتٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤/٦٣) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام الخصوم، رقم (٧١٦٩)، ومسلم: كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، رقم (١٧١٣) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٥-٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، وهذا البيت يَضُمُّ زَوْجَةَ لُوطَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهي تَتَظَاهَرُ بالإِسْلَامِ، وليست بِمُؤْمِنَةٍ، كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]، فَسَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا الْبَيْتَ: بَيْتَ مُسْلِمِينَ، بل سَمَّى مَنْ فِيهِ: مُسْلِمِينَ، مع أَنَّ فِيهِ هَذِهِ الزَّوْجَةَ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُؤْمِنَةٍ.

وَالْمُنَافِقُونَ - في الحقيقة - مُسْلِمُونَ اسْتِسْلَامًا عَمَلِيًّا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُجَالِفُونَ فِي الظَّاهِرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ، كما قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال النبي ﷺ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(١)، وعلى كُلِّ حَالٍ فَالْمُنَافِقُ إِذَا لَمْ يُظْهِرْ نِفَاقَهُ وَيُعْلِنَهُ فَهُوَ مُسْلِمٌ ظَاهِرًا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ.

٥- ومن فَوَائِدِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وهي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ مِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا صَنَعُوا مَا صَنَعُوا؛ مُحَادَعَةً وَمَكْرًا وَكَيْدًا، فَيَدُلُّ هَذَا عَلَى ذِمِّ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ وَالْكَيْدُ أُمُورٌ مَمْقُوتَةٌ وَمَذْمُومَةٌ، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١/٢٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بَحِثْ يَكُونُ فِي مُقَابِلِ مَنْ يَخْدَعُكَ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَخْدَعَ مَنْ خَدَعَكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ولهذا نقول: إِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ، وَيُذَكَّرُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ وَدٍّ لِيُبَارِزَهُ صَرَخَ عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ لِأُبَارِزَ رَجُلَيْنِ، فَظَنَّ عَمْرُو أَنَّ مَعَهُ آخَرَ، فَالْتَمَتَ، فَضَرَبَهُ عَلِيٌّ حَتَّى قَتَلَهُ^(١)، فَإِنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خِدَاعٌ، لَكِنَّهُ خِدَاعٌ لِمَنْ يَحْسُنُ خِدَاعُهُ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لَهُ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْحَذَرُ مِنْهُمْ، وَمِنْ خِدَاعِهِمْ، وَأَلَّا يَأْخُذُوا بِظَاهِرِ أَقْوَالِهِمْ أَوْ بِظَاهِرِ أَفْعَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ مَكْرٍ وَخِدَاعٍ.

٦- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: بَيَانُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا يَقُولُ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كَمَا أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: الْحَذَرُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنْ يَحْتَرِزَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِالْأَسْرَارِ وَالْأُمُورِ الْمُهَمَّةِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطِيعُوا بِهِ، وَأَنْ يُلْقَوْهُ فِي الْمُهْلَكَةِ.

٧- وَمِنْ فَوَائِدِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْمَى عَنِ الضَّلَالَةِ، فَيَظُنُّ أَنَّ مَا فَعَلَهُ حَسَنٌ، وَهُوَ سَيِّئٌ، وَهُوَ لَاءِ هُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ أَعْمَالًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِمَ نَزِنَ حُسْنَ الْفِعْلِ وَقُبْحَهُ؟

(١) انظر: القصة في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٥)، بنحوها.

قلنا: نَزِنُ ذلك بكتاب الله، وسُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ، وما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ؛
فإنَّ خَيْرَ الكُتُبِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرُ الهدي هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠)

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أَنَّ قُلُوبَ الْمُنَافِقِينَ مَرَضَى، والمرض هنا ليس مَرَضًا عَضُويًّا يَكُونُ به الأَلَمُ
الجَسَدِيُّ، ولكنَّه مَرَضٌ مَعْنَوِيٌّ يَرْفُضُ به القَلْبُ الحَقَّ، وَيَقْبَلُ الباطِلَ، وهذا وَصْفُ
مُنْطَبِقٍ تَمَامًا على الْمُنَافِقِينَ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ القَلْبَ عليه مَدَارُ الصَّلاحِ والفَسَادِ بالنِّسْبَةِ
لِلْعَمَلِ؛ لأنَّ الله تعالى وَصَفَ القَلْبَ بِالْمَرَضِ، وهو دَلِيلٌ على أَنَّهُ إِذَا مَرَضَ مَرَضٌ
معه الجَسَدُ، وَإِذَا صَحَّ صَحَّ معه الجَسَدُ، وَيُؤَيِّدُ هذا: قولُ النَبِيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي
الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ
القَلْبُ»^(١).

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِقَلْبِهِ، فَيَنْظُرَ:
أَصَحِيحٌ هو، أم مَرِيضٌ؟ فإن كان مَرِيضًا فَلْيَحْرِصْ غَايَةَ الحِرْصِ على طَلَبِ الشِّفَاءِ
له، وإن كان صَحِيحًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ على ذلك، وَلْيَسْأَلْهُ الثَّباتَ عليه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة،
باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩/١٠٧) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ونحن نُشاهد أنَّ الإنسان إذا مَرِضَ عُضْوٌ من أَعْضائه مَرَضًا جِسْمِيًّا ذهب إلى كُلِّ طَبِيبٍ؛ من أجل أنْ يَحْصُلَ على شِفَاءٍ من هذا المَرَضِ، ولكنَّ مَرَضَ الْقَلْبِ لا يَهْتَمُّ به كَثِيرٌ من النَّاسِ، مع أنَّ مَرَضَ الْقَلْبِ أشَدُّ خَطَرًا، وأَعْظَمُ فَتْكًا من مَرَضِ الْبَدَنِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الإنسان إذا لم يَحْرِصْ على عِلاجِ مَرَضِ قَلْبِهِ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ بزيادةِ المَرَضِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، ولا شَكَّ أنَّ هذه الْعُقُوبَةُ أَعْظَمُ من الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ الْوَلَدِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ، وكَثِيرٌ من النَّاسِ يَغْفُلُ عنها، فكَثِيرٌ من النَّاسِ يَظُنُّونَ أنَّ الْعُقُوبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ، كالأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، والحَقِيقَةُ أنَّ الْعُقُوبَةَ بِمَرَضِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِهَا أَشَدُّ وَأَعْظَمُ من الْعُقُوبَةِ بِمِثْلِ تِلْكَ الْأُمُورِ، بل إِنَّ كَثِيرًا من النَّاسِ يَكُونُ قَلْبُهُ مَيْتًا، يُصَابُ بِالمَصَائِبِ من الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَغير ذلك من المَصَائِبِ المَادِّيَةِ المَحْسُوسَةِ، ولا يَرْعَوِي ولا يَرْتَدِّعُ عَمَّا هو عليه من الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَدْلٌ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُجَازِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ بزيادةِ المَرَضِ إِلَّا حَيْثُ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَرِيضَةً عَفْنَةً، ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُمْ﴾، فَاتَى بِالفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى تَفَرُّعِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَمَا يُبْتَلَوْنَ بِزيادةِ مَرَضِ الْقَلْبِ يُبْتَلَوْنَ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، وهو الْعُقُوبَةُ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وهو عَذَابُ أَلِيمٍ مُؤَلِّمٍ، ولا يُقَاسُ بِأَلَمِ الدُّنْيَا وَعُقُوبَتِهَا، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إِبْثَاتُ السَّبَبِ وَأَنَّ لِلْأَسْبَابِ تَأْثِيرًا فِي مُسَبِّبَاتِهَا؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، والبَاءُ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ، ولا شَكَّ أَنَّ ارْتِبَاطَ الْمُسَبِّبَاتِ

بأسبابها وترتّبها عليها من مُقتَضيات حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ونحن نَعْلَمُ جميعاً أن من أسماء الله: (الحكيم) الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعها، ومن ذلك: ترتيبُ المُسَبِّباتِ على أسبابها.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: الرَّدُّ على مَنْ أنكَرُوا تأثيرَ الأسبابِ، وقالوا: إنَّ الأسبابَ ليس لها أثر في مُسَبِّباتها، وظنُّوا أنَّ هذا هو التَّوْحِيدُ، وأنَّ إثباتَ تأثيرِ الأسبابِ في مُسَبِّباتها نوعٌ من الشُّرْكِ، ونحن نقول: إنَّ تأثيرَ الأسبابِ في مُسَبِّباتها ليس تأثيراً ذاتياً كان منها، ولكنه تأثيرٌ وسيلة، فالأسبابُ وسيلةٌ لَحُصُولِ المُسَبِّباتِ، والذي جعلها سبباً لمُسَبِّباتها هو اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قد تتخلَّفُ المُسَبِّباتُ عن أسبابها بقضاء الله وقدره، أفلا ترى إلى النَّارَ المُحْرِقَةَ تَكُونُ بَرْدًا وسلامًا بأمر الله، كما في قِصَّةِ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين أَضْرَمَ قَوْمُهُ النَّارَ لِيُحْرِقُوهُ، وألقوه في النَّارَ فِعْلاً، ولكنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِلنَّارِ التَّيَّ أَلْقَوْهُ فِيهَا: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت بَرْدًا وسلامًا، ﴿بَرْدًا﴾ لم تُحْرِقْهُ، ﴿وسَلَامًا﴾ لم تُؤْذِهِ، قال أهلُ العِلْمِ: لو قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولم يَقُلْ: ﴿وسَلَامًا﴾ لكانت بَرْدًا مُؤْذِيًا له أو مُؤَثِّرًا عليه ضارًّا به، ولكنه قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وسَلَامًا﴾، فكانت بَرْدًا لَطِيفًا لا يضرُّه ولا يتأثَّرُ به، وهذا من تمامِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو أكبرُ دَلِيلٍ على أنَّ الأشياءَ لا تُؤثِّرُ تأثيراً ذاتياً بنفسِها، وإنَّها تُؤثِّرُ بتقديرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنت إذا أثبتَّ الأسبابَ على هذا الوجهِ لم تَكُنْ مُثَبِّتًا مع الله تعالى فاعِلاً، بل الأسبابُ ومُسَبِّباتُها كُلُّها مَفْعُولَاتُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٨- ومن فوائدِ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مَعْرِفَةُ سُوءِ النَّتَاجِ وَالْعَوَاقِبِ لِلْكَذِبِ، وأنَّ الكَذِبَ سَبَبٌ لِلْعَذَابِ، ولكن لا شكَّ أنَّ الكَذِبَ

تَتَفَاوَتْ مَرَاتِبُهُ، وَإِذَا تَفَاوَتْ مَرَاتِبُهُ تَفَاوَتْ عُقُوبَاتُهُ، فَالْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
-مَثَلًا- أَعْظَمُ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْكَذِبُ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ إِتْلَافُ
مَالٍ أَوْ إِتْلَافُ أَنْفُسٍ أَعْظَمُ مِنَ الْكَذِبِ الَّذِي لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ الْكَذِبَ كُلَّهُ حَرَامٌ، وَلَا يَصَحُّ تَقْسِيمُ مَنْ قَسَمَ الْكَذِبَ مِنَ الْعَامَّةِ
إِلَى كَذِبٍ أَبْيَضٍ وَكَذِبٍ أَسْوَدَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْكَذِبَ الْأَبْيَضَ هُوَ الْكَذِبُ الَّذِي
لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ إِتْلَافُ مَالٍ وَلَا إِتْلَافُ نَفْسٍ، وَإِنَّ الْكَذِبَ الْأَسْوَدَ هُوَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ
عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَنَقُولُ: إِنَّ الْكَذِبَ كُلَّهُ أَسْوَدٌ، وَلَيْسَ فِي الْكَذِبِ شَيْءٌ مَمْدُوحٌ،
سِوَا تَرْتَّبِ عَلَيْهِ إِتْلَافُ مَالٍ أَوْ أَنْفُسٍ، أَوْ ظُلْمٌ لِأَحَدٍ، أَمْ لَمْ يَتَرْتَّبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَيَدُلُّ
لِذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَعَلَ الْكَذِبَ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ
وَمِنْ عَلَامَتِهِمْ، فَقَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا
أُوتِيَ مَخَانٌ»^(١).

وَيَدُلُّ لِهَذَا: أَنَّ جَمِيعَ الْعُقَلَاءِ يُنْكِرُونَ الْكَذِبَ، وَلَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ خُلُقًا
لَهُمْ، أَلَا تَرَى إِلَى أَبِي سُفْيَانَ حِينَ قَدِمَ عَلَى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ
هِرَقْلُ عَنْ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَاتِهِ، وَحَالِ أَصْحَابِهِ، فَلَمْ يَشَأْ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
بِكَلِمَةٍ كَذِبٍ، فَتَوَثَّرَ عَلَيْهِ^(٢)، وَكُلُّ الْعُقَلَاءِ يَذُمُّونَ الْكَذِبَ، وَلَا يَرْضَى أَحَدٌ مِنْهُمْ
أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ كَذَّابٌ.

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ، وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي

(١) سبق تخريجه (ص: ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، رقم (٧)،
ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هِرَقْلَ، رقم (١٧٧٣ / ٧٤).

إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(١).

والكُذُوبُ المعروفُ عند النَّاسِ بالكُذِبِ لا يوثقُ بخبره حَتَّى وإن كان صادقًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَحْكُمُونَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِغَالِبِ أَحْوَالِهِ، وَيَصِفُونَهُ بِغَالِبِ أَخْلَاقِهِ، فعلى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَبَعَدَ عَنِ الْكَذِبِ كُلِّهِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ، مَا تَضَمَّنَ الظُّلْمَ مِنْهُ وَمَا لَمْ يَتَضَمَّنْهُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَي: قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَائِلُ لِلْمُنَافِقِينَ هَذَا الْقَوْلَ؛ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَنْ قَالَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ، فَكُلُّ مَنْ قَالَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْوِشَايَةِ، وَالْكَذِبِ، وَالْخِيَانَةِ، وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِظْهَارِ الْكُفْرِ أَمَامَ الْكَافِرِينَ، قَالُوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَسْلَمَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْحَرْبِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَسْلَمَ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ وَالْبُغْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ، نُصْلِحَ طَرِيقَنَا وَسِيرَتَنَا مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤].

وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، حَيْثُ حَصَرُوا حَالَهُمْ فِي الْإِصْلَاحِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. واللفظ لمسلم.

فَقَابَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَوْلَ بِقَوْلٍ أَبْلَغَ مِنْهُ؛ حَيْثُ حَصَرَ الْإِفْسَادَ فِيهِمْ، وَصَدَّرَهُ بِ: ﴿أَلَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْكِيدِ، فَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وَصَدَّقَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ! فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ فِيهَا الْفِتْنَةَ بِمَا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ.

من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١ - أَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَدْ يَأْتِيهِمْ مَنْ يَنْصَحُهُمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ حَالَهُمْ.

٢ - أَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَوَجْهُ الْإِفْسَادِ مِنْ هَؤُلَاءِ: أَنَّهُمْ يُعْطُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَلْسِنَةً طَيِّبَةً وَقَوْلًا مَعْسُولًا، فَيُظَنُّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَيُفْضِي إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِهِ، وَلَكِنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ، وَيَحْصُلُ بِهَذَا الْفَسَادُ؛ حَيْثُ يَحْصُلُونَ عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْشُرُونَهَا بَيْنَ الْكُفَّارِ.

وَمِنْ إِفْسَادِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ أَيْضًا: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ تُمَحَّى شَرِيعَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ وَالتَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ نِظَامٍ يُخَالِفُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ، فَالْمُنَافِقُونَ يُحَاوِلُونَ بِكُلِّ جُحُودِهِمْ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ۖ ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ

فَإِنْ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿[النساء: ٦٠-٦٣]، فَاَلْمُنَافِقُونَ لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَبْقَى شَرِيعَةُ اللَّهِ هِيَ الْحُكْمَ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ تَحْتَ سَمَائِهِ، وَلَكِنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَهُوَ كُلُّ مَا خَالَفَ شَرِيعَةَ اللَّهِ مِمَّا سَنَّهُ الْبَشَرُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا -أعني: رُجُوعَ النَّاسِ إِلَى غَيْرِ شَرِيعَةِ اللَّهِ فِي التَّحَاكُمِ بَيْنَهُمْ- فَسَادٌ عَظِيمٌ، فِيهِ الْفَوْضَى، وَفِيهِ الظُّلْمُ، وَفِيهِ الْجَوْرُ؛ لِأَنَّ كُلَّ حُكْمٍ يُخَالِفُ حُكْمَ اللَّهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ جَوْرٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْقِسْطِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَيْهِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وَمِنْ إِفْسَادِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ: أَنَّهُمْ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَدَبَةٍ قَوْلِيَّةٍ أَوْ فِعْلِيَّةٍ، صَرِيحَةٍ أَوْ تَلْمِيحِيَّةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وَهُمْ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا لِشَخْصِهِ، لَا لِأَنَّهُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَهَا، وَيَرَوْنَ أَنَّ مَنْ قَامَ بِهَا فَإِنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْأَذْيَةِ، وَلَكِنَّهُمْ -بِحَمْدِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَنُصْرَتِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ- لَا يَضُرُّونَ النَّبِيَّ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فَهَمْ لَا يَضُرُّونَ الرَّسُولَ ﷺ بِأَذْيَتِهِمْ.

وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُمْ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ؛ خَوْفًا مِنْ أَذِيَّتِهِمْ، فَإِنَّا نَعْلَمُ كَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْذُونَ أَتْبَاعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ مِنَ التَّمَسُّكِ بِشَرِيعَتِهِ ﷺ.

وَإِذَا كَانُوا يُؤْذُونَ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبْرَ عَلَى أَذِيَّتِهِمُ الْقَوْلِيَّةَ أَوْ الْفِعْلِيَّةَ، التَّصْرِيحِيَّةَ أَوْ التَّلْمِيحِيَّةَ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَاعِلٌ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ.

وَمِنْ إِفْسَادِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ: أَنَّهُمْ يُثَبِّطُونَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَنْ قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ يُوَافِقُونَهُمْ فِي الْكُفْرِ، فَالْكُلُّ كَافِرٌ، لَكِنْ هَؤُلَاءِ مُحَادِّعُونَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَالْكَافِرُونَ صُرَحَاءُ أَشْجَعُ مِنْهُمْ، يُعْلِنُونَ كُفْرَهُمْ وَلَا يُبَالُونَ، وَهُمْ يُثَبِّطُونَ عَنِ قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ.

وَمِنْ إِفْسَادِ هَؤُلَاءِ -أَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ- فِي الْأَرْضِ: أَنَّهُمْ يُوَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَوَلَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ الْكُفَّارَ إِخْوَانُهُمُ الْحَقِيقِيُّونَ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُمْ يَتَوَلَّوْنَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَوَلَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَوَلَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ، لَا فِي الْبَاطِنِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَوَلِّيَهُمْ لِلْكَافِرِينَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ قُوَّةً، وَيَزِيدُهُمْ ثَبَاتًا فِي مُجَاهَدَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ نَصْرَ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ.

وَأَنْوَاعُ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ كَثِيرَةٌ، يَعْرِفُهَا مَنْ يَتَّبِعُ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَكَمَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَكَمَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ،

وكما في سُورَةِ التَّوْبَةِ، وكما في سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وكما في سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ، نَسْأَلُ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَحْمِيَ الْإِسْلَامَ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَأَنْ يَنْصُرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ.

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دَعْوَى مِنْهُمْ، يُنْظَرُ: هل يُصَدِّقُهَا الْوَاقِعُ، أو لَا يُصَدِّقُهَا؟ فَيَبَيِّنَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُصَدِّقُهَا الْوَاقِعُ.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَدْعُو إِلَى بَاطِلٍ فَإِنَّمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ
كُلَّ إِنْسَانٍ يَدْعُو إِلَى فُسَادٍ فَإِنَّمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صَلاَحٍ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ يُوزَنُ الصَّلاَحُ وَالْفُسَادُ، وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ؟

قُلْنَا: بِالرَّجُوعِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فِيهِمَا يُعَرَفُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ،
وَيُعَرَفُ الصَّلاَحُ مِنَ الْفُسَادِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنَّ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ تَعَالَى الْقَائِلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ الْمُرَادُ بِهِمُ: الْمُؤْمِنُونَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،
وَقَدْ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي الْجَوَابِ عَلَى مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ: ﴿أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ
السُّفَهَاءُ﴾، وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، يَعْنِي: لَنْ نُوْثِقَ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ؛ لِأَنَّهُمْ سُفَهَاءُ،

وليسوا راشرين -أي: ليس عندهم رُشدٌ، بل هم في سَفَهٍ-، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتأمل في الفرق بين قوله هنا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وقوله في الآية التي قبلها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هناك نفى الشعور عنهم؛ لأنَّ الإفساد أمرٌ ظاهر معلوم يُدرك بالحسِّ والحواسِّ الظاهرة، أمَّا الإيَّانُ فإنَّه أمرٌ باطن يُدرك بالبصيرة الباطنة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فأبطل الله تعالى دَعواهم بأنَّ المؤمنين سُفَهَاءُ، وبَيَّنَّ أنَّهم هم السُّفَهَاءُ، وحَصَرَ السَّفَهَ فيهم، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ أي: لا غيرهم، ولكنهم في عَمَى وضلالٍ، لا يَعْلَمُونَ أنَّهم سُفَهَاءُ، ولهذا اسْتَمَرُّوا على ما هُمْ عليه من الضلال والعمى.

من فوائد الآية الكريمة:

١- أن هؤلاء المنافقين قد دُعُوا إلى الحقِّ، ودُعُوا إلى الإيمان، ولكنهم -لكبريائهم، وعُظرتهم، واحتقارهم غيرهم- يُجيبون مَنْ يدعُوهم إلى ذلك بأنَّهم لا يُؤمنون كما آمَنَ السُّفَهَاءُ.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء المنافقين يدَّعون أنَّ الإيمان سَفَهٌ، يدَّعون ذلك إمَّا عن اعتقاد، وإمَّا عن إضلال للخلق؛ فيحتملُ أنَّ الله تعالى أعَمَّى بصيرتهم، فرأوا الحقَّ باطلاً، ويحتملُ أنَّهم يَرَوْنَ الحقَّ حقًّا، ولكن لم يُوفِّقُوا لاتباعه، وهذا هو الأقرب.

إِذَنْ: فهم يُريدون بوصفِ المؤمنين بالسُّفَهَاءِ، يُريدون بذلك: تنفير النَّاسِ من المؤمنين، ومن طريقتهم، وهي: الإيمان بالله.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ لِتَنْفِيرِ الْمُنَافِقِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ عِدَّةَ طُرُقٍ، منها: عَيْبُ أَتْبَاعِهِ، كما في هذه الآية.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُرَدَّ عَلَى ذِي الْبَاطِلِ بَاطِلُهُ، وَيُيَنَّنَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَى الْبَاطِلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

٥- ومن فوائد الآية: أَنَّ السَّفَهَ وَصَفَ رَدِيءٍ، كُلُّ أَحَدٍ يَنْفِرُ مِنْهُ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَكِنْ مَا هُوَ السَّفَهُ؟ السَّفَهُ كُلُّ السَّفَهِ أَنْ يَرْغَبَ الْإِنْسَانُ عَنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَعَنِ الْمِلَّةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وَلِهَذَا نَقُولُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْغَبُ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ سَفِيهٌ مَهْمَا بَلَغَ فِي الذِّكَاةِ، وَمَهْمَا بَلَغَ فِي الْإِدْرَاكِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ رَاشِدًا عَاقِلًا عَقَلَ تَصَرُّفٍ وَتَدْبِيرٍ لَكَانَ مُتَّبِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ: الْمُرَاوَعَةُ، وَالذَّجَلُ، وَالتَّمْوِيهِ، فَهَمَّ إِذَا ﴿لَقُوا﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴿وَمَدُّهُمْ﴾، وَخِدَاعًا لَهُمْ، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ طَوَاعِيَتُهُمْ أَيْمَةَ الْكُفْرِ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يَعْنِي: وَلَسْنَا مُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أَيْ: مُسْتَهْزِءُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، نَسَحَرُ مِنْهُمْ، وَنَلْعَبُ بِعُقُولِهِمْ، هَكَذَا زَعَمُوا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

واستَهْزَأَ اللهُ بِهِمْ يَعْزِلُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ، يَتَخَذُ هُزُوءًا، فَيُمْلِي لَهُمْ، وَيُمْهِلُ لَهُمْ، وهذا تَفْسِيرٌ بِلازِمُ الاستَهْزَاءِ، وإِلَّا فَالاستَهْزَاءُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الثَّابِتَةِ لَهُ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، وَلَا زِمُهُ: أَنَّ اللهَ يُمְهِلُ هَؤُلَاءِ، وَيَمُدُّهُمْ وَيَدْعُهُمْ فِي هَذَا الطُّغْيَانِ يَضِيعُونَ وَيَتِيَهُونَ.

من فَوَائِدِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

١ - بَيَانُ مُرَاوَعَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ؛ حَيْثُ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ قَوْلًا، وَيَقُولُونَ لِشَيْطَانِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ قَوْلًا آخَرَ مُضَادًّا لَهُ، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وَهَذِهِ غَايَةُ الْمُرَاوَعَةِ، ففِيهَا خِدَاعٌ لَهُؤُلَاءِ وَلِهَؤُلَاءِ: خِدَاعٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَخِدَاعٌ لِلْكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّ خِدَاعَهُمُ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ كَخِدَاعِهِمُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مَعَ الْكُفَّارِ، فَهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ حَقًّا، وَهُمْ كَافِرُونَ حَقًّا.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهِمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤْخَذُ بِظَاهِرِهِ، فَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا قَالَ لَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ: «آمَنَّا» تَرَكُوهُمْ وَظَاهِرَهُمْ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَامِلُهُمْ عَلَى ظَاهِرِهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّهُ اسْتُؤْذِنَ فِي قَتْلِهِمْ، فَقَالَ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

وَهَكَذَا الْأَحْكَامُ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى الظَّاهِرِ، لَا عَلَى الْبَاطِنِ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَتَكُونُ الْأَحْكَامُ عَلَى الْبَاطِنِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ

مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ؛ فَإِنَّا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١).

٣- ومن فوائدهما: أَنَّ هؤلاء الْمُنَافِقِينَ لَا يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، بل يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وَلَكِنَّهُمْ فِي خِطَابِ الْكَافِرِينَ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذا ظَاهِرٌ فِي عَقْدِ الْمَوَالَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ الْمَعِيَّةَ تَقْضِي الْمُنَاصَرَةَ وَالْمَوَالَةَ، فَهُمْ مَعَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءُ مُنَاصِرُونَ، لَكِنْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وَمَا يُدْرِينَا فَلَعَلَّهُمْ يُرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾ يَعْنِي: آمَنَّا بِالطَّاعُوتِ.

٤- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَسْتَهْزِئُ بِمَنْ يَسْتَهْزِئُ بِهِ وَبِعِبَادِهِ، حِينَ قَالَ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وَهَذَا الْوَصْفُ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ - وَهُوَ الْاسْتِهْزَاءُ - عَلَى قَاعِدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ السَّلَفِيَّةِ يُجْرَى عَلَى ظَاهِرِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ غَيْرِهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، فَالْوَاجِبُ إِجْرَاؤُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا اللَّاتِقِ بِاللَّهِ، وَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَسْتَهْزِئُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الِاسْتِهْزَاءَ، وَهُوَ اسْتِهْزَاءُ حَقِيقَتِي يَلِيقُ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَيْسَ اسْتِهْزَاءٌ يَتَضَمَّنُ نَقْصًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَكُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ كَمَالٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وَلِهَذَا لَا تَجِدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَصِفُ نَفْسَهُ بِالِاسْتِهْزَاءِ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالِاسْتِهْزَاءِ فِي مُقَابَلَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِعِبَادِهِ؛ لِيُبَيِّنَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَقْوَى مِنْهُمْ وَأَعْظَمُ، فَإِذَا سَخِرُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ،

والاستِهْزَاءُ إِذَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُسْتَهْزِئِ كَانَ صِفَةً كَمَالٍ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَصِفَ بِهِ أَكْمَلُ مِنَ الْآخَرِ وَأَقْوَى، وَأَنَّ الْآخَرَ يُعَامَلُ بِمِثْلِ مَا يُعَامَلُ بِهِ غَيْرُهُ.

٥- ومن فوائد الآيتين: بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ جَعَلَ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَهْزَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ تَعَالَى اسْتَهْزَأَ بِهِمْ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ ثَابِتٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بَلْ إِنَّ جَزَاءَ اللَّهِ عُمُومًا دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَصَاةِ عَدْلٌ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلطَّائِعِينَ فَضْلٌ.

وإِنِّي بِمُنَاسَبَةِ هَذِهِ الْآيَةِ أَقُولُ: إِنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ: أَنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَمْ فِيمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَيَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ فَإِنَّ حَقِيقَتَهَا تُخَالِفُ حَقِيقَةَ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ جِنْسِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصِّفَةَ تَابِعَةٌ لِلْمَوْصُوفِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ؛ فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ، لَا يَجُوزُ -مَثَلًا- أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذِهِ صِفَةٌ لَا تَلِيْقُ بِاللَّهِ، فَالْوَاجِبُ نَفْيُهَا وَتَحْرِيفُهَا إِلَى مَعْنَى آخَرَ؛ لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا بِذَلِكَ صِرْنَا نَحْكُمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي صِفَاتِهِ بِعُقُولِنَا، لَا بِمَا بَلَّغَنَا عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ؛ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الْهُدَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَقَالَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وَقَالَ: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

صَرِّطَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴿[إبراهيم: ١]﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ﴿[إبراهيم: ٤]﴾، وَقَالَ: ﴿كِتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿ص: ٢٩﴾، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّنَا، وَلَا يَسُوعُ لَنَا أَنْ نَحْكُمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعُقُولِنَا، بَلْ نَقُولُ: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، وَآمَنَّا، وَصَدَّقْنَا؛ فَوَظِيفَتُنَا نَحْوُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ نَقُولُ: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، وَآمَنَّا، وَصَدَّقْنَا، وَالْأَنْحَرَفَ ظَوَاهِرِ النُّصُوصِ إِلَى مَعَانٍ نُعَيِّئُهَا بِعُقُولِنَا، وَنَحْكُمُ بِهَا عَلَى رَبِّنَا، كَمَا أَنََّّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْوَ هَذِهِ النُّصُوصِ أَلَّا نَعْتَقِدَ فِيهَا تَمَثُّلًا، أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُثَالٌ لَخَلْقِهِ فِيهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿الشورى: ١١﴾، فَحَنُّ نَعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَنَّه لَا يَسْتَوِي الْمَخْلُوقُ مَعَ الْخَالِقِ فِي أَيِّ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَّحَتْ بِحَدَرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبَعِيدِ - وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ فِيهِمْ قَرِيبًا - لَلتَّبَرُّؤِ مِنْهُمْ، وَالْبُعْدِ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِشَارَةَ لِلْبَعِيدِ تَارَةً تَكُونُ لَعُلَّوْ مَنْزِلَةَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ، وَتَارَةً تَكُونُ لَدُنُو مَنْزِلَتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أَيُّ: أَخَذُوا الضَّلَالَةَ، وَتَرَكُوا الْهُدَى، فَسَلَكَوا طَرِيقَ الضَّلَالِ، وَتَرَكُوا طَرِيقَ الْهُدَى، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ بِالْإِشْتِرَاءِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمْ سَلَكَوا هَذِهِ الطَّرِيقَ عَنْ مَحَبَّةٍ وَشَغَفٍ، كَمَا يُحِبُّ الْمُشْتَرِي أَنْ يَحْصُلَ عَلَى السِّلْعَةِ الَّتِي

يَشْتَرِيهَا، وَالْمُرَادُ بِالضَّلَالَةِ هُنَا: مَا خَالَفَ الْحَقَّ، وَبِالْهُدَى: مَا وَافَقَ الْحَقَّ.
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا نَتِيجَةَ هَذَا الْفِعْلِ: ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحْدَرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾،
 بَلْ خَسِرُوا خُسْرَانًا عَظِيمًا، وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا.

من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بَيَانُ سَفَهِ الْمُنَافِقِينَ؛ حَيْثُ اخْتَارُوا الضَّلَالَةَ، وَتَرَكُوا الْهُدَى، وَكُلُّ إِنْسَانٍ
 يَسْلُكُ هَذَا الْمَسْلَكَ فَإِنَّهُ سَفِيهٌ بِلَا رَيْبٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ
 إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَحْرِصُونَ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ ضَلَالَةٌ، سَوَاءً أَكَانَ
 مِنَ الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ الْعَامَّةِ، أَمْ كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الصَّغِيرَةِ، حَتَّى الْوَسَائِلِ الَّتِي يَتَوَصَّلُونَ
 بِهَا إِلَى إِضْلَالِ الْخَلْقِ يَأْخُذُونَهَا وَيَسْلُكُونَهَا.



ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ مَثَلًا مُطَابِقًا لِحَالِهِمْ تَمَامًا، فَقَالَ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ
 نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وَهَذَا الْمَثَلُ
 مُطَابِقٌ لِحَالِهِمْ تَمَامًا، وَهُوَ مِنْ أَمْثَالِ التَّمْثِيلِ، كَمَا فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، فَهَذَا رَجُلٌ اخْتَجَعَ
 إِلَى نَارٍ يَسْتَنْدِفُ بِهَا وَيَسْتَنِيرُ بِهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعَهُ مَا يَسْتَنِيرُ بِهِ، فَاسْتَوْقَدَ نَارًا مِنْ
 شَخْصٍ، أَيْ: طَلَبَ أَنْ يُوقَدَ لَهُ نَارًا، فَأَوْقَدَ لَهُ النَّارَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ ضَوْوُهَا مِنَ الشُّعْلَةِ
 طَفِئَتِ الشُّعْلَةُ، فَبَقِيَ فِي ظُلْمَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي نُورٍ، وَبَقِيَتْ حَرَارَةُ النَّارِ الَّتِي قَدْ
 يَكُونُ فِيهَا ضَرَرٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «بِنَارِهِمْ»، أَيْ: بَقِيَتْ
 النَّارُ بِحَرَارَتِهَا، وَذَهَبَ النُّورُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الشُّعْلَةِ الَّتِي انْطَفَأَتْ، وَبَقُوا فِي ظُلُمَاتٍ

لَا يُبْصِرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا فِي ظُلُمَاتٍ؛ لَأَنَّ انْطِفَاءَ النُّورِ بَعْدَ وُجُودِهِ يُجَدِّثُ ظُلْمَةً، وَلَا سِيَّامًا عِنْدَ انْطِفَائِهِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ.

فهؤلاء المُنَافِقُونَ ليس عندهم نُورٌ فِي قُلُوبِهِمْ، إِنَّمَا يَسْتَفِيدُونَ مَا يَسْتَفِيدُونَهُ مِنَ النُّورِ مِنْ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَقَارِبِهِمْ أَوْ جِيرَانِهِمْ، فَيَسْتَضِيئُونَ بِهِ لِحَظَةً، وَلَكِنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالضَّلَالَةِ، يَسْتَضِيئُونَ بِهِ لِحَظَةً، ثُمَّ يَنْطَفِئُ، فَيَبْقَى ذَلِكَ حَرَارَةً فِي قُلُوبِهِمْ؛ لَأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ نُورٌ يَهْتَدُونَ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿صُمٌّ﴾ يعني: لَا يَسْمَعُونَ الْهُدَى، ﴿بَكْمٌ﴾ لَا يَنْطِقُونَ بِهِ، ﴿عُمَىٰ﴾ لَا يُبْصِرُونَهُ، فَتَنَّى عَنْهُمْ طُرُقَ الْهِدَايَةِ كُلَّهَا، وَقَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، فَهَذِهِ حَالُ الْمُنَافِقِ، لَا يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَلَا يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ لَوْ سَمِعَهُ، وَلَا يُبْصِرُهُ، وَإِنْ أَبْصَرَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَى.

فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

١ - يَضْرِبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَمْثَالُ هُنَا، فَيُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مِنَ الْبَلَاغَةِ أَنْ يَضْرِبَ الْمُتَكَلِّمُ الْأَمْثَالَ الْمَحْسُوسَةَ لِلْمُخَاطَبِ؛ لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ؛ لِأَنَّ إِدْرَاكَ الشَّيْءِ الْمَحْسُوسِ أَقْرَبُ مِنْ إِدْرَاكَ الشَّيْءِ الْمَعْقُولِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْقِدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣]، فَالْأَمْثَالُ مُهِمَّةٌ فِي تَعْلِيمِ الْمُخَاطَبِ؛ لِتَقْرِيبِ الْمَعَانِي إِلَى ذِهْنِهِ، وَتَصَوُّرِهَا.

٢- ومن فوائدهما: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسَ لَهُمْ نُورٌ ذَاتِيَّ يَسْتَضِيُّونَ بِهِ، وَإِنَّمَا نُورُهُمْ مِنْ نُورٍ خَارِجِيٍّ يُضِيءُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَخْبَوْنَ، وَيَبْقَوْنَ فِي ظُلْمَةٍ، فَتَشْتَدُّ الظُّلْمَةُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ النُّورِ الَّذِي أَضَاءَ لَهُمْ.

٣- ومن فوائدهما: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِذَا اسْتَضَاءُوا بِهَذَا النُّورِ الَّذِي يَأْخُذُونَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ يَلُوحُّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْهُدَى، وَلَكِنْ لِعِلْمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِحَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَيَسُوْا أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ؛ لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الزَّغَلِ، وَالْأَسْرَارِ الْحَيِثَةِ، يَذْهَبُ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَيَدْعُهُمْ.

وعلى هَذِهِ الْفَائِدَةِ تَتَفَرَّغُ فَائِدَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ، وَهِيَ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ تَطْهِيرًا كَامِلًا مِنْ كُلِّ زَغَلٍ وَخَبَثٍ، وَأَنْ يَعْتَنِيَ بِطَهَارَةِ قَلْبِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْتَنِيَ بِطَهَارَةِ بَدَنِهِ وَثِيَابِهِ؛ لِأَنَّ طَهَارَةَ الْقَلْبِ عَلَيْهَا الْمَدَارُ، وَبِهَا تَكُونُ طَهَارَةُ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ.

٤- ومن فوائد الآيتين السَّابِقَتَيْنِ: بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَا يَصِلُ إِلَيْهِمُ الْهُدَى مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ، فَهُمْ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَهُ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اهْتَدَوْا بِهِ، بُكْمٌ لَا يَنْطِقُونَ بِهِ، بَلْ يَنْطِقُونَ بِالْبَاطِلِ، وَمَا يَنْطِقُونَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ بَاطِلًا، لَا يُرِيدُونَ بِهِ حَقِيقَةَ مَعْنَاهِ، وَهُمْ عُمِّيٌّ لَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ، وَلَوْ أَبْصَرُوا الْحَقَّ مَا انْتَفَعُوا بِهِ.

٥- ومن فوائدهما: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ قَدْ رَأَوْا أَنَّهُمْ عَلَى صَوَابٍ، وَعَلَى حَقٍّ، وَعَلَى طَرِيقٍ صَحِيحٍ؛ وَلِهَذَا لَا يَرْجِعُونَ عَنْ غِيَّهِمْ، بَلْ يَبْقَوْنَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَنِيَ دَائِمًا بِالتَّنْقِيبِ وَالنَّظَرِ فِي عَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ صَوَابٌ، أَوْ خَطَأٌ؟ فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَلْيَسْتَمِرَّ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَلْيَتُوبْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَرْجِعْ إِلَى الصَّوَابِ أَيْنَمَا كَانَ.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي الْمَثَلِ الثَّانِي:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعُهم فِي ءَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

هَذَا الْمَثَلُ الثَّانِي لِطَائِفَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: لِحَالِ أُخْرَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ، ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ مَثَلًا بِصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ، أَي: مَطَرٍ نَازِلٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا الصَّيْبُ فِيهِ ظُلُمَاتٌ: ظُلُمَةُ الْمَطَرِ، وَظُلُمَةُ السَّحَابِ، وَظُلُمَةُ اللَّيْلِ، وَفِيهِ -أَيْضًا- رَعْدٌ وَبَرْقٌ، وَهَذَا الرَّعْدُ رَعْدٌ شَدِيدٌ فِيهِ صَوَاعِقُ، وَالصَّوَاعِقُ: عِبَارَةٌ عَنْ كَشْفِ حَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَبَيَانِ أَسْرَارِهِمْ، وَخُبَيْهِمْ، وَعَمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالْوَعِيدِ لِمَنْ عَصَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ.

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَجْعَلُونَ جُنَّةً لَا تُجْنِيهِمْ، وَيَسْتَتِرُونَ بِسِتْرِ لَا يَنْفَعُهُمْ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْدِعُهم فِي ءَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَسْمَعُوا الصَّاعِقَةَ لَمْ تَنْزِلْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَخْطَؤُوا فِي هَذَا التَّقْدِيرِ.

وهذه الآية كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فيظنون كُلَّ آيةٍ نَزَلَتْ في وَصْفِ يُبَيِّنِ عُيُوبَهُمْ، وَيَهْتِكُ أَسْتَارَهُمْ، يظنُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمَعْنَى بِذَلِكَ، فَيَمْشِي فِي النَّاسِ وَكَأَنَّهُ خَائِفٌ حَذِرٌ، ولكن هذا لَا يُغْنِيهِ شَيْئًا.

ثُمَّ هَذَا الْبَرَقُ -لِسِدِّتِهِ، وَقُوَّتِهِ- يَقَعُ عَلَى بَصَرٍ ضَعِيفٍ لَا يَتَحَمَّلُ، لَيْسَ عِنْدَهُ قُوَّةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَى تَحْمِيلِ الْإِضَاءَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، وَالْبَصَرُ الضَّعِيفُ يَتَأَثَّرُ بِكُلِّ نُورٍ، وَكُلَّمَا قَوِيَ النُّورُ قَوِيَ تَأْثِيرُهُ، وَأَنْظُرْ إِلَى الْأَعْشى إِذَا خَرَجَ، أَوْ أَنْظُرْ إِلَى ضَعِيفِ الْبَصَرِ إِذَا خَرَجَ إِلَى الشَّمْسِ نَجْدُهُ يَنْكَسِفُ بَصَرُهُ، وَتَهَلُّ دُمُوعُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْوَى عَلَى تَحْمِيلِ هَذَا النُّورِ، فَهَمُ كَذَلِكَ بَصَرُهُمْ ضَعِيفٌ، ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ النُّورَ قَوِيًّا، وَالْبَصَرَ غَيْرَ مُقَاوِمٍ لَضَعْفِهِ، فَيَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ؛ لِسِدِّتِهِ، وَضَعْفِ الْبَصَرِ، وَعَجْزِهِ عَنِ الْمُقَاوِمَةِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَهَمُ يَتَهَيَّزُونَ الْفُرْصَةَ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمَشْيَ مَعَ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ، وَبَعْدَ هَذَا النُّورِ الْعَظِيمِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَمْعٌ، وَبِأَبْصَارِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَصَرٌ، ﴿إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

١- أَنَّ حَالَهُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ حَالٌ ضَعِيفَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ الْمُقَاوِمَةَ، وَلَا الْقِيَامَ بِشَرْعِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٢- أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالذُّعْرِ وَالرُّعْبِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ كُلَّ وَعِيدٍ لَهُمْ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْذَارٍ لَهُمْ أَيْضًا، فَهَمُ جُبْنَاءُ

ضَعَفَاءُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُقَاوِمُوا الْحَقَّ؛ لِقُوَّتِهِ أَمَامَهُمْ، وَضَعْفِهِمْ أَمَامَهُ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ فَائِدَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ، وَهِيَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَقَبَّلَ الْحَقَّ حَيْثُمَا كَانَ، وَأَنْ يَكُونَ عَازِمًا عَلَى تَطْبِيقِهِ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ شَاقًّا عَلَى نَفْسِهِ، أَمْ هَيِّئًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ - كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَصْفِهِ - يَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣- ومن فوائدهما: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَالْمَطَرِ، غَيْثٌ لِلْأَرْضِ تَنْتَفِعُ بِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ أَيْضًا، وَهَكَذَا وَحْيُ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرْعُهُ الَّذِي نَزَلَ، هُوَ كَالْغَيْثِ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقْبَلُ هَذَا الْمَطَرَ، وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الثَّمَرَاتِ الْعَظِيمَةَ، وَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا الْوَحْيِ، وَيَكُونُ كَالْأَرْضِ الصَّمَاءِ الَّتِي تَبْتَلِعُ الْمَاءَ، وَلَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَوْصَافٍ أُخْرَى بِالنِّسْبَةِ لِهَذَا الْمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة التي فيها المثل الثاني: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ قَدْ يَسْتَخْصِيوْنَ بَعْضَ الشَّيْءِ أحيانًا بِمَا يَرَوْنَ مِنَ النُّورِ الْحَاصِلِ مِنَ الْوَحْيِ، وَلَكِنْ سَرَعَانَ مَا يَزُولُ وَيَذْهَبُ، مَعَ أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهِ عَلَى مَشَقَّةٍ، حَتَّى إِنَّهُ يَكَادُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾، وَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى مَشِيئَتَهُ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: «مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ».

ولكن مَشِيئَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، فلا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا مَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ مَشِيئَتُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فَبَيَّنَ أَنَّ مَشِيئَتَهُ مَقْرُونَةٌ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وهو كذلك.

ولكن حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَنَا وَمَفْهُومٌ نُشَاهِدُهُ وَنَعْرِفُهُ، ومنها ما هُوَ خَفِيٌّ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّا قَاصِرُونَ فِي الْعِلْمِ وَالْإِدْرَاكِ، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَمَا يَرُدُّ عَلَى الذَّهْنِ أَحْيَانًا مِنَ الْإِشْكَالِ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ أَوِ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ إِنَّهَا يَنْشَأُ مِنْ قُصُورِ الْإِنْسَانِ أَوْ تَقْصِيرِهِ، وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَحَثَ بَحْثًا جَدِّيًا يُرِيدُ بِهِ الْحَقَّ لَتَبَيَّنَ لَهُ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ مَا لَا يَتَبَيَّنُ لِلْغَافِلِ الْمُعْرِضِ الَّذِي لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يُشَكَّكَ النَّاسَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي تَخْفَى حِكْمَتُهَا، كما يُعْرِفُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يَأْتُونَ، وَيَقُولُونَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي كَذَا؟ مَا الْحِكْمَةُ فِي كَذَا؟ نَحْنُ لَا نُسِيءُ الظَّنَّ بِأَحَدٍ، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ؛ لِيُشَكَّكَ الْعَامَّةُ فِيهِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، لَا لِقَصْدٍ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَعْنَى الْمَطْلُوبِ الَّذِي يَسْأَلُ عَنْهُ.

ومع هذا فَإِنِّي أَقُولُ: إِنْ عَلِمْتَ حِكْمَةَ الشَّيْءِ الْوَاقِعِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَحِكْمَةَ الشَّيْءِ الْوَاقِعِ بِشَرْعِ اللَّهِ وَدِينِهِ، فَهَذَا -بِلا شَكٍّ- مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ فَسَلِّمِ الْأَمْرَ وَكِلِ الْأَمْرَ إِلَى عَالِمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ إِلَّا لِحِكْمَةِ عَظِيمَةٍ، عَلِمَهَا مَنْ عِلِمَهَا، وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا.

٦- ومن فَوَائِدِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقُدْرَتُهُ عَزَّجَلَّ قُدْرَةٌ تَامَّةٌ، لَا يَغْتَرِبُهَا عَجْزُ بَوَاجِهٍ مِنَ الْوُجُوهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَمْرُهُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يُكْرَرُهُ،

بل إذا أمر بشيء كان بلحظة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فتأمل قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني: لا يقول للشيء: «كُن»، ثم يقول له: «كُن» مرة ثانية، بل إذا قال: «كُن» كان كلمح البصر.

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] تجذ أنها زجرة أو صيحة واحدة، يُبعث فيها الخلائق كلهم؛ فيحضرون للقضاء بينهم بقدره الله عز وجل، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا يُستثنى من هذا شيء أبداً، فكل شيء الله قادر عليه.

ويتفرع على الإيمان بهذه الفائدة: أن الإنسان ينبغي أن يسأل ربه كل ما يرى فيه مصلحة، ولا يستصعب الأمر، ولا يقول: هذا لن يكون! هذا بعيد! ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعِزِّمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(١)، فلا أحد يكره الله حتى يقال: إِنْ شِئْتَ فافعل، وإِنْ شِئْتَ فلا تفعل. ولا يقال: «إِنْ شِئْتَ» إلا لمن هو مُكره، فيُنظر: هل يشاء، أو لا يشاء؟ أمّا الذي يفعل باختياره وإرادته بقدرته فإنه لا يقال في حقه: «إِنْ شِئْتَ»، ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا مُكْرَهَ لَهُ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٧٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، رقم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾

وَجَّهَ اللَّهُ الْخِطَابَ إِلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْعِبَادَةُ: هِيَ التَّذَلُّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى الْمُتَعَبَّدِ بِهِ، وَهِيَ الْعِبَادَاتُ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْإِنْسَانُ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّيَامِ، وَالْحَجِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ الرَّبُّ: هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يَعْنِي: الَّذِي أَوْجَدَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيُّ: خَلَقَهُمْ وَأَوْجَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعَدَمِ كَمَا أَوْجَدَكُمْ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أَيُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَصِلُوا إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ، وَهِيَ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالتَّقْوَى: اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - بَيَانُ أَهْمِيَّةِ هَذَا الطَّلَبِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا يُصَدَّرُ الْخِطَابُ بِالنِّدَاءِ إِلَّا لِلْعِنَايَةِ بِهِ؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ نَوْعٌ مِنَ التَّنْبِيهِ، فَإِنَّكَ إِذَا نَادَيْتَ الْمُخَاطَبَ انْتَبَهَ وَاتَّجَهَ إِلَيْكَ.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ: أَنَّ الْعِبَادَةَ حَقٌّ لِلَّهِ، وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، فَكُلُّ النَّاسِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ عِبَادَةُ اللَّهِ، وَعِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى:

هِيَ التَّذَلُّ لَهُ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، حَسَبَ شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ، بِمَعْنَى: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ شَرِيعَةً كَذَا، وَالْآخَرُ شَرِيعَةً كَذَا، وَالْآخَرُ شَرِيعَةً كَذَا، حَسَبَ مَا يَصْلُحُ بِهِ الْخَلْقُ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ كُلَّهَا اجْتَمَعَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَارَتْ شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ نَاسِخَةً لِّجَمِيعِ الشَّرَائِعِ، فَلَا عِبَادَةَ لِلَّهِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَالْعِبَادَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَبْنِيَّةً عَلَى أُسَاسَيْنِ، هُمَا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَالْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أَمَّا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ أَنْ يَنْوِيَ الْإِنْسَانُ بِعِبَادَتِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، لَا يَنْوِيَ بِذَلِكَ حُطَامًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا جَاهًا، وَلَا رِثَاسَةً، وَلَا تَزُفًا لِمَخْلُوقٍ، بَلْ يَنْوِيَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، وَمَتَى كَانَتْ هَذِهِ نِيَّتُهُ فَإِنَّهُ سَوْفَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ، سَوْفَ يَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرَاهُ.

وَضِدُّ الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ: الشَّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ، بَأَنْ يَنْوِيَ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ وَالْدَّارِ الْآخِرَةِ؛ يَنْوِيَ بِهَا حُطَامًا مِنَ الدُّنْيَا، يَنْوِيَ بِهَا تَزُفًا لِمَخْلُوقٍ، يَنْوِيَ بِهَا الْحُصُولَ عَلَى الْجَاهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَهَكَذَا، وَهَذِهِ النِّيَّةُ بَاطِلَةٌ مُبْطِلَةٌ لِلْعَمَلِ.

أَمَّا الرُّكْنُ الثَّانِي أَوْ الشَّرْطُ الثَّانِي فَهُوَ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ الْمُتَابَعَةُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي أُمُورِ سِتَّةٍ: فِي سَبَبِهَا، وَجَنَسِهَا، وَقَدْرِهَا، وَصِفَتِهَا، وَزَمَانِهَا، وَمَكَانِهَا، فَإِنْ خَالَفَتْ الشَّرِيعَةَ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ السِّتَةِ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مُتَّبِعًا فِيهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَمَنْ أَخَذَ عِبَادَةً لِسَبَبٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ فَإِنَّ عِبَادَتَهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، بَلْ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ؛

لَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وهذا الحديثُ أساسٌ لكلِّ الأوصاف التي ذَكَرناها.

وَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِجِنْسٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ فَإِنَّ عِبَادَتَهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، فلو أَنَّ الإنسانَ ضَحَّى بِفَرَسٍ فَإِنَّ أَضْحِيَّتَهُ لَا تُقْبَلُ؛ لِأَنَّهُ ضَحَّى بِجِنْسٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ؛ فَإِنَّ الْأُضْحِيَّةَ إِنَّمَا تُشْرَعُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ: مِنَ الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لِلشَّرْعِ فِي قَدْرِ الْعِبَادَةِ، فَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِأَمْرِ زَائِدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ فَإِنَّ هَذَا الزَّائِدَ لَنْ يُقْبَلَ، ثُمَّ قَدْ يُبْطَلُ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا، وَقَدْ لَا يُبْطَلُهَا، لَوْ صَلَّى الْإِنْسَانُ الظُّهْرَ خَمْسًا لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا عَلَى غَيْرِ الْقَدْرِ الْوَارِدِ فِي الشَّرْعِ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ تُبْطِلُ الْعِبَادَةَ.

لَكِنْ لَوْ أَخْرَجَ الْفِطْرَةَ صَاعَيْنِ مِنَ الطَّعَامِ لَمْ يُثَبِّ ثَوَابُ الْفِطْرَةِ عَلَى كِلَا الصَّاعَيْنِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ أَحَدُ الصَّاعَيْنِ هُوَ الَّذِي يُثَابُ عَلَيْهِ ثَوَابُ الْفِطْرَةِ، وَالثَّانِي يُثَابُ عَلَيْهِ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ، وَهَنَّاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْفِطْرَةِ وَالصَّدَقَةِ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ تَطَوُّعٌ، وَالْفِطْرَةَ فَرَضٌ، وَالْإِنْسَانُ يُثَابُ عَلَى الْفَرَضِ أَكْثَرَ مِمَّا يُثَابُ عَلَى التَّطَوُّعِ، وَيَدُلُّ عَلَى الْفَرْقِ: حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ؛ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ^(٢).

(١) سبق تخريجه (ص: ٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)، وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب

صدقة الفطر، رقم (١٨٢٧).

ولابدَّ أن تكونَ مُوافِقةً للشرع في صِفَتِها، فإن خالفتِ الشرع في الصِّفة لم تكن مقبولةً، لو أنَّ الإنسانَ صَلَّى، فبدأ بالسُّجود قبل الرُّكوع، لم تكن صلاتُهُ مقبولةً؛ لأنَّ ذلك على خلاف الصِّفة التي وردَ بها الشرعُ، فتبطل الصلاة ولا تُقبل.

وكذلك -على القول الرَّاجح من أقوال أهل العلم- لو تَوَضَّأ الإنسانُ، فبدأ برجليه، ثُمَّ رَأْسِهِ، ثُمَّ يَدَيْهِ، ثُمَّ وَجْهِهِ، لم يكن وُضُوؤُهُ مقبُولاً؛ لأنَّه على غير الصِّفة الواردة عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ولابدَّ أيضاً أن تكونَ مُوافِقةً للشرع في الزَّمان، فلو تَعَبَّدَ الإنسانُ عِبادةً لله عَزَّجَلَّ في غير زَمَانٍها لم تكن مقبولةً، لو أنَّ الإنسانَ حَجَّ -مثلاً- في غير وقتِ الحَجِّ لم يكن حَجُّهُ مقبُولاً، ولو زار كُلَّ أَمَكِنَةِ المَناسِكِ؛ لأنَّه في غير الوقتِ.

ولابدَّ أن تكونَ مُوافِقةً للشرع في مكانِها، فلو اعتكفَ الإنسانُ في بيته لم يكن اعتكافُهُ مقبُولاً؛ لأنَّ البَيْتَ ليس مكاناً لِلاعتِكَافِ، وإنَّما مكان الاعتِكَافِ المساجِدُ التي تُقام فيها الجماعة؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فمَن تَعَبَّدَ بالاعتِكَافِ في غير مَسْجِدٍ لم يكن اعتكافُهُ مقبُولاً؛ لأنَّه لم يتَّبِع فيه شريعةَ الله.

والخلاصة: أنَّ العِبادة لا تكونُ مقبولةً إلَّا بمُوافِقةِ الشرع، ولا تكونُ مُوافِقةً للشرع إلَّا إذا وافقت ما جاء به الشرعُ في السَّبَبِ، والجِنسِ، والقَدْرِ، والصِّفةِ، والزَّمانِ، والمكانِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)

هذه الآية تكملة للآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ففي الآية الأولى: الإيجاد ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وفي الآية الثانية: الإمداد؛ فإن الله تعالى خلقنا وأمدنا بالرزق الذي نتأهل به لإعداد أنفسنا لقبول شريعته، فذكر الله سبحانه وتعالى ما أمدنا به من المقر: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، ومن الرزق الذي به قوام البدن: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

وبتمام الإمداد يجب الاستعداد لما أمر الله به، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء في عبادته أو في شيء من حقوقه وخصائصه ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا ند له في ربوبيته، فإذا كنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته فإن مقتضى ذلك ألا تجعلوا له شريكا في عبادته، تتألهون إليه، وتعبُدونه، وتتقربون إليه كما تتقربون إلى الله عز وجل.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ:

١- في هذه الآية من الأحكام: أن الأرض جعلها الله تعالى فراشا لبني آدم، أي: قرارا مستقرة لا تميد ولا تضطرب، ولو كانت تميد أو تضطرب ما صح أن تكون فراشا يطمئن فيه الإنسان ويستوطن.

٢- من فوائدها: أن الله سبحانه وتعالى جعل السماء بناء، وسماه الله عز وجل في

آيَةٌ أُخْرَى: سَقْفًا مَحْفُوظًا، فهو مَبْنِيٌّ وَمَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فلولا أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمَ بِنَاءَهُ لَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، وهذا من نِعْمَةِ اللَّهِ علينا.

٣- ومن أَحْكَامِهَا: أَنَّ الأسبابَ لها أَثَرٌ في مُسَبِّبَاتِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى حِينَ ذَكَرَ إِنْزَالَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أَخْرَجَ بِسَبَبِهِ، وَلَا يَشْكُ عَاقِلٌ فِي أَنَّ لِلْأَسْبَابِ تَأْثِيرًا فِي مُسَبِّبَاتِهَا.

وهذا التَّأْثِيرُ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَسْبَابِ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَنْ أَنْكَرَ تَأْثِيرَ الْأَسْبَابِ فِي مُسَبِّبَاتِهَا فَقَدْ خَالَفَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ بِدَاهَةِ الْعُقُولِ، وَمَنْ جَعَلَ الْأَسْبَابَ مُؤَثِّرَةً بِذَاتِهَا فَقَدْ أَثَبَتَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا، وَمَنْ أَثَبَتَ تَأْثِيرَ الْأَسْبَابِ، لَكِنْ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَشِيئَتِهِ، فَقَدْ وَافَقَ الْحَقَّ وَالْوَاقِعَ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ الرَّاجِحُ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَسْبَابَ لَا تُؤَثِّرُ، وَإِنَّ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الْأَسْبَابِ حَاصِلٌ عِنْدَهَا لَا بِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ لِلْوَاقِعِ، فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ النَّارَ إِذَا أَحْرَقَتِ الْوَرَقَ لَمْ تَكُنْ هِيَ الَّتِي أَحْرَقَتْ، وَلَكِنْ حَصَلَ الْإِحْرَاقُ عِنْدَهَا لَا بِهَا، وَنَحْنُ نَقُولُ: بَلْ حَصَلَ الْإِحْرَاقُ بِهَا، لَكِنْ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ فِيهَا هَذِهِ الْقُوَّةَ الْمُحْرِقَةَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَسَلَبَهَا هَذِهِ الْقُوَّةَ، بِدَلِيلٍ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِلنَّارِ الَّتِي أُلْقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ، ﴿بَرْدًا﴾ خِلَافَ طَبِيعَتِهَا الَّتِي هِيَ الْحَرَارَةُ، ﴿وَسَلَامًا﴾ خِلَافَ أَثَرِهَا الَّذِي هُوَ الْإِحْرَاقُ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَلَوْ قَالَ اللَّهُ: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿وَسَلَامًا﴾ لَأَهْلَكَه بَرْدُهَا.

المهم: أن في هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها، ولكن من الذي جعل السبب مؤثراً؟ هو الله، ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، فالْمُخْرِجُ هو الله، والسَّبَبُ هو المطر.

٤- وفي الآية الكريمة من الفوائد: مِنْهُ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده بهذا الماء النازل من السماء؛ حيث أخرج به من الثمرات رزقاً لنا، ورزقاً لمواشينا أيضاً، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] أي: تَرْعُونَ أنعامكم.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وَجُوبُ شُكْرِ الْمُنْعَم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي: هذا الذي أنعم عليكم يجب أن تشكروه وتوحدوه بالعبادة، كما أنه هو الذي أنعم عليكم وحده، فلا تجعلوا له أنداداً.

٦- وفي الآية الكريمة من الفوائد: شِدَّةُ اللَّوْمِ على مَنْ اجْتَرَأَ على المحرمات مع العلم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ بِالْقَبِيحِ وَتَجَرَّأَ عَلَيْهِ أَعْظَمُ جُرْماً وَقُبْحاً مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ، وَلَوْ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ.

٧- وفي الآية الكريمة من الفوائد أيضاً: أَنَّ الأرض التي يَسْتَوِي عليها الإنسان تَكُونُ مُلْكاً لَهُ، قَرَارًا وَهَوَاءً؛ قَرَارًا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾، وَهَوَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، فَكُلُّ مَا كَانَ فِرَاشًا لِي مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ بِنَاءٌ لِي، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ الْهَوَاءَ تَابِعٌ لِلْقَرَارِ، أَي: أَنَّ مَنْ مَلَكَ أَرْضًا فَلَهُ قَرَارُهَا، وَلَهُ هَوَاؤُهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ جِيرَانِهِ أَنْ يَبْنِيَ جَنَاحًا يَكُونُ ظِلُّهُ عَلَى أَرْضِ الْجَارِ، بَلْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَوْ أَنَّ أَغْصَانِ شَجَرَةٍ جَارِكَ صَارَتْ فَوْقَ بَيْتِكَ فَلَكَ الْمُطَالَبَةُ بِإِزَالَةِ هَذَا الْغُصْنِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

هاتان الآيتان لهما ارتباطٌ بما قبلهما من حيثُ المعنى، وذلك أن في الآيتين السابقتين تحقيقَ شهادة أن لا إله إلا الله، بإفراد الله تعالى بالعبادة، وفي هاتين الآيتين تحقيقَ رسالة النبي ﷺ؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، فالآيات الأربع متضمنة لشهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

والرَّيْبُ: هو الشكُّ مع القلق والضَّجَر، والمراد بالعبد هنا: مُحَمَّدٌ ﷺ، وأُشْرِفُ أوصافه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَفَانِ: العبودية، والرسالة.

وقد ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصَفَ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإِسْرَاءِ، وحال المعراج، وحال التَّحْدِي والذُّودِ عَنْهُ:

فقال في الحال الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال في الحالين الثانية والثالثة: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨-١٠].

وقال في الحالِ الرَّابِعَةِ (مَقَامِ التَّحَدِّي): ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

والمُرَادُ هُنَا بِمَا نَزَّلَ: الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: كُلٌّ مَنْ تَقْدِرُونَ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِهِ مِمَّنْ تَدْعُوهُمْ أَوْلِيَاءَ أَوْ شُفَعَاءَ فَادْعُوهُمْ مَعَكُمْ؛ لِيُعِينُوكُمْ عَلَى أَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِيمَا تَدَّعُونَهُ مِنْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أَي: فَإِنَّ النَّارَ سَتَكُونُ مَأْوَاكُمْ، فَاتَّقُوهَا وَاحْذَرُوهَا، وَذَلِكَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ وَتَصَدِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَهَذِهِ النَّارُ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ - أَي: النَّاسُ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ - وَالْحِجَارَةُ، وَهِيَ حِجَارَةٌ عَظِيمَةٌ لَيْسَتْ كَحِجَارَتِنَا فِي الدُّنْيَا، تُحْمَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتَزْدَادُ حَرَارَةَ النَّارِ، وَيَزْدَادُ اشْتِعَالُهَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي: أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، وَكَذَلِكَ لِلْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

١- فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَادِقٌ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَأَنَّ هَذَا الْوَحْيَ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهِمَا: تَحَدِّي الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَغْوَانِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، قَالَ أَهْلُ

العِلْم: وَتَحَدِّيَ اللَّهَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ جَاءَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ، فَتَحَدَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ كُلَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣]، وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

وَكُلُّ هَذِهِ التَّحَدِّيَّاتِ لَمْ يَتَصَدَّ لَهَا أَحَدٌ مِنْ بُلْغَاءِ النَّاسِ وَفُصَحَائِهِمْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وَالتَّزْوِيلُ إِنَّهَا يَكُونُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، وَعُلُوُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عُلُوٌّ ذَاتٍ، وَعُلُوٌّ صِفَةٍ.

فَأَمَّا عُلُوُّ الذَّاتِ فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا الْعُلُوُّ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَالْعَقْلِ، وَالْفِطْرَةِ.

أَمَّا الْكِتَابُ فَأَدِلَّتُهُ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ بِذَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَقَدْ جَاءَتْ عَلَى وُجُوهِ مُتَنَوِّعَةٍ؛ تَحْقِيقًا لِهَذَا الْعُلُوِّ.

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَكَذَلِكَ دَلَّتْ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ بِذَاتِهِ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، فَمِنْهَا مَا دَلَّاهُ

بالقول، ومنها ما دَلَّاهُ بالفعل، ومنها ما دَلَّاهُ بالتَّقرير، أي: بإقرار الغير على ذلك.

وَأَمَّا الإجماعُ فقد أجمع السَّلفُ من الصَّحابة، والتَّابعين، وأئمة الأئمة، بل وعامة الأئمة الذين بقُوا على فِطرتهم، على عُلُوِّ الله تعالى بذاته، ولم يَقُلْ أَحَدٌ منهم: إِنَّ الله في كُلِّ مَكَانٍ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ منهم: إِنَّ الله ليس في العالم ولا خارِجه، بل كُلُّهم مُجمِعُونَ على أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق كُلِّ شيء.

وَأَمَّا الْعُقْلُ فَلَأَنَّ الْعُلُوَّ صِفَةُ كَمَالٍ، لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَدْ ثَبَتَ لَهُ جَمِيعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

وَأَمَّا الْفِطْرَةُ فَإِنَّ كُلَّ شَخْصٍ مَفْطُورٌ عَلَى عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا أَوْ يَدْرُسَ عَلَى عَالِمٍ، أَلَا تَرَى إِلَى الرَّجُلِ إِذَا دَعَا الله تَعَالَى يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَرْفَعُ قَلْبَهُ كَذَلِكَ إِلَى السَّمَاءِ بَدُونِ أَنْ يَدْرُسَهُ أَحَدٌ ذَلِكَ؟! لِأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ فِطْرَتِهِ.

وقد ذَكَرَ أَنَّ أَبَا الْمُعَالِي الْجَوْنِيَّ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يَقَرُّرُ، وَيَقُولُ: إِنَّ الله كَانَ وَلَا شَيْءَ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ! يُرِيدُ أَنْ يُنْكِرَ اسْتِواءَ الله عَلَى الْعَرْشِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: يَا أَسْتَاذُ! دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ الْعَرْشِ، وَأَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا، مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللهُ! إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بِطَلَبِ الْعُلُوِّ، فَلَطَمَ أَبُو الْمُعَالِي عَلَى رَأْسِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: حَيَّرَنِي الْهَمْدَانِيُّ! حَيَّرَنِي الْهَمْدَانِيُّ! (١)

أي: أَنَّ هَذَا دَلِيلٌ فِطْرِيٌّ عَلَى عُلُوِّ الله لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ.

ولكن يَجِبُ أن نَعْلَمَ أنَّ الله تعالى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، لكنَّه ليس مَحْصُورًا بِشَيْءٍ، كما يَكُونُ الواحدُ مَنَّا فَوْقَ السَّطْحِ، فيَكُونُ مَحْصُورًا بِجُدْرانِ السَّطْحِ، ولكنَّ الله تعالى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وليس مَحْصُورًا بِأَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ الْفَوْقَ الْمُطْلَقَ ليس فيه شَيْءٌ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي - وهو عُلُوُّ الصِّفَةِ - فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ ما مِنْ صِفَةٍ كَمَالٍ إِلَّا وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَاهُ وَأَكْمَلُهَا؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، وَدَلَالَةُ هَذَا الْقِسْمِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَفِي إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، وَفِي الْعَقْلِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فِي الْفِطْرَةِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ أَيْضًا.

فَأَمَّا الْكِتَابُ فَذَكَرْنَا مِنْهُ ما سَبَقَ، وهو قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَالْأَحَادِيثُ فِيهَا كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَدْ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَمَالِ اللهِ، وَعَنْ عَظَمَةِ صِفَاتِهِ بِأَحَادِيثَ لَا تُحْصَى، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»^(١)، فَيُثَبِّتُ لَهُ الْعُلُوَّ الْمُطْلَقَ، وهو كما يَشْمَلُ عُلُوَّ الذَّاتِ أَيْضًا يَشْمَلُ عُلُوَّ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى صِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَلَأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْبَدَ بِاسْتِحْقَاقٍ لِلْعِبَادَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ كَامِلَ الصِّفَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ أَنْكَرَ إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَبِيهِ أَنْ يَعْبُدَ مَا لَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا نَاقِصٌ، وَالنَّاقِصُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا يُعْبَدُ لِنَقْصِهِ، وَلَا أَحَدَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ سِوَى رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى عُلُوِّ الصِّفَةِ فَلَأَنَّ الْإِنْسَانَ بِفِطْرَتِهِ يَلْجَأُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كَشْفِ هَذِهِ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ إثبات أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ، لَيْسَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ، وَإِذَا كَانَ نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَأُئِمَّةُ الْأُمَّةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَقَدْ تَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ حَقِيقَةً، وَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ، وَأَلْقَاهُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ: الْمُنْزَلَ، وَالنَّازِلَ بِهِ، وَالنَّازِلَ عَلَيْهِ، وَاللُّغَةَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا، فَقَالَ: ﴿وَلَئِنَّهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ الْمُنْزَلَ ﴿لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هَذَا الْمُنْزَلُ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ هَذَا النَّازِلُ بِهِ، ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ هَذَا الْمُنْزَلُ عَلَيْهِ، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ هَذِهِ اللَّغَةُ، فَالْقُرْآنُ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا، إِذَنْ: فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِهِذِهِ اللَّغَةُ: اللَّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ.

والكلام لا أَحَدَ يَشْكُ في أَنَّهُ من صِفاتِ الكَمالِ؛ فَإِنَّ المُتَكَلِّمَ أَكْمَلُ من الذي لا يَتَكَلَّمُ، وبهذا احتَجَّ السَّلَفُ على مَنْ قالوا: إِنَّ القُرْآنَ مَخْلُوقٌ، فَإِنَّهُ لو كان مَخْلُوقًا لم يَكُنْ هناك كَمالٌ في الله من هذا الوَجهِ.

٥- ومن فَوائِدِ هذه الآيةِ أيضًا: الإِشارةُ إلى فَضْلِ القُرْآنِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ كَلامُ اللهِ؛ فَإِنَّ الكَلامَ يَشْرَفُ بِشَرَفِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، لاسِيَّما إِذا كان هذا الكَلامُ مُتَضَمِّنًا لمَعاليِ الأخلاقِ، وكَمالِ الآدابِ؛ كما في القُرْآنِ الكَرِيمِ.

ولا شَكَّ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ أَشْرَفُ الكَلامِ وأَكْمَلُهُ من جَميعِ الوُجُوهِ، من حيثِ الفَصاحَةِ، والجُودَةِ، والنَّفْعِ، والحِكمِ، ولو لم يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ كَلامُ اللهِ لكان كافِيًا في الشَّرَفِ والْفَضْلِ.

٦- ومن فَوائِدِ هذه الآيةِ الكَرِيمَةِ: فَضْلُ رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لكَوْنِهِ عَبْدًا لَهِ، ولا شَكَّ أَنَّ العُبُودِيَّةَ لَهِ من أَشْرَفِ المناقبِ، بل هي أَشْرَفُ المناقبِ، وَمَنْ لم يَكُنْ عَبْدًا لَهِ صارَ عَبْدًا لِهَواهُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أن يَكُونَ مُتَدَلِّلًا لشيءٍ، فإِما أن يَكُونَ مُتَدَلِّلًا لِرَبِّهِ، وإِما أن يَكُونَ مُتَدَلِّلًا لِهَواهُ وشَيطانِهِ.

٧- ومن فَوائِدِ الآيةِ الكَرِيمَةِ: إثباتُ عُبُودِيَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا حَقَّ لَهُ في شيءٍ من خِصائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لأنَّ العَبْدَ خِلافُ الرَّبِّ، فلا شيءَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ من خِصائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، فلا يَمْلِكُ نَفْعًا لأَحَدٍ، ولا دَفَعَ ضَرَرٍ عَنْهُ، ولا يَعْلَمُ الغَيْبَ، وليس عِنْدَهُ خَزائِنُ اللهِ، وقد أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أن يُعْلِنَ ذلكَ لِلْمَلَأِ، فقال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، يعني: ما أنا إِلَّا رَسولٌ عامِلٌ بما أُوْحِيَ إِلَيَّ مُبَلِّغٌ لَهُ،

وقال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُحِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴿١٣﴾ [الجن: ٢١-٢٣]، يعني: لَسْتُ إِلَّا مُبَلِّغًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَرَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَا لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، وَلَوْ كَانَ يَمْلِكُ شَيْئًا لَمَلَكَ أَنْ يُنْقِذَ مَنْ شَاءَ مِنَ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ، وَيَهْدِيَ مَنْ شَاءَ، وَهَذَا لَيْسَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وَأَمْرُهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وَيَتَفَرَّغُ عَنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: بَيَانُ ضَلَالِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَدْعُوْنَهُ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِ، وَيَرْجُونَ شِفَاءَ الْمَرَضِ، وَإِزَالَةَ الضَّرَرِ، وَحُصُولَ الْمَطْلُوبِ، وَيُعْرِضُونَ بِذَلِكَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا أَنَّ بَعْضَهُمْ رُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مَا عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ أَقْرَبُ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَمْلِكُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا.

وَقَدْ ضَلَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ طَائِفَتَانِ: طَائِفَةٌ ادَّعَتْ أَنَّ لِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى كَذَّبَتْ الرُّسُولَ ﷺ، وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَيْسَ بِرَسُولٍ، إِمَّا أَنَّهَا نَفَتْ رِسَالَتَهُ مُطْلَقًا، أَوْ نَفَتْ عُمُومَ رِسَالَتِهِ، وَكِلَتَا الطَّائِفَتَيْنِ ضَالَّتَانِ، وَالْحَقُّ أَنَّ رُسُولَ اللَّهِ ﷺ عَبْدٌ رَسُولٌ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَالْعُبُودِيَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عُبُودِيَّةٍ عَامَّةٍ، وَعُبُودِيَّةٍ خَاصَّةٍ، فَالْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ هِيَ التَّعَبُّدُ لِلْقَدَرِ، وَهِيَ الْعُبُودِيَّةُ الْكُونِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ،

فما من مخلوقٍ إلَّا وهو عابِدٌ ذَلِيلٌ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، حَتَّى أَكْفَرَ الْخَلْقَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فَكُلُّ النَّاسِ عِبِيدُ اللَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ الْكُونِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ، وهذه لا يُمدَحُ الإنسانُ عليها؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ قَهْرًا عَلَيْهِ، وَبَغَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ.

أَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ، وَهِيَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِشَرْعِهِ، وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وَذَكَرَ بَقِيَّةَ صِفَاتِهِمْ.

وهذه الْعُبُودِيَّةُ فِيهَا أَيْضًا مَا هُوَ أَخْصُ مِنْ مُطَلَقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ عُبُودِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، كما في هذه الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾.

٨- ومن فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: الْفَضِيلَةُ الْعَظِيمَةُ لِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِضَافَةِ عُبُودِيَّتِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَي: أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ إِلَيْهِ عُبُودِيَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي هَذَا فَخْرًا لِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِزَّةً، وَرِفْعَةً.

٩- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مِنْ آدَابِ الْمُحَاجَّةِ وَالْمُنَاطَرَةِ: تَحْدِي الْحَصْمِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ هُنَا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي تَحْدِي الْحَصْمِ إِظْهَارًا لَضَعْفِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُقَابَلَةَ، وَالتَّحْدِي طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الْمُنَاطَرَةِ الْمُفِيدَةِ.

وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يَتَحَدَّى الْإِنْسَانُ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّهُ عَاجِزٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَتَى بِالشَّيْءِ عَلَى صِيغَةِ التَّحْدِي، ثُمَّ تَبَيَّنَ قُدْرَةُ الْمُتَحَدَّى صَارَ فِي ذَلِكَ انْهِزَامٌ شَدِيدٌ

لِلْمُتَحَدِّينَ، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ إشارة إلى أنهم عاجزون عما تحدوا به، ولن يستطيعوا ذلك.

١٠ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَوْ دَعَا مَنْ دَعَا إِلَيْهِ لِيُعَاوَنَهُ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أَي: كُلِّ مَنْ تَعْبُدُونَهُ وَتَسْتَعِينُونَ بِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَادْعُوهُمْ؛ لِيَكُونُوا مَعَكُمْ فِي الْإِثْبَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

١١ - ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعَارِضِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾.

١٢ - ومن فوائدهما: أَنَّ مَنْ كَابَرَ، وَأَصْرَرَ عَلَى عِنَادِهِ، وَكَذَّبَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَإِنَّ النَّارَ مَثْوَاهُ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

١٣ - ومن فوائدهما: أَنْ يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ بِمَا يَقْتَضِي التَّهْدِيدَ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ: إِنَّ النَّارَ وَقُودُهَا النَّاسُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْذَرَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا، وَيَحْشَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ الْوَقُودِ.

١٤ - ومن فوائد الآيتين: أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، فَإِنَّ الْإِعْدَادَ بِمَعْنَى التَّهْيِئَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وَقَالَ فِي النَّارِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، وَعُرِضَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي

بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْكُسُوفِ، وَرَأَى فِي النَّارِ مَنْ يُعَذَّبُ^(١).

وكما أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ فَهُمَا بَاقِيَتَانِ أَبَدَ الْآبِدِينَ، لَا تَفْنِيَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ التَّائِبِينَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، فَأَمَّا التَّائِبُونَ فِي الْجَنَّةِ فَلَايَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَأَمَّا التَّائِبُونَ فِي النَّارِ فَفِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ: فِي سُورَةِ النَّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وَفِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وَفِي سُورَةِ الْجَنِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

ولهذا كَانَ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اعْتِقَادُ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَأَنْتَهُمَا لَا تَفْنِيَانِ أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ ذُكِرَ خِلَافُ فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ فَإِنَّهُ خِلَافُ مَرْجُوحٌ، فَالرَّاجِحُ - بِلِ الْمُتَعَيَّنِ - الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّارَ لَا تَفْنَى، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تَفْنَى.

١٥ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ سَيَقَى آيَةً إِلَى الْأَبَدِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّحْدِيثَ الَّذِي وَقَعَ بِهِ ثَابِتٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحِيرَةٍ وَلَا سَائِجَةٍ﴾، رَقْمُ (٤٦٢٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْكُسُوفِ، بَابُ صَلَاةِ الْكُسُوفِ، رَقْمُ (٣/٩٠١) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْكُسُوفِ، بَابُ مَا عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، رَقْمُ (٩٠٤) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٦- ومن فوائد الآيتين الكريمتين: الإشارة إلى أن هذا القرآن سيقى، وذلك أنه قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وإذا كان وقودها الناس -وهو يشمل الناس المخالفين لهذا القرآن إلى يوم القيامة- دل هذا على أن القرآن سيقى مُتَحَدِّيًا لجميع الناس إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فسيكون وقود النار.

١٧- ومن فوائد الآيتين: إثبات الجزاء، فيدل على إثبات اليوم الآخر، وهو أحد أركان الإيمان الستة التي هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

هذه الآية الكريمة لها ارتباط بما قبلها؛ فإن الله سبحانه وتعالى بين فيما سبق أن النار أعدت للكافرين، وكان هذا القرآن الكريم مثاني، تُثنى فيه المعاني، فإذا ذكر الثواب ذكر العقاب، وإذا ذكر الكفر ذكر الإيمان، وهكذا؛ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي هذه الآية الكريمة يقول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهنا الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يتأتى خطابه، فهو مأمور بالبشارة، إن

كان للرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلُّ مَنْ خَلَفَهُ فِي الْعِلْمِ والدَّعْوَةِ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ
بهذه البشارة.

والبشارة: هي الإخبار بما يَسُرُّ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ الإنسان إذا أُخْبِرَ بما يَسُرُّه
ظَهَرَ ذلك على بَشَرَتِهِ.

وهنا المُبَشِّرُ: الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، والمُبَشِّرُ به: جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الأنهار، والمُبَشِّرُ: الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والآمِرُ بالتبشير: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

والذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: هم الذين جَمَعُوا بين الاستِسْلامِ الباطِنِ
والاستِسْلامِ الظَّاهِرِ، فالاستِسْلامِ الباطِنِ في الإيَّانِ، والظَّاهِرِ في عَمَلِ الصَّالِحَاتِ،
وجَمَعُوا أَيْضًا بين الإخلاصِ والمتَّابَعَةِ، فالإخلاصُ في القلبِ، وهو أمرٌ باطِنٌ،
والمُتَّابَعَةُ في الجوارِحِ، وهي أمرٌ ظاهِرٌ، فالبَشْرَى لِمَنْ جَمَعَ بين الأمرَيْنِ: بين الصَّلاحِ
في الباطِنِ، والصَّلاحِ في الظَّاهِرِ.

والصَّالِحَاتُ: هي الأعمالُ التي اشْتَمَلَتْ على الإخلاصِ لله، والمُتَّابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا صَلاحَ لِأَيِّ عَمَلٍ إِلَّا بِالإخلاصِ لله، والمُتَّابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ
-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

أَمَّا الإخلاصُ لله فأن يَنْوِيَ الإنسانُ بِعَمَلِهِ وَجَهَ اللهِ، والدَّارَ الآخِرَةَ، وامْتِثَالَ
أمرِ الله.

وأَمَّا المُتَّابَعَةُ فأن يَكُونَ مُتَّبِعًا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَذَرُ،
ولا تَتَحَقَّقُ المُتَّابَعَةُ إِلَّا بِمُوافَقَةِ العِبَادَةِ لِلشَّرِيعَةِ في أُمُورٍ سِتَّةٍ: السَّبَبِ، والجِنْسِ،
والقَدَرِ، والكَيْفِيَّةِ، والزَّمانِ، والمكانِ.

فَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادَةً مُقَيَّدَةً بِسَبَبٍ لَمْ تَرِدْ بِهِ الشَّرِيعَةُ فِعِبَادَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ
غَيْرَ مَقْبُولَةٍ مِنْهُ، كَمَا لَوْ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ بِذَبْحٍ شَاةٍ -تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى- عِنْدَ مُنَاسَبَةٍ
لَا يُشْرَعُ فِيهَا ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا يَكُونُ غَيْرَ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ
عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وَلَوْ ضَحَّى الْإِنْسَانُ بِفَرَسٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا
لَيْسَتْ مِنْ جِنْسٍ مَا يُضَحَّى بِهِ شَرْعًا، وَلَوْ زَادَ الْإِنْسَانُ فِي عِبَادَتِهِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ هَذِهِ
الزِّيَادَةُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهَا أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ فَعَلَ الْعِبَادَةَ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي
وَرَدَتْ عَلَيْهِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ، كَمَا لَوْ تَوَضَّأَ مُتَكِّسًا -مَثَلًا- فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ
عَلَى خِلَافِ مَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَوْ ضَحَّى فِي غَيْرِ وَقْتِ الْأُضْحِيَّةِ
لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا فِي غَيْرِ الزَّمَانِ الْمُعَيَّنِ لِلأُضْحِيَّةِ، وَلَوْ اعْتَكَفَ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ
لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي خُصِّصَ شَرْعًا لِلْعِتِكَافِ.

فَإِذَنْ: لَا تَتَحَقَّقُ الْمَتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَتِ الْعِبَادَةُ هَذِهِ الْأُمُورَ
الْسِتَّةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الْجَنَّاتُ: جَمْعُ جَنَّةٍ، وَجُمِعَتْ
لَاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَأَسْمَائِهَا، وَأَحْوَالِهَا، وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَى الْجَنَّةِ: أَنَّهَا الْبَسَاتِينُ
الكَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ؛ لِأَنَّهَا تُجْنُّ مَنْ فِيهَا؛ لكَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَأَغْصَانِهَا، وَالْمُرَادُ بِالْجَنَّةِ
الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ هُنَا: دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ.

وَالْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا -أَي: مِنْ أَسْفَلِهَا- وَتَحْتَ الْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ
أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٍ، بَيَّنَّهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقِتَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

(١) سبق تخرجه (ص: ٦٧).

فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴿١٥٠﴾ أَي: غَيْرِ مُتَغَيَّرٍ ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذِقٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [عمد: ١٥٠].

وَيَبِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا قَالُوا: هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، لَآتٍ يَشْبَهُهُ فِي اللَّوْنِ وَالْحَجْمِ، فَيَقُولُونَ: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا طَعِمُوهُ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لَذَّةِ الْآكِلِينَ، إِذَا أُتُوا بِالطَّعَامِ أَوْ بِالثَّمَرَةِ مُتَشَابِهًا، وَلَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ فِي الذَّوْقِ، صَارَ فِي هَذَا شَيْءٌ مِنَ اللَّذَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وَيَبِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ فِيهَا أَزْوَاجًا مُطَهَّرَةً، أَي: مُطَهَّرَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَهِيَ مُطَهَّرَةُ الْبَاطِنِ مِنَ الْحَقْدِ عَلَى زَوْجِهَا وَالْكَرَاهَةِ لَهُ، وَفِي الظَّاهِرِ مِنْ كُلِّ قَدَرٍ وَأَذَى، وَتَمَامُ هَذَا النَّعِيمِ أَتَمُّ فِيهَا خَالِدُونَ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ:

١- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُبَشِّرَ الْعَامِلُ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الثَّوَابِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أُبْلَغَ فِي نَشَاطِهِ وَمُتَابَرَتِهِ عَلَى الْعَمَلِ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ، فَمُجَرَّدَ الْعَقِيدَةِ لَا تَكْفِي فِي الْبَشَارَةِ بِالْجَنَّةِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ، وَلِهَذَا يَرْبِطُ اللَّهُ تَعَالَى دَائِمًا الْإِيمَانَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْوَى إِيمَانًا وَأَكْثَرَ عَمَلًا كَانَ أَحَقَّ بِالْبَشَارَةِ بِالْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمُعْلَقَ عَلَى وَصْفٍ يَقْوَى بِقُوَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَيَضَعُفُ بِضَعْفِهِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الأعمال الفاسدة لا ترفع صاحبها ولا تنفعه، بل هي حرام عليه؛ لأنها نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّه لا يجوز للإنسان -مثلاً- أن يصلي بلا وضوء، أو يصلي بنجاسة لا يعفى عنها؛ لأنَّ ذلك من العمل الفاسد، وإذا فعله صار كالمستهزئ بالله.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء المؤمنين العاملين للصالحات جزاؤهم الذي يُبشرون به هذه الجنات العظيمة التي تشتمل على كلِّ خير، وقد بينَّ الله تعالى في آياتٍ أخرى أنَّ فيها ما تشهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ هذه الجنات فيها القصور الشاهجة والأشجار العالية؛ لقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فإنَّ التَّحْتَ لا بُدَّ أن يكون له فوق، ومعلوم أنَّ هذه الأنهار لا تجري من أسفل أرض الجنة، ولكنها تجري من تحت ما فيها من الأشجار والقصور، وقد قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وبيَّنت السنة هذه الخيام الجميلة الرفيعة^(١).

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ في الجنة أنهاراً؛ لقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وأنَّ فيها ثماراً؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، ولكن هذه الأنهار وهذه الثمار لا تُشبه في الحقيقة ما في الدنيا من الأنهار والثمار، بل هي تختلف عنها اختلافاً عظيماً لا يمكن أن يدركه الإنسان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب في صفة خيام الجنة، رقم (٢٨٣٨) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِحِسِّهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكما فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ^(٢). يَعْنِي: أَنَّ فِيهَا مِثْلَ الْإِسْمِ، لَكِن تَخْتَلِفُ الْحَقِيقَةُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَكِكُهُمْ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] النَّخْلُ وَالرَّمَّانُ وَالْفَاكِهَةُ مَوْجُودَةٌ فِي الدُّنْيَا، لَكِن تَخْتَلِفُ، كَمَا أَنَّ الْحَيَاةَ هُنَاكَ تَخْتَلِفُ عَنِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، انْظُرْ -مِثْلًا- إِلَى النَّاسِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّوْمِ، وَفِي الْجَنَّةِ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّوْمِ، فَلَا يَنَامُونَ، تُصِيبُهُمُ الْأَمْرَاضُ وَالْأَوْصَابُ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْجَنَّةِ لَا تُصِيبُهُمْ، فِي الدُّنْيَا إِذَا سَقَطَ الْإِنْسَانُ فِي النَّارِ احْتَرَقَ وَمَاتَ، وَفِي الْآخِرَةِ إِذَا سَقَطَ فِي النَّارِ فَإِنَّهُ وَإِنْ احْتَرَقَ وَنَضِجَ جِلْدُهُ مِنَ النَّارِ لَا يَمُوتُ، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

٨- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمَا يَتَنَعَّمُونَ بِالطَّعْمِ يَتَنَعَّمُونَ أَيْضًا بِاللَّوْنِ، حَيْثُ يُؤْتَى إِلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْفَاكِهَةِ الْمُتَشَابِهَةِ، ثُمَّ إِذَا أَكَلُوهَا صَارَتْ مُخْتَلِفَةً عَمَّا سَبَقَ، وَهَذَا يُعْطَى الْإِنْسَانَ زِيَادَةً فِي اللَّذَّةِ وَشَهْوَةِ الطَّعَامِ.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَزْوَاجًا مُطَهَّرَةً يَتَلَذَّذُ الْإِنْسَانُ بِهِنَّ، وَيَتَمَتَّعُ بِهِنَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۖ هُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدَأِ الْخَلْقِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ، رَقْمُ (٣٢٤٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ، بَابُ صِفَةِ الْجَنَّةِ، رَقْمُ (٢٨٢٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ هَنَادُ بْنُ السَّرِيِّ فِي (الزهد) (٤٩/١).

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾
 سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿[يس: ٥٥-٥٨]﴾، وقال تعالى في سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ
 فَنَكِهَةٍ رَوْجَانٍ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِيَ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَحَى
 الْجَنَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيَ الْآءَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصَصَتْ الْأَطْرَفُ لَمَّ يَطْمِئِنَّ إِسْ
 قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿[الرحمن: ٥٢-٥٦]﴾، وهذا يدلُّ على أنَّهم يَتَلَذَّذُونَ بهذه الزَّوَاجَاتِ فِي
 الْجُلُوسِ عَلَى الْأَرَائِكِ، والالتكاء عليها، مع تَقْدِيمِ الْفَوَاكِهِ مِنَ الْوِلْدَانِ وَالْخَدَمِ.

١٠- ومن فَوَائِدِ هذه الآية الكَرِيمَةِ: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ فِيهَا، وَقَدْ بَيَّنَّتِ
 الْآيَاتُ الْأُخْرَى أَنَّ هَذَا الْخُلُودُ خُلُودٌ أَبَدِيٌّ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]،
 وَلَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا.

١١- ومن فَوَائِدِ هذه الآية الكَرِيمَةِ: الْحَثُّ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ،
 وَالتَّرغِيبُ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْبَشَارَةِ فِي الْجَنَّةِ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا يَقْتَضِي حَثَّ
 هَؤُلَاءِ الْمُبَشِّرِينَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا
 مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

فِي هذه الآية يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أَيِّ مَثَلٍ
 كَانَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْمَصَالِحِ مَا يَجْعَلُ

ضَرَبَهَا مِنْ الْحَكَمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَتَنَفَّعُ بِهَا الْعِبَادُ، فَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا بِالْعَنْكَبُوتِ، وَمَثَلًا بِالذُّبَابِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَعْمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يَضْرِبُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ؛ مِنْ أَجْلِ الْعِبَرِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَلِهَذَا لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ وَإِنْ قَلَّتْ.

قَالَ هُنَا: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الْبَعُوضَةُ: وَاحِدَةُ الْبَعُوضِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كَالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ، فَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ؛ لِيَا فِي هَذِهِ الْأَمْثَالَ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا نَحْوَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ إِلَى قِسْمَيْنِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ لِيَا تَتَضَمَّنُهُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، يَقُولُونَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً، وَسُخْرِيَةً، وَاحْتِقَارًا لِهَذِهِ الْأَمْثَالَ.

وَبَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ يُضِلُّ بِهَذَا الْمَثَلِ كَثِيرًا مِمَّنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَضِلُّوا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا مِمَّنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَهْتَدُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ.

في هذه الآية الكريمة: إشارة إلى انتفاء استحياء الله عَزَّجَلَّ من الحقِّ، وهذا يدلُّ على أن الله عَزَّجَلَّ يَسْتَحْيِي من غير الحقِّ؛ لأنَّ الحياءَ من غير الحقِّ وصفُ كمالٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ؛ ولهذا جاء ثبوتُ الحياءِ لله في حديثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهْمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»^(١)، فالحياءُ - في هذا الحديث - ثابتٌ لله نطقًا صريحًا بدلالة المنطوق، وفي الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ ثابتٌ لله بطريق المفهوم.

والحياءُ كسائر صفات الله، يَجِبُ على الإنسانِ اعتقادُ ثبوته لله عَزَّجَلَّ؛ لأنَّ الله أثبتَهُ لِنَفْسِهِ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، فإذا أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِصِفَةٍ من صفاته وَجَبَ عليهم قَبُولُ هذه الصِّفَةِ، ولا يَجُوزُ لهم أن يُعَارِضُوهَا بما يَظُنُّونَهُ عَقْلًا وهو وَهْمٌ في الواقع، وذلك لأنَّ كَلَامَ اللَّهِ اجْتَمَعَ فيه كُلُّ الصِّفَاتِ التي تَسْتَلِزُّمُ قَبُولُ الْحَبْرِ؛ فَإِنَّهُ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ الْعِلْمِ، وَتَمَامِ النَّصَحِ وَالْبَيَانِ، وَكَمَالِ الْفَصَاحَةِ، وَكَمَالِ الصِّدْقِ، فَالْكَمَالَاتُ التي تَكُونُ في الْكَلَامِ هي هذه الْأَوْصَافُ الْأَرْبَعَةُ: الْعِلْمُ، وَالصِّدْقُ، وَحُسْنُ الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَيَانُ.

أَمَّا الْعِلْمُ فلا أَحَدٌ يَشْكُ أو يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ تعالى أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ من غيره، وَأَمَّا الصِّدْقُ فَكَلَامُ اللَّهِ تعالى أَصْدَقُ الْكَلَامِ، وَأَمَّا الْفَصَاحَةُ فَكَلَامُ اللَّهِ تعالى أَفْصَحُ الْكَلَامِ؛ وَلِهَذَا عَجَزَ الْعَرَبُ - مع كَمَالِ فَصَاحَتِهِمْ - عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَأَمَّا الْإِرَادَةُ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم

(٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)، وأحمد

(٤٣٨/٥) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقد قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: لئلا تَضِلُّوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

فإذا أَخْبَرَنَا اللهُ تعالى عن صِفَةٍ من صِفَاتِهِ وَجَبَ عَلَيْنَا قَبُولُ هَذَا الْخَبَرِ، وَاعْتِقَادُ مَدْلُوْلِهِ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُحَرِّفَ مَعْنَاهُ إِلَى مَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ إِلَّا بِدَلِيلٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَهَذِهِ هِيَ الْجَادَّةُ الَّتِي بَنَى أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَقِيدَتَهُمْ عَلَيْهَا.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- من فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ لِتَقْرِيْبِ الْمَعْقُولَاتِ؛ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ تَكُونُ أُمُورًا مُحْسُوسَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْأُمُورِ الْمَعْقُولَةِ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الْإِيضَاحَ وَالْبَيَانَ، وَكَانَ ذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ، أَنْ يُبَيِّنَ ذَلِكَ بِالْمَثَلِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

٣- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ النَّاسَ يَنْقَسِمُونَ فِيمَا ضَرَبَ اللَّهُ مِنَ الْأَمْثَالِ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ مُصَدِّقٌ مُؤْمِنٌ مُوقِنٌ بِأَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ، وَقِسْمٌ آخَرٌ مُسْتَكْبِرٌ سَاخِرٌ يَقُولُ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هَكَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿[التوبة: ١٢٤-١٢٥]، فهذا القرآنُ يَنْقَسِمُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ، فَمَنْ اهْتَدَى بِهِ فَقَدْ وَفَّقَ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَاسْتَكْبَرَ فَقَدْ حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، وَأَخْبَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَلْجَأَ إِلَيْهِ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا فَائِدَةٌ، وَهِيَ: اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ مِنْهُ، وَالْعِصْمَةِ مِنَ الضَّلَالِ، وَالْأَيْ اعْتِمَادَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُزَكِّيْهَا، وَلَا يَرَى اللَّهُ عَلَيْهِ فَضْلًا بِالْهِدَايَةِ، فَالْهِدَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ هِدَايَةَ اللَّهِ وَإِضْلَالَهُ مَبْنِيَّانِ عَلَى الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ إِلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْإِضْلَالِ، وَهُمْ الْفَاسِقُونَ.

وَنَظِيرُ هَذَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فَمَنْ كَانَ طَالِبًا لِلْخَيْرِ، وَسَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تُوصِلُهُ إِلَيْهِ وَفَّقَ لَهُ، وَمَنْ فَسَقَ وَأَعْرَضَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثباتُ الْإِرَادَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْإِرَادَةُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إِرَادَةُ شَرْعِيَّةٍ، وَإِرَادَةُ كَوْنِيَّةٍ.

فَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ: هِيَ الَّتِي بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

والإرادة الكونية: هي التي بمعنى المشيئة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والفرق بينهما: أن الإرادة الشرعية تتعلق بما أحبه الله، سواء وقع أم لم يقع، والإرادة الكونية تتعلق بما قدره وقضاه، سواء كان محبوبه، أو لا محبوبه.

والفرق الثاني: أن الإرادة الشرعية قد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، والإرادة الكونية يقع فيها المراد بكل حال؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: «كُنْ» فيكون، ولا معقب لحكمه، وهو السميع العليم.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، فكان فسقهم سبباً في إضلال الله لهم.

٨- ومن فوائدها: الحذر من الفسق، وهو الخروج عن طاعة الله، والفسق قد يكون كفراً، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِينَ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿[السجدة: ١٨-٢٠].

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧)

هذه من أوصاف أهل الفسق، يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وعَهْدُ اللَّهِ الذي عَهَدَ به إلى عِبَادِهِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فقد رَكَزَ اللَّهُ تَعَالَى فِي فِطْرَةِ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ هُوَ الذي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ؛ كما جاء في الحديث الصَّحِيح: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(١).

ومن أوصافهم: أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ حُقُوقِهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، فهم لَا يُبَالُونَ بِقَطِيعَةِ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَالبُعْدِ عَنْهَا، بَلْ يَحْرِصُونَ غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهم كَذَلِكَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنَ الْأَقَارِبِ وَالْجِيرَانِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَغير ذلك؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَمَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الصَّلَاتِ -صَلَاتِ الْخَلْقِ- فَإِنَّمَا يَفْعَلُهَا لَا مِنْ بَابِ التَّعَبُّدِ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ الْعَادَةِ أَوِ السَّحِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا طَبِيعَةُ الْمُجْتَمَعِ.

وَأَمَّا الْوَصْفُ الثَّالِثُ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الْفِسْقِ فَهُوَ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ كما قال الله تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا بُدَّ لِي لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، رقم (٤٧٧٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١]، فالفساد في الأرض ليس بتكسير الجسور، وحفر الحنادق للسقوط فيها، وما أشبه ذلك من الفساد، ليس بهذا فحسب، بل بكل معصية يعصون الله بها، فإنها سبب للفساد في الأرض.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ نَتِيجَةَ هَؤُلَاءِ وَمَالَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، هَؤُلَاءِ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى خَيْرٍ، وَأَنَّهُمْ رَابِحُونَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَحَصَرَ الْخُسْرَانَ فِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّبَّ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْمَوْجِبَةِ لَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فَكُلُّ إِنْسَانٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَوْصَافِ الْفَسَقَةِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: التَّحْذِيرُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَهُمْ الْمُسْتَحِقُّونَ لِإِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِعَهْدِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَبْنَئِ إِنْ شِئْتُمْ أَدْرُكُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

٤- ومن فوائدها: وَجُوبُ صَلَاةٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِصَلَاتِهِ، وَعَلَى رَأْسِ ذَلِكَ: صَلَاةُ الْأَرْحَامِ الشَّامِلَةِ لِزَوَالِدَيْنِ، وَصَلَاةٍ مِّنْ عَدَاهُمَا، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ: أَنْ يَصِلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي صَلَاةٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فَوَائِدَ عَظِيمَةً، فَإِنَّ مَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ قَطَعَهُ اللَّهُ.

فعلى المرء أن يكون قائماً بالقسط والعدل؛ حتى تحصل له الصلة من الله عز وجل، ومن وصله الله فهو على خير.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الإفساد في الأرض من صفات الفاسقين، وعلى هذا فيكون الإصلاح في الأرض من أوصاف أهل الخير والعدل والاستقامة.

فيتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب على الإنسان أن يتبعد عن كل ما يكون سبباً للإفساد، وأن يسعى في كل ما يكون سبباً للإصلاح.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات -الفسق، وما أضيف إليه من هذه الأوصاف- هم الخاسرون الذين لا ربح لهم في الدنيا، ولا في الآخرة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨)

في هذه الآية استفهامٌ بمعنى التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا، فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، كَانُوا أَمْوَاتًا قَبْلَ أَنْ يَنْفَخَ اللَّهُ فِيهِمُ الرُّوحَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ مَيِّتٌ جَمَادٍ، فَيُحْيِيهِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، وَيَخْرُجُ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَعْمَلُ وَيَكْدَحُ، ثُمَّ يُمِيتُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يُحْيِيهِ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا مَوْتُ، وَيَرْجِعُهُ إِلَيْهِ؛ لِيُوفِّيَهُ مَا عَمِلَ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- في هذه الآية الْكَرِيمَةِ: الْإِنْكَارُ عَلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، مَعَ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ اعْتَنَى بِهِمْ هَذِهِ الْعِنَايَةَ، فَأَوْجَدَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَحْيَاهُمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِشُكْرِ هَذَا الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- من فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ مَيِّتٌ جَمَادٍ، لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الْأَحْيَاءِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ لَوْ سَقَطَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَإِنَّهُ لَا يُغَسَّلُ، وَلَا يُكْفَنُ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَلَا يُدْفَنُ مَعَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ قِطْعَةٍ لَحْمٍ، يُدْفَنُ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَسْمِيَةٍ، وَلَا إِلَى عَقِيقَةٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَتَى تَكُونُ الْحَيَاةُ فِيهِ؟

فالجواب: أتمها تكون إذا تم له أربعة أشهر؛ كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ؟ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»^(١)، فالأربعون الثلاث تكون أربعة أشهر.

٣- ومن فوائد هذه الآية: بيان قدرة الله عز وجل بإحياء الموتى، فإنه لا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا الله عز وجل، ولهذا لما حاج إبراهيم ذلك الرجل الذي حاجه في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فبين له إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ربه هو الذي يحيي ويميت؛ لأنه لا يملك ذلك إلا الله.

وأما قول هذا المحاج: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فهذا من باب التلبيس والتّمويه؛ حيث زعم أنه يستطيع الإحياء والإماتة، ولما كان هذا أمرًا قد يحفى على الناس أو يلتبس عليهم قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تقرير البعث بأحسن حجة، وذلك أن الإنسان كان جمادًا ميتًا، ثم أحياه الله، ثم يميته مرة ثانية، ثم يحييه، فالقادر على

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي، رقم (٢٦٤٣).

إِحْيَائِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرجوع إلى الله تعالى؛ للمُجازاة على العمل؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٦- ومن فوائدها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِهَذِهِ الرَّجْعَةِ إِلَى اللَّهِ؛ لِيَنْظُرَ مَاذَا يُقَابِلُ بِهِ رَبَّهُ؟ فَلْيَحْرِصْ عَلَى أَلَّا يَفْقِدَهُ اللَّهُ حَيْثُ أَمَرُهُ، أَوْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يُرْجَعُ إِلَى اللَّهِ، وَيُنَبِّئُهُ بِعَمَلِهِ.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ الْمَوْتَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ مَوْتَهُ حَيَاةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَيِّتِ هُنَا: مَنْ لَمْ تُنْفَخْ فِيهِ الرُّوحُ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَي: أَوْجَدَهُ لَكُمْ لِمَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ؛ عِنَايَةً بِكُمْ وَرَحْمَةً.

﴿مَا﴾ هنا: اسمٌ مَوْصُولٌ عامٌّ شامِلٌ لِكُلِّ ما في الأرضِ، وأكَّدَ هذا العُمومَ بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

ثمَّ بعد خَلْقِ هذا ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ علّا إليها، ﴿فَسَوَّيْنَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: أَتَمَّهِنَّ وَأَكْمَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو مع عُلُوِّهِ عَزَّوَجَلَّ على هذه السَّمَوَاتِ السَّبْعِ لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاءِ، بل هو بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وهذه الآية لها صِلَةٌ بما قبلها؛ حيثُ تَدُلُّ على عِنايةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِنَا، وَتَيْسِيرِهِ، وَتَسْهِيلِهِ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أَنَّ الخَالِقَ هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وَأَنَّهُ لا خَالِقَ إِلَّا اللهُ.

وقد نَحَدَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخَلْقَ أَنْ يَخْلُقُوا شَيْئًا وَلَوْ قَلَّ؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٢]، فالله تعالى هو الخالقُ لِكُلِّ ما في الأرضِ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الأصلَ في كُلِّ ما في الأرضِ من أعيانٍ وَمَنَافِعَ

الأصل فيه الحل والإباحة حتى يقوم دليل على التحريم؛ لأن اللام بمعنى الإباحة هنا، فكل ما في الأرض من الأعيان والمنافع الأصل فيه الحل، ومن ادعى تحريم شيء منه فعليه الدليل.

وهذه القاعدة قاعدة مهمة تنفعك في كثير من المسائل، فعندما يختلف اثنان في حل هذا المأكول أو تحريمه نقول: الأصل الحل، فمن يدعي أنه حرام فعليه الدليل، فإن لم يأت بدليل خاص على تحريم هذا الشيء المعين أو بدليل عام على تحريم هذا الشيء المعين فإن القول قول من قال بالحل.

وعندما يختلف اثنان في عمل في الأرض من حراثة أو غيرها فإننا نقول: الأصل الحل إلا ما قام الدليل على تحريمه.

ولو تنازع رجلان في حل حيوان، فقال أحدهما: هذا حلال، وقال الثاني: هذا حرام، فإن القول قول من يقول بأنه حلال حتى يوجد مدعي التحريم دليلاً على أنه حرام.

وعلى هذه القاعدة: يجوز للإنسان أن يتمتع بكل ما في الأرض من مأكول ومشروب، ولا حرج عليه في ذلك، إلا أن يقوم دليل على التحريم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله عز وجل على عباده؛ حيث وسع لهم هذه التوسعة البالغة بأن كل ما في الأرض فهو حلال لهم.

٤- ومن فوائدها: أن الأرض خلقت قبل السماء؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾، وهذا هو الذي تدل عليه آية فصلت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أَنذَادُ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنًا ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿فصلت: ٩-١٢﴾.

وَأَمَّا الْآيَاتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَنَكُمَا فَسَوَّيَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿النازعات: ٢٧-٣٣﴾ فَإِنَّهَا لَا تُنَافِي هَذِهِ الْآيَةَ، وَلَا آيَةٌ فَصَّلَتْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دَحَوَ الْأَرْضِ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ كَانَ سَابِقًا عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علو الله عز وجل بذاته؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، وقد سبق أن ذكرنا هذا، وأنه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَأَنَّ لَهُ الْعُلُوَّ الْمُطْلَقَ: عُلُوَّ الذَّاتِ، وَعُلُوَّ الصِّفَةِ.

فَعُلُوُّ الذَّاتِ: هو أَنَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعُلُوُّ الصِّفَةِ: هو أَنَّ جَمِيعَ صِفَاتِهِ عُلْيَا كَامِلَةٌ، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بَوَاجِهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ السَّمَوَاتِ سَبْعٌ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وَأَمَّا الْأَرْضُ فَلَمْ تُذَكَّرْ صَرِيحًا بِهَذَا الْعَدَدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَكِنْ فِي الْقُرْآنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا سَبْعٌ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

[الطلاق: ١٢]، فَإِنَّ الْمِثْلِيَّةَ هُنَا لَيْسَتْ فِي الصِّفَةِ وَلَا فِي الْحُجْمِ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ أَعْظَمَ مِنَ الْأَرْضِ وَأَوْسَعُ وَأَكْبَرُ، وَلَكِنَّهَا فِي الْعَدَدِ.

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ جَاءَتْ صَرِيحَةً بِأَنَّ الْأَرْضَ سَبْعٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا مُكْرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرًا، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وَهَذَا الْعِلْمُ عِلْمٌ كَامِلٌ لَيْسَ فِيهِ نَقْصٌ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ حَوْلَ خَلْقِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، فَيَقُولُ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾، وَهَذَا التَّرْكِيبُ كَثِيرٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم، رقم (١٦١٠/١٣٧)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في القرآن، أعني: (إذ) التي تُبتدأُ بها القِصَّةُ، قال أهل العلم: وهي مَنْصُوبَةٌ بِفِعْلِ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «اذكُرْ».

والملائكة: هم عالمٌ غَيْبِيٌّ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ، خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ لِعِبَادَتِهِ، فَقَامُوا بِهَا، فَكَانُوا يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ.

قال لهم عَزَّجَلَّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَي: خَلِيفَةً لِمَنْ سَبَقَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَانَّ قَدْ سَبَقَ خَلْقَهُمْ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٦١) وَلِجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿[الحجر: ٢٦-٢٧].

وكان الجنُّ قد أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَلَمَّا قَالَ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قَالُوا مُسْتَفْهِمِينَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فَسَأَلُوا اللهَ عَزَّجَلَّ: هَلْ يَجْعَلُ فِيهَا خَلِيفَةً تَكُونُ كَمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَسَفَكِ الدِّمَاءِ؟ مُسْتَفْهِمِينَ هَذَا الْإِسْتِفْهَامَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، فَقَالَ اللهُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ عِنْدَهُ عَزَّجَلَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ عَالِمٌ جَلَّ وَعَلَا بِأَنَّ هَذِهِ الْخَلِيفَةَ سَيَكُونُ مِنْهَا الْأَنْبِيَاءُ، وَالصُّدِّيْقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَنِعَمَ الْخَلِيفَةُ يَكُونُونَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- إثباتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ يَقُولُ الْقَوْلَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَحُرُوفٍ مُتَتَالِيَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ،

وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمة، بأن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع بحروف متتالية، وأنه يقول كذلك قولاً بحروف متتابعة، وصوت مسموع، والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله عز وجل برسوله محمد ﷺ؛ وذلك بإضافة ربوبيته تعالى إليه، أي: إلى الرسول ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم؛ وذلك أن ربوبية الله تعالى عامة وخاصة، فالعامة: الشاملة لجميع الخلق، المقتضية للملك وتدبير شؤون الخلق عموماً، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس [الناس: ١-٦]، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ عموماً، والآيات في هذا كثيرة.

وأما الربوبية الخاصة: فهي التي يضيفها الله عز وجل إلى سادات البشر، كالأنبياء ونحوهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، وأن الملائكة لهم عقول وفهوم يتكلمون ويحاورون؛ فإن الله تعالى قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. وفي هذا: إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيرة، وليست أجساماً تتكلم أو تسمع؛ فإن هذا قول باطل، يردّه الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قيام الأفعال بالله عَزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فَإِنَّ الْجَعْلَ يَقْتَضِي إِيجَادًا بَعْدَ عَدَمٍ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الذَّاتِ اللَّازِمَةِ لِدَاتِهِ، وَبِصِفَاتِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، هَذَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ وَأُثْمَةِ الْأُمَّةِ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارةُ إلى أَنَّ لِلْأَرْضِ عُمَارًا قَبْلَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أَي: يَخْلُقُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ الْأُمَّةَ السَّابِقَةَ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ مَا اقْتَضَى أَنْ تَسْأَلَ الْمَلَائِكَةُ رَبَّهَا عَزَّجَلَّ: هَلْ يَجْعَلُ فِي هَذِهِ الْخَلِيفَةِ مَنْ يَكُونُ كَمَنْ سَبَقَهُمْ؟ لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تَعْظِيمُ شَأْنِ الدِّمَاءِ؛ وَلِهَذَا خَصَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ سَفْكَ الدِّمَاءِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، لَكِنْ لَمَّا عُطِفَ عَلَى الْعَامِّ -وهو خاصٌّ- دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ شَغَلُوا أَوْقَاتَهُمْ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ.

وَتَسْبِيحُ اللَّهِ مَعْنَاهُ: تَنْزِيهُهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْزَهُ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، سِوَاءِ أَكَانَ النِّقْصُ فِي صِفَةٍ كَمَا لَهُ، أَمْ كَانَ نَقْصًا مُسْتَقِلًّا، وَكَذَلِكَ

نقول في العُيُوبِ، فَيُنَزَّهُ اللهُ تعالى عن الوَصْفِ بالعَجْزِ والجَهْلِ والْعَمَى والمَوْتِ وما أشبه ذلك من الصِّفَاتِ النَّاقيصَةِ.

وَيُنَزَّهُ صِفَاتُهُ الْكَامِلَةَ عَنْ أَنْ يَلْحَقَهَا شَيْءٌ مِنَ النَّقْصِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمع خَلْقِ هذه المخلوقاتِ الْعَظِيمَةِ في هذه الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ لم يَلْحَقْهُ عَرَجَلٌ لُغُوبٌ، وهو التَّعَبُ والإِعْيَاءُ.

وَيُنَزَّهُ عَرَجَلٌ عَنْ مُشَابَهَةِ المخلوقين؛ لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ نَقْصٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إِذَنْ: الذي يُنَزَّهُ اللهُ عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: مُشَابَهَةُ المخلوقين، والنَّقْصُ الْمُجَرَّدُ، والنَّقْصُ فِي صِفَاتِ كَمَالِهِ.

وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وَلَمْ يَقُولُوا: «نُقَدِّسُكَ» يُسْتَفَادُ مِنْهُ: إِخْلَاصُ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ اللَّامَ هُنَا لِلِاخْتِصَاصِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْفِعْلَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، لَكِنْ عُدِّي بِاللَّامِ؛ إِشَارَةً إِلَى إِخْلَاصِهِمْ، وَأَنَّ التَّقْدِيسَ خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ.

٩- ومن فَوَائِدِ هذه الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ كَمَالِ عِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- ومن فَوَائِدِهَا: إِثْبَاتُ التَّفْضِيلِ فِي صِفَاتِ اللهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي ذلك: رَدُّ عَلَى مَنْ إِذَا مَرُّوا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي فِيهَا اسْمٌ تَفْضِيلٌ حَوَّلُوا اسْمَ التَّفْضِيلِ إِلَى اسْمِ فَاعِلٍ، وَقَالُوا: ﴿عَلِمَ﴾ أَي: عَالِمٌ؛ فَإِنَّ هَذَا صَرَفٌ لِلْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِلَا دَلِيلٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ هُوَ تَنْقِصٌ مِنَ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ (أَفْعَلَ) التَّفْضِيلَ يَمْنَعُ الْمُشَارَكَةَ فِي الْكَمَالِ، لَكِنْ اسْمُ الْفَاعِلِ لَا يَمْنَعُ الْمُشَارَكَةَ فِي الْوَصْفِ، بَلْ وَلَا يَمْنَعُ الْمُسَاوَاةَ وَالْمِثَالَةَ أَيْضًا.

١١ - نَقُصُّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ، وَعَلَى هَذَا إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ فَكُلِّ عِلْمُهُ إِلَى مَنْ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُعَلِّمَكَ مَا لَا تَعْلَمُ، وَقُلْ: رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ عَنْ تَعْلِيمِهِ لِآدَمَ - وَهُوَ أَبُو الْبَشَرِ - الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، فَقَدْ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ، ثُمَّ عَرَضَ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أَي: أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لِئَرِيَهُمْ عَزَّجَلَّ مِقْدَارَ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّ عِلْمَهُمْ نَاقِصٌ؛ حَيْثُ جَهِلُوا أَسْمَاءَ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ، إِذَا جَهِلُوا أَسْمَاءَ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ فَإِنَّهُمْ بِجَهْلِ الْمُسْتَقْبَلِ لِهَذِهِ الْخَلِيفَةِ الَّتِي أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُهَا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى وَأُخْرَى.

وقال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، ولم يقل: «عَرَضَهَا» أي: الأسماء؛ لأنه عَرَضَ عليهم
 الْمُسَمَّياتِ؛ كما يَدُلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
 فيما عندكم من الْعِلْمِ، ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: نُزِّهَكَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْنَا عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ،
 ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

فَوَائِدُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

- ١- في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إظهارُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِفَضْلِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ عَلَّمَهُ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.
- ٢- ومن فَوَائِدِهَا: حِكْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِامْتِحَانِ الْمَلَائِكَةِ بِعَرَضِ هَذِهِ
 الْمُسَمَّياتِ الَّتِي عَلَّمَ آدَمَ بِأَسْمَائِهَا؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ نَقْصَانُ عِلْمِهِمْ.
- ٣- ومن فَوَائِدِهَا: إثباتُ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ وَحُرُوفٍ
 مُتَتَابِعَةٍ؛ كما في قَوْلِهِ: ﴿أَنْثُوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.
- ٤- تَنْزِيهِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَعْظِيمُهُمْ لَهُ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، وَقَدْ سَبَقَ
 فِيهَا مَضَى ذِكْرُ مَا يُنَزَّهُ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النَّقَائِصِ، وَالْعُيُوبِ، وَمُمَائِلَةِ الْمَخْلُوقِينَ.
- ٥- أَنَّ جَمِيعَ الْعُلُومِ الَّتِي عِنْدَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿لَا عِلْمَ
 لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَهُمْ مِنَ الْمَزِيَّةِ وَالْفَضْلِ مَا هُمْ
 أَهْلٌ لَهُ فَغَيْرُهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلِهَذَا لَا أَحَدٌ يُحِيطُ بِعِلْمِ اللَّهِ؛ كما قال اللَّهُ تَعَالَى:
 ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العَلِيمُ) و(الحَكِيمُ)، فأما العَلِيمُ: فهو ذُو الْعِلْمِ الْكَامِلِ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وقد سَبَقَ لَنَا بيان إحاطة عِلْمِ اللَّهِ تعالى بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا.

وأما الحَكِيمُ: فهو من الحُكْمِ والإِحْكَامِ أَيْضًا، فاللَّهُ تعالى لَهُ الحُكْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، لَهُ الحُكْمُ الْكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ، فلا حَاكِمَ فِي الْخَلْقِ إِلَّا اللَّهُ، ولا حَاكِمَ بَيْنَهُمْ إِلَّا اللَّهُ.

وأما الإِحْكَامُ فهو إتْقَانُ الشَّيْءِ، بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، ولهذا قالوا: الْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوَاضِعِهِ، وبذلك يَتَبَيَّنُ كَمَالُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قَالَ يَتَّخِذُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَاسْمَاءَهُمْ قُلُوبًا مَّغْلُوبَةً، فَمَلَأَ بِأَسْمَائِهِمُ الْقُلُوبَ، وَلَكِن لَّا يَخْتَصِرُهَا اللَّهُ فِي أَزْوَاجٍ مُّطَهَّرَةٍ، إِنَّهُمْ فِي صِلَىٰ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٣٣)

في هذه الآية يُنَادِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَأْمُرُهُ أَنْ يُنَبِّئَ الْمَلَائِكَةَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُسَمَّيَاتِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَظْهَرَ فَضْلُ آدَمَ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَمُسَمِّيَاتِهَا.

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمِ آدَمُ بِأَسْمَائِهِمْ -أي: بأسماء هذه المُسَمَّياتِ- قال الله تعالى مُخَاطَبًا الْمَلَائِكَةَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غَابَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَنْ مُشَاهَدَةِ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَيَشْمَلُ هَذَا: مَا غَابَ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ فِي مَكَانٍ آخَرَ لَيْسُوا فِيهِ، وَمَا غَابَ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ عِلْمِ الْمُسْتَقْبَلِ.

وَكَوْنُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقْتَضِي -بِالْأُولَوِيَّةِ- أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالشَّهَادَةِ.

وقال: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُحُونَ﴾ أي: مَا تُبْدُونَهُ وَتُظْهِرُونَهُ، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَلَا تُبْدُونَهُ لِأَحَدٍ.

من أحكام وفوائد هذه الآية:

١- إثبات كلام الله عَزَّجَلَّ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَحُرُوفٍ مُتَتَابِعَةٍ، يَسْمَعُهُ الْمُخَاطَبُ وَيَفْهَمُهُ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

٢- وفيها من الفوائد العظيمة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْمَعْنَى النَّفْسِيَّةُ الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَيْسَ بِكَلَامٍ، وَلَا يُسْمَعُ.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فَضْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا عَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَمُسَمَّيَاتِهَا.

٤- ومن فوائدِهَا أَيْضًا: مِنْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمْ مِنْ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ مَنْ تَمَامَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ: أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ الْحَقَّ بِالطَّرِيقِ الَّتِي يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَمْ يُبَيِّنِ الْحَقَّ، وَلَتَرَكَ الْإِنْسَانَ يَعْصِمُهُ وَيَضِيعُ فِي ضَلَالِهِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَا يُعَلِّمُهُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي قَدْ يَضِلُّ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثباتُ عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وذلك لأنَّ الْعَالِمَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ بِالشَّهَادَةِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

٦- ومن فوائدها أيضًا: تذكيرُ الْمُخَاطَبِ بما كان من قَبْلُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يُقَرِّرُ ذَلِكَ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِمْ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا قَالَهُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ الْمُنَاطِقُ لِلْوَاقِعِ.

٧- ومن فوائدها: عُمُومُ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا فَعَلَهُ خَلْقُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ لِلْمَلَائِكَةِ إِرَادَةً وَقُدْرَةً عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَهَذَا فِيهِ تَكْذِيبُ دَعْوَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ، بَلِ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ عُقُولٌ بَلَا شَكٍّ، وَلَهُمْ إِرَادَاتٌ، وَلَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى الْأَعْمَالِ، يُؤْخَذُ هَذَا: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُبْذِرُ مَا تُبْذِرُ، وَتَكْتُمُ مَا تَكْتُمُ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ وَإِرَادَةٍ وَقُدْرَةٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ كَلِمَةٌ مُقَدَّرَةٌ يُبَيِّنُهَا السِّيَاقُ، وَالتَّقْدِيرُ: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ:

اسْجُدُوا لِآدَمَ»، يَعْنِي: اذْكُرْ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، مُنَوَّهَا بِفَضْلِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ أُمِرَتِ الْمَلَائِكَةُ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ؛ تَعْظِيمًا وَاعْتِرَافًا بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْفَضْلِ.

لَكِنَّ هَذَا السُّجُودَ لَيْسَ سُجُودَ عِبَادَةٍ، يَكُونُ كَسُّجُودِ الْمَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ، بَلْ هُوَ سُجُودٌ تَعْظِيمٍ مُجَرَّدٌ عَنِ التَّعَبُّدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي صِغَةِ

الْعُمُومِ: أَنْ تَكُونَ شَامِلَةً لِجَمِيعِ أَفْرَادِهَا، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى التَّخْصِيسِ، أَوْ إِرَادَةِ الْخُصُوصِ.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا أُمِرُوا بِالسُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَجَدُوا،

وَلَمْ يَسْتَنكِفُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا إِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ أَبَى أَنْ يَسْجُدَ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ السُّجُودِ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِبَاءَهُ لَمْ يَكُنْ لِعُذْرٍ أَوْ لِمَانِعٍ يُعَذِّرُ

بِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ اسْتِكْبَارٍ فِي قَلْبِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى سَبَبَ إِبَائِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ؛ حَيْثُ قَالَ:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَقَالَ: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ

طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ: هَلْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ، أَمْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْفَصِلٌ؟ وَالْإِسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ، وَلَا يُعَدَّلُ عَنْهُ إِلَّا بِقَرِينَةٍ، أَيْ: بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ.

وَالْإِسْتِثْنَاءُ الْمُنْقَطِعُ: هُوَ الَّذِي يَكُونُ الْمُسْتَثْنَى فِيهِ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ. فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ هُنَا مُتَّصِلٌ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: أَنَّ الْمُسْتَثْنَى لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَاسْتَدَلَّ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(١)، وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ، لَكِنَّهُ يُشْكِلُ عَلَيْهِ: كَيْفَ يَكُونُ إِبْلِيسُ مِنْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؟

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا أَنْ نَقُولَ: صَحَّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي عَامَّتِهِمْ، أَيْ: أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ، يَعْمَلُ بِعَمَلِهِمْ، وَيَتَعَبَّدُ كَمَا يَتَعَبَّدُونَ، لَكِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الطَّبَعُ الْحَيِثُ، فَلَمَّا أُمِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ آدَمَ، وَأَنَّ الْأَعْلَى لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَظَّمَ الْأَدْنَى، فَحَمَلَهُ إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ، وَاحْتِقَارُهُ لِآدَمَ، عَلَى أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَبِهَذَا يَزُولُ الْإِشْكَالُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهنا قال: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كان من الكافرين بإبائه واستكباره، وعلى هذا فلا تكون (كان) هنا دالة على المضى.

ومنهم من قال: إن (كان) دالة على المضى، ولكنه كان في علم الله من الكافرين، والأوّل أصح، أي: أن المراد بها: مجرد بيان اتّصاف اسمها بخيرها، وهذا موجود في القرآن كثيرًا، أي: أن تأتي (كان) مسلوطة الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها: مجرد تحقيق الصفة، ويقع ذلك كثيرًا في صفات الله عزّ وجلّ، ألم تر إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، مع أنّه لم يزل ولا يزال كذلك؟

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - بيان فضيلة آدم عليه الصّلاة والسّلام؛ حيث أمر الملائكة الكرام بأن يسجدوا له.

٢ - أن عبادة الله هي طاعته، حتّى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركًا، فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان طاعة، كما أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالًا لأمر الله كان من الطاعة، فهذا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمره الله أن يقتل ابنه، وقتل الابن من كبائر الذنوب بلا شك، ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ولكن الله عزّ وجلّ لما ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم عزّ وجلّ أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام منقذ لأمره، حتّى تلّ ابنه للجبن ليذبحه، نزل الفرج من الله سبحانه وتعالى بنسخ هذا الأمر: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أقول:

إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَوْ كَبِيرَةً، فَإِذَا وَقَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ كَانَ طَاعَةً وَقُرْبَةً.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان مُتَظَاهِرًا بِعَمَلٍ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ظَاهِرًا، ولهذا صَحَّ تَوَجُّهُ الْخُطَابِ مِنَ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْلِيسَ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِمْ، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ فِيهِمْ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ تَوَجَّهَ الْخُطَابُ إِلَيْهِ.

وهكذا كان الرَّسُولُ ﷺ يُعَامِلُ مَنْ تَلَبَّسَ بِالْإِسْلَامِ ظَاهِرًا مُعَامَلَةً الْمُسْلِمِينَ، ولهذا لم يَقْتُلِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، لَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الظَّاهِرِ.

٤- وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد: الحَذَرُ مِنَ الرَّجْسِ وَالسَّرِيرَةِ الْخَبِيثَةِ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ غَلَبَهُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الرَّجْسِ وَالسَّرِيرَةِ الْخَبِيثَةِ حَتَّى اسْتَكْبَرَ وَأَبَى، فَرَجَعَ إِلَى أَصْلِهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ: الْحَذَرُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السَّرِيرَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَأَنْ يَصْقَلَ قَلْبُهُ دَائِمًا مِنْهَا؛ حَتَّى لَا تُوقِعَهُ فِي الْهَلَاكِ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ففِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ التَّقَى هُوَ الْمَشْرِكُونَ فَاقْتُلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً^(١) إِلَّا اتَّبَعَهُ يَضْرِبُهُ بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ

(١) أي: أَنَّهُ لَا يَدْعُ أَحَدًا؛ عَلَى طَرِيقِ الْمَبَالِغَةِ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: يَقَالُ: فَلَانٌ لَا يَدْعُ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِذَا كَانَ شَجَاعًا، لَا يَلْقَاهُ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ.

مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأُ فُلَانٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ^(١) بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِّي أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ سَرِيرَةً أَوْدَتْ بِهِ إِلَى أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ: أَنْ يَتَفَقَّدَ قَلْبَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ؛ حَتَّى يُطَهِّرَهُ وَيُمَحِّصَهُ؛ لِئَلَّا تَسُوءَ خَاتِمَتُهُ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ تَرْكَ السُّجُودِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ كُفْرٌ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهذه الآية مَنْ قَالَ: إِنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ يَكْفُرُ، فَقَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ كَفَرَ بِتَرْكِ سَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ أَمَرَ بِهَا لِغَيْرِ اللَّهِ، فَمَا بِالْكَ بِمَنْ يَتْرُكُ صَلَاةَ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَأَنْ تَكُونَ لِنَفْسِهِ عَزَّوَجَلَّ؟! فَيَكُونُ كُفْرُهُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَالِاسْتِدْلَالُ بِهذه الآية عَلَى هذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ذباب السيف: طرفه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يقال: فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

في هذه الآية الكريمة يُخَبِّرُ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنَّهُ قَالَ لِآدَمَ مُتَمَتِّعًا عَلَيْهِ: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾، وَزَوْجُهُ: هِيَ حَوَاءُ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ ضَلَعِ آدَمَ، فَهِيَ مِنْ أَبٍ بِلَا أُمٍّ. وَالْمُرَادُ بِالْجَنَّةِ: إِمَّا جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى الْمُتَّقِينَ، وَإِمَّا جَنَّةَ فِي الدُّنْيَا، بُسْتَانُ ذُو أَشْجَارٍ كَثِيرَةٍ، لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى الَّتِي هِيَ مَأْوَى الْمُتَّقِينَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهَا جَنَّةٌ فِي الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ بُسْتَانٍ ذِي أَشْجَارٍ كَثِيرَةٍ.

وَالْأَقْرَبُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَعْلُومَةُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَالْأَصْلُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْفِظِ مَعْنَى مَفْهُومٌ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ فَإِنَّهُ يُحْمَلُ عَلَيْهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ مُفِيدَةٌ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ: أَنَّ الْأَصْلَ فِي النُّصُوصِ: حَمْلُهَا عَلَى مَا هُوَ مَعْلُومٌ وَمَفْهُومٌ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

وَأَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ رَغَدًا بِطُمَأْنِينَةٍ وَسَعَةٍ وَكَثْرَةٍ، حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ، إِلَّا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَاهُمَا عَنْ قُرْبَانِ شَجَرَةٍ عَيْنَهَا لَهُمَا بِالْإِشَارَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جِنْسَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ضَرُورَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ جِنْسِهَا، الْمُهْمُّ: مَعْرِفَةُ الْقَضِيَّةِ وَمَغْزَاهَا.

وَيَن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَّتُهُمَا إِذَا قَرَّبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، وَأَكَلَا مِنْهَا، فَإِنَّهُمَا يَكُونَانِ مِنَ الظَّالِمِينَ لِأَنفُسِهِمَا؛ لَتَعَرَّضِيهِمَا لِمَا حَصَلَ؛ حَيْثُ أَخْرَجَهُمَا أَكَلُهُمَا مِنْهَا مِنَ الْجَنَّةِ.

من فوائد هذه الآية:

١ - إثبات القول لله، وأنه عزَّ وجلَّ يُخَاطَبُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَحُرُوفٍ مُرْتَبَّةٍ، ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا﴾ الآية.

٢ - ومن فوائدها: امتِنَانُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى آدَمَ؛ حَيْثُ أَسْكَنَهُ وَزَوْجَهُ الْجَنَّةَ.

٣ - ومن فوائدها: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ حَيْثُ خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ضَلْعِ آدَمَ، مِنْ أَبِي بَلَا أُمَّ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَالْإِنْسَانُ بِاعْتِبَارِ مَبْدَأِ خَلْقِهِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ:

■ قِسْمُ خُلِقَ بِلَا أُمَّ وَلَا أَبِي، وَهُوَ آدَمُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «كُنْ»، فَكَانَ.

■ وَقِسْمُ خُلِقَ مِنْ أَبِي بَلَا أُمَّ، وَهِيَ حَوَاءُ، خُلِقَتْ مِنْ ضَلْعِ آدَمَ.

■ وَقِسْمُ خُلِقَ مِنْ أُمَّ بَلَا أَبِي، وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

■ وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ خُلِقَ بَيْنَ أَبَوَيْنِ، أَي: مِنْ أُمَّ وَأَبٍ، وَهُمْ سَائِرُ الْبَشَرِ.

ومع هذا فإنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ

الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِئْثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]،

ففي هذه الآية أَنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنْ حَيْثُ الْإِنْجَابُ وَعَدَمُهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَهْبُهُ اللَّهُ ذُكُورًا بِلَا إِنْثٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْبُهُ اللَّهُ إِنْثًا بِلَا ذُكُورٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُزَوِّجُهُ اللَّهُ، أَي: يَجْعَلُ نَسْلَهُ صِنْفَيْنِ، وَالزَّوْجُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى: الصَّنْفِ، وَلَهَا نَظَائِرُ فِي أَنَّ

الرَّوْجَ يُرَادُّ بِهِ الصَّنْفُ؛ كما في قَوْلِهِ: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ [ص: ٥٨]، وقَوْلِهِ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]؛ أي: أَصْنَافَهُمْ ونُظَرَاءَهُمْ.

والصَّنْفُ الرَّابِعُ: مَنْ يَجْعَلُهُ عَقِيماً لَا يُؤَلِّدُ لَهُ، وَكُلُّ هَذَا بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحِكْمَتِهِ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الْإِنْسَانَ رُبِّمَا يَخْتَارُ مَا هُوَ أَدْنَى عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ؛ لِمَا تُسَوَّلُ بِهِ نَفْسُهُ لَهُ، فَهنا آدَمُ وَحَوَاءُ أَذِنَ اللَّهُ لَهُمَا أَنْ يَأْكُلَا رَعْدًا مِنْ حَيْثُ شَاءَا، وَمَنْعَهُمَا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وَمَعَ ذَلِكَ حَصَلَتْ مِنْهُمَا مُحَالَفَةٌ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ التَّعْيِينَ يَكُونُ بِالْإِشَارَةِ كَمَا يَكُونُ بِالنُّطْقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وَلِهَذَا لَوْ قَالَ الرَّجُلُ: «زَوْجَتِي هَذِهِ طَالِقٌ» طَلَّقَتْ وَإِنْ لَمْ يُسَمِّهَا، وَلَوْ قَالَ الرَّجُلُ: «زَوْجَتُكَ ابْنَتِي هَذِهِ» انْعَقَدَ النِّكَاحُ وَإِنْ لَمْ يُسَمِّهَا، مَا دَامَتْ تَعَيَّنَتْ بِالْإِشَارَةِ، فَالْمُهِمُّ: أَنَّ فِي الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ التَّعْيِينَ كَمَا يَكُونُ بِالنُّطْقِ، يَكُونُ -أَيْضًا- بِالْإِشَارَةِ.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ إِذَا أُريدُ حِمَى الْمَحَارِمِ نُبِيَّ عَنْ قُرْبَانِهَا، وَذَلِكَ حَيْثُ تَدْعُو النَّفْسُ إِلَى فِعْلِ هَذَا الْمُحَرَّمِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، فَإِنَّ النَّهْيَ يَأْتِي عَنْ قُرْبَانِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، فَإِنَّ الزَّيْفَ قَدْ تَدْعُو النَّفْسُ إِلَى قُرْبَانِهِ وَانْتِهَاكِهِ، وَكَذَلِكَ مَالُ الْيَتِيمِ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَحْمِيهِ فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَجَرَّأَتْ عَلَيْهِ، فَنُهِيَ عَنْ قُرْبَانِهِ.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى الْمَحَرَّمِ ظُلْمٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وَوَجْهُ كَوْنِهِ ظُلْمًا: أَنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ وَأَمَانَةٌ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَأَلَّا يُقَدِّمَ عَلَى شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ مَضَرَّتُهَا، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ ظَلَمَهَا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وَقَالَ: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَازْلِهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٦﴾

قَوْلُهُ: ﴿فَازْلِهَمَا﴾ أَي: أَوْقَعَهُمَا فِي الزَّلَلِ، أَوْ أَزَا حَهُمَا وَأَزَلَقَهُمَا.

وَالشَّيْطَانُ عَلِمَ أَوْ وَصِفَ لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وَهُوَ مِنْ: (شَاط) بِمَعْنَى: غَضِبَ، أَوْ مِنْ: (شَطَنَ) بِمَعْنَى: بَعُدَ، وَالِاشْتِقَاقُ الْأَخِيرُ أَصَحُّ، فَالْتُّونَ فِيهِ أَصْلِيَّةٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَبْعَدُ مَنْ يَكُونُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَازْلِهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أَي: عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ (عَنْ) لِلْسَّبَبِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أَي: مَا فَعَلْتُهُ فِعْلًا صَادِرًا عَنْ أَمْرِي، وَهَذَا تَكُونُ ﴿فَازْلِهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أَي: إِزَالًا صَادِرًا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ.

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَنَهَا﴾ يَعُودُ إِلَى الْجَنَّةِ، أَيْ: أَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ؛ بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي فَعَلَهَا آدَمُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أَيْ: كَانَ سَبَبًا فِي إِخْرَاجِهِمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ بَأْنِ وَنُوسَ لَهُمَا، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ [الأعراف: ٢١]، وَ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (١٣٠) فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿طه: ١٢٠-١٢١]، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَهَاَهُمَا عَنْ ذَلِكَ.

وَحِينَئِذٍ أَمَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَهْبِطَا مِنْهَا، فَقَالَ: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَهْبِطُوا﴾ يَعُودُ عَلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَوُجَّهَ الْخِطَابِ إِلَيْهِمَا بِصِغَةِ الْجَمْعِ: إِمَّا لِأَنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ اثْنَانِ كَمَا قِيلَ بِهِ، أَوْ لِأَنَّ الْخِطَابَ يَشْمَلُهُمَا وَيَشْمَلُ ذُرِّيَّتَهُمَا؛ فَإِنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ فِي صُلْبِهِ، فَإِذَا هَبَطَ هَبَطَتِ الذَّرِّيَّةُ، وَقِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَهْبِطُوا إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي السَّمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَزَوْجِهِ وَبَنِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الْمُسْتَقَرُّ: مَوْضِعُ الْقَرَارِ، وَالْمَتَاعُ: مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ طَعَامٍ، وَشَرَابٍ، وَلِبَاسٍ، وَغَيْرِهِ. وَلَكِنَّ هَذَا الْمُسْتَقَرُّ وَالْمَتَاعُ مُؤَجَّلَانِ إِلَى أَجَلٍ وَحِينٍ، وَهُوَ مَوْتُ الْإِنْسَانِ،

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ مَتَاعُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، وَهَذَا الْحِينُ غَيْرُ مَعْلُومٍ، لَا بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَا بِالنِّسْبَةِ لِلْجَمِيعِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَمَنْ جَهِلَ مَكَانَ مَوْتِهِ فَهُوَ بِجَهْلِ زَمَانِ مَوْتِهِ أَوْلَى، وَقَالَ عَزَّجَلَّ عَنِ السَّاعَةِ: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ - بَيَانُ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، فَإِنَّ مِنْ عِدَاوَتِهِ: أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا فِي إِغْوَاءِ آدَمَ وَزَوْجِهِ حَتَّى خَرَجَا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ الَّتِي أَسْكَنَهُمَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِيَّاهَا.

٢ - إِبْثَاتُ الْأَسْبَابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وَسَبَبُ هَذَا الْإِخْرَاجِ: أَنَّهُ لَمَّا أَكَلَ آدَمُ وَزَوْجُهُ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَأَمَرَهُمَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالخُرُوجِ مِنْهَا.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَى سَبَبِهِ، وَأَنَّ لِلْأَسْبَابِ تَأْثِيرًا فِي مُسَبِّبَاتِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُمَا هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، أَمَرَهُمَا أَنْ يَهْبِطَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَكِنَّ السَّبَبَ فِي هَذَا الْإِخْرَاجِ هُوَ الشَّيْطَانُ، فَنُسِبَ الْإِخْرَاجُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَسْبَابَ مُؤَثِّرَةٌ فِي مُسَبِّبَاتِهَا، وَلَكِنَّ تَأْثِيرَهَا فِي مُسَبِّبَاتِهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي أَوْدَعَ فِيهَا هَذِهِ الْقُوَّةَ الْمُؤَثِّرَةَ.

وَقَدْ انْقَسَمَ النَّاسُ فِي الْأَسْبَابِ إِلَى طَرَفَيْنِ وَوَسْطٍ، فَطَرَفٌ مِنَ النَّاسِ غَلَا فِي إِبْثَاتِ الْأَسْبَابِ حَتَّى جَعَلَهَا مُؤَثِّرَةً بِنَفْسِهَا، وَأَنْكَرَ مَا يَخْرُجُ عَنْ سُنَّةِ الْأَسْبَابِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن فَرَطَ فِيهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا أَثَرًا فِي مُسَبِّبَاتِهَا، وَقَالَ: إِنَّ الْمُسَبَّبَ يَحْدُثُ عِنْدَ السَّبَبِ، لَا بِالسَّبَبِ.

وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ؛ فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ الْحَجَرَ إِذَا رُمِيَ عَلَى زُجَاجَةٍ انكَسَرَتْ بِهِ، وَأَنَّ الْوَرَقَ إِذَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ احْتَرَقَ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ احْتَرَقَ عِنْدَ إِقَائِهِ فِي النَّارِ لَا بِالنَّارِ، أَوْ إِنَّ الزُّجَاجَةَ انكَسَرَتْ عِنْدَ مُلَامَسَةِ الْحَجَرِ لَا بِالْحَجَرِ، فَقَدْ أَبْعَدَ النَّجْعَةَ.

ولكن نقول: إِنَّ الزُّجَاجَةَ انكَسَرَتْ بِالْحَجَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الصَّدَمَةَ سَبَبًا لِلْكَسْرِ، وَالْوَرَقَ احْتَرَقَ بِالنَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ النَّارَ مُحْرِقَةً، وَلِهَذَا إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ الْمُسَبَّبُ عَنِ السَّبَبِ تَخَلَّفَ، فَهَاهُوَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلْقِيَ فِي النَّارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَضْرَمَهَا قَوْمُهُ الْمُكَذِّبُونَ لَهُ؛ لِيُحْرِقُوهُ بِهَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَحْتَرِقْ بِهَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُودِعُ فِي الْأَسْبَابِ مَا يَجْعَلُهَا مُؤَثِّرَةً.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَسْبَابَ مُؤَثِّرَةٌ بَذَاتِهَا، وَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ الْمُسَبَّبُ عَنِ السَّبَبِ، فَقَوْلُهُ خَطَأٌ؛ فَإِنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ إنْكَارَ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ، وَلَا أَحَدَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالسَّمْعِ أَوْ عَقْلٍ رَاجِحٍ إِلَّا أَنْكَرَ هَذَا الْقَوْلَ.

٤- ومن فوائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ عُوقِبَا بِالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ؛ بِسَبَبِ مَعْصِيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَا بِالْكَ بَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَعَاصِي مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؟! أَفَلَا يَكُونُ مُعَرِّضًا نَفْسَهُ لِلْعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ؟! وَإِنْ كَانَ الْمَعْلُومُ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

أَنَّ المعاصِيَ - ما عدا المعاصِيَ المُخْرِجَةَ من الإسلام - تحت مَشِيئَةِ اللَّهِ، إن شاء اللَّهُ عَذَّبَ عليها، وإن شاء عَفَا عنها وَغَفَرَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العداوة بين الشَّيْطَانِ وَآدَمَ وَبَنِيهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وَيَتَفَرَّغُ من هذه الفائدة: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنسان أن يَحْتَرِزَ غَايَةَ الإِحْتِرَازِ من كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَأَلَّا يَخْنَعَ لَهُ، وَأَلَّا يَأْتَمِرَ بِأَمْرِهِ؛ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ، وَكُلُّ عَدُوٍّ لِلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَنْ يَحْمِلَهُ إِلَّا على أَسْوَأِ الحَالَاتِ، ولهذا حَذَّرَنَا اللَّهُ تعالى من الشَّيْطَانِ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الأرضَ هي مُسْتَقَرُّ آدَمَ وَبَنِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٧ - ومن فوائدِها: أَنَّ هذا المُسْتَقَرَّ والمتاعَ لَنْ يَدُومَ، وَلَنْ يُؤَيَّدَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِ حِينٌ﴾، وما كان غير دائمٍ ولا مُؤَيَّدٍ فما أَسْرَعَ انْتِهَاءُهُ! لِأَنَّ هذا المُؤَجَّلَ يَنْفَضِي بالسَّاعَاتِ، بل بالدَّقَائِقِ، بل باللَّحَظَاتِ، ولا يُمَكِّنُ لِلْحَظَةِ مَرَّةً أَنْ تَعُودَ إِلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى، ولهذا قِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ يَمْضِي على ابنِ آدَمَ فَإِنَّهُ يُبْعِدُهُ من الدُّنْيَا، وَيُؤَيِّدُهُ من الآخِرَةِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعِدَّ، وَأَنْ نَنْتَهِزَ الفُرْصَةَ بأَعْمَارِنَا بما يُقَرِّبُنَا إلى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَلَقَىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ ڪَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)

التَّلَقَّى: بمعنى الأخذ عن الغير، أي: فأخذ آدم من الله عزَّ وجلَّ ڪَلِمَاتٍ أَعْلَمَهُ اللهُ تعالى بها، ومنها: قَوْلُهُ تعالى عن آدَمَ وَزَوْجِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّارْتَفَعُ لَنَا وَرَحْمَنًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: تاب الله على آدم، وكذلك على زَوْجِهِ؛ لَأَنَّ قَضِيَّتَهُمَا وَاحِدَةٌ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وهذه الجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا سَبَقَ، أي: تاب عليه؛ لَأَنَّهُ عزَّ وجلَّ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ، يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ وَيَرْحُمُهُ، حَتَّى يَكُونَ أحيانًا بعد التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ فِعْلِ الذَّنْبِ، ولهذا لم يَحْصُلِ الْاجْتِبَاءُ لِآدَمَ -فِيمَا نَعْلَمُ- قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ تعالى بِمَا جَرَى مِنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ:

١ - مِنْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى آدَمَ بِمَا أَلْهَمَهُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا تَوْبُهُ إِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَقَىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ ڪَلِمَتٍ﴾.

٢ - أَنَّ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: رُبُوبِيَّةٌ عَامَّةٌ، تَقْتَضِي تَمَامَ الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ، وَهِيَ شَامِلَةٌ لِّجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَرُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَقْتَضِي الْعِنَايَةَ وَالتَّرَبِّيَةَ الْخَاصَّةَ، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ، وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تعالى هنا: ﴿فَلَقَىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ ڪَلِمَتٍ﴾.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تعالى تابَ على آدَمَ، بل قد قال الله تعالى

في آيةٍ أُخْرَى: ﴿ثُمَّ اجْبِنْبُهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، وَتَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ تَتَّصِمُنُ الْعَفْوَ عَنِ الذَّنْبِ، وَسَرَّهُ عَنِ الْعِبَادِ، وَعَدَمَ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ.

وما دُمنا في الكلام عن التَّوْبَةِ فَإِنَّا نقول: إِذَا تَابَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ الَّتِي جَمَعَتْ شُرُوطًا خَمْسَةً:

الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَأَلَّا يَحْمِلُهُ عَلَى التَّوْبَةِ إِلَّا الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، وَرَجَاءُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ.

الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ مِنَ الذُّنُوبِ، بِحَيْثُ يَحْزَنُ، وَيَتَأَثَّرُ، وَيَتَمَنَّى أَنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَ هَذَا الذَّنْبَ.

الثَّالِثُ: الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ، بِأَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ وَاجِبًا قَامَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا فَارَقَهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْعِبَادِ أَذَاهُ إِلَيْهِمْ.

الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

الخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ قَبْلَ الْمَوْتِ، وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ، وَإِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ لَمْ تُقْبَلِ التَّوْبَةُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وَبَعْضُ الْآيَاتِ: هِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ كَمَا فَسَّرَهَا

بذلك النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّوْبَةِ، وَقَبُولِهَا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

٤- ومن فوائد الآية: إثبات هَذَيْنِ الإِسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: (التَّوَابُ) و(الرَّحِيمُ)، فَالتَّوَابُ: هُوَ الَّذِي يُوفِّقُ لِلتَّوْبَةِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنَ التَّائِبِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فَهُوَ التَّوَّابُ الَّذِي يُوفِّقُ لِلتَّوْبَةِ، وَهُوَ التَّوَّابُ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ.

وَجَاءَتْ بِصِغَةِ الْمُبَالَغَةِ: (التَّوَّابُ)؛ لِأَنَّ هَذِهِ صِفَةٌ لَزِمَتْهُ لِهَيْبَةِ عَزَّوَجَلَّ، فَمِنْ صِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ: التَّوْبَةُ، وَلِأَنَّ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ كَثِيرُونَ.

وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاصِلَةِ إِلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، فَالْعَامَّةُ: هِيَ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، فَإِنَّ كُلَّ الْخَلْقِ دَاخِلُونَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ الَّتِي بِهَا قَوَامُ الْبَدَنِ، وَقَوَامُ الْحَيَاةِ، وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ رَحِمَ الْكُفَّارَ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا، مِنْ عَقْلٍ، وَصِحَّةٍ، وَطَعَامٍ، وَشَرَابٍ، وَلِبَاسٍ، وَمَنْكَحٍ، وَمَسْكَنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ رَاحِمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١)، وأحمد (٣١/٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ
بِالْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا رَحِمَهُمْ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ، وَالْإِيمَانِ، وَالتَّقْوَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]،
وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وَاعْلَمْ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَّصِفُ الدَّلَالَةُ عَلَى ذَاتِهِ، وَعَلَى الصِّفَةِ، وَعَلَى
الْأَثَرِ وَالْحُكْمِ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّيَةً، فَالْعَظِيمُ -مَثَلًا- اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، دَالٌّ عَلَى ذَاتِ
اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَعَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ، وَالرَّحِيمُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، دَالٌّ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ، وَعَلَى
رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَعَلَى الْأَثَرِ الْمُرْتَبِّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ؛ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

• • •

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ هَذَا كَالْتَوَاطُّعَةِ وَالتَّمْهِيدِ لِمَا بَعْدَهُ، يَعْنِي: أَهْبِطُوا
مِنَ الْجَنَّةِ جَمِيعًا، وَسَوْفَ يَأْتِيَكُمُ الْهُدَى مِنِّي، وَيَنْقَسِمُ النَّاسُ فِي هَذَا الْهُدَى إِلَى
قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ يَتَّبِعُ هُدَى اللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقِسْمٌ آخَرُ
يَكْفُرُونَ وَيُكْذِبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَهْطُوا مِنهَا جَمِيعًا﴾، ونقول في الخطابِ هنا في قَوْلِهِ: ﴿أَهْطُوا﴾ ما قلناه في الخطابِ السَّابِقِ^(١).

وقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ هذه الجملة شرطيَّة، فيها: (إن) الشرطيَّة المدغمة بـ(ما)، وفعل الشرط فيها: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وجواب الشرط: مُرَكَّبٌ من قَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمعنى: إن أتاكم مِنِّي هُدًى فإنَّ من اتَّبَعَ هذا الهدى فليس عليه خوفٌ بما يُستقبل، ولا حزنٌ على ما مضى، أمَّا كَوْنُهُ لا خوفَ عليه في المُستقبلِ فلأنَّهُ عَمَلٌ ما يحصلُ به الأمنُ من اتِّباعِ هُدَى الله عَزَّجَلَّ، وأمَّا كَوْنُهُ لا يحزنُ فلأنَّهُ استغلَّ وقتهُ في طاعةِ الله عَزَّجَلَّ، فلا يحزنُ على ما مضى منه؛ لأنَّهُ لم يُفَرِّطْ، بل اكتسبَ فيه خيرًا، والذي يحزنُ هو الذي يقوُّه مَطْلُوبُهُ، أو يحصلُ له مرهُوبُهُ.

وأمَّا الكافرُ المكذِّبُ بآياتِ الله فهذا جزاؤه أن يُخلَّدَ في نارِ جهنَّمَ، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وأصحابُ النارِ: هم أهلُها المُلَازِمُونَ لها، والخلُودُ: هو المُكثُ الدائمُ، هذا هو الأصلُ في الخُلُودِ، إلَّا أن يَقُومَ دَلِيلٌ على أنَّ الخُلُودَ مُوقَّتٌ، فيُتَبَعَ الدَلِيلُ.

من فوائد هذه الآية:

١ - أنَّ من حُسَنِ التَّعْلِيمِ، والتَّوْجِيهِ، والإرشادِ: التَّوْطِئَةُ لِلْكَلامِ، والتَّمْهِيدُ لَهُ، حتَّى وإن حَصَلَ في ذلك تكرارٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنهَا جَمِيعًا﴾، مع قَوْلِهِ فيما سَبَقَ: ﴿وَقُلْنَا أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

(١) انظر: (ص: ١٦٠).

٢- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ لَمْ يَكِلِ الْأَمْرَ فِي عِبَادَتِهِ إِلَى عُقُولِ الْبَشَرِ، بَلْ جَاءَهُمْ بِمَا فِيهِ هُدًى، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٣- أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُدًى، يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ.

٤- أَنَّ الْهُدَى مِنَ اللَّهِ، وَيَتَفَرَّغُ عَنْ هَذَا: أَلَّا تَطْلُبَ الْهُدَى إِلَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَتَكُونَ دَائِمًا مُلِحًّا عَلَى رَبِّكَ بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ؛ حَتَّى تَسْتَقِيمَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٥- أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ هَذَا الْهُدَى إِلَى نَفْسِهِ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْهُدَى حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ بَاطِلٌ، وَلَا تَنَاقُضٌ، وَلَا اخْتِلَافٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٦- أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ هُدَى اللَّهِ فَقَدْ نَجَا وَسَلِمَ، وَأَمِنَ مِنَ الْخَوْفِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنَ الْحُزَنِ عَلَى مَا مَضَى.

٧- أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّبِعَ لِهُدَى اللَّهِ هُوَ الَّذِي غَنِمَ وَسَلِمَ، فَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ زَمَانِهِ؛ لِأَنَّهُ اسْتَغْلَهُ فِيهَا يَنْفَعُ، وَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا يُسْتَقْبَلُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَعَدَ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ؛ بِاتِّبَاعِهِ هُدَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٩)

هذه الآية الكريمة قسيمة لآية التي قبلها، فإن الله سبحانه وتعالى ذكر في الآية التي قبلها ثواب الذين اتبعوا هدى الله بالإيمان والعمل الصالح، وذكر هنا ما يقابلهم من الكفار الذين جمعوا بين الكفر والتكذيب، بين الكفر - وهو الاستكبار عن آيات الله عز وجل، وترك العمل بها - والتكذيب بالخبر، فهم كافرون بالأمر، مكذبون بالخبر، أي: مكذبون ما أخبر الله به في كتبه المنزلة، وما أخبرت به رسله.

وهؤلاء القوم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار، أي: أهلها الملائمون لها، المخلدون فيها.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ - كمال هذا القرآن؛ فإن الله سبحانه وتعالى إذا ذكر فيه أهل الجنة وثوابهم ذكر بعد ذلك أهل النار وعقابهم في الغالب، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، أي: تُثَنَّى فيه الأحكام والمعاني.

ولا ريب أن هذا من كمال البلاغة؛ فإن الإنسان لو أتاها الخطاب بالرجاء دون التخويف لأدّى ذلك إلى الأمن من مكر الله، ولو جاءه الخطاب بالتحذير والتخويف لأدّى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فجاء القرآن الكريم النازل من عند الله بالتقسيم والمقابلة، إذا ذكر شيئاً ذكر ما يقابله؛ حتى يبقى الإنسان دائراً بين الرجاء والخوف؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فإن غلب

أَحَدُهُمَا هَلَكَ صَاحِبُهُ^(١).

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ التَّكْذِيبَ بِآيَاتِ اللَّهِ كُفْرٌ، مُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَلَكِنَّ التَّكْذِيبَ أحياناً يُذَكِّرُ وَحْدَهُ، وأحياناً يُذَكِّرُ مَقْرُونًا بِالْكَفْرِ، فإذا ذُكِرَ مَقْرُونًا بِالْكَفْرِ حُمِلَ عَلَى تَكْذِيبِ الْحَقِّ، وَحُمِلَ الْكُفْرُ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ.

وآيَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: آيَاتِ كَوْنِيَّةٍ، وَآيَاتِ شَرْعِيَّةٍ، فالآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ: هِيَ مَخْلُوقَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ آيَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا جَلَّ وَعَلَا، وَعَلَى رَحْمَتِهِ، وَعَلَى حِكْمَتِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ صِفَةٍ، وَسُمِّيَتْ آيَةً؛ لِعَجْزِ الْمَخْلُوقِ عَنْ مِثْلِهَا، فَهِيَ آيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

والتَّكْذِيبُ بِالآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ يَكُونُ:

- بِإِضَافَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، كَالَّذِينَ يُضَيِّفُونَهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ.
 - أَوْ بِإِثْبَاتِ مُشَارِكَةِ اللَّهِ فِيهَا، كَالَّذِينَ يَقُولُونَ: هَذَا الشَّيْءُ أَوْجَدُهُ الْوَلِيُّ الْفَلَانِيُّ
- مع الله.

■ أَوْ بِاعْتِقَادِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا مُعِينًا.

فَكُلُّ هَذَا مِنَ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَالْإِلْحَادِ فِيهَا.

وَأَمَّا الْآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ فَهِيَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ فِيهَا مِنَ التَّنْظِيمِ لِلْخَلْقِ فِي عِبَادَتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مَا يَعْجَزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهِ.

والقرآن الكريم قد نَحَدَى اللهُ الخَلْقَ جَمِيعًا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، بل قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، بل نَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الْكُفَّارَ الْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ مُلَازِمُونَ لِلنَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الخُلُودِ فِي النَّارِ، وهو خُلُودٌ مُؤَبَّدٌ، ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأْيِيدُهُ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فِي سُورَةِ النَّسَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وَفِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وَفِي سُورَةِ الْجِنِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

ولهذا كان من عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ تَأْيِيدُ الْجَنَّةِ وَتَأْيِيدُ النَّارِ أَيْضًا، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ وُجِدَ خِلَافٌ يَسِيرٌ، لَكِنَّهُ مَرْجُوحٌ، وَالْخِلَافُ الَّذِي وَقَعَ هُوَ أَنَّ بَعْضَ السَّلَفِ رَوَى عَنْهُمْ أَنَّ النَّارَ غَيْرُ مُؤَبَّدَةٍ، لَكِنَّهُ قَوْلٌ مُحَالِفٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ؛ فَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي

فَارْهُبُونَ ﴿٤٠﴾﴾

الخطاب هنا مُوجَّهٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِسْرَائِيلُ: هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَعْقُوبُ هُوَ أَبُو يُوسُفَ، وَهُوَ أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَمَعْنَى إِسْرَائِيلَ: الْعَابِدِ لِلَّهِ.

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: تَذَكَّرُوا بِقُلُوبِكُمْ، وَادْكُرُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ؛ لِتَقُومُوا بِشُكْرِهَا، فَتَتَّبِعُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَتُؤْمِنُوا بِهِ.

﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: فِي السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ؛ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ سَابِقُهُمْ وَلاحِقُهُمْ، وَلِهَذَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى مُتَمَتِّناً بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمَوْجُودِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ يَعْنِي: أَوْفُوا بِعَهْدِي الَّذِي عَاهَدْتُكُمْ بِهِ وَعَلَيْهِ، أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ الَّذِي عَاهَدْتُكُمْ بِهِ وَعَلَيْهِ، وَهَذَا الْعَهْدُ مُبَيَّنٌّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، فَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾،

وَالْعَهْدُ الَّذِي لَهُمْ عَلَى اللَّهِ أَوْجَبُهُ عَزَّجَلَّ عَلَى نَفْسِهِ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

والقرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُيِّنُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ولهذا قِيلَ: إِنَّهُ يُرْجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَى الْقُرْآنِ، ثُمَّ إِلَى السُّنَّةِ، ثُمَّ إِلَى تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ إِلَى تَفْسِيرِ كِبَارِ التَّابِعِينَ.

وَلَمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُوفُوا بَعْدَهُ، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بَعْدَهُمْ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْهَبُوهُ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾، وَالرَّهْبَةُ: هِيَ أَشَدُّ الْخَوْفِ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية من الفوائد: تَذَكُّيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ.

٢ - ومن فوائدها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَذْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ سَبَقَهُ؛ حَتَّى يُجَدِّثَ لَذَلِكَ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِالنِّعَمِ أَوَّلًا، وَهُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ بِهَا ثَانِيًا؛ بِإِعَانَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ.

٣ - ومن فوائدها: بَيَانُ كَرَمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ حَيْثُ جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ يُوفِيَ لِمَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٤ - ومن فوائدها: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٥ - ومن فوائدها: وُجُوبُ تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالرَّهْبَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي

فَأَرْهَبُونَ ﴿٤٩﴾، والإنسان لا بُدَّ له من رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ: رَغْبَةٍ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَرَهْبَةٍ فِيهَا يَفْعَلُهُ مِنْ أَسْبَابِ عُقُوبَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَاللَّهُ عِنْدَهُ الثَّوَابُ الْعَظِيمُ لِلْمُحْسِنِ، وَعِنْدَهُ الْعِقَابُ الْأَلِيمُ لِلْمُسِيئِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَتَجَنَّبَا عِبَادِيَ أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورَ الرَّحِيمَ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ لِنِ شُكْرِكُمْ لَا زِيدَتْكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّعُونَ﴾ (٤١)

الخطاب هنا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى سِيَاقِ الْخِطَابِ السَّابِقِ، وَقَدْ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثُ قَبَائِلَ: بَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قَيْنِقَاعَ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، فَوَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخِطَابَ: أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنزَلَ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، يَعْنِي: لِّمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ.

والتَّصْدِيقُ لِّمَا مَعَهُمْ لَهُ مَعْنِيَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ جَاءَ مُطَابِقًا لِّمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والثاني: أَنَّهُ شَهِدُ لَهَا بِالصِّدْقِ، وَأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
بَأَنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ كِلَاهُمَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ الخطاب هنا من الله لِبَنِي إِسْرَائِيلَ،
حيث يَنْهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَوْلَهُ:
﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾؛ حيث كان مُفْرَدًا، مع أَنَّ الخطاب لِحَمَاعَةٍ، وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ: بِأَنَّ
المراد: لَا تَكُونُوا أَوَّلَ فَرِيقٍ كَافِرٍ بِهِ، وَالْفَرِيقُ جَمْعٌ، يَعْنِي: لَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ
مع أَنَّ عِنْدَكُمْ عِلْمًا بِأَنَّهُ حَقٌّ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠]، فَإِنَّهُ إِذَا كُنْتُمْ أَوَّلَ فَرِيقٍ كَافِرٍ بِهِ -مع عِلْمِكُمْ
بَأَنَّهُ حَقٌّ- كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ وَأَفْحَحَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَي: لَا تَأْخُذُوا ثَمَنًا قَلِيلًا بَدَلًا عَنِ الْعَمَلِ
بِآيَاتِي، وَذَلِكَ بِتَقْدِيمِكُمْ الرِّئَاسَةَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَيَقُولُونَ: سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ، وَتَتَّبِعُهُ، وَنَغْلِبُكُمْ. وَلَمَّا بُعِثَ
مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ حَسَدُوهُمْ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ،
فَاشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؛ لِيَقْبَلُوا عَلَى رِئَاسَتِهِمْ، وَلَكِنْ صَارَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ -وَلِلَّهِ
الْحَمْدُ- فَلَمْ يَقْبَلُوا عَلَى رِئَاسَتِهِمْ، بَلْ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بِلَادَهُمْ، فَفَتَحُوا بِلَادَ الشَّامِ
-وهي مُسْتَوَظَنُ الرُّومِ النَّصَارَى- وَفَتَحُوا بِلَادَ الْعِرَاقِ -وهي مُسْتَوَظَنُ الْمَجُوسِ
الْفُرسِ- وَاسْتَوَلَى -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- الْمُسْلِمُونَ عَلَى بِلَادِ هَوَّلَاءِ، فَأَوْرَثَهُمُ اللَّهُ أَرْضَهُمْ،
وَدِيَارَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَقْبُوْنَ﴾، نَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي

فَارْهَبُونِ ﴿١﴾، وَهَذَا أَمْرُهُمْ بِالتَّقْوَى، وَالتَّقْوَى: اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

فوائد وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُخَاطَبُونَ بِالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، مُلْزَمُونَ بِهِ، وَعِنْدَهُمْ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ؛ حَيْثُ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَإِذَا كَفَرُوا بِهِ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَإِنْ قَالُوا: نَحْنُ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتِمُّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا حَتَّى يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَلِهَذَا أَقْسَمَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ بِهِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ^(١).

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ -كَمَا نَعْلَمُ- كَلَامٌ، فَإِذَا كَانَ نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمُتَكَلِّمٍ بِهِ، دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَهَذَا مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: إِبْتِاثُ عُلُوِّ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا أُنْزِلْتُ﴾، وَالْإِنْزَالُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ فَوْقٍ، وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ كَلَامَ اللَّهِ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَوُصِفَ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِ عَالٍ فَوْقَ الْعِبَادِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا كَانَ مَعَهُ حَقٌّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَلَكِنَّهُ نَكَصَ عَلَى عَقِبِيهِ، كَانَ أَشَدَّ لَوْمًا مِنَ الْإِنْسَانِ الْجَاهِلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أُنْزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ كَالْبُرْهَانِ الْمُلْزِمِ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ؛

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وَجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، رَقْمُ (١٥٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّ هذا القرآن لم يأتِ بأمرٍ غريبٍ لا يَعْرِفُونَهُ، بل أتى بأمرٍ يَعْرِفُونَهُ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، لكنَّهم استَكْبَرُوا وأَبَوْا؛ حَسَدًا من عند أَنفُسِهِمْ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ بما عندهم من الْعِلْمِ بأنَّ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ كان الْأَلَيْقُ بهم أن يكونوا أَوَّلَ مُؤْمِنٍ به، ولكنَّهم كانوا كافرينَ به، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، مع أَنَّ قُرَيْشًا كانوا كَفَرُوا به من قبل، لكن لما كانت قُرَيْشٌ ليس معهم كِتَابٌ، وهؤلاء معهم كِتَابٌ يُصَدِّقُهُ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، كانوا أَوَّلَ كَافِرٍ به، مع الْعِلْمِ بَأَنَّهُ حَقٌّ.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ مَا فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَلَوْ كَثُرَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ طَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ من أَجْلِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ من أَجْلِ الدُّنْيَا نَوْعٌ من الْاِشْتِرَاءِ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، ولهذا جاء في الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ عِلْمًا وَهُوَ يَمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرْخَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(١).

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ، وَإِفْرَادِهِ بِذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾، فهو أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ.

ولا يُنَافِي هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله، رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم، رقم (٢٥٢)، وأحمد (٣٣٨/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّ المراد بقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ اتَّقُوا ما يكون في هذا اليوم ممَّا يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من الأهْوَالِ العَظِيمَةِ، والعِقَابِ لِمَنْ كَذَبَ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢)

والخطاب هنا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لأنَّ السِّيَاقَ واحِدٌ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَلْبِسُوا﴾ أي: تَخْلِطُوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ حتى يَلْتَبِسَ وَيَشْتَبِهَ على النَّاسِ.

والْحَقُّ في اللُّغَةِ: الشَّيْءُ الْحَاقُّ، أي: الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَزَعَّزُعُ، وَالْبَاطِلُ عَكْسُهُ، أي: الشَّيْءُ الذَّاهِبُ سُدًى، الَّذِي لَا يَثْبُتُ، وَلَا يَبْقَى.

والمراد بِالْحَقِّ هنا: ما جَاءَتْ به الرُّسُلُ من وَحْيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وَالْبَاطِلُ ما خَالَفَ ذَلِكَ.

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ عندهم الْأَحْبَارُ والرُّهْبَانُ، يَخْلِطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ كَالْكُفَّانِ، يَصْدُقُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَيَكْذِبُونَ مِثْلَ مَرَّةٍ، فَهَؤُلَاءِ أَيْضًا يَأْتُونَ بِالْحَقِّ مَرَّةً، وَلَكِنَّهُمْ يَلْبِسُونَهُ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ لَا يَأْتُونَ بِالْحَقِّ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ التَّمْويهِ، حتى يَقُولَ الْقَائِلُ: هذا الَّذِي قالوه حَقٌّ، ثُمَّ يُلْحِقَ به كُلَّ ما قالوه مِنَ الْبَاطِلِ، فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لَا تَخْلِطُوهُ به حتى يَلْتَبِسَ وَيَشْتَبِهَ.

﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه طَرِيقَةٌ أُخْرَى مِنْ طَرَفِهِمْ: أَنَّهُمْ يَكْتُمُونَ

الْحَقُّ، فَلَا يُبْدُونَهُ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ، وَهُمْ لَا يُرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ؛ بَلْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ.

وَجُمْلَةٌ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَكُنُّوا﴾، أَي: تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، فَكْتَمْتُمْ وَلَبَسْتُمْ.

وهذه الجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ تُفِيدُ بَيَانَ مَا أَخَذَ اللَّوْمُ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتُمْ لَمْ يَفْعَلُوا هَذَا الْفِعْلَ - وَهُوَ لَبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، أَوْ كِتْمَانَ الْحَقِّ - عَنْ جَهْلِ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ عَنْ عِلْمٍ وَإِصْرَارٍ، فَيَكُونُ هَذَا أَظْهَرَ فِي عِنَادِهِمْ، وَأَبْيَنَ فِي اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - من فوائدها: تَحْرِيمُ لَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنْهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا نَهَى عَنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِمَّا هُوَ قَبِيحٌ لِذَاتِهِ يُنْهَى عَنْهُ سَائِرُ الْأُمَمِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: التَّحْذِيرُ مِمَّا يَصْنَعُهُ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنْ زَخَارِفِ الْقَوْلِ الَّتِي يُرِيدُونَ بِهَا أَنْ يُمَكِّنُوا بِدْعَهُمْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، فَإِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ كُتُبَهُمْ ظَنَنْتَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ، وَلَكِنْ عِنْدَ التَّأَمُّلِ يَتَبَيَّنُ أَنَّكُمْ يُرِيدُونَ إِبْلَاسَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَأْتُونَ بِعِبَارَاتٍ مُجْمَلَةٍ، فَيَقُولُونَ مَثَلًا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ فِي حَيْزٍ، وَلَيْسَ فِي جِهَةٍ، وَلَيْسَ بِجِسْمٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي يُرِيدُونَ بِهَا التَّوَصُّلَ إِلَى انْكَارِ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِنْكَارِ عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، فَإِذَا قَرَأَ الْقَارِئُ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ، وَمَا مَوْهُوا بِهِ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي يَحْسِبُهَا الظُّمَانُ مَاءً ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، إِذَا قَرَأَ الْقَارِئُ هَذَا الَّذِي كَتَبُوا ظَنَّنَ أَنَّ هَذَا هُوَ الصَّوَابُ.

٢- ومن فوائدها: أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ففِيهِ شَبَهُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فعليه أَنْ يَحْذَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ.

٣- ومن فوائده هذه الآية الكريمة: تَحْرِيمُ كِتْمَانِ الْحَقِّ، وَكِتْمَانِ الْحَقِّ يَكُونُ فِي حَالَيْنِ:

الحَالُ الْأَوَّلَى: أَنْ يَسْأَلَ سَائِلٌ عَنِ الْحَقِّ، فَيُكْتَمَ الْحَقُّ عَنْهُ، وَلَا يُجَابَ بِهِ؛ لِغَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا.

والْحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوا، فَإِذَا رَأَى الْعَالِمُ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إِلَى الْحَقِّ وَجَبَ عَلَيْهِ بَيَانُهُ وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوهُ.

والفَرْقُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ: أَنَّ الْحَالَ الْأَوَّلَى الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْكِتْمَانُ عِنْدَ سُؤَالِ السَّائِلِ يَقَعُ السُّؤَالُ فِيهَا بِلِسَانِ الْمَقَالِ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَيَقَعُ السُّؤَالُ فِيهَا بِلِسَانِ الْحَالِ.

٤- ومن فوائده هذه الآية الكريمة: أَنَّهُ إِذَا كَتَمَ الْحَقُّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ كَانَ أَشَدَّ قُبْحًا، أَمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِهِ الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ بِهَا لَا يَعْلَمُ فَقَدْ قَالَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ، وَهَذَا مِنَ الْمَحْرَمِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: اتُّوا بها مُسْتَقِيمَةً تَامَةً، وليس المراد بقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قُومُوا بِالْإِقَامَةِ التي هي إِعْلَامٌ بِالْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطوها لِمُسْتَحِقِّهَا، والزَّكَاةُ: هي جُزءٌ مُعَيَّنٌ فِي أَمْوَالٍ مَخْصُوصَةٍ تُدْفَعُ لِمُسْتَحِقِّهَا، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: اخْضَعُوا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ مَعَ الْخَاضِعِينَ لَهُ، فيكون المراد بالرُّكُوعِ هنا: مُطْلَقُ الذَّلِّ؛ لِأَنَّ الرُّكُوعَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ الذَّلِّ؛ كما في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَا تُهِنِ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرَكَعَ يَوْمًا، وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ^(١)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ: رُكُوعَ الصَّلَاةِ، وَيَكُونُ تَخْصِيصًا بَعْدَ تَعْمِيمٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يَشْمَلُ إِقَامَتَهَا بِقِيَامِهَا، وَرُكُوعَهَا، وَسُجُودَهَا، وَقُعُودَهَا. ففِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالرُّكُوعِ مَعَ الرَّاكِعِينَ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١ - وَجُوبُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهَا، وَالْأَصْلُ فِي الْأَمْرِ الْوُجُوبُ، وَلَكِنْ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِنْ حَيْثُ الْوَاقِعُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:
- إِقَامَةٌ وَاجِبَةٌ، وَهِيَ أَنْ يَأْتِيَ بِوَاجِبَاتِ الصَّلَاةِ، وَأَرْكَانِهَا، وَشُرُوطِهَا، أَي:

(١) البيت للأضبط بن قريع السعدي، يُنْظَرُ: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٨٢).

أَنْ يَأْتِيَ بِهَا لَا تَصِحَّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهِ، فهذه إِقَامَةٌ وَاجِبَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا.

■ وإِقَامَةٌ غَيْرَ وَاجِبَةٍ، وهي أَنْ يَأْتِيَ بِمُكَمَّلَاتِ الصَّلَاةِ الَّتِي تَصِحُّ الصَّلَاةُ بِدُونِهَا، وَكُلُّهُ مَأْمُورٌ بِهِ، لَكِنْ مَا لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ بِدُونِهِ مَأْمُورٌ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْوُجُوبِ، وَمَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ بِدُونِهِ مَأْمُورٌ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِحْبَابِ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: وَجُوبُ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وهي الْهَالُ الْمَدْفُوعُ لِمُسْتَحِقِّهِ مِنْ أَمْوَالٍ مُعَيَّنَةٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

٣- ومن فوائدها: أَهْمِيَّةُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِمَا بِخُصُوصِهِمَا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، مَعَ أَنَّ التَّقْوَى تَشْمَلُ فِعْلَ جَمِيعِ الْأَوَامِرِ، وَتَرْكَ جَمِيعِ النَّوَاهِي.

٤- ومن فوائدها: فَضِيلَةُ الرُّكُوعِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا قُلْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّكُوعِ: الرُّكُوعُ فِي الصَّلَاةِ، أَمَّا إِذَا قُلْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّكُوعِ: التَّوَاضُّعُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالذُّلُّ لَهُ، فَإِنَّ فِي الْآيَةِ فَائِدَةً، وَهِيَ وَجُوبُ الذُّلِّ لِلَّهِ، وَالخُضُوعِ لَهُ.

٥- ومن فوائدها: مَا اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَلَى وَجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ مُحَلٌّ نَظَرٍ وَتَأْمُلٍ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ صَرِيحَةً فِي ذَلِكَ؛ إِذْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: كُونُوا مَعَهُمْ فِي الْجُمْلَةِ، أَيْ: ارْكَعُوا كَمَا يَرْكَعُ النَّاسُ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مُصَاحَبَةً، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١١

الخطاب هنا لبني إسرائيل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني: كيف تأمرون الناس بالبر، وتتركون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتاب؟!

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ البر هنا: كل ما يقرب إلى الله عز وجل من الطاعات، ويدخل في ذلك أيضاً: ترك المعاصي؛ لأن البر إذا ذكر وحده شمل فعل الطاعات وترك المعاصي، وإذا قرن بالتقوى صار المراد بالبر: فعل الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك المحرمات.

وقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: تتركونها، لا تأمرونها بالبر، ولا تهتمون بها، والحال أنكم تتلون الكتاب المنزل عليكم، وتعرفون ما فيه من بشاعة هذا المنهج، وهو أمركم الناس بالبر مع نسيان أنفسكم.

ثُمَّ وَبَّخَهُمُ اللَّهُ مَرَّةً أُخْرَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أن فعلكم هذا ليس فعل ذي عقل؛ لأن العاقل يبدأ -أول ما يبدأ- بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره.

فوائد الآية الكريمة:

١ - الإنكار الشديد على من يأمر الناس بالبر، ولا يفعله؛ لقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

٢ - أن هذا المنهج كما هو مخالف للشرع فهو مخالف للعقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣- أَنَّ هَذَا الْمَنْهَجَ يُوجِبُ أَلَّا يَأْتِمَرَ النَّاسُ بِأَمْرِ الْأَمْرِ، وَلَا يَنْتَهُوا بَنْهْيِهِ؛ لِأَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَذَا خَيْرًا لَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يَفْعَلُهُ، وَلَوْ كَانَ شَرًّا لَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يَجْتَنِبُهُ، فَكَيْفَ يَأْمُرُنَا وَلَا يَفْعَلُ، أَوْ يَنْهَانَا وَيَفْعَلُ؟! فَيَكُونُ فِي هَذَا مَنَعٌ لِسُلُوكِ النَّاسِ سَبِيلَ الْبِرِّ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ -إِنْ لَمْ نُقَلْ- يَجِبُ عَلَيْهِ -أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ، فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ»^(١)، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَقْرَبَ شَيْءٍ إِلَيْكَ هُوَ نَفْسُكَ، فَكَوْنُكَ تَسْعَى بِإِصْلَاحِ غَيْرِكَ -مَعَ فَسَادِ نَفْسِكَ- لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الشَّرْعِ، وَخِلَافُ الْعَقْلِ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الْعَالِمَ يَلْحَقُهُ مِنَ اللَّوْمِ وَمِنَ الذَّمِّ أَكْثَرُ مِمَّا يَلْحَقُ الْجَاهِلَ؛ لِقَوْلِهِ هُنَا: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْتَلُونَ أَلِكِتَابَ﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ كُلَّ مَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ، لَكِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَقْلِ: الْعَقْلُ الصَّرِيحُ السَّالِمُ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، أَمَّا الْعَقْلُ الْفَاسِدُ الْمَغْمُورُ بِالشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ فَلَيْسَ بِعَقْلٍ، وَلِهَذَا يَصِفُ اللَّهُ الْكُفَّارَ بِأَنَّهُمْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، مَعَ أَنَّهُمْ أَذْكِيَاءُ، لَكِنَّ الذِّكَاءَ شَيْءٌ، وَالْعَقْلُ شَيْءٌ آخَرُ، فَالْعَقْلُ: مَا يَعْقِلُ الْإِنْسَانُ عَمَّا يَصُرُّهُ، وَيَمْنَعُهُ مِمَّا يَصُرُّهُ، وَالذِّكَاءُ: هُوَ سُرْعَةُ إِدْرَاكِ الْأُمُورِ وَفَهْمِهَا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، رقم (٩٩٧) من حديث جابر

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥)

في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى بالاستِيعانة بأمرين: الصَّبْر، والصَّلَاة، فالصَّبْر: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ التَّشَكِّي والتَّسَخُّطِ، والصَّلَاة: هي التَّعَبُّدُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْعِبَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ الْمُفْتَتَحَةِ بِالتَّكْبِيرِ، الْمُخْتَمَّةِ بِالتَّسْلِيمِ.

وَيُبَيِّنُ أَنَّ الاستِيعانة بالصَّبْرِ والصَّلَاةِ كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، أَوْ أَنَّ الصَّلَاةَ نَفْسَهَا كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ.

وَالْخُشُوعُ: هُوَ الدُّلُّ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الدُّلِّ وَأَكْمَلُهُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ: الْخُشُوعُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَحْكَامُ وَفَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ:

١ - طَلَبُ الاستِيعانة بالصَّبْرِ فِي مُكَابَدَةِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَصْبِرُ لَا يَتِمُّ لَهُ مَطْلُوبُهُ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ لَا تَأْتِي الْإِنْسَانَ بِسُهُولَةٍ، بَلْ تَحْتَاجُ إِلَى تَحْمُلٍ وَصَبْرٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ الصَّبْرَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ.

فَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ غَيْرِ مُتَضَجِّرٍ، وَلَا ضَائِقٍ بِهَا صَدْرُهُ، بَلْ يَتَقَبَّلُهَا بِانْشِرَاحٍ وَسُرُورٍ، حَتَّى يَقُومَ بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَقُومَ بِهَا.

وَأَمَّا الصَّبْرُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ فَهُوَ الْكَفُّ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، سَوَاءً أَكَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ

بِحُقُوقِ اللَّهِ، أَمْ يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْعِبَادِ، فَيَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الْعُدْوَانِ، وَالظُّلْمِ، وَالْكَذِبِ، وَعَمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ، وَالْكَفْرِ، وَنَحْوِ هَذَا.

وَالثَّالِثُ: الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ؛ لِأَنَّ أَقْدَارَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَكُونُ مُلَائِمَةً لِلْإِنْسَانِ يَفْرُحُ بِهَا، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَيُسَرُّ بِهَا، وَهَذِهِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِلَى صَبْرٍ عَلَى شُكْرِهَا.

وَالثَّانِي: أَقْدَارُ مُؤَلَّةٌ شَاقَّةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، يَتَعَبُ مِنْهَا، فَهَذِهِ تَحْتَاجُ إِلَى مُصَابَرَةٍ، وَإِلَى عَنَاءٍ، فَكُلَّمَا مَرَّنَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ أَزْدَادَ ثَبَاتًا، وَحَصَلَ لَهُ مِنْ مَطْلُوبِهِ مَا لَمْ يَخْصُلْ لَهُ لَوْ تَضَجَّرَ، وَهَذَا شَيْءٌ مُجَرَّبٌ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَمَرَّنَ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ صَارَ عِنْدَهُ مِنْ مُدَافَعَةِ الْأُمُورِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ.

٢- الاستِيعَانَةُ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُكَابَدَةِ الْأُمُورِ أَيْضًا، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ -يعني: كَرَبَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ- فَرَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ^(١)، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّلَاةَ تُنْسِي الْإِنْسَانَ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ مُخْلِصًا فِيهَا؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُنَاجِيهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِتَعْظِيمِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَيُنَاجِيهِ بِالدُّعَاءِ؛ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ ارْحَمْنِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَتَسَلَّى بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَحِينَئِذٍ يَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢)، فَهِيَ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُؤْمِنِ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ، رقم (١٣١٩)، وأحمد (٣٨٨/٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بنحوه النسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٣٩١)، وأحمد (١٢٨/٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيُذَكِّرُ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ - وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين - أَنَّهُ أَصَابَتْهُ آكِلَةٌ فِي رِجْلِهِ، وَقَرَّرَ الْأَطِبَّاءُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَطْعِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بَنْجٌ يُبْنَجُ بِهِ الْإِنْسَانُ، فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا دَخَلْتُ فِي الصَّلَاةِ فَأَتُوا وَاقْطَعُوهَا؛ لَأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ اشْتَغَلَ بِهَا عَمَّا سِوَاهَا، فَتُقَطَّعُ رِجْلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أَنَّ الْخَاشِعَ الْمُطْمَئِنِّ لِأَمْرِ اللَّهِ الْمُخْبِتَ لَهُ تَسْهُلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ، وَلَا يَكُونُ أَمْرًا شَاقًّا عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.



وقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٦١)

قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: يَتَيَقَّنُونَ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فَهُمْ مُوقِنُونَ بِأَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ، وَرَاجِعُونَ إِلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ سَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات لقاء الله، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُلَاقِي رَبَّهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

٢- ومن فوائدها: الثناء على الموقنين بهذا اللقاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: يَتَيَقَّنُونَ.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أَنَّ هذا اليقينَ أو العلمَ سَبَبٌ لِلسَّعَادَةِ وَلِلتَّقْوَى على الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَرْجِعُ إلى رَبِّهِ عَمَلٌ لذلك عَمَلُهُ، بخِلَافِ الإنسانِ الغَافِلِ الذي لا يَهْتَمُّ بما أَمَامَهُ، فنَسْأَلُ اللهَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا من الْمُعْتَبِرِينَ بِآيَاتِهِ، الْقَائِمِينَ بِمَرْضَاتِهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَإِسْرَءِيلُ: هو يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يُذَكِّرُهُم بِنِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَمَا أَكْثَرَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ!

ومن أَهْمِّهَا: أَنَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، أَي: على عَالَمِي زَمَانِهِمْ، وليس على الْعَالَمِينَ إلى يوم الْقِيَامَةِ؛ لأنَّ هذه الْأُمَّةَ أَفْضَلُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا على اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثُمَّ يَأْمُرُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَتَّقُوا ذلكَ اليومَ الذي لا تَجْزِي فيه نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، فلا أَحَدٌ يَفْدِي غَيْرَهُ، بل لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، ولا يُقْبَلُ مِنَ النَّفْسِ شَفَاعَةٌ، ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ، أَي: فِدْيَةٌ، بل كُلُّ إِنْسَانٍ مَرْهُونٌ بِعَمَلِهِ، لا يُنصَرُ، ولا يُقْبَلُ مِنْهُ شَفَاعَةٌ، ولا يُؤْخَذُ مِنْهُ عَدْلٌ.

ما يُستَفَادُ من هاتين الآيتين:

- ١ - بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ ذَكَرَهُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، وَهِيَ مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فَيَشْمَلُ جَمِيعَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ.
- ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ يُنْبِغِي لِكُلِّ دَاعِيَةٍ أَنْ يُذَكِّرَ الْمَدْعُوَّ بِنِعَمِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ بِنِعَمِ اللَّهِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَقُومَ الْمَدْعُوُّ بِطَاعَةِ الْمُنْعِمِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ حَقِيقَةُ الشُّكْرِ.
- ٣ - وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ هَذَا خَاصٌّ فِي زَمَانِهِمْ كَمَا أَسْلَفْنَا أَنْفَاءً، أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
- ٤ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتِنِ الْآيَتَيْنِ: التَّذْكِيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا تَحْزِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا.
- ٥ - وَمِنْ الْفَوَائِدِ: وَجُوبُ تَقْوَى هَذَا الْيَوْمِ، وَذَلِكَ بِاتِّخَاذِ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَلَا وَقَايَةَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِفِعْلِ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لِلتَّقْوَى هُوَ أَجْمَعُ مَا قِيلَ فِيهَا.
- ٦ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتِنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ الشَّفَاعَةُ مِنَ النَّفُوسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهَذَا عَامٌّ أُرِيدُ بِهِ الْخَاصُّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الشَّفَاعَةُ هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْضِيهِمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَأَمَّا مَنْ ارْتَضَاهُمُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ مِنْهُمْ الشَّفَاعَةَ فَيَمُنُّ بِسَتْحَقِّ الشَّفَاعَةِ، وَالشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ بِهَا.

والشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا عَمَّنْ شَفَعَ، وَعَمَّنْ شُفِعَ لَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٧- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّهُ لَا عِذْلَ يُؤْخَذُ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، بِخِلَافِ الْمَضَاقِقِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَدْفَعُ عِذْلًا عَنْهُ، أَيْ: شَخْصًا يَعِدُّهُ بِنَفْسِهِ، وَيَنْجُو بِهَذَا الْمُعَادِلِ، لَكِنْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُمَكِّنُ ذَلِكَ.

٨- كَذَلِكَ مِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ مَنْ لَا تُقْبَلُ مِنْهُ الشَّفَاعَةُ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ عِذْلٌ، لَا يُنْصَرُ أَيْضًا، فَلَا يَتَنَاصَرُ الْمُجْرِمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: التَّذْكِيرُ الْعَامُّ لِكُلِّ أَحَدٍ بِأَهْوَالِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَصِيرَ إِلَيْهِ كُلُّ حَيٍّ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ، وَأَنْ يَتَأَهَّبَ لَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ الْخَطَابُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَلْ فِرْعَوْنَ: هُمْ أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَيَتَوَجَّهُونَ بِتَوَجُّهَاتِهِ، فَأَلْ فِرْعَوْنَ كَانُوا يَسُومُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

سُوءَ الْعَذَابِ، يَسْتَعْبِدُونَهِمْ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ، أَي: يَسْتَبْقَوْنَهُنَّ، وهذه سياسةُ الجورِ والظلمِ، فهم يُذَبِّحُونَ الأبناءَ؛ لئلا يَنْشُؤُوا، فيَقَاوِمُوا آلَ فرعونَ؛ ولأجل أن يَقِلَّ النسلُ في بني إِسْرَائِيلَ، ولأجل أن يَكُونُوا أَذِلَّةً أمامَ آلِ فرعونَ؛ لأنَّ النِّسَاءَ مِمَّا كُنَّ فَإِنَّهُنَّ فِي مَقَامِ الذَّلِّ أمامَ العدوِّ.

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: اختِبَارٌ عَظِيمٌ لكم: هل تَصْبِرُونَ على ما حَصَلَ لكم من الأذى؟ وهل شَكَرْتُمْ لَمَّا أَنْجَاكُمْ اللهُ من هذا البلاءِ؟ ثُمَّ يَذَكِّرُهُم اللهُ تعالى بِنِعْمَةٍ أُخْرَى، وهي: أَنَّ اللهَ فَارَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَاهُمْ، وَأَغْرَقَ آلَ فرعونَ، وذلك حينما خَرَجَ فرعونُ بِجُنُودِهِ تَابِعًا لموسى وَقَوْمِهِ؛ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ، ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴿٦٣﴾ فَضْرَبَهُ ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٣]، فَدَخَلَ مُوسَى وَقَوْمُهُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَعَلَى أَيْمَانِهِمْ وَشِمَائِلِهِمْ كُتِلُ الْمَاءِ كَالْجِبَالِ، وَلَمَّا نَجَوْا دَخَلَ فرعونُ وَقَوْمُهُ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ، ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾، فكان في هَذَا نِعْمَتَانِ عَلَى بني إِسْرَائِيلَ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ اللهَ أَنْجَاهُمْ، وَالثَّانِيَّةُ: أَنَّ اللهَ أَغْرَقَ عَدُوَّهُمْ.

من فوائد هاتين الآيتين:

١ - أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَجَّى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَرَّتَيْنِ:

المرَّةُ الأولى: مِنْ آلِ فرعونَ، حين كانوا يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، فَيُذَبِّحُونَ الأبناءَ، وَيَسْتَبْقَوْنَ النِّسَاءَ.

والمَرَّةُ الثَّانِيَةُ: حينَ فَرَّقَ بِهِمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَاهُم مِّنَ الْغَرَقِ، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ.

٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: بَيَانُ شِدَّةِ بَطْشِ آلِ فِرْعَوْنَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ، حِينَ كَانُوا يُمَارِسُونَ مَعَهُمْ هَذَا الْإِذْلَالَ الْعَظِيمَ، وَذَلِكَ بِذَبْحِ الْأَبْنَاءِ، وَاسْتِيقَاءِ النِّسَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ إِذْلَالٍ لِلشُّعُوبِ، أَنْ يُذْبَحَ رِجَالُهَا، وَتَبْقَى نِسَاؤُهَا.

٣- ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عِبَادَهُ أحيانًا بِالْمَصَائِبِ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يَكُونُ صَابِرًا، وَمَنْ يَكُونُ ضَاجِرًا؟ وَأحيانًا بِالنِّعَمِ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يَكُونُ شَاكِرًا، وَمَنْ يَكُونُ بَطْرًا؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ شُؤُونٌ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: إِبْتِاثُ الْحِكْمَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِيهِمَا يُقَدَّرُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَهَذَا مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ: (الْحَكِيم)؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِيمٌ فِيهِمَا يُقَدَّرُهُ، وَفِيهِمَا يَشْرَعُهُ.

وبه نعرف أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشْرَعَ شَيْئًا عَبَثًا، أَوْ أَنْ يُقَدَّرَ شَيْئًا عَبَثًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وَلَكِنْ أحيانًا تَخْفَى الْحِكْمَةُ عَلَيْنَا؛ لِقُصُورِ أَفْهَامِنَا، أَوْ لِنَقْصِيرِنَا فِي طَلَبِ الْحِكْمَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُنَا مِنْ تِمَامِ الْإِيمَانِ

بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُو حِكْمَةٍ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا وَلَا يَشْرَعُ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّ بَلَاءَ اللهِ -أي: ابتلاءه- يَتَنَوَّعُ، فمنه ابتلاءٌ يسيرٌ، ومنه ابتلاءٌ عظيمٌ، وذلك حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يَتَّبِعِي مَنْ هُوَ قَلِيلُ الصَّبْرِ وَقَلِيلُ الشُّكْرِ بِلَاءً يَسِيرٌ يُنَاسِبُ حَالَهُ، وَيَتَّبِعِي مَنْ هُوَ قَوِيٌّ عَلَى الصَّبْرِ وَعَلَى الشُّكْرِ بِلَاءً أَعْظَمَ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُنَاسِبًا لِحَالِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بِلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلَ»^(١)، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِبْتِلَاءَ الَّذِي يُجْرِيهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ الَّذِي يُجْرِيهِ عَلَى مَنْ دُونِهِمْ.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كَيْفِيَّةِ إِنْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِغْرَاقِ آلِ فِرْعَوْنَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ هَذَا الْبَحْرَ الَّذِي هُوَ مِنَ الْمَاءِ السَّائِلِ وَاقِعًا كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، فِي ضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مُوسَى، أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ، فَضْرَبَهُ، فَانْفَلَقَ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، أَي: كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ.

وقد ذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ اللهَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الْكُتَلِ الْمَائِيَّةِ، جَعَلَ فِيهَا فُرْجًا يَنْظُرُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؛ لِيَطْمَئِنَّ بَعْضُهُمْ عَلَى الْبَعْضِ الْآخِرِ^(٢).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)، وأحمد (١٧٣/١) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٦٥٩).

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أَنَّهُ مِنْ كَمَالِ طُمَأْنِينَةِ الْعَبْدِ أَنْ يَرَى عَدُوَّهُ أَمَامَهُ وَقَدْ هَلَكَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ أَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، أَوْ أَصَابَهُمْ بَعْدَابٍ لَمْ يُشَاهِدْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لَمْ تَكُنْ طُمَأْنِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ كَمَا لَوْ كَانَتْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: الرَّدُّ عَلَى الَّذِينَ بَهَرْتَهُمْ صَنَائِعُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْيَوْمَ وَغَرَّتَهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْإِنْتِصَارُ عَلَيْهِمْ، بَلْ رُبَّمَا يَتَهَكَّمُ بَعْضُهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِنَّا لَوِ رَجَعْنَا إِلَى دِينِ اللَّهِ حَقَّ الرَّجُوعِ لَانْتَصَرْنَا عَلَى أَعْدَائِنَا مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ، فَإِنَّا نَقُولُ لَهُمْ: انظُرُوا كَيْفَ كَانَ هَذَا الْبَحْرُ طَرِيقًا يَبَسًا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَتَحَ اللَّهُ فِيهِ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا بَصْرِيَّةً وَاحِدَةً بَعْصًا مُوسَى ﷺ، ثُمَّ بَقِيَتْ كُتُلُ الْمَاءِ كَأَنَّهَا الْجِبَالُ، وَأَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى عَدُوَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ؟!!

ثُمَّ انظُرُوا أَيْضًا مَا فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِعَادٍ مِنَ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ الْمُدْمِرَةِ، وَمَا فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ، حَيْثُ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَالصَّيْحَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ، فَنَحْنُ لَوْ صَدَقْنَا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَهَيَّا لَنَا مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ مَا لَا يُخْطَرُ عَلَى الْبَالِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْعَفْوِ الْعَظِيمِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ مُوسَى ﷺ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، فَأَتَمَّهَا بِعَشْرِ، فَصَارَتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً،

فَلَمَّا تَأَخَّرَ مُوسَى ﷺ عَنِ الْمَوْعِدِ الَّذِي ذَكَرَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِتْنُوا بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ،
وَذَلِكَ أَنَّهُمْ صَنَعُوا مِنَ الْحُلِيِّ مِنَ الذَّهَبِ تِمَثَالًا عَلَى هَيْئَةِ الْعِجْلِ، وَهُوَ وَلَدُ الْبَقْرِ
الصَّغِيرِ، وَجَعَلُوهُ عَلَى شَكْلِ يَكُونُ لَهُ خَوَارٌ كَخَوَارِ الْعِجْلِ، وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ،
فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ مُوسَى نَسِي، وَإِنَّ رَبَّكُمْ هَذَا الْعِجْلُ، وَهُوَ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى،
فَعَبَدُوا الْعِجْلَ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَذَكَرَهُمْ هَارُونُ أَخُو مُوسَى ﷺ
بِأَنَّ إِلَهُهُمْ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَالَ: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا وَأَبَوْا، وَقَالُوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ
عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]، فَبَقُوا يَعْبُدُونَ هَذَا الْعِجْلَ حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِمْ
مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِمْ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾
[البقرة: ٥٤]، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَوْبَتِهِمْ أَنْ يَجْتَمِعُوا جَمِيعًا، وَيَأْخُذُوا السَّكَاكِينِ
وَالْحَنَاجِرَ، وَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَضْرِبُوا عَلَى هَذِهِ الْمِحْنَةِ الْعَظِيمَةِ، فَلَمَّا فَعَلُوا
ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

فَهَذَا يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ مُعْتَدُونَ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ اتَّخَذْتُمْ هَذَا الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ
بِأَيْدِيكُمْ إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَهُمُ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ عَفَا عَنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ؛
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ، وَيَتُوبُونَ إِلَيْهِ، وَيَعُودُونَ إِلَيْهِ.

فوائد هاتين الآيتين:

١- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاعْدُ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَتَمَّهَا حَتَّى صَارَتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَوَعَدُ اللَّهِ لَهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً مَأْخُودٌ مِنْ آيَةٍ أُخْرَى، لَكِنَّهُ عَزَّجَلَّ مَدَّدَ الْمُدَّةَ لِحُكْمَةٍ أَرَادَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢- ومن فوائد هاتين: إثبات كلام الله عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ فَإِنَّ هَذَا الْوَعْدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِوَحْيٍ أَوْ بِكَلَامٍ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والحقيقة أَنَّ هَذَا قَدْ لَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجْهِ يَسْلَمٍ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنَ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ كَيْفَ شَاءَ بِمَا شَاءَ، يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَلِهَذَا مَجِدُّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لَمَّا كَلَّمَ مُوسَى قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾.

وفي هذه القِصَّةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يَتَعَلَّقُ بِمَشِئَتِهِ، وَلَيْسَ كَمَا أُطْلِقَهُ بَعْضُهُمْ: قَدِيمًا أَزَلِيًّا، بَلْ إِنَّ الصَّوَابَ فِي ذَلِكَ: أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِإِعْتِبَارِ أَصْلِهِ وَجَنْسِهِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا بِإِعْتِبَارِ أَحَادِهِ فَإِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِئَتِهِ، مَتَى شَاءَ تَكَلَّمَ بِمَا يَشَاءُ، هَذَا هُوَ الَّذِي مَشَى عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ،

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا الْمُجْتَمِعِينَ عَلَيْهَا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

٣- ومن فوائدِهِمَا: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ هُدًى؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مِنْ قَبْلُ، وَذَكَرَهُمْ هَارُونُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ رَبَّهُمُ الرَّحْمَنُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

٤- ومن فوائدِهِمَا: أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَفَا عَنْهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الْقَبِيحَةِ، وَالظُّلْمِ الْعَظِيمِ؛ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ اللَّهَ.

٥- ومن فوائدِهِمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ، وَوَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى هَذَا التَّوْفِيقِ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ حُرِمَ التَّوْبَةُ، وَأَصْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذَّنْبِ حَتَّى هَلَكَ!

٦- ومن فوائدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إِبْتِاثُ الْحِكْمَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فَإِنَّ (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَلَا رَبِّبَ أَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِ اللَّهِ مَقْرُونَةٌ بِحِكْمَتِهِ، وَكَذَلِكَ تَشْرِيعَاتُهُ مَقْرُونَةٌ بِحِكْمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَفْعَلُ شَيْئًا سَفَهًا، وَلَكِنَّ الْحِكْمَةَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً لَنَا، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مَجْهُولَةً؛ لِقُصُورِنَا عَنْ إِدْرَاكِهَا، أَوْ تَقْصِيرِنَا فِي طَلِبِهَا^(١).



(١) لا يوجد في التسجيل الصوتي تعليق على الآية رقم (٥٣).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقَمُوا إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

في هذه الآية يذكرُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن نبيِّ اللهِ موسى ﷺ أَنَّهُ وَعَظَ قَوْمَهُ هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ الْعَظِيمَةَ بِهَذَا التَّلَطُّفِ الْعَظِيمِ: ﴿يَنْقَمُوا إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ﴾، وَأَيُّ ظُلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ مَعَ بَارِيهِ وَخَالِقِهِ إِلَهًا يَعْبُدُهُ؟! فَإِنَّ هَذَا أَظْلَمُ الظُّلْمِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فَأَعْظَمُ الظُّلْمِ: أَنْ يَجْهَدَ الْإِنْسَانُ حَقَّ رَبِّهِ، حَتَّى يَجْعَلَ حَقَّهُ لغيره، فيعبدَ غيرَ اللهِ مِثْلَمَا يَعْبُدُ اللهُ عَزَّجَلَّ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ أَي: ارْجِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ إِلَى تَوْحِيدِهِ، ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: لِيَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِقَتْلِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخُو الْمُؤْمِنِ، فَكَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فَأُخَوِّكُ الْمُؤْمِنَ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِكَ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَامُ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَي: تَوْبَتُكُمْ إِلَى اللهِ بِقَتْلِ أَنْفُسِكُمْ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْخَيْرُ عِنْدَ بَارِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ خَالِقُهُ الْمَدْبُرُّ لَهُ كَمَا يَشَاءُ، فَلَمَّا قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ قَوْمَهُ بهذه الفِعْلَةِ القبيحة، وبما مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ به من التَّوْبَةِ إليه، والتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ.

٢- ومن فوائدها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَتَلَطَّفَ مَعَ مَنْ يَدْعُوهُ، وَأَنْ يَذْكُرَ الألفاظَ التي تَكُونُ سَبَبًا فِي إِقْبَالِ المدْعُوِّ عَلَى الدَّاعِي، وَتَقْبُلُهُ مَا يُوجِّهُهُ إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿يَقُومِ﴾.

٣- ومن فوائدها أَيضًا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ ذَكَرَ الدَّاءَ أَنْ يَذْكُرَ الدَّوَاءَ؛ فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الدَّوَاءَ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللهِ عَزَّجَلَّ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ إِذَا ذَكَرَ الدَّاءَ وَالْأَمْرَاضَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي فِي الْمَجْتَمَعِ أَنْ يَذْكُرَ لَهُمُ الدَّوَاءَ وَطَرِيقَ الْخُلَاصِ مِنْهَا؛ حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

٤- ومن فوائده هذه الآية: بَيَانُ سَفَهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ عَبْدُوا عِجْلًا صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الذَّهَبِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ تَمَثَّلَ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ عَبْدُوهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى سَفَهِهِمْ.

٥- ومن فوائده هذه الآية: وَجُوبُ التَّوْبَةِ إِلَى اللهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾، حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الْبَارِئُ الَّذِي خَلَقَ، فَلَهُ الْحَقُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفِرَّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَالتَّوْبَةُ لِأَبَدٍ فِيهَا مِنْ شُرُوطِ خَمْسَةٍ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُخْلِصَ الْعَبْدُ التَّوْبَةَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، بِأَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ لَهُ عَلَيْهَا خَوْفَ اللهِ، وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَالْخُلَاصَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ، بِحَيْثُ يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا حَصَلَ مِنْهُ مِنْ ذَنْبٍ، فَلَا يَكُونُ

الأمرُ عندهُ على حدٍّ سواء، بل يتأسَّفُ ويتندَّمُ على ما حصلَ منه من الذَّنْبِ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَالِ، فَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمُحَرَّمٍ تَرَكَهُ، وَإِنْ كَانَ تَارِكًا لَوَاجِبٍ أَتَى بِهِ إِنْ كَانَ يُمَكِّنُ تَدَارُكُهُ، وَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْ تَدَارُكُهُ أَتَى بِبَدَلِهِ إِنْ كَانَ لَهُ بَدَلٌ، وَإِلَّا كَفَّتْهُ التَّوْبَةُ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ يَعْزِمَ عَلَى أَلَّا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَأَمَّا إِنْ قَالَ: أَنَا تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ، وَفِي نَيْتِهِ أَنَّهُ مَتَى سَنَحَتَ لَهُ الْفُرْصَةُ عَادَ إِلَى الذَّنْبِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِتَائِبٍ حَقِيقَةً.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْبَلُ فِيهِ التَّوْبَةُ، وَذَلِكَ بَأَنْ تَكُونَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَقَبْلَ حُضُورِ الْأَجْلِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَلَا تَوْبَةَ، وَإِذَا حَضَرَ الْأَجْلُ فَلَا تَوْبَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بَيَانُ مَنَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلَ تَوْبَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَذَا الثَّقَلِ وَهَذِهِ الْأَصَارِ، وَأَنَّهُ لَا تَحَقُّقَ تَوْبَتِهِمْ إِلَّا إِذَا قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ، أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَحْصُلُ بِدُونِ ذَلِكَ، تَحْصُلُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الشُّرُوطِ، وَإِنْ لَمْ يُجِدْثِ الْإِنْسَانُ ضَرَرًا عَلَى نَفْسِهِ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، وأحمد (٩٩/٤) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ الإِقْلَاعَ عن الذَّنْبِ والتَّوْبَةَ إلى اللهِ منه خَيْرٌ من الاستمرارِ عليه، بل قد يكونُ الإنسانُ بعد التَّوْبَةِ خَيْرًا منه قبلها، أي: أَنَّ الإنسانَ إذا أَذْنَبَ، ثُمَّ تابَ إلى الله، فَإِنَّهُ قد تكونُ حالُهُ بعد التَّوْبَةِ من هذا الذَّنْبِ خَيْرًا من حالِهِ قبلَ أن يُذنبَ، ألم ترَ إلى آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينَ أَكَلَ من الشَّجَرَةِ، قالَ اللهُ تعالى في حقِّهِ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٣) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١-١٢٢﴾، فحصلَ له الاجْتِبَاءُ والهدايةُ بعد أن تابَ من تلك المعصية.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيانُ مَنَّةِ اللهِ على عِبَادِهِ؛ حيثَ يَقْبَلُ منهم التَّوْبَةَ إذا صدَّقُوا اللهَ تعالى في التَّوْبَةِ؛ ولهذا لما صدَّقَ بنو إِسْرَائِيلَ في التَّوْبَةِ، وَقَتَلُوا أنفسهم، تابَ اللهُ عليهم، أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ، وعفا عنهم.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثباتُ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ الكريمَيْنِ اللهُ عَزَّجَلَّ، وهما: (التَّوَابُ) و(الرَّحِيمُ)، وأنَّ من مُقتضاهما أن يَتُوبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مَنْ تابَ ويرحمهُ، فالتَّوَابُ: كثيرُ التَّوْبَةِ على عِبَادِهِ، فما أَكْثَرَ ما تابَ اللهُ على عِبَادِهِ، وما أَكْثَرَ الذين يَتُوبُونَ إلى اللهِ، فيَتُوبُ اللهُ عليهم!

أَمَّا الرَّحِيمُ فهو ذُو الرَّحْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلإِحْسَانِ إلى الخَلْقِ إِحْسَانًا عَامًّا، كما في الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ، وإِحْسَانًا خَاصًّا، كما في الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ.

واعلم أَنَّ الرَّحْمَةَ تنقسمُ إلى قَسْمَيْنِ: رَحْمَةٍ عَامَّةٍ، وَرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ، فَالْعَامَّةُ: هي الشَّامِلَةُ لَكُلِّ الخَلْقِ، مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، وَالرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ: هي الرَّحْمَةُ بِالْمُؤْمِنِينَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ تَتَّصِلُ بها سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

في هذه الآيات يُذَكِّرُ اللهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَىٰ بني إِسْرَائِيلَ بما جرى منهم، وبما كان
من إِحْسَانِ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ.

فَأَمَّا الَّذِي جَرى مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَىٰ -وهو يُكَلِّمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بما شاء اللهُ
من الوحي- قَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أَي: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ أَنَّكَ
تُكَلِّمُ اللهُ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً، أَي: عَيْنَانَا، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ وَالتَّكْذِيبِ،
فَلَمَّا قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الْعَظِيمَةَ صَبَعُوا، أَخَذَهُمُ الْمَوْتُ، فَمَاتُوا جَمِيعًا.

وَلَكِنْ اللهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَىٰ مَنْ عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَهُمْ، أَي: أَحْيَاهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ؛ لِأَنَّ
مُوسَىٰ دَعَا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، ففَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ، ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلِيْنِي
أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ
وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فَبَعَثَهُمُ اللهُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ؛
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ إِذَا ذَكَرُوهَا.

وَالشُّكْرُ: هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الْمُنْعِمِ، وَلَيْسَ الشُّكْرُ مُجَرَّدَ قَوْلِ الْقَائِلِ: أَشْكُرُ اللَّهَ؛
لِأَنَّ الْقَوْلَ بِاللِّسَانِ إِنْ لَمْ يُصَدِّقْهُ الْعَمَلُ وَالِاعْتِقَادُ صَارَ قَوْلًا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ.

قال أهل العلم: والشُّكْرُ يكونُ بالقلبِ، وباللسانِ، وبالجوارحِ، فأما شُكْرُ القلبِ فإنَّ يَعْتَرَفَ الإنسانُ بقلبه أنَّ هذه النِّعْمَةَ من فضلِ اللهِ وَحْدَهُ، وليست بحَوْلِ المرءِ وَقُوَّتِهِ.

وأما شُكْرُ اللهِ باللسانِ فَالتَّحَدُّثُ بهذه النِّعْمَةِ؛ إظهارًا لفضلِ اللهِ، لا افتخارًا على عبادِ اللهِ، ويشملُ أيضًا جميعَ ما يتكلَّمُ به العبدُ ممَّا يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأما الشُّكْرُ بالجوارحِ فإنَّ يَقُومَ الإنسانُ بالعملِ الصَّالحِ بجوارحه: اليدينِ، والرِّجلينِ، والعَيْنينِ، وغير ذلك من أعضائه وجوارحه، وفي هذا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا^(١)

ثُمَّ يَذْكُرُهُم اللهُ تعالى نعمةً ثانيةً بعد أن أحيَاهم من تلك الصَّعَقَةِ، وهي: أَنَّهُ ظَلَّلَ عليهم الغمامَ من حرِّ الشَّمْسِ، فصَارُوا في ظِلِّ باردٍ، والغمامُ كما قال أهل العلم: هو السَّحَابُ الأَبْيَضُ الحَاجِبُ من حرِّ الشَّمْسِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، فالْمَنُّ: طعامٌ يَجْدُونَهُ مُنْتَشِرًا على رُؤُوسِ الشَّجَرِ كَأَنَّهُ العَسَلُ، فيأْكُلُونَهُ، والسَّلْوَى: هو الطَّائِرُ المعروفُ بالسَّهْمَانِي، وهو من أَلَدِّ الطُّيُورِ لِحَمِّهِ.

وَسُمِّيَ المَنُّ: مَنًّا؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِدُونِ تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ، ومنه: الكَمَاءَةُ؛ وهي الفَقْعُ؛ لقول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْكَمَاءَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(٢)، وهي

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، رقم (٤٤٧٨)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة، رقم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإن لم تكن من المنّ الذي نَزَلَ على بني إِسْرَائِيلَ، فهي من المنّ بالمعنى العام؛ لأنّها تُوجَدُ في الأرضِ بَدُونِ عَرَسٍ، ولا بَذَرٍ، ولا تَعَبٍ في سقيٍّ وغيره.

ثمّ امتنَّ اللهُ عليهم مِنَّةً ثالثةً بأن يَسَّرَ لهم أَكْلَ هذه الطَّيِّبَاتِ، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وهذه مِنَّةٌ ثالثة؛ لأنَّ الإنسانَ رَبِّمَا يَتَسَرَّرُ له الطَّعَامُ والشَّرَابُ، ولكن لا يَتِمَكَّنُ من أَكْلِهِ وشُرْبِهِ لعلَّةٍ فيه، فلا يحصلُ به كمالُ المِنَّةِ، وربِّمَا يُحَرِّمُ من الطَّعَامِ والشَّرَابِ لِقِلَّتِهِما، المهمُّ: أنَّ إِيْجَادَ الطَّعَامِ أو الشَّرَابِ نعمةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ قُدْرَةَ الإنسانِ على تناولِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، وتلذُّدَهُ بذلك، وانتفاعُهُ به، من نعمةِ الله تعالى أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من طَيِّبَاتِ ما أعطَيْنَاكم.

ثمّ قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما ظَلَمُونَا بمعاصيهم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنْ يَعْْبَأَ بِأَحَدٍ، ولن يَتَضَرَّرَ بمعصيةِ العاصينَ، ولن يَتَنَفَّعَ بطاعةِ الطَّائِعِينَ؛ كما جاء في الحديثِ القدسيِّ: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١)، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن كانوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، فالإنسانُ الْمُفَرِّطُ في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس ظالمًا لله؛ لأنَّ الله تعالى لا تنقصُهُ ولا تضرُّهُ معصيةُ العاصينَ، ولا تنفعُهُ طاعةُ الطَّائِعِينَ، ولكنَّهُ قد ظَلَمَ نَفْسَهُ وَهَضَمَهَا وَنَقَصَهَا حَقَّهَا؛ فَإِنَّ النَّفْسَ أمانةً عندَ الإنسانِ، يجبُ عليه أن يَرعَاها حقَّ رِعَايَتِهَا، وألَّا يُوَقِّعَهَا في المَهَالِكِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر - رضي الله تعالى عنه -.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ - عَتُوْ بني إِسْرَائِيْلَ، وشِدَّةُ عِنَادِهِمْ وتَكْذِيْبُهُمْ؛ حيث قالوا لنبيِّهم وهم يَسْمَعُونَ كلامَ اللَّهِ: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، وهذا غاية ما يكون في الطَّغْيَانِ والعِنَادِ.

٢ - ومن فوائدها: أَنَّ الإنسانَ إِذَا فَعَلَ الجُرْمَ العَظِيمَ والمُنْكَرَ الكَبِيرَ فقد يُعَاجَلُ بالعُقُوبَةِ؛ ولهذا عَاجَلَ اللَّهُ بني إِسْرَائِيْلَ الذين قالوا: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فَعَاقَبَهُم بالصَّعِقِ، فَصَعِقُوا في حَالِ قَوْلِهِمْ هذا، ولهذا جاءَ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التَّرتِيبِ والتَّعْقِيبِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ﴾.

٣ - ومن فوائدها: بيانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إِحياءِ المَوْتَى؛ حيث أحيَا هؤلاءِ من مَوْتِهِمْ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٤ - ومن فوائدها هذه الآيات: أَنَّ الصَّاعِقَةَ أَخَذَتْهُمْ وهم يَنْظُرُونَ، أي: يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقَعُ مِيتًا، حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ، أي: مَاتَ جَمِيعٌ مِّنْ تَكَلَّمُوا بِهَذَا الْقَوْلِ، أَوْ رَضُوا بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ.

٥ - ومن فوائدها: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْعِمُ على العَبْدِ بِرَفْعِ الضَّرْرِ عَنْهُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ أَسْبَابَ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ إِمَّا خَيْرٌ يُجَلِّبُهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِمَّا شَرٌّ يَدْفَعُهُ اللَّهُ عَنْكَ، والذي حَصَلَ لَهُؤَلاءِ: دَفْعُ شَرٍّ، وَحُصُولُ خَيْرٍ:

■ دَفْعُ شَرٍّ بِرَفْعِ المَوْتِ عَنْهُمْ.

■ وَحُصُولُ خَيْرٍ بِإِحْيَائِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ.

٦- ومن فوائدها: إثباتُ حكمةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد سبق مرارًا ما يدلُّ على إثباتِ الحكمةِ في أفعالِ الله تعالى كما هي ثابتةٌ فيما شرَّعه، ولهذا يختُم اللهُ سُبحَانَهُ وتعالى كثيرًا من آياتِ الأحكامِ بالعلمِ والحكمةِ، كما في آيةِ قسَمِ الصَّدَقَاتِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وكما في آيةِ الموارِيثِ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

٧- وفي هذه الآية من الفوائد: بيانُ نعمةِ الله تعالى على بني إِسْرَائِيلَ بتظليلهم بالغمَام من حرِّ الشَّمْسِ، والغمَامُ: هو السَّحَابُ الأبيض، وهو من أبردِ السَّحَابِ ظِلًّا.

٨- ومن فوائدها أيضًا: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ كُلَّ شيءٍ يكونُ فبمَشِيئَتِهِ، فالسَّحَابُ المسخَّرُ بين السَّمَاءِ والأَرْضِ لا يجري إِلَّا بأَمْرِ اللهِ وتدبيرِهِ سُبحَانَهُ وتعالى، ولا يخفى على كثيرٍ من النَّاسِ ما جرى للرَّجُلِ الذي سَمِعَ قائلًا من السَّحَابِ يَقُولُ: اسقِ حديقةَ فلانٍ! فنزلَ المطرُ على أرضٍ، وسألَ الوادي إلى هذه الحديقة، فتابعَهُ هذا الرَّجُلُ الذي سَمِعَ الصَّوْتَ من السَّحَابِ حَتَّى وَصَلَ إلى صاحبِ الحديقة، وسأله: ماذا يصنعُ فيها؟ فقال له: إِنِّي أَقْسَمُ رِيعَهَا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: فثُلُثٌ أُعِيدُهُ فيها -يعني: يُصلحها به- وثُلُثٌ لي ولعِيالي، وثُلُثٌ أَتصدَّقُ به، ثُمَّ سأله صاحبُ الحديقة عن سببِ سُؤَالِهِ إِيَّاهُ، فأخبرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا في السَّحَابِ يَقُولُ: اسقِ حديقةَ فلانٍ! (١)

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب فضل الإنفاق على المساكين، رقم (٢٩٨٤) من حديث أبي

ففي هذا دليلٌ على أَنَّ السَّحَابَ الْمَسْخَرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَسِيرُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَمْرُهُ.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: ما مَنَّ اللَّهُ به على بني إِسْرَائِيلَ من إنزالِ المنِّ والسَّلْوَى، هذا الطَّعَامِ الطَّيِّبِ اللَّذِيذِ الَّذِي يَأْخُذُونَهُ بِدُونِ كُفْلَةٍ وَمَشَقَّةٍ.

١٠- ومن فوائدها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِتَيْسِيرِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ، وَالتَّمَتُّعِ بِهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وَهَذَا الْأَمْرُ لِلْامْتِنَانِ وَالِإِبَاحَةِ.

١١- ومن فوائدها: أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَذِنَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ دُونَ الْخَبَائِثِ، وَالْخَبَائِثُ: كُلُّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَهُوَ خَبِيثٌ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلَكِنْ رُبَّمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ عُقُوبَةً لَهُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِظْلَمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ﴾ (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿[النساء: ١٦٠-١٦١]، وَقَدْ يُحَرِّمُ الْإِنْسَانُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَا تَحْرِيمًا شَرْعِيًّا، وَلَكِنْ بِمَا يُصَابُ بِهِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَجْعَلُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْتَمِيَ مِنْ بَعْضِ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّحْرِيمِ، لَكِنَّهُ تَحْرِيمٌ كَوْنِيٌّ لَا شَرْعِيٌّ، فَقَدْ يُبْتَلَى الْإِنْسَانُ الْعَاصِي بِأَمْرَاضٍ تَمْنَعُهُ مِنَ التَّمَتُّعِ بِالطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُ.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ مَا نَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ مِنَ اللَّهِ وَعَطَاءٌ مِنْهُ وَمِنَّةٌ، لَيْسَ بِحَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ﴾ (١٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿١٦٧﴾

[الواقعة: ٦٣-٦٧]، ومن المعلوم أننا لسنا الذين نزرعُه ونُميِّه، ولكن الذي يزرعُه ويُميِّه هو الله عزَّ وجلَّ، أمَّا نحنُ فَمِنَّا السَّبَبُ، واللهُ هو الْمُسَبِّبُ جَلَّ وَعَلَا.

ثمَّ قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٣]، فإذا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ هُوَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ، وَأَوْجَبَ لَهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بِإِجَادِ هَذِهِ الْأَرْزَاقِ، وَأَوْجَبَ لَهُ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَرْزَاقِ الَّتِي قَدْ يَكُونُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مُحَرِّمًا مِنْهَا.

١٣- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنْ يَنْقُصَهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، وَلَنْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، فَإِنْ سَأَلَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ مَعْصِيَةٍ فَإِنَّهُ لَنْ يَنْقُصَ اللَّهَ شَيْئًا، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

١٤- ومن فوائدِ هذه الآية الكريمة: أَنَّ الْعَاصِيَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، مُعْتَدٍ عَلَيْهَا، غَيْرَ قَائِمٍ بِهَا يَجِبُ لَهَا؛ لِأَنَّ نَفْسَكَ أَمَانَةٌ عِنْدَكَ، فَكَمَا أَنَّكَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا يَضُرُّ بِدَنِكَ حِسًّا، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا يَضُرُّ دِينَكَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ فِي الْأُمُورِ الْحَسِّيَّةِ، كَالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَضُرُّهُ فِي بَدَنِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَذَلِكَ أَيْضًا لَا يُجُوزُ لَهُ أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ فِيهَا يَضُرُّهُ

في دينه، بل إنَّ ما يضرُّه في دينه أولى بالمراعاة ممَّا يضرُّه في بدنه؛ لأنَّ ضرَّ الدينِ ضررٌ في الدنيا والآخرة، أمَّا ضررُ البدنِ فهو ضررٌ في الدنيا فقط.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيانُ قُصورِ الآدميِّ، وأنَّه عدُوُّ نفسه، يَظْلِمُ نفسه، وهو لا يشعرُ أنَّه ظالمٌ لنفسه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّه ينبغي للإنسان -بل يجبُ عليه- أن يتبسَّرَ، ويتعظَّ، وينظرَ مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعلِ المعاصي أو تركِ الواجبات حتَّى يحمي نفسه من هذا الظلم، وهذا الضرر، أسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من المعتبرين بالمواعظ المتقين الذين لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون.



ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

في هاتين الآيتين يُذكرُ اللهُ بني إسرائيلَ بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم، ولكنهم كفروها، فيقول لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وهذا القولُ يحتملُ أن يكونَ قولاً كونياً أو قولاً شرعياً، ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهي القرية التي فتحوها، قيلَ لهم: ادْخُلُوهَا، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ حلالاً لكم، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا لله

تعالى شاكرين له هذه النعمة العظيمة التي منَحكم إياها، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: قولوا: احطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا، وَاغْفِرْ لَنَا ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: نغفر لكم آثامكم وذُنُوبَكُمْ التي ارتكبتُموها، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ إحسانًا على التَّوبَةِ إِذَا أَحْسَنُوا فِي مُعَامَلَةِ اللَّهِ.

ولكن كانت النَّتِيجَةُ أَنْ بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، وَقَالَ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «بَدَلْتُمْ»؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ فِيمَا بَدَّلُوهُ.

بَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَقِيلَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا، بَلْ دَخَلُوا عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، أَيْ: عَلَى أَلْيَاتِهِمْ وَعَجَائِزِهِمْ، وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أَيْ: احطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا، وَلَكِنْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: حِطَّةٌ، أَيْ: سَأَلُوا طَعَامًا يَمْلَأُونَ بِهِ بُطُونَهُمْ، فَلَمْ يَسْأَلُوهُ مَغْفِرَةً لَذُنُوبِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أَيْ: عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ كَرَّرَ الظُّلْمَ تَشْنِيعًا عَلَيْهِمْ، ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ: عَذَابًا مِّنَ السَّمَاءِ، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُذَكَّرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ إِبَاحَةِ دُخُولِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ فَاتِحِينَ آكِلِينَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَكْلًا رَغَدًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ.

وَيُذَكَّرُ هُمْ أَيْضًا بِأَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَحُسْنُ عَاقِبَتِهِمْ، وَهُوَ أَنْ يَقُولُوا: «حِطَّةٌ» أَيْ: احطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَاغْفِرْ لَنَا؛ حَتَّى يُغْفَرَ لَهُمْ.

ثُمَّ يُذَكَّرُ هُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَلَمْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا،

ولم يقولوا: حِطَّةٌ؛ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَإِنْكَارًا لِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَنِعْمَتِهِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ؛ بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

مَا يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- مِنْهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِنْ دُخُولِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِنْ أَكْلِ مَا رَزَقَهُمْ مِنْهَا رَغَدًا لَيْسَ فِيهِ حَرْجٌ وَلَا تَبِعَةٌ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا أَيْضًا: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَيَتَفَرَّغُوا عَنْ هَذَا: مَشْرُوعِيَّةِ سُجُودِ الشُّكْرِ عِنْدَ تَجَدُّدِ النِّعَمِ، كَمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي شَرِيعَتِنَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ فَإِنَّهُ يُسَنُّ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ لِلَّهِ تَعَالَى شُكْرًا.

وَسُجُودُ الشُّكْرِ سُجُودٌ مُجَرَّدٌ لَيْسَ صَلَاةً، بَلْ يُكَبِّرُ الْإِنْسَانُ، وَيَسْجُدُ، وَيَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، ثُمَّ يُثْنِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَيَشْكُرُهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَرْفَعُ بِدُونِ تَكْبِيرٍ وَلَا تَسْلِيمٍ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا نَصَرَهُ اللَّهُ وَيسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ النَّصْرِ أَلَّا يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ، وَأَلَّا يُعْجَبَ بِعَمَلِهِ، بَلْ يَسْأَلُ اللَّهَ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ؛ حَتَّى لَا يَشْمَخَ وَيَتَعَالَى وَيَتَرَفَّعَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ مَنْ اسْتَغْفَرَهُ وَطَلَبَ مِنْهُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وَهَذَا مَشْرُوطٌ بِمَا إِذَا كَانَتْ التَّوْبَةُ نَصُوحًا، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَهِيَ الَّتِي جُمِعَتْ خَمْسَةُ شُرُوطٍ^(١).

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ مِنْ فَضْلِهِ إِحْسَانًا وَفَضْلًا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ عَبْدِهِ وَأَجْزَلُ عَطَاءٍ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

٦- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا بَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَبَدَّلُوا قَوْلَ اللَّهِ لَهُمْ: ﴿وَادْخُلُوا أَبْنَاءَ سُجْدًا﴾ بِدَلْوِهِمْ بَأَن دَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمُ وَعَجَائِزِهِمْ، وَبَدَّلُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ بِقَوْلِهِمْ: «حِنْطَةٌ»، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَمُّوا بِذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ هُمُومُ أُمَرَاءٍ مَادِيًّا، وَهُوَ أَن يُشَبِّعُوا بُطُونَهُمْ.

٧- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ فَإِنَّهُ حَرِيٌّ بِأَن يُعَذَّبَ وَيُعَاقَبَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٨- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إِثْبَاتُ الْحِكْمَةِ وَالْعِلَّةِ لِأَفْعَالِ اللَّهِ، وَأَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى مُرَبُّوطةٌ بِحُكْمِهَا وَأَسْبَابِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَالْتَّعْلِيلِ لِإِنزَالِ الرَّجْزِ، أَيْ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ لظُلْمِهِمْ، وَعِلَّةٌ أُخْرَى، وَهِيَ فِسْقُهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٩- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِمُسَبِّبَاتِهَا، وَهَذَا لَا شَكَّ مِنْ تَمَامِ حِكْمَةِ اللَّهِ أَن رَبَطَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ

لَا يَخْلُقُ خَلْقًا عَبَثًا، وَلَا يَشْرَعُ تَشْرِيعًا بَاطِلًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ تعالى بني إِسْرَائِيلَ بهذه النعمة العظيمة التي
يُجْرِيهَا على يد نبيِّهم مُوسَى ﷺ، فبينما كان مُوسى وقومه محتاجين إلى الماء استسقى
مُوسى لقومه، فسأل الله تعالى أن يسقيهم، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يضرب بعصاه الحجر،
فَضْرَبَ الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْنًا، حَجَرٌ واحدٌ نَبَعَتْ مِنْهُ اثنتا عشرة عَيْنًا
على عددِ أَسْبَاطِ بني إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا اثْنِي عَشَرَ سِبْطًا، هذه العيون توزعت،
فَعَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ، هؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء
مشربهم هذه؛ لئلاَّ يَخْضَلَ التَّرَاحُمُ بَيْنَهُمْ، وَالتَّقَاتُلُ على الماء.

قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾
فَأَبَاحَ اللهُ لَهُمْ -امتناناً منه، وَفَضْلاً- أَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ يُقَيِّدُوا
هذه النعمة بشكرها، فلا يَعْتُوا في الأرضِ مُفْسِدِينَ.

وإفسادُ الأرضِ ليس الإفسادَ الحَسِّيَّ الذي يكونُ بتدميرِ الدِّيارِ، وتخریبِ الآبارِ
والخُرُوثِ، ولكنَّه بالمعاصي، كما قال كثيرٌ من السَّلفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿[الأعراف: ٥٦]﴾، قَالَ: لَا تُفْسِدُوهَا بِالْمَعَاصِي. وَلَا شَكَّ أَنَّ
 الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ فِي الدَّمَارِ وَالْفَسَادِ الْحَسِيِّ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصْبَحَ مِنْكُمْ
 مُصِيبَةٌ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى:
 ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - افتقارُ الخلقِ إلى الله، ولو كانوا أعلى أصنافِ الخلقِ، وهم الرُّسلُ، ولهذا
 استسقى موسى لقومه، واستسقى أشرفُ الأنبياءِ مُحَمَّدٌ ﷺ لقومه حين دَخَلَ رجلٌ
 يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتَ الْأَمْوَالُ، وَأَنْقَطَعَتْ
 السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يَغْنَثْنَا! فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ
 اغْنِثْنَا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ رَاوِي الْحَدِيثِ: وَاللَّهِ مَا نَرَى
 فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابَةٍ وَلَا قَزَعَةٍ^(١)، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ - وَسَلْعٌ:
 جَبَلٌ صَغِيرٌ فِي الْمَدِينَةِ، تَخْرُجُ مِنْ نَحْوِهِ السَّحَابُ - قَالَ: فَطَلَعْتُ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةً
 مِثْلُ الثُّرْسِ - وَالثُّرْسُ: شَيْءٌ يُشَبُّهُ الطَّسْتُ يَتَّقِي بِهِ الْمُقَاتِلُ السَّهَامَ حِينَ الْقِتَالِ؛
 حَتَّى لَا تُصِيبَهُ - فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءُ انْتَشَرَتْ، وَتَوَسَّعَتْ، وَرَعَدَتْ، وَبَرَقَتْ، ثُمَّ
 أَمْطَرَتْ، فَمَا نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْمَنْبَرِ إِلَّا وَالْمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لَحْيَتِهِ، اللَّهُ أَكْبَرُ! فَبَقِيَ
 الْمَطَرُ أُسْبُوعًا كَامِلًا، وَسَالَتِ الْأَوْدِيَةُ، حَتَّى سَالَ وَادِي قَنَاةٍ - وَهُوَ وَادٍ مَشْهُورٌ فِي
 الْمَدِينَةِ حَتَّى الْآنَ - سَالَ شَهْرًا كَامِلًا.

(١) القزعة: هي القطعة من السحاب.

وفي الجمعة الثانية دخل رجلٌ أو الرجلُ الأوّل، والنبيُّ ﷺ يخطبُ، فقال: يا رسولَ الله! غرقَ المالُ، وتهدّمَ البناءُ، فادعُ اللهَ يُمسِكها عنا! فرفعَ النبيُّ ﷺ يديه، وقال: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا»، ولم يقل: اللهم أُمسِكها عنا كما طلبَ الرجلُ؛ لأنَّ إمساكَ المطرِ ليس من مصلحةِ الإنسانِ، ولكن من مصلحته: أن ينزلَ المطرُ على وجهٍ لا ضَرَرَ فيه، فقال: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا»، وجعلَ يُشيرُ إلى النّواحي بيده عليه الصّلاة والسّلام، فيتمايزُ السّحابُ حيث أشارَ النبيُّ ﷺ، وخرجَ النَّاسُ يمشون في السّمس (١).

ففي هذه القصّة، وفي قصّة موسى -صلى الله عليه وعلى نبينا وسلّم- دليلٌ على أن الخلقَ مُفْتَقِرُونَ إلى اللهِ مهما بلغت منزلتهم عند الله عزّ وجلّ؛ فإنَّ موسى قال الله عنه: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَحِيهَا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ومُحَمَّدٌ ﷺ أعظمُ النَّاسِ وجاهةً عند ربِّه، ومع ذلك كُلُّ منهما مُفْتَقِرٌ إلى الله، يسألهُ ويلجأُ إليه، ويتضرّعُ إليه، فإذا كان هذا مقامَ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فما بالكَ بمقامٍ من دُونهم؟!

ويتفرّعُ عن هذه الفائدة: أنّه يجبُ على الإنسانِ إذا أصابه الضّرُّ ألا يلجأَ إلّا إلى الله عزّ وجلّ، لا يلجأُ إلى فلانٍ وفلانٍ من الأحياء أو الأموات، فيدعوهم ويستغيثهم، ويسألهُم كشفَ الضّرِّ؛ فإنَّ دعوةَ غيرِ الله عزّ وجلّ شركٌ أكبرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، أي: ليس هناك إلهٌ مع الله يستطيعُ هذا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات؛ حيث ضَرَبَ بها الحجرَ، فانفجرَ عُيُونًا، وهذه العصا حَصَلَ فيها ثلاثُ آياتٍ عظيمة:

إحدى الآيات: أَنَّهُ إِذَا أَلْقَاهَا صَارَتْ حَيَّةً تسعى.

والآيةُ الثانيةُ: أَنَّهُ ضَرَبَ بها هذا الحجرَ، فانفجرَ عُيُونًا.

والآيةُ الثالثةُ: أَنَّهُ ضَرَبَ بها البحرَ، فانفلقَ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ.

٣- ومن فوائد هذه الآية: بيانُ عِظَمِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ تَفَجَّرَ من هذا الحجرِ الذي ضربه موسى بالعصا اثنتا عشرةَ عَيْنًا، والنَّاسُ ينظرونَ، فهذا دليلٌ على كَمالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّهَا يَقُولُ له: «كُنْ» فيكونُ.

قال أهل العلم: وما من آيةٍ لنبيٍّ إِلَّا كانَ لنبينا ﷺ مثلُها أو أعظمُ منها، إمَّا على يدِ النَّبِيِّ ﷺ مُباشرةً، أو على يدِ أَتباعِهِ الذين صدَّقوا في اتِّباعِهِ، قالوا: وهذا الماءُ الذي تَفَجَّرَ من الحجرِ لموسى ﷺ حَصَلَ لنبينا ﷺ ما هو أعظمُ منه؛ فَإِنَّ النَّاسَ في غزوةِ الحُدَيْبِيَّةِ أصابهم عطشٌ وقَلَّةُ ماءٍ، فجاؤوا إلى رُسُولِ اللَّهِ ﷺ، وكان بين يديه رَكْوَةٌ -إناءٌ صغيرٌ من جلدٍ- فقالوا: يا رُسُولَ اللَّهِ، عَطِشْنَا! وشَكُّوا إليه قَلَّةَ الماءِ، فوضعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ في هذه الرِّكْوَةَ، وجعلت هذه الرِّكْوَةُ تَفُورُ كأَمْثالِ العُيُونِ، فارتوى النَّاسُ كُلُّهُمْ بإبِلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ، وكانوا أَلْفًا وأربعَ مئةٍ أو قريبًا من ذلك^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فخروجُ هذا الماءِ ونُبوُعُهُ وفورائُهُ من هذه الرِّكْوَةِ أعظمُ من خُرُوجِهِ من الحجرِ؛ لأنَّ الحجرَ جرت العادةُ أن تتفجَّرَ منه العيونُ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَارِقِ لَمَّا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤]، أمَّا الرِّكْوَةُ فلم تَجِرِ العادةُ أن تتفجَّرَ العيونُ منها، ولكنَّ اللهَ تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعِجْزِهِ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

٤- ومن فوائدِ هذه الآية: أَنَّهُ ينبغي قَسْمُ الماءِ بين النَّاسِ عندَ الكثرةِ، وتوزيعُهُ عليهم؛ حتَّى لا يحصلَ الازدحامُ والافتتالُ، أو العداوةُ والبغضاءُ بينهم؛ لأنَّ النفوسَ مجبولةٌ على محبةِ الاستئثارِ بالشيءِ، فإذا توزَّعَ الشيءُ، وصارَ كُلُّ طائفةٍ لهم جهةٌ مُعيَّنةٌ مخصوصةٌ، كان ذلك أقربَ إلى السَّلامةِ ممَّا يترتَّبُ من الآثارِ السيِّئةِ على اجتماعهم على مشربٍ واحدٍ.

٥- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمة: بيانُ ما امتنَّ اللهُ به على بني إِسْرَائِيلَ من هذا الماءِ والطَّعامِ الذي أُذِنَ لهم في أَكْلِهِ وشُرْبِهِ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

٦- ومن فوائدِ الآيةِ الكريمة: جوازُ إضافةِ الماءِ النَّابعِ إلى المُختصِّ به؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾، وفي هذه الإضافةِ فائدةٌ، وهي أنَّ صاحبه يكونُ أحقَّ النَّاسِ به، ولا يُزاحمه أحدٌ عليه، أمَّا جوازُ بيعِهِ وعَدَمُهُ فهذا له شأنٌ آخرُ.

٧- ومن فوائدِ هذه الآيةِ الكريمة: أَنَّهُ يجبُ على المرءِ إذا أنعمَ اللهُ عليه نعمةً أن يجعلَ النِّعمةَ سببًا للقيامِ بطاعتهِ، لا سببًا للأشرِّ والبَطَرِ؛ ولهذا أعقبَ قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أعقبَهُ بقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّ الطَّبيعةَ

البشرية إذا لم يؤيدها الله تعالى بالوحي فإن من طبيعتها أن يحملها سعة الرزق على الأشر والبطر، ولهذا نهى بني إسرائيل عن العثو في الأرض فساداً، حيث يسر لهم الأكل والشرب من رزق الله عز وجل.

ويتفرع على هذا: أن يتذكر الإنسان ويفكر فيما من الله عليه من النعم؛ حتى لا يجعلها سبباً للأشر والبطر، ونسيان أوامر الله، والكفر بشريعة الله.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْسُكُنَا لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا أَلَّذِي هُوَ أَذْيُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا بِضُرٍّ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية يُذكر الله عز وجل بني إسرائيل بما جرى لهم مع نبيهم موسى ﷺ حين قالوا له: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وهذا الطعام الواحد هو المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم بدون كلفة وبدون مشقة، وهو من أطيب أنواع الطعام، لكنهم -والعياذ بالله- لم يصبروا على هذه النعمة، وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو لهم ربّه؛ ليُخرج لهم ممّا تُنبئ الأرض، لا ممّا ينزل من المن والسلوى: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا﴾، وكلّ هذه الأنواع من الأطعمة هي أدون بكثير ممّا أنزل الله عليهم من المن والسلوى، ولهذا قال لهم نبيهم موسى عليه السلام: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ

الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴿١٤﴾، وهذا الاستفهام للإنكار عليهم، يعني: كيف يليق بكم أن تستبدلوا الذي هو أذنى بالذي هو خير؟! أي: أن تأخذوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليق بكم، وإذا شئتم هذا الأدنى فلا حاجة إلى دعاء الله عز وجل أن يخرجهُ لنا، ﴿أَهْطُوا مِصْرًا﴾ أي: أي مِصْرٍ تهبطونه تجدون هذا الشيء؛ لأن هذه الأنواع مُتَشَرَّةٌ، ليست أنواعًا من أطيب الأنواع التي لا توجد إلا في محلّ دون محلّ، ولا يقدّر عليها إلا واحدٌ دون آخر، بل هي أنواعٌ موجودةٌ مبذولةٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَهْطُوا مِصْرًا﴾، وليس المراد: مصرَ المعينة، بل المراد: أي مِصْرٍ كان تهبطونه فإنكم ستجدون ذلك، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾.

ومن أجل عدم الصبر على طعام واحد، ومن أجل المعاصي العظيمة التي ارتكبوها، ضربت عليهم الذلة والمسكنة، فالذلة في القلوب، والمسكنة في الجوارح، فكانوا أذلّ الناس، وأجبنهم، وأخوفهم؛ ولهذا تجد اليهود أذلّ الناس وأجبنهم؛ لأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْبِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: رجعوا بغضبٍ من الله عليهم؛ حيث كفروا نعمته، وعصوا رسوله، ولم يصبروا على نعمه، قال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، يكفرون بآيات الله الكونية والشرعية، ففي الآيات الكونية: لم يصبروا على طعام واحد، ولم يقتنعوا بهذه الآية العظيمة، ويشكروا الله عليها، أن أنزل عليهم المن والسلوى، وفي الآيات

الشَّرِيعَةِ: قِيلَ لَهُمْ: «قُولُوا: حِطَّةٌ»، فَبَدَّلُوا، وَقَالُوا: «حِنْطَةٌ»، وَأَمَرُوا فَلَمْ يَأْتَمِرُوا، وَهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَبِسَبَبِ هَذَا الْكُفْرِ قَتَلَهُمُ النَّبِيُّ بَغِيرَ حَقٍّ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ.

وكان هذا القتل للنبيين والكفر بآيات الله عِصْيَانًا عَظِيمًا، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فَكَانُوا عُصَاةً مُّعْتَدِينَ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية من الفوائد: بيانُ سَفَهِ بني إِسْرَائِيلَ؛ حيث لم يَصْبِرُوا على هذا الطَّعَامِ الطَّيِّبِ الذي أنزله الله من السَّمَاءِ؛ تَكْرِيمًا لَهُمْ، وَإِتِمَامًا لِلنِّعْمَةِ، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وَقَالُوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

٢ - ومن فوائدها: جَوَازُ التَّوَسُّلِ بِدُعَاءِ مَنْ تُرَجَّى إِجَابَتُهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَالُوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْآرْضُ﴾، وَقَدْ قَرَّرَتْ شَرِيعَتُنَا هَذَا النَّوْعَ مِنَ التَّوَسُّلِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَأْتُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لَهُمْ، كَمَا فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتَ الْأُمُورُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا^(١)، وَكَمَا قَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ حِينَ تَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ سَبْعُونَ أَلْفًا، بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»^(٢).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب البرود والخبرة، رقم (٥٨١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين...، رقم (٣٦٧ / ٢١٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالتَّوَسَّلْ إِلَى اللَّهِ بِدَعْوَةٍ مَن تُرْجَى إِجَابَتُهُ جَائِزٌ، ولكن هل هو أمرٌ مطلوبٌ،

أو لا؟

نقول: إن كان لأمرٍ عامٍّ فهو أمرٌ مطلوبٌ، يعني: أَنَّهُ يُسَنُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَسَّلَ بِدَعَاءٍ مَن تُرْجَى إِجَابَتُهُ فِي أَمْرٍ عَامٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، كما طَلَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْتَسْقِيَ لِلْمُسْلِمِينَ^(١)، وكما فِي طَلَبِ الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَنَا.

وأما إذا كان لأمرٍ خاصٍّ فإن كان طالبُ الدُّعَاءِ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَ الْمُطْلُوبَ إِذَا دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُحْسِنًا إِلَيْهِ، وَيُرْجَى أَنْ تُجَابَ دَعْوَتُهُ، وَيُعْطَى مِثْلُهَا؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلِكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهَا.

أما إذا قَصَدَ التَّوَسَّلَ بِدَعَاءٍ مَن تُرْجَى إِجَابَتُهُ مَصْلَحَةً نَفْسِيَّةً الْخَاصَّةَ فَهَذَا لَا يَنْبَغِي، بَلْ قَدْ صَرَّحَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ الْمَذْمُومَةِ، وَأَنْتَ -أَيُّهَا الْأَخُ الْمُسْلِمُ- إِذَا أَرَدْتَ الدُّعَاءَ فَادْعُ اللَّهَ بِنَفْسِكَ، وَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى غَيْرِكَ؛ لِأَنَّ دُعَاءَكَ اللَّهَ عِبَادَةً، وَرَبًّا يُحَدِّثُ لِقَلْبِكَ مِنَ الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِكَ الَّتِي تُرِيدُ.

٣- ومن فوائدها: إثباتُ أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ لَنْ يَقْدَرَ عَلَى إِنْبَاتِ

= وأخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، رقم (٦٥٤١)،

ومسلم في الموضع السابق، رقم (٣٧٤ / ٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم في الموضع السابق، رقم (٣٧١ / ٢١٨) من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء، رقم (١٠١٠).

الزَّرْعِ وإِخْرَاجِهِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ؛ لَأَتَمَّهُمْ قَالُوا مُوسَىٰ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا﴾ الآية.

٤- ومن فوائدها: التَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِاسْمِ (الرَّبِّ) عِنْدَ الدُّعَاءِ؛ لَقَوْلِهِمْ: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولهذا كَانَ قَوْلُ الدَّاعِي: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ؛ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! (١)، وكذلك إِذَا تَأَمَّلْتَ الدُّعَاءَ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ وَجَدْتَ كَثِيرًا مِنْهُ مُصَدَّرًا بِاسْمِ الرَّبِّ: «يَا رَبَّنَا».

٥- ومن فوائده هذه الآية الكريمة: انْحِطَاطُ هِمَمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ نَزَلُوا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، فَطَلَبُوا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُعْتَبَرُ نَازِلَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﷺ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَفَهِهِمْ، وَعَدَمِ صَبْرِهِمْ عَلَى مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

٦- ومن فوائدها: جَوَازُ تَفْضِيلِ الْأَطْعَمَةِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَأَنَّهُ يُجَوِّزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا أَدْنَى مِنْ هَذَا، أَوْ هَذَا أَعْلَى مِنْ هَذَا، أَوْ هَذَا أَرْدَأُ مِنْ هَذَا، أَوْ هَذَا أَطْيَبُ مِنْ هَذَا.

٧- ومن فوائدها: أَنَّهُ لَا يُلَامُ الْإِنْسَانُ إِذَا اخْتَارَ الْأَطْيَبَ مِنَ الطَّعَامِ، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِسْرَافِ، فَقَدْ أَقَرَّتْ شَرِيعَتُنَا هَذَا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جِيءَ إِلَيْهِ بِتَمْرٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طَيِّبٍ، فَسَأَلَ: «أَكُلُ تَمْرٍ خَيْرٌ هَكَذَا؟» قَالُوا: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَا تَفْعَلْ، بَعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَغِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيْبًا»^(١)، فَأَرْشَدَهُمْ ﷺ إِلَى أَنْ يَبِيعُوا التَّمْرَ الرَّدِيءَ بِدَرَاهِمٍ، ثُمَّ يَشْتَرُوا بِالدَّرَاهِمِ تَمْرًا جَيِّدًا، وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ اخْتِيَارِ التَّمْرِ الطَّيِّبِ يُقَدِّمُونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا اخْتَارَ الْإِنْسَانُ مِنَ الطَّعَامِ أَطْيَبَ الْأَنْوَاعِ، وَكَانَتْ حَالُهُ تَتَحَمَّلُ هَذَا، وَلَمْ يُعَدِّ ذَلِكَ سَرَفًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يُلَامُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ، بَلْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّمَتُّعِ بِنِعَمِ اللَّهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ مَنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِنِعَمِهِ، وَيَنْهَاهُمْ أَنْ يُحَرِّمُوا شَيْئًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَرِيمٌ، وَالكَرِيمُ يُحِبُّ أَنْ يَتَمَتَّعَ مَنْ يَنَالُهُ كَرَمُهُ بِكَرَمِهِ.

٨- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَا كَانَ مَوْجُودًا مَبْدُورًا لَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى بِحُصُولِهِ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ فِي مِثْلِ هَذَا سَفَهٌ؛ فَإِنَّهُ مَوْجُودٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكِنْ ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى بِبِقَائِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، وَأَلَّا يَرْفَعَهُ عَنْكَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ فِي مَحَلِّهَا، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي كَذَا وَكَذَا! وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَهَذَا لَا وَجْهَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَائِغًا﴾.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ إِذَا أَرَادَ بَيْعَ تَمْرٍ بِتَمْرِ خَيْرٍ مِنْهُ، رَقْمُ (٢٢٠٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ بَيْعِ الطَّعَامِ مِثْلًا بِمِثْلٍ، رَقْمُ (١٥٩٣/٩٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ، فَهُمْ دَائِمًا فِي ذُلٍّ، ودَائِمًا فِي مَسْكَنَةٍ، حَتَّى وَإِنْ اغْتَنَوْا فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ فَقِيرَةٌ؛ ولهذا تَجِدُ الْيَهُودَ أَشَدَّ النَّاسِ طَلَبًا لِلْمَالِ، وفَنَاءً فِي تحصيلِهِ، يَجْرِصُونَ عَلَى تحصيلِ الْمَالِ بِأَيِّ سَبَبٍ وَلَوْ بِالطَّرِيقِ الْمُحَرَّمِ، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿فِيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]، فهم أَخَازِدُونَ لِلرِّبَا، أَكَّالُونَ لِلشُّحِّ، ظَالِمُونَ لِلْعِبَادِ، فهذا دَأْبُ الْيَهُودِ بِالنَّسْبَةِ لِأَخْذِ الْمَالِ، هم فِي مَسْكَنَةٍ دَائِمَةٍ، وَفِي فَقْرٍ دَائِمٍ، لَكِنَّهُ فَقْرٌ قَلْبِيٌّ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ عَدَدٌ كَثِيرٌ.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حُلُولُ الْغَضَبِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، لَكِنِ الَّذِي يَظْلِمُ هُوَ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُمْ بِضَرْبِ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَحُلُولِ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فَكُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ مَعْصِيَةٌ عَظِيمَةٌ أَكْبَرُ الْمُعَاصِي، وَكَانَتْ سَبَبًا لِّضَرْبِ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَيْهِمْ.

١٢- ومن فوائد هذه الآية: إِبْثَاتُ تَعْلِيلِ أَعْمَالِ اللَّهِ، أَي: أَنَّ أَعْمَالَ اللَّهِ مُعَلَّلَةٌ،

أي: مَقْرُونَةٌ بالحكمة، فما من فعلٍ يفعله الله ولا حُكْمٍ يشرعه الله إلا مقرونٌ بحكمته.

ويتفرع على هذه الفائدة: أَنَّهُ كُلَّمَا مَرَّ بنا شيءٌ مَقْرُونٌ بالمشيئة فيجب أن نَعْلَمَ أَنهَا لَيْسَتْ مشيئةً مُجَرَّدَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مشيئةٌ اقْتَضَتْها الحكمة، ويدل على هذا: قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأشار الله تعالى في هذه الآية إلى أَنَّ مشيئته مَقْرُونَةٌ بحكمته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٣- ومن فوائد هذه الآية: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ -مع عُدْوَانِهِمْ في حقِّ الله- مُعْتَدُونَ على عبادِ الله، فهم يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغير الحقِّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ بغير الحقِّ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿بَغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تشنيعٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ قَتْلَهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ في غير محلِّهِ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ بغير حقٍّ، فَالْصِّفَةُ هُنَا لَيْسَتْ صِفَةً مُقَيَّدَةً، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ مُوَضِّحَةٌ أَنَّ قَتَلَ النَّبِيِّينَ بغير حقٍّ، فيكون في هذا فائدة، وهي زيادةُ التَّشْنِيعِ على بني إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِهِمُ النَّبِيِّينَ.

١٤- ومن فوائد هذه الآية: بيانُ عِصْيَانِ بني إِسْرَائِيلَ واعتِدَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ مَعْصِيَةٍ واعتِدَاءٍ على الله، وعلى عبادِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيْعَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢)

في هذه الآية يقول الله عزَّ وجلَّ مُبَيِّنًا كَمَالَ عَدْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلِ عَامِلٍ عَمَلٍ
صَالِحًا وَآمَنَ، يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيْعَ﴾، فالذين هادُوا: هم أَتْبَاعُ مُوسَى ﷺ، وَوُصِفُوا بِهذه الصِّفَةِ؛
لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا هَدَانَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أَي: رَجَعْنَا إِلَيْكَ.

وَالنَّصَارَى: أَتْبَاعُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَسُمُّوا نَصَارَى إِمَّا نِسْبَةً إِلَى بِلَدَةٍ تُسَمَّى:
النَّاصِرَةَ، وَإِمَّا مِنَ النَّصْرَةِ؛ لِأَنَّ عِيسَى لَمَّا قَالَ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَنْصَارِيَّ
إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وَأَمَّا الصَّابِئُونَ فَهُمْ قَوْمٌ لَهُمْ دِينٌ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ الصَّابِيَّ فِي الْأَصْلِ
مَنْ لَا دِينَ لَهُ.

وَلَكِنَّ الَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ قَيَّدَ اسْتِحْقَاقَهُمُ الْأَجْرَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ اسْتَحَقُّوا هَذَا الْوَصْفَ، فَالْقَيْدُ إِنْ
كَانَ وَارِدًا فِي حَقِّهِمْ فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّوَكُّيدِ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ
وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالصَّابِئَةِ بَعْدَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَيْسُوا عَلَى حَقٍّ، وَلَا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ
مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَقًّا لَاتَّبَعُوا مُحَمَّدًا
ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]،

والذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والذي كانوا يستفتحون به على الذين كَفَرُوا، فلَمَّا جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فهم -أعني: اليهود والنصارى والصَّابئين- بعد بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ويعملون صالحًا، إِلَّا إِذَا اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ: الْإِيمَانَ بِوُجُودِهِ، وَالْإِيمَانَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّوْهِيَّةِ، وَالْإِيمَانَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَمَنْ أَنْكَرَ اللَّهَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ لَمْ يُوحِّدْهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ لَمْ يُوحِّدْهُ بِاللَّوْهِيَّةِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ لَمْ يُوحِّدْهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فُتِّبَتْهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ.

إِذَنْ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ: الْإِيمَانَ بِوُجُودِهِ، وَبِتَوْحِيدِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَبِتَوْحِيدِهِ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ، وَبِتَوْحِيدِهِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ شَرْطَانِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، لَا يَشُوبُهُ إِشْرَاكٌ.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مُتَّبَعًا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَا يَشُوبُهُ ابْتِدَاعٌ؛ وَلِهَذَا لَا يَكُونُ الْعَمَلُ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا إِذَا كَانَ لِلَّهِ خَالِصًا، وَلشَّرْعِهِ مُوَافِقًا، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ثَبَتَ الْأَجْرُ.

وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَضَمَّنُ: الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيَشْمَلُ الْإِيمَانَ بِمَا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ مِنْ سُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ الْمَيِّتَ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ،

ومن عذاب القبر ونعيمه، وكذلك ما يكون يوم القيامة من الجزاء ثواباً وعقاباً، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتاب والسنة.

وأما الأجر فهو الثواب على هذا العمل المبني على الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو الحسنه بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

ومن قام بهذين الوصفين -الإيمان، والعمل الصالح- فإنه يأمن من كل خوف من مستقبل، وحزن على ما مضى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عدل الله عز وجل، وأن من قام بالإيمان والعمل الصالح فإن له الأجر عند ربه، سواء أكان من المؤمنين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، أم من اليهود والنصارى والصابئين، فاليهود -مثلاً- حين كانت شريعتهم قائمة إذا اتصفوا بالإيمان والعمل الصالح كان لهم أجرهم كاملاً موقراً، وكذلك النصارى، وكذلك الصابئون. أما إذا كان دينهم منسوخاً فإن الواجب عليهم أن يتحولوا عنه إلى الدين الناسخ، والملة الجديدة؛ ولهذا يُعتبر اليهود كفاراً بالنسبة للنصارى، أي: كافرين بعيسى ابن مريم، ويُعتبر النصارى كفاراً بالنسبة لمحمد ﷺ، أي: كافرين بمحمد ﷺ، والكافر بمحمد ﷺ كافر حتى بنبيه؛ لأن الأنبياء قد بشرُوا به، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنُفِخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لَنُنْزِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿أَوَلَمْ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَلَنُفِخُ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧]، فمن كفر بمحمد ﷺ بعد بعثته فإنه حقيقة لم يؤمن حتى برسوله، وعلى هذا فاليهود والنصارى والصابئون

الْمَوْجُودُونَ الْيَوْمَ لَوْ قَالُوا: إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا صَالِحًا فَإِنَّا نَقُولُ لَهُمْ: هَذَا لَا يَنْفَعُكُمْ؛ لَأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَكُونُ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا بِمُوافَقَةِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ، الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَثْبُتُ فِيهِ الْأَجْرُ إِلَّا إِذَا كَانَ عَمَلًا صَالِحًا، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ - كما أسلفنا - ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا يَتَضَمَّنُ شَيْئًا مِنَ الشُّرْكِ فَإِنَّ عَمَلَهُ لَيْسَ بِصَالِحٍ، وَلَيْسَ بِمَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١)، فَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ عِبَادَةً يُرَائِي فِيهَا النَّاسَ فَإِنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ عَمَلًا صَالِحًا.

ولكن هنا مسألة يشكو منها كثير من الناس، يقول: إِنِّي إِذَا هَمَمْتُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ أَتَانِي الشَّيْطَانُ، وَقَالَ: إِنَّكَ مُرَاءٍ! فَيُقْعِدُنِي عَنِ الْعَمَلِ، فَمَا الْحُلُّ لِهَذِهِ الْمَشْكَلَةِ؟
جوابنا عن هذا أن نقول: الْحُلُّ لِهَذِهِ الْمَشْكَلَةِ: أَنْ تَتَعَوَّدَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَنْ تَنْتَهِيَ عَنِ ذَلِكَ، وَأَنْ تَسْتَمِرَّ فِي عَمَلِكَ الصَّالِحِ مُعْرِضًا عَمَّا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِكَ مِنْ أَنَّكَ مُرِيدٌ لِلرِّيَاءِ، وَفَكَرَّ: لَوْ أَنَّكَ سُئِلْتَ: هَلْ أَنْتَ مُرَاءٍ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ؟ لَقُلْتَ: لَا، إِذَنْ: لَا يَصُدَّنَّكَ الشَّيْطَانُ عَنْهَا بِهَذِهِ الْوَسْوَسَةِ، فَاسْتَمِرَّ فِي الْعَمَلِ،

وَلَا يَهْمَنَّكَ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ وَسَاوِسَ.

وَيَشْكُو بَعْضُ النَّاسِ أَيْضًا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْعِبَادَةِ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رِيَاءٌ، ثُمَّ يَحْدُثُ لَهُ الرِّيَاءُ فِي أَثْنَاءِ الْعِبَادَةِ، فَمَا الْحَلُّ؟

جوابنا عن هذا: أَنْ يَسْعَى فِي طَرْدِهِ، وَالتَّخْلُصِ مِنْهُ، وَأَنْ يُقْبَلَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيُعْرِضَ عَمَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الرِّيَاءِ، وَهُوَ إِذَا دَافَعَ هَذَا الرِّيَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ، وَلَا يُؤَثِّرُ عَلَى عِبَادَتِهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي لَا يَكُونُ مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَا يُقْبَلُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ بَنِيَّةً خَالِصَةً لَيْسَ فِيهَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ: فَإِنَّ جَمِيعَ الْعِبَادَاتِ الْبَدْعِيَّةِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا أَهْلُهَا مَهْمَا كَثُرَتْ، وَمَهْمَا أَثَرَتْ مِنْ لَيْنِ الْقَلْبِ، وَدَمْعِ الْعَيْنِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهَا عَلَى غَيْرِ صِرَاطِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فَأَيُّ إِنْسَانٍ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ عِبَادَةً قَوْلِيَّةً كَانَتْ أَمْ فَعَلِيَّةً فَعَلِيَّةً فَالْدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ ثَابِتَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَّا فَإِنَّ عَمَلَهُ سَيَكُونُ هَبَاءً، وَيَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم،

والبدع -مَهْمَا حَسُنَتْ فِي قُلُوبِ مُبْتَدِعِيهَا- فَإِنَّهَا سَيِّئَةٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ كَلِمَةً عَامَّةً شَامِلَةً: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وَلَمْ يَسْتَنْ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، وَالْبَدْعُ -وإن حَسُنَتْ فِي قُلُوبِ مُبْتَدِعِيهَا- فَإِنَّهَا شَرٌّ، تُفَرِّقُ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَتَجْعَلُ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ تُضَلِّلُ الْأُخْرَى، وَيَكُونُ كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ الْآنَ، لَمَّا انْتَشَرَتِ الْبِدْعُ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ -وَمِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ- صَارَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مُتَفَرِّقَةً، يُضَلِّلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرُبَّمَا يَصِلُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يُكْفَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وإِنِّي -بهذه المناسبة- أَوْجِّهُ النَّصِيحَةَ إِلَى إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْرِصُوا عَلَى أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مَبْنِيَّةً عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَعَلَى مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ هَدْيَهُ خَيْرُ الْهَدْيِ، وَمَا خَرَجَ عَنْ هَدْيِهِ فَهُوَ ضَلَالٌ وَفِتْنَةٌ وَبِدْعَةٌ، وَأَنْ يَحْرِصُوا أَيْضًا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يَفْعَلُوا الْعِبَادَةَ مِنْ أَجْلِ مُرَآةِ الْخَلْقِ أَوْ سَمَاعِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَا يَنْفَعُونَهُمْ، فَلَا يَنْفَعُهُمْ إِلَّا الْخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: الدَّلِيلُ عَلَى عِظَمِ الْأَجْرِ عَلَى الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ، وَعَطَاءُ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ يَكُونُ عَطَاءً عَظِيمًا.

= باب ما جاء في الأخذ بالسنة، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب في اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم (٤٢)، وأحمد (١٢٦/٤) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله عزَّجَلَّ على عباده بهذا الثواب؛ حيث جعله بمنزلة الأجر اللازم الذي لا بُدَّ من إيفائه، وهذا من نعمة الله، وهو الذي تكفلَ بذلك، وكتبَ على نفسه أن مَنْ عَمَلَ صالحًا فجزاؤه عند الله تعالى الأجر الذي يستحقُّه.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّه بالإيمان والعمل الصالح يُطْرَدُ الخوفُ، ويُطْرَدُ الحزنُ في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا كان أشرح الناسِ صدرًا، وأنعمهم بالآل، وأشدَّهم طمأنينةً في القلب هم المؤمنون العَامِلُونَ عملاً صالحًا؛ ولهذا قال بعضُ السلف: لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدونا عليه بالسُّيُوفِ. نَسألُ الله تعالى أن يشرح صدورنا لذكره، وأن يُطمئن قلوبنا بذكره، وأن يجعلنا هداةً مهتدين، وصالحين مُصلحين، إِنَّه جَوَادٌ كريمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

الخطابُ هنا لبني إِسْرَائِيلَ، يُذَكِّرُهُم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بما أَخَذَ عَلَيْهِم من الميثاقِ، حين رَفَعَ فَوْقَهُم الطُّورَ، وهو الجبلُ المعروفُ، وذلك بعد فُسُوقِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ، وَأَمَرَهُم الله أن يَأْخُذُوا ما آتَاهُمْ من الشَّرْعِ بِقُوَّةٍ لا ضَعْفَ فيها ولا هَوَادَةً، وأن يَذْكُرُوا ما في هذا الذي آتَاهُمْ من المَوَاعِظِ والأَحْكَامِ؛ لِيَصِلُوا بذلك إلى تقوى الله

عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ تَوَلَّوْا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَدَارَكَهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لَكَانُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ أَبَدَ الْآبِدِينَ.

فَوَائِدُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

١ - تذكيرُ الإنسانِ بما أنعمَ اللهُ به عليه من النعم؛ لِيَذْكُرَ هذه النعمة، فيشكرَ اللهَ عليها، ولا سِيَّما مع طُولِ العهدِ، وتَنَاسِي هذه النعم.

٢ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى بَنِي آدَمَ أَنْ يُوحِّدُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَذَلِكَ بِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾.

٣ - بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَعَظَمَتِهِ، حَيْثُ رَفَعَ هَذَا الْجَبَلَ الْعَظِيمَ فَوْقَهُمْ؛ تَخْوِيفًا وَإِنْدَارًا، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ - أَعْنِي: الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ - لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِثْلُ هَذَا الْإِنْدَارِ، وَلَكِنْ كَانَ فِيهَا إِنْذَارٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، مِثْلُ: كُسُوفِ الشَّمْسِ، وَخُسُوفِ الْقَمَرِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِهِ بَيَّنَّ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَأَنْتَهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لَمُوتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ يُخَوِّفُ بِهِمَا الْعِبَادَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ^(١)، وَلِهَذَا شَرَعَ لِلنَّاسِ حِينَ يَرَوْنَ الْكُسُوفَ أَوْ الْخُسُوفَ أَنْ يَفْزِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَتَقِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب

الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، رقم (٩١٢) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «يُخَوِّفُ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالْكُسُوفِ»، رقم

(١٠٤٨) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٦/٩٠١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٤- ومن فوائد هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: وَجُوبُ أَخْذِ الْإِنْسَانِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْقُوَّةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا ضَعْفٌ وَلَا تَوَانٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَابَلَ أَوْامِرَ اللَّهِ بِالضَّعْفِ وَالتَّوَانِ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى تَرْكِهَا، وَالتَّوَانِ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: التَّوَانِ فِي فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ، بَأَن يَتَكَاسَلَ فِي فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَيَتَرَخَى فِي فِعْلِ الْمَنْدُوبَاتِ، فَيَضَعُفُ إِيْمَانُهُ بِذَلِكَ وَيَنْقُصُ.

وَالثَّانِي: الضَّعْفُ فِي تَرْكِ النَّوَاهِي، بَحَيْثُ يَضَعُفُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ الشَّهْوَةِ الدَّافِعَةِ إِلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَعْنِي بِالشَّهْوَةِ: شَهْوَةُ الْإِرَادَةِ، لَا شَهْوَةَ الْجِنْسِ، وَشَهْوَةُ الْجِنْسِ تَكُونُ -بِلا شَكٍّ- أحيانًا مِنَ الشَّيْءِ الْمُحَرَّمَ إِذَا كَانَتْ عَلَى غَيْرِ الْأَزْوَاجِ وَمَا مَلَكَتِ الْيَمِينُ.

المهمُّ: أَنَّ الضَّعْفَ كَمَا يَكُونُ فِي فِعْلِ الْأَوْامِرِ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي تَرْكِ النَّوَاهِي، بَحَيْثُ يَضَعُفُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ، فَيَعْجَزُ عَنْ كَبْحِهَا عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

٥- ومن فوائدِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: وَجُوبُ ذِكْرِ مَا فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ الْوَحْيِ، وَذِكْرُهُ عَلَى نَوْعَيْنِ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُذَكَّرَ بِاللِّسَانِ، وَهَذَا يَكُونُ بِتِلَاوَةِ مَا يُتْلَى، وَتَعْلِيمِ مَا يُعَلِّمُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يُذَكَّرَ بِالْعَمَلِ، وَذَلِكَ بِالتَّطَبُّقِ؛ فَإِنَّ تَطَبُّقَ أَوْامِرِ اللَّهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ ذِكْرٌ لَهَا.

٦- ومن فوائدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنْ أَخْذَ الشَّرَائِعِ بِالْقُوَّةِ وَذِكْرُ مَا فِيهَا عَلَى حَسَبِ

النَّوعَيْنِ السَّابِقَيْنِ يَكُونُ سَبَبًا لِلتَّقْوَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والتَّقْوَى: مأخوذةٌ من الوَقَايَةِ، وهي أن يَتَّقِيَ الإنسانُ عَذَابَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بفعلٍ أو أمرٍه، واجتنابِ نواهيهِ، وقد فُسِّرَتِ التَّقْوَى بتفاسيرٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لكنَّها لا تخرجُ عَمَّا ذكرنا، وهي فعلٌ أو أمرٌ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى واجتنابُ نواهيهِ؛ لأنَّ الوقايةَ من عذابِ الله لا تكونُ إِلَّا بذلك.

٧- ومن فوائدِ الآيتينِ الكريمَتينِ: إثباتُ الأسبابِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فَإِنَّ (لعلَّ) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، والعِلَّةُ السَّبَبُ، والنَّاسُ فِي الأسبابِ انقسمُوا إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قسمٌ أَفْرَطُوا فِيهَا، وقسمٌ فَرَّطُوا فِيهَا، وقسمٌ وَسط.

فأَمَّا الَّذِينَ أَفْرَطُوا فِيهَا -أي: بِالْعُورَةِ وَغَلَوُا- فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا الأسبابَ، وجعلوها هيَ الفاعلةَ المؤثرةَ التي لا يُمكنُ أن يتخلَّفَ المسبَّبُ فيها عن السَّبَبِ.

وأَمَّا الَّذِينَ فَرَّطُوا فِي الأسبابِ فهم الذين قالوا: إِنَّ الأسبابَ ليس لها تأثيرٌ في مُسبِّباتها، وإنَّ الذي يَحْصُلُ بهذه الأسبابِ لم يَكُنْ بها، ولكنَّهُ عندها.

مثالُ ذلك: لو انكسرت زُجاجةٌ بِحَجَرٍ رُمِيََتْ بِهِ، فعندَ القسمِ الأوَّلِ الذين أَفْرَطُوا فِي إثباتِ الأسبابِ يَكُونُ انكسارُ الزُّجاجةِ بها أَمْرًا طَبَعِيًّا لا بُدَّ مِنْهُ، وعندَ الآخرينَ لم يَكُنْ الانكسارُ بسببِ اصطدامِ الحجرِ بِالزُّجاجةِ، وإنَّما كانَ عندَ اصطدامِ الحجرِ بِالزُّجاجةِ لا به.

ولا شَكَّ أَنَّ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ بَعِيدَانِ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَنَّ الصَّوَابَ هُوَ الْقَوْلُ الثَّالِثُ الْوَسْطُ: الَّذِينَ أَثْبَتُوا الأسبابَ، وتأثيرَها في مُسبِّباتها، ولكنَّهُم جَعَلُوا ذَلِكَ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِيهَا مِنَ الْقُوَى، فهي لم تَنفَرِدْ بِالتَّأثيرِ، ولكن خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا هَذَا التَّأثيرَ، ويدلُّ لذلك: السَّمْعُ، والعَقْلُ.

فَأَمَّا السَّمْعُ فَإِنَّ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ فِي إِثْبَاتِ الْأَسْبَابِ وَتَأْثِيرِهَا لَا تَكَادُ تُحْصَى كَثْرَةً.

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّ الْحَسَّ شَاهِدٌ بِذَلِكَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ أَنَّ انْكَسَارَ الزُّجَاجَةِ - بِرَمِيهَا بِالْحَجَرِ - إِنَّمَا كَانَ بِالْحَجَرِ، لَا عِنْدَ اضْطِدَامِهِ بِهَا، وَلِهَذَا لَوْ وَضَعْتَ الْحَجَرَ عَلَيْهَا وَضَعًا لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ فِيهَا.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَفْعَلُ بِنَفْسِهَا، وَلَكِنَّهَا تُؤَثِّرُ بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْقُوَى: أَنَّ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ الْحَارَّةَ حِينَ أَمَرَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ تَكُونَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُضْهِمَتْ لَهُ نَارٌ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأُلْقِيَ فِيهَا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: إِنَّ قَوْمَهُ لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يُلْقَوْهُ فِي النَّارِ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنَ الْقُرْبِ مِنْهَا، فَوَضَعُوهُ فِي مَنْجَنِيْقٍ، وَرَمَوْهُ بِوَاسِطَتِهِ إِلَى النَّارِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ شَيْئًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَأْثِيرَ الْأَسْبَابِ لَيْسَ تَأْثِيرًا ذَاتِيًّا حَتْمِيًّا لَا بُدَّ مِنْهُ، بَلْ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْقُوَى الْمُؤَثِّرَةِ، لَا الْفَاعِلَةِ.

٨- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَيْضًا: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ الشَّدِيدِ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ، بَلْ تَوَلَّوْا مِنْ بَعْدِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ طُغْيَانًا وَضَلَالًا.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: إِثْبَاتُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا أَكْثَرَ نِعَمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ! وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَشْكُرُونَ، بَلْ كَانُوا يَصِفُونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ بِمَا يُنْزِعُهُ عَنْهُمْ؛ كَقَوْلِهِمْ: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ

مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٦٤﴾ [المائدة: ٦٤].

ووصفوا الله سبحانه وتعالى بالفقر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأُنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٢].

١٠- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى يتدارك عبده بالفضل حتى لا يصل إلى نهاية الخسران، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١١- ومن فوائد هاتين الآيتين: تذكير آخر الأمة بما صنع أولها؛ لأنه إن كان خيراً كان من الفضل أن يتبعوا من سبقهم فيه، وإن كان شراً كان من الحكمة والعقل أن يتبعوا عنه.

واستنبط بعض العلماء من هذا: أن صنع أول الأمة يصح أن ينسب إلى آخرها؛ لأن الله خاطب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما صنعه آبائهم وأجدادهم، وهذه الفائدة محل نقاش ومحل تأمل.

١٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف ما من الله به عليه من فضل إلى مجرد فعله هو، فينسى بذلك نعمة الله عز وجل وفضله، ويقع في الإعجاب بالنفس الذي هو محط كل شر.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يُؤَكِّدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي خُطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا حَالَ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ، وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الصَّيْدَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَابْتِلَاهُمْ حَيْثُ كَانَتْ تَأْتِيهِمُ الْحِيتَانُ فِي هَذَا الْيَوْمِ شُرْعًا، طَافِيَةً عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ، كَثِيرَةً يَسْهُلُ اخْذُهَا، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ لَا تَأْتِيهِمُ الْحِيتَانُ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، وَقَالُوا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَدْعَ هَذِهِ الْحِيتَانَ تَأْتِي وَتَرْجِعُ دُونَ أَنْ نَصِيدَهَا، فَعَمِلُوا لِذَلِكَ حِيلَةً، فَوَضَعُوا شَبَاكًا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْحِيتَانُ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَعَتْ فِي هَذِهِ الشَّبَاكِ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْأَحَدِ أَتَوْا إِلَى الشَّبَاكِ، فَأَخَذُوا مَا فِيهَا مِنَ الْحِيتَانِ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ جَعَلَهُمْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ - وَالْقِرَدَةُ: جَمْعُ قِرْدٍ، وَالْخَاسِئُ: هُوَ الذَّلِيلُ - بَعْدَ أَنْ كَانُوا بَشَرًا سَوِيًّا ذَا عِزٍّ وَرِفْعَةٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا - أَيِ: لِلْأُمَّةِ الْمُعَاصِرَةِ لَهُمْ -، وَلِمَا خَلْفَهَا - أَيِ: الْآيَةِ بَعْدَهُمْ -، وَجَعَلَهَا كَذَلِكَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، أَيِ: سَبَبًا لَاتِّعَازِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَنِ التَّقْوَى.

فَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُذَكِّرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا حَدَّثَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا ذُكِرَ عَنِ السَّبْتِ.

فَوَائِدُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

١ - تَذَكِيرُ الْأُمَّةِ بِمَا فَعَلَ سَلَفُهَا؛ لِيَتَّخِذُوا مِنْهُ عِبْرَةً.

٢- ومن فوائدهما: أَنَّ التَّحِيلَ على مَحَارِمِ الله لَا يَقْلِبُهَا إِلَى حَلَالٍ، بَلْ إِنَّ التَّحِيلَ على المَحَارِمِ لَا يَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحًا؛ لِأَنَّ التَّحِيلَ على المحارم فيه مَحْذُورٌ فِعْلُ المَحَرَّمِ، وَمَحْذُورُ الخِدَاعِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيَكُونُ التَّحِيلُ جَامِعًا بَيْنَ فِعْلِ المَعْصِيَةِ الَّتِي تُهْمِي عَنْهَا، وَخِيَانَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَخِدَاعِهِ، ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فأعظمُ فائدة تُسْتَنْبَطُ من هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: هِيَ أَنَّ التَّحِيلَ على مَحَارِمِ الله عَزَّوَجَلَّ لَا يَقْلِبُهَا حَلَالًا، بَلْ إِنَّ التَّحِيلَ على المحارم لَا يَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحًا؛ لِأَنَّ التَّحِيلَ يَقَعُ فِي مَحْذُورَيْنِ:

المحذور الأول: أَنْ يَقَعَ بفعل هذا المَحَرَّمِ فِي المَحْظُورِ.

الثاني: المَخَادَعَةُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا نجد أَنَّ المُنَافِقِينَ أعظمُ ذُنُوبًا وَأَكْبَرُ جُرْمًا من الكافرين الصُّرَحَاءِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وَيَبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ المُنَافِقِينَ هم العُدُوُّ الحَقِيقِيُّ الْأَكْبَرُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (الْمُنَافِقُونَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ومن هنا نَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَحِيلُونَ عَلَى الرَّبِّ بِالطَّرِيقِ الْمُتَلَوِّتَةِ أَشَدُّ إِثْمًا مِنَ الَّذِينَ يَأْتُونَ الرَّبَّ عَلَى وَجْهِ صَرِيحٍ؛ لِمَا فِي فِعْلِهِمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مَحْذُورِ الرَّبِّ مِنْ وَجْهِ، وَمِنْ مَخَادَعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ وَجْهِ آخَرٍ.

وهناك معنى ثالث في المخادعة، وهو أن المخادع يظن أنه على صواب، وأنه لم يتهك المحرم، فلا يزال مستمرًا عليه، ولا يحدث نفسه بالتوبة منه، بخلاف الذي يأتي المحرم على وجه صريح؛ فإنه يرى نفسه مذنبًا مقصرًا في حق الله، فيخجل من ربه عز وجل، وربما يأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله سبحانه وتعالى، فيكون الآتي للمحرّم صريحًا أقرب إلى التوبة من المخادع الماكر، ولهذا لعن الرجل الذي يتزوج امرأة؛ لتخليها لزوجها الأول؛ كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ لعن المحلل والمحلل له^(١).

والتحليل: هو أن الرجل يتزوج امرأة طلقها زوجها ثلاثًا؛ من أجل أن يجامعها، فيحلها لزوجها الأول، وهذا لا شك أنه محرم، وأنه لا ينفع، ولهذا قال أهل العلم: إن الرجل إذا تزوج امرأة على سبيل التحليل فإنها لا تحل للزوج الأول ولو أن الثاني جامعها، وذلك لأن نكاح التحليل نكاح لا يراد به حقيقته، فإنه إنما يريد أن يتزوج هذه المرأة من أجل أن يجامعها، ثم تعود إلى زوجها الأول، قال أهل العلم: ومع ذلك فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ونكاح التحليل ليس بنكاح شرعي؛ لأنه نكاح غير مقصود؛ فإن من المعلوم أن المقصود بالنكاح هو بقاء المرأة عند زوجها؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل من فوائد النكاح أن يسكن الرجل إلى زوجته، وتسكن إليه، فإذا كان النكاح ليس

(١) أخرجه الترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في المحل والمحلل له، رقم (١١٢٠)، والنسائي:

كتاب الطلاق، باب إحلال المطلقة ثلاثًا، رقم (٣٤٤٥)، وأحمد (٤٤٨/١) من حديث ابن

مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نِكَاحٍ رَغْبَةٍ، بَلْ إِنَّمَا تَزَوَّجَهَا لِيُطَلِّقَهَا إِذَا أَحَلَّهَا لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِنِكَاحٍ شَرْعِيٍّ، وَحِينَئِذٍ لَا تَحِلُّ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ.

وإِنَّمَا نَبَّهْتُ عَلَى ذَلِكَ -وإن كان والله الحمد قليلاً عندنا- لَأَنَّهُ قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ الْجُهَّالِ، فَيُرِيدُونَ فِعْلَ الْمَعْرُوفِ بِالزَّوْجِ الْأَوَّلِ، وَلَكِنَّهُمْ يُسَيِّئُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يُفِيدُونَ الزَّوْجَ الْأَوَّلَ شَيْئاً؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ لَا تَحِلُّ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ إِذَا كَانَ نِكَاحُ الثَّانِي نِكَاحَ تَحْلِيلٍ، لَا رَغْبَةٍ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: أَنَّ الْعُقُوبَةَ تَكُونُ مُجَانِسَةً لِلْعَمَلِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَمَّا تَحَيَّلُوا عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ بِمَا ظَاهَرَهُ الْإِبَاحَةُ؛ حَيْثُ نَصَبُوا الشِّبَاكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَأَخَذُوا الْحِيتَانَ الْوَاقِعَةَ فِيهِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ، وَظَاهَرُ هَذَا الْفِعْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَصْطَادُوا فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَأَنَّهُمْ فَعَلُوا فِعْلاً حَلَالاً، قَلَبَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى أَقْرَبِ الْحَيَوَانَاتِ شَبَهَاً بِالْإِنْسَانِ، وَهِيَ الْقِرْدَةُ.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قَوْلُ كَوْنِيٍّ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَوْنِيٌّ، وَلَيْسَ بِشَرْعِيٍّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَقْبِلُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَى قِرْدَةٍ، وَلَكِنَّهُ الْقَوْلُ الْكَوْنِيُّ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وَأَمَّا الْقَوْلُ الشَّرْعِيُّ فَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قَوْلٌ شَرْعِيٌّ يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ، وَيُمْكِنُهُ امْتِثَالُهُ.

والفرق بين القولين الكوني والشرعي: أن القول الكوني لا بد من نفوذه ووقوع مقوله بكل حال، أما القول الشرعي فإنه قد يمتثل المقول له، وقد لا يمتثل.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات القول لله؛ فإن الله سبحانه وتعالى قائل ويقول، كما أنه متكلم ويتكلم، والكلام وصفه سبحانه وتعالى القائم به، وهو وصف ذاتي فعلي، فالكلام باعتبار أصله وصف ذاتي، لم يزل الله ولا يزال متصفاً به، وباعتبار آحاده وصف فعلي، يتكلم بما شاء متى شاء، وهذا هو ما ذهب إليه السلف وأهل السنة والجماعة من أن الكلام وصف لله تعالى قائم بذاته، متعلق بمشيئته.

٦- ومن فوائدهما: بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث انقلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمة؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فكانوا قردة.

ويبقى سؤال يطرح نفسه، وهو: هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل، أو هي جنس من المخلوقات منفردة؟

وجوابنا عن هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة الآن جنس منفرد من مخلوقات الله عز وجل، مستقل بنفسه، أما الذين قُلبوا قردة من بني إسرائيل فإنه ليس لهم نسل، بل ماتوا وهلكوا وبادوا، كما قرّر ذلك أهل العلم، وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله تعالى من تراب، ثم قال له: «كُنْ» فيكون، قال الله تعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: تكذيب من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطوّروا حتى صاروا بشراً؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان قرداً حينما أراد أن يعاقبه؛ لمخالفته أمره، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن

آدَمَ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ، وَأَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِ اثْنَانِ مِنْهُمْ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَصْلَ بَنِي آدَمَ قِرْدَةٌ فَإِنَّهُ مُكَذِّبٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ قَالَهَا عَنْ جَهْلٍ؛ لَكُمْ عَاشٍ فِي بَيْتِهِ لَا تَعْلَمُ سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُعَلِّمُ، فَإِنْ أَصَرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَارَ كَافِرًا، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهَا عَنْ جَهْلٍ، بَأَنَّ كَانَ مُقِيمًا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ: إِنَّ بَنِي آدَمَ أَصْلُهُمْ قِرْدَةٌ؛ لِأَنَّ هَذَا تَكْذِيبٌ صَرِيحٌ لِمَا عَلِمَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

٨- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: أَنَّ مَنْ رَامَ الْمُرْتَبَةَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهَا فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَدَوْا وَاسْتَكْبَرُوا وَتَعَالَوْا عُوقِبُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، عُوقِبُوا بِأَنَّهُمْ حُوِّلُوا إِلَى قِرْدَةٍ خَاسِئَةٍ ذَلِيلَةٍ، وَهَكَذَا كَانَ مَنْ أَرَادَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ أَوْ فَسَادًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُصْلِحُ عَمَلَهُ، بَلْ يَحْطُطُهُ وَيُنْزِلُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَمَنْ تَعَالَى عَلَى اللَّهِ وَضَعَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ تَوَاضَعَ لِلْحَقِّ وَلِلخَلْقِ أَزْدَادَ رِفْعَةً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الْخَلْقِ أَيْضًا.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: إِثْبَاتُ الْعُقُوبَةِ، وَأَنَّ الْعُقُوبَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا تَأْثِيرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ مَنْ أَطْلَعَ عَلَى حَالِ هَؤُلَاءِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْكُلَ -أَي: يَمْتَنِعَ- عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، سِوَاكَ كَانَ ذَلِكَ بَتَرَكِ الْوَاجِبِ، أَوْ انْتِهَاكَ الْمَحْرَمِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَعَلَ الَّذِي أَضَافَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ كَوْنِيٍّ، وَقِسْمٍ شَرْعِيٍّ، فَمِنْ الْكَوْنِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾

[النبا: ١٠-١١]، ومن الشرعي: قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، أي: ما شرع هذه الأشياء.

١٠ - ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن الموعدة إنما ينتفع بها المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فمن ليس بمُتَّقٍ فإنه لا ينتفع بالموعدة، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعدة، وأكثر انتفاعاً بها، وشاهد هذا ظاهر في المحسوس، فإنك تجد الرجل المتماذي في المعاصي النُهْمَك فيها لا ينتفع بالموعدة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقي إذا وُعِظَ انتفع، فإن كان في اتجاه إلى محرم عدل عنه، وإن كان مُتَهَاوِنًا في مأمور اتجه إلى فعله، واستبق إليه.

١١ - ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن للتعقوى فوائد، منها: الموعدة، أي: الاتعاظ بما يحصل من آيات الله الكونية أو آيات الله الشرعية. وللتعقوى فوائد كثيرة، ذكرها الله تعالى في كتابه العظيم، منها:

■ أنها سبب لتيسير الأمور؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

■ ومنها: أنها سبب لتفريج الكربات؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿٢﴾ وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

■ ومنها: أنها سبب للهداية والنور؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْذِّكْرُ ءَامِنُونَ﴾ إن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فإذا كانت التَّقْوَى بهذه المثابة كان لِرَإْمًا على العاقل أن يلتزم التَّقْوَى؛ حتى تحصل له هذه الفَوَائِدُ العظيمة التي رُتِّبَت عليها^(١).



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

في هذه الآياتِ الكريمةِ يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بهذه القِصَّةِ الغريبةِ العَجيبَةِ التي وقعت من أسلافهم من بني إِسْرَائِيلَ، وذلك أَنَّهُمْ قَتَلُوا نَفْسًا،

(١) لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ رسالة صغيرة في فوائد التقوى، وهي من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين الخيرية، برقم (٨٧).

فَاخْتَصَمُوا فِيهَا، وَتَدَارَوْا فِيهَا، وَكُلُّ قَبِيلَةٍ تَدْعِي أَنَّ الْقَبِيلَةَ الْأُخْرَى هِيَ الَّتِي قَتَلَتْ هَذِهِ النَّفْسَ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، فَارْتَفَعُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، وَلَكِنْ لَطُغِيَانِهِمْ، وَعُتُوهُمْ، وَاسْتِبْعَادِهِمْ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، سَخِرُوا بِمُوسَى، وَقَالُوا: ﴿أَتَنَخِذُنا هُزُوءًا﴾ أَي: أَتَسْتَهْزِئُ بِنَا؟! فَمَا شَأْنُ ذَبْحِ الْبَقْرَةِ بِهَذِهِ الْمُسْكِلةِ؟! فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ حَقَّ الْبَشَرِ، أَوِ الَّذِينَ يَعْتُدُّونَ عَلَى الْبَشَرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَهْلَ قَدْ يُرَادُّ بِهِ عَدَمُ الْعِلْمِ، وَقَدْ يُرَادُّ بِهِ الْعُدْوَانُ، وَهُوَ الْجَهَالَةُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْجَهْلَ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١) يَعْنِي: فِي الصَّوْمِ، فَالْجَهَالَةُ قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى: السَّفَاهَةِ، وَسُوءِ التَّصَرُّفِ، وَالْعُدْوَانِ عَلَى الْغَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى: عَدَمِ الْعِلْمِ، فَقَوْلُ مُوسَى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا.

فَلَمَّا رَأَوْا مُوسَى جَادًّا فِيمَا قَالَ لَمْ يَمْتَثِلُوا أَيْضًا امْتِثَالًا فَوْرِيًّا يَدُلُّ عَلَى الْإِنْقِيَادِ التَّامِّ، وَلَكِنَّهُمْ عَانَدُوا بِالْإِسْتِفْصَالِ، فَقَالُوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أَي: مَا سِنَّهَا؟ وَمَا عُمْرُهَا؟ وَهَلْ هِيَ كَبِيرَةٌ، أَوْ صَغِيرَةٌ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أَي: الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ يَعْنِي:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، رَقْمُ (٦٠٥٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا الْفَرْقُ لَابْنِ مَاجَهَ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْغَيْبَةِ وَالرَّفْتِ لِلصَّائِمِ، رَقْمُ (١٦٨٩).

أَنَّهَا لَا كَبِيرَةً، وَلَا صَغِيرَةً، وَلَكِنَّهَا عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ، بَلْ إِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ صَادِرٌ مِنَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

قالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾ أي: أَنَّهُمْ لَمْ يَمْتَثِلُوا، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، بَلْ ذَهَبُوا يَسْتَفْصِلُونَ اسْتِفْصَالًا آخَرَ عَنِ اللَّوْنِ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الرَّبَّ عَزَّجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾، فَيَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ لَوْنُهَا فَاقِعٌ، أي: وَاضِحُ الصَّفَرِ، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ بِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا.

وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى ذَلِكَ، بَلْ طَلَبُوا تَفْصِيلًا آخَرَ، فَقَالُوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ تَشَابَهَ عَلَيْهِمُ الْبَقَرُ الصَّفَرُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُشَاهِدُونَ بَقَرَاتٍ صَفْرَاءَ، فَقَالُوا: فَمَاذَا يُرَادُ مِنَّا أَنْ نَذْبَحَ مِنْ هَذِهِ الْبَقَرَاتِ؟ قَالَ مُوسَى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الرَّبَّ عَزَّجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُّ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: أَنَّهَا بَقَرَةٌ لَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْثِ لَا سُقْيَا، وَلَا إِثَارَةً، فَلَا تُثِيرُ الْأَرْضَ لِحَرْثِهَا، وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ -أي: الزَّرْعَ الْقَائِمَ- ﴿مُسْلَمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لَا عَيْبَ.

وإِنَّمَا قَالَ: ﴿مُسْلَمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَا ذُلُّ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾؛ لِثَلَا يَظُنُّوا أَنَّهَا بَقَرَةٌ هَزِيلَةٌ عَجَفَاءُ لَيْسَ بِهَا حِرَاكٌ، فَقَالَ: إِنَّهَا ﴿مُسْلَمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لَيْسَ فِيهَا عَيْبٌ، وَحِينَئِذٍ قَالُوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي: فِي هَذِهِ الْحَالِ جِئْتَ بِالْحَقِّ.

وتأمل ماذا تدلُّ عليه هذه الكلمة من الاستخفاف بموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبيان أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا مَا ظَنُّوا أَنَّهُ الْحَقُّ؛ حيث قالوا: ﴿الَّذِينَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ على الوصف الذي بَيَّنَّهُ اللهُ عَزَّجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك ذَبَّحُوهَا وهم لم يُقَارِبُوا فِعْلَ الذَّنْبِ؛ أي: من أجل تأخيرهم وتَوَانِيهِمْ وَتَكَاسُلِهِمْ عَنْ تَنْفِيزِ مَا أَمَرَ اللهُ عَزَّجَلَّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ذَبَّحُوهَا بعد أن كَادُوا- أي: قَارَبُوا- أَلَّا يَفْعَلُوا؛ لَأَنَّهُمْ قَوْمٌ عِنْدَهُمْ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْعُتُوِّ عَلَى شَرِّعِ اللهِ مَا لَا نَعْلَمُهُ صَدَرَ عَنْ أُمَّةٍ سِوَاهُمْ، اللهم إِلَّا مَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّجَلَّ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ، حين قال نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى بعد ذِكْرِ أوصاف هذه البقرة ونهايتها وغايتها ذَكَرَ اللهُ سبب هذه القصة، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: قَتَلْتُمْ نَفْسًا مُحَرَّمَةً مُحَرَّمَةً، فَاخْتَلَفْتُمْ فِيهَا، فَبَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا حَصَلَ بِوَاسِطَةِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ الَّتِي ذُبِحَتْ، وَذَلِكَ بِأَن يَضْرِبُوا هَذَا الْقَتِيلَ بِبَعْضِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فَضَرَبُوهُ بِبَعْضٍ مِنْهَا -وَلَا ضَرُورَةَ لِتَعْيِينِهِ- ثُمَّ نَطَقَ الْقَتِيلُ، وَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَنِي فَلَانٌ، فَبَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ.

قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ بعد أن أَنْعَمَ اللهُ عليهم ببيان قَاتِلِ القَتِيلِ الذي اذَّارُوا فيه، وكادت تَحْصُلُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ لولا أَنَّ اللهُ مَنْ عَلَيْهِمَ بما ذَكَرَ، أَنَّهُمَ بعد هذا -أي: بعد ما حَصَلَ من هذه النِّعْمَةِ الكَبِيرَةِ- قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، أي: صَلَبَتْ، وَعَظُمَ استِكْبَارُهُمْ، فَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، وَإِنَّمَا ضَرَبَ اللهُ الْمَثَلَ بِالْحِجَارَةِ دُونَ الْحَدِيدِ؛ لِأَنَّ الْحَدِيدَ قَدْ يَلِينُ مَعَ النَّارِ، لَكِنِ الْحِجَارَةُ لَا تَلِينُ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، بَلْ إِنَّ الْحِجَارَةَ خَيْرٌ مِنْ قُلُوبِهِمْ؛ لِأَنَّ الْحِجَارَةَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَا فِيهِ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ، وَيَهْبِطُ مِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، فَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا تَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَشَقُّقُ -أي: يَتَشَقَّقُ- فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ، وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، ثُمَّ خَتَمَ اللهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ ببيان كَمَالِ مُرَاقِبَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فَوَائِدُ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ:

١- من فَوَائِدِهَا: أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْأُمُورِ الْمُهِّمَةِ الَّتِي طَرِيقُهَا الشَّرْعُ كَانَ أَمْرًا فِطْرِيًّا، سَارَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ. وَيَتَفَرَّغُ عَنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْأُمَّةِ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَرِيعَةِ اللهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ شَرِيعَةَ اللهِ تَعَالَى -لَا سِيَّمَا الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ- فِيهَا شِفَاءٌ لِكُلِّ دَاءٍ، وَفِيهَا حُلٌّ لِكُلِّ مُشْكِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَإِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، وَإِلَى سُنَّتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ تَعَالَى بِالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا لِأَنَّا سَنَجِدُ الْحُلَّ الشَّافِيَ الْكَافِيَ فِي

الرُّجُوعَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا ضَرَّ الْأُمَّةَ وَأَوْجَدَ عِنْدَهَا الْمَشَاكِلَ الَّتِي لَا مُتَتَهَى لَهَا إِلَّا غَفَلَتُهُمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ عُتُوِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَأْخُرِهِمْ فِي تَنْفِيزِ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَأَنْتَهُمْ قَوْمٌ مُعَانِدُونَ مُتَشَدِّدُونَ، شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنْتَهُمْ ذَكَرُوا اسْتِفْصَالَاتٍ كَثِيرَةً فِي هَذِهِ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا، وَلَوْ أَنْتَهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقْرَةٍ حِينَمَا أَمَرُوا أَنْ يَذْبَحُوا بَقْرَةً لَحَصَلَ لَهُمُ الْمَقْصُودُ، لَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا، فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْأَمْرَ إِذَا جَاءَ مُطْلَقًا فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَفْصَلَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الاسْتِفْصَالَ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى إِضَافَةِ شُرُوطٍ ثَقِيلَةٍ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي زَمَنِ الْوَحْيِ مُطْلَقًا فَإِنَّ الاسْتِفْصَالَ عَنْ قِيُودٍ مِنْ شَأْنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ امْتِثَالَ الْأَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْفَوْرِيَّةِ.

أَمَّا بَعْدَ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا وَرَدَ الْأَمْرُ مُطْلَقًا أَنْ يَنْبَغِيَ عَنْ شَيْءٍ مُقَيَّدٍ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ تَمَّتْ، وَلَا يُمَكِّنُ زِيَادَةُ إِضَافَاتٍ إِلَيْهَا، فَهَذَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَنْ يَجِدَ الْإِنْسَانُ أَمْرًا مُطْلَقًا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَيَنْبَغِي عَنْ تَقْيِيدٍ لَهُ فِيهَا بَعْدَ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ، وَبَيْنَ مَا كَانَ فِي زَمَنِ الْوَحْيِ، فَمَا كَانَ فِي زَمَنِ الْوَحْيِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي الاسْتِفْصَالَ عَنْ قِيُودٍ فِيهِ؛ لِثَلَاثِ تَرَدُّدِ قِيُودِ تَضَيُّقِ الْأَمْرِ، وَأَمَّا بَعْدَ زَمَنِ الْوَحْيِ فَلَا بَأْسَ بِالْبَحْثِ عَنْ قِيُودٍ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ أحيانًا تَأْتِي مُطْلَقَةً فِي مَوْضِعٍ، وَتُقَيَّدُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ مَا عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ

فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْظَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً: ﴿أَتَنْخِذُنا هُزُؤًا﴾.

٥- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: تحريم الاستهزاء بالغير والسخرية منهم؛ لقول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فالاستهزاء بالغير والسخرية منه جهالة وعدوان على المستهزئ به المسخور منه، لا يقع إلا من سفيه أو جاهل بالشريعة.

٦- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يلجؤون إلا لله سبحانه وتعالى، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ملجأ لهم إلا الله، فما بالك بمن دُونهم؟!

ويتفرع عن هذا: قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس، حينما يلجؤون إلى الموتى من الأنبياء أو ممن يزعمونهم أولياء، يلتجئون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستغيثون بهم؛ فإن الاستعاذة بغير الله عز وجل في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضًا، فالله سبحانه وتعالى هو الملجأ الذي يلجأ إليه كل مخلوق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

٧- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن المجمل إذا علم المراد منه فلا بأس أن يكون الجواب عليه مفصلاً، وإن كان هو مجملاً؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ...﴾ الآية، فإن قولهم في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ مجمل مبهم؛ لأن الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة المجملة، فلا يعلم ماذا يريدون

بقولهم: ﴿مَا هِيَ﴾، لكن إذا كان المخاطب يَعْلَمُ المراد بهذا المُجْمَلُ المُبْهَمُ فلا بأس أن يكون الجوابُ على حَسَبِ ما فَهَمَهُ المُخاطَبُ، ولهذا قال لهم موسى كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ﴾ إلى آخر الآيات.

٨- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثبات القول لله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾.

٩- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُجِيبٌ لِمَنْ دَعَاهُ؛ لأنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُبَيِّنَ ما هِيَ؟ فأخبره الله أَنَّهَا ﴿بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

١٠- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: أن أحسن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله ما كان فوق الصَّغَرِ ودون الكِبَرِ الكثير؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، ولهذا جاء في الحديث الصَّحِيح: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسَرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ»^(١)، فنهى النَّبِيُّ ﷺ عن التَّقَرُّبِ إلى الله بِذَبْحِ الصَّغِيرَةِ، ومن المَعْلُومِ أَنَّهُ كُلَّمَا كَبُرَتْ البهيمةُ قَلَّ شَأْنُ لَحْمِهَا وَتَرَدَّى، فلهذا يَكُونُ ما بين الصَّغِيرَةِ والكَبِيرَةِ هو الأَفْضَلُ فيما يُتَقَرَّبُ به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

١١- ومن فوائد قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاعْمَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ﴾: أَنَّهُ يَجِبُ على المأمور أن يَمْتَثِلَ ما أُمِرَ به على الوجه الذي أُمِرَ به؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَا تُؤْمُرُونَ﴾، و﴿مَا﴾ هذه مَوْصُولَةٌ تَشْمَلُ عَيْنَ المأمور وَوَصْفَ المأمور، وما أُمِرَ به شرعاً فَإِنَّ الامتثال

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب بيان سن الأضحية، رقم (١٩٦٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا يَحْصُلُ فِيهِ إِلَّا إِذَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى وَجْهِ لَيْسَ فِيهِ زِيَادَةٌ وَلَا نَقْصٌ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ غُلُوٌّ، وَالنَّقْصَ تَفْرِيطٌ.

١٢ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ عندهم من التَّهَانِ والتَّفْرِيطِ في تنفيذ أوامر الله ما يَتَبَيَّنُ من هذه القِصَّةِ وغيرها، فهم حين طُلِبَ منهم أَنْ يَفْعَلُوا ما يُؤْمَرُونَ لم يفعلوا، بل ازدادوا تَعَنُّتًا وَتَشَدُّدًا، فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا﴾ الآية.

وَيُسْتَفَادُ من هذه الآية: شِدَّةُ تَعَنُّتِ بني إِسْرَائِيلَ وَتَشَدُّدِهِمْ، وَإِلَّا فَمَا شَأْنُ اللَّوْنِ بِالنِّسْبَةِ لِلْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْ ذَبْحِ هذه البقرة؟! وَلَكِنَّهُمْ لِتَشَدُّدِهِمْ وَتَمَنُّعِهِمْ فِي تَنْفِيزِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ صَارُوا يَسْأَلُونَ عَنِ اللَّوْنِ، وَلَعَلَّ هَذَا السُّؤَالَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُشَدِّدَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

١٣ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ ما كان جميلاً من الحيوان الذي يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ أَكْمَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْعُ لَوْئُهَا نَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾، فَإِنْ قَالَ الْإِنْسَانُ: مَا عِلَاقَةُ هَذَا بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ؟

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبَقْرَةُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ كَانَتْ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ قَوْمَهُ أَنْ يَذْبَحُوا هَذِهِ الْبَقْرَةَ، فَاُمْتِثَالُهُمْ لِأَمْرِ مُوسَى قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِنْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ هَذَا هُوَ الْإِرْشَادُ، فَإِنَّ فِيهِ شَائِبَةَ الْقُرْبَةِ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ قُرْبَةٌ مُحَضَّةٌ؛ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ دَرُءٌ مَفْسُودٌ وَفِتْنَةٌ كَادَتْ تَقَعُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَانَ الْقَتِيلَ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ.

١٤ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَحْمِلَ الْمُخَاطَبُ الشَّيْءَ

المُبْهَمُ الْمُجْمَلُ عَلَى مَا يَظُنُّهُ مِنَ الْمَرَادِ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ الْآيَاتِ؛ فَإِنَّ ﴿مَا هِيَ﴾ هِيَ الصَّيْغَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ الْجَوَابُ هُنَاكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ الْآيَةِ، وَالْجَوَابُ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، مَعَ أَنَّ جُمْلَةَ الْاسْتِفْهَامِ وَاحِدَةٌ فِي صَيغَتِهَا، لَكِنْ الْمُخَاطَبُ يَفْهَمُ مِنْ كُلِّ صَيْغَةٍ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ.

١٥ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهْدَى فِي النَّهْيَةِ، وَلَوْلَا أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمْ يُؤَفَّقُوا، بِمَعْنَى: لَوْ أَنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ بَدُونَ أَنْ يَقُولُوا: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَإِنَّهُمْ حَرِيٌّ أَلَّا يُؤَفَّقُوا؛ لِأَنَّ قَرْنَ الْخَبَرِ بِالْمَشِيئَةِ عَلَى فِعْلٍ مُسْتَقْبَلٍ أَمْرٌ مُطْلُوبٌ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَهِّلُ هَذَا الْأَمْرَ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا تُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تَسْعِينَ امْرَأَةً^(١) كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ! فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَذَلِكَ لِعَزْمِهِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشَقٍّ رَجُلٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ، وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢)، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْخَبَرِ عَنْ أَمْرٍ وَاقِعٍ؛ فَإِنَّ الْخَبَرَ عَنْ أَمْرٍ وَاقِعٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَوْلٍ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ أَوْ التَّعْلِيلِ، وَلِهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ فِي قَوْلِ الْإِنْسَانِ: «أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» إِذَا كَانَ غَرَضُهُ الْإِخْبَارَ عَنِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ فَإِنَّهُ

(١) أَيُّ: بِالْجَمَاعِ.

(٢) تَقْدِمْ تَخْرِيجَهُ (ص: ٣٧).

لا يحتاجُ إلى قَوْلِهِ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»؛ لَأَنَّ هَذَا خَبْرٌ عَنْ شَيْءٍ حَصَلَ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِذَلِكَ أَنَّ إِيْمَانَهُ حَصَلَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُرِيدَ التَّبَرُّكَ بِإِضَافَةِ إِيْمَانِهِ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَبَرَاءَتِهِ مِنْ حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الِاسْتِثْنَاءُ فِي الْإِيْمَانِ يَخْتَلِفُ، فَإِنْ كَانَ الْحَامِلُ عَلَيْهِ الشَّكَّ فِي وَجُودِ الْإِيْمَانِ فَهَذَا حَرَامٌ لَا يَجُوزُ، بَلْ كُفْرٌ؛ لِأَنَّهُ يُنَافِي الْإِيْمَانَ الْجَازِمَ، وَالْإِنْسَانُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ إِيْمَانًا جَازِمًا لَا شَكَّ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ التَّبَرُّكَ أَوْ بَيَانُ أَنَّ مَا حَصَلَ وَاقِعٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

وَبِهَذَا التَّفْصِيلِ يَنْجَلِي الْإِشْكَالُ الَّذِي حَصَلَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: هَلْ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَشْنِيَ فِي إِيْمَانِهِ، فَيَقُولُ: «أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، أَوْ لَا يَجُوزُ؟ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُحَقِّقَ لَنَا جَمِيعًا إِيْمَانَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ إِيْمَانَنَا لَا كُفْرَ مَعَهُ، وَيَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

١٦ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَتْ أَوْصَافٌ فِي شَخْصٍ يُخَشَى مِنْهَا أَنْ يَتَوَهَّمُ الْمُخَاطَبُ شَيْئًا خِلَافَ الْوَاقِعِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ قَيْدٍ يَرْفَعُ هَذَا التَّوَهُّمَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ فَإِنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ فِيهَا عَيْبًا؛ لِأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُثِيرَ الْأَرْضَ أَوْ تَسْقِيَ الْحَرْثَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهَا ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، وَهَذَا يُسَمَّى فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ بِالِاحْتِرَازِ أَوْ بِالِاحْتِرَاسِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ ﴿٧٨﴾، فقد قال الله بعد هذا: ﴿وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، فلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ فَهَّمَهُمُ الْحُكْمَ الصَّحِيحَ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ ذَلِكَ يُخْشَى مِنْهُ أَنْ تَهْبِطَ مَنْزِلَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ آتَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لِدَاوُدَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ وَالطَّيْرَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى انْحِطَاطٍ كَبِيرٍ فِي رُتْبَةِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، فَرَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥]، فَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَفْضِيلَ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ قَالَ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ نَزُولُ رُتْبَةِ الْآخَرِينَ نَزُولًا فَاحِشًا.

١٧ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: بَيَانُ مَا عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ التَّعَاطُفِ وَالتَّرَفُّعِ وَالِاسْتِعْلَاءِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَتْنَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾، فَكَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ كَوْنِهِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْنَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ الْآنَ وَقَبْلَهُ.

١٨- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّهُ يَجُوزُ حَرْثُ الْأَرْضِ بِالْبَقَرِ، وَسَقْيُ الْحَرْثِ بِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾.

١٩- ومن فوائدها: الإشارةُ إلى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا نَسْتَعْمِلَ فِي حَرْثِ الْأَرْضِ وَسَقْيِ الزَّرْعِ إِلَّا مَا كَانَ ذُلُولًا طَيِّعًا، وذلك لَأَنَّ الشَّمْسَ أَوْ الصَّعْبَ قَدْ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُفَرِّعَ عَنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ فَائِدَةً أُخْرَى، وَهِيَ: أَلَّا نَسْتَعْمِلَ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا مَا دَلَّتِ التَّجَارِبُ عَلَى أَنَّهُ صَالِحٌ فِيهَا؛ حَتَّى لَا نَقَعَ فِي الْخَطِئِ وَالزَّلَلِ.

٢٠- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ امْتَثَلُوا مَا أَمَرَهُمُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ مَعَ التَّشَدُّدِ وَالتَّعَنُّتِ وَالِاسْتِفْصَالِ لَمْ يَذْبَحُوهَا عَنْ انْقِيَادٍ تَامٍّ وَتَنْفِيزٍ فَوْرِيٍّ، وَإِنَّمَا ذَبَحُوهَا ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَي: مَا قَارَبُوا الْفِعْلَ؛ لِكُونِهِمْ مُتَّصِفِينَ بِالْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ.

٢١- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّهُ يَجُوزُ ذِكْرُ الْمُسَبَّبِ قَبْلَ ذِكْرِ السَّبَبِ؛ فَإِنَّ الذَّبْحَ كَانَ سَبَبَهُ الْاِخْتِلَافُ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِشَأْنِ الْقَتِيلِ، وَمَعَ ذَلِكَ ذُكِرَ قَبْلَ أَنْ يُذَكَرَ السَّبَبُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ مُحَلُّ الْعِبَرَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَكْشِفُ حَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَتَتْهُمْ قَوْمٌ لَا يَمْتَثِلُونَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقَبَّلَهُ نُفُوسُهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّبِعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُمْ: ﴿أَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

٢٢- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ كَانَ ضَرْبُ هَذَا الْقَتِيلِ سَبَبًا لِحَيَاتِهِ؛ فَإِنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى لَا يَكُونُ إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

ولهذا لما ناظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام مَنْ حَاجَّهُ فِي اللَّهِ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحِیْءُ وَیُمِیتُ﴾، قَالَ هَذَا الْمُحَاجُّ: ﴿أَنَا أُحِیْءُ وَأُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وَهُوَ كَاذِبٌ فِیمَا ادَّعَاهُ؛ فَإِنَّهُ لَا یَقْدِرُ عَلَى الْإِحْیَاءِ وَالْإِمَاتَةِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآیَاتِ الْكُرِیَّاتِ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِیمٌ بِكُلِّ شَیْءٍ، وَأَنَّ مَا كَتَمَهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سِیْخِرْجُهُ، وَلَا سِیَّمًا إِذَا كَانَ فِی خُرُوجِهِ لِلْعِبَادِ مَصْلَحَةٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْقَاتِلَ لَا بُدَّ أَنْ يُخْرِجَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَیُبَیِّنَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِیِّهِ سُلْطَانًا فَلَا یُسْرِفُ فِی الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ فَإِنَّ الْآیَةَ الْكُرِیمَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ وَلِیَّ الْمَقْتُولِ لَهُ سُلْطَانٌ شَرْعِیٌّ وَسُلْطَانٌ قَدَرِیٌّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى یُبَیِّنُ هَذَا الْقَاتِلَ حَتَّى یُقْتَلَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا یُسْرِفُ فِی الْقَتْلِ﴾.

٢٥- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآیَاتِ الْكُرِیَّاتِ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قِصَّةٌ مِنْ خَمْسِ قِصَصٍ فِی سُورَةِ الْبَقَرَةِ، كُلُّهَا فِیْهَا إِحْیَاءُ الْمَوْتِی، وَسَنَبِّئُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِیْمَا بَعْدُ^(١).

٢٦- وَمِنْ فَوَائِدِ الْآیَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِی هَذِهِ الْقِصَّةِ: جَوَازُ الْأَمْرِ بِالْمُبْهَمِ إِذَا كَانَ یُمْكِنُ امْتِثَالُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ فَإِنَّ الْبَعْضَ یَتَنَاوَلُ أَىَّ جِزَاءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا؛ كَالِیَدِ، أَوِ الرَّجْلِ، أَوِ الْقَلْبِ، أَوِ الْكَبِدِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ: لَوْ أَنَّكَ قُلْتَ لِشَخْصٍ: افْعَلْ بَعْضَ هَذِهِ الْأَشْیَاءِ، وَذَكَرْتَ لَهُ أَشْیَاءَ مُحْصُورَةً، فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ صَحِیحٌ، وَیَبْرَأُ الْإِنْسَانُ الَّذِی أَمَرْتَهُ بِفِعْلِ بَعْضِهِ، أَى: بِفِعْلِ مَا شَاءَ مِنْهُ، أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا الْإِبْهَامُ لَا یُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ فَإِنَّ الْوَاجِبَ

(١) جَاءَ تَعْدَادُهَا فِی الْفَائِدَةِ رَقْمَ (٢٧).

الاستفصال، ولهذا لما قال الله تعالى للقلم: اكتب. قال: رب! وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة^(١)، وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

٢٧- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: بيان قُدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سبق أن الله ذكر خمس قصص في سورة البقرة فيها إحياء الموتى، فمن ذلك: ما سبق في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

ومنها أيضًا: هذه القصة: قصة القتل الذي اختلف بنو إسرائيل في قاتله. ومنها: قصة القوم ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

ومنها: قصة الرجل الذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُغْنِيٰ هَٰذَا إِلَهُهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والخامسة: قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ وَلَٰكِنْ لِّيُظْمِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضى بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٣١٧/٥) من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ كُلِّهِمْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ كما قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

٢٨- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَىٰ عِبَادَهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا يَكُونُ بِهِ الْعَقْلُ وَالرُّشْدُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ لِّلْمُؤْمِنِ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وَآيَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ، وَآيَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، فالآيات الكونية: مَا يَحْصُلُ بِخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ، مثل: السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ، وَالْجِبَالِ، وَالشَّجَرِ، وَالْدَّوَابِ.

وَالْآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ: مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْأَوَامِرِ، وَالنَّوَاهِي، وَغَيْرِهَا مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

٢٩- ومن فوائد الآيات الكرييات: أَنَّ تَدَبُّرَ الْآيَاتِ سَبَبٌ لِلْعَقْلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وَالْعَقْلُ عَقْلَانِ: عَقْلٌ إِذْرَاكِ، وَعَقْلٌ تَصَرُّفٍ، فَعَقْلُ الْإِدْرَاكِ: هُوَ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ التَّكْلِيفُ، وَيَكُونُ فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَأَمَّا عَقْلُ التَّصَرُّفِ فَهُوَ مَا يَحْصُلُ بِهِ الرُّشْدُ، وَهُوَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ فِي أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ وَأَقْوَالِهِ، وَهَذَا خَاصٌّ بِمَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وعلى هذا فلو سألنا سائلًا: هل الكُفَّار عُقْلَاءُ؟

فالجوابُ أَن نقول: هم عُقْلَاءُ مِنْ حَيْثُ عَقْلُ الْإِدْرَاكِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ التَّكْلِيفُ، وَلَيْسُوا عُقْلَاءُ مِنْ حَيْثُ عَقْلُ التَّصَرُّفِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الرُّشْدُ، وَلِهَذَا

ينفي الله عن الكُفَّار كثيرًا سِمَةَ الْعَقْلِ، كما في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٥٥]، وقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٣) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٢-٢٣]، فالْكُفَّار ليس لهم عقلٌ تصرَّفُ يُوصلُهُم إلى الرُّشد، وإن كان عندهم عقلٌ إدراكٌ يترتب عليه التَّكليفُ والمُواخذةُ.

٣٠- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثباتُ الأسبابِ في قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد تقدَّم الكلامُ فيما سَبَقَ عن ذكر اختلاف النَّاسِ في الأسبابِ، وبَيَّنَّا أَنَّ القولَ الوسطَ هو إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ، لكن لا بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القُوَّةِ التي تُؤثِّرُ في المُسَبِّباتِ^(١).

٣١- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ بعد هذا كُلِّهِ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، ولم يَزِدَادُوا بهذه الآياتِ والنِّعَمِ لِيَنَّا لِلْحَقِّ وَقُبُولًا لَهُ، ولكنَّهُمْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ من بعد ذلك.

٣٢- ومن فوائد هذه الآياتِ الكَرِيمَاتِ: التَّحذِيرُ ممَّا جرى لبني إِسْرَائِيلَ من قَسْوَةِ الْقُلُوبِ بعد رُؤْيَا الآياتِ التي يُرِينَا اللَّهُ إِيَّاهَا، فمثلاً: إذا رأينا من آياتِ اللَّهِ من الفَسَادِ ما تَلِينُ بِهِ الْقُلُوبُ، وَيَحْصُلُ بِهِ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِذَلِكَ، أَي: بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ تَلِينَ قُلُوبُنَا لِذِكْرِ اللَّهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، لَا يَزِدَادُ الْإِنْسَانُ مِنْ رُؤْيَا الْآيَاتِ إِلَّا قَسْوَةَ قَلْبٍ وَتَمَرُّدًا فِي الْفِعْلِ، فَإِنَّ هَذَا وَقُوعٌ فِيهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ.

(١) انظر: (ص: ١٠٧).

٣٣- ومن فوائد هذه الآيات الكريئات: التحذير من قسوة القلب بعد ظهور الآيات؛ لأنَّ هذا أعظم شراً وأكبر إثماً ممَّا إذا لم ير الإنسان من آيات الله ما تقوم به الحجة، ومع الأسف أن بعض النَّاس بعد ظهور الآيات لا يزداد إلا كبراً وعناداً، فتجد من آيات الله ما يظهر ظهوراً بيّناً، سواء أكانت هذه الآيات من الأمور الفلكية، أم الأرضية، أم الواقعة بين النَّاس، فإنَّ كثيراً من النَّاس لا يهتمُّ بها، ولا يذكرها إلا على سبيل أنَّها واقعة فقط، فعند كسوف الشمس أو خسوف القمر لا نجد كثيراً من النَّاس يتأثّر أو يقبل على المساجد؛ ليفعل ما أمر به الرَّسول ﷺ من الصلاة، وعند حصول الزلازل والفيضانات والعواصف الشديدة لا نجد كثيراً من النَّاس يهتمُّ بها، ويقلق منها، ويخشى أن يُصاب بمثلها، بل لا يذكرونها إلا على أنَّها حوادث وقعت، وكأنَّها -كما يقولون- كوارث طبيعية، لا يلتفت إليها.

ونجد كثيراً من النَّاس تقع بينهم الحروب والفتن، ويعتدي بعضهم على بعض بالقتل، والنَّهب، وانتهاك الحُرُمات، ومع هذا لا يعدونها شيئاً يُذكر، بل يذكرونها على أنَّها حوادث تاريخية، وليست من الآيات التحذيرية التي يُحذّر الله بها العباد، فتجدهم بعد أن تزول هذه الكوارث وهذه الحوادث العظيمة يرجعون إلى غيهم، بل ربَّما يرجعون إلى أكبر من غيهم، نسأل الله السلامة.

والواجب على المؤمن: أن يتخذ من هذه الآيات عبرةً، وأن يرجع إلى الله رجوعاً حقيقياً؛ حتَّى لا ترجع هذه الحوادث والكوارث على وجه أكبر ممَّا كانت عليه من قبل.

٣٤- ومن فوائد هذه الآيات الكريئات: أنَّ قلوب بني إسرائيل التي قست كانت كالْحِجَارَةِ، بل أشدَّ.

٣٥- ومن فوائدها: أن من الحجارة ما هو خيرٌ من هذه القلوب، فمنها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشقق، فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء القوم التي قست لا يأتي منها خيرٌ، ولا تلين لحق.

٣٦- ومن فوائده هذه الآيات الكريّات: عُموم رقابة الله عزّ وجلّ، وأنّه على كلّ شيء رقيبٌ، ولا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٧- ومن فوائده هذه الآيات: تحذير المرء من العمل الذي لا يرضاه الله عزّ وجلّ؛ لأنّه مهما عمِل فالله تعالى عالم به، مُطلع عليه، رقيبٌ عليه.

٣٨- ومن فوائده هذه الآيات الكريّات: إثبات الصفات المنفيّة - عن الله عزّ وجلّ، يعني: الإيمان بأنّ الله موصوفٌ بالإثبات وبالنفي، أمّا وصفُ الله بالإثبات فكثيرٌ جدًّا في القرآن الكريم والسنة النبويّة، وأمّا وصفُ الله تعالى بالنفي فهو أقلُّ من وصفه بالإثبات.

ولم يذكر الله تعالى أوصاف النفي إلّا لأسباب تقتضيها، مثل: توهم النقص في صفاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأنّ الشيطان قد يُلقِي في قلب المرء - إذا علم أنّ الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيّام - أنّ الله تعالى لحقه تعب في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

ومنها: أنّ الصفات المنفيّة تُذكر لدفع ما افتراه الكاذبون في حقّ الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومنها: أَنَّ الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَّةَ قَدْ تُذَكَّرُ لِلتَّهْدِيدِ؛ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ: تَهْدِيدُ الْمُخَاطَبِ بَيَّانَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَغْفَلَ عَمَّا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ.

وقد ذكر أهل العلم: أَنَّ مَا جَاءَ مِنْ صِفَاتِ النَّفْيِ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ بِنَفْيٍ مُحْضٍ، بَلْ هُوَ نَفْيٌ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِثْبَاتِ، وَهَذَا الْإِثْبَاتُ هُوَ كَمَالُ ضِدِّ الْمُنْفِي، فَمَثَلًا: يُقَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] الْمَقْصُودُ بِهَذَا النَّفْيِ: إِبْثَاتُ كَمَالِ قُوَّتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ قُوَّتِهِ لَمْ يَمَسَّهُ تَعَبٌ وَلَا إَعْيَاءٌ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، يُرَادُ بِنَفْيِ الظُّلْمِ هُنَا عَنِ اللَّهِ: إِبْثَاتُ كَمَالِ عَدْلِهِ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ لَا يَقَعُ فِي صِفَاتِهِ ظُلْمٌ إِطْلَاقًا.

وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يُرَادُ بِذَلِكَ: إِبْثَاتُ كَمَالِ غِنَاهُ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَإِبْثَاتُ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهَا وَحْدَانِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهَا إِلَهٌ، وَعَلَى هَذَا فَفَسِّرْ.

فكُلُّ مَا جَاءَ مِنْ صِفَاتٍ مُنْفِيَّةٍ عَنِ اللَّهِ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا: مُجَرَّدُ النَّفْيِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا: إِبْثَاتُ كَمَالِ الضَّدِّ مَعَ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي جَاءَ النَّفْيُ عَنْهَا.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -وَأَعْنِي بِذَلِكَ: سَلَفَ الْأُمَّةِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي هَدْيِهِمْ- لَيْسُوا كَأَهْلِ الْبِدْعِ الَّذِينَ لَا يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا بِصِفَاتِ النَّفْيِ، فَتَجِدُهُمْ يُكْثِرُونَ مِنْ صِفَاتِ النَّفْيِ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَمَّا صِفَاتُ الْإِبْثَاتِ فَإِنَّهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ بِهَا، وَلَوْ ذَكَرُوهَا لَذَكَرُوهَا عَلَى وَجْهِ مُؤَوَّلٍ تَأْوِيلًا بَعِيدًا عَنِ الصَّوَابِ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ تَحْرِيفٌ، وَلَيْسَ بِتَأْوِيلٍ.

٣٩- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن هذا القرآن الكريم جاء تفصيلاً لكل شيء يحتاج الناس إلى تفصيله؛ من أجل أن يكون موعظة تامة في جميع الأحوال؛ فإن في ذكر أخبار من سبق عبرة لمن اعتبر؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧)

في هذه الآيات يقول الله عز وجل مخاطباً رسوله ﷺ وأصحابه: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: أهل الكتاب، يعني: أترجون أن يؤمنوا لكم، والحال أن فريقاً منهم يسمعون كلام الله - وهم العلماء منهم - يسمعون كلام الله في التوراة، أو يسمعون كلام الله الذي أوحاه إلى موسى عليه الصلاة والسلام حين اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يضرّفونه عن المراد به إلى معانٍ يريدونها هم، فيجعلون معنى كلام الله سبحانه وتعالى تابِعاً لأهوائهم، يفعلون ذلك بعد أن عَقَلُوا المعنى وعَرَفُوهُ، فهم يفعلون هذا عن عَمْدٍ، وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك عن عَمْدٍ، لكنهم يريدون أن يتبعوا أهواءهم.

ومن شأن هؤلاء المحرّفين: أَنَّهُمْ إِذَا ﴿لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: أَتُحَدِّثُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِمَا أَعْلَمَكُمْ بِهِ وَأَخْبَرَكُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ لَأَنَّكُمْ إِذَا ذَكَرْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ جَاءَ وَصْفُهُ فِي التَّوْرَةِ، وَأَنَّهُ يُبْعَثُ، وَيَكُونُ رَسُولًا إِلَى كَافَّةِ النَّاسِ، فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يُحَاجُّونَكُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ يُؤَبِّخُ هَؤُلَاءِ أَقْوَامَهُمْ، فيقولون: ﴿أَفَلَا نَعْقِلُونَ﴾ أَفَلَا تَكُونُونَ عُقَلَاءَ، فَتَمْتَنِعُوا عَنْ تَحْدِيثِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ بِشَيْءٍ يُحَاجُّونَكُمْ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ؟! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فَهُمْ وَإِنْ أَسْرَوْا وَكْتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ أَعْلَنُوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِصَنيعِهِمْ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ، وَتَحْرِيفِ الْكِتَابِ، هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ.

أَمَّا مَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا مِنْ أَحْكَامٍ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

١- تَأْيِيسُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مِنْ إِيمَانِ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّ الْمَعَانِدَ الَّذِي يَعِصِي اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَنْ عِنَادِ تَبَعْدِ هِدَايَتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَقَلِبْ أَفْسَدَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فَإِلَّا نَسَانُ إِذَا رَدَّ الْحَقُّ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ وَفَهْمِهِ لَهُ، فَإِنَّهُ يَبْعُدُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهْدِيهِ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- قَدْ زَاغَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثبات كَلَامِ الله تعالى، وأنَّ الله تعالى يتكلَّم، وأنَّ كلامه يُسْمَع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ كَلَامَ الله بصوت مَسْمُوع يَسْمَعُهُ مَنْ وَجَّهَ الْخِطَابُ إِلَيْهِ، وهذا أمر مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بين أهل السُّنَّةِ والجماعة، ويدلُّ عليه الْقُرْآنُ والسُّنَّةُ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، والمُنَادَاةُ والمُنَاجَاةُ لا تكونان إِلَّا بصوتٍ، لكن المُنَادَاةُ تكون بصوتٍ عالٍ لِمَنْ بَعْدَ، والمُنَاجَاةُ تكون بصوتٍ خفيٍّ لِمَنْ كان قريبًا.

٤- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: ذمُّ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عن مَوَاضِعِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، قال أهل الْعِلْمِ: تحريفُ الْكَلِمِ ينقسم إلى قِسْمَيْنِ: أحدهما: تَحْرِيفُ اللَّفْظِ، والثَّانِي: تَحْرِيفُ الْمَعْنَى.

■ فتحريف اللفظ: يَكُونُ بِتَغْيِيرِ الشَّكْلِ، أو تَغْيِيرِ بِنْيَةِ الْكَلِمَةِ، وما أشبه ذلك، مثل: لو قرأ قارئ قَوْلَ الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، فقرأ: «وكَلَّمَ الله موسى تكلِيمًا» لكان مُحَرِّفًا لِلْكَلِمِ، ولو قرأ: «الحمد لله رب العالمين»، لكان مُحَرِّفًا لِلْكَلِمِ أيضًا، لكن الفرق بين هذا والذي قَبْلَهُ: أنَّ تحريف قوله: «وكَلَّمَ الله موسى تكلِيمًا» يتغيَّر به المعنى، فيكون المُكَلَّمُ موسى، وليس الله، أمَّا «الحمد لله رب العالمين» فَإِنَّهُ لا يتغيَّر به المعنى، ولكنه لا يجوز ارتكابه؛ لِأَنَّهُ تحريف للْكَلِمِ.

■ وأمَّا تحريفُ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ هو الَّذِي وَقَعَ فِيهِ كثير من النَّاسِ، بحيث يَصْرِفُ معنى اللَّفْظِ عن ظَاهِرِهِ بدون دَلِيلٍ، مثل: تحريف بَعْضِهِمْ قَوْلَ الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فقال: معناه: الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوَى، ولكنه أبقى اللَّفْظَ كما هو، فهذا تَحْرِيفٌ مَعْنَوِيٌّ، وهو -بلا شك- مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ على الله

بَلَا عِلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّهَا خَاطَبْنَا بِالْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ؛ لِنَفْهَمَهُ عَلَى مُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِذَا لَمْ يُنْقَلِ الْمَعْنَى إِلَى مَعْنَى شَرْعِيٍّ، فَإِذَا صَرَفْنَا الْمَعْنَى إِلَى مَا لَا تَقْتَضِيهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ كَانَ ذَلِكَ تَحْرِيفًا لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: شِدَّةُ لَوْمِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَفُوا مَا سَمِعُوا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ حَرَفُوهُ بَعْدَ عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ.

٦- ومن فوائدها: أَنَّ تَحْرِيفَ الشَّيْءِ بَعْدَ عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيفِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ عَقَلَهُ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ عَقَلَهُ فَقَدْ يَكُونُ مَعْذُورًا بِهَذَا التَّحْرِيفِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْقِلْهُ تَمَامَ الْعَقْلِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ عَقَلَهُ كَانَ تَحْرِيفُهُ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ.

٧- ومن فوائد هذه الآيات: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ إِنَّهَا حَرَفُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُحَرِّفُونَ لَهُ، فَيَكُونُ تَحْرِيفُهُمْ إِصْرَارًا عَلَى عِنَادٍ، وَلَيْسَ إِصْرَارًا عَنْ جَهْلِ أَوْ تَهَاوُنٍ، بَلْ هُوَ إِصْرَارٌ عَلَى خَطِئٍ مُتَعَمِّدٍ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

٨- ومن فوائد هذه الآيات: أَنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ -وَأَعْنِي بِهِمْ: بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ النِّفَاقِ، فَصَارُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا خَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ صَارَ بَعْضُهُمْ يُنْكِرُ عَلَى بَعْضٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أَي: آمَنَّا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لَكِنَّهُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ.

٩- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أَنَّ بُيُوتَ الرَّسُولِ ﷺ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا تَمَامًا، وَيَعُدُّونَهَا مِنَ الْفَتْحِ الَّذِي فَتَحَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛

لَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا أمر معلوم بيَّنه الله تعالى في كتابه في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد بشر به عيسى قومه، فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

١٠ - ومن فوائد الآيات الكرييات: بيان أن ما علمه أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ هو فتح من الله، فتح الله به عليهم، وقد بيّن الله عزّ وجلّ أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قبل بعث الرسول ﷺ، أي: أنهم يستنصرون بمحمد ﷺ على الكافرين؛ لأنهم يعلمون فيما علموه من التّوراة أنه ﷺ منصّور، وستكون له العاقبة، ولكنهم -والعياذ بالله- لما بان الحق واتّضح، وبُعِثَ النبي ﷺ، صدّهم الحسد عن الإيمان به، صلى الله عليه وسلّم.

١١ - ومن فوائد هذه الآيات: أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث؛ لقوله: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، وقد اتّفقت الرّسالات السّماوية كلّها على إثبات البعث، وأنّ الناس سوف يُبعثون ويُجازون على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١٢ - ومن فوائد الآيات الكرييات: أن الحُصومة ستقع بين يدي الله عزّ وجلّ من المؤمنين والكافرين، يُخاصم بعضهم بعضاً، فيفصل الله بينهم، ويقضي بينهم

بِحُكْمِهِ، ويدلُّ لهذا أيضًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠-٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْتِجُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات الكرييات الدالة على أَنَّ أولياء الله وأولياء الشيطان يَخْتَصِمُونَ عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيقضي بينهم بِحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، جَلَّ وَعَلَا.

١٣ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أَنَّ ما ذهب إليه هؤلاء الذين يقولون عند المؤمنين: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ أَنْكَرَ بعضهم على بعضٍ، أَنَّهُ مُخَالِفٌ للعقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا نَعْقِلُونَ﴾، فَإِنَّ مُقْتَضَى الْعَقْلِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا آمَنَ عَنْ اقْتِنَاعِ آمَنَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي حُضُورِ الْحُضْمِ وَحُضُورِ الْوَلِيِّ، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَكَانُوا مُدْبِذِينَ، يُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّهُمْ إِذَا رَجَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَخَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَنْكَرُوا مَا حَدَثَ.

١٤ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثباتُ عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، أَي: مَا يُسِرُّونَهُ مِنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ وَكِتْمَانِهِ، وَمَا يُعْلِنُونَهُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ آمَنُوا، وَإِنَّ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ موجودة عندهم في التَّوراة.

١٥ - ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: تهديدُ المرءِ وَتَحْذِيرُهُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْوُقُوعِ فِيهَا يُغْضِبُهُ، سواء أكان سِرًّا أَمْ عَلَنًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: تَهْدِيدُ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مَن يظنون أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ إِلَّا مَا كَانَ عَلَنًا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨)

يُبَيِّنُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُمِّيِّينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي، أَي: إِلَّا قِرَاءَةً، فَهَمْ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا، وَلِهَذَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْأُمِّيَّةِ، وَالْأُمِّيُّ: هُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَكْتُبَ؛ نِسْبَةً إِلَى الْأُمِّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمٌ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي: إِلَّا قِرَاءَةً، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أَي: مَا هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ظَنًّا.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١- بيان أن من بني إسرائيل من لا يفهم المعنى، ولكنه يقتصر على اللفظ.
- ٢- ومن فوائدها: ذم من لا يفهم معنى كتاب الله؛ لقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾.
- ٣- ومن فوائدها: الحث على تعلم معاني كتاب الله عز وجل، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم الذين يقرءون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً^(١).

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٨).

٤- ومن فَوَائِدِهَا: الْحُثُّ عَلَى فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ معَانِيَ الْكِتَابِ كَمَا يَتَعَلَّمَ لَفْظَهُ، وَإِنَّ مِنَ الْمُؤْسِفِ أَنْ وَاقَعَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمَنْهَجِ، أَي: أَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لِلتَّعَبُّدِ بِلَفْظِهِ فَقَطْ، دُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُ، أَوْ أَنْ يُطَبِّقُوا أَحْكَامَهُ، وَهَذَا -بَلَا شَكٍّ- قُصُورٌ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ ظَهَرَ أَثَرُ هَذَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ تَخَلَّفُوا كَثِيرًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ تَطْبِيقِ الْقُرْآنِ لَفْظًا وَمَعْنَى وَعَمَلًا، فَفَاتَهُمْ بِذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

٥- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْكِتَابَ إِلَّا لَفْظًا يَقَعُ فِي الْوَهْمِ، وَالظَّنِّ، وَالتَّخَبُّطِ بِمَا لَا يَعْرِفُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وَعَلَى هَذَا فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ حَرِيصًا عَلَى فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَتَلَقَّى تَفْسِيرَهُ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُعْتَمَدَةِ الْمُوثُوقِ بِهَا، أَوْ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ يُوثِقُ بِعِلْمِهِمْ. وَلِيُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ لِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: تَدَبُّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهُوَ التَّفَكُّرُ فِي مَعْنَاهَا حَتَّى يَصِلَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ هَذَا التَّفَكُّرِ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ. وَالثَّانِي: الْإِتِّعَاضُ بِمَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَدَلِيلُ هَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا أَحَثُّ إِخْوَانِي الْقَارِئِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَحْرِصُوا غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَعْنَاهُ، وَذَلِكَ بِسُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُوثُوقِ بِعِلْمِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ عَنْ مَعَانِي آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَوْ مُرَاجَعَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُعْتَمَدَةِ الْمُوثُوقِ بِمُؤَلَّفِيهَا فِي عِلْمِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ؛ حَتَّى يُحَقِّقُوا بِذَلِكَ اتِّبَاعَ مَنْهَجِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانَ لَا يَتَجَاوَزُونَ

عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا^(١).



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

ففي هذه الآية الكريمة تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ - وفي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ لهذه الكتابة أنَّها من عند أنفسهم - ثُمَّ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؛ لِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ حَاصِلٌ عَلَى أَمْرَيْنِ:
الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: مَا كَسَبُوهُ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: مَا كَسَبُوهُ مِنْ هَذِهِ الْكِتَابَةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنَالُوا جَاهًا، أَوْ مَالًا، أَوْ رِئَاسَةً، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَتَاعِ الْآخِرَةِ، فَيَأْتُمُّونَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ: عَلَى الْكِتَابَةِ الَّتِي يَصِلُ بِهَا النَّاسُ، وَعَلَى مَا كَسَبُوهُ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

١ - تحريم أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ الْقَوْلَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنْ يَكْتُبَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَوَجْهَ التَّحْرِيمِ: الْوَعِيدُ الَّذِي رُتِّبَ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ يُسْتَفَادُ إِذَا مِنْ لَفْظِ التَّحْرِيمِ، مِثْلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وَإِذَا مِنْ النَّهْيِ، وَإِذَا مِنْ تَرْتِيبِ الْعِقَابِ عَلَيْهِ، وَإِذَا مِنْ الْوَعِيدِ عَلَيْهِ، وَلِلْعَلَمِ بِالتَّحْرِيمِ طُرُقٌ مَعْرُوفَةٌ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَأْكِيدَ الشَّيْءِ بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكِتَابَةَ تَكُونُ بِالْيَدِ، لَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ تَأْكِيدِ هَذِهِ الْكِتَابَةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بَلْ هِيَ بِأَيْدِيهِمْ.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَتَبُوا هَذَا الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَهُوَ كُلُّ مَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا.

٤ - وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَا يَحْصُلُ مِنَ الدُّنْيَا - مَهْمَا بَلَغَ - فَإِنَّهُ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- ومن فوائدها: أَنَّ العمل إذا تَرَتَّب عليه سيئاتٌ فَإِنَّ الإنسان يُعاقَبُ على كُلِّ سيئةٍ تَرَتَّبَت على هذا العمل السيِّئ؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإذا كان العمل السيِّئ إذا تَرَتَّب عليه سيئاتٌ فَإِنَّهُ يَأْثُمُ به، فالعمل الصَّالح إذا تَرَتَّب عليه حسناتٌ فَإِنَّ الإنسان يُثابُّ عليه؛ لأنَّ رحمة الله تعالى سَبَقَتْ غَضَبَهُ، ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا مَا ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ الْمُفْتَرُونَ:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٨٠)

هذه المقالة من مقالة اليهود، ادَّعَوْا أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يُخْلِفُهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا، وَقَدْ كَذَبُوا فِيهَا ادَّعَاوُهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّانِي، فَالنَّارُ لَنْ تَمَسَّهُمْ أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَحَسْبُ، بَلْ هُمْ خَالِدُونَ مُخْلَدُونَ فِيهَا إِذَا مَاتُوا وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(٢)، فهم - أعني: اليهود - من أصحاب النار مُخْلَدِينَ فِيهَا إِذَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧) من حديث جرير بن

عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٧٧).

دين مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثانيًا: هم كاذِبُونَ في قَوْلِهِمْ: إِنَّكُمْ تَخْلِفُونَا فِيهَا؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ مَوْعِدُهُمُ الْجَنَّةَ، وهم أصحابُ الْجَنَّةِ، فكلُّ مَنْ مات مؤمنًا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، مُتَّبِعًا لشرِيعَتِهِ، فَإِنَّهُ من أهلِ الْجَنَّةِ.

وبَيَّنَّ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ هذه الدَّعْوَى كَذِبٌ بطريق السَّبَرِ والتَّقْسِيمِ، فقال: ﴿أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يُخْلِفَ عَهْدَهُ، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ هذه دعوى مُجَرَّدَةٌ عن الْعِلْمِ، فَلَا تَكُونُ مَقْبُولَةً.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- بَيَانُ كَذِبِ الْيَهُودِ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ كَذِبٍ، كَمَا أَنَّهم أَهْلُ غَدْرِ وَخِيَانَةٍ، لَا يُوفُونَ بِعَهْدٍ، وَلَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِ الْأَمَانَةِ، بَلْ صِفَاتُهُمُ الْكَذِبُ، وَالْحَسَدُ، وَالْخِيَانَةُ، وَالْمَكْرُ.

٢- ومن فَوَائِدِ هذه الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: حُسْنُ اسْتِدْلَالِ الْقُرْآنِ فِي مُقَابَلَةِ خُصُومِهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿قُلْ أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الطَّرِيقُ من طُرُقِ الْحُجَجِ مِمَّا يُفْهِمُ الْخَصْمَ.

ومن نظائرها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وِلْدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

٣- ومن فَوَائِدِ هذه الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَنْ يُخْلِفَ عَهْدَهُ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا

أَصْدَقَ الْقَائِلِينَ، وَأَتَمَّ الْمَعَاهِدِينَ، وَأَقْدَرُ عَلَى تَنْفِذِ وَعْدِهِ وَعَهْدِهِ، فَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩].

٤ - ومن فوائد هذه الآية: أَنَّ الْيَهُودَ لَا يُبَالُونَ إِذَا قَالُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛
لَنَبْلِيَّ مَآرِبَهُمْ وَأَطْمَاعِهِمْ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)

هذه الآية ردٌ لدَعْوَى الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَةً﴾، بَيَّنَّ اللَّهُ فِيهَا كَذِبَ هَذِهِ الدَّعْوَى، وَأَنَّهَا بَاطِلَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ
سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَي:
مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً كَبُرَى تَكُونُ سَبَبًا لِإِحَاطَةِ خَطِيئَاتِهِ بِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَاتٌ،
وَذَلِكَ مِثْلُ سَيِّئَةِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ الْمُخَلَّدُونَ فِيهَا، وَلَيْسُوا
الْمُسْلِمِينَ كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ هُمْ
هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - إِبْطَالُ مَا ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَنْ تَمَسَّهُمُ
النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً، ثُمَّ يُخْلَفُهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا.

٢- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الْجَزَائِيَّةَ مُعَلَّقة بأوصاف لا بأعيان، ولهذا قال: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ من أيِّ أحد من الأمم فله هذا الحكم، سواء أكان من العرب، أم من بني إسرائيل، أم من غيرهم.

٣- ومن فَوَائِدِ هذه الآية الكريمة: أَنَّهُ لا يستحقُّ الخلود في النار إِلَّا مَنْ أَحَاطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، أَمَّا مَنْ لَمْ تُحِطْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، بَأَن كَانَ عِنْدَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَآخِرُ سَيِّئَةٍ، فَإِنَّهُ لا يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الْمُخَلَّدِينَ فِيهَا، وَلَكِنَّهُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ بِذَنْبِهِ.

وقد يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُقُوبَةِ شَفَاعَةُ مَنْ يَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَرْفَعُ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الْعُصَاةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَاقَبَهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: مَا دُونَ الشُّرْكِ.

وهذه الآية يذهب بَعْضُ النَّاسِ إِلَى التَّعَلُّلِ بِهَا، فَتَجِدُهُ يَعْمَلُ مَا شَاءَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لِي، وَالَّذِي لَا يُغْفَرُ هُوَ الشُّرْكُ، فنقول له: وهل تعلم أَنَّ اللَّهَ شَاءَ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ؟ رُبَّمَا لَا تَدْخُلُ أَنْتَ تَحْتَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ وَأَطْلَقَ، بَلْ قَالَ: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَنَّكَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشِيئَةِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُتَمَنَّى نَفْسُكَ الْمُحَالَ، بَلْ إِنْ الْحَزْمَ وَالْعَزْمَ أَنْ تَتَجَنَّبَ مَعَاصِيَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنَالَكَ عِقَابُهُ.

٤- ومن فَوَائِدِ هذه الآية: أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ هُمْ أَهْلُهَا الَّذِينَ يَبْقَوْنَ فِيهَا؛

لأنَّ مَنْ عُدِّبَ فِي النَّارِ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا، لَا يُعَدُّ مِنْ أَصْحَابِهَا فِي الْوَاقِعِ؛ إِذِ إِنَّ الْمَصَاحِبَةَ هِيَ الْمُلَازِمَةُ.

وعلى هذا يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا تَخْلِيدًا أَبَدِيًّا، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَأْيِيدَ الْخُلُودِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجَنِّ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فَهَذِهِ آيَاتٌ ثَلَاثٌ فِيهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَبَعْدَ هَذَا التَّصْرِيحِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نُعَارِضَهُ بِمُجَرَّدِ أَقْسَاسٍ عَقْلِيَّةٍ، وَنُصُوصٍ عَامَّةٍ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ الصَّرِيحَ لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا لَفْظٌ صَرِيحٌ.

ثُمَّ إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ لَفْظٌ صَرِيحٌ يُخَالِفُ هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا خَبْرٌ، وَخَبْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ يُمَكِّنُ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّسْخُ، أَمَّا الْأَحْكَامُ الْخَبَرِيَّةُ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّسْخُ؛ لِأَنَّا لَوْ جَوَّزْنَا نَسْخَ أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ بِالْآخَرِ لَزِمَ مِنْهُ تَكْذِيبُ أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ بِالْآخَرِ، وَهَذَا مُحَالٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذه هي طَرِيقَةُ الْقُرْآن: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابَ النَّارِ وَعُقُوبَتَهُمْ، ذَكَرَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ وَمَثُوبَتَهُمْ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَثَانِي، تُشْنَى فِيهِ الْأَحْكَامُ وَالْمَعَانِي، وَلِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ دَائِرًا فِي عِبَادَتِهِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ءَامَنُوا بِالْغَيْبِ الَّذِي يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَرْكَانَ الْإِيْمَانِ، حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيْمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلُّهُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

وَأَمَّا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَهُوَ الْقِيَامُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ:

هُوَ مَا جَمَعَ بَيْنَ وَصْفَيْنِ:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى، بِأَلَّا يُرِيدَ بِعَمَلِهِ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ وَالذَّارِ

الْآخِرَةِ، لَا يُرِيدُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِي: الْمَتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِحَيْثُ يَكُونُ مُتَأَسِّيًا بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَإِنْ فُقِدَ الْإِخْلَاصُ صَارَ فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ إِشْرَافٌ، وَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ الشَّرْكَ،

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَنَا أَغْنَى

(١) أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨) من

حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا اللفظ للنسائي: كتاب الإيمان، باب نعت الإسلام، رقم (٤٩٩٣)،

وأحمد (٥١/١).

الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١)، وإذا لم يَكُنْ مُتَّبَعًا فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ كَانَ عَمَلًا بِدْعِيًّا، والعملُ البِدْعِيُّ مردودٌ؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣)، فالعمل الصَّالح هو ما جَمَعَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ: الإِخْلَاصَ لِلَّهِ، والمتابعةَ لرسول الله ﷺ.

ثُمَّ بَيَّنَّ عَزَّوَجَلَّ جَزَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهِذَيْنِ الوَصْفَيْنِ: الإِيَّانَ، والعمل الصَّالح، فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، الْجَنَّةُ: هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، وفيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَصْحَابِهَا، وَأَنْ يَتَوَلَّانا بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظَنَا بِحِفْظِهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - بَيَانُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا صَالِحًا، وَهُوَ أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي الْجَنَّةِ.
- ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ لَا يَتِمُّ دُخُولُ الْجَنَّةِ إِلَّا بِهِذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: الإِيَّانَ، والعمل، فَالإِيَّانُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، وَالْعَمَلُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِيَّانٍ وَعَمَلٍ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ تُرَكِّزَ فِي خِطَابِنَا فِي الْوَعْظِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: عَلَى

(١) تقدم تخريجه (ص: ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم:

كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧/١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٨/١٧١٨) من حديث

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإيمان الذي هو أساس العقيدة، وعلى العمل الصالح الذي به تتم هذه العقيدة.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً، وهو ما جمع بين الإخلاص والمتابعة لرسول الله ﷺ، كما أسلفنا في تفسيرنا لهذه الآية.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بطلان العمل الذي فيه الشُّرك؛ لأنَّ الله اشترط لتأثير العمل واستحقاق الجزاء عليه أن يكون عملاً صالحاً.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة مخلَّدون فيها، وتخليدُهم أبديُّ، كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣)

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾ الضمير في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ راجعٌ إلى الله عزَّ وجلَّ، وجاء بهذه الصيغة؛ تعظيماً لله؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يُعبَّر عن نفسه أحياناً بصيغة الجمع، وأحياناً بصيغة الإفراد، والتعبير بصيغة الإفراد ظاهرٌ معلوم؛ لأنَّ الله تعالى واحدٌ، والتعبير بصيغة الجمع؛ للدلالة على العظمة، وذلك لأنَّ ضمير الجمع تارةً يُرادُّ به الجمع الذي هو العدد، وتارةً يُرادُّ به التعظيم، كما في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

والميثاق: هو العهد، وسُمِّي ميثاقاً؛ لَأَنَّهُ تَوْثِيقَةٌ بَيْنَ الْمُتَعَاهِدَيْنِ، وبنو إسرائيل: هم بنو يعقوب بنِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ، وهم أبناءُ عَمِّ للعرب؛ لَأَنَّ الْعَرَبَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ، وبنو إسرائيل من ذُرِّيَةِ إِسْحَاقَ، وإِسْمَاعِيلُ وإِسْحَاقُ أَخَوَانِ، أَبُوهُمَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هذا الميثاق هو:

أولاً: أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، لَا يَعْبُدُونَ مَلَكًا، وَلَا رَسُولًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا شَجَرًا، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: أَنْ يُحْسِنُوا إِلَى الْوَالِدَيْنِ بِالْبِرِّ إِلَيْهِمَا وَعَدَمِ الْعُقُوقِ.

الثالث: أَنْ يُحْسِنُوا إِلَى ذَوِي الْقُرْبَى بِالصَّلَةِ وَعَدَمِ الْقَطِيعَةِ.

الرابع: أَنْ يُحْسِنُوا إِلَى الْيَتَامَى، وَهُمْ الَّذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا، وَيَشْمَلُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ مِنَ الْيَتَامَى.

الخامس: الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَسَاكِينِ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ الْمُعْدِمُونَ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ؛ لَأَنَّ الْفَقْرَ أَسْكَنَهُمْ وَأَذَلَّهُمْ؛ فَإِنَّ الْفَقْرَ يُوجِبُ سُكُونَ الْإِنْسَانِ وَذُلَّهُ، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُغْنِيَنَا بِفَضْلِهِ عَنْ خَلْقِهِ.

أَمَّا السَّادِسُ: فَإِنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَخَاطَبَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَيَشْمَلُ مَا يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ مِمَّا يَكُونُ شَرِيعَةً، بِحَيْثُ لَا يَقُولُونَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا هُوَ حَسَنٌ، وَلَا يَكُونُ الْمَدْعُوُّ إِلَيْهِ حَسَنًا إِلَّا إِذَا كَانَ مُوَافِقًا لَشَرِيعَةِ اللَّهِ.

السَّابِعُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، أَي: أَدَاؤُهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

الثَّامِنُ: إيتاء الزَّكَاةِ، أي: إعطاء ما يجبُ إعطاؤه من المال إلى أهله.

ولكن هل هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمِ الْمِيثَاقُ قَامُوا بِذَلِكَ؟

الجواب: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾، والخطابُ في

قَوْلِهِ: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ لبني إسرائيلَ الموجودين في عهد الرَّسُولِ ﷺ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَامُوا بِهَذَا الْعَهْدِ، وَأَمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، مِثْلُ: عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّجَاشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ النَّصَارَى، فَهَذَانِ وَأَمْثَالُهُمَا مِمَّنْ لَمْ يَتَوَلَّوْا، بَلْ قَامُوا بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ عَلَى مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَوَاتَّقُوا عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَسْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: أَنْتُمْ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ، لَيْسَ فِيهِمْ شَيْءٌ

مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ:

١- بَيَانُ عُتْوِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُمْ مَعَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ لَا يَقُونُ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: التَّحْذِيرُ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ هَؤُلَاءِ مِنْ مُّخَالَفَةِ الْمِيثَاقِ، وَعَدَمِ

الْوَفَاءِ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا ذَكَرَ أَخْبَارَ مَنْ سَبَقَ فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُهَا عَلَى سَبِيلِ التَّلَهِّيِّ بِهَا وَالنَّظَرِ الْمُجَرَّدِ، وَلَكِنَّهُ يَذْكُرُهَا عَزَّجَلَّ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَعْتَبِرَ بِهَا، وَأَنْ نَأْخُذَ مِنْهَا عِبْرَةً؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدَّعْوَةَ لِلْإِخْلَاصِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ جَاءَ بِهَا كُلُّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّغُوتَ ﴿[النحل: ٣٦]﴾، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤- ومن فوائد هذه الآية: وجوب الإحسان إلى الوالدين، والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل، فالإحسان بالقول معناه: أن يُلينَ الإنسانُ لهما قوله، وأن يكون قولاً كريماً طيباً سمحاً، والإحسان بالفعل: يكون ببذل المال، وبخدمة البدن، وغير ذلك مما يكون إحساناً، والآية مُطلقة: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ولنعلم أن أحق الوالدين بالصُّحبة هي الأمُّ، كما قال النبي ﷺ حين سُئِلَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي^(١)؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»^(٢)، ولكن هذا لا يعني ألا نُعطي الأب حقه، بل له حقٌّ، وللأم حقٌّ، لكن لما كانت الأم أنثى، والغالب عليها الضعف، وأنها تحتاج إلى لينٍ أكثر، صارت أحقَّ الناس بصُحبة الوالد.

والإحسان للوالدين بالفعل: يكون ببذل ما يحتاج إليه الوالدان من المال من نفقة، وكسوة، وغير ذلك بقدر المُستطاع، ويكون أيضاً بالبدن، وهو القيام بخدمة الوالدين حينما يحتاجان لذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ

(١) الصُّحابة هنا بمعنى الصحبة.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟، رقم (٥٩٧١)، ومسلم:

كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين، رقم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴿٢٣٠﴾ [الإسراء: ٢٣٠-٢٣٤].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى ذوي القربى، أي: إلى أصحاب القرابة، سواء أكانوا من قبل الأم أم من قبل الأب، والإحسان إليهم يكون كالإحسان إلى الوالدين، أي: بالقول وبالفعل، ولكن الإحسان إلى الوالدين أوكّد وأعظم؛ لأنهم أقرب القربى إليك.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى اليتامى، وهم الذين مات أبائهم قبل أن يبلغوا، وذلك لأنّ هذا اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله عزّ وجلّ وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى المساكين عند الضرورة إلى ذلك، ومشروعيته على سبيل الاستحباب إذا لم يكن هناك ضرورة، وذلك لأنّ المساكين قد أسكنهم الفقر وأذلّهم، فهم بحاجة إلى من يجبرهم بالإحسان إليهم، ولهذا وصّى الله بذلك، وجعله من العهود والمواثيق على بني آدم.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب القول الحسن في مخاطبة الناس، وفي دعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والظاهر - والله أعلم - أن القول الحسن إن كان المراد به: ما هو ضدّ القول السيئ فإنّ القول الحسن هنا يكون واجباً، أي: أنّه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيئ إليهم، بل بما يكون فيه منفعتهم الدنيّة والدنيويّة، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ فإنّ هذا كلّهُ من القول الحسن، وضدّه: القول السيئ الذي يكون به الإساءة والعُدوان على الناس؛ فإنّه محرّم.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب إقامة الصلاة، أي: الإتيان بها على الوجه المشروع، إلزامًا في الواجبات، وندبًا في المستحبات.

والصلاة معروفة، وهي موجودة في جميع الملل؛ كما يفيدُه قوله تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَفْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكما يفيدُه هذه الآية الكريمة من أن بني إسرائيل قد أخذ عليهم الميثاق بأن يقيموا الصلاة.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب إتياء الزكاة، وهي القدر المفروض في المال الزكوي، يُؤتى إلى أهل الزكاة، لا إلى غيرهم.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم مع هذا العهد والميثاق على هذه الخصال الحميدة لم ينقادوا لهذا العهد، ولم يفوا به، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عدل الله عز وجل، وذلك باستثناء هؤلاء القليل ممن تولى؛ إذ لم يحكم بالتولي على جميع بني إسرائيل، وإنما حكم به على من قام به واستحقه، وهذا من كمال عدل الله عز وجل.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل مع توليهم ونكثهم لهذا الميثاق كانوا معرضين عن الحق، غير متجهين إليه، فجمعوا بين الانحراف القلبي والانحراف البدني.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخَذَ مِيثَاقًا آخَرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ عُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ يَعْنِي: لَا تُرْقِيقُونَهَا بِالْقَتْلِ، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، وَإِنَّمَا أَضَافَ الدِّمَاءَ إِلَيْهِمْ، وَالْإِخْرَاجَ إِلَى الْإِنْفُسِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْوَاحِدَةَ كَأَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، فَاخْرَاجُ بَعْضِهِمْ يَكُونُ كَاخْرَاجِ أَنْفُسِهِمْ هُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أَي: أَنْتُمْ مُقَرَّرُونَ بِهَذَا الْمِيثَاقِ، شَاهِدُونَ بِهِ، وَلَكِنْ هَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ؟

الْجَوَابُ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، فَلَمْ تَقُوا بِالْمِيثَاقِ، بَلْ قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَأَخْرَجْتُمْ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأَخْرَجْتُمُوهُمْ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْعُلُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ عَلَيْهِمْ، ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

ومع ذلك إذا أتوكم أسارى فاديتموهم، يعني: لو أسروا فإنكم تحرصون على أن تُفادوهم، مع أن إخراجهم في الأصل حرام عليكم، ففي هذا الفعل تؤمنون ببعض الكتاب، مثل: إنقاذ من أسر منكم بالمفاداة، وتكفرون ببعض، مثل: قتل بعضكم بعضاً، وإخراج بعضكم بعضاً من ديارهم، ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: مجازاته ومكافأته على عمله ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ احتراز من العموم؛ لأنهم ليسوا كلهم يفعلون هذا، ولكن من يفعل هذا فهذا جزاؤه: الخزي في الحياة الدنيا، وبيان عيبه وعواريه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، وإنما يُردُّون إلى أشد العذاب؛ لنكثهم العهد والميثاق الذي بينهم وبين الله عز وجل.

ثم ختم الله الآية ببيان كمال علمه ومراقبته في قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

١ - العُدُول عن الكلام بصيغة الغيبة إلى الكلام بصيغة الخطاب؛ لأنه أشد وأوقع في النفس، ففي الآية التي سبقت هاتين الآيتين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وفي هذه الآية يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، فعَدَل عن الكلام بالغيبة إلى الكلام بالخطاب؛ لأنه أبلغ وأشد.

٢ - ومن فَوَائِدِ الآية الكريمة: تحريم الدِّمَاء في الأمم السابقة كما هي مُحَرَّمَةٌ في هذه الشريعة، وقد أعلن النبي ﷺ هذا التحريم في أكبر مُجْتَمَع اجتمع به مع أمته، وذلك في حجة الوداع، حيث سألهم: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» و«أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» و«أَيُّ

بَلَدٍ هَذَا؟» ثُمَّ قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١).

والدِّمَاءُ مِنْ أَكْظَمِ الْعُدْوَانِ حُرْمَةً وَجَزَاءً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الدِّمَاءُ»^(٢).

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: تَحْرِيمُ إِخْرَاجِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَلَدِهِ إِلَّا بِمُقْتَضَى الشَّرْعِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: اسْتِعْمَالُ مَا يُوجِبُ الْعُطْفَ وَالْحَنَانَ وَالرَّحْمَةَ فِي الْخُطَابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾؛ حَيْثُ جَعَلَ دِمَاءَ الْغَيْرِ كَدِمَاءِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ، وَجَعَلَ إِخْرَاجَ الْغَيْرِ كإِخْرَاجِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

٥- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ عُنُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ أَقْرَأُوا بِهَذَا الْمِيثَاقِ، وَشَهِدُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَقُومُوا بِتَطْيِيقِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «رَبُّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، رَقْمُ (٦٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقِسَامَةِ، بَابُ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ، رَقْمُ (١٦٧٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ الْخُطْبَةِ أَيَّامَ مَنْى، رَقْمُ (١٧٣٩) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ بِنُحُوهِ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الْقِصَاصِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٦٥٣٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقِسَامَةِ، بَابُ الْمَجَازَاةِ بِالدِّمَاءِ فِي الْآخِرَةِ، رَقْمُ (١٦٧٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من العمل بما عمل به هؤلاء من أخذ الميثاق بين العبد وربّه، ثم بعد ذلك ينكثه، ولا يفي به.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء الذين لم يطبقوا الميثاق، وصاروا يقتلون أنفسهم، ويخرجون فريقاً منهم من ديارهم، يُعتبرون مؤمنين ببعض الكتاب، وكافرين ببعض، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر به جميعاً؛ لقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، وأشدُّ العذاب لا يكون إلا للكافرين، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أولئك هم الكافرون حقاً ﴿[النساء: ١٥٠-١٥١]، فين الله أن هؤلاء الذين يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض، كافرون حقاً، وهذه مسألة خطيرة عظيمة؛ لأن بعض الناس يؤمن ببعض الشريعة ويكفر ببعضها، ثم يقول: إنه مؤمن باعتبار أصل عقيدته، وهذا لا ينفعه؛ إذ لا بد في الإيمان من أن يكون إيماناً شاملاً لكل ما جاءت به الشريعة.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تناقض بني إسرائيل؛ حيث إنهم يخرجون فريقاً منهم من ديارهم متعالين عليهم بالإثم والعدوان، ثم إذا أتوهم أسارى فادّوهم، وهذا تناقض؛ كيف يخرجونهم من ديارهم، ثم يفادونهم إذا أتوهم أسارى؟!

٩- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: أن عمل بني إسرائيل من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان سبباً لهذه العقوبة العظيمة: أنهم يُخزّون في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة يُردّون إلى أشدّ العذاب.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: بيان عدل الله عز وجل في الاحتراز من العموم إذا لم يكن الحكم عامًّا؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾، ولم يقل: «فما جزاؤكم؟» مع أن الخطاب في الأول كان للجميع؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾، وهذا من باب الاحتراز الدال على كمال عدل الله عز وجل حتى في التحدث عن الغير.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: أنه يجب على الإنسان مراعاة العدل فيما يُخاطب به غيره، فلا يتكلم عن أمة في مدح أو قذح على سبيل العموم إذا لم تكن كذلك، ولا يتكلم أيضًا عن أفعال الشخص المعين من قذح أو مدح على سبيل العموم إذا لم يكن كذلك؛ لأن هذا هو الحق والعدل.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: إثبات يوم القيامة، والجزاء فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَلْقِيَتُمُ يُرْدُونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

١٣- ومن فوائدها: أن العذاب مراتب، بعضه أشد من بعض؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

١٤- ومن فوائدها: إثبات الصفات المنفية في صفات الله عز وجل، بمعنى: أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لكن ليُعلم أن الصفات المنفية عن الله عز وجل لا يُراد بها مجرد النفي، وإنما يُراد بها بيان كمال ضدها، فإذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كان دالًّا على كمال علمه، وكمال مراقبته لعباده عز وجل، وأنه ليس بغافل عنهم.

١٥- ومن فوائدها: بيان كمال الله عزَّجَل في عُموم عِلْمِه ومُراقبته؛ لقَوْلِه: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ (ما) من صِيغِ الْعُمُومِ، وَالْعُمُومُ في اسمِ الْمَوْضُولِ أو غَيْرِه يدلُّ على السَّعةِ وَالشُّمُولِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا الْعَهْدَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّجَل أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا الْعَهْدَ إِنَّمَا نَكَثُوهُ لِأَغْرَاضِ الدُّنْيَا وَأَعْرَاضِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَي: أَخَذُوا الدُّنْيَا بَدَلًا عَنِ الْآخِرَةِ، وَهَؤُلَاءِ حُكْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ: أَنَّهُ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ مَاتُوا وَهُمْ نَاكِثُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ عَزَّجَل.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- بيانُ أَنَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّجَل فَإِنَّمَا يُخَالِفُهُ لَغَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا.

٢- ومن فوائدها: بيانُ سَفَهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَثُوا عَهْدَ اللَّهِ؛ حَيْثُ اخْتَارُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، مَعَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

٣- ومن فوائدها: التَّحْذِيرُ مِنْ اخْتِيَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ يَتَعَاملُ الْإِنْسَانُ مَعَ النَّاسِ بِمُعَامَلَاتٍ مُحَرَّمَةٍ، كَالرِّبَا، وَالْغِشِّ، وَالْكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛

من أجل أن ينال عَرْضًا من الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ السَّفَهَةِ وَالْخَطِإِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةُ هِيَ الْبَاقِيَةُ، وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العذاب الجزاء، وأن من اشترى الحياة الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ؛ لِأَنَّهُ اخْتَارَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي النَّارِ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ فِيهَا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يَقُولُونَ لِمَالِكٍ: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَيَقُولُونَ خِزْنَةُ جَهَنَّمَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، فَأَمَّا جَوَابُ مَالِكٍ لَهُمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَأَمَّا جَوَابُ خِزْنَةِ النَّارِ فَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الشَّفَاعَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، وَالشَّفَاعَةُ نَوْعٌ مِنَ النَّصْرِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَحَقِّينَ الْخُلُودَ فِي النَّارِ لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الشَّفَاعَةُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].



(١) أخرجه بمعناه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّهُ أَعْطَى مُوسَى الْكِتَابَ -وهو التَّوْرَة- وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ الْإِعْطَاءَ بِالْقَسَمِ الْمُقَدَّرِ، وَاللَّامِ، وَ(قَد).

وهذا الْكِتَابُ الَّذِي أُوتِيَ مُوسَى لَمْ يَكُنْ آخِرَ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَقَّى مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الرُّسُلَ تَبَاعًا، وَخَتَمَ رُسُلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ مَا حَصَلَ مِنْ حَمْلِ أُمِّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي، وَمِنْ نُطْقِهِ فِي الْمَهْدِ، وَمِمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ إِخْرَاجِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى قَبْلَ الدَّفْنِ، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَه وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا آيَاتُ بَيِّنَاتٍ، لَكِنْ فِيهَا آيَاتُ سَبَقَتْ وَجُودَهُ -أَي: وَجُودَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَآيَاتُ بَعْدَ وَجُودِهِ وَرِسَالَتِهِ.

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّهُ أُوتِيَ الْبَيِّنَاتِ قَدْ آيَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، آيَدَ اللَّهُ بِهِ عِيسَى، أَي: قَوَّاهُ بِهِ وَنَصَرَهُ. ثُمَّ قَالَ مُخَاطَبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمُؤَبِّخًا لَهُمْ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يَعْنِي: أَفْتَبْلُغُونَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ: إِذَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ، وَإِذَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ قَبِلْتُمْ، وَلَكِنْ هَذَا الْآخِرُ قَدْ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْحَقِّ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

جاءُوا بما لا تهْوَى أَنْفُسُهُمْ، أَي: أَنْفُسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

ثُمَّ انْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ إِلَى فَرِيقَيْنِ، ففَرِيقًا كَذَّبُوا، وفَرِيقًا قَتَلُوا، وَآخَرُ مَنْ كَذَّبُوهُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوهُ بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، حَتَّى كَانُوا يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا، وَلَمْ يَقْبَلُوا مَا جَاءَ بِهِ، بَلْ عَاهَدُوهُ وَنَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَهُ، وَقَاتَلُوا أَصْحَابَهُ، وَمَا زَالُوا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا أَعْدَاءً لِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ حَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ الرُّسُلِ أَنَّهُمْ عَلَى هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوا، وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوا، فَتَكْذِيبُهُمْ تَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَقَتْلُهُمْ قَتْلٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١- بَيَانُ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى مُوسَى ﷺ مِنْ إِيْتَانِ الْكِتَابِ، وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ أَفْضَلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالتَّوْرَةُ هِيَ أَعْظَمُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِهَذَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُرْآنِ أَحْيَانًا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّوْرَةُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.
- ٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: إِثْبَاتُ نُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

- ٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُهْمَلِ الْخَلْقَ بِلاَ رُسُلٍ؛ فَإِنَّهُ قَفَى مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرُّسُلِ تِبَاعًا؛ مِنْ أَجْلِ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فَكُلُّ أُمَّةٍ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ؛ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى

الْعِبَاد؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ إِذَا لَمْ يَأْتِهِمْ رُسُلٌ قَدْ يَكُونُ لَهُمْ حُجَّةٌ عَلَى رَبِّهِمْ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْعَ هَذَا الْاِحْتِجَاجِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

٤- ومن الفَوَائِدِ الْمُسْتَنْبِطَةِ الْمَأْخُودَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَفَى مِنْ بَعْدِ مُوسَى بِالرُّسُلِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَبْقَى آثَارُ الرِّسَالَةِ فِي الْعِبَادِ.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: إِثْبَاتُ نُبُوءَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾.

٦- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ تَبَيَّنَ رِسَالَتُهُ، وَأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَالْبَيِّنَاتُ هَذِهِ شَامِلَةٌ لْجَمِيعِ الرُّسُلِ، فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ مِنَ الْبَشَرِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٧- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ حَيْثُ إِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا إِذَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ جَعَلَ مَعَهُمْ بَيِّنَاتٍ تَشْهَدُ لَهُمْ بِالصِّدْقِ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ رَسُولٌ إِلَى الْخَلْقِ دُونَ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ لَمْ يَقْبَلِ النَّاسُ مِنْهُ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى -بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ- جَعَلَ مَعَ كُلِّ رَسُولٍ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

٨- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ حَيْثُ أَيْدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩- ومن فَوَائِدِهَا: بُطْلَانُ دَعْوَى النَّصَارَى بِالْهُيَّةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لَأَنَّهُ أُيِّدَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ يَخْتَجِ إِلَى تَأْيِيدِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ»^(١).

وقد تَبَرَّأَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ دَعْوَى مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ إِلَهٌ مَعْبُودٌ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ ﷺ حِينَ يَسْأَلُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

١٠- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِثْبَاتُ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي غَيْرِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

١١- ومن فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَيَانُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، بَلْ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ -أَي: بِمَا لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ حَقٌّ- اسْتَكْبَرُوا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَمْلُؤُوا فِي دِينِكُمْ﴾، رقم (٣٤٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٢٨)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢- ومن فَوَائِد هذه الآية الكريمة: أَنَّ بني إسرائيل انْقَسَمُوا في جانب الرُّسُل إلى قِسْمَيْن: فريق كَذَّبُوا الرُّسُلَ، وفريق قَتَلُوهُمْ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَقَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا نَقَلْتُمْ﴾.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ الضَّمِيرُ يعودُ على بني إِسْرَائِيلَ؛ لأنَّ هذه الآياتِ كُلَّهَا في التَّحَدُّثِ عنهم، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مُغْلَقَةٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْحَقِّ، فَيَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَطْلَانَ دَعْوَاهُمْ هذه في قَوْلِهِ: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أَنَّ اللَّهَ طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عن رحمته بِكُفْرِهِمْ، فَرَانَ على قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وإذا رَانَ على القلبِ عَمَلُ الْعَبْدِ فَإِنَّهُ يُطْبَعُ على قلبه، فلا يَصِلُ إِلَيْهِ الْخَيْرُ، فيظُنُّ أَنَّ قَلْبَهُ لم يُخْلَقْ مُنْفَتِحًا لهذا الْخَيْرِ، وَيَدَّعِي أَنَّ قَلْبَهُ أَغْلَفٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أَنَّ إِيمَانَهُمْ قَلِيلٌ، بسبب لَعْنَةِ اللَّهِ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ يَدَّعُونَ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ، حينما يَدْعُوهُمْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، فيقولون: إِنَّ قُلُوبَهُمْ غُلْفٌ، يعني: مُغْلَقَةٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ، وَوَجْهُ إِبْطَالِ هَذَا: قَوْلُهُ: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بل لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَدَّعُونَ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا، فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، فلا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمُ الْخَيْرُ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عقوبة الله لهؤلاء باللعنة، وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

٣- ومن فوائدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾؛ فإن الباء هنا للسببية.

٤- ومن فوائدها: أن الكفر - والعياذ بالله - يوجب انطماس القلب، والطبع عليه، بحيث لا يصل إليه الخير؛ لقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: أن بني إسرائيل يقل فيهم الإيوان، والقلة هنا إما أن يكون المراد بها: العدم؛ لقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وإما أن يراد بها: أنه قد ترد على قلوبهم أحياناً واردة أن يكون فيها شيء من الإيوان، ولكنه شيء قليل لا ينتهض إلى إزالة الكفر عن هذه القلوب.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

قول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ المراد به: القرآن، فهو من عند الله؛ لأن الله تعالى تكلم به، وتلقاه جبريل عليه السلام، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: أن هذا القرآن مُصَدِّقٌ ما معهم من الكتب، وتصديق القرآن لما معهم من الكتب على وجهين:

الوجه الأول: أنه حكم بصدق هذه الكتب السابقة، وأوجب على الناس أن يؤمنوا بها، وهذا يعني أنه قال: إنها صادقة.

والوجه الثاني من التصديق: أَنَّ الكُتُبَ السَّابِقَةَ أَخْبَرَتْ بِهِ، فَجَاءَ مُصَدِّقًا لَهَا أَخْبَرَتْ بِهِ مُطَابِقًا لَهُ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ حَقٌّ.

لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لَهَا مَعَهُمْ ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، أَي: يَسْتَنْصِرُونَ عَلَيْهِم بِالرَّسُولِ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ، وَنَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَنَسْتَنْصِرُ عَلَيْكُمْ! يَقُولُونَ ذَلِكَ لِلْكَافِرِينَ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أَي: جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وَلَمْ يَقْبَلُوا مَا جَاءَ بِهِ ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا كَفَرُوا بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي عَرَفُوهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وهنا قال: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ولم يقل: «فلعنة الله عليهم»، والإظهارُ في موضع الإضمار لَهُ فَوَائِدُ، مِنْهَا:

■ الْحُكْمُ عَلَى مَرْجِعِ الضَّمِيرِ بِهَذَا الْوَصْفِ الظَّاهِرِ الَّذِي حَلَّ مَحَلَّ الضَّمِيرِ، فَلَوْ قَالَ: «فلعنة الله عليهم» لَمْ يَتَبَيَّنْ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ بِهَذَا الْكُفْرِ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ لِيُحَقِّقَ بِذَلِكَ اتِّصَافَهُمْ بِالْكَفْرِ.

■ وَمِنْهَا: إِرَادَةُ التَّعْمِيمِ، فَمَثَلًا لَوْ قَالَ: «فلعنة الله عليهم» لَمْ تَشْمَلْ غَيْرَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا قَالَ: «على الكافرين» شَمَلَتْهُمْ وَشَمَلَتْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ اِمْتَدَّ طُغْيَانُهُمْ وَعُتُوُّهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ حَتَّى آخِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَيْسَ مُتَقَوِّلاً عَلَيْهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: إِثْبَاتُ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ بِلا شَكٍّ، فَإِذَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ كَلَامُهُ، وَهَذَا هُوَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: الشَّاءُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الْقُرْآنَ؛ لَكَوْنِهِ مُصَدِّقًا لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

٥- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مَعَهُمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَكُتِبَتْ لَهُمْ كُلُّهَا نَاطِقَةً مُتَحَدِّثَةً عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُصَدِّقَةً لَهُ، مُحْبِرَةً بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَفَرُوا بِهِ عُتُوءًا وَطُغْيَانًا.

٦- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: بَيَانُ الْحَسَدِ الْعَظِيمِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ الَّذِي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ كُتُبُهُمْ سَيَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كَفَرُوا بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٧- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ كَفَرُوا عَنْ عِنَادٍ وَبَيَانٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

٨- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْكُفْرَ عَنْ مَعْرِفَةٍ أَشَدُّ مِنَ الْكُفْرِ عَنْ جَهْلٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾، ولم يقل: «فلما جاءهم الرَّسُول»، أو «جاءهم صاحبُ هذا الْكِتَاب»، أو ما أشبه ذلك، بل قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾؛ بَيَانًا لَشَنَاعَةِ ما حصل منهم.

٩- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ لَمَّا كَفَرُوا اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ كَافِرٍ، أَي: أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ حَاقَّةٌ عَلَى كُلِّ كَافِرٍ، ولهذا قَالَ: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿يَسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠).

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبَيِّنًا قُبْحَ ما ذَهَبُوا إِلَيْهِ؛ لَكُونِهِمْ اخْتَارُوا لأنْفُسِهِم الْكُفْرَ بما أنزل الله؛ حَسَدًا وَبَغْيًا مِنْهُمْ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّهُمْ حَسَدُوا الْعَرَبَ حِينَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ، وَاخْتَارُوا لأنْفُسِهِم الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ.

قال الله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي: أَنَّهُمْ أَتَوْا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ، وهذا لا يعني أَنَّهُمْ بَأَوْوا بِغَضَبَيْنِ فَقَطْ، بل بأكْثَر، فهم اسْتَحَقُّوا غَضَبَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ

بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِتَكْذِيبِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبِتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُمْ بِأَوْثَرِ غَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ، أَي: رَجَعُوا بِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَالْغَضَبُ الَّذِي رَجَعُوا بِهِ هُوَ غَضَبُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾، وَهَذِهِ عَامَّةٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِيهَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا اسْتِكْبَارًا وَتَعَاطُيًا وَعُلُوًّا، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي يُبَيِّنُهُمْ وَيُلْحِقُهُمُ الذَّلُّ وَالْهَوَانُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - بَيَانُ قُبْحِ مَا اخْتَارَهُ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: إِثْبَاتُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ هُوَ الْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ، وَهَذَا مِنْ طَبِيعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّهُمْ بُغَاةٌ مُتَمَرِّدُونَ عَلَى الْحَقِّ.

٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: بَيَانُ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يَهْبُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلشَّخْصِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ فَضْلٍ يُمْنُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ هِدَايَتِهِ لِدِينِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِلْمَ، وَالْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ الْكَثِيرِ الْوَاسِعِ، وَقَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، بَلْ وَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى بَيَانِ فَضْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ نِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ.

٥- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾، ومشية الله تعالى عامة في كل شيء، فيما يفعله هو بنفسه، وفيما يفعله العباد.

٦- ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بمحمد ﷺ قد باؤوا بغضبٍ على غضبٍ، أي: تراكم عليهم الغضب من الله عزَّ وجلَّ، وهذا يدلُّ على أن الغضب إذا تكرر كان أعظم قُبْحًا مما إذا كان غير مُتكرِّر.

٧- ومن فوائدها: إثبات العذاب للكافرين، وأنه عذابٌ مُهينٌ يلحقهم بالذلِّ والهوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لبني إسرائيل الموحِّدين في عهد الرُّسُول ﷺ ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على مُحَمَّدٍ ﷺ لم يقبلوا هذا القول، بل يردُّونه بقولهم: ﴿نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ من الكتب التي نزلت عليهم، كالتَّوراة على اليهود، والإنجيل على النَّصارى، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني: أن الذي كفروا به هو الحقُّ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، والحقُّ هو الشَّيء الثَّابت، وضدُّه: الباطل الزَّائل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ صَدَّقَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ،
وكانَ تَصْدِيقُهُ لَهَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّهُ بَيْنَ أَنهَا كُتِبَ مُشْتَمِلَةً عَلَى الصِّدْقِ.

والوجه الثاني: أَنَّهُ صَدَّقَهَا؛ حَيْثُ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَتُبَيِّنُهُ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ،
فَكَانَ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ
قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: إِذَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ فَلِمَ
تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْوَحْيِ مِنْ اللَّهِ؟ وَهَلْ هَذَا إِلَّا كَذِبٌ مِنْكُمْ وَعُدْوَانٌ
وَاسْتِكْبَارٌ عَلَى الْحَقِّ؟! وَلَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا مَا قَتَلْتُمْ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْكُمْ،
وَأَتَوْا بِالْكِتَابِ مُنَزَّلَةً عَلَيْكُمْ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- بَيَانُ تَعَصُّبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَوْ كَانَتْ طَرِيقًا
خَاطِئَةً؛ لِأَنَّ رِسَالَتِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى نُسِخَتْ بِمَجِيءِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَارَتْ غَيْرَ
مَقْبُولَتَيْنِ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]،
وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِمَا مَعَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ بَاطِلًا؛ لِأَنَّ
اللَّهَ ذَكَرَ هَذَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ تَحْذِيرًا مِنْ طَرِيقَتِهِمْ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ رَدُّوهُ، وَتَعَصَّبُوا
لِلْبَاطِلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَكَفَرُوا بِمَا سِوَاهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

٤- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ يَرُدُّونَ الْحَقَّ الْمُصَدِّقَ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانَ الَّذِي يَحِبُّ عَلَيْهِمْ عَقْلًا وَشَرْعًا أَنْ يَقْبَلُوا الْحَقَّ، وَلَا سِيَّما أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَمُبَيِّنٌ أَنَّهَا عَلَى حَقٍّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى كَذِبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ، وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَا قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي عِنْدَ الْمَحَاجَّةِ أَنْ يَذْكُرَ الْمَحَاجُّ مَا يُفْجِمُ بِهِ الْخَصْمَ، وَيُبَيِّنُ كَذِبَهُ، وَبُطْلَانَ دَعْوَاهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدِهَا: بَيَانُ أَنَّ بني إِسْرَائِيلَ لَا يَقْبَلُونَ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ بِهِ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَهُمْ مَا تَهَوَّى أَنْفُسُهُمْ سَكَنُوا، وَإِذَا جَاءَهُمْ مَا لَا تَهَوَّى أَنْفُسُهُمْ قَتَلُوا أَوْ يُكَذِّبُونَ وَيُصَرِّحُونَ بِالتَّكْذِيبِ إِذَا لَمْ يَلْغُوا إِلَى حَدِّ الْقَتْلِ، كَمَا سَبَقَ فِي آيَةٍ قَبْلَ هَذِهِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُخَاطَبُ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوَبِّحًا لَهُمْ عَلَى مَا حَصَلَ مِنْهُمْ؛ حَيْثُ إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَصَدَّقَ دَعْوَتَهُ،

ومع ذلك اتَّخَذُوا الْعِجْلَ من بعده إلهًا، وهم ظَالِمُونَ، أي: ظَالِمُونَ لأنفسهم بهذا الاتِّخَاذِ.

وسبب ذلك: أَنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاَعَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَتَمَّهَا بِعَشْرِ، فَبَقِيَ غَائِبًا عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ قَدْ خَلَّفَ عَلَيْهِمْ هَارُونَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ عَنِ الثَّلَاثِينَ فُتِنُوا بِمَا صَنَعَهُ السَّامِرِيُّ مِنَ الْعِجْلِ الْمَكُونِ مِنَ الذَّهَبِ الَّذِي اسْتَعَارَوْهُ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا هُوَ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى! فَعَبَدُوا الْعِجْلَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ صُنْعِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ صَنَعُوهُ وَأَخَذُوهُ.

وقد نَصَحَهُمْ هَارُونَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنَّهُمْ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]، وَهَذَا - لَا شَكَّ - دَلِيلٌ عَلَى سَفَهِهِمْ، وَعُتُوِّهِمْ، وَطُغْيَانِهِمْ: أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَهًا عَلَى صُورَةِ الْعِجْلِ هُمُ الَّذِينَ صَنَعُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقَبَائِحِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ وَاحِدٌ مِنْ أُمُورَ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَى عُتُوِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

٢- وَفِيهَا أَيْضًا مِنَ الْفَوَائِدِ: الْمُنَادَاةُ عَلَى سَفَهِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا، فَعَبَدُوهُ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ عَلَى حَالِ ظُلْمٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْعِجْلَ هُمُ الَّذِينَ صَنَعُوهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ إِلَهًا، وَلَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- تَعَتَّبُوا هَذَا التَّعَتُّتَ، وَنَصَحَهُمْ هَارُونَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا هَذَا النَّصْحَ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

هذه الآية خطابٌ لبني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ، ولكنهم لما كانوا أمةً
واحدةً مع مَنْ سَبَقَهُمْ صَحَّ أَنْ يُوجَّهَ الْخِطَابُ إِلَيْهِمْ بِالسَّنَاعَةِ عَلَيْهِمْ بِفِعْلِ غَيْرِهِمْ،
فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: الْعَهْدَ الثَّقِيلَ الْمُوثِقَ، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾
وهو الجبل المعروف، رَفَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ تَخْوِيفًا وَإِنْذَارًا حَتَّى صَارَ كَالظِّلَّةِ فَوْقَ
رُؤُوسِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مَا آتَاهُمْ بِقُوَّةٍ، أي: أَنْ يَأْخُذُوا الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ
إِلَيْهِمْ -وهو التَّوْرَةُ- بِقُوَّةٍ فِي تَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ، وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا،
وَلَكِنَّهُمْ عَتَوْا وَقَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ -وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ
خُلِقُوا لِعِبَادَتِهِ- أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

وَكَانَ هَذَا الْعِصْيَانُ وَالتَّمَرُّدُ نَتِيجَةً -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- لِمَا أَشْرَبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ
حُبِّ الْعِجْلِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَعَبَدُوهُ تَمَكَّنَ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى شَرِبَتْ
حُبَّهُ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُمْ لَمَّا عَدَلُوا عَنِ الْحَقِّ عَوْقِبُوا بِالْإِغْرَاءِ بِالْكَفْرِ؛
لَأَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا عَلَى حَقٍّ، وَإِذَا عَلَى بَاطِلٍ، فَإِذَا انْتَفَى الْحَقُّ ثَبَتَ الْبَاطِلُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي: بِشَيْءٍ الْأَمْرِ الَّذِي
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَالطُّغْيَانِ وَالْعَتْوِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وَمِنْ
الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَوْ ادَّعَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَلَكِنْ هَذِهِ

الصَّيْغَة - الَّتِي جَاءَتْ فِي آخِرِ الْآيَةِ - مِنْ بَابِ التَّحْدِي لَهُمْ، إِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا إِذَا يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ؟! هَلِ الْإِيمَانُ يَأْمُرُ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ؟! لَا.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - قُبْحُ أَعْمَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَكَرِّرِ.
- ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: قُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ حَيْثُ نَتَقَّ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ، مَعَ أَنَّ الْجَبَلَ مِنَ الرِّوَاسِي؛ فَإِنَّ الْجِبَالَ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى رَوَاسِي ثَابِتَةً فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّهَا يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَيَكُونُ.
- ٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: بَيَانُ بُلُوغِ الْغَايَةِ فِي عُتُوِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.
- ٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ السَّمْعَ يُطْلَقُ عَلَى الِاسْتِجَابَةِ وَالْقَبُولِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أَي: اقْبَلُوا وَاسْتَجِيبُوا، لَكِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.
- ٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: وَجُوبُ الْأَخْذِ بِقُوَّةٍ فِيمَا نَزَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ، وَأَلَّا يُقَابَلَ هَذَا الْوَحْيُ بِالْكَسَلِ وَالضَّعْفِ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعَيْنَ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي

٦- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُبْتَلَى بِحُبِّ الْبَاطِلِ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٧- ومن فَوَائِدِهَا: إثبات الأسباب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فَإِنَّ الْبَاءَ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ.

٨- ومن فَوَائِدِهَا: التَّحْذِيرُ مِنْ رَدِّ الْحَقِّ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُبْتَلَى -إِذَا رَدَّ الْحَقَّ- بِمَحَبَّةِ الْبَاطِلِ حَتَّى يَبْقَى عَلَيْهِ.

وقد حَذَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ هَذَا بِمَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَدَّ الْحَقَّ، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، قَدْ يُبْتَلَى بِأَنْ يُقَلِّبَ اللَّهُ تَعَالَى قَلْبَهُ وَبَصَرَهُ حَتَّى يَكُونَ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ.

٩- ومن فَوَائِدِهَا: تَقْيِيحُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَوْلَاءُ مِنْ مَحَبَّةِ الْعِجْلِ، وَعِصْيَانِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي عِنْدَ الْمُحَاجَّةِ أَنْ يَسْلُكَ الْمُحَاجُّ مَا فِيهِ التَّحَدِّيُّ لِحُصْمِهِ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ قُدْرَتُهُ عَلَى الْمُدَافَعَةِ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الْمُتَّحَدِّيِّ أَعْلَى وَأَقْوَى مِنْ مَقَامِ الْمُتَّحَدَّى، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ -أَعْنِي: تَحَدِّيَ الْحُصْمِ- حَتَّى يَتَبَيَّنَ عَجْزُهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى حَقٍّ، مِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ [الطور: ٣٣-٣٤]، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي فِيهَا تَحَدَّى الْحُصْمَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ عَجْزُهُ وَانْقِطَاعُهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

الخطابُ في قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَهُ اللهُ تعالى أن يقول لهؤلاء المَؤْجُودِينَ في عَهْدِهِ من بني إِسْرَائِيلَ: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، وذلك أَنَّهُمْ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ هُم أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً، ثُمَّ يَخْلُفُهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ تعالى وَأَحِبَّاءُهُ، وَأَنَّهُمْ خُلَاصَةُ اللهِ تعالى مِنَ الْبَشَرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَاوِي الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَشْهَدُ بِبُطْلَانِهَا حَالُهُمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، فَيَقُولُ اللهُ تعالى لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ مَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَمَنَّى الْمَوْتَ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَكَانَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَتَمَنَّى اسْتِعْجَالَ الْعُقُوبَةِ عَلَى نَفْسِهِ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ تُبَيِّنُ أَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ ظَلَمَ، وَأَنَّهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ؛ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوْهِ﴾ أي: لتجدنَّ هؤلاء الموجدِين من بني إِسْرَائِيلَ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ، وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً، يَتَمَنُّونَ أَنْ يَبْقَوْا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَوْ قَلِيلًا؛ لِيَتَمَتَّعُوا بِهَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّاتِ الَّتِي لَا تَنفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: ولتجدنَّهم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ حَتَّى مِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني: يُحِبُّ وَيَتَمَنَّى أَنْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَوْ عُمِّرَ لَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحُهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وَسَيُجَازِيهِمُ اللَّهُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

١- تَحْدِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، تَحْدِيهِمْ بِأَمْرِ هُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ شَاءُوا، وَهُوَ تَمَنِّي الْمَوْتِ إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ بِأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُمْ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَوْجُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَمَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَمَنَّا لَكَانَ يَسْتَعْجِلُ الْعَذَابَ لِنَفْسِهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: بَيَانُ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ التَّابِيدَ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسَبِ الْحَالِ وَالْقَرِينَةِ، فَلَا يَكُونُ تَأْيِيدًا مُطْلَقًا أَبَدًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ يَتَمَنُّونَ الْمَوْتَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهؤلاء المكذِّبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل هم من أهل النار، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

٥- ومن فوائدها: بيان أن بني إسرائيل أحرصُ الناس على حياة، وإن كانت حياة زهيدة قليلة؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾.

٦- ومن فوائدها: أن المشركين من أحرص الناس على حياة، ولكن هؤلاء اليهود من بني إسرائيل أشدَّ حرصًا على الحياة من المشركين.

٧- ومن فوائدها: أن طول العمر لا يُغني شيئًا إذا لم يكن الإنسان على حقٍّ وعلى خيرٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْجَحِمِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، ولهذا جاء في الحديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أيُّ الناس خير؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ»، قال: فأَيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^(٢).

٨- ومن فوائدها: أن عمر الإنسان حقيقة ما أمضاه في طاعة الله، وليس عمر الإنسان ما طال؛ فإن الإنسان قد يكون قصير العمر، ولكن يجعل الله في عمره بركة، ينتفع بنفسه، وينفع غيره، كما يوجد من بعض العلماء الذين عمروا قليلاً، ولكنهم خلّفوا خيراً كثيراً للأمة.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩) (٢٣٣٠)، وأحمد (٤/ ١٨٨) (٤٧/ ٥) عن عبد الله بن بسر وأبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٩- ومن فوائدها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ دَعَا لِشَخْصٍ بِطُولِ الْعُمُرِ أَنْ يَتَرَنَّ ذَلِكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فيقول: أَطَالَ اللَّهُ عُمُرَكَ عَلَى طَاعَتِهِ؛ لِأَنَّ طَوْلَ الْعُمُرِ بِدُونِ طَاعَةٍ لَا يُفِيدُ الْإِنْسَانَ شَيْئًا، بَلْ إِذَا كَانَ فِي مَعْصِيَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا شَرًّا.

١٠- ومن فوائدها: إثباتُ عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا قد دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، حَيْثُ دَلَّتْ عَلَى عُمُومِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ، سِوَاءٍ مِنْ أَفْعَالِهِ أَوْ مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ، ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ جُمْلَةً، وَذَكَرَهُ تَفْصِيلًا، فَذَكَرَهُ جُمْلَةً مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَالتَّفْصِيلُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. وَمِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَمِفَاتِيحُ الْغَيْبِ هِيَ الْخُمْسُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَآيَاتُ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ النَّبِيِّ ﷺ فِي عِلْمِ اللَّهِ.

وَالْفَائِدَةُ مِنْ عِلْمِنَا بِذَلِكَ: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُرَاقِبًا لِرَبِّهِ، يَخْشَى رَبَّهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، لَا يَكْتُمُ شَرًّا، وَلَا يَقُولُ شَرًّا، وَلَا يَفْعَلُ شَرًّا، وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]،

فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُوسَّوِسُ بِهِ نَفْسُ الْإِنْسَانِ؛ تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يُضْمِرَ الْإِنْسَانُ فِي قَلْبِهِ مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَسَأَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْبَصِيرَةَ فِي دِينِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا خَشْيَتَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا سِوَاهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ يَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لِكُلِّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ حَيْثُ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَوَّلَ مَنْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ لِجِبْرِيلَ هُمُ الْيَهُودُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْزِلُ بِهَذَا الْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَقْضِيهِمْ، وَيُبَيِّنُ جَبْرُوتَهُمْ وَطُغْيَانَهُمْ، فَكَانَ عَدُوًّا لَهُمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَقُولَ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وَلَا يَضُرُّ جِبْرِيلَ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ عَدُوًّا لَهُ.

وَلِأَنَّمَا خَصَّ اللَّهُ التَّنْزِيلَ عَلَى الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَحَلُّ الْوَعْيِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنُنْزِلَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَاهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَاَلْمَعْنَى: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، هُدًى يَهْدِيهِمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ، وَيُدُلُّهُمْ عَلَيْهِ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ فِيهَا بَيَانٌ أَنَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْمَلَائِكَةِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ.

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّهَا خُصَّصَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلَ مَأْمُورٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَفِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ إِظْهَارٌ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ؛ إِذْ كَانَ مُقْتَضَى السِّيَاقِ أَنْ يَقُولَ: «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ»، وَلَكِنَّهُ أَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ لِبَيَانِ حُكْمِ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَلَأَجْلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَامًّا فِي كُلِّ كَافِرٍ، سَوَاءً أَكَانَ كُفْرُهُ بِسَبَبِ عِدَاوَتِهِ لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ، أَمْ بِسَبَبٍ آخَرَ.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ يُؤَكِّدُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَهِيَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي بَيَّنَّ اللَّهُ فِيهِ كُلَّ مَا تَحْتَاجُهُ الْأُمَّةُ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَمَا يَكْفُرُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

فَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

١- من فَوَائِدِهَا: إثباتُ أَنَّ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نزلَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا: بيانُ فَضِيلَةِ جبريلَ؛ حيثُ كانَ مُوَكَّلًا بِتَنْزِيلِ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

٣- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَحَلُّ الْوَعْيِ وَالْحِفْظِ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا أَيضًا: أَنَّ نُزُولَ جبريلَ بِالْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كانَ بِإِذْنِ اللَّهِ الشَّرْعِيِّ وَالْقَدَرِيِّ، وَقَدْ قَسَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ إِذْنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى قِسْمَيْنِ: إِذْنِ كَوْنِيٍّ، وَإِذْنِ شَرْعِيٍّ، فَمَا تَعَلَّقَ بِالْمَخْلُوقَاتِ فَهُوَ مِنَ الْإِذْنِ الْكَوْنِيٍّ، وَمَا تَعَلَّقَ بِالْوَحْيِ فَهُوَ مِنَ الْإِذْنِ الشَّرْعِيِّ.

ومِثَالُ الْإِذْنِ الشَّرْعِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

ومِثَالُ الْإِذْنِ الْكَوْنِيِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أَي: بِإِذْنِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: بيانُ أَنَّ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وإن كانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ- لَهُ أَعْدَاءٌ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنْ أَوَّلِهِمُ: الْيَهُودُ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَهْتَدِي بِهِ وَيَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، وَلَا يَكُونُ

بُشِّرَى إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَلَا يَكُونُ الْقُرْآنُ
بُشِّرَى لَهُ.

ومن الفوائد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾:

١- أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ، أَوْ لِمَلَائِكَتِهِ، أَوْ لِرُسُلِهِ، أَوْ لَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَإِنَّهُ
كَافِرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٢- ومن فوائدها: أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ هُوَ عَدُوٌّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ويشهد لهذا قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا
جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١].

٣- ومن فوائدها: أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَدُوًّا لِلْمُؤْمِنِينَ؛
لأنَّ مَنْ أَحَبَّ أَحَدًا كَانَ وَلِيًّا لِمَنْ وَالَاهُ، وَعَدُوًّا لِمَنْ عَادَاهُ.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩)

هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام، و(قد)، والقسم المقدَّر، يؤكد الله
عَزَّوَجَلَّ فيها أَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

من فوائد هذه الآية:

١- من فوائدها: تأكيد أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

٢- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، لَيْسَ فِيهَا غُمُوضٌ وَلَا إِشْكَالٌ.

٣- ومن فَوَائِدِهَا: الرَّدُّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُشْتَبِهَاتٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا النَّاسُ، فَإِنَّ جَمِيعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعْلُومَةٌ الْمَعْنَى، وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مَجْهُولٌ الْمَعْنَى لَجَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَلَوْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مَجْهُولٌ الْمَعْنَى لَجَمِيعِ الْأُمَّةِ لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ بَيِّنًا، بَلْ كَانَ بَعْضُهُ بَيِّنًا، وَبَعْضُهُ غَيْرَ بَيِّنٍ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا الْفَاسِقُ الْخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَطْوَعَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَقْوَمَ بِطَاعَتِهِ كَانَ ظُهُورَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ فِي الْقُرْآنِ أَبْيَنَ عِنْدَهُ وَأَوْضَحَ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ إِذَا رُتِّبَ عَلَى وَصْفٍ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ بِثَبُوتِهِ، وَيَنْتَفِي بِانْتِفَائِهِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ يُجِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَنِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ نَسْتَبِينَ مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ؛ حَتَّى نَنْتَفِعَ بِهِ، وَحَتَّى يَكُونَ لَنَا مِنْهُجًا نَسِيرُ عَلَيْهِ فِي اعْتِقَادَاتِنَا، وَفِي عِبَادَاتِنَا، وَفِي مُعَامَلَاتِنَا؛ فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الشُّفَاءَ بِهِ، وَأَنْ يُغْنِيَنَا بِهِ عَمَّا سِوَاهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿أَوْكُلْمَا عَهْدُوَا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوَبَّخًا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بِنَبْذِ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ: ﴿أَوْكُلْمَا عَهْدُوَا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ هَذَا النَّبْذَ لِلْعَهْدِ؛ لَكُونَ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أَحْكَامُ وَفَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- توبيخ مَنْ عَاهَدَ عَهْدًا، فَنَبَذَهُ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ الْخَطَأُ مِنْ بَعْضِ قَوْمٍ فَإِنَّهُ لَا يُنْسَبُ الْخَطَأُ إِلَى الْجَمِيعِ، بَلِ الْعَدْلُ أَنْ يُشَارَ إِلَى أَنَّ هَذَا الَّذِي حَصَلَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ؛ لِثَلَا يَلْحَقَ الْعَارُ جَمِيعَ الْقَوْمِ، مَعَ بَرَاءَةِ بَعْضِهِمْ مِنْهُ.

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ نَقْضَ الْعَهْدِ عَلَامَةٌ عَلَى نَقْصِ الْإِيمَانِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ الْغَدْرَ بِالْعَهْدِ^(١).



(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١٠)

وهذه الآية كسابقَتِها، فيها التَّوْبِخُ لهؤلاء القوم الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ، ولكنَّ فريقًا منهم نَبَذَهُ، وكَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ به، فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وذلك من وجهين:

الأوَّل: أَنَّ الْقُرْآنَ شَهِدَ بِصِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والثَّانِي: أَنَّهُ صَدَّقَ مَا أَخْبَرَا بِهِ عَنْ هَذَا الرَّسُولِ الَّذِي بُشِّرَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، كما قال عيسى ابن مريم: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ -أعني: آية البقرة- أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا الرَّسُولُ الْمُصَدِّقُ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، ولم يَقُلْ: «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ»، بل قال: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ زِيَادَةً فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ؛ حَيْثُ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَعَرَفُوا الْحَقَّ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوهُ، وَالَّذِي نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، كَالنَّجَاشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَالنَّجَاشِيُّ كَانَ مِنَ النَّصَارَى، فَلَمَّا بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ آمَنَ بِهِ، وَعَبَدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ، فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَى إِلَيْهِ، وَآمَنَ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ جَهَالًا بِهِ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِهِ.

أَحْكَامُ وَفَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - صِدْقُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.
 ٢ - ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى الْأُمِّيِّينَ، وَهُمْ الْعَرَبُ، بَلْ وَإِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَايَتُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

٣ - ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مُصَدِّقًا لِّمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ السَّابِقَةُ، أَي: مُقَرَّرًا بِأَنَّهَا صِدْقٌ، وَشَاهِدًا بِصِدْقِهَا، حَيْثُ أَخْبَرَتْ بِهِ، فَجَاءَ طَبَقًا لِّمَا أَخْبَرَتْ بِهِ.

٤ - ومن فوائدها وأحكامها: قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، فَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٧٧).

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وراءَ ظُهُورِهِمْ من بني إِسْرَائِيلَ نَبَذُوهُ عَنْ عِلْمٍ؛ لَأَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَعَرَفُوا الْحَقَّ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَهَذَا أَشَدُّ لَوْمًا وَتَوْبِيخًا وَجَرِيمَةً مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ، وَلَمْ يُؤْتَ مِنَ الْكِتَابِ شَيْئًا.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ نَبَذَ هَؤُلَاءِ الْفَرِيقِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ نَبَذَ لَا يُرْجَى مَعَهُ إِقْبَالٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وراءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وَالَّذِي يَنْبَذُ كِتَابَ اللَّهِ وراءَ ظَهْرِهِ فِي الدُّنْيَا يُؤْتَى كِتَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ من وراءَ ظَهْرِهِ؛ جَزَاءً وَفَاقًا.

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ نَبَذَ عَنْ عِلْمٍ أَشَدُّ قُبْحًا وَلَوْمًا مِمَّنْ نَبَذَ عَنْ جَهْلٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّحْذِيرُ من ردِّ الْحَقِّ بعدَ الْعِلْمِ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَأَقُ هذه الْآيَةَ على وَجْهِ اللَّوْمِ وَالتَّوْبِيخِ لهؤلاءِ الَّذِينَ نَبَذُوا الْحَقَّ بعدَ أَنْ عَرَفُوهُ.

٩- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ نَبَذَ الْحَقَّ بعدَ الْعِلْمِ بِهِ ففِيهِ شَبَهٌ من بني إِسْرَائِيلَ من الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ رَدُّوا الْحَقَّ بعدَ أَنْ عَلِمُوا بِهِ، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِمَّنْ رَأَى الْحَقَّ حَقًّا وَاتَّبَعَهُ، وَرَأَى الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَاجْتَنَبَهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ ۚ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢)

في هذه الآية يبيِّن الله تعالى أنَّ قومًا من بني إسرائيل اتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّيَاطِينُ على مُلْكٍ سُلَيْمَانَ، وكانت الشَّيَاطِينُ تَتْلُو ما تَتْلُوهُ من أنواع السَّحَر، بل ومن أنواع الكُفْر أيضًا، فتُمْلِيهِ على النَّاسِ بما تُلقِيهِ في قُلُوبِهِم من ذلك.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾؛ لأنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد آتاه الله مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ، وسَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينُ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ. وسُلَيْمَانُ هو ابنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهو من أَفْضَلِ أَنْبِيَاءِ بني إِسْرَائِيلَ، وهو من بَعْدِ مُوسَى بِأَزْمَنَةٍ طَوِيلَةٍ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ يعني: أنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُعَلِّمِ الشَّيَاطِينُ ما تَتْلُوهُ من السَّحَر، فيكونَ بذلك كافرًا، بل هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبيُّ رَسُولٍ مَعْصُومٍ من الكُفْرِ، وأسبابِ الكُفْرِ، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، ومن كُفَرِهِمْ: أنَّهم يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ، والسَّحْرُ بالشَّعْوَذَةِ، ودُعَاءِ الشَّيَاطِينِ،

والاستعانة بهم على إيذاء الخلق نوعٌ من الكُفر، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ﴾ يعني: أنهم يتبعون أيضًا ما أُنْزِلَ على الملكين ببابل ممَّا علَّمهما النَّاسُ، وبَابِلُ اسمُ مَكَانٍ، والمَلَكَانِ أحدهما: هَارُوتُ، والثَّانِي: مَارُوتُ، وهما مَلَكَانِ مِنَ المَلَائِكَةِ، أُنْزِلَ لهما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى الْأَرْضِ؛ مِنْ أَجْلِ اخْتِبَارِ النَّاسِ، يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّهُمَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْهُمَا عَلَى بَصِيرَةٍ وَعَلَى عِلْمٍ، يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ مِنَ السِّحْرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالْعَطْفِ وَالصَّرْفِ، وَهُوَ نَوْعٌ خَبِيثٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، وَمِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ السِّحْرِ ضَرَرًا؛ حَيْثُ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الصَّلَاةَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ مِنْ أَقْوَى الصَّلَاتِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فَهَذَا الْمَلَكَانِ يُعَلِّمَانِ النَّاسَ، وَيَقُولَانِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وَلَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ يُصَمِّمُ عَلَى أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَهَذَا مِنْ اخْتِبَارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِعِبَادِهِ، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أَي: أَنَّ مَا يَحْصُلُ مِنَ الضَّرَرِ بِالسِّحْرِ صَادِرٌ عَنْ إِذْنِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَمْ يُؤْثِرِ السِّحْرَ شَيْئًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ يعني: يَتَعَلَّمُونَ مِنَ السِّحْرِ مَا هُوَ ضَرَرٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ انْتَفَعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^١ يعني: عَلِمَ هؤلاء الَّذِينَ أَصْرُوا عَلَى تَعْلُمِ السَّحَرِ أَنَّ مَنْ اشْتَرَاهُ -أي: تَعَلَّمَهُ- ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ يعني: ليس له في الآخرة نصيب، وذلك لأنه أتى الكفر، والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إِنَّمَا يُمْتَعُ فِي الدُّنْيَا كَمَا تُمْتَعُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٢، في هذا قَدْخٌ لِهَذَا الْعِلْمِ الَّذِي تَعَلَّمُوهُ، وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِالذَّمِّ وَالتَّقْيِيحِ، ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لبس ما باعوا به أَنْفُسَهُمْ، وهو هذا السَّحَرُ الَّذِي تَعَلَّمُوهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كَانُوا مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ لَعَرَفُوا قُبْحَهُ، وَابْتَعَدُوا عَنْهُ، وَلَمْ يُجَاوِلُوا تَعَلَّمَهُ، هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ إِجْمَالًا، أَمَّا مَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ فَكَثِيرٌ.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَخَّرَ الشَّيَاطِينَ لِسُلَيْمَانَ، وَامْتَحَنَ النَّاسَ بِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكْفُرْ بِكُفْرِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا السَّحَرَ، وَصَارُوا يَتْلُونَهُ وَيُلْقُونَهُ عَلَى النَّاسِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ.

٣- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْعَمَلَ بِالسَّحْرِ كُفْرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

٤- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ تَعْلِيمَ النَّاسِ السَّحَرَ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾، وَالسَّحْرُ نَوْعَانِ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: سِحْرُ الشَّيَاطِينِ الَّذِي يَكُونُ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ، وَالتَّعَوُّذُ بِهِمْ، وَالْتِمَاجُ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا كُفْرٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

وَالثَّانِي: سِحْرٌ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَوْرَاقِ وَالْأَشْجَارِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَلاَقَةَ لِلشَّيَاطِينِ بِهِ، فَهَذَا لَا يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ، لَكِنَّهُ مُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا شَدِيدًا؛ لِمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْأَذِيَّةِ وَالضَّرَرِ عَلَى الْغَيْرِ.

وَإِذَا ثَبَتَ السَّحْرُ عَلَى شَخْصٍ فَإِنْ كَانَ مِنَ النَّوعِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ كُفْرًا وَرِدَّةً، وَإِنْ كَانَ مِنَ النَّوعِ الثَّانِي فَإِنَّهُ يُقْتَلُ حَدًّا؛ لِاتِّقَاءِ شَرِّهِ وَأَذِيَّتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ الْحَقَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ وَأَمَرَ بِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي نَفْسِهِ بَاطِلًا، فَهَذَانِ الْمَلَكَانِ نَزَلَا إِلَى الْأَرْضِ؛ لِيُعَلِّمَا النَّاسَ السَّحَرَ، وَتَعْلِيمُ السَّحْرِ كَمَا سَبَقَ كُفْرٌ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَبَاحَ لَهُذَيْنِ الْمَلَكَيْنِ أَنْ يُعَلِّمَا النَّاسَ؛ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْامْتِحَانِ الَّذِي حَصَلَ بِتَعْلِيمِهِمَا، وَالشَّيْءُ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ طَاعَةً، وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا مِنْ نَوْعِهِ، وَأَضْرَبَ لَهُذَيْنِ مَثَلَيْنِ:

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ وَشِرْكٌ، وَإِذَا سَجَدَ الْإِنْسَانُ لِغَيْرِ اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ كَانَ عِبَادَةً، أَلَمْ تَرَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فَهَذَا نَجْدُ السُّجُودِ لِغَيْرِ اللَّهِ كَانَ طَاعَةً وَعِبَادَةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ،

ويكون شركاً في الحال التي لم يأمر الله به فيها.

والمثل الثاني: قتل النفس، فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب القاتل، ومع ذلك كان طاعةً يُمدح عليه، وذلك كما في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل؛ فإن إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فَقَصَّ الرُّؤْيَا عَلَى ابْنِهِ، فَقَالَ: ﴿يَتَابَتِ أَعْمَلُ مَا تُوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فَأَسْلَمَهَا أَمْرُهُمَا لِلَّهِ، وَاسْتَسْلَمَا لِقَضَاءِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، فَلَمَّا تَلَّ ابْنُهُ لِلجَّيْنِ لِيَذْبَحَهُ جَاءَ الْفَرْجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمَا ۖ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦]، فامْتَحَنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَمْرِهِ بِقَتْلِ ابْنِهِ حَتَّى أَسْلَمَ لِلَّهِ وَانْقَادَ، فَصَارَ ذَبْحُ ابْنِهِ طَاعَةً لِلَّهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ تَدَارَكَهُ بِلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَكَتَبَ لَهُ أَجَرَ الْمُتَمَثِّلِ، وَقَالَ لَهُ: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فَالْمَلَكَانِ اللَّذَانِ نَزَلَا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السَّحْرَ نَزَلَا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَيِإِذْنِ اللَّهِ، فَكَانَ تَعْلِيمُهُمَا لِلسَّحْرِ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّهُ بَاعْتَبَارَ الْمُعَلِّمِ كُفْرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

٦- ومن فوائدها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُسِّرُ لِلْإِنْسَانِ أَسْبَابَ الْمَعْصِيَةِ؛ لِيَبْلُوَهُ: هَلْ يَعِصِي اللَّهَ، أَوْ لَا يَعِصِيهِ؟ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يُسِّرُ لِلنَّاسِ تَعْلُمَ السَّحْرِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَبِمَا بَدَّلَاهُ مِنْ أَنْفُسِهِمَا لِتَعْلِيمِ النَّاسِ.

٧- ومن فوائدها: أَنَّهُ يُجِبُّ أَنْ يُبَيِّنَ الْأَمْرُ لَطَالِبِهِ عَلَى وَجهِ صَرِيحٍ لَا لِبَسٍ فِيهِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ النُّصْحِ وَالْبَيَانِ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فَيُبَيِّنَانِ حَالَهُمَا أَنَّهُمَا نَزَلَا فَتْنَةً، وَيُبَيِّنَانِ حَالَ الْمُتَعَلِّمِ مِنْهُمَا بِأَن تَعَلَّمَهُ كُفْرًا.

٨- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ السَّحَرِ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالْعُطْفِ وَالصَّرْفِ؛ فَإِنَّ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحَرِ مَا إِذَا سُحِرَ بِهِ الْإِنْسَانُ انْعَطَفَ عَلَى غَيْرِهِ انْعِطَافًا بَالِغًا شَدِيدًا لَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِنَفْسِهِ مَعَهُ، حَتَّى يَكُونَ وَرَاءَ هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي عُطِفَ عَلَيْهِ كَمَا تَكُونُ الشَّاةُ وَرَاءَ الرَّاعِي الَّذِي يَدْعُوهَا.

وَمِنَ السَّحَرِ مَا يَكُونُ بِالْعَكْسِ، يُوَضَّعُ لِلشَّخْصِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبِيبِهِ، مِثْلُ: أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، فَيُصْبِحُ يَرَى زَوْجَتَهُ وَكَأَنَّهَا مِنْ أَعْدَى أَعْدَائِهِ، أَوْ بِالْعَكْسِ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ السَّحَرِ إِيْذَاءً وَضَرًّا.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ مَا يَقَعُ مِنْ تَأْثِيرِ السَّحَرِ إِنَّمَا يَقَعُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِرَادَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١٠- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّهُ مَتَى لَجَأَ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ، وَاسْتَعَاذَ بِهِ، وَاسْتَعَاثَ مِنْ الْأَمْرِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ قَدْ نَزَلَ بِهِ الشَّرُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١١- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَسْحُورِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَسْأَلَهُ رَفَعَ مَا نَزَلَ بِهِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَضَرُورَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وَقَدْ يَكُونُ لُجُوءُ الْإِنْسَانِ إِلَى اللَّهِ فِي الْحَالِ الَّتِي

يُصَابُ فِيهَا بِالسَّحْرِ، وَشِدَّةُ تَضَرُّعِهِ إِلَيْهِ، مِنْ أَقْوَى الْأَدْوِيَةِ تَأْثِيرًا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَقْوَى الْأَدْوِيَةِ تَأْثِيرًا، وَلِهَذَا لَمَّا سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِسِحْرِ عَظِيمٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ سُورَتِي الْمَعْوَذَتَيْنِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فَرَقَاهُ بِهِمَا الْمَلَكُ، فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ^(١).

١٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ السَّحَرَ ضَرَرٌ عَلَى السَّاحِرِ، كَمَا هُوَ ضَرَرٌ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ ظَنَّ السَّاحِرُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ يَكْسِبُ مِنْ وَرَائِهِ، فَإِنَّ هَذَا الْكَسْبَ الَّذِي حَصَلَ لَهُ كَسْبٌ خَبِيثٌ لَا يَزِيدُهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

١٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ السَّاحَرَ كَافِرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أَي: مَا لَهُ مِنْ نَصِيبٍ، وَلَا أَحَدٌ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مُطْلَقًا إِلَّا الْكَافِرُ، فَإِنَّ الْكَافَرَ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.

١٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَقْبِيحُ مَا حَصَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحَرَ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ وَخَسِرُوهَا؛ مِنْ أَجْلِ تَعَلُّمِ هَذَا السَّحْرِ الْقَبِيحِ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٦ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اخْتَارُوا تَعَلُّمَ السَّحْرِ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ بِهِ كَانُوا مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ، سِوَاءِ عِلِمُوا ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوهُ، مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ:

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦/٢٤٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (١٤/٥٢٧).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ يدلُّ على أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاحِرَ لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ، فَيَكُونُونَ قَدْ خَالَفُوا وَعَصَوْا عَلَى بَصِيرَةٍ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣)

في هذه الآية يَعْْرِضُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَعَلُّمِ السَّحَرِ، يَعْْرِضُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْمَثُوبَةَ الَّتِي عِنْدَ اللَّهِ لَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ خَيْرٌ مِّمَّا يُحْصِلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَرَاءِ السَّحَرِ لَوْ كَانُوا مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - سَعَةُ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِحْسَانِهِ، وَكَرَمِهِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَتَوْا وَبَغَوْا عَلَى الْخَلْقِ بِمَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ السَّحَرِ، وَيَضُرُّونَ بِهِ النَّاسَ، يَعْْرِضُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّقُوا؛ حَتَّى تَكُونَ لَهُمُ الْمَثُوبَةُ، وَهَذَا أُنْمُوذَجٌ مِنْ نَمَازِجِ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَفَضْلِهِ، وَإِحْسَانِهِ.

وَمِنْ نَمَازِجِهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلِيَائِهِ، وَأَحْرَقُوهُمْ فِي النَّارِ، يَعْْرِضُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، فَلَوْ تَابُوا لَنَجَّوْا مِنْ

عذاب النَّارِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا السَّحَرَ وَأَضَرُّوا النَّاسَ بِهِ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَحَا اللَّهُ عَنْهُمْ الْآثَارَ السَّيِّئَةَ بِهَذَا السَّحَرِ، وَأَثَابَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ.

٢- ومن فوائدها: أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِمَّا يَحْصُلُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَكَايِبِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ بِالْأَثَرِ وَالنَّظَرِ، أَمَّا الْأَثَرُ فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي غَيْرِ آيَةٍ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الْآيَةَ [القصص: ٦٠]، يَعْنِي: لِمَنْ اتَّقَى، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١)، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا السَّحَرَ -مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَنْ اشْتَرَاهُ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ- مِنْ ذَوِي الْجَهَالَةِ، وَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: الْحَثُّ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَهُوَ كَالْجَاهِلِ، بَلْ أَشَدُّ قُبْحًا مِنَ الْجَاهِلِ؛ لِأَنَّ الْجَاهِلَ قَدْ يُعْذَرُ، وَقَدْ يَسْتَقِيمُ إِذَا عَلِمَ الْحَقَّ، بِخِلَافِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُعْذَرٍ، وَرَجَاءُ رُجُوعِهِ إِلَى الْحَقِّ بَعِيدٌ.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

يُخَاطَبُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِصِفَةِ الْإِيْمَانِ؛ لِيُنْهَاهُمْ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾، يُرِيدُونَهَا مِنَ الرَّعُونَةِ، لَا مِنَ الرَّعَايَةِ، فَيَقُولُونَ: «راعنا» يعني: أَنَّكَ ذَلِيلٌ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ: مِنَ الرَّعَايَةِ، فَهِيَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَلَكِنَّهُ أَرَشَدَهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا، وَهِيَ بِمَعْنَاهَا، قَالَ: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ يعني: اسْمَعُوا مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَلَا تُخَالِفُوهُ؛ فَإِنَّ مُخَالَفَتَهُ مِنَ الْكُفْرِ، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: مُؤْلِمٌ؛ لِأَنَّهُ شَدِيدٌ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كَمَا بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى شِدَّةَ عَذَابِ النَّارِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنَ السَّنَةِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يُخَاطَبُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِوَصْفِ الْإِيْمَانِ، وَيُنَادِيهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ مِنْ خِصَالِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَمْتَثِلَ؛ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَالْمُؤْمِنُ يَهْدِيهِ إِيْمَانُهُ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ عَزَّجَلَّ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يُنْبَغِي أَنْ يُنَادَى الْإِنْسَانُ بِأَحَبِّ الْأَوْصَافِ إِلَيْهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَحَبَّ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ أَنْ يُنَادَى بِإِيْمَانِهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مُخَالَفَةَ مَا ذُكِرَ نَقْصٌ فِي الْإِيْمَانِ، وَأَنَّ مُوَافَقَتَهُ

من مُقْتَضَى الإِيْمَان، ولهذا وَجَّهَ الْخُطَابُ إِلَى الْمُخَاطَبِ بِوَصْفِ الإِيْمَانِ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَحْرِيمُ الْخُطَابِ بِالْكَلِمَاتِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ
بِالنِّسْبَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولهذا قَالَ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا: النَّهْيُ عَنْ مُشَابَهَةِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا الْخُطَابَ «رَاعِنًا»
مَّا يُدْنِدُنْ بِهِ الْيَهُودُ إِذَا خَاطَبُوا النَّبِيَّ ﷺ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ بَابٌ مَمْنُوعٌ مَسْدُودٌ أَمَامَ النَّاسِ فَإِنَّ
الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ يُذَكَّرَ لَهُمْ مَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ عَنْهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُبَاحَةِ، ولهذا قَالَ:
﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾، فَهُوَ لَمْ يَنْهَهُمْ وَيَجْعَلْهُمْ عَائِمِينَ لَا يَذَرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ أَرْشَدَهُمْ
إِلَى الْقَوْلَةِ الْمُبَاحَةِ النَّافِعَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْظَرْنَا﴾، فَإِذَا نَهَيْتِ النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ فَافْتَحْ لَهُمْ بَابًا يُغْنِي عَنْهُ؛ حَتَّى يَسْهَلُ تَرْكُهُمْ لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَفَعَلَهُمْ هَذَا الَّذِي
أَرْشَدُوا إِلَيْهِ.

ونظير ذلك: مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى إِلَيْهِ بِتَمْرٍ جَيِّدٍ، فَقَالَ:
«مَا هَذَا؟» قَالُوا: كُنَّا نَأْخُذُ الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ، أَي: نَأْخُذُ الصَّاعَ
مِنْ هَذَا الطَّيِّبِ بِالصَّاعَيْنِ مِنَ الرَّدِيِّ، أَوِ الصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ، فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ
هَذَا عَيْنُ الرَّبَا، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَبِيعُوا التَّمْرَ الرَّدِيَّ بِالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ يَشْتَرُوا بِالدَّرَاهِمِ
تَمْرًا جَيِّدًا^(١)، وَمَعَهُمْ مِنْ أَخْذِ الصَّاعِ بِالصَّاعَيْنِ أَوِ الصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّهُ رِبَا؛ فَإِنَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوَكَالَةِ، بَابُ إِذَا بَاعَ الْوَكِيلُ شَيْئًا فَاسَدًا فَبِيعَهُ مَرْدُودًا، رَقْمُ (٢٣١٢)،
وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاقَاةِ، بَابُ بَيْعِ الطَّعَامِ مِثْلًا بِمِثْلٍ، رَقْمُ (١٥٩٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
كَمَا تَقْدِمُ تَخْرِيجُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص: ٢٢٤).

بَيْعَ التَّمْرِ بِالتَّمْرِ يَجِبُ فِيهِ التَّسَاوِي فِي الْكَيْلِ، وَالتَّقَابُضُ فِي مَجْلِسِ الْعَقْدِ، وَلَمَّا أَخَذُوا الصَّاعَ بِالصَّاعِينَ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِالتَّفَاضُلِ، فَأَرْشَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ هَذَا مَمْنُوعٌ، أَرْشَدَهُمُ إِلَى الْبَيْعِ الْمُبَاحِ، بِأَنْ يَبِيعُوا التَّمْرَ الرَّدِيءَ بِالدَّرَاهِمِ، وَيَشْتَرُوا بِالدَّرَاهِمِ تَمْرًا جَيِّدًا، وَهَذَا نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وَهَذَا مَمْنُوعٌ، ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ وَهَذَا بَدَلٌ عَنْهُ.

٧- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: وَجُوبُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾.

٨- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: ثُبُوتُ الْجَزَاءِ عَلَى الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ مُحَالَفَةَ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ أَعْقَبَ النَّهْيَ عَنْ قَوْلٍ: «رَاعِنَا»، وَالْإِرْشَادَ إِلَى قَوْلٍ: «أَنْظَرْنَا»، وَالْأَمْرَ بِالسَّمْعِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُخَالَفَةَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿مَا يَوَدُّ﴾ يَعْنِي: مَا يُحِبُّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يَعْنِي: وَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،

لَا يَوَدُّونَ أَنْ يُنْزَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُمَّتِهِ مِنْ خَيْرٍ؛ لَأَنَّهُمْ حَسَدَهُ، وَالْحَاسِدُ لَا يُحِبُّ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ الْخَيْرَ عَلَى غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يُخَصُّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ غَيْرِ الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ نَوَّعَانِ: رَحْمَةٌ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْخَلْقِ حَتَّى الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْغَيْثَ، وَيُخْرِجُ لَهُمُ الزَّرْعَ، وَيُكْثِرُ لَهُمُ الْمَالَ وَالْوَلَدَ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَالرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ رَحْمَةٌ مُتَعَةً فَقَطْ، يَسْتَوِي فِيهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ حَتَّى الْبَهَائِمِ.

أَمَّا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿فَسَاكُنْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: فليس لأحد أن يَخْجُرَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُنْزَلَ فَضْلُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: صَاحِبُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، الْعَظِيمِ كَمِّيَّةً، وَالْعَظِيمِ كَيْفِيَّةً، وَالْعَظِيمِ شُمُولًا فِي الْمَكَانِ، وَشُمُولًا فِي الزَّمَانِ.

فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَقْدَ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِي بَلَغَ بِهِمْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- بَيَانُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ لَا يَوَدُّونَ الْخَيْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا لَيْسَ خَاصًّا بِزَمَنِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ هُوَ عَامٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ الْكُفَّارَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءُ لَنَا، وَأَعْدَاءُ لِرَبَّنَا، وَأَعْدَاءُ لِكِتَابِنَا، وَأَعْدَاءُ لِرَسُولِنَا،

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يُحِبَّ نُزُولَ الْخَيْرِ إِلَيْنَا.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: الحذر من مكر الكفار من اليهود والنصارى والمشرّكين، فلا نَعْتَرَّ بما يَبْذُلُونَهُ لَنَا مِنْ حَلَاوَةِ اللِّسَانِ، وإظهارِ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ بنا؛ لَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ خَيْرٍ عَائِدٍ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَحَمَّلُونَهُ مِنْ كَرَاهَتِهِمْ لِلْخَيْرِ النَّازِلِ إِلَيْنَا، أَوْ لَأَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِنَا الدَّوَائِرِ حَتَّى يَقْضُوا عَلَى مَا لَنَا مِنَ الْخَيْرِ.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ مَنْ كَرِهَ الْخَيْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ عُمُومًا أَوْ لِبَعْضٍ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ فَإِنَّ فِيهِ شَبَهًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: تحريمُ كَرَاهَةِ نُزُولِ الْخَيْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكرَاهَةُ نُزُولِ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ هُوَ الْحَسَدُ، ولهذا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ التَّفْسِيرَ الصَّحِيحَ لِلْحَسَدِ لَيْسَ أَنْ يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَكِنْ التَّفْسِيرُ الصَّحِيحُ هُوَ أَنْ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْخَيْرِ، سِوَاءِ تَمَنَّى زَوَالِهِ أَوْ لَمْ يَتَمَنَّ (١)، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَشَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الْأَقْرَبُ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: بَيَانُ مَا مَنَحَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وَرُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ.

وَالرُّبُوبِيَّةُ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ.

فَالْعَامَّةُ: هِيَ الشَّامِلَةُ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].

والخاصّة: هي الرُّبُوبِيَّةُ المُضَافَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ أو لِلرُّسُلِ، مثل قَوْلِهِ عَنِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، فإن هذه الرُّبُوبِيَّةُ خاصّةٌ.

وقد اجتمع النُّوعَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فَقَوْلُهُ: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه الرُّبُوبِيَّةُ العامّةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ هذه الرُّبُوبِيَّةُ الخاصّةُ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ فَضَلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ قَدْ يَخْتَصُّ بِأَنَاسٍ دُونَ آخَرِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ فَإِنَّهُ صَادِرٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ مِنْهُ عَزَّجَلَّ، وَكَذَلِكَ مَا صَدَرَ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَإِنَّهُ صَادِرٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ مِنْهُ، وَإِذِنْ مِنْهُ بِذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فَكُلُّ شَيْءٍ يَقَعُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ أَوْ أَفْعَالِ الْخَلْقِ فَإِنَّهُ وَقَعَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩].

ولكن هل في هذه الآية وما في معناها من التَّصَوُّصِ حُجَّةٌ لِلْعَاصِي عَلَى مَعْصِيَتِهِ، بَحِثْ يَقُولُ: إِنَّ مَعْصِيَتِي لِلَّهِ لَيْسَتْ بِمَشِيئَتِي، وَلَكِنَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿، وَيَقُولُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وَيَقُولُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعِنَّمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا ﴿البقرة: ٢٥٣﴾؟

وجوابنا عن هذا أن نقول: ليس للعاصي حُجَّةٌ على مَعْصِيته؛ لأنَّ الله تعالى أَمَدَهُ بالعقل، وأَعَدَّهُ لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الرُّسُلَ، وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَى الْخَلْقِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، فَالْعَاصِي لَيْسَ لَهُ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ فِي مَعْصِيته؛ لِأَنَّا ذَكَرْنَا، وَلِهَذَا نَجِدُ الْعَاصِيَ يُخْتَارُ مِنَ الْأُمُورِ مَا شَاءَ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ، يُخْتَارُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى مَكَّةَ، يُخْتَارُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، يُخْتَارُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الْبَلَدِ الْفُلَانِيِّ أَوْ الْفُلَانِيِّ بِإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ هَكَذَا فَلَمْ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى السَّفَرِ وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِ هَذَا؟!

ثُمَّ إِنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يُعْلَمُ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِهِ، فَكَيْفَ يَحْتَجُّ الْعَاصِي بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيته قَبْلَ أَنْ تَقَعَ الْمَعْصِيَةُ؟! لِمَاذَا لَمْ يُقَدَّرْ هَذَا الْعَاصِي أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، فَيَتَّقِيَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؟! وَلِهَذَا أَبْطَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْحُجَّةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]، فَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُمْ لَنْ يَذُوقُوا بَأْسَ اللَّهِ إِلَّا حِينَ يَزِيدُ كُفْرَهُمْ مَعْصِيته، وَتَبْطُلُ حُجَّتُهُمْ بِمَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات أن الله تعالى موصوف بالفضل العظيم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: أنه لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله، بل يجب أن يطلب الفضل من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، والإنسان إذا طلب الفضل من الله فقد طلب الفضل من أهله، وهو عز وجل أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فإذا دعا الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، سهل الله أمره، وآتاه من فضله.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧)

قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ النسخ: بمعنى الرفع والإزالة، أي: ما نزع آية أو حكمها إلا أتينا بخير منها أو مثله، وذلك أن النسخ يكون إلى ما هو خير من المنسوخ، أو إلى ما هو مثله، أو إلى ما هو دونه، فأما النسخ إلى ما هو خير من المنسوخ فلا ريب في أنه خير، وكذلك النسخ إلى مثل المنسوخ لا ريب أنه خير؛ لأنه يكون مماثلاً للمنسوخ من حيث العمل، ولكنه ليس مماثلاً له من حيث النتيجة والثواب والأجر، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وَأَمَّا النَّسْخُ إِلَى مَا هُوَ دُونُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَكُونَ، وَلَنْ يَلِيقَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ إِلَى مَا هُوَ دُونَ الْمَنْسُوخِ يَكُونُ تَدْلِيلًا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، وَهَذَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: نَنْسَخْ لَفْظَهَا أَوْ حُكْمَهَا ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي: نُنْسِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى لَا يَذْكُرَهَا، مَا يَحْصُلُ هَذَا إِلَّا أَتَى اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أي: بِخَيْرٍ مِنْهَا عَمَلًا وَثَوَابًا، أَوْ مِثْلِهَا عَمَلًا وَخَيْرٍ مِنْهَا ثَوَابًا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَمِنْ قُدْرَتِهِ عَزَّوَجَلَّ: أَنْ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ، وَيَنْسَخَ مَا يَشَاءُ وَيُحْكِمَ، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَإِذَا كَانَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ التَّدْبِيرُ الْمُنْطَلِقُ فِي هَذَا الْمُلْكِ، وَلَا أَحَدَ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، لَا تَقْدِيرًا وَلَا تَدْبِيرًا، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، فَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَنْصُرُكُمْ إِذَا اسْتَنْصَرْتُمُوهُ وَقُمْتُمْ بِأَسْبَابِ النَّصْرِ، هَذَا هُوَ مَعْنَى الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

١ - ثُبُوتُ النَّسْخِ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ رَفْعُ الْحُكْمِ، أَوِ اللَّفْظِ، أَوِ اللَّفْظِ وَالْحُكْمِ جَمِيعًا، فَالنَّسْخُ يَكُونُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: نَسْخُ اللَّفْظِ وَبَقَاءُ الْحُكْمِ، وَنَسْخُ الْحُكْمِ وَبَقَاءُ اللَّفْظِ، وَنَسْخُهَا جَمِيعًا.

فَأَمَّا نَسْخُ اللَّفْظِ وَبَقَاءُ الْحُكْمِ فَمَثَلُ لَهُ الْعُلَمَاءُ بِآيَةِ الرَّجْمِ، أي: بِآيَةِ رَجْمِ الزَّانِي إِذَا زَنَى وَهُوَ مُحْصَنٌ، فَإِنَّهُ يُرَجَّمُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، سِوَاهُ أَكَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً، وَاسْتَدْلُوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مِنْبَرٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا، وَوَعَيْنَاهَا -أي: فَهَمْنَاهَا- وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ^(١). فَهَذَا لَا نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا آيَةً تَدُلُّ عَلَى الرَّجْمِ فِي حَقِّ الزَّانِي الْمُحْصَنِ، فَهِيَ مَنْسُوخَةٌ لَفْظًا، بَاقِيَةٌ حُكْمًا.

وَأَمَّا نَسْخُ الْحُكْمِ وَبَقَاءُ اللَّفْظِ فَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَفَّفَ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿[الأنفال: ٦٥-٦٦]﴾، فَالآيَةُ الْأُولَى نُسِخَتْ بِالثَّانِيَةِ، وَبَقِيَتِ الْأُولَى مَثْلُوةً فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَأَمَّا نَسْخُهَا مَعًا -أعني: اللَّفْظَ وَالْحُكْمَ- فَمَثَلُوا لَهُ بِحَدِيثِ عَائِشَةَ الثَّابِتِ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيهَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيهَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ^(٢). وَنَحْنُ لَا نَجِدُ هَذِهِ الْآيَةَ -أعني: أَنَّ عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ-

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت، رقم (٦٨٣٠)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم الشيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم (١٤٥٢).

وَلَا نَجِدُ خَمْسَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمُ مِنْ أَيْضًا، فَيَكُونُ النَّسْخُ بِاعْتِبَارِ عَشْرِ رَضَعَاتٍ نَسْخًا لِلْحُكْمِ وَاللَّفْظِ، وَبِاعْتِبَارِ الْخَمْسِ نَسْخًا لِلْفِظِ دُونَ الْحُكْمِ.

وَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَتُؤْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهْنًا فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَهَا مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَعْلَمُوا بِالنَّسْخِ، فَصَارُوا يَتْلُونَهَا، فَهَذِهِ أَقْسَامُ ثَلَاثَةٍ لِلنَّسْخِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ نَسْخِ اللَّفْظِ، وَبَقَاءِ الْحُكْمِ؟

قُلْنَا: الْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي آيَةِ الرَّجْمِ هِيَ بَيَانُ فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ عَمِلُوا بِالرَّجْمِ بَشْيَاءٍ لَا يَجِدُونَهُ فِي الْقُرْآنِ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا آيَةَ الرَّجْمِ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا، مَعَ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ نَصًّا فِي التَّوْرَةِ.

وَأَمَّا نَسْخُ الْحُكْمِ وَبَقَاءُ اللَّفْظِ فَالْحِكْمَةُ مِنْ بَقَاءِ اللَّفْظِ: أَنْ يَتَعَبَّدَ النَّاسُ بِتِلَاوَتِهِ، وَأَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَذَا النَّسْخِ الَّذِي كَانَ فِيهِ التَّخْفِيفُ.

وَأَمَّا نَسْخُهَا مَعَ فَالْحِكْمَةُ فِيهَا نُسْخَ لَفْظًا وَحُكْمًا: هُوَ أَنَّ هَذَا الَّذِي نُسِخَ لَفْظًا وَحُكْمًا لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَمَلِ بِهِ، وَلَا بِالنِّسْبَةِ لِتِلَاوَتِهِ، فَصَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَنْسَخَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَفْظًا وَحُكْمًا.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُنْشِئُ الرَّسُولَ ﷺ الْآيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، إِذَا شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يَبْقَى حُكْمُهَا فِي عِبَادِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ ٦ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الْأَعْلَى: ٦-٧].

٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ النَّسْخَ إِذَا وَقَعَ فَإِنَّهُ يَكُونُ إِلَى خَيْرٍ مِنَ الْمَنْسُوخِ

أو مثله، والخيرُ قد يَكُونُ بالنَّسخِ من الأَخَفِّ إلى الأَشَدِّ، أو من الأَشَدِّ إلى الأَخَفِّ، أو من مُمَّاثِلٍ لِمُمَّاثِلٍ، وكلُّ ذلك مُطَابِقٌ لِلْحِكْمَةِ.

فالنَّسخُ من الأسْهَلِ إلى الأَصْعَبِ: نَسَخُ الصَّيَامِ؛ حيث كان الصَّيَامُ أَوَّلَ ما فُرِضَ مُحْيِرًا فيه بين الصَّوْمِ والإِطْعَامِ، ثُمَّ بعد ذلك تَعَيَّنَ الصَّيَامُ، فَإِنَّ التَّخْيِيرَ بين شَيْئَيْنِ أَيْسَرُ مِنْ تَعَيِّنِ أَحَدِهِمَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ فَرَضَ الصَّوْمِ مُتَطَوِّرًا هَكَذَا؛ لِيَسْهَلَ عَلَى النَّفْسِ قَبُولُهُ.

والخَيْرِيَّةُ فِي النَّسخِ من الأَخَفِّ إلى الأَشَدِّ: هِيَ اسْتِكْمَالُ الأَجْرِ فِي هَذَا الأَشَدِّ مِنْ وَجْهِهِ، وَبَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَشْرِيعِهِ لِعِبَادِهِ، حيث كان يُدَرِّجُهُم مِنَ الأسْهَلِ إِلَى اسْتِكْمَالِ الشَّرْعِ بالأَشَدِّ.

وَأَمَّا الْعَكْسُ -وهو النَّسخُ من الأَشَدِّ إِلَى الأَخَفِّ- ففيه الخيرُ، وهو التَّيسِيرُ عَلَى الْعِبَادِ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الْإِمْتِثَالُ الْكَامِلُ، مَعَ تَمَامِ الأَجْرِ وَتَيْسِيرِ الْعَمَلِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا ذَكَرْنَاهُ فِي آيَةِ الْمُصَابِرَةِ؛ حيث فَرَضَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى الْمُنْشُوخَةَ أَنْ يُصَابِرَ الْإِنْسَانُ عَشْرَةً، ثُمَّ خَفَّفَ ذَلِكَ، وَأَوْجَبَ أَنْ يُصَابِرَ الْإِنْسَانُ اثْنَيْنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا تَخْفِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ، وَتَيْسِيرٌ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ النَّسخُ لِمُمَّاثِلٍ ففيه خيرٌ أيضًا، وهو بَيَانُ امْتِثَالِ الْمُكَلَّفِ، وَمِنْ ذَلِكَ: نَسَخُ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَإِنَّ هَذَا النَّسخَ بِاعْتِبَارِ عَمَلِ الْمُكَلَّفِ لَا يَخْتَلِفُ؛ لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ لَيْسَ عَنْده فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَوْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، مِنْ حَيْثُ تَكَلَّفُ الْعَمَلُ وَالْمَشَقَّةُ فِيهِ، وَلَكِنْ فِيهِ خَيْرٌ بِاعْتِبَارِ بَيَانِ امْتِثَالِ الْمُكَلَّفِ، وَأَنَّهُ تَابِعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ، إِذَا أَمَرَهُ بِشَيْءٍ فَعَلَهُ، وَإِذَا نَهَاهُ عَنْ شَيْءٍ تَرَكَهُ،

وَيُشِيرُ إِلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعلى هذا يَكُونُ المرادُ بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي: مِثْلُهَا فِي الْعَمَلِ، وليس المعنى: أَوْ مِثْلُهَا فِي الْخَيْرِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى لَكَانَ النَّسْخُ عِبْتًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ.

٤- ومن الفَوَائِدِ: إثباتُ الْقُدْرَةِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ مُتَقَرَّرَةٌ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِفِطْرَتِهِ.

٥- ومن الفَوَائِدِ: عُمُومُ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فَهُوَ قَادِرٌ عَزَّجَلَّ عَلَى الْمَوْجُودِ أَنْ يُعْدمَهُ، وَعَلَى الْمَعْدُومِ أَنْ يُوجِدَهُ.

٦- ومن فَوَائِدِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: تَقْرِيرُ مُلْكِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٧- ومن الفَوَائِدِ: اخْتِصَاصُ مُلْكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ نَادَعُواكَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَالٍ ذَرْفٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكِ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [٢٢] وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْتِيَ لَهُ. [سبأ: ٢٢-٢٣]، فَمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أليس الله تعالى قَدْ أَثَبَتَ لِلإِنْسَانِ مُلْكًا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥-٦]؟!

فالجواب: بلى، أثبت الله للإنسان الملك، ولكنَّ مُلْكَ الإنسان لِمَا يَمْلِكُهُ مُلْكٌ مُّقَيَّدٌ:

■ مُقَيَّدٌ من جهة العموم، حيث لا يملك الإنسان كُلَّ شيءٍ، لا يملك إلا ما كان في حوزته.

■ مُقَيَّدٌ من حيث التصرف والتدبير، فالإنسان لا يملك أن يفعل في ملكه ما شاء؛ لأنه مُقَيَّدٌ بالشرع، فلا يتصرف في ملكه إلا بما تقتضيه الشريعة.

■ مُقَيَّدٌ من جهة الزمن، فملك الإنسان لِمَا يَمْلِكُهُ ليس دائماً، قد يتلف هذا المملوك، وقد يبيعه الإنسان، بخلاف ملك الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه ملكٌ شاملٌ دائماً، فلا منافاة بين ما أثبت الله للعبد من الملك، وبين ما أثبت لنفسه من الملك.

٨- ومن فوائد الآيتين: بيان أنه لا وليَّ لأحدٍ إلا الله عزَّ وجلَّ، ولا نصيرَ لأحدٍ إلا الله عزَّ وجلَّ، وليُعلم أنَّ ولاية الله عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: هي تَوَلَّى أُمُورَ الخلق، وهذه عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ حتَّى للكفار، والخاصَّةُ: هي الولاية التي تتضمَّن العناية والتَّوفيقَ والسَّداد، وهذه خاصَّةٌ بالمؤمنين.

فمن المعنى الأوَّل: قَوْلُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

ومن المعنى الثاني: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

•••••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

الخطابُ في قَوْلِهِ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ لهذه الأمة، لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، والمراد بـ: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: أَتُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ آيَاتٍ تَقْتَرِحُونَهَا، كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً؟! وهذا الاستفهامُ لِلإِنكَارِ عَلَيْهِم، يعني: لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ وَتَقْتَرِحُوهَا، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ مَن قَبْلَكُمْ؛ فَإِنَّ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا حَيْثُ أُتِيَ بِالْآيَاتِ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا صَارَ إِيمَانُهُ تَبَعًا لِهَوَاهُ، لَا تَبَعًا لِهُدَاهُ، ولهذا قَالَ: ﴿وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يَأْخُذِ الْكُفْرَ بَدَلًا عَنْهُ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَخْطَأَ سَوَاءَ السَّبِيلِ، وسواءُ السَّبِيلِ: وَسَطُهُ الْمُسْتَقِيمُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- تَوْبِيخُ الْأُمَّةِ لَوْ سَأَلَتْ كَمَا سَأَلَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: بَيَانُ حَالِ قَوْمِ مُوسَىٰ مِنَ التَّعَنُّتِ، وَالتَّشَدُّدِ،

واقترح الآيات.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات أن موسى عليه الصلاة والسلام رَسُولٌ.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: بيان أن موسى عليه الصلاة والسلام قد أُوذِيَ من قبل، وأنَّ إيذاء الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام من دَيْدَن المَكْذِبِينَ الَّذِينَ شَرَقُوا بِرِسَالَتِهِمْ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن مَنْ أَخَذَ الْكُفْرَ بَدِيلًا عَنِ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُ ضَالٌّ مُخْطِئٌ مِمَّا أَزْدَهَرَتْ لَهُ الدُّنْيَا، ومِمَّا زَانَتْ فِي وَجْهِهِ، فَإِنَّهُ ضَالٌّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن مَنْ تَبَدَّلَ الْإِيمَانَ بِالْكُفْرِ فَقَدْ هُدِيَ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّهُ إِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ بَعْدَ الضَّلَالِ فَلْيُحَمِّدِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ قَدْ أَخْطَؤُوا سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَوَقَعُوا فِي السَّبِيلِ الْمُعَوَّجِ الَّذِي يَتِيهُونَ بِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩)

﴿وَدَّ﴾ يعني: أَحَبَّ، والوُدُّ: خَالِصُ الْمَحَبَّةِ، ففي هذه الآية يُخَبِّرُ اللَّهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَوَدُّونَ أَنْ يَرُدُّوا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُفَّارًا مِنْ بَعْدِ الْإِيمَانِ،

وَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا حَسَدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان هؤلاء اليهود - فيما سبق - يستفتحون على الَّذِينَ كَفَرُوا، ويقولون: سَيِّعَتْ نَبِيٌّ، وسوف نُنْصِرْ به عليكم! فلما جاءهم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، والعياذ بالله؛ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وهذا الحَسَدُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ كان بعد أن تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، وَأَنَّ الْحَقَّ مع ما جاء به النَّبِيُّ ﷺ، وما كان عليه أصحابُهُ.

وفي هذه الحال أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوا وَيَصْفَحُوا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: يَغْفُوا، فلا يُؤَاخِذُوهُمْ بِالذَّنْبِ، وَيَصْفَحُوا، فَيُعْرِضُوا عَمَّا حَصَلَ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾، وهو الأَمْرُ بِقِتَالِهِمْ، وهذا حكم مُغَيِّ بِغَايَةٍ، والحكم المُغَيِّ بِغَايَةٍ يَزُولُ بِزَوَالِ الْغَايَةِ وَانْتِهَائِهَا، فلما جاء الله بِأَمْرِهِ، وَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، صار هذا الحكم -وهو العَفْوُ وَالصَّفْحُ- مُتَبَهِّيًا بِانْتِهَاءِ مُدَّتِهِ وَأَمَدِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.

وَيَبِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي خِتَامِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ.

أَحْكَامُ وَفَوَائِدُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١- بيان ما عليه أهل الكتاب من الحَسَدِ الْعَظِيمِ لهذه الأُمَّة.
- ٢- ومن فَوَائِدِهَا: أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ حَسَدٌ لِلنَّاسِ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ فِيهِ شَبَهًا بِالْيَهُودِ.
- ٣- ومن فَوَائِدِهَا: الْحَذَرُ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ وَمُخَادَعَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا يَوَدُّونَ

أَنْ يَرُدُّونَا كُفَّارًا فَإِنَّهُمْ لَنْ يَأْلُوا جُحْدًا فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مُنْذُ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلِهَذَا نَجِدُ النَّصَارَى يُرْسِلُونَ الْفِرَقَ وَالطَّوَائِفَ الْمُنْصَرَّةَ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَا سِيَّامَا الْبِلَادُ الْفَقِيرَةُ الَّتِي يُسَيِّطِرُونَ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الزَّاوِيَةِ؛ لِيُخْرِجُوا النَّاسَ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ إِلَى الدِّينِ الْمُنْسُوخِ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

٤- ومن فوائدها: أَنَّ هَذَا الْحَسَدَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ نَابِعٌ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَتَعَقُّلٍ.

٥- ومن فوائدها: الْحَذَرُ مِنْ مَحَبَّةِ الْكُفْرِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمَعَاصِي أَنْ تَنْتَشِرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

٦- ومن فوائدها وَأَحْكَامُهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَوَدُّونَ هَذَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوَدُّونَهُ عَنْ عَمْدٍ وَعِنَادٍ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ.

٧- ومن فوائدها وَأَحْكَامُهَا: التَّدَرُّجُ فِي مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ؛ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ نَعْفُو وَنُصْفَحَ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.

٨- ومن فوائدها وَأَحْكَامُهَا: أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي يُحْكُمُ اللَّهُ بِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَحْكَامٌ مُؤَمَّدَةٌ -أَي: إِلَى أَمَدٍ- وَأَحْكَامٌ مُؤَبَّدَةٌ -أَي: إِلَى الْأَبَدِ- فَمِنْ الْأَحْكَامِ الْمُؤَمَّدَةِ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، فَهِنَا قَالَ: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، فَقَدْ أَعْلَنَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ: «الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِئَةٍ وَنَفْيُ

سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدٌ مِثَّةٌ وَالرَّجْمُ^(١).

٩- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَذَّرُ بِجَهْلِهِ إِذَا خَالَفَ الْأَمْرَ أَوِ النَّهْيَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، وهذا الأصل قد دلَّ عليه الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فِي الْقُرْآنِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصاص: ٥٩].

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَمِنْ أَدْلَتِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرِ الْمُسِيئَ فِي صَلَاتِهِ أَنْ يَقْضِيَ مَا فَعَلَهُ جَاهِلًا، وَكَانَ الْمُسِيئُ فِي صَلَاتِهِ لَا يَطْمِئُنُّ فِي رُكُوعٍ، وَلَا سُجُودٍ، وَلَا قِيَامٍ، وَلَا قُعُودٍ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِإِعَادَةِ مَا سَبَقَ مِنَ الصَّلَوَاتِ^(٢)، مَعَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَطْمِئُنُّ، فَالْقَوْلُ الصَّحِيحُ الرَّاجِحُ: أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ حَرْجٌ فِيهَا إِذَا مَاتَ وَهُوَ مُسْلِمٌ، لَكِنْ يَفْعَلُ مَا يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ جَهْلًا، أَوْ يَتْرُكُ مَا يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ جَهْلًا.

١٠- ومن فوائدها وأحكامها: إِثْبَاتُ عُمُومِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَلَا يُسْتَنَى مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ الْعَامَّةِ شَيْءٌ، كُلُّ شَيْءٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم (١٦٩٠) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٥٤).

فالله قادرٌ عليه، قادر على إيجاد المَعْدُوم، وعلى إعدام المَوْجُود، وعلى تَغْيِير الشَّيْء من حالٍ إلى أُخْرَى.

وهنا نذكرُ ما يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ عند الحديث عن قُدْرَةِ الله، حيث يقولُ: «إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ»، فَإِنَّ هَذَا يَقْتَضِي تَقْيِيدَ الْقُدْرَةِ بِمَا يَشَاءُ اللهُ، واللهُ تعالى قادرٌ على ما يَشَاءُ وما لا يَشَاءُ، وتقييدُ الْقُدْرَةِ بِمَا يَشَاءُ تضييقٌ لمعناها العامِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ تعالى بها، فالواجبُ: أن تُجْرَى على عُمومها بدون استثناءٍ، ويُقال: إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ

إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يأمرُ اللهُ تعالى عِبَادَهُ أن يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، بأن يَأْتُوا بها مُسْتَقِيمَةً بِشُرُوطِهَا، وَأَرْكَانِهَا، وَوَجِبَاتِهَا، وَيَتِمُّوا ذلك بِمُكَمَّلَاتِهَا، والصَّلَاةُ تَشْمَلُ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَ، وهي مَعْرُوفَةٌ.

وأن يُؤْتُوا الزَّكَاةَ، أي: يُعْطُوهَا أَهْلِهَا الْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا، والزَّكَاةُ هي الْفَرَضُ فقط؛ لأنَّ ما سِوَى الزَّكَاةِ يُسَمَّى: صدقةً، أو نَفْلًا، أو ما أشبه ذلك.

والزَّكَاةُ: هي المَالُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ تعالى على عِبَادِهِ في أَشْيَاءَ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْأَمْوَالِ، ويُخْرِجُ منها الْإِنْسَانُ قَدْرًا مُعَيَّنًا حَسَبَ ما عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْثُونَةِ، ففي الْحُبُوبِ وَالثَّمَارِ

يَكُونُ فِيهَا سُقَيِّ بِلَا مَوْوَنَةِ الْعُشْرِ كَامِلًا، وَفِيهَا سُقَيِّ بِمَوْوَنَةِ نِصْفِ الْعُشْرِ، حَسَبَ مَا يَنْظُرُ وَلِيُّ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ كُلَّ مَا نُقَدِّمُهُ مِنَ الْخَيْرِ فَإِنَّهَا نُقَدِّمُهُ لِنَفْسِنَا، وَنَجِدُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مُدَّخَرًا، وَلَنْ يَضِيعَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ، بِصِيرٍ بِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِنَا؛ حَثًّا مِنْهُ لَنَا عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَاجْتِنَابِ الْعَمَلِ الْمَحْرَمِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - وَجُوبُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْوَاجِبَةُ فِيهَا هُوَ وَاجِبٌ، كَالشُّرُوطِ وَالْأَرْكَانِ وَالْوَاجِبَاتِ، أَمَّا مَا كَانَ مُسْتَحَبًّا فَإِنَّ الْأَمْرَ بِإِقَامَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِحْبَابِ.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَي: أَعْطَوْهَا مُسْتَحِقَّهَا، وَقَدْ بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ كَيْفَ تَكُونُ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَكَيْفَ يَكُونُ إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ عَلَى وَجْهِ مُبَيَّنٍّ مُفَصَّلٍ، فَمَا تُؤْفِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَقَدْ أَبَانَ لِلأُمَّةِ كُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تُؤْفِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا^(١).

٣- ومن فوائدها وأحكامها: الحثُّ على تقديم الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها أيضًا: أنَّ ما نُقَدِّمه من الخير فلن يضيع، بل سنَجِدُه عند الله عَزَّجَلَّ مُدْخَرًا، أَوْجَ ما نَكُونُ إليه، ولكن يَجِبُ أن نُنْتَبِهَ هنا إلى أنَّ ما نَجِدُه يوم الْقِيَامَةِ من الخير قد يَكُونُ لَعِيرَنَا، كما قال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَيِّتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِصِيرٌ بِكُلِّ ما نَعْمَلُ من خيرٍ وشرٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- ومن فوائدها: تحذيرُ الْعِبَادِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ تحذيرًا من أن نُخَالَفَ أَوْامِرَهُ، وَأَنْ نَقَعَ فِي نَوَاهِيهِ، فَإِنَّا إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ فَلَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِنَا.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ يَقُولُهُ الْيَهُودُ ﴿أَوْ نَصْرَىٰ﴾ يَقُولُهُ النَّصَارَى، يعني: وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة!

لكن الله ردَّ عليهم زعمهم هذا، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: هذه أمانِيَّ وأوهامٌ باطلة لا تستند إلى شيء من الوحي المنزل على الرُّسُل عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهؤلاء القائلين هذه المقولة مُتَحَدِّيًا لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: أعطونا حُجَّتكم التي تُثَبِّتُون بها ما زَعَمْتُمْ من أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون، ومن المعلوم أَنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا حُجَّةً لِمَا قَالُوهُ، ولهذا قال بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ﴿بَلَىٰ﴾ فيها إِبْطَالٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ الَّذِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، حيث يقول: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: جَعَلَهُ مُسْتَسْلِمًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، مُقْبِلًا عَلَيْهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أَعْمَالِهِ، وَالْإِحْسَانُ هُوَ اتِّبَاعُ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشَرَطَ

اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُهُ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ، بِأَنْ يَكُونَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ.

وَالثَّانِي: الْمَتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِأَنْ يَكُونَ قَدْ أَحْسَنَ.

فهذا له أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، أَي: ثَوَابُهُ، وَسَمَّى اللَّهُ الثَّوَابَ أَجْرًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى التَّزَمَ بِهِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا، فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ الْأَجْرِ الَّذِي يَسْتَوْفِيهِ الْمُسْتَأْجِرُ عَلَى الْعَمَلِ، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِهِمْ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِنْ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:

فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ:

١ - بَيَانُ دَعْوَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ إِنَّمَا يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا بَعْدَ الْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ يُقَدَّمَ الْمُنَاطِرُ الْحُكْمَ عَلَى قَوْلِ مُنَاطِرِهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْهُ الْحُجَّةَ عَلَى إِثْبَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ونظيرُ ذلك: أن يقول قائلٌ: هذا واجبٌ لأبدٍ من فعله، فأقول: هذا قولُك، فهاتِ دليلَكَ إن كنت صادقاً! فيثبتُ المناظرُ أولاً أن هذا قولُ المناظر، وأنه ليس له أصل، ثم يتحدّاهُ بطلبِ الدليل.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: قُوَّةُ الْحَاجَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ الَّتِي تَدْخُصُ حُجَّةَ الْخَصْمِ وَتُفْجِمُهُ، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المعلومِ أَنَّهُ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ لَيْسَ مُعَلَّقًا بِالْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ، بَلْ هُوَ مُعَلَّقٌ بِمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا بَعْدُ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: الْإِنْصَافُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَصْمِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: هَذَا بَاطِلٌ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكْمُ عَدْلٍ، فَطَلَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ أَنْ يَأْتُوا بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ الدَّعْوَى إِلَّا بَيِّنَةً، فَمَنْ ادَّعَى حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ الْآخِرَوِيَّةِ أَوْ أَحْكَامِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِهِنَ عَلَى مَا قَالَ، فَإِنْ أَثَبَتَ مَا قَالَ بِالْبُرْهَانِ وَالدَّلِيلِ وَإِلَّا وَجَبَ رَدُّهُ عَلَيْهِ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا حُجَّةَ لَهُمْ إِطْلَاقًا فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَمَا أَكْثَرَ دَعَاوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَبِأَنَّهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ إِنْ عَذَّبُوا بِهَا، وَبِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَكُلُّ هَذِهِ الدَّعَاوَى يُبْطِلُهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَيُبَيِّنُ كَذِبَهَا.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ:

١- أَنَّ الثَّوَابَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: إسلام الوجه لله، وذلك بأن يُخْلِصَ الإنسانَ قَصْدَهُ، فلا يَقْصِدُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَلَكًا مُقَرَّبًا، وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَلَا مُحَابَاةً لِأَحَدٍ، وَلَا تَوْصِيلاً لِسُلْطَانٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِذَلِكَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

الأمر الثاني: أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُقْبَلُ وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ، وَهُوَ مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ، بَحِثْ تَكُونُ الْعِبَادَةُ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَدَلِيلُ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١)، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(٢)، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣)، فَلَا بُدَّ لِقَبُولِ الْعَمَلِ مِنْ شَرْطَيْنِ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم (١٩٠٧/١٥٥) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٦٧).

أَحَدُهُمَا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ.

وَالثَّانِي: الْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ الْمُتَابَعَةَ لَا تَحَقُّقُ إِلَّا إِذَا وَافَقَ الْعَمَلُ الشَّرِيعَةَ فِي أُمُورِ سِتَّةٍ:

الْأَوَّلُ: فِي الْجِنْسِ.

وَالثَّانِي: فِي الصِّفَةِ وَالْكَفِيَّةِ.

وَالثَّالِثُ: فِي الْقَدْرِ.

وَالرَّابِعُ: فِي السَّبَبِ.

وَالْخَامِسُ: فِي الزَّمَانِ.

وَالسَّادِسُ: فِي الْمَكَانِ.

فَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِعِبَادَةٍ عَلَى سَبَبٍ لَمْ يَجْعَلْهُ الشَّارِعُ سَبَبًا لَهَا فَإِنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ، وَمَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِجِنْسٍ غَيْرِ مَا شَرَعَ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ، مِثْلُ: أَنْ يُضَحِّيَ الْإِنْسَانُ بِفَرَسٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ أَضْحِيَّةً، وَلَوْ كَانَ الْفَرَسُ أَعْلَى؛ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ جِنْسٍ مَا أُذِنَ فِيهِ.

وَلَوْ أَنَّهُ خَالَفَ الشَّرْعَ فِي الْقَدْرِ، بَأَنَ صَلَّى الظُّهْرَ خَمْسًا أَوْ ثَلَاثًا، فَإِنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الشَّرْعَ فِي الْقَدْرِ.

وَلَوْ خَالَفَ الشَّرْعَ فِي الزَّمَنِ، بَأَنَ ضَحَّى الْإِنْسَانُ فِي غَيْرِ أَيَّامِ الذَّبْحِ، فَإِنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ، أَوْ حَجَّ فِي رَمَضَانَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فِي غَيْرِ الزَّمَنِ الْمُحَدَّدِ شَرْعًا.

ولو خَالَفَ الشَّرْعَ فِي الْمَكَانِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ الْعِبَادَةُ، مثل: أَنْ يَعْتَكِفَ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ، فَإِنَّ هَذَا الْاِعْتِكَافَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنَهُ الشَّرْعُ لِلْاِعْتِكَافِ.

وكذلك لو خَالَفَتِ الْعِبَادَةُ الشَّرْعَ فِي الْهَيْئَةِ وَالْكِيفِيَّةِ، بِأَنْ صَلَّى صَلَاةً مُنْكَسَةً، يَبْدَأُ بِالسُّجُودِ قَبْلَ الرُّكُوعِ، أَوْ يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا مُنْكَسًا، يَبْدَأُ بِالرَّجْلَيْنِ قَبْلَ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مَبْنِيًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ فَإِنَّ أَجْرَهُ يَثْبُتُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ وُفِّقَ لِلْعَمَلِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ الْخَاصَّةُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ قَامَ بِالْعِبَادَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: الْإِخْلَاصِ، وَالْمُتَابَعَةِ، فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَلَا حُزْنَ عَلَيْهِ فِي مَاضِيهِ؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَصِلُ إِلَى النَّعِيمِ وَالسَّعَادَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

٥- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ -أَي: مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ- فَإِنَّ عَمَلَهُ هَبَاءٌ، لَيْسَ فِيهِ أَجْرٌ، فَلَوْ عَمِلَ الْإِنْسَانُ عِبَادَةً أَشْرَكَ فِيهَا مَعَ اللَّهِ فَهِيَ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ، وَلَوْ عَمِلَ عِبَادَةً لَيْسَتْ مُتَمَشِّيةً مَعَ السُّنَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَإِنَّ عِبَادَتَهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَعَبَّدَ لِلَّهِ بِهَدْيَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ بِهِ الْخَوْفُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْحُزْنُ فِي الْمَاضِي، وَلِهَذَا يَتَمَنَّى الْكُفَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا؛ لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا، فيقولون: ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِتَايِتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الثَّوَابَ وَالْأَجَرَ الَّذِي يَخْضُلُ لِمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ثَوَابٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَهُ لِنَفْسِهِ، فقال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، والثَّوَابُ مِنَ الْعَظِيمِ يَكُونُ عَظِيمًا، وَلَا شَكَّ، فَنَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُشِينَا وَإِيَّاكُمْ ثَوَابًا حَسَنًا، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا خَالِصًا لِلَّهِ، مُوَافِقًا لِشَرِيعَتِهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣)

الْيَهُودُ هُمُ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّصَارَى أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُضِلُّ الْآخَرَ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَوَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، وَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا عَلَى الْحَقِّ حِينَ كَانَتْ مِلَّتُهُمْ قَائِمَةً قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا عَلَى

بَاطِلٌ؛ حَيْثُ كَفَرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَعَ أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وبعد أن بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى دِينٍ مَنْسُوخٍ، وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَكَانُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيَبُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وَصَارَتِ النَّصَارَى كَالْيَهُودِ فِي كَوْنِهِمْ عَلِمُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أَي: قَالَ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، أَي: فِي أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَمَنْ سِوَاهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ، ﴿فَاللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، إِذَا بُعِثَ النَّاسُ فَإِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَنْ هُوَ عَلَى الْحَقِّ، وَمَنْ هُوَ عَلَى الْبَاطِلِ.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ - بَيَانُ عِدَاوَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَأَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تُضَلِّلُ الطَّائِفَةَ الْأُخْرَى، وَلَكِنْ هَذِهِ الْعِدَاوَةُ بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَارَتْ وِلَايَةً، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّيَبُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الَّتِي قَالَتْهَا الْيَهُودُ، وَقَالَتْهَا النَّصَارَى يَقُولُهَا أَيْضًا كُلُّ مَنْ كَانَ جَاهِلًا، أَي: كُلُّ مَنْ كَانَ ذَا جَهَالَةٍ، وَلَيْسَ

عنده علم، فإنه يقول مثل هذا القول الباطل الذي يريد أن يُدحض به الحق.

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إثباتُ الجزاء يومَ الْقِيَامَةِ؛ لقول الله تعالى:
﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ وفي الرُّسُلِ سوف يَقْضِي اللهُ تعالى بينهم يومَ الْقِيَامَةِ، وَبَيِّنَ مَنْ هو على الحقِّ، وَمَنْ هو على الباطلِ، وقد ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورَةِ النَّسَاءِ أَنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إثباتُ يومِ الْقِيَامَةِ، وهو اليومُ الْآخِرُ، فالإيمانُ به أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ؛ لقول النبي ﷺ لِجَبْرِيلَ حِينَ سَأَلَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤)

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني: لا أَحَدَ أَظْلَمُ، فالجُمْلَةُ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ،

فلا أَحَدٌ أَظْلَمُ من شخصٍ أو طائفةٍ تَمْنَعُ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، أَي: تَمْنَعُ النَّاسَ من دُخُولِ مَسَاجِدِ اللَّهِ لِيَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أَي: أَنْ مَنَعَ الْمَسَاجِدَ أَنْ تُدْخَلَ وَيُذَكَرَ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ خَرَابٌ لَهَا؛ فَإِنَّ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا يُقَامُ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

وَيَبِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَعُوهَا، وَكَانَ لَهُمُ السُّلْطَةُ، سَوْفَ تَدُورُ عَلَيْهِمُ الدَّوَائِرُ حَتَّى لَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، أَي: لَا يَدْخُلُونَ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ إِلَّا وَهُمْ فِي خَوْفٍ وَقَلْبٍ وَاضْطِرَابٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آلَتْ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى هَذَا النَّفْيِ: مَا كَانَ لَهُمْ شَرْعًا أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، أَوْ يَحْتَمِلُ: مَا كَانَ لَهُمْ قَدَرًا أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، وَالْمَعْنَيَانِ كِلَاهُمَا صَحِيح.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أَي: عَارٌ وَذُلٌّ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فَيُنَالُونَ -بَعْدَ الْعِزِّ وَالسُّلْطَةِ وَالْغَلْبَةِ- ذُلًّا فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابًا عَظِيمًا فِي الْآخِرَةِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- تَحْرِيمُ مَنَعِ مَسَاجِدِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمَسَاجِدَ إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ مُصَرِّحَةً بِذَلِكَ، فَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ! مَهْ!

قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزِرُّمُوهُ»^(١)، دَعُوهُ، فترَكُوهُ حَتَّى بَال، فَلَمَّا قَضَى بَوْلَهُ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ ذَنْوُبٌ مِنْ مَاءٍ، أَيْ: دَلْوٌ مِنْ مَاءٍ؛ لِتَطْهِيرِ الْأَرْضِ.

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَإِجَارَةٍ وَنَحْوِهَا لَا يَحِلُّ إِيقَاعُهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»^(٣).

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَكُونُ بِذِكْرِ اسْمِهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بِاللِّسَانِ، وَذِكْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَيَكُونُ بِالْجَوَارِحِ.

أَمَّا ذِكْرُ اللَّهِ بِالْقَلْبِ فَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُتَفَكِّرًا مُتَأَمِّلًا فِي آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدَّلَالَةَ عَلَى عَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَمَا يَقْتَضِيهِ رَحْمَتُهُ وَحِكْمَتُهُ.

(١) أي: لا تقطعوه، والإِزْرَام: القِطْع.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الذكر باللسان فهو يتناول كُلَّ قولٍ يُقَرَّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ من قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، والتَّسْبِيحِ، والتَّكْبِيرِ، والتَّحْمِيدِ، والتَّهْلِيلِ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وغير ذلك من كُلِّ قولٍ يُقَرَّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما الذِّكْرُ بالجوارح فيشمل كُلَّ فعلٍ يتقَرَّبُ به الإنسانُ إلى ربِّه، كالوُضوءِ، والغسل، والصَّلاةِ، والصَّومِ، والصَّدقةِ، وغير ذلك من أفعال الجوارح.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ إِنَّمَا هِيَ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وما يُفَعَّلُ فيها من الطَّاعَةِ؛ لقوله: ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

والسَّعْيُ فِي خَرَابِهَا كما يَشْمَلُ مَنَعَ ذِكْرِ اللَّهِ تعالى فيها يَشْمَلُ أيضًا الخرابَ الحِسيَّ، وذلك بهدمِها حتَّى لا يُقامَ الذِّكْرُ في هذه البُقعة؛ لقوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: البُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سُلْطُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْعِهِمْ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ سوف تَكُونُ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِمْ، أي: على هَؤُلَاءِ الْمُتَسَلِّطِينَ الْمَانِعِينَ؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾.

وهذه الْعَاقِبَةُ تُؤَيِّدُهَا آيَاتُ أُخْرَى، مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِمَنْعِهِمْ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ أَنْ يَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ سَتَنَالُهُمْ عُقُوبَتَانِ: عِقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا، وهي الخِزْيُ،

أي: الذُّلُّ والعار، وعقوبةٌ في الآخرة، وهي العَذَابُ الْعَظِيمُ.

٨- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّحْذِيرُ من هذا العمل -أعني: مَنَعَ مَسَاجِدِ
الله أن يُذَكَّرَ فيها اسْمُهُ- بأنَّ الْإِنْسَانَ سوف يُعَاقَبُ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً في الدُّنْيَا، ومَرَّةً في
الْآخِرَةِ، كما ذكر الله تعالى في هؤلاء.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: لَهُ كُلُّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ إمَّا مَشْرِقٌ
وإمَّا مَغْرِبٌ، فَمَغْرِبٌ قَوْمٌ يَكُونُ مَشْرِقَ قَوْمٍ آخَرِينَ، وهكذا، فَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ،
﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ أي: تَتَجَهَّوْا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: فَهَنَّاكَ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّ
اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أي: مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَوَاسِعُ الصِّفَاتِ، وَوَاسِعُ الْهَبَاتِ، وَوَاسِعُ الْفَضْلِ
﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ
شَيْءٍ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا تَوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُحِيطٌ بِهِ، عَالِمٌ بِهِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- عُمُومُ مُلْكِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

٢- بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْعُمُومَ لَا يَتَأْتِي لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾،
فَإِنَّ تَقْدِيمَ الْخَبَرِ يُفِيدُ الْحَضَرَ، كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا تَوَلَّى وَاتَّجَهَ إِلَى شَيْءٍ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ،

واختلف المُفسِّرون في المراد بوجه الله هنا: هل هو وجهُ الله الَّذي هو صِفَةٌ من صِفاته، أو المراد: الجِهة، فإنَّ الوجهَ يأتي بمعنى: الجِهة، فيقال: وَجْهَةٌ، وَوَجْهٌ، وَجِهةٌ، كما يُقال: سافر فلان إلى هذا الوجه، أي: إلى هذه الجِهة؟ على قولين، والآيةُ تَحْتَمِلُها جميعاً.

٤- ومن فَوَائِدِها وأَحْكَامِها: أَنَّ الإنسان إذا صَلَّى إلى جِهةٍ مُجْتَهِدًا مُعْتَقِدًا أَنَّ هذه الجِهةَ هي القِبْلَةُ فإنَّ صَلَاتَهُ تَصَحُّ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِها وأَحْكَامِها: إثباتُ وَجْهِ الله سُبحانَهُ وتعالى، والواجبُ إِجْرَاءُ الآيةِ على ظاهِرِها، وأنَّ يَعْتَقِدَ المرءُ أَنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى وَجْهاً حَقِيقاً يَلِيقُ بِجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، ولا يُماثلُ أَوْجُهَ المخلوقين، وهكذا بَقِيَّةُ صِفاته كاليدَينِ والعَينَينِ، فإنَّ الواجبَ على المؤمنِ إثباتُ ذلك على حَقِيقَتِهِ، لكن بدُون أن يُكَيِّفَهُ، أي: بدُون أن يَتَصَوَّرَ له كَيفِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ؛ لأنَّهُ مَهما بَلَغَ الإنسانُ في التَّخِيلِ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى أَعْظَمُ ممَّا يَتَخَيَّلُهُ، ومن غَيرِ تَمثِيلٍ، فلا يجوزُ أن يَعْتَقِدَ الإنسانُ أو يَتَصَوَّرَ أَنَّ وَجْهَ الله تعالى كأَوْجُهَ المخلوقين؛ لأنَّ اللهَ ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وهو السَّمِيعُ البَصِيرُ.

٦- ومن فَوَائِدِها وأَحْكَامِها: إثباتُ سَعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، أي: سَعَةِ عِلْمِهِ وإِحاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وذلك أَنَّ كُلَّ الأشياءِ بالنِّسْبَةِ إليه تعالى صَغِيرَةٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات العلم لله عزَّ وجلَّ، وعِلْمُه تعالى مُحِيطٌ بكلِّ شيءٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الحذر من مخالفة الله عزَّ وجلَّ بترك أو أمره أو فعل نواهيه؛ لأنه سبحانه وتعالى عالمٌ بذلك، وعِلْمُه بذلك يقتضي الحذر من مخالفتِه، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاصَ له، والمتابعةَ لرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧)

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير يعودُ إلى كُلِّ مَنْ تَفَوَّهَ بِهِذِهِ الْمَقَالَةَ الْكَاذِبَةَ الْمُنْكَرَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، فاليَهُودُ قالوا: عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ، وَالنَّصَارَى قالوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَالْمُشْرِكُونَ قالوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ قَالُوا فِرْيَةً عَظِيمَةً، وَإِنَّمَا مُبِينًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تَنْزِيهَا لَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مَالِكٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَتَّخِذُهُ مَنْ كَانَ مُحْتَاجًا مُفْتَقِرًا، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّ لَهُ الْمُلْكَ الْمُنْتَظَرِ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ خَاضِعٌ لِلَّهِ، ذَلِيلٌ لَهُ، مُنْقَادٌ لِأَمْرِ الْكَوْنِيِّ، وَالْمُؤْمِنُ مُنْقَادٌ لِأَمْرِ الشَّرْعِيِّ أَيْضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾.

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خَالِقُهَا ابْتِدَاءً عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وهو قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَقَدْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَبَدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: قَضَاهُ قَدَرًا وَكَوْنًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تُشْنَى مَرَّةً أُخْرَى يَقُولُهَا جَلَّ وَعَلَا لِلشَّيْءِ مَهْمَا كَانَ، فَيَكُونُ فِي الْحَالِ، فَلَيْسَ بِغَرِيبٍ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بَلَا أَبَ، ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ:

ففي الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١- بيان هذه الفِرْيَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي افْتَرَاهَا الظَّالِمُونَ عَلَى رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ وَلَدًا، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ، وَأَنَّ النَّصَارَى قَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: بيان تَنْزِيهِهِ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، وَمِنْ ذَلِكَ: تَنْزِيهِهُ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: بيان كَمَالِ غِنَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ قَانَتْ لِلَّهِ، وَمِنْهُمْ عَزِيزٌ، وَالْمَسِيحُ، وَالْمَلَائِكَةُ، كُلُّ قَانَتْ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ ذَلِيلٌ لَهُ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

وفي الآية الثانية من الفوائد والأحكام:

١ - بيان أن الله سبحانه وتعالى لا ينبغي أن يتخذ ولدًا؛ لأنه خالق السموات والأرض، فهو مُستغنٍ عن الولد.

٢ - ومن فوائدها وأحكامها: إقامة الدليل على بطلان الشبهة التي احتج بها النصارى على كون المسيح ابن الله، حيث قالوا: إنه خلق بلا أب، فأبوه هو الله، فين الله عز وجل أنه خالق السموات والأرض، وهي أعظم من خلق البشر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وخالق السموات والأرض لا يمتنع عليه أن يخلق البشر.

٣ - ومن فوائدها وأحكامها: بيان كمال قدرة الله عز وجل في قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٤ - ومن فوائدها وأحكامها: أن الأمر مهما كانت عظمتة فإن الله تعالى قادر عليه بكلمة واحدة، وهي (كن)، فيكون كما أراد الله عز وجل، ولهذا لما خلق الله القلم قال له: «اكتب»، قال: رب! وماذا أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة^(١).

٥ - ومن فوائدها وأحكامها: إثبات القول لله، وأن الله يقول، وأن قوله بحروف؛ لقوله: ﴿كُنْ﴾، فإن هذه الكلمة حروف.

(١) أخرجه بمعناه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الرضى بالقضاء، رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٣١٧/٥) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه ردٌّ على مَنْ يقول: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَقَوْلَهُ هو المعنى القائمُ بنفسه، وليس حروفاً أو أصواتاً تُسَمَّعُ، وإِنَّمَا كَلَامُهُ هو المعنى القائمُ بالنفسِ، وما يُسَمَّعُ من ذلك فَإِنَّهُ عبارةٌ عن كلامِ الله، وليس هو كلامِ الله، ولا شكَّ أَنَّ هذا القولَ خطأً عظيمٌ فاحشٌ؛ فَإِنَّ القولَ الَّذِي يَكُونُ فِي النَّفْسِ لا يُطْلَقُ عليه اسمُ القول، بل لا بُدَّ أَنْ يُقَيَّدَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

أَمَّا القولُ عند الإِطلاقِ فَإِنَّهُ القولُ الَّذِي يُسَمَّعُ وَيَكُونُ من حُرُوفٍ يَسَمَعُهَا مَنْ وُجَّهَ إليه الخطابُ، وقد قال الله تعالى في موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وهذا -أعني: كَوْنُ كلامِ الله عَزَّجَلَّ من حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ مسموعةٍ- هو قول السَّلفِ، وأئمة الخلف، ولا عِبرةَ بَمَنْ خَالَفَ طَرِيقَهُم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسَمَّعُ كلامَ الله عَزَّجَلَّ إِذَا وُجَّهَ إليه الكلامُ؛ لِأَنَّهُ يُوجَّهُ الأمرُ (كُنْ) إلى الشَّيْءِ المُراد، فيكون على ما أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨)

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ، بل هم في جَهْلٍ وَجَهَالَةٍ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ يقولون ذلك لِرُسُلِهِمْ، يَطْلُبُونَ آيَةً يَقْتَرِحُونَهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وذلك أَنَّ يُكَلِّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي:

عَلَامَةٌ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَدْ قَالَهُ مَنْ قَبْلَهُمْ.

ولقد اقترحت قريش على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آياتٍ مُتَعَدِّدَةً: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ. قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠-٩٣]، فهم يطلبون آياتٍ يَقْتَرِحُونَهَا، مع أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءُوا بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وما من رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل هذا القول الذي قالوه قاله مَنْ سَبَقَهُمْ، واقترحوا آياتٍ على رُسُلِهِمْ، ومن ذلك: قولُ بني إسرائيل لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

قال الله تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وإذا تشابهت قُلُوبُهُمْ تشابهت أقوالُهُمْ وأعمالُهُمْ؛ لأنَّ الأَعْمَالَ تَصْدُرُ عَنِ الْقَلْبِ؛ لقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، فمتى صَلَحَ الْقَلْبُ صَلَحَتِ الْجَوَارِحُ، ومتى فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَتِ الْجَوَارِحُ، نسأل الله أَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَ الْجَمِيعِ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٧٩).

قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: قد أظهرنا إظهاراً يبينُ به الأمر، و﴿الْآيَاتِ﴾ أي: العَلَامَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن لا يَتَنَفَّعُ بِهَا إِلَّا الْمُوقِنُ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أَمَّا مَنْ لَيْسَ بِمُوقِنٍ، بل هو في شكٍّ وريبٍ فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْآيَاتُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى فِيمَنْ إِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ قَالَ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- بيان عِظَمِ عِنَادِ الْكُفَّارِ الْمُحَادِّثِينَ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى آتَى الرُّسُلَ آيَاتٍ يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: بَيَانُ كَذِبِ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ طَلَبَهُمْ هَذَا يَتَضَمَّنُ ادِّعَاءَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ تَأْتِهِمْ آيَاتٌ، وَهَذَا كَذِبٌ مُحْضٌ، فَالْآيَاتُ جَاءَتْهُمْ، وَبَيَّنَتْ لَهُمْ، لَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَشَابَهَتْ تَشَابَهَتْ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ؛ لِقَوْلِهِ حِينَ حَكَى عَمَّنْ سَبَقَ أَنَّهُمْ قَالُوا كَمَا قَالَ الْمُكَذِّبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقُلُوبَ هِيَ الْمَوْجَّهَةُ لِلْبَدَنِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وَقَدْ ثَبَّتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَشَابُهَ أَعْمَالِ الْكُفْرَةِ، أَيْ: مُشَابَهَةَ لَا حَقِيقَتِهِمْ لِسَابِقِيهِمْ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ وَأَوْضَحَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِنَفْسِهَا لَا تَبَيِّنُ إِلَّا لِمُوقِنٍ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَكٌّ فَإِنَّ الْآيَاتِ لَا تَبَيِّنُ لَهُ، وَلَا تَظْهَرُ لَهُ، بَلْ لَا تَزِيدُهُ الْآيَاتُ إِلَّا عَمَى وَضَلَالًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُ الْإِسْلَامِ هَذِهِ إِيْمَانًا فَاأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

٨- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ النَّاسَ يَنْقَسِمُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ مُّوقِنٍ، فَهَذَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ الرَّسُلَ، وَقِسْمٍ

(١) تقدم تخريجه (ص: ٧٩).

غَيْرِ مُوقِنٍ، بل هو في شكٍّ، وَأَقْبَحُ منه: مَنْ كان في عِنَادٍ وَإِنْكَارٍ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ الْإِنْتِفَاعَ بِالْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

ومن ذلك: مَا يَقُومُ بِقُلُوبِ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ الشَّكِّ فِي نَفْعِ بَعْضِ الْآيَاتِ الَّتِي رُتِبَ عَلَيْهَا فَوَائِدُ، مثلَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ: «مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»^(١)، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَلَكِنَّهُ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ، أَوْ يَقُولُ: أَقْرُؤْهَا وَأَجْرُبْ! وَمِثْلُ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَبَدًا، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا مَنْ أَتَقَنَ بَأَنَّهُ إِذَا قَرَأَهَا لَا يَزَالُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

وهكذا بَقِيَّةُ الْآيَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ مِنْ فَوَائِدِهَا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتْلُوهَا وَهُوَ مُوقِنٌ بِصِحَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ حَتَّى يَتِمَّ إِيمَانُهُ، وَحَتَّى يَنْتَفِعَ بِهَا، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِنَ الْمُوقِنِينَ بِآيَاتِهِ، الْمُخْلِصِينَ لَوَجْهِهِ، الْمُوَافِقِينَ لِمَرْضَاتِهِ، إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

الْمُرْسَلُ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْخِطَابُ: لِلرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ الرَّسُولُ.

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣٥٠ / ٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلَّقه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً، فأجازه المؤكل، فهو جائز، رقم (٢٣١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِلْمُرْسَلِ بِهِ، فَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ حَقٌّ، وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِلرَّسَالَةِ، أَي: أَنَّ رِسَالَاتَكَ حَقٌّ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْمَعْنِيَانِ صَحِيحَانِ، فَرِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ، وَمَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ حَقٌّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ بَشِيرٌ، وَأَنَّهُ نَذِيرٌ، فَهُوَ بَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ نَذِيرٌ لِلكَافِرِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ﴾ [الكهف: ١-٥]، فَهُوَ ﷺ بَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَنَذِيرٌ لِلكَافِرِينَ بِالْعِقَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُنْعَلُ عَنْ أَحَبِّ الْجَحِيمِ﴾ أَي: لَا يَسْأَلُكَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ بَعْدَ إِذْ أَنْذَرْتَهُمْ؛ فَإِنَّ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ بَلَغْتَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ، وَنَصَحْتَ الْأُمَّةَ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - إثبات رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
 - ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ رِسَالَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
- بِالْحَقِّ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وُجُوبُ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِكُونِهِ رَسُولَ اللَّهِ، وَلِكُونِ مَا جَاءَ بِهِ حَقًّا، وَضِدَّ الْحَقِّ الْبَاطِلُ، فَمَنْ خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ فهو على باطلٍ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْبَاطِلَ قَدْ يَكُونُ شَامِلًا لَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ، كَالْكَافِرِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ يَكُونُ الْبَاطِلُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ، كَمَنْ فَعَلَ مَعْصِيَةً لَا تُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ تَكُونُ بَاطِلًا، وَمَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ يَكُونُ حَقًّا.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ لَهُ حَقٌّ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ، إِنَّمَا هُوَ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: الْحَثُّ عَلَى فِعْلِ مَا يَكُونُ بَشَارَةً لِلْعَبْدِ، وَتِلْكَ هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، فَإِنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَلَهُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَهُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ تَوْفِيقَ اللَّهِ لَهُ لِهَذَا الْعَمَلِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، فَيُسِّرُ بِذَلِكَ، وَيَفْرَحُ، وَيُسَرُّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(١)، فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَفَّقَكَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فَأَبَشِّرْ بِالْخَيْرِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُسَرُّونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُسَرُّونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ

(١) أخرجه بنحوه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وأحمد

(١٨/١) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وَأَتَقَى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَسَيِّرُهُ لِلْئِسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَبَ بِالْحَقِّ ﴿٩﴾ فَسَيِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الليل: ٥-١٠] ^(١).

وعلى هذا فينبغي للإنسان إذا رأى أن الله يسره للعمل الصالح، وهذاه له، وسهله عليه، أن يحمّد الله على هذه النعمة، وأن يسرّ بذلك، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِّكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» ^(٢)، وإذا وجد من نفسه أن العمل الصالح ثقیل عليه، وأن نفسه تنقاد بسرعة إلى العمل السيئ فليرجع إلى الله عزّ وجلّ، وليتّب إليه، وليحذر ممّا هو عليه.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يسأل عن ضلال الضالّين، ومن كان من أصحاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن الإنسان إذا أدّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه فإنه لا يناله من ضلال الضالّين شيء، إنّما يضلّون على أنفسهم، قال الله تعالى لنبیّه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الفصل: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ^(٣) لست عليهم بمسيطر

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿فَسَيِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي، رقم (٢٦٤٧/٦-٧) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧/٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢١-٢٦].﴾

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ أصحاب الجحيم الَّذِينَ هم أَهْلُ الْجَحِيمِ لَا يَسْتَفِيدُونَ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا؛ لَأَنَّهُمْ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقِينَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَسْبَابِ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ، وَأَنْ يَتَوَلَّانا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾
يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَرِّراً عَنْ حَالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَشِدَّةِ مُعَادَاتِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْيَهُودَ هُمْ أَتْبَاعُ مُوسَى، وَأَنَّ النَّصَارَى هُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى.

فَالْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَرِيعَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا نُسِخَتْ بِشَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِعِيسَى وَيَتَّبِعُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- أَبَوْا ذَلِكَ، وَكَفَرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

أَمَّا النَّصَارَى فَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولٌ، وَهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ حَقٍّ حَتَّى بُعِثَ

النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، فَلَمَّا كَفَرُوا بِهِ صَارُوا كَافِرِينَ حَتَّى بَعِثَ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَدْ بَشَّرَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، ف: (أَحْمَدُ) الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكَانُوا كَافِرِينَ بِعِيسَى وَبِشَارَتِهِ، وَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينَهُمْ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ هَذَا الدِّينُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ٨٩].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أَي: دِينَهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، فَالْيَهُودُ يَقُولُونَ: لَا نَرْضَى عَنْكَ حَتَّى تَكُونَ يَهُودِيًّا، وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نَرْضَى عَنْكَ حَتَّى تَكُونَ نَصْرَانِيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَي: مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، وَلَيْسَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَيُّهَا الْيَهُودُ، وَلَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَيُّهَا النَّصَارَى، بَلْ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى، وَهُدَى اللَّهِ بَعْدَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ ضَمِيرُ فَضْلٍ، وَضَمِيرُ الْفَضْلِ يُفِيدُ إِثْبَاتَ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ، وَنَفْيَهُ عَمَّا سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ -أَعْنِي: ضَمِيرُ الْفَضْلِ- مِنْ أَدَوَاتِ الْحَضَرِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني: مَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى، وَهُوَ مَا يُرِيدُونَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ نَصَارَى أَوْ يَهُودًا، فَمَنْ اتَّبَعَ هَذَا بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ: مَا لَهُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهُ، فَيُحِيطُهُ بِهَا يَنْفَعُهُ، وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُهُ، فَيَمْنَعُهُ مِمَّا يَضُرُّهُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- التَّحْذِيرُ الشَّدِيدُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا عَنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى يَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: بَيَانُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَرْضَوْنَ بِمَنْ يَتَّبِعُ مِلَّتَهُمْ، بَلْ يَفْرَحُونَ بِذَلِكَ، وَيُسَرُّونَ بِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِهِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْهُدَى لَا يَخْتَصُّ بِأُمَّةٍ أَوْ طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَلَيْسَ الْهُدَى لِلْيَهُودِ فَقَطْ، وَلَا لِلنَّصَارَى فَقَطْ، بَلِ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ، فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَى اللَّهِ عَلَى أَيِّ رَسُولٍ حَصَلَ عَلَى يَدَيْهِ هَذَا الْهُدَى فَقَدْ اهْتَدَى بِهُدَى اللَّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهِمِّنٍ عَلَيْهِ، وَأَنَّ شَرِيعَتَهُ نَسَخَتْ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ، وَعَلَى هَذَا نَقُولُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: الْمِلَّةُ الصَّحِيحَةُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ؛ لِأَنَّهَا هِيَ هُدَى اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَيِ: اتِّبَاعِ مَا يَهْوَوْنَهُ مِنَ الْبَاطِلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْعُقُوبَاتِ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْعِلْمُ، وَأَمَّا الْجَاهِلُ فَلَا عُقُوبَةَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنِ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وَهَذَا الْأَصْلُ يَشْهَدُ لَهُ آيَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»^(١).

ومنها أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومنها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومنها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا عُقُوبَةَ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَمْنَعُ مَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ خَيْرٍ أَوْ مِنْ شَرٍّ، فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَذْكَارِ الَّتِي تُقَالُ بَعْدَ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٢)، أَيْ: لَا يَنْفَعُ صَاحِبَ الْحِظِّ وَالْغِنَى حِظُّهُ وَغِنَاهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلِ اللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾، رقم (١٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصَّلَاةِ، رقم (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد: باب استحباب الذكر بعد الصَّلَاةِ، رقم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا التَّحْذِيرُ مُوجَّهًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَكَيْفَ بَمَنْ دُونَهُ؟! فَإِنَّ هَذَا التَّحْذِيرَ يَشْمَلُهُ وَأَوَّلَى، وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿ [الإسراء: ٧٤-٧٥].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَي: أَعْطَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، والمرادُ بِالْكِتَابِ هُنَا: الْجِنْسُ، فيشملُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عِيسَى، وَهُوَ الْإِنْجِيلُ، ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أَي: يَتَّبِعُونَهُ، وَالتَّلَاوَةُ يُرَادُ بِهَا ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: التَّلَاوَةُ اللَّفْظِيَّةُ، وَالتَّلَاوَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ، وَالتَّلَاوَةُ الْحُكْمِيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ.

- أَمَّا التَّلَاوَةُ اللَّفْظِيَّةُ: فَأَنْ يُقِيمَ الْإِنْسَانُ حُرُوفَ الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ.
- وَأَمَّا التَّلَاوَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: فَأَنْ يُقِيمَ مَعْنَى الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُفَسِّرَهُ بِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَهْوِي نَفْسِهِ، فَلَا يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.
- وَأَمَّا التَّلَاوَةُ الْحُكْمِيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ: فَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَخْبَارِهِ، وَيَقُومَ بِأَوَامِرِهِ، وَيَتَجَنَّبَ نَوَاهِيَهُ.

فَقَوْلُهُ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: التلاوة الحق، فهو من باب إِضَافَةِ الصِّفَةِ إلى مَوْصُوفِهَا، ﴿أَوَّلَتِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: هؤلاء هم الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقًّا، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتْلُهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، إمَّا فِي اللَّفْظِ، أَوْ فِي الْمَعْنَى، أَوْ فِي الْحُكْمِ وَالْعَمَلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَقَدْ نَقَصَ مِنْ إِيْمَانِهِ بِهِ بِقَدَرِ مَا نَقَصَ مِنْ تِلَاوَتِهِ.

وَيَبِّنُ عَرَجَلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِالْكِتَابِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ خَاسِرٌ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خُسْرَانًا كَامِلًا إِنْ كَانَ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ إِطْلَاقًا، وَخُسْرَانًا نَاقِصًا إِنْ كَانَ آمَنَ بِهِ عَلَى وَجْهِ يَنْقُصُ الْإِيْمَانَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ عَدْلًا، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْإِيْمَانُ كُلُّهُ فَلَهُ الرَّبْحُ كُلُّهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْكُفْرُ وَلَيْسَ مَعَهُ الْإِيْمَانُ فَلَهُ الْخُسْرَانُ كُلُّهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ إِيْمَانٌ وَكَفَرَ فَلَهُ الرَّبْحُ فِيْمَا آمَنَ، وَالْخُسْرَانُ فِيْمَا كَفَرَ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - الشَّاءُ عَلَى مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، فَتَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ.
- ٢ - أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيْمَانِ بِالْكِتَابِ: أَنْ يَتْلُوَهُ الْإِنْسَانُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ.
- ٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ لَمْ يُقِمِ حُرُوفَ الْكِتَابِ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ حَقَّ الْإِيْمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتْلُهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ.
- وَيَتَفَرَّغُ مِنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ: وَجُوبُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ حَيْثُ التَّرْتِيبُ، وَمِنْ حَيْثُ الْحُرُوفُ، فَلَا يُبَدَّلُ حَرْفٌ بِحَرْفٍ، وَلَا تُقَدَّمُ آيَةٌ عَلَى آيَةٍ، وَمِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ، فَلَا يُفْتَحُ مَا كَانَ مَضْمُونًا أَوْ مَكْسُورًا، وَلَا الْعَكْسُ.
- ٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَحْرِيمُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ وَالْهَوَى؛ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَتْلُ الْقُرْآنَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذَا: بَيَانُ خَطَرِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُحَرِّفُونَ لآيَاتِ الصِّفَاتِ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أَي: اسْتَوَى، وَمِثْلَ قَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أَي: نِعَمَتَاهُ مَبْسُوطَتَانِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا -بِلا شَكٍّ- تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا أَشَدَّ مِنَ التَّحْرِيفِ فِي آيَاتِ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بَابَ الصِّفَاتِ مِنْ بَابِ الْحَبَرِ الْمَحْضِ الَّذِي لَيْسَ لِلْعُقُولِ مَدْخَلٌ فِي تَفَاصِيلِهِ، فَيَجِبُ تَلَقُّيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَصَحِيحِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ حَرَّفَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا فَهُوَ أَشَدُّ خَطَرًا مِمَّنْ حَرَّفَهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ الْبَدَنِيَّةِ.

وَعَلَى هَذَا فَالْوَاجِبُ إِجْرَاءُ نُصُوصِ الصِّفَاتِ فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ عَلَى ظَاهِرِهَا اللَّاتِقِ بِاللَّهِ بِلا تَمْثِيلٍ وَلَا تَحْرِيفٍ، فَنَقُولُ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أَي: عَلَا عَلَى الْعَرْشِ عُلُوًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَنَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] هُمَا يَدَانِ حَقِيقَتَانِ، بَعْدَهُمَا يَأْخُذُ، وَبَعْدَهُمَا يَقْبِضُ، وَلَكِنَّهُمَا لَا تُمَاثِلَانِ أَيْدِيَ الْمَخْلُوقِينَ، وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ أَيْضًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُمَثِّلَ صِفَاتِ اللَّهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَا يُكَيِّفَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَوْلٌ عَلَى اللَّهِ بِلا عِلْمٍ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ التَّلَاوَةَ تنقسمُ إلى قِسْمَيْنِ: تِلَاوَةُ تَامَةٍ، وهي حَقُّ التَّلَاوَةِ، وتِلَاوَةُ نَاقِصَةٍ، وهي أن يَتْلُوهُ بَعْضُ التَّلَاوَةِ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ مَنْ لم يَقُمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَإِنَّهُ لم يَتْلُهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، فيكون ناقص الإيمان، وهذا هو طريق أهل السُّنَّةِ والجماعة: أنَّ الإيمانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ أو غَيْرِهَا من أسبابِ نَقْصِهِ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: الشَّاءُ على التَّالِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ حَقَّ تِلَاوَتِهِ؛ لقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الْكَافِرَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ خَاسِرٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، حَتَّى وَإِنْ رَبِحَ فِي الدُّنْيَا أَمْوَالًا، وَقُصُورًا، وَمَرَاقِبَ، وَأُنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْأَهْلِ وَالْبَنِينَ فَإِنَّهُ خَاسِرٌ؛ لِإِطْلَاقِ الْخُسْرَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: فِي الدُّنْيَا، ولم يَقُلْ: فِي الْآخِرَةِ، فيكون ذلك عَامًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْبَادُونَ﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧٢)

هذه الآية الكريمة سَبَقَ شِبْهُهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَءِيلَ -وإسرائيل هو يعقوبُ بنُ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ- يُنَادِيهِمْ مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ نِعْمَتَهُ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِتَذَكُّرِهَا، فيقول: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقد أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِنِعَمٍ عَظِيمَةٍ، مِنْهَا: الْإِيْمَانُ؛ حَيْثُ آمَنُوا بِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَنِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، أَي: جَعَلَهُمْ أَفْضَلَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ فِي زَمَانِهِمْ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِهِمْ أَفْضَلُ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتِهِمْ، أَمَّا بَعْدَ بَعْثَةِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ أَفْضَلَ الْأُمَمِ أُمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ الْأَخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُحَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمُذَكِّرًا لَهُمْ بِهَذِهِ النَّعْمِ:
﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ لِيَقُومَ بِشُكْرِهَا، وَبِشُكْرِ النَّعْمِ تَزَادُ، وَبِكُفْرِهَا تَرْتَفِعُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَيْتُ رَبِّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النَّعْمِ الَّتِي تَمَيَّزُوا بِهَا عَنِ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتِهِمْ.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضِلُونَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْأَعْمَالِ، وَيَتَفَاضِلُونَ فِي الْإِيمَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١)، فَالْأَعْمَالُ تَتَفَاضَلُ، وَالْعَامِلُونَ يَتَفَاضِلُونَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، رقم (٨٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَى غَيْرِهِ بِعِلْمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عَمَلٍ مِنَ الشُّكْرِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَابْتَلاَهُمُ بِالنَّعَمِ؛ لِيَشْكُرُوا أَمْ يَكْفُرُوا، وَقِسْمٌ آخَرُ ابْتُلُوا بِالْمَصَائِبِ؛ لِيَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ يَصْبِرُونَ، أَوْ لَا يَصْبِرُونَ؟ وَلِكُلِّ فِيمَا ابْتُلِيَ بِهِ وَظِيفَةٌ، فَمَنْ ابْتُلِيَ بِالْخَيْرِ فَعَلِيهِ وَظِيفَةُ الشُّكْرِ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِضِدِّهِ فَعَلِيهِ وَظِيفَةُ الصَّبْرِ، وَكُلَّمَا عَظُمَتِ النَّعَمُ كَانَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا أَوْجَبَ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣)

﴿وَاتَّقُوا﴾ وَاحْذَرُوا ﴿يَوْمًا﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لَا تُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا، حَتَّى الْوَالِدُ لَا يُغْنِي عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا، وَالْوَلَدُ لَا يُغْنِي عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَائِزٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أَي: لَا يُقْبَلُ مِنْهَا مَا تَدْفَعُهُ عَدْلًا، أَي: فِدْيَةً عَنْهَا، ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾ وَالشَّفَاعَةُ: هِيَ التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ لِحُلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ أَحَدًا إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا،

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا هم يُمنَعون من عذابِ الله.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - وجوب الحذر من عذاب يوم القيامة؛ لأنه هو المراد بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

٢ - ومن فوائدها وأحكامها: أنه في يوم القيامة لا ينفع أحدٌ غيره شيئاً، بخلاف الدنيا، فإنه قد ينفعه شفاعته أو غيرها.

٣ - ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الحذر من هذا اليوم العظيم الذي لا تنفع فيه قرابة، ولا ينفع فيه الفداء، ولا تنفع فيه الشفاعة، وإنما الإنسان وعمله.

٤ - ومن فوائدها وأحكامها: نفى نفع الشفاعة لمن ليس من أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾، أمّا من كان من أهل الشفاعة فإن الشفاعة تنفعه.

وليُعلم أن الشفاعة قسمان: قسم عام، وقسم خاص، فالخاص: هو الذي لا يقوم به إلا محمد ﷺ، وهي الشفاعة العظمى التي يتراجع فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى تصل إلى محمد ﷺ، فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعترض، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ محمد، فيقوم ويشفع بإذن الله سبحانه وتعالى، وهذه خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقسم عام: تكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولغيره من المؤمنين من الملائكة والبشر، ومنها: الشفاعة للميت بالصلاة عليه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ

شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(١)، وهذه عامّة، تكونُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ، وتكون كذلك لِلْمَلَائِكَةِ.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: قَطْعُ آمَالِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَتَّخِذُونَهَا شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خِلَافًا لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ، حَيْثُ يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا، نَسَأُلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْحِقَنَا وَآيَاكُم بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا وَإِيَّاهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١١٤)

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ أي: اخْتَبَرَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ ابْنُ آزَرَ، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ ابْتَلَاهُ بِكَلِمَاتٍ، ﴿وَإِذْ﴾ هُنَا مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: وَادْكُرْ إِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، أَي: اذْكُرْ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْعَجِيبَةَ الدَّالَّةَ عَلَى فَضْلِ إِبْرَاهِيمَ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلِمَاتٍ، وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَلِمَاتُ شَرْعِيَّةٍ ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَهِيَ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَيْنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفَعُوا فيه، رقم (٩٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه الكلمات ولا نوعها، لكننا نعلم أنها كلمات تكليفية قام بها إبراهيم عليه السلام على الوجه الذي ابتلاه الله تعالى بها حسب ما يرضي الله عز وجل.

ومن ذلك: أن الله تعالى أمره أن يذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهَدِينَ﴾ (٢١) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴿١٠٣﴾ أَي: انْقَادًا لأمر الله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تَلَّهُ على وجهه لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ، جاء الفرج من الله عز وجل ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَأْتِ بَهِيمٌ﴾ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿[الصافات: ٩٩-١٠٦]﴾.

فابتلى الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بكلمات: أوامر ونواهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وهذا هو محل الشاء، أنه لما ابتلي بذلك أتمهن على الوجه الذي يرضى به الله عز وجل، فأثابه الله تعالى ذلك الثواب العظيم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: قُدْوَةً يَقْتَدِي بِكَ النَّاسُ، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: واجعل من ذُرِّيَّتِي إِمَامًا، أو اجعل من ذُرِّيَّتِي أئمة ﴿قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فتعهد الله له بذلك، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَشْنَى، فقال: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ومن أكبر الأئمة - بل هو أكبر الأئمة من ذُرِّيَّتِهِ - مُحَمَّدٌ ﷺ، فهو إِمَامُ الْمُتَّقِينَ، صلوات الله وسلامه عليه، بل هو إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وإن كان آخرهم، كما ثبت ذلك في قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، حيث صلى بهم - صلوات الله، وسلامه عليه - إِمَامًا^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: مَنْ كَانَ ذَا ظُلْمٍ لِنَفْسِهِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهِ ﷺ أَنْ يَذْكُرَ لِلنَّاسِ مَا حَصَلَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَالْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ: الْاِقْتِدَاءُ بِهِ، أَيْ: بِإِبْرَاهِيمَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: فَضِيلَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ إِمَامٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: شَفَقَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وَهَذَا يُشَبِّهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُشْرِكَ أَخَاهُ هَارُونَ فِي الرِّسَالَةِ.

٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى إِبْرَاهِيمَ مَا سَأَلَ، بِأَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أُمَّةً، لَكِنَّهُ اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ الظَّالِمَ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِمَامًا.

٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَقْوَمَ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا أَمَرَ بِهِ كَانَ آخَرَى بِالْإِمَامَةِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّمَهُنَّ﴾ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا كَانَ إِمَامًا؛ لِأَنَّهُ أَتَمَّ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً

فَأَقْدَمُهُمْ سَلَمًا، - أَوْ قَالَ: - سِنًا^(١).

٦- ومن فوائدها وأحكامها: كراهية الله تعالى للظلم، ولذلك لم يجعل لظالم إمامة.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَبُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾
قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: وَادْكُرْ إِذْ جَعَلْنَا، وَمَعْنَى ﴿جَعَلْنَا﴾ صَيَّرْنَا، وَالْمَرَادُ بِالْبَيْتِ: بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ الْكَعْبَةُ، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَي: مَرَجِعًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيُثَوِّبُونَ إِلَيْهِ، ﴿وَأَمْنَا﴾ يَأْمَنُونَ بِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ، وَمَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مَعْرُوفٌ شَرْقِيَّ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ، وَسُمِّيَ: مَقَامًا؛ لِأَنَّهُ قَامَ عَلَيْهِ حِينَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعَ هَذَا الْحَجَرَ، فَصَارَ يَرْتَفِعُ عَلَيْهِ؛ مِنْ أَجْلِ إِمْتَامِ الْبِنَاءِ، وَمَا زَالَ هَذَا الْمَقَامُ مُحْفُوظًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَلِّينَ﴾ أَي: مَكَانًا لِلصَّلَاةِ، وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِفِعْلِهِ حِينَهَا انْتَهَى مِنْ طَوَافِ الْقُدُومِ، فَتَقَدَّمَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، رقم (٦٧٣) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فصلَّى خلفَ المقامِ رَكَعَتَيْنِ^(١).

وبَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ عَهَدَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، أَي: عَهْدَ عَهْدًا أَلْقَاهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ أَكْبَرُ أَوْلَادِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ مِنْ سُرَّتَيْهِ هَاجَرَ، وَقَدْ أَبْقَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ حَتَّى سَبَّ، وَكَبَّرَ، وَأَتَاهُ الْأَوْلَادُ الَّذِينَ هُمُ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ، فَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَبِيهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ، فَأَمَرَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يُطَهِّرَ بَيْتَهُ لِلطَّائِفِينَ، وَالْعَاكِفِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، فَقَالَ: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ لِلْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أَي: الطَّائِفِينَ بِهَذَا الْبَيْتِ ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ أَي: فِي الْمَسْجِدِ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَي: الْمُصَلِّينَ، وَإِنَّمَا بَدَأَ بِالطَّائِفِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَخَصُّ بِهَذَا الْمَكَانِ؛ فَإِنَّ الطَّوَّافَ لَا يَصُحُّ إِلَّا فِي الْكَعْبَةِ، وَلَا يُشْرَعُ إِلَّا بِالْكَعْبَةِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْعَاكِفِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَخَصُّ مِنَ الْمُصَلِّينَ، فَإِنَّ الْاِعْتِكَافَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ، فَلَا يَكُونُ فِي كُلِّ أَرْضٍ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالرُّكَّعِ السُّجُودِ -أَي: الْمُصَلِّينَ- لِأَنَّ ذَلِكَ أَعَمُّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَصَحُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا مَا اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢١).

من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَذَكَرَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؛ لِأَنَّهَا رُكْنَانِ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلِ الَّذِي صَلَّى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطْمَئِنَّ فِي صَلَاتِهِ: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا»^(١).

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنْ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، أَي: مَرْجِعًا لَهُمْ وَأَمْنًا، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ حَجًّا، وَفِي غَيْرِ مَوْسِمِ الْحَجِّ، فَأَفْئِدَةُ النَّاسِ تَهْوِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لِلْحَجِّ، وَالْعُمْرَةِ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الطَّاعَاتِ.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَكَّةَ بِلَدٍ آمِنٍ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»^(٢)، وَلَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِي مَكَّةَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ الْفَتْحِ فَقَطْ، فَهِيَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، وَلِهَذَا يُحَرِّمُ الْقِتَالُ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الدَّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْأَمْرُ بِاتِّخَاذِ مُصَلًّى مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ ذَلِكَ بِكَوْنِهِ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، وَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليلبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة، رقم (٤٤٦/١٣٥٤) من حديث أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي وُجُوبِ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا وَاجِبَتَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِمَا، وَبَيْنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ بِفِعْلِهِ، وَالْأَصْلُ فِي الْأَمْرِ الْوُجُوبُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا سُنَّةٌ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ تَوَابِعِ الطَّوَافِ.

وَالْمَشْرُوعُ فِي هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ: أَنْ يُخَفَّفَهُمَا، وَأَلَّا يَمْكُثَ بَعْدَهُمَا عِنْدَ الْمَقَامِ، وَأَنْ يَقْرَأَ فِيهِمَا فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى بَعْدَ الْفَاتِحَةِ: ﴿قُلْ يَتَائِبَا الْكُفْرُوتِ﴾، وَفِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ التَّطَوُّعِ خَلْفَ الْمَقَامِ مِنْ غَيْرِ طَوَافٍ، أَوْ التَّطَوُّعِ بِأَكْثَرِ مِنْ رَكْعَتَيْنِ، أَوْ إِطَالَةِ الرَّكْعَتَيْنِ، أَوْ الْجُلُوسِ بَعْدَهُمَا فِي هَذَا الْمَكَانِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ لِلذِّكْرِ، أَوْ لِلدُّعَاءِ، أَنَّهُ غَيْرُ مَشْرُوعٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى الْخَيْرِ بِلَا شَكٍّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَلِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ يُخْتَصُّ بِالطَّائِفِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ رَكْعَتَيْنِ، فَكَوْنُ الْإِنْسَانِ يَبْقَى فِيهِ بَدُونِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْجِنَايَةِ عَلَى غَيْرِهِ.

وَلَكِنْ لَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: إِذَا كَانَ الْمَطَافُ مُزْدَحَمًا، وَكَانَ الطَّائِفُونَ يَطُوفُونَ مِنْ وَرَاءِ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، فَهَلْ لِلْإِنْسَانِ الْحَقُّ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ بَيْنَ الطَّائِفِينَ، فَيُعِيقَ سَيْرَهُمْ وَيُؤْذِيَهُمْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ؟

الْجَوَابُ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ حَقَّ الطَّائِفِينَ أَوَّلَى بِالْمُرَاعَاةِ مِنْ حَقِّ الْمُصَلِّيِّ؛ إِذْ إِنَّ الْمُصَلِّيَّ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُصَلِّيَ بَعِيدًا عَنِ مَكَانِ الطَّوَافِ، فَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَيَجْعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، وَلَوْ كَانَ فِي آخِرِ صَحْنِ الْمَطَافِ، بَلْ وَلَوْ كَانَ تَحْتَ السَّقْفِ، لَكِنَّ الطَّائِفَ لَيْسَ لَهُ إِلَّا هَذَا الْمَكَانُ.

وبهذا نَعْرِفُ خَطَأَ مَنْ يَفْعَلُونَ هذا الفعلَ، تَحِدُّهُمْ يُصَلُّونَ خَلْفَ المقام مع
أَزْدِحَامِ المطاف، واحتِياجِ النَّاسِ إلى الطَّوَّافِ، فمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ
مَا دَامَ الطَّائِفُونَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَعْلِيَّةُ شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حَيْثُ أَمَرَنَا
اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ مَقَامِهِ مُصَلًّى، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْإِمَامَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى فِيهَا: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ اللَّهَ عَهَدَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
-أَي: وَصَّى إِلَيْهِمَا، وَأَمَرَهُمَا- أَنْ يُطَهِّرَا بَيْتَهُ لِلطَّائِفِينَ، وَالْعَاكِفِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: فَضِيلَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ؛ حَيْثُ وَكَّلَ إِلَيْهِمَا
هَذَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَ.

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: فَضِيلَةُ الطَّوَّافِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾،
وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّوَّافَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ الْفَاضِلَةِ، وَلِهَذَا كَانَ رُكْنًا فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ،
فَلَا يَتِمُّ حَجُّ الْإِنْسَانِ وَلَا عُمْرَتُهُ إِلَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ.

٨- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ لِلطَّائِفِينَ، وَالْعَاكِفِينَ،
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: تَطْهِيرٍ مَعْنَوِيٍّ، وَتَطْهِيرٍ حِسِّيٍّ.
أَمَّا التَّطْهِيرُ الْمَعْنَوِيُّ فَأَنْ يُطَهَّرَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشُّرْكَ
نَجَاسَةٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فَلَا يُجُوزُ أَنْ يُمَكَّنَ
أَحَدٌ فِي هَذَا الْبَيْتِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، مِثْلُ: أَنْ يَدْعُو نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ مَلَكًا،

أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّجَلْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، فَهِيَ أَنْ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَالطَّهَّارَةُ الْحِسِّيَّةُ: أَنْ يُطَهَّرَ مِنَ الْأَقْدَارِ: مِنَ الْبَوْلِ، وَالْعَائِطِ، وَالْدَّمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ النَّجِسَةِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُطَهَّرَ مِنْهَا.

وهذا الحكم -أعني: التَّطْهِيرَ مِنَ النَّجَاسَةِ الْحِسِّيَّةِ- ثَابِتٌ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ، وَلِهَذَا لَمَّا بَالَ الْأَعْرَابِيُّ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذُنُوبٍ مِنْ مَاءٍ، فَأَهْرِيقَ عَلَيْهِ^(١).

٩- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمَشْرُوعَ لِلطَّائِفِ أَنْ يَكُونَ مُتَطَهِّرًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُمِرَ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ مِنْ أَجْلِهِ فَتَطْهِيرُهُ بِنَفْسِهِ وَتَطْهِيرُ مَا لَيْسَ مِنَ الثِّيَابِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، فَالْمَشْرُوعُ لِلطَّائِفِ أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا مِنَ الْأَنْجَاسِ، كَمَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ طَاهِرًا مِنَ الْأَحْدَاثِ، فَلَا يَطُوفُ وَهُوَ مُحْدَثٌ حَدَثًا أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ.

ولهذا اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى قَوْلَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: لَوْ طَافَ وَعَلَيْهِ حَدَثٌ أَصْغَرُ فَهَلْ يَصَحُّ طَوَافُهُ، أَوْ لَا؟ اخْتَارَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ طَوَافَهُ صَحِيحٌ^(٢)، وَقَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ طَوَافَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢١)، ومسلم:

كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري في الموضع السابق، رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧٣/٢١).

١٠ - ومن فوائدها وأحكامها: فَضِيلَةُ الْاِعْتِكَافِ؛ حيثُ أُمِرَ أَنْ يُطَهَّرَ الْبَيْتُ من أجل الْعَاكِفِينَ.

١١ - ومن فوائدها وأحكامها: مَشْرُوعِيَّةُ الْاِعْتِكَافِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾، وهذا أَمْرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وقد قال عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قَالَ: «فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ»^(١).

١٢ - ومن فوائدها وأحكامها: فَضِيلَةُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، حيثُ عَبَّرَ بِهِمَا عَنِ الصَّلَاةِ كَامِلَةً، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَإِذَا عَبَّرَ اللَّهُ عَنِ الْعِبَادَةِ بِبَعْضِهَا دَلٌّ عَلَى وَجُوبِ هَذَا الْبَعْضِ فِيهَا، وقد بَيَّنَّا أَنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ.

وَحَدُّ الرُّكُوعِ: أَنْ يَخْنِيَ الْقَائِمُ ظَهْرَهُ، بِحَيْثُ يَكُونُ إِلَى الرُّكُوعِ التَّامِّ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الْقِيَامِ التَّامِّ، وَقِيلَ: حَدُّهُ: أَنْ يَنْحَنِيَ بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ مَسُّ رُكْبَتَيْهِ إِذَا كَانَ مُعْتَدِلَ الْيَدَيْنِ، لَا طَوِيلَهُمَا وَلَا قَصِيرَهُمَا.

وَأَمَّا السُّجُودُ فَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ السُّجُودِ عَلَى أَعْضَاءِ سَبْعَةٍ، فَقَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ، وَالرَّجْلَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، رقم (٢٠٤٣)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب نذر الكافر، رقم (١٦٥٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود، رقم (٤٩٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٣ - ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ تَطْهِيرَ الْمَسَاجِدِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾، فَوَجَّهَ الْأَمْرَ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ قَدْ يَكُونُ مَا أَخَذَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ضَعِيفًا، لَكِنْ يُؤْخَذُ وَجُوبُ تَطْهِيرِ الْمَسَاجِدِ مِنَ الْأَذَى وَالْقَذَرِ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يُرِيقُوا عَلَى بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ^(١)، أَي: دَلُّوا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ، وَعَلَى أَنَّهُ وَجُوبٌ كِفَائِيٌّ.

وعلى هذا فإذا رَأَيْتَ فِي الْمَسْجِدِ قَذَرًا فَأَزِلْهُ إِنْ أَمَكَنَّكَ، فَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْكَ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ مَنْ عَلَيْهِ تَطْهِيرُهُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ كَسَابِقِيهِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَاذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا، فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ وَيُبَلِّغَهُمْ مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الدُّعَاءِ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ وَأَهْلِهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أَي: آمِنًا مِنْ كُلِّ خَوْفٍ، ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أَي: أَعْطِهِمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، أَي: ثَمَرَاتِ الْأَشْجَارِ مِنَ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَغَيْرِهَا.

وإِنَّمَا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ ذَلِكَ؛ لَأَنَّ مَكَّةَ بَلَدٌ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ، فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ كَمَا بَيْنَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا عَٰمًا وَمُنْخَظَفًا لِّلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يُجِجْنَ إِلَيْهِ شَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

ولكنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَيَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ أَدْبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ مِنَ
الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَذَلِكَ تَأْدِيبًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، حَيْثُ قَالَ فِي الْأَوَّلِ حِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فَأُطْلِقَ إِبْرَاهِيمُ سُؤَالَ الْإِمَامَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
قَيَّدَهَا بِأَنَّهَا خَاصَّةٌ بِمَنْ لَيْسَ بِظَالِمٍ، فَهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾.

ولكنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ بَيَّنَّ أَنْ رِزْقَهُ لِأَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ يَشْمَلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾
يَعْنِي: وَأُعْطِيَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تُجَبَّى إِلَى هَذَا الْبَلَدِ، أَعْنِي: مَكَّةَ، وَلَكِنْ
مَنْ كَفَرَ ﴿فَأُمْتَعَهُ، قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِرُ الْمَصِيرُ﴾، أُمْتَعَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
بِمَا أُعْطِيَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، لَكِنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ؛ إِذْ إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا فَانِيَةٌ تَمْضِي
لِحَظَّةٍ فَلَحَظَةً، وَلَا يَذَرِي الْإِنْسَانُ إِلَّا وَقَدْ بَلَغَ الْأَجَلَ، وَحَلَّ بِهِ الْمَوْتُ، فَهِيَ مَهْمَا
طَالَتْ بِالْإِنْسَانِ قَلِيلَةً.

ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا إِذَا طَالَتْ بِالْإِنْسَانِ، وَمُدَّ لَهُ فِي الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَرْدَلِ
الْعُمُرِ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لَذَّائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ^(١)

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ يعني: أَدْفَعُهُ مُضْطَرًّا إِلَى عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]، فَهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يُدْفَعُونَ دَفْعًا، وَكَأَنَّهُمْ إِذَا شَاهَدُوا النَّارَ يَتَلَكَّؤُونَ، وَلَا يَنْطَلِقُونَ، فَيُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً، ﴿وَيُسْرَ الْمَصِيرِ﴾ هَذَا قَدْ حُ وُثِّنَ بِالشَّرِّ عَلَى مَصِيرِ أَهْلِ النَّارِ، نَسَأُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- نَصَحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْبَلَدِ مَكَّةَ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ ③ [التين: ١-٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُنْخَفِطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَسَأَلَ شَيْئَيْنِ: الْأَمْنَ، وَرَغَدَ الْعَيْشِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ أَيْضًا، فَكَانَتْ مَكَّةَ -وإن لم تكن بَلَدًا زَرَاعِيًّا- تُجَبَّى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ، فَأَهْلُهَا آمِنُونَ، وَبِالْعَيْشِ رَاغِدُونَ، فَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَجِبُ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ.

(١) لم أجده منسوبةً لِقَائِلِ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ أَوْضَحِ الْمَسَالِكِ (١/ ٢٤٢)، وَشَرَحَ الْأَشْمُونِي (١/ ٣٦٦)، وَهَمَعَ الْهَوَامِعَ (١/ ٣٧٢).

٣- ومن فوائدها وأحكامها: حُسْنُ أدَبِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الإِيْمَانَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الْآخِرِ من أسباب الرِّزْقِ والأَمْنِ، وكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْوَى إِيمَانًا بِاللَّهِ واليَوْمِ الْآخِرِ كَانَ أَكْثَرَ أَمْنًا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ اللهَ تعالى قد يُعْطِي السَّائِلَ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ؛ لِحِكْمَةٍ تَقْتَضِي ذَلِكَ، فإبراهيمُ سَأَلَ أَنْ يَرْزُقَ اللهُ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ واليَوْمِ الْآخِرِ، ولكنَّ اللهَ قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾.

وهنا قد يَرِدُ إشْكَالٌ: هل قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يَقْتَضِي إِفْرَارَ الْكَافِرِ عَلَى كُفْرِهِ فِي مَكَّةَ، أَوْ لَا؟ والجواب: لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثباتُ الرِّزْقِ لِلْكَافِرِ، فَالْكَافِرُ رِزْقُهُ مِنَ اللهِ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ هَذَا الرِّزْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحَاسَبٌ عَلَيْهِ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]؛ فَالْكَافِرُ -وإنْ نَعِمَ بِرِزْقِ اللهِ- مُحَاسَبٌ عَلَى هَذَا الرِّزْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الدُّنْيَا -وإن طَالَت- فَمَتَاعُهَا قَلِيلٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّتْهُ قَلِيلًا﴾، وفي الحديث عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يُضْطَرُّونَ إِلَى دُخُولِهَا اضْطِرَارًا، وَيُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: إِنْثَابُ النَّارِ، وَأَنَّهَا جَزَاءٌ لِلْكَافِرِينَ؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾.

١٠- ومن فوائدها وأحكامها: الشَّأْنُ بِالشَّرِّ عَلَى النَّارِ وَمَنْ كَانَتْ مَصِيرًا لَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُسْأَلُ الْمَصِيرُ﴾، نَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيرَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ دَارَ الْقَرَارِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

إِبْرَاهِيمُ هُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، أَمَّا ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ فَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ، وَمِنْ سُلَالَتِهِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ ﷺ. و﴿الْقَوَاعِدُ﴾ أَسَاسُ الْبُنْيَانِ ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ الْبَيْتُ هُنَا هُوَ الْكَعْبَةُ، رَفَعَا الْقَوَاعِدَ

وهما يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ لَأَنَّ الْعَمَلَ إِذَا لَمْ يُقْبَلْ صَارَ تَعْبًا وَضَيَاعًا.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - فَضَّلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ حَيْثُ رَفَعَا قَوَاعِدَ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَوَاضَعُ الْأَنْبِيَاءُ لَشَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَعْظِيمُهُمْ لِحُرْمَاتِهِ؛ حَيْثُ بَنَى إِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ هَذَا الْبَيْتَ؛ تَوَاضَعًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَعْظِيمًا لِحُرْمَاتِهِ.

٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مَهْمَا عَظُمَتْ دَرَجَتُهُ وَعَلَتْ مَنَزِلَتُهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ، وَإِلَى قَبُولِهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: طَرُدُ الْعُجْبِ مِنَ النَّفْسِ، فَلَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ: أَنَا عَمِلْتُ، أَنَا فَعَلْتُ، أَنَا قُلْتُ، بَلْ يَعْمَلُ الْعَمَلَ، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي قَبُولِهِ.

٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنِ فِي قَبُولِ الْعَمَلِ، لَا فِي نَفْسِ الْعَمَلِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ الْقَبُولُ، وَهُوَ الْإِحْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمُتَابَعَةُ لَشَرِيعَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

٦ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ

أسماء الله، وهما: (السَّمِيع) و(العَلِيم)، السَّمِيع لكل مَسْمُوعٍ مهما خَفِيَ، والعَلِيمُ بكلِّ معلومٍ مهما تَبَاعَدَ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات صِفَتَي السَّمْعِ والعِلْمِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ السَّمِيعَ والعَلِيمَ اسمان مُشْتَقَّان من السَّمْعِ والعِلْمِ، فلا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَا هذه الصِّفَةُ، ولا نقول كما قال أهل البدع: إِنَّهُ سَمِيعٌ بلا سَمْعٍ، وَعَلِيمٌ بلا عِلْمٍ.

وَسَمِعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَمْعٌ بِمعْنَى الإِجَابَةِ، وَسَمْعٌ بِمعْنَى إِدْرَاكِ الصَّوْتِ وَإِنْ خَفِيَ، فَمِنَ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الْدُّلَّةُ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أَي: لِمُجِيبِ الدُّعَاءِ، وَقَوْلُ الْمُصَلِّي: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَهُ» أَي: اسْتَجَابَ لِمَنْ حَمَدَهُ، وَمِنَ الثَّانِي - أَي: إِدْرَاكِ الصَّوْتِ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوَرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، أَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَتَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا، أَي: تَحْتَمِلُ سَمْعَ الصَّوْتِ، وَسَمْعَ الإِجَابَةِ.

هَذَا وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ سَمْعَ الصَّوْتِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ إِلَى عَامٍّ وَخَاصٍّ، فَالْعَامُّ: هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ هَذَا الْاسْمُ الْكَرِيمُ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي غَيْرِهِ، وَمُقْتَضَاهُ: إِدْرَاكُ كُلِّ صَوْتٍ مِمَّا خَفِيَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ»^(١).

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٩٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨)، وأحمد (٤٦/٦).

وَأَمَّا السَّمْعُ الْخَاصُّ فَمُقْتَضَاهُ: النَّصْرُ وَالتَّائِيدُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ:
﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

أَمَّا الْعِلْمُ فَهُوَ - كَمَا أَسْلَفْنَا - مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةِ الْعِلْمِ، وَعِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْزِي
أَبَدِيٍّ لَمْ يُسْبَقْ بِهِ جَهْلٌ، وَلَا يَلْحَقُهُ نِسْيَانٌ، قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ حِينَ
سَأَلَهُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ٥١ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿
[طه: ٥١-٥٢]، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاسِعُ الْعِلْمِ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، أَزَلًا وَأَبَدًا،
فَلَمْ يَسْبَقْ عِلْمَهُ جَهْلٌ، وَلَا يَلْحَقُهُ نِسْيَانٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْعِلْمِ جُمْلَةً
وَتَفْصِيلًا، فَمِنَ التَّفْصِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ولكن ما الذي نَسْتَفِيدُهُ مِنْ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ: السَّمِيعِ، وَالْعَلِيمِ؟
الْجَوَابُ: نَسْتَفِيدُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَسْلُوكِيَّةِ فَائِدَةً، وَهِيَ أَنْ نَحْذَرَ مِنْ أَنْ نَتَكَلَّمَ
بِمَا لَا يُرْضِي اللَّهَ؛ لِأَنَّا إِنْ تَكَلَّمْنَا سَمِعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَحْذَرَ مِنْ أَنْ نُضْمِرَ فِي نُفُوسِنَا
أَوْ نَعْمَلْ بِجَوَارِحِنَا مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنَّا؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَعْلَمُهُ، ثُمَّ يُنَبِّئُنَا
بِمَا عَمَلْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

•••••

ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذِكْرِ مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
وَهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً
لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ١٢٨

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: مُتَقَادِينَ لَأَمْرِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِخْلَاصِ لَكَ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ لِلَّهِ يَتَضَمَّنُ الْإِخْلَاصَ لَهُ، وَالْإِنْقِيَادَ لِأَمْرِهِ جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ يعني: واجعل من ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَهِيَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْأُمَّةُ الَّتِي يَصْدُقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، أَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَكِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، بَلْ هُمْ بَنُو عَمَّتِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: مَوَاضِعَ نُسْكِنَا، أَلْهِمْنَا إِيَّاهَا حَتَّى نَرَاهَا ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ومعنى التَّوْبَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ: أَنْ يُوفِّقَهُم لِلتَّوْبَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِقَبُولِهَا ثَانِيًا، وَالتَّوْبَةُ فِي الْأَصْلِ: الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التَّوَّابُ: كَثِيرُ التَّوْبَةِ عَلَى عِبَادِهِ مَهْمَا عَظُمَتْ ذُنُوبُهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّاسِ.

والتَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ -مَهْمَا عَظُمَتْ الذُّنُوبُ- تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «التَّوْبَةُ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا»، أَوْ قَالَ: «تَجِبُ مَا قَبْلَهَا»^(١).

والتَّوْبَةُ تَكُونُ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَفِي حَقِّ الْعِبَادِ، وَتُقْبَلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ٦٨ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ (٣/ ١٤١): «لَا أَعْرِفُ لَهُ أَصْلًا».

حَسَنَتْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١]، وَالرَّحِيمُ: ذُو الرَّحْمَةِ الَّتِي بِهَا حُصُولُ النِّعَمِ، وَانْدِفَاعُ النِّقَمِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنْ كُلَّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوقِّعَهُ لِلِاسْتِسْلَامِ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ لِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الدَّاعِيَ إِذَا اسْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ يُؤْمِنُ عَلَى دُعَائِهِ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ لَهَا جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الَّذِي يَدْعُو إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ يُؤْمِنُ، وَالْمُسْتَمِعُ الْمُؤْمِنُ مَعَ الدَّاعِي كَالدَّاعِي تَمَامًا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، مَعَ أَنَّ الدَّاعِيَ مُوسَى، قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لِأَنَّ مُوسَى يَدْعُو، وَهَارُونَ يُؤْمِنُ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: فَضْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ عَقَبًا صَالِحًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾، وَهَذَا كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ -مَهْمَا عَظُمَتْ دَرَجَتُهُ، وَعَلَتْ مَرَبَّتُهُ- مُفْتَقِرٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ مَوْضِعِ الْعِبَادَةِ إِذَا كَانَتْ الْعِبَادَةُ مُقَيَّدَةً بِمَكَانٍ مُّعَيَّنٍ، وكذلك أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ وَقْتِ الْعِبَادَةِ إِذَا كَانَتْ مُقَيَّدَةً بِوَقْتٍ مُّعَيَّنٍ.

وينبني على هذا: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَنِي بِمَعْرِفَةِ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لِعِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

ومن ثَمَّ أَحَذَّرُ إِخْوَانَنَا الْمُؤَدِّينَ مِنْ أَنْ يُؤَدِّتُوا قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ، أَوَّلًا: لِأَنَّ الْأَذَانَ إِعْلَامٌ بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ، وَالْأَذَانُ قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِهَا لَا يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ إِعْلَامًا بِدُخُولِ الْوَقْتِ.

وثانيًا: أَنَّهُمْ إِذَا أَدَّيْنَاهُمْ فَرِيضَةً يَتَعَجَّلُ أَحَدٌ فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ أَوْ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا تَلْزَمُهُمْ صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ لِعُذْرٍ شَرْعِيٍّ، فَيُصَلُّونَ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْمُؤَذِّنِ مِنْ أَذَانِهِ، وَتَكُونُ صَلَاتُهُمْ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ كَبَّرَ تَكْبِيرَةً الْإِحْرَامِ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ، ثُمَّ أَتَمَّ الصَّلَاةَ بَعْدَ دُخُولِهِ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ لَا تَصَحُّ، يَعْنِي: لَوْ تَقَدَّمَ الصَّلَاةَ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ فَقَطْ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ فَإِنَّهَا لَا تَصَحُّ.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ -مَهْمَا عَلَتْ مَنَزِلَتُهُ، وَازْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ- مُفْتَقِرٌ إِلَى تَوْبَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَوْبَتِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴿١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

والتَّوْبَةُ: هي الرُّجُوعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ من مَعْصِيَّتِهِ إلى طَاعَتِهِ، ولا بُدَّ فيها من شُرُوطٍ خَمْسَةٍ:

الأوَّل: الإِخْلَاصُ لله، بَأَلَّا يَحْمِلَهُ عَلَى التَّوْبَةِ إِلَّا رِضَى الله عَزَّوَجَلَّ، وَابْتِغَاءُ ثَوَابِهِ، فَلَا يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا خَوْفٌ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ أَنَاسٍ.

والثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ.

وَالثَّالِثُ: الإِقْلَاعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْحَالِ.

وَالرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

والخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ قَبْلَ إِغْلَاقِ زَمَنِ التَّوْبَةِ، وَعَلَى هَذَا فَلا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِذَا حَضَرَ الْأَجْلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨]، وَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِي رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٨- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّوَسُّلُ إِلَى الله تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ عِنْدَ الدُّعَاءِ؛

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّوَسُّلُ بِالْأَسْمِ الْمُنَاسِبِ لِمَا دَعَوْتَ بِهِ، فَإِذَا دَعَوْتَ بِالتَّوْبَةِ

فَتَوَسَّلْ إِلَى الله بِاسْمِهِ: (التَّوَّابُ)، وَإِذَا دَعَوْتَ بِالْمَغْفِرَةِ فَتَوَسَّلْ إِلَى الله بِاسْمِهِ:

(الْغُفُور)، وَإِذَا دَعَوْتَ بَطْلَبَ الرِّزْقَ فَتَوَسَّلْ بِاسْمِهِ: (الرَّزَّاقُ)، وما أَشْبَهَ ذلك.

٩- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِبْثَاتُ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وهما: (التَّوَابُ) و(الرَّحِيمُ).

أَمَّا التَّوَابُ فَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يُوفِّقُ مَنْ يَشَاءُ إِلَى التَّوْبَةِ، فَيُتُوبُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْوَاسِعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وَقَالَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ يَدْعُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَحْمَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِلَى قِسْمَيْنِ: رَحْمَةً مَخْلُوقَةٍ، وَرَحْمَةً هِيَ صِفَتُهُ، وَمَثَلُوا لِلرَّحْمَةِ الْمَخْلُوقَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ لِلْجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ مِنْ عِبَادِي»^(١)، وَأَطْلَقَ عَلَيْهَا اسْمَ رَحْمَتِهِ؛ لِأَنَّهَا مَحَلُّ رَحْمَتِهِ، وَلِأَنَّهَا مَقَرُّ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، وَسَكَنُ الرَّحْمَاءِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: رَحْمَةٌ هِيَ صِفَتُهُ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، فَإِنَّ جَمِيعَ صِفَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ هُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَهَذِهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: رَحْمَةٍ عَامَّةٍ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَعَاقِلٍ وَبَهِيمٍ، وَرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ بِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَقُلْ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم:

كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومُقْتَضَى الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ: إِيجَادُ مَا بِهِ تَقُومُ مَصَالِحُ الْمَرْحُومِينَ، وَتَنْدَفِعُ مَضَارُّهُمْ.

وَأَمَّا مُقْتَضَى الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ فَهُوَ تَوْفِيقُ هَؤُلَاءِ، وَتَسْدِيدُ أُمُورِهِمْ، وَإِصْلَاحُ أَحْوَالِهِمْ عَلَى وَجْهِ أَحْصَى مِمَّا تَقْتَضِيهِ الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٦)

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أَي: فِي الذَّرِّيَّةِ، وَأَعَاد الضَّمِيرَ إِلَيْهَا بِالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا الْجَمْعُ.

وَالْبَعْثُ وَالْإِرْسَالُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَلَيْسَ فِي ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيٌّ سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يَقْرَأُهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَفْهَمُوهَا عِلْمًا وَفَهْمًا وَعَمَلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةَ الَّتِي

هي السُّنَّة وما تَتَّصَفُ بِهِ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَسْرَارِ، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُنَمِّي أَعْلَاقَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، ولهذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَمِّمًا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ﴾ الْجُمْلَةُ هُنَا جُمْلَةٌ تَوْسِلِيَّةٌ تَوَسَّلَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَبُولِ مَا دَعَا بِهِ وَتَحْقِيقِهِ، وَ﴿الْغَزِيْرُ﴾ يَعْنِي: ذَا الْعِزَّةِ الْكَامِلَةِ، وَهِيَ عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنَ الْعِزَّةِ، فَهُوَ ذُو قَدْرِ عَظِيمٍ، وَقَهْرٍ بَالِغٍ، وَامْتِنَاعٍ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَعَيْبٍ.

وَأَمَّا الْحَكِيمُ فَهُوَ ذُو الْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ، أَي: أَنَّ الْحَكِيمَ مِنَ الْإِحْكَامِ، وَهُوَ الْإِتْقَانُ، وَمِنَ الْحُكْمِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى الرَّسْلِ، وَلِهَذَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَبْعَثَ فِي هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ؛ فَإِنَّ الْعُقُولَ مَهْمَا كَبُرَتْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَقِلَّ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، فَهُمْ فِي أَشَدِّ الضَّرُورَةِ إِلَى الرَّسْلِ.

٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ ﷺ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ، وَقَدْ حَصَلَ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَلَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ^(١)، ثُمَّ أَلْقُوا هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَأَمَانَةٍ، وَهَكَذَا

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٨).

تَدَاوَلَهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَلَمْ يَجْرَأْ أَحَدٌ عَلَى الْعُدْوَانِ عَلَى هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَإِذَا اعْتَدَى وَجِدَ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - مَنْ يَصُدُّهُ وَيَرُدُّهُ عَلَى عَقِبِهِ.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ آيَاتٌ، أَي: علاماتٌ دَالَّةٌ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَى أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَعَلَى أَنَّهُ شَرَعُ اللَّهِ.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَلِهَذَا لَمْ يَدْعِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا يَخْتَاجُهُ النَّاسُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ إِلَّا عَلَّمَهُمْ إِيَّاهُ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا^(١).

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِالْحِكْمَةِ الْمُطَابَقَةِ لِلْمَصَالِحِ، وَلِهَذَا كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ، وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إِثْبَاتُ الْقِيَاسِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، إِذَا كَانَ قِيَاسًا صَحِيحًا، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الْحَاقَّ النَّظِيرَ بِنَظِيرِهِ فِي الْحُكْمِ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِيهَا عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ، وَدَلَائِلُ هَذَا كَثِيرَةٌ، فَكُلُّ مِثْلٍ ضَرَبَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْقِيَاسِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مِثْلٍ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْقِيَاسِ.

وقد كان النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم يذكر المحسوس؛ ليقاس عليه المعقول، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ! كَأَنَّهُ يُعَرَّضُ بِزَوْجَتِهِ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلَوَانُهَا؟»

قال: حُمْرٌ، قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزَقٍ؟» وَالْأَوْزَقُ: ما لَوْنُهُ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، قال: نعم، قال: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قال: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قال: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»^(١)، فَاقْتَنَعَ الرَّجُلُ اقْتِنَاعًا كاملاً؛ لِأَنَّ الْحَقَّ النَّظِيرَ بِنَظِيرِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ.

لكن أكثر ما يَخْصُلُ فِي الْقِيَّاسِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ صَحِيحًا، حَيْثُ يَقْيَسُ الْقَائِسُ شَيْئًا عَلَى مَا لَا يُمِثِّلُهُ، وَحِينَئِذٍ يَخْصُلُ الْخَطَأُ، وَتَكْثُرُ مُجَانِبَةُ الصَّوَابِ.

٧- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ بُعِثَ؛ لِيَتِمَّ لِأُمَّتِهِ الْمَكَارِمُ، وَيُنْمِيَ فِيهَا الْفَضَائِلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وَرُبَّمَا تَشْمَلُ التَّزْكِيَّةُ: التَّعْدِيلَ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْفِسْقِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِذِهِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَدْلًا مَقْبُولًا.

٨- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ، وَدُعَائِهِ بِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٩- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: (الْعَزِيزُ) وَ(الْحَكِيمُ).

١٠- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ لِلَّهِ، فَأَمَّا الْعِزَّةُ فَقَدْ سَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

■ عِزَّةٌ قَدْرٌ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو قَدْرٍ عَظِيمٍ لَا يُمِثِّلُهُ شَيْءٌ فِي قَدْرِهِ.

■ وَعِزَّةٌ قَهْرٌ وَغَلَبَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَاهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

■ وعِزَّةٌ اٰمِنَةٌ، وهي أَنَّ الله تعالى يمتنع عن كُلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [المنافقون: ٨].

١١ - ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ الْحِكْمَةِ لِلّٰهِ، وَالْحِكْمَةُ: هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقَ بِهِ، ثُمَّ هِيَ نَوْعَانِ:

■ حِكْمَةٌ فِي جَعْلِ الشَّيْءِ عَلَى صِفَةٍ مُّعَيَّنَةٍ.

■ وَحِكْمَةٌ فِي الْغَايَةِ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ.

وتكونُ في الشَّرْعِ، وتكونُ في الْقَدَرِ، ولنضرب لهذا مثلاً بالقَمَرِ، فقد وَضَعَهُ اللهُ تعالى في السَّمَاءِ، وجَعَلَهُ مُقَدَّرًا بِمَنَازِلَ، وهذا التَّقْدِيرُ يَخْتَلِفُ بِهِ الْحَجْمُ الْمُضِيُّ مِنْ الْقَمَرِ، فَكَوْنُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْمُعَيَّنَةِ - يَزْدَادُ حَجْمُ الْمُضِيِّ فِيهِ رُويْدًا رُويْدًا حَتَّى يَنْتَهِيَ، ثُمَّ يَعُودُ فِي النَّقْصِ - هَذِهِ حِكْمَةٌ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَيَجِدَ ضَوْءَهُ نَاقِصًا، يَعْرِفُ أَنَّهُ فِي الرَّبْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ مَثَلًا، وَإِذَا وَجَدَهُ مُتَمَلِّئًا عَرَفَ أَنَّهُ فِي نِصْفِ الشَّهْرِ، وَهَكَذَا، ثُمَّ إِنَّ الْغَايَةَ مِنْهُ هُوَ أَنْ نَعْرِفَ عِدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ، فَكَانَ هَذَا حِكْمَةً فِي كَوْنِ الْقَمَرِ عَلَى صِفَةٍ مُّعَيَّنَةٍ، وَفِي الْغَايَةِ مِنْ تَقْدِيرِهِ مَنَازِلَ؛ لِنَعْلَمَ بِذَلِكَ عِدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ.

كَذَلِكَ أَيْضًا فِي الصَّلَاةِ - وَهِيَ شَرْعِيَّةٌ - نَجِدُ أَنَّ كَوْنَهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْمُعَيَّنَةِ فِي غَايَةِ الْحِكْمَةِ: قِيَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَقَرُّبُ إِلَيْهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَمُنَاجَاتِهِ بِهِ، ثُمَّ رُكُوعُ يُفِيدُ قُوَّةَ التَّعْظِيمِ لِلّٰهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ قِيَامٌ بَعْدَهُ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِنْسَانُ سَاجِدًا لِلّٰهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ أَعْلَى انْتِصَابٍ لَهُ إِلَى أَسْفَلٍ انْخِفَاضٍ لَهُ؛ حَيْثُ يَضَعُ أَعْلَى مَا فِي بَدَنِهِ، وَأَشْرَفَ مَا فِي بَدَنِهِ - وَهُوَ الْوَجْهُ - عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَوْطِئُ الْأَقْدَامِ، وَأَسْفَلَ مَا يَكُونُ مِنْ

الجِسْم؛ تَوَاضَعًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَعْظِيمًا لَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْعَبْدُ إِذَا سَجَدَ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ، ثُمَّ قَعُودَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَكَذَا، فَكَوْنُ الصَّلَاةِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فِي غَايَةِ الْحِكْمَةِ.

ثُمَّ إِنَّ الثَّمَرَاتِ الْمَرْجُوءَةَ مِنْ هَذِهِ الصَّلَاةِ أَيْضًا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، هِيَ حِكْمَةُ الْغَايَةِ، وَحِكْمَةُ الْغَايَةِ مِنَ الصَّلَاةِ هِيَ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي نَفْعِ الصَّلَاةِ فِي الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَفِي نَفْعِ الصَّلَاةِ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ قَالَ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كَائِنَتْ فِي الْأُمُورِ فِي صِفَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا، ثُمَّ فِي الْغَايَةِ مِنْهَا.

١٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ الْحُكْمِ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَخَدَهُ، أَمَّا كَوْنًا فَإِنَّهُ لَا مُشَارِكَ لَهُ فِي حُكْمِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُشَارِكَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، فَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَ الْمَوْتَ إِذَا حَضَرَ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا مِمَّا ضَعُفَ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فَحُكْمُ اللَّهِ الْكُونِيُّ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ مَخَالِفَتَهُ، وَلَا مُضَادَّتَهُ، وَلَا مُعَارَضَتَهُ، وَلِهَذَا نَجِدُ أَنَّ الْفَيْضَانَاتِ الْعَظِيمَةَ، وَالْعَوَاصِفَ الْمُدْمِرَةَ، وَالصَّوَاعِقَ الْمُحْرِقَةَ تَنْزِلُ عَلَى أَعْظَمِ دَوْلَةٍ وَأَقْوَاهَا صِنَاعَةً وَاقْتِصَادًا وَسِلَاحًا، وَتُدْمِرُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تُدْمِرَهُ، وَلَا يَمْلِكُونَ رَدَّهَا.

أَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَإِنَّهُ قَدْ يُغَيَّرُ وَقَدْ يُبَدَّلُ، لَكِنَّ تَغْيِيرَهُ وَتَبْدِيلَهُ اعْتِدَاءٌ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَلْقَى جَزَاءَهُ مَنْ بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ لَوْ بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ فَإِنَّهُ بَاقٍ، وَلَا سِيَّمَا شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِأَنَّهَا مَكْتُوبٌ لَهَا الْبَقَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا يُحَاوِلُ الْمُبْطِلُونَ الْمُعْتَدُونَ الْمُلْحِدُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنْ يُقَيِّضُ اللَّهُ لَهَا مَنْ يَكْبَحُ جِمَاحَهُمْ، وَيُرْدُّ عُدْوَانَهُمْ.

إِذَنْ: الْحَكِيمُ مِنَ الْحُكْمِ، وَمِنَ الْحِكْمَةِ، وَالْحِكْمَةُ حِكْمَةُ الشَّيْءِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، وَحِكْمَةُ الشَّيْءِ فِي الْغَايَةِ وَالثَّمَرَةِ الْمَرْجُوءَةِ مِنْهُ، وَالْحُكْمُ كَوْنِيٌّ وَشَرْعِيٌّ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْحُكْمُ الْكَوْنِيُّ لَهُ حِكْمَتَانِ: حِكْمَةٌ وَصْفِيَّةٌ، وَحِكْمَةٌ غَايِيَّةٌ، وَالْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ لَهُ حِكْمَتَانِ: حِكْمَةٌ وَصْفِيَّةٌ، وَحِكْمَةٌ غَايِيَّةٌ.

١٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ فَإِنَّهُ لَنْ يَسْتَمِدَّ الْعِزَّةَ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْعِزَّةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ تَكُونُ بِأَمْرَيْنِ: بِالْاِسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِهِ، وَبِدُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ الْعِزَّةَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿آل عمران: ٢٦-٢٧﴾.

١٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَرْضَى بِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَبِمَا شَرَعَهُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحِكْمَةِ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ

ما قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْكَ صَادِرٌ عَنْ حِكْمَةٍ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَقْتَنِعُ؛ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكَ، وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ فَإِنَّكَ تَنْقَادُ لَهَا، وَتَرْضَى بِهِذِهِ الشَّرِيعَةَ، وَتَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّ مُحَالَفَتَهَا هُوَ السَّفَهُ وَالْبَاطِلُ.

١٥ - ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْفَائِدَةُ الْمَسْلُكِيَّةُ فِي أَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ تَعَالَى كَوْنًا وَشَرْعًا فَإِنَّكَ لَنْ تَتَجَاسَرَ عَلَى مُحَالَفَةِ أَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا أَنَّكَ لَنْ تَتِمَكَّنَ مِنْ مُحَالَفَةِ أَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ مُسْلِمًا لِلَّهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، كَوْنًا وَشَرْعًا.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠)

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا مَا قَامَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأَقْوَالِ الْحَمِيدَةِ، وَالِدَّعَوَاتِ الْمُسْتَجَابَةِ، وَالْإِخْلَاصِ التَّامِّ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يعني: لَا أَحَدَ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ - وَهِيَ دِينُهُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يعني: إِلَّا مَنْ رَضِيَ لَهَا السَّفَهَ، وَالسَّفَهُ ضِدُّ الرُّشْدِ، وَهُوَ - أَعْنِي: السَّفَهَ - التَّصَرُّفُ عَلَى وَجْهِ الْخَطَأِ.

وَيَبِّنُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَضْلَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾، فَيَكُونُ مَنْ اتَّبَعَ مِلَّتَهُ مُصْطَفًى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ، كَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - الثَّنَاءُ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَهِيَ دِينُهُ الْمُبْنِيُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةِ لَشَرْعِهِ، وَلَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].
- ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ اتِّبَاعَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الْعَقْلُ وَالرُّشْدُ وَالصَّلَاحُ.
- ٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَهُوَ السَّفِيهَ الَّذِي أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي السَّفَاهِ، وَإِذَا كَانَ النَّاسُ يَعُدُّونَ مَنْ تَصَرَّفَ فِي مَالِهِ خَبْطَ عَشَوَاءَ سَفِيهًا فَإِنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَسَفَهُ مِنْهُ.
- ٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الثَّنَاءُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِكَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى اصْطَفَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَوَعَدَهُ وَأَكَّدَ أَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ.
- ٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ طَرِيقَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِلَّتَهُ صَفْوَةُ أَعْمَالِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهَا شَرِيعَةُ اللَّهِ، وَلِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَمَّنْ اصْطَفَاهُ اللَّهُ، فَتَكُونُ هِيَ الصَّفْوَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ الَّتِي لَا يَرْغَبُ عَنْهَا إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.
- ٦ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِثْبَاتُ الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْيَوْمُ الْآخِرُ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيُنَالُوا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].
- ٧ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الصَّلَاحَ وَصَفٌ حَمِيدٌ حَتَّى لِلرُّسُلِ، فَهُمْ -أَي: الرُّسُلُ- قِمَّةُ الصَّالِحِينَ، وَإِنْ كَانَ الصَّلَاحُ قَدْ يَكُونُ قِسِيمًا لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ إِذَا قُرِنَ مَعَهَا فِي الذِّكْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾
[النساء: ٦٩]، لكن إذا ذُكِرَ الصَّالِح وَحْدَهُ فهو عامٌّ للجميع.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: جَوَازُ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بالصَّالِح؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، وفي حديث المعراج: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ فِي السَّمَوَاتِ يَقُولُ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ!» وقال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ!»^(١).

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣)

قوله: ﴿إِذْ﴾ هذه مُتَعَلِّقة بشيءٍ محذوفٍ، والتَّقْدِيرُ: اذْكُرْ مُنَوَّهَا وَمُثْنِيًّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ﴾ أَي: أَسْلِمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِسْلَامًا شَرْعِيًّا، كَمَا أَنَّهُ مُسْلِمٌ لَهُ إِسْلَامًا كَوْنِيًّا قَدْرِيًّا، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فكان الجوابُ جوابَ مُبَادَرَةٍ وَفَوْرِيَّةٍ، لَمْ يَتَأَخَّرْ، وَلَمْ يَتَوَانَ.

وقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّي»؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَعْمُ وَأَشْمَلُ، وَهُوَ كَالْتَّغْلِيلِ لِلْحُكْمِ - أَي: الْإِسْلَامِ - يَعْنِي: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ كَمَا يَشَاءُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - فضيلة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث أضاف الله رُبُوبِيَّتَهُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾.

٢ - ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّنْوِيهِ بِذِكْرِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَيَانِ فَضْلِهِ، وَهَذِهِ مِنْ عَادَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ ذِكْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا بَعْدَ عَمَلِهِ، وَيُقَيِّضُ مَنْ يَبْعَثُ حَيَاتَهُ وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جَمِيعًا نُورًا مَهْتَدِي بِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢)

﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أَي: بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ - وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ - ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ وَصَّى بِهَا بَنِيهِ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أَي: وَصَّى بِهَا بَنِيهِ أَيْضًا، وَيَعْقُوبُ هُوَ ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَيَكُونُ إِبْرَاهِيمُ جَدًّا لَهُ، ﴿يَبْنَئِي﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴿اخْتَارَهُ لَكُمْ دِينًا تَدِينُونَ بِهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، تَقُومُونَ بِحَقِّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: اسْتَمِرُّوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ إِلَى الْمَوْتِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١ - أَهَمِّيَّةُ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَّوْا بِهِ أَبْنَاءَهُمْ.
- ٢ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْبَيْنَ الذُّكُورِ هُمْ أَهْلُ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمِهْمَةِ الْعَظِيمَةِ: الْإِسْلَامِ لِلَّهِ، وَالِدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ.
- ٣ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: تَفْضِيلُ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ.
- ٤ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: بَيَانُ أَنَّ يَعْقُوبَ - وَهُوَ ابْنُ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ - وَصَّى بِهَا بَنِيهِ أَيْضًا، وَمِنْ أَبْنَائِهِ: يُوسُفُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِ سُورَةَ كَامِلَةً.
- ٥ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اصْطَفَى هَذَا الدِّينَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاخْتَارَهُ لَهُمْ.
- ٦ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ بِالْدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، حَيْثُ اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِعِبَادِهِ، ثُمَّ شُكِرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.
- ٧ - وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ اسْتِمْرَارِ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى الْمَوْتِ، وَهَذَا يَنْفَرِّغُ عَنْهُ فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ حِرْصُ الْإِنْسَانِ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ إِلَى أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ مُسْلِمٌ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣)

﴿أَمْ﴾ هنا في مَعْنَى (بل) وَهَمْزَةُ الاستِفْهَامِ، والتَّقْدِيرُ: بل أَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴿﴾، والمَقْصُودُ بهذا: تَقْرِيرُ هذه الوَصِيَّةِ الَّتِي وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ، ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ يعني: أَي مَعْبُودٍ تَعْبُدُونَهُ مِن بَعْدِي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وهو الله رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ هُنَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ وَالتَّبَعِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ لَيْسَ مِنْ آبَاءِ يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّهُ عَمُّهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا شَعَرْتُ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ؟»^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ هَذَا تَأْكِيدُ التَّوْحِيدِ، يَعْنِي: لَا نَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ نَعْبُدُهُ هُوَ ﴿إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ﴾ أَي: لِهَذَا الْمَعْبُودِ - وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّ وَجَلَّ - ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أَي: مُسْتَسْلِمُونَ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - بَيَانُ حِرْصِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَنْ يَكُونَ بَنُوهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والاستِسْلَام له ظاهرًا وباطنًا، ووجه ذلك: أَنَّهُ سَأَلَ بَنِيهِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وهو في سِيَاقِ الْمَوْتِ.

٢- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ قَوْلَ الْمُحْتَضِرِ مُعْتَبَرٌ مَعْمُولٌ بِهِ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ باختِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا احْتَضَرَ، وَنَزَلَ الْمَلَكُ لِقَبْضِ رُوحِهِ، غَابَ عَنْ شُعُورِهِ، وَلَمْ يَذَرِ مَا يَقُولُ، وَهَذَا لَا عِبْرَةَ بِقَوْلِهِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْقَى مَعَهُ فَكْرُهُ وَإِحْسَاسُهُ وَإِنْ كَانَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ.

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: حِرْصُ الْأَبِ عَلَى أَبْنَائِهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُورَثَ بَعْدَهُ ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ تَعْبُدُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْآبَاءَ وَالْأَجْدَادَ يَكُونُونَ أُسُوةً لِأَبْنَائِهِمْ وَأَبْنَاءَ أَبْنَائِهِمْ، فِيمَا أُسُوةَ حَسَنَةٍ وَإِمَّا أُسُوةَ سَيِّئَةٍ، فَهَؤُلَاءِ الْبَنُونَ -أعني: بَنِي يَعْقُوبَ- قَالُوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾، وَالْكَفَّارَ الَّذِينَ عَانَدُوا الْمُرْسَلِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ مُبْتَلًى بِمَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الْأَلَا يُشَاهِدَهُ أَهْلُهُ عَلَيْهَا، وَأَضْرِبُ لَذَلِكَ مَثَلًا بِشُرْبِ الدُّخَانِ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ مُبْتَلًى بِهَذِهِ الْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ يَشْرِبُهَا أَمَامَ أَبْنَائِهِ، فَيَأْلُقُونَ هَذَا، وَرُبَّمَا يَشْرِبُونَهُ كَمَا يَشْرِبُهُ أَبُوهُمْ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ دَلَالًا عَلَى سَيِّئَةٍ، عَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرْ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: إِطْلَاقُ اسْمِ الْأَبِ عَلَى الْجَدِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ

من أقوال أهل العلم في أن الجد في الميراث بمنزلة الأب، فيحجب الإخوة، سواء كانوا أشقاء، أم لأب، أم لأم.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إطلاق لفظ الأب على العم تغليبا؛ لقوله: ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أن التوحيد لا يتم إلا باعتقاد وحدانية الله عز وجل، بحيث لا يعتقد الإنسان له شريكا؛ لقوله: ﴿إِلَهًا وَحِدًا﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة بني يعقوب، حيث قالوا: إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وَيُسَلِّمُونَ لَهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، نسأل الله تعالى أن يحقق لنا جميعا الإسلام له؛ حتى نلقاه على أحسن حال يرضى بها عنا.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧٢)
 ﴿تِلْكَ﴾ المشار إليه: مَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ، حَيْثُ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ انْتِسَابَهُ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَبِي فُلَانٌ!
 فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: عَمَّا كَانَ يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ، بَلْ كُلُّ يُسْأَلُ عَمَّا عَمِلَ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- قَطْعُ تَعَلُّقِ الْإِنْسَانِ بِالنَّسَبِ، وَأَنْ نَسَبَهُ لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْفَعُهُ

هو الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي يَكُونُ قَرِينَهُ فِي قَبْرِهِ وَفِي حَشْرِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(١).

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ كَسْبَ الْآبَاءِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْأَبْنَاءُ، وَأَنَّ كَسْبَ الْأَبْنَاءِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْآبَاءُ، إِلَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا، فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ الْمُسَبَّبُ لِلْخَيْرِ عَلَى مَا تَسَبَّبَ بِهِ؛ لِأَنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْ كَسَبَهُ، فَمَنْ اقْتَدَى بِكَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَانْتَفَعَ بِمَا عَمِلْتَ فَإِنَّ أَجْرَهُ يَنَالُكَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الْأَبْنَاءَ وَالْأَحْفَادَ لَا يُسْأَلُونَ عَمَّا يَعْمَلُهُ الْآبَاءُ، بَلْ خَطِيئَةُ الْآبَاءِ عَلَيْهِمْ، وَخَطِيئَةُ الْأَبْنَاءِ عَلَيْهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُشْئِلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.



ثُمَّ قَالَ سُُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قَالَتِ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: كُونُوا هُودًا تَهْتَدُوا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: كُونُوا نَصَارَى تَهْتَدُوا، وَكَذَّبُوا فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْهِدَايَةَ بَاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَبَعْدَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)، ومسلم: كتاب الزهد، رقم (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِعَثَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ لَا اهْتِدَاءَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا بِالَّذِينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَي: بَلْ تَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، أَي: دِينَهُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، ﴿حَنِيفًا﴾ أَي: بِدُونِ مِيلٍ إِلَى الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، بَلْ كَانَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ لَا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَضْلِيلِهِمُ النَّاسَ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ قَدْ يَدْعُونَ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى آتَاهُمُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لَكِنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كَتَمُوا الْحَقَّ، وَقَالُوا: الْحَقُّ مَعَنَا، وَمَنْ اتَّبَعَنَا فَهُوَ الَّذِي قَدْ اهْتَدَى.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: عِنَايَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ رَدَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُضِلِّينَ -الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى- بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يُجِبُّ عَلَى مَنْ بَيَّنَّ الْبَاطِلَ أَنْ يُبَيِّنَ الْحَقَّ؛ لِيَسِيرَ النَّاسُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ دِينٍ يَدِينُونَ بِهِ، وَمَنْ عَمَلٍ يَسْلُكُونَهُ وَيَنْهَجُونَهُ، فَإِمَّا خَيْرٌ، وَإِمَّا شَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ بَلْ﴾ أَي: بَلْ لَا نَكُونُ هُودًا وَلَا نَصَارَى، بَلْ تَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: بيان منقبة عظيمة من مناقب إبراهيم عليه السلام، حيث كان على غاية من الإخلاص لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الشرك، كيف لا، وهم قد جاؤوا لإبطال الشرك، والقضاء على أهله؟! ﴿فَلْيُلْوَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُوا دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

الخطاب في قوله: ﴿قُولُوا﴾ لكل من كان من بني آدم بعد نزول هذه الآية، فالخطاب -إذن- موجه لكل أمة الدعوة.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: أقرزنا بوجوده، وأدعنا لأمره، وقيلنا خبره، والإيمان بالله سبحانه وتعالى يتضمن عدة أمور، يتضمن: الإيمان بوجوده، والإيمان برؤيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن انتقص شيئاً من هذه الأمور الأربعة فإن إيمانه ناقص، وقد يكون إيمانه معدوماً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَّآ إِلَيْنَا﴾ وَاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ، وهؤلاء كلهم أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَا يَهْتَدُونَ بِهِ وَيَهْدُونَ بِهِ، وما من رَسُولٍ إِلَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كِتَابًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ قيل: إنَّ المراد بهم: أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ، وقيل: المراد بالأسباط: الْقَبَائِلُ الَّتِي تَفَرَّقَ إِلَيْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، أي: مَا أُنْزِلَ إِلَى الْأَسْبَاطِ بِوَاسِطَةِ أَنْبِيَائِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: مَا أُوتِيَ مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَكَذَلِكَ مَا أُوتِيَ عِيسَى مِنَ الْآيَاتِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ، وَهُوَ الْإِنْجِيلُ، ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ -يَعْنِي: بَعَثَهُ اللَّهُ- إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»^(١) وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ آيَاتٌ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ صِدْقَ مَا بُعِثُوا بِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَنْ يُصَدِّقُوا إِذَا جَاءَهُمْ شَخْصٌ، وَقَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ! إِلَّا بِآيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ آيَةً.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي؟، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإتيان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا نفرِّق بين أحدٍ من هؤلاء الرُّسل عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، والمراد: أننا لا نفرِّق بينهم في أصلِ الإيمان، فإننا نُؤمِنُ بأنَّهم كلُّهم صَادِقُونَ فيما جاؤوا به من الوحي، وأنَّهم رُسُلُ الله عَزَّجَلَّ إلى خلقه، ولكنَّا نفرِّق بينهم من حيثُ الأحكامُ والشَّرْعَةُ، أي: الشَّرائع، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨]، فشرائعُ مَنْ قَبَلْنَا لا تَلْزُمُنَا، وإنَّا تَلْزُمُنَا شَرِيعَتُنَا الَّتِي جَاءَ بِهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا شَرَائِعُ مَنْ قَبَلْنَا فَإِنْ وَافَقَتْهَا شَرِيعَتُنَا عَمِلْنَا بِهَا؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ شَرِيعَتَنَا جَاءَتْ بِهَا، وَإِلَّا فَإِنَّهَا تَكُونُ مَنسُوخَةً بِشَرِيعَتِنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحنُ لله مُسْلِمُونَ، أي: مُتَقَادُونَ لَأَمْرِهِ، مُتَّبِعُونَ لَشَرْعِهِ.

وهذه الآيةُ فيها أصولٌ عظيمةٌ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأُ بها أحياناً في سنةِ الفجرِ في الرَّكْعَةِ الأولى، وفي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ يقرأُ: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]^(١)، وأحياناً يقرأُ في الرَّكْعَةِ الأولى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٧/١٠٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

- ١- وَجُوبُ الْإِيْمَانِ بِمَا ذَكَرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾.
- ٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْإِيْمَانُ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِوَاسِطَةِ جَبْرِئِلَ الْأَمِينِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَتُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ الْمَدِينِ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].
- وَتُؤْمِنُ كَذَلِكَ بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَأَنَّهَا أَخْبَارُ حَقٍّ، وَتُؤْمِنُ كَذَلِكَ بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْقُرْآنُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَهِيَ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَأَنَّهَا أَحْكَامٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةِ، وَتَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ، وَلِهَذَا لَا رَحْمَةَ بِالْخَلْقِ أَعْظَمُ مِنْ رَحْمَتِهِمْ بِهَذَا الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ.
- ٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ الْإِيْمَانِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ، كَالصُّحُفِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [ص: ١٨] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨-١٩]، وَكَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... إِلَى آخِرِهِ.
- ٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ كُلَّهُمْ قَدْ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ: إِسْمَاعِيلُ، وَإِسْحَاقُ، وَيَعْقُوبُ، وَالْأَسْبَاطُ، يَعْنِي: أَنْبِيَاءُ الْأَسْبَاطِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ.
- ٥- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ الْإِيْمَانِ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ.

فمن آياتها الشَّرِيعَةُ: التَّوْرَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى، وَمِنْ آيَاتِهَا الْكُونِيَّةُ: أَنَّ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَصَا، إِذَا وَضَعَهَا فِي الْأَرْضِ انْقَلَبَتْ حَيَّةً، وَإِذَا حَمَلَهَا عَادَتْ عَصَا، وَأَنَّهُ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، أَي: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، لَكِنَّهُ بَيَاضٌ نُورٌ.

أَمَّا آيَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يَمْسَحُ ذَا عَاهَةٍ إِلَّا بَرَأَ، فَهُوَ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، يَأْمُرُ الْمَيِّتَ فَيَحْيَى، وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ، يَقُولُ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ: اخْرُجْ! فَيَخْرُجُ، وَلَكِنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُحْيِيَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا أَنْ يُمَيِّتَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ قَوْلَ عِيسَى سَبَبًا، فَإِذَا قَالَ عِيسَى لِلْمَيِّتِ: قُمْ حَيًّا! وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قَامَ حَيًّا، وَإِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ، وَقَالَ: اخْرُجْ حَيًّا! خَرَجَ حَيًّا.

وَكَانَ أَيْضًا يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، أَي: صُورَةَ الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهَا، فَتَكُونُ طَيْرًا يَطِيرُ بِإِذْنِ اللَّهِ، يَنْفِلِتُ مِنْ يَدِهِ طَائِرًا، وَهَذَا التَّنْفُخُ الَّذِي يَنْفُخُهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ نَفْخُ لِلرُّوحِ فِي هَذَا التَّمَثَالِ الَّذِي كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

٦- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَا أُوتِيَ الْأَنْبِيَاءُ عُمُومًا مِنَ الْآيَاتِ، وَأَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ سِحْرًا، بَلْ تَكُونُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذْنِهِ.

٧- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يُجِبُّ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، نُوْمِنُ بِذَلِكَ إِيْمَانًا لَا نُفَرِّقُ فِيهِ بَيْنَ وَاحِدٍ وَآخَرَ، وَهَذَا مِنْ حَيْثُ

الخبر، فيجب علينا أن نصدق أخبارهم، ونؤمن بها، أمّا من جهة الأحكام فلكل جعل الله شرعةً ومنهاجاً، وكلُّ أمةٍ تعملُ بما جاء في شريعتهَا من الأحكام.

- ٨- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلةُ هذه الأمة، حيث كانت الآخرة؛ لتصدق جميع الأنبياء السابقين، فيكون لها فضيلةُ الإيمان بكل الأنبياء السابقين.
- ٩- ومن فوائدها وأحكامها: إعلان الإخلاصِ لله في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ كَفَرُوا فَاِنَّهُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧)

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾ يعني: المكذّبين لرّسول الله ﷺ من اليهود، والنصارى، والمشركين ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الكريم، والباء قيل: إنّها زائدة، والمعنى: فإن آمنوا مثل ما آمنتم به، وقيل: إنّ المثل بمعنى الصّفة، أي: فإن آمنوا بصفة ما آمنتم به، أي: على صفة ما آمنتم به، ونحن قد آمنّا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وآمنّا بالقدر خيرَه وشرّه، والتزمنا بأحكام شريعة محمد ﷺ، فإذا آمنوا مثل هذا الإيمان الذي آمنت به هذه الأمة ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾، وهذا مقابل قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فيكون الاهتداء حقيقةً لمن كان مسلماً مؤمناً بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ نَوَلَّوْا﴾ يعني: أَعْرَضُوا عن الإيمان بمثل ما آمَنْتُمْ به ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: في تَبَاعُدٍ عن الدين، ومُنَازَعَةٍ فيه، وهذا لا يضرُّكم، ولكن يضرُّهم، ولهذا قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: فسَيَكُونُ اللهُ كافيًا لك بالنسبة لهم، وسيُضْرَكُ عليهم، وقد حَصَلَ هذا -والله الحمد- فإنَّ اليهود والنصارى أَذَلَّهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ، لَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَعَزَّةَ بَدِينِ اللهِ، قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللهِ، صار اليهود والنصارى أَذِلَّةً بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يُؤَدُّونَ الْجُزْيَةَ أَوْ يُسْلِمُونَ.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سبق الكلامُ عليه عند قولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن إبراهيم وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فلا حاجة إلى إعادة الكلام عليه^(١).

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيانُ أَنَّهُ لَا هِدَايَةَ بغيرِ الإيمانِ بما آمَنْتَ به هذه الأمة؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، وإذا فات الشرطُ فات المشروطُ.

٢- ومن فوائدِها وأحكامها: أَنَّ اليهود والنصارى ضَالُّونَ تَائِهُونَ بَعِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، فمفهومه: إذا لم يُؤْمِنُوا كذلك فلا هِدَايَةَ لهم.

٣- ومن فوائدِها وأحكامها: ضَلَالُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ دِينَ اليهود والنصارى اليومَ دِينٌ قائمٌ مُشْتَمِلٌ على الهداية، مقبولٌ عند الله، وَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ خَارِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ -والعِيَادُ بالله- مُكَذِّبٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ

(١) انظر: (ص: ٤١٠).

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، ومعلومٌ أَنَّ مَنْ شَهِدَ أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ دِينَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى دِينُ حَقِّ الْيَوْمِ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، فَيَكُونُ هَذَا مُكَذِّبًا لِقَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ الْأُمَّةَ السَّابِقَةَ قَبْلَنَا تَبِعْ لَنَا، يَلْزَمُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِشَرِيعَتِنَا، وَيَتَّبِعُوا شَرِيعَتَنَا، وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، فَنَحْنُ الْآخِرُونَ زَمَنًا، السَّابِقُونَ فَضْلًا، السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَشَرًا، وَنَشْرًا، وَإِعْطَاءً لِلْكِتَابِ، وَعُبُورًا عَلَى الصِّرَاطِ، وَدُخُولًا لِلْجَنَّةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: تَهْدِيدُ الْمُتَوَلِّينَ عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَتَمُّهُمْ فِي شِقَاقٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ نُوَلِّوْا فِئْمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ ﴿٨٦﴾ أَي: فِي شِقِّ بَعِيدٍ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ الْمَقْبُولِ عِنْدَ اللَّهِ.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: الْبُشْرَى السَّارَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَكْفِي نَبِيَّهُ كُلَّ عَدُوٍّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: تَنْشِيطُ الْمُسْلِمِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّهُ مَنْصُورٌ وَلَا بُدَّ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافِيهِ أَعْدَاءَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ عَدُوٍّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: إِثْبَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا (السَّمِيعُ) وَ(الْعَلِيمُ)، وَإِثْبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَانِ الْأَسْمَانِ الْكَرِيمَانِ مِنَ الصِّفَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِالسَّمْعِ، وَمَوْصُوفٌ بِالْعِلْمِ، فَسَمْعُهُ وَاسِعٌ لِلْأَصْوَاتِ كُلِّهَا، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

•••••

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ (١٣٨)

قَوْلُهُ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مَنصُوبٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: الزَّمُوا صِبْغَةَ اللَّهِ، أَيِ: دِينَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أَيِ: لَا أَحَدٌ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ أَيِ: لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ ﴿عَبِيدُونَ﴾ أَيِ: مُتَدَلِّلُونَ بِالطَّاعَةِ بِأَمَثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- فَضِيلَةُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ، حَيْثُ أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ أَحْسَنَ شَرِيعَةٍ يَسْتَمْسِكُ بِهَا الْخَلْقُ شَرِيعَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وَجُوبُ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ، وَمُقْتَضَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ: أَنْ يَكُونَ مُتَمَثِّلًا لِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُجْتَنِبًا لِنَهْيِهِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مَأْخُودَةٌ مِنَ التَّعَبُّدِ، وَهُوَ التَّذَلُّلُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: وَجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ يُفِيدُ الْحَضَرَ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُخْلِصُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدُ! وَيَصُحُّ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِكُلِّ مَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ لِلإِنْكَارِ، وَالْمُحَاجَّةُ هِيَ الْمُخَاصَمَةُ؛ لِإِفْتِنَاعِ الْخِصْمِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْخِصْمَيْنِ يُذِلُّ بِحُجَّتِهِ؛ لِيُلْزَمَ بِهَا الْآخَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي اللَّهِ﴾ أَي: فِي دِينِهِ وَشَرْعِهِ، فَتَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَلَى الْحَقِّ، مَعَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ مَنْ اتَّبَعَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بِاتِّفَاقِنَا وَاتِّفَاقِكُمْ أَنَّهُ رَبُّ الْجَمِيعِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا إِقْرَارَكُمْ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا

بَشْرِهِ الْآخِرِ فَالْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ رَبٌّ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ مَا شَاءَ مِنْ أُمُورِهِمْ، فَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ يعني: أَنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ لِلْجَمِيعِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَكُلُّ ذِي عَمَلٍ فَعَمَلُهُ لَهُ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]، فَكَيْفَ تُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَنَحْنُ نَتَّفِقُ جَمِيعًا عَلَى أَنَّهُ رَبُّنَا، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَ هَذَا الرَّبَّ؟! فَلَنَا أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ.

ثُمَّ خَتَمَ الْآيَةَ بِذِكْرِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِخْلَاصُ الشَّيْءِ تَنْقِيَتُهُ مِمَّا يَشُوبُهُ، فَالْمَعْنَى: نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَةِ، لَا نَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَلَا نَتَّخِذُ رَبًّا سِوَاهُ.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١- الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، بَلْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْتَحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ﴾.

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي عِنْدَ الْمَحَاجَّةِ ذِكْرُ مَا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ الطَّرَفَانِ؛ لِيَكُونَ مُلْزِمًا لِلْآخِرِ فِيمَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الْإِتِّفَاقُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وَقَدْ سَبَقَ فِي تَفْسِيرِهَا مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ وَجْهُ ذَلِكَ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: التَّبَرُّؤُ مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْاعْتِزَالُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةُ شَخْصِيَّةٍ، يَعْتَزُّ بِهَا فِي دِينِهِ، وَفِي شَرِّعِهِ، وَفِي مِنْهَاجِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: الْحَذَرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ لَهُمْ - وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ - فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: فَضْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِخْلَاصِهَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أَي: لَهُ، لَا لِغَيْرِهِ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿أَمْرٌ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١٢٠)

﴿أَمْرٌ﴾ هُنَا بِمَعْنَى: (بَل) وَهَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ، أَي: بَلْ أَتَقُولُونَ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلِانْتِكَارِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلَ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وَهَلْ هَذَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَإِسْحَاقُ، وَيَعْقُوبُ، وَالْأَسْبَاطُ الْمُتَقَدِّمُونَ هُودًا أَوْ نَصَارَى،

وَالْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ لَمْ تَحْدُثَا إِلَّا مِنْ بَعْدِهِمْ؟! هَذَا لَيْسَ بِمَعْقُولٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

يقول عَزَّوَجَلَّ عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟﴾، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْجَوَابَ: بَلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الْأَعْلَمُ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمَ، وَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَنِيهِ، وَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ، كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِخْلَاصِ، فَكَيْفَ تَأْتُونَ أَنْتُمْ، وَتَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا، أَوْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ نَصْرَانِيًّا؟!

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ؟﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ (مَنْ) اسْتِفْهَامٌ، وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُسْتَشْهَدِ أَنْ يَشْهَدَ، وَلَا يَكْتُمَ، وَتَقْدِيرُ الْجَوَابِ لِهَذَا الْاسْتِفْهَامِ أَنْ نَقُولَ: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا﴾ هَذِهِ نَافِيَةٌ، ﴿بِغَفِيلٍ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ الْبَاءُ؛ لَزِيَادَةِ التَّأَكِيدِ، فَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ تَعَالَى غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ؛ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَوَائِدُ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

١ - بَيَانُ بُطْلَانِ هَذِهِ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ الْكَاذِبَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى.

٢- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمُ، وَالْمُنَادَاةُ عَلَيْهِمُ بِالْجَهْلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

٣- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: اتِّخَاذُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْعَظِيمَةِ لِرَدِّ دَعْوَى أَهْلِ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، وَقَالُوا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّصِفَ اللَّهُ بِهَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا حَادِثٌ، أَوْ لِأَنَّ هَذَا يَقْتَضِي التَّجَسُّيمَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فنقول لهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، فَإِنْ قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ، فَقَدْ نَادَوْا عَلَى أَنْفُسِهِم بِالضَّلَالِ، وَإِنْ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ أَعْلَمُ قُلْنَا: إِذَنْ فَأَثْبِتُوا مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَانْفُوا مَا نَفَى اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

٤- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: وَجُوبُ نَشْرِ الْإِنْسَانِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْعِلْمِ، لَا سِيَّامَا فِي أَعْظَمِ الْأُمُورِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

٥- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: أَنَّ مَنْ كَتَمَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ، وَأَظْلَمُ كَتَمٍ لِلشَّهَادَةِ: أَنْ يَكْتُمَ الْإِنْسَانُ مَا أَشْهَدَهُ رَبُّهُ عَلَيْهِ.

٦- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: إِثْبَاتُ كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَمُرَاقَبَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧- ومن فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامُهَا: إِثْبَاتُ صِفَاتِ النَّفْيِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ لَا يُوجَدُ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مُحْضٌ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلَا تُوجَدُ صِفَةٌ مَنْفِيَّةٌ عَنِ اللَّهِ إِلَّا لَتَضَمُّنِهَا كَمَالًا، وَلِهَذَا نَقُولُ: كُلُّ صِفَةٍ نَفَاهَا اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لَشَيْئَيْنِ:

أُولَٰهَآ: نَفَىٰ تِلْكَ الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ.

وثنائيهما: إثباتُ كَمَالٍ ضِدُّهَا.

فمثلاً: قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فَنَفَى الظُّلْمَ عَنْ نَفْسِهِ؛ لِكَمَالِ عَدْلِهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا لِعَجْزِهِ عَنِ الظُّلْمِ، وَعَلَى هَذَا فَقَسْ.

••❦••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١)

هَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ بَعْدَ الْمِئَةِ، وَقَدْ سَبَقَ نَظِيرُهَا فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ بَعْدَ الْمِئَةِ، وَتَكَلَّمْنَا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ، حَسَبَ مَا فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا، وَنُكْتَفِي بِمَا سَبَقَ ^(١).

••❦••

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢)

السَّيِّئُ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ﴾ لِلتَّنْفِيسِ، وَتَقْيِيدِ أَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: تَحْقِيقُ مَذْخُولِهَا.

الْأَمْرُ الثَّانِي: قُرْبُ وَقُوعٍ مَدْخُولِهَا.

و﴿السَّفَهَاءُ﴾ جَمْعُ سَفِيهِ، وَهُوَ مَنْ جَانَبَ الرُّشْدَ فِي تَصَرُّفَاتِهِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَفِي عَقِيدَتِهِ أَيْضًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ وَلَهُمْ -أَي: صَرَفُهُمْ- عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَالْقِبْلَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَارَ يَتَّجِهُ فِي صَلَاتِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ نَحْوَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُؤَلِّيَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -أَي: الْكَعْبَةِ- كَمَا سَيَأْتِي فِي الْآيَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١)، فَرَدَّ اللَّهُ سُجْبَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا الْاِعْتِرَاضُ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّفَهَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أَي: هُوَ مَالِكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ، ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وَمَنْ هَدَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: هَذِهِ الْأُمَّةُ، حَيْثُ هَدَاهُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ الْأَصِيلَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَهِيَ الْكَعْبَةُ، وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ قِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ حَرْفَ الْقِبْلَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَ مِنْ تَصَرُّفِ أَتْبَاعِ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ^(٢).

وَعَلَى هَذَا فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ هُنَا: هُوَ الْاِتِّجَاهُ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ فِي الصَّلَاةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الصَّلَاةِ مِنَ الْإِيمَانِ، رَقْمُ (٤٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْقُدْسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، رَقْمُ (٥٢٥) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (٧/ ٢٧٩).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١ - عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا سَيَكُونُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ مُحِيطٌ بِهَا جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَعِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَزَلِيٌّ لَمْ يُسَبِّقْ بِجَهْلٍ، أَبَدِيٌّ لَا يَلْحَقُهُ نَسْيَانٌ.

٢ - أَنَّهُ لَا يَعْتَرِضُ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ سَفِيهًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفِيهَ لَا يَعْرِفُ الْحِكْمَةَ، أَوْ يَعْرِفُهَا وَيَسْلُكُ خِلَافَهَا، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّيْءَ لَا يَرْتَضِيهِ، لِذَلِكَ سَوْفَ يَعْتَرِضُونَ عَلَى مَا سَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ مِنَ الْأَتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

٣ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَجَهُّ - قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْإِتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَافِقَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِيهَا لَمْ يُؤْمَرْ بِخِلَافِهِ، وَهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَافِقَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِيهَا لَمْ يُؤْمَرْ بِخِلَافِهِ، ثُمَّ صَارَ يَأْمُرُ بِمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ^(١).

٤ - عُمُومُ مُلْكِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، فَهُوَ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ.

٥ - أَنَّ الْهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا تُطْلَبُ الْهِدَايَةُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا يَنْفِي الْإِعْجَابَ بِالنَّفْسِ، وَالْإِفْتِخَارَ بِالْعَمَلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب صفة شعره ﷺ، رقم (٢٣٣٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن لو قال قائل: هل هداية الله سبحانه من يشاء بمجرد المشيئة، أو أنها مقرونة بالحكمة؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: بل هي مقرونة بالحكمة، وما من شيء يحكم الله به إلا وهو مقرون بالحكمة، سواء كان ذلك الحكم الذي حكم الله به شرعياً أم كونياً، ودليل ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠]، فبين سبحانه وتعالى أن مشيئته تابعة لعلمه وحكمته.

وهداية الله سبحانه وتعالى نوعان:

هداية دلالة، وهذه عامة لكل أحد، للكفار والمؤمنين، والفجار والأبرار. وهداية توفيق، وهذه خاصة بمن وفقه الله سبحانه وتعالى لاتباع الحق، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذه هي دلالة التوفيق، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذه هي الهداية العامة أو هداية الدلالة والإرشاد.

مثال الأولى العامة لكل أحد: قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، يعني: الإنسان، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دللناهم على الصراط المستقيم، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى.

٦- أَنَّ طَرِيقَ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَقِيمٌ، لَيْسَ فِيهِ اعْوِجَاجٌ وَلَا انْحِرَافٌ، وَكَوْنُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَصِفُ طَرِيقَهُ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ وَاسِعٌ، لَيْسَ مُحْجُورًا عَلَى أَحَدٍ، بَلْ كُلُّ مَنْ شَاءَ مِنَ النَّاسِ دَخَلَهُ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ لَيْسَ فِيهِ اعْوِجَاجٌ وَلَا انْحِرَافٌ، بَلْ هُوَ مُوَصَّلٌ إِلَى دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِدُونِ انْحِرَافٍ، وَلَا تَرَدُّدٍ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ مَا ذَكَرَ مِنْ هِدَايَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أَي: صَيَّرْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، أَي: عَدْلًا خَيْرًا. وَالْأُمَّةُ: هِيَ الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ، وَتَرَدُّ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ: مِنْهَا: الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وَمِنْهَا: الْإِمَامُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

وَمِنْهَا: الدِّينُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أَي: عَلَى دِينٍ وَمِلَّةٍ.

ومنها: الزَّمَنُ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾

[يوسف: ٤٥].

فهذه أَرْبَعَةُ مَعَانٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لَتَصِيرُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ: على الأنبياء والرُّسُلِ، وعلى الأُمَمِ، فَنَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ، نَشْهَدُ عَلَى مَنْ سَبَقَنَا وَلِمَنْ سَبَقَنَا، فَنَشْهَدُ لِمَنْ سَبَقَنَا مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَنَشْهَدُ عَلَى مَنْ سَبَقَنَا مِنْ أُمَّمِهِمْ أَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغْتُهُمْ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مُكَذِّبِينَ، وَمِنْهُمْ مُصَدِّقِينَ.

وكذلك نكون شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كما جاء بذلك الحديثُ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

وقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الرُّسُولُ هو مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِأَنَّ (أَل) هُنَا لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ، وَلَا مَعْهُودٍ فِي الذَّهْنِ حِينَ نُزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِأَنَّهُ بَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَلِهَذَا لَمَّا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَقَالَ: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، رقم (٣٣٣٩) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبَالُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قبل أن يُؤمَّرَ بالاتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾، وذلك أَنَّهُ لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ صَارَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ شَكٌّ وَارْتِيَابٌ، وَرُبَّمَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ هَذَا التَّوْجِيهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ هَذَا الشَّاكُّ الْمُتَرَدِّدُ: كَيْفَ تَكُونُ قِبْلَتُهُ بِالْأَمْسِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَقِبْلَتُهُ الْيَوْمَ الْكَعْبَةُ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هُوَ عَالِمٌ جَلَّ وَعَلَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْصُلَ هَذَا الْاِتِّبَاعُ وَالْمُخَالَفَةُ، لَكِنْ الْمُرَادُ بِالْعِلْمِ هُنَا وَفِيمَا يُشَبِّهُهُ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: الْعِلْمُ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى السَّابِقُ بِمَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، وَلَا يَتَرْتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ إِلَّا بَعْدَ التَّكْلِيفِ، إِذَا كَلَّفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَرْتَّبَ عَلَى هَذَا التَّكْلِيفِ الثَّوَابُ لِمَنْ وَافَقَ، وَالْعِقَابُ لِمَنْ خَالَفَ.

وَلَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَجَدَّدُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِ الْمَعْلُومِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ.

وَالرَّسُولُ هُنَا: هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَ(أَل) فِيهِ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِذَا أَتَتْ (أَل) دَاخِلَةً عَلَى مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَمْزَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ١٥ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أَي: مِمَّنْ يَنْكِصُ إِلَى الْوَرَاءِ، وَذَلِكَ بِارْتِدَائِهِ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَعَدَمِ رِضَاهِ بِمَا وَقَعَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ يعني: وإن كانت هذه الحال، أو هذه القضيّة ﴿كَبِيرَةً﴾ شَاقَّةً ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، فَإِنَّ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُمُ لِلْحَقِّ يَسْهُلَ عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ فِي مُوَافَقَةِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَلَا تَكُونُ الْأَوَامِرُ كَبِيرَةً وَشَاقَّةً إِلَّا عَلَى مَنْ ضَعُفَ إِيْمَانُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ﴾ هذا التَّعْبِيرُ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ الشَّيْءِ غَايَةَ الْامْتِنَاعِ، أَي: إِذَا جَاءَتْ «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا» فَهُوَ مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الْامْتِنَاعِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ﴾ أَي: مَا آمَنْتُمْ بِهِ، وَمِنْهُ: صَلَاتُهُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَابِقًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي قُلُوبِ بَعْضِ النَّاسِ الْإِشْكَالُ عَمَّا سَبَقَ مِنَ الصَّلَوَاتِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ: هَلْ تَكُونُ بَاطِلَةً؛ لِأَنَّ الْقِبْلَةَ صُرِفَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ، أَوْ لَا؟ فَيَبِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ ذَلِكَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، الرَّؤُوفُ: مَأْخُودٌ مِنَ الرَّأْفَةِ، وَهِيَ أَشَدُّ الرَّحْمَةِ، وَاللَّطْفُ الرَّحْمَةُ، وَالرَّحِيمُ: هُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ، وَالْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ.

وفي هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١- بَيَانُ فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

٢- أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ ذَاتُ شَهَادَةٍ عَلَى مَنْ سَبَقَهَا مِنَ الْأُمَمِ.

٣- تَعْدِيلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شُهَدَاءَ إِلَّا لِيَقْبَلَ شَهَادَتَهُمْ.

٤- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِهِ، فَهُوَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ فِيهِمْ، أَمَا فِيهَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَإِنَّهُ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ^(١)، فَإِذَا صَحَّتْ فَإِنَّهُ يَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ فِي حَالِ حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٥- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يَبْتَلِي الْعِبَادَ بِشَرَعِ بَعْضِ الشَّرَائِعِ وَنَسْخِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

٦- أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ عِلْمٌ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَهُوَ مَا يَحْصُلُ بَعْدَ مُوَافَقَةِ الْعَبْدِ لِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ مُخَالَفَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.

■ وَعِلْمٌ سَابِقٌ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَهُوَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى الثَّابِتُ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ امْتِحَانِ الْعَبْدِ، فَعِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكُونُ قَبْلَ وُجُودِ الْمَعْلُومِ، وَيَكُونُ بَعْدَ وُجُودِ الْمَعْلُومِ، فَالْعِلْمُ الْأَوَّلُ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالْعِلْمُ الثَّانِي هُوَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا.

٧- الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ اتِّبَاعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، وأحمد (٨/٤) من حديث أوس بن أوس الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على اختلاف في اسمه.

٨- ثُبُوتُ النَّسْخِ، أي: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْسَخُ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا يَشَاءُ، وَالنَّسْخُ: هُوَ رَفْعُ الْحُكْمِ السَّابِقِ، فَتَارَةً يَكُونُ النَّسْخُ مِنْ بَدَلٍ إِلَى بَدَلٍ أَخَفَّ مِنْهُ، وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ بَدَلٍ إِلَى بَدَلٍ أَثْقَلَ مِنْهُ، وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ بَدَلٍ إِلَى بَدَلٍ مُسَاوٍ لَهُ، وَتَارَةً يَكُونُ إِلَى غَيْرِ بَدَلٍ.

فَمِثَالُ نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَى بَدَلٍ أَشَقَّ مِنْهُ: نَسْخُ التَّخْيِيرِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالْإِطْعَامِ فِي رَمَضَانَ إِلَى تَعْيِينِ الصِّيَامِ، فَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ أَوَّلَ مَا فُرِضَ كَانَ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ أَنْ يَصُومَ أَوْ يُطْعِمَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ١٨٣-١٨٤]، فهذه الآية صريحة في التَّخْيِيرِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالْإِطْعَامِ، وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي (الصَّحِيحَيْنِ) مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الصِّيَامَ أَوَّلَ مَا فُرِضَ كَانَ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْإِطْعَامِ وَالصِّيَامِ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا التَّخْيِيرُ إِلَى وَجُوبِ الصِّيَامِ عَيْنًا^(١).

وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ: هُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْكُمَ حُكْمًا، وَكَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَى النَّفْسِ، بَدَأَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْأَخْفِ فَلِأَخْفٍ، حَتَّى تَرْتَاضَ النَّفْسُ، وَيَسْهَلَ عَلَيْهَا قَبُولُ الْأَشَقِّ أَوْ الْأَثْقَلِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ التَّفْسِيرِ: بَابُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، رَقْمُ (٤٥٠٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ بَيَانِ نَسْخِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾، رَقْمُ (١١٤٥).

ومثال النسخ إلى بدلٍ أخفَّ منه: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَتِي الْمَصَابِرَةِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فجعل الله تَعَالَى الصَّبْرَ مَشْرُوطًا بِأَنْ يُقَابِلَ الْعِشْرُونَ مِائَتَيْنِ، وَأَنْ يُقَابِلَ الْمِائَةُ مِائَةً أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّ فِيهِ مَشَقَّةٌ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطَفَ وَخَفَّفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعَقًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فَصَارَ الصَّبْرُ يَتَحَقَّقُ فِي مُقَابَلَةِ الْوَاحِدِ لِمِثْلِيهِ.

ومثال النسخ إلى بدلٍ مُسَاوٍ: نَسَخَ اسْتِقْبَالَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ شَرَفَهَا اللَّهُ، فَإِنَّ هَذَا الْبَدَلُ مُسَاوٍ لِلْبَدَلِ الْآخِرِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُكَلَّفِ؛ إِذْ لَا فَرْقَ عِنْدَ الْمُكَلَّفِ مِنْ حَيْثُ التَّعَبُّ الْبَدَنِيِّ وَالْمَشَقَّةُ الْبَدَنِيَّةُ بَيْنَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، أَوْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ الْمَشْرُفَةَ.

ومثال النسخ إلى غير بدلٍ: مَا أَوْجَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّدَقَةِ عِنْدَ مُنَاجَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَاجُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَصَدَّقُوا^(١)، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَفَّفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَنَسَخَ هَذَا الْوُجُوبَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّسْخَ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِفِتْنَةِ بَعْضِ النَّاسِ، وَارْتِدَادِهِ أَوْ شَكِّهِ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ النَّسْخَ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيهَا بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(١) يعني: في قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

ثُمَّ إِنَّ فِي النَّسْخِ بَيَانًا لِحُكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي شَرْعِهِ، وَأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَتَعَبَّدُ عِبَادُهُ بِمَا شَاءَ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ صَلَاحُهُمْ.

٩- أَنَّ النَّسْخَ يَكُونُ شَاقًّا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النُّفُوسِ، إِلَّا عَلَى مَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ يَسِيرًا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّسْخَ لَمْ يَصْدُرْ إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ بِالِغَةِ، وَلَا يَزِيدُهُمُ النَّسْخَ إِلَّا طُمَآنِينَةً وَثِقَةً بِشَرِيعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

١٠- لُطْفُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ لَمْ يُهْدِرْ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ الْمَنْسُوخَةِ، وَلَمْ يُضَيِّعْ أَجْرَهَا عَلَى مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

١١- أَنَّ فِيهَا دَلِيلًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾، وَوَجْهُ دُخُولِ الْأَعْمَالِ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ: أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ إِيْمَانٍ، فَلَوْلَا إِيْمَانُ النَّاسِ بِأَنَّ هَذِهِ شَرِيعَةُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يُثَبِّتُ عَلَيْهَا، مَا تَعَبَّدُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِهَا، وَلِهَذَا أَطْلَقَ اللَّهُ الْإِيمَانَ هُنَا عَلَى الصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَابِقًا.

١٢- إِبْثَاتُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: (الرَّؤُوفُ)، وَ(الرَّحِيمُ)، وَإِبْثَاتُ مَا تَصَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ، فَإِنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلِهَذَا نَقُولُ: الصِّفَاتُ أَوْسَعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ مُتَضَمِّنٌ لَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ يُشْتَقُّ لَهَا مِنْهَا اسْمٌ، فَبَابُ الصِّفَاتِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ الْأَسْمَاءِ، وَبَابُ الْأَخْبَارِ عَنْ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ أَيْضًا، فَهَذَا أَسْمَاءُ وَصِفَاتُ وَأَخْبَارُ، فَالاسْمُ يَتَضَمَّنُ الصِّفَةَ، وَالصِّفَةُ لَا يُشْتَقُّ مِنْهَا الْاسْمُ، وَالْأَخْبَارُ

يُخْبِرُهَا عَنْ اللَّهِ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ، فتقول مثلاً: إِنَّ اللَّهَ شَيْءٌ، لكن لا تصفه بذلك، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ:

﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤)

قَوْلُهُ: ﴿قَدْ رَأَى﴾ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ بـ: (قد)، والرُّؤْيَةُ هُنَا: رُؤْيَةٌ بَصَرٍ، وجاء الفعل بصيغة المضارع دون الماضي؛ إشارةً إلى تكرار الفعل من النبي ﷺ، فتكررت رؤية الله تَعَالَى لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ هُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ تَرْقُبًا لِنُزُولِ الْوَحْيِ بِأَمْرِهِ بِالْإِتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: لَنُوجِّهَنَّكَ إِلَى قِبْلَةٍ تَرْضَاهَا، أي: تَطْمِئِنُّ إِلَيْهَا وَتَسْتَقِرُّ؛ لِأَنَّهُ ﷺ رَاضٍ بِكُلِّ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، سِوَاءٍ فِي اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، لَكِنَّ طُمَأْنِينَتَهُ لَاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ أَشَدُّ، وَلِهَذَا فَرَعَ عَلَيْهَا قَوْلَهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جَهَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَهُوَ الْكَعْبَةُ، وَسُمِّيَ مَسْجِدًا حَرَامًا؛ لِحُرْمَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ لَهُ مِنْ خَصَائِصِ التَّحْرِيمِ مَا لَمْ يَثْبُتْ لغيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يعني: في أيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ من مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ﴿فَقُولُوا وَجُوهَكُمْ شَظْرَهُ﴾، والخطابُ هنا لِلأُمَّةِ عُمُومًا، وَالْحِطَابُ الَّذِي قَبْلَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وذلك أَنَّ الْحِطَابَ الَّذِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِطَابٌ لَهُ وَلِلأُمَّةِ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَرِيبًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ هم الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: مَا حَصَلَ مِنَ الْإِتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١ - إثباتُ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى لِمَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

٢ - إثباتُ عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ تَرْقُبًا لِنُزُولِ الْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَعُلُوُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ أَمْرٌ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ الْخَلْقُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ وَالْعُقُولُ، وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأَدِلَّةُ الْخَمْسَةُ: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ، عَلَى إِثْبَاتِ عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ خَلْقِهِ.

وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الْعُلُوَّ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: عُلُوُّ ذَاتٍ، بِمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَالثَّانِي: عُلُوُّ صِفَةٍ، بِمَعْنَى: أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ أَعْلَى مَا يَكُونُ مِنَ

الْكَمَالِ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَأَدْلَتُهُ مَا أَشْرَتْ إِلَيْهَا: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْعَقْلُ، وَالْفِطْرَةُ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْعَقَائِدِ ^(١).

وَأَمَّا الثَّانِي فَلَهُ أَدَلَّةٌ سَمْعِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ، مِنْهَا: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أَي: الْوَصْفُ الْأَعْلَى الْأَكْمَلُ، وَهَذَا دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ.

وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ فَلَأَنَّ الرَّبَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَكْمَلُ مِنَ الْمَرْبُوبِ، وَأَعْلَى مِنَ الْمَرْبُوبِ، وَصَفًا وَقَدْرًا، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

٣- وَعَدُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُؤَلِّيه قِبْلَةً يَرْضَاهَا، وَقَدْ فَعَلَ جَلَّ وَعَلَا، فَقَالَ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

٤- أَنَّ الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ لِلرَّسُولِ ﷺ خِطَابٌ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ، وَلَكِنْ فِي هَذَا تَفْصِيلًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا أَنْ يَقُومَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُوَجَّهٌ لَهُ وَحْدَهُ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ مُوَجَّهٌ لَهُ وَلِلْأُمَّةِ، أَوْ لَا يَكُونُ هُنَاكَ دَلِيلٌ لَا عَلَى هَذَا وَلَا عَلَى هَذَا، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَيَكُونُ خَاصًّا بِهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ② أَلَيْسَ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ ③ [الشرح: ١-٣]، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَمَّا الثَّانِي -وهو الَّذِي دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى عُمُومِ الْحُكْمِ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ- فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فَهَذَا صَدَرِ الْخِطَابِ بِنِدَاءٍ مُوَجَّهٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْحُكْمَ عَامًّا، فَقَالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «إِذَا طَلَّقْتَ»، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى

(١) انظر: شرح عقيدة أهل السنة والجماعة، لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ (ص: ١٦٤، وما بعدها).

أَنَّهُ عَامٌّ لَهُ وَلَا أُمَّتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ فَكَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَكُونُ الْكَلَامُ بِصِيغَةِ الْخِطَابِ لِلوَاحِدِ، وَهَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ مُوجَّهٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَقِيلَ: إِنَّهُ مُوجَّهٌ لَهُ وَلَا أُمَّتَهُ، لَكِنْ خُصَّ الْخِطَابُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَائِدُ الْأُمَّةِ وَإِمَامُهَا، وَقِيلَ: بَلْ هُوَ مُوجَّهٌ لَهُ وَخَدَهُ، وَأُمَّتُهُ فِي ذَلِكَ يَشْمَلُهَا الْخِطَابُ مِنْ بَابِ التَّأْسِي وَالِاقْتِدَاءِ، وَالْخِلَافُ فِي هَذَا لَفْظِيٌّ؛ لِأَنَّ كِلَا الْقَوْلَيْنِ يَنْصَبُ فِي أَنَّ الْأُمَّةَ تَفْعَلُ مَا وَجَّهَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ.

٥- وَجُوبُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

٦- أَنَّ الْوَاجِبَ الْإِتِّجَاهُ إِلَى الْجِهَةِ، لَا إِصَابَةَ عَيْنِ الْكَعْبَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيُّ: جِهَتِهِ، وَهَذَا مَا لَمْ يَتَيَسَّرْ اسْتِقْبَالُ عَيْنِ الْكَعْبَةِ، فَإِنْ تَيَسَّرَ اسْتِقْبَالُ الْعَيْنِ كَانَ وَاجِبًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَتَيَسَّرُ لَهُ أَنْ يَتَّجِعَ إِلَى عَيْنِ الْكَعْبَةِ غَالِبًا؛ لِأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، وَمَنْ كَانَ خَارِجَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلَيْسَ عَالِيًا يَنْظُرُ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُشَاهِدَ الْكَعْبَةَ، فَيَكْفِيهِ الْإِتِّجَاهُ إِلَى الْجِهَةِ.

وَالْجِهَةُ وَاسِعَةٌ، وَكُلَّمَا بَعُدَتْ الْمَسَافَةُ اتَّسَعَتِ الْجِهَةُ، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّهُ لَا يَضُرُّ الْأَنْحِرَافَ الْيَسِيرُ عَنِ الْقِبْلَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَضُرُّ أَنْ تَكُونَ الْقِبْلَةُ عَنْ يَمِينِكَ أَوْ عَنْ شِمَالِكَ أَوْ خَلْفَ ظَهْرِكَ، أَمَّا الْأَنْحِرَافُ الْيَسِيرُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»^(١)، قَالَهُ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ كَانَ عَلَى سَمْعِهِمْ،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبله، رقم (٣٤٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَبَقُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرُّوْا أَوْ غَرِّبُوا»^(١).

وَيُسْتَنْى من وُجُوب الاتِّجَاه إلى الْقِبْلَةِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ:

المسألة الأولى: عند الخوف، إذا كان الإنسان هَارِبًا من عَدُوٍّ فَإِنَّهُ يُصَلِّي حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ.

المسألة الثانية: العجز، إذا كان الإنسان مَرِيضًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْقِبْلَةِ بِنَفْسِهِ، وَلَا بِمَنْ يُوجِّهُهُ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ.

المسألة الثالثة: النَّافِلَةُ فِي السَّفَرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ مِنْ سَيَّارَةٍ أَوْ بَعِيرٍ أَوْ طَائِرَةٍ، حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ^(٢).

أَمَّا الدَّلِيلُ فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ -الْخَوْفِ وَالْعَجْزِ- فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وَيُسْتَنْى أَيْضًا مَسْأَلَةٌ رَابِعَةٌ، لَكِنَّهَا مُقَيَّدَةٌ، وَهِيَ مَا إِذَا جَهِلَ الْقِبْلَةَ فِي الْبَرِّ، وَاجْتَهَدَ، وَصَلَّى إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي أَذَاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَى الْقِبْلَةِ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَهَذِهِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ تُسْتَنْى مِنْ وُجُوبِ الاتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب لا تستقبل القبلة بغائط أو بول، رقم (١٤٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤) من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب الوتر في السفر، رقم (١٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر، رقم (٧٠٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٧- أَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ^(١)، وَذَلِكَ بِمَا ذُكِرَ مِنْ أَوْصَافِهِ عِنْدَهُمُ الَّتِي لَا تَنْطَبِقُ عَلَى بَشَرٍ سِوَاهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ مُنْطَبِقَةً تَمَامًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ الْهَاشِمِيِّ الْقُرَشِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ حُسَادًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٨- ذَمُّ مَنْ عَلِمَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ، وَتَعْرِضُهُ نَفْسَهُ لِلْعُقُوبَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

٩- أَنْ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ بَعِلْمِ الْأَعْدَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

١٠- إِبْتِثَاتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ، وَمَوْصُوفٌ بِالنَّفْيِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِثْبَاتُ أَكْثَرُ مِنَ النَّفْيِ، وَلِهَذَا يَأْتِي الْإِثْبَاتُ مُفَصَّلًا، وَيَأْتِي النَّفْيُ مُجْمَلًا، إِلَّا فِيهَا يَخْتَاجُ إِلَى التَّفْصِيلِ فِيهِ.

(١) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠].

قال أهل العلم: وصفات الله سبحانه وتعالى التي نفاها عن نفسه لا يُقصد بها مجرّد النفي؛ لأنّ مجرّد النفي ليس وصفاً كاملاً؛ إذ إنّ مجرّد النفي عدم، والعدم ليس بشيء، فلا يكون كمالاً، ولكن كلّ صفة نفاها الله عن نفسه فالمراد بها: إثبات كمال ضدها مع النفي، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يدلّ على انتفاء غفلة الله عما يعملون مع ثبوت كمال العلم والمراقبة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] إثبات كمال العدل لله عزّ وجلّ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، إثبات كمال العلم والقُدرة، ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وهلمّ جرّاً، فلا يُمكنُ أنْ تجدَ نفياً محضاً في صفات الله، وتعليله: أنّ النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس فيه كمال، بل كلّ ما نفاه الله عن نفسه فالمراد به: نفي ما نفاه مع إثبات ما تضمّنه من كمال الصّفة التي هي ضدّ ذلك النفي، فلم ينف عن نفسه الظلم إلّا لِكَمالِ عدله، ولا العجز إلّا لِكَمالِ علمه وقُدْرته، ولا الغفلة عن أعمال العباد إلّا لِكَمالِ علمه ومُراقبته، وهلمّ جرّاً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعَكَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥)

قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أَي: بِكُلِّ دَلِيلٍ عَلَى مَا آتَيْنَ بِهِ ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ الْحَقَّ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الْعُلُوَّ وَالِاسْتِكْبَارَ، فَلِهَذَا لَوْ أُتُوا بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوهَا، ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ شَرْعَ النَّبِيِّ ﷺ نَسَخَ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ، فَهَمْ بَرِيءُونَ مِنْكَ، وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّمُوا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿[الكافرون: ١-٣] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَيْضًا مُخْتَلِفُونَ، فَلَا يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْقِبْلَةِ وَالْأَنْجَاءِ، فَالْنَّصَارَى لَهُمُ الْإِنجَاءُ، وَالْيَهُودُ لَهُمُ الْإِنجَاءُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهَمْ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ أَوْلِيَاءٌ ضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ آتَبَعَكَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: إِنْ قُدِّرَ أَنَّكَ ذَاهِتَهُمْ وَاتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ لَكُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَهَذَا التَّعْلِيلُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ وُجُودُ الْمُعَلَّقِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنْ فَعَلْتَ كَذَا كُنْتَ كَذَا، وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا سَيَقَعُ؛ فَإِنَّ (إِنْ) الشَّرْطِيَّةُ تَدْخُلُ عَلَى شَيْءٍ مُتَعَدِّرٍ، بَلْ مُسْتَحِيلٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، فَلَا يَعْنِي ذَلِكَ: أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ، فَ: (إِنْ) هُنَا دَاخِلَةٌ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَحِيلٍ.

وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا يقول قائل: إِنَّ الرَّسُولَ يُمَكِّنُ أَنْ يُشْرِكَ، بل هذا على فَرَضٍ وَقُوعِ ذَلِكَ، والفَرَضُ يُمَكِّنُ أَنْ يَرَدَّ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَحِيلٍ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

- ١- بَيَانُ تَمَرُّدِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أُتُوا بِكُلِّ آيَةٍ مَا قَبِلُوهَا؛ لِعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ.
- ٢- أَنَّ الْمُؤْمِنَ بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ دِينٍ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ، حَتَّى مِنْ دِينٍ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِينٍ، كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ.
- ٣- وَجُوبُ مُخَالَفَةِ هَذِي الْمَشْرِكِينَ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَهُمْ﴾، وَلِهَذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، وَقَالَ: «خَالِفُوا الْمَجُوسَ، وَفَرُّوا اللَّحَى، وَخُفُّوا الشَّوَارِبَ»^(٢)، وَقَالَ: «خَالِفُوا الْمَشْرِكِينَ، وَفَرُّوا اللَّحَى، وَأَخْفُوا الشَّوَارِبَ»^(٣)، فَلَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَشَبَهَ بِالْكَفَّارِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ مِنْ لِبَاسٍ أَوْ هَيْئَةٍ فِي الْجِسْمِ، كَالشُّعُورِ مَثَلًا، يُصَفِّفُهَا عَلَى مَا يُصَفِّفُهَا الْكُفَّارُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْتُ، وَلِأَنَّ التَّشَبُّهَ بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ يُؤَدِّي إِلَى التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٧).

(٢) أخرجه بمعنى هذا اللفظ مسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٥٤/٢٥٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عن الحديث: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» قال: إِنَّ أَقْلَ أَحْوَالِ هَذَا الْحَدِيثِ التَّحْرِيمُ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ يَفْتَضِي كُفْرَ الْمُتَشَبِّهِ بِهِمْ^(١)، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكَفَّارِ يُؤَدِّي إِلَى فَرَحِهِمْ وَسُرُورِهِمْ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَيْضًا أَنَّ الْمُتَشَبِّهَ فِي حَالٍ وَمَرْتَبَةٍ دُونَ الْمُتَشَبِّهِ بِهِ، فَتَشَبُّهُنَا بِالْكَفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ يُؤَدِّي إِلَى اغْتِلَالِهِمْ وَتَرْفُعِهِمْ عَلَيْنَا، وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّنَا لَهُمْ تَبَعٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا إِهَانَةٌ وَإِغَاظَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَقِدَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ هُوَ الْأَعْلَى؛ لِأَنَّهُ يَدِينُ اللَّهَ تَعَالَى بِدِينٍ عَالٍ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٤ - بَيَانُ عَوَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ لَا يَدِينُ بِمَا يَدِينُ بِهِ الْآخَرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، فَلْنَنْظُرْ الْآنَ إِلَى الْيَهُودِ: مَاذَا قَالُوا عَنْ عِيسَى؟ قَالُوا: إِنَّهُ ابْنُ زَانِيَةٍ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَقَالُوا عَنْ أُمِّهِ: إِنَّهَا زَانِيَةٌ بَغِيٌّ. وَمَاذَا قَالَ النَّصَارَى عَنْهُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ: اللَّهُ، وَالْمَسِيحُ، وَأُمُّهُ، فَجَدُّ الطَّرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ بَيْنَهُمَا أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ: إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَإِنَّ أُمَّهُ مَرْيَمَ صَدِيقَةٌ، أَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَمَّا رَمَاهَا بِهِ الْيَهُودُ.

٥ - التَّحْذِيرُ مِنْ مُتَابَعَةِ أَهْوَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَذَّرَ نَبِيَّهِ مِنْهُ، وَمَا حَذَّرَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فَنَحْنُ مُحَذَّرُونَ مِنْهُ.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٢٤١).

٦- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَا قَالَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ فَلَا حَرَجَ عَلَيْنَا فِي اتِّبَاعِهِ؛
لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فَمَا مَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ فَإِنَّا
نَقْبَلُهُ؛ لأنَّ الْحَقَّ يُقْبَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ بِهِ، ولهذا لَمَّا جَاءَ الْحَبْرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى
إِصْبَعٍ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ، ضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ، وَقَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ
حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]^(١).

٧- أَنَّهُ يُشْتَرَطُ لِلْإِثْمِ بِالْعَمَلِ: الْعِلْمُ بِالتَّحْرِيمِ، فَلَا يَأْتُمُ الْعَامِلُ بِالْإِثْمِ وَهُوَ
لَا يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ مُحَرَّمٌ؛ لقوله تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ﴾، فَلَا يُؤْتَمُّ الْإِنْسَانُ بِفِعْلٍ شَيْءٍ هُوَ جَاهِلٌ بِهِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْأَصْلِ
الْعَظِيمِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾
[البقرة: ٢٨٦]، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «قَدْ فَعَلْتُ»^(٢)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾
[القصص: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ
بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم:

كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٦) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٨٥).

إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴿٤﴾ [إبراهيم:]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، تدلُّ على أَنَّهُ لَا تَأْتِيهِمْ مَعَ الْجَهْلِ، وهذا من رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْعِبَادِ، أَلَّا يُؤْثِمَهُمْ بِمَا يَجْهَلُونَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَشَرٌ ضَعِيفٌ، وَإِذَا لَمْ يَأْتِمْ بِهِ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ وَلَا كَفَّارَةٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ الْخَطِيئَةِ، فَإِنَّ فِيهِ الْكَفَّارَةَ؛ لِعِظَمِ حَقِّ النَّفْسِ الْمَعْصُومَةِ.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَالْيَهُودُ أُوتُوا التَّوْرَةَ، وَالنَّصَارَى أُوتُوا الْإِنْجِيلَ ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أَي: يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أَي: كَمَعْرِفَةِ أَبْنَائِهِمْ، وَذَلِكَ لِمَا عَلِمُوا مِنْ صِفَتِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَهَذِهِ جَاءَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ تَأْكِيدًا لِّذَلِكَ الْقَوْلِ.

وَقَالَ: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَوْلَادَهُمْ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الْأَبِ لِابْنِهِ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ لِابْنَتِهِ؛ لِكُونِهِ يَعْتَنِي بِالابْنِ، وَيَعْتَزُّ بِهِ غَالِبًا، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ، فَكَانَ التَّشْبِيهِ بِمَعْرِفَةِ الْأَبْنَاءِ أَنْسَبَ مِنَ التَّشْبِيهِ بِمَعْرِفَةِ الْأَوْلَادِ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أَي: طَائِفَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَهُمْ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُونَهُ، وَلَكِنْهُمْ يَكْتُمُونَهُ

وَيُخْفُونَهُ عَنِ النَّاسِ، إِمَّا حَسَدًا لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَإِمَّا لِلْخَوْفِ عَلَى رِئَاسَتِهِمْ وَسَلْبِهِمْ
أَمْوَالِ النَّاسِ، وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ هَذَا تَبَيَّنَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ،
وَقَدْ أَتَاكَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾، وَنَهَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يُمْكِنُ أَنْ
يَمْتَرِيَ؛ لِأَنَّ الضُّغُوطَ الْعَظِيمَةَ وَالْكَلِمَاتِ الْقَوِيَّةَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمِنَ
الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ تُطِيعُ بِالشَّخْصِ، إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ
ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ
بِمَا ذُكِرَ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

٢- تَمَامُ عَدْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «وَأَنَّهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ»؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَقْرَبَ بِالْحَقِّ وَأَمَّنْ، كَعَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّجَاشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ النَّصَارَى، وَلَوْ جَاءَ التَّعْمِيمُ:
«وَأَنَّهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ» لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا بَيَانٌ لِفَضْلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّ فَرِيقًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَيَكُونُ فِي ذِكْرِ
الْفَرِيقِ دُونَ التَّعْمِيمِ فَائِدَتَانِ:

الفائدة الأولى: الْعَدْلُ، وَالْأَيُّهُزْمُ الَّذِينَ آمَنُوا حَقَّهُمْ.

الفائدة الثانية: إثبات صدق الرسول ﷺ عند أهل الكتاب؛ حيث إن فريقاً منهم آمنوا به وصدقوه.

٣- ذُمْ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ وَهُوَ يَعْلَمُهُ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْهَدُوا مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ولهذا كان واجباً على أهل العلم أن يُبينوا العلم كلما احتاجت الأمة إليه، إمّا بالسؤال المباشر عن العلم، وإمّا بلسان الحال، بحيث يقع الناس في أمرٍ يحتاجون إلى بيانه؛ لأن النبي ﷺ تَوَعَّدَ مَنْ سِئَلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكْتَمَهُ^(١).

والسؤال عن العلم - كما أشرت إليه - يكون بلسان الحال، ويكون بلسان المقال، أمّا بلسان الحال فإن يقع الناس في أمرٍ يحتاجون إلى التنبيه عليه، وأمّا بلسان المقال: فإن يأتيك شخصٌ يسألك عن مسألة شرعية، وأنت تعلمها، فيجب أن تُبينها له، إلا إذا علمت أن هذا الرجل لا يريد الوصول إلى الحق، وإنما يريد أن يوقع بين العلماء بما يَحْصُلُ بينهم من اختلافٍ في الرأي، أو يريد الإعانة والمشقة على المسؤول، فحينئذ يكون المسؤول مُحَيَّرًا بين إجابته، وترك إجابته.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦١)، وأحمد (٢/ ٢٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- أن الحق من عند الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه صادرٌ من الله تعالى، وما صدرَ من الحقِّ فهو حقٌّ.

٥- فضيلةُ الرُّسُولِ ﷺ، حيث أضاف الله تعالى الرُّبُوبِيَّةَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، وهذه رُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَقْتَضِي عنايةً أَخَصَّ.

والرُّبُوبِيَّةُ تنقسمُ إلى قِسْمَيْنِ: رُبُوبِيَّةٌ عَامَّةٌ لجميعِ الخلق، ورُبُوبِيَّةٌ خَاصَّةٌ لِمَنْ اجْتَبَاهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومن الأمثلةِ الجَامِعَةِ للعَامَّةِ والخاصَّةِ: قوله تعالى عن سَحَرَةِ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وهذه عَامَّةٌ، ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وهذه خَاصَّةٌ.

٦- تثبُّتُ النَّبِيِّ ﷺ وتقويتهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وهو ﷺ لم يَمْتَرِ، ولم يَشْكْ، ولكن هذا من باب تقويته وتثبيته؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ بشرٌ، ويحتاجُ إلى التَّثْبِيتِ والتَّوَكُّيدِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ ثَبَاتَ النَّبِيِّ ﷺ كانَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

٧- وُرُودُ النَّهْيِ عَمَّا لَا يُمَكِّنُ وَقُوْعُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، والامْتِرَاءُ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ ليس بواقِعٍ، ولا يُتَوَقَّعُ أيضًا؛ لأنَّه ﷺ أقوى النَّاسِ إيمانًا بالله تعالى.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٤٨)

﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ ﴾ أي: لكل من المسلمين وأهل الكتاب وَجْهَةٌ ﴿ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾، وإن شئتَ فقل: ﴿ وَلِكُلِّ ﴾ أي: لكل أحد من الناس ﴿ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾، فمن الناس مَنْ يُوَلِّي وَجْهَهُ شَطْرَ الشَّرِّ والفساد والكفر والعناد، ومن الناس مَنْ يُوَلِّي وَجْهَهُ شَطْرَ الإِيمَانِ والإصلاح.

وقوله: ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي: تَسَابَقُوا إِلَى الْخَيْرَاتِ، والخيرات: هي ما جاء به الرُّسُولُ ﷺ من الحق.

وقوله: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعني: في أيِّ مكانٍ تكونون فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سوف يأتي بكم جميعًا، وذلك إذا حُشِرَ النَّاسُ، فإنَّ الله تعالى يُحْشِرُ النَّاسَ جَمِيعًا من أيِّ مكانٍ كانوا في الأَرْضِ، يُحْشِرُونَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، يَقُومُونَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ من قُبُورِهِمْ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي بالخلق جميعًا أينما كانوا في الأَرْضِ، ويَحْشِرُهُمْ في مكانٍ واحدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ، وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصْرُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فهو قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِ الْمَعْدُومِ، وإِعْدَامِ الْمَوْجُودِ بدون عَجْزٍ ولا ضَعْفٍ.

وفي هذه الآية الكريمة من الأحكام والفوائد ما يلي:

- ١- أن كل واحد من الناس له وجهة يتوَلَّاهَا، ويتَوَجَّه إليها، وهم نزعات متباينة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].
- ٢- الأمر بالتَّسَابُق إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ثُمَّ إِنَّ الْخَيْرَاتَ مِنْهَا مَا يُحِبُّ، ومنها ما يُسْتَحَبُّ، على حَسَب ما جاءت به الشريعة.
- ٣- إثبات الحشر يوم القيامة، وأن جميع الناس سوف يُحْشَرُونَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.
- ٤- إثبات اسم من أسماء الله، وهو (القدير)، وما دَلَّ عليه من الوصف، وهو القدرة، فَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩)

هذه الآية كالتوكيد لِمَا سبق؛ لأنَّ المقام مقام عظيم، والأمر مهم جدًّا، ولا يشعر الإنسان بعظم هذا المقام وأهميته، إِلَّا لو كان موجودًا في ذلك الوقت، أي: حين تحوُّل القبلة؛ لَأنَّه أَمْرٌ جَلَّ عَظِيمٌ، فلهذا أَكَّده الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية، وفي الآية التي بعدها.

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: من أيِّ مكانٍ خَرَجْتَ، وإلى أيِّ جِهَةٍ اتَّجِهْتَ، فلا بُدَّ أن تُوَلِّيَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أي: جِهَتَهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: إِنَّ ما ذُكِرَ مِنْ تَوَلِّيكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِلْحَقِّ مِنْ اللَّهِ، وهذه جُمْلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بـ: (إِنَّ) وباللَّامِ، وتأكيدُ الجُمْلَةِ يدلُّ على أَهْمِيَّتِهَا، وأنَّ الأمرَ فيها يَحْتَاجُ إلى تَوْكِيدٍ وَتَثْبِيتٍ في قُلُوبِ النَّاسِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يُقال فيها كما قِيلَ في الآية السَّابِقَةِ، أي: أَنَّهُ لِكَمالِ مُراقَبَتِهِ وَعِلْمِهِ لا يَغْفُلُ عَمَّا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ - تأكيدُ الأمورِ المُهِمَّةِ؛ حتَّى تَرَسَّخَ في النُّفُوسِ، وتطمئنَّ إِلَيْهَا القُلُوبُ، ولا يُعَدُّ هذا من التَّكَرَّارِ الزَّائِدِ، بل هو من التَّكَرَّارِ البَلِغِ؛ لأنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا كان مُهِمًّا فَإِنَّ البَلَاغَةَ في العِناية به والاهْتِمام به.

٢ - أَنَّ الإنسانَ في أيِّ جِهَةٍ خَرَجَ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ أَوْ جَوٍّ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يُوَلِّيَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ في الصَّلَاةِ، ولكن سبق أَنَّهُ اسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ مَسَائِلُ، منها: الخَوْفُ، والمرُضُ، والنَّافِلَةُ في السَّفَرِ، واشْتِيَاءُ الْقِبْلَةِ بعد الاجْتِهَادِ.

٣ - أَنَّ الإنسانَ لو تَبَيَّنَ لَهُ في أثناء الصَّلَاةِ أَنَّهُ إلى غَيْرِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَنْحَرِفَ إلى الْقِبْلَةِ، فلو أَنَّ الإنسانَ في الْبَرِّ، واجْتَهَدَ في الْقِبْلَةِ، واتَّجَهَ إلى جِهَةٍ ما، ثُمَّ جاءه رَجُلٌ أَعْلَمَ مِنْهُ بِالْجِهَاتِ، وقال له: إِنَّ الْقِبْلَةَ عَنْ يَمِينِكَ أَوْ عَنْ يَسَارِكَ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّجِهَ إلى ما أَرشَدَهُ إِلَيْهِ هذا الرَّجُلُ، ولا يَلْزَمُهُ أَنْ يَسْتَأْنِفَ الصَّلَاةَ؛

لأنَّ ما حَصَلَ منه في أوَّل الصَّلَاةِ صادِرٌ عن اجْتِهَادٍ، ولكن لو استمرَّ على الجِهَةِ الَّتِي هو عليها بدون عِلْمٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ عليه إِعَادَةُ صَلَاتِهِ؛ لأنَّ اتِّجَاهَهُ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ فيما بَقِيَ من صَلَاتِهِ باطلٌ، والصَّلَاةُ لَا تَتَجَزَّأُ، فَيَنْسَحِبُ البُطْلَانُ إِلَى أوَّلِهَا.

ولهذا لَمَّا جاء رجلٌ إلى أَهْلِ قُبَاءَ، وهم يُصَلُّونَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، مُتَّجِهِينَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَالْكَعْبَةِ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، قَالَ لَهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، فَاتَّجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ وَاسْتَقْبَلُوهَا^(١)، وَصَارَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَبْلَ وُجُوهِهِمْ؛ لأنَّ هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ.

٤- أَنْ مَا جَاءَتْ بِهِ شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ الْحَقُّ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ مَا سِوَاهَا بَاطِلًا.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: بُطْلَانُ الْبِدْعِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا؛ لِأَنَّ الْبِدْعَ مُحَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ الْبِدْعَةَ الْمَذْمُومَةَ هِيَ: التَّعَبُّدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ، مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ فَهِيَ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهَا مُحَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٥- كَمَا عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُرَاقَبَتُهُ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُوفِّقَنَا لِلْعَمَلِ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَأَلَّا يَعْلَمَ مِنَّا إِلَّا مَا يَرْضَى بِهِ عَنَّا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْقِبْلَةِ، رَقْمُ (٤٠٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، رَقْمُ (٥٢٦) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠)

وهذه الآية كما هو معلوم هي الآية الثالثة التي كرر فيها وجوب الاتجاه إلى الكعبة المعظمة، وذلك للتأكيد، وكل جملة منها أعقبت بمعنى عظيم:

أما الأولى - وهي قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ - فأعقبها الله تعالى ببيان أن ذلك هو الحق، وأن الذين أوتوا الكتاب يعلمون ذلك.

وأما الثانية ففيها تقرير الله سبحانه وتعالى لذلك الحق، وأنه حق من عند الله عز وجل.

وأما الثالثة ففيها بيان الحكمة من تحويل القبلة، وتثبيت المؤمنين على ما يؤرد عليهم من الشبهات حول هذا الموضوع.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: من أي جهة خرجت، ومن أي مكان خرجت ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جهة المسجد الحرام، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ في أي مكان من بر، أو بحر، أو جو ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

ثم بين الحكمة من ذلك بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: لئلا يحتج الناس عليكم، يعني: أوجبنا عليكم ذلك؛ لئلا يحتج الناس عليكم، فمن الذي يحتج؟

الجواب: يحتج من الناس طائفتان:

الطائفة الأولى: أهل الكتاب.

الطائفة الثانية: المشركون.

■ أمّا المشركون فإن النبي ﷺ لو بقي على الاتجاه لبنت المقدس لقالوا: هذا الرجل ترك قبلة آباءه إلى بيت المقدس.

■ وأمّا اليهود فيأثمهم يقولون: هذا الرجل ترك قبلتنا، وأخذ بقبلة قومه.

فيئن الله عز وجل أنه أوجب علينا أن نتجه إلى الكعبة؛ لئلا يحتج هؤلاء وهؤلاء، فبطلت حجة المشركين باتجاه النبي ﷺ إلى الكعبة، ورجع إلى ما كانت عليه القبلة من زمن إبراهيم عليه السلام، وطلت حجة اليهود الذين قالوا: يتركنا ويرجع إلى دين آبائه؛ لأن النبي ﷺ إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى، وتحقيقاً لما عرفوه هم فيما عندهم من الكتاب، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، وهم اليهود والمشركون على الوجه الذي ذكرنا آنفاً.

ثم نهي الله عباده عن خشية الناس ولو كانوا ظالمين، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يعني: دعوا خوف هؤلاء الظالمين، واخشوني، فإن خشية الله سبحانه وتعالى يندفع بها كل شر، وكل ظلم.

وقوله: ﴿وَلَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: وأمرتكم بأن تولّوا وجوهكم شطر المسجد الحرام؛ لأنتم نعمتي عليكم بالاتجاه إلى الكعبة المعظمة، التي هي أول بيت وضع للناس.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لَعَلَّ) هذه للتعليل، أي: لعلكم تكونون من ذوي الهداية، الَّذِينَ وَفَّقُوا لِهَدَايَةِ الْعِلْمِ، وَهَدَايَةِ الرُّشْدِ.

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - تأكيد الاتجاه إلى الكعبة المعظمة، وقد سبق الكلام عن ذلك، وبيان أن الاتجاه إلى الكعبة المعظمة واجب، ومن شروط صحة الصلاة، إلا ما استثنى من المسائل الأربعة السابقة^(١).

٢ - أن أحكام الله تعالى الشرعية معللة، أي: لها علة وحكمة، وليست لمجرد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علة؛ لقوله: ﴿لَنَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وفيهما ردٌّ على من يقول من أهل البدع: إن أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه لا تعلل بعلة؛ لأنه ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فنقول: إن القرآن والسنة مملوءان من ذكر تعليل الأحكام بالعلل والمصالح، وأما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ فهو لا يسأل عما يفعل؛ لكن لآل أفعاله، ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة.

ثم إن هناك أفعالا لله تعالى وأحكاما لا تعلم عللها وحكمتها، فلا مطعن فيها، ولا معارضة لله تعالى فيها؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله تعالى.

٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل سبيل يكون فيه حجة عليه، حتى ولو كانت الحجة من أهل الظلم، ما لم يُخالَف بذلك شريعة الله تعالى، فدرء الإنسان عن نفسه ما يقبح به ويسب به أمر مطلوب.

(١) انظر: (ص: ٤٦٤).

٤- أَنْ الظَّالِمِينَ أَهْلُ عِنَادٍ وَشِقَاقٍ، وَأَنْهُمْ يُعَانِدُونَ وَيُشَاقُّونَ حَتَّىٰ فِيهَا تَبَيَّنَ فِيهِ الْحَقُّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٥- تَحْرِيمُ خَشْيَةِ النَّاسِ فِي إِضَاعَةِ حُقُوقِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

ويترتبُ على هذه الفائدة: أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْمَدَاهَنَةُ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَوِيًّا، حَازِمًا، مُعْتَزًّا بِدِينِهِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ.

٦- بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِتْمَامِ النِّعْمَةِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَا تِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وَمَا أَكْثَرَ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ! كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٧- أَنْ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاجْتِنَابَ مَهْيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ سَبَبٌ لِلْهِدَايَةِ، وَكُلَّمَا زَادَ الْإِنْسَانُ تَقْوَى اللَّهِ زَادَ هِدَايَةً؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [حمد: ١٧]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٨- أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ أَنْاسًا ضِدَّ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، يَحْتَجُّونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَا جَاءَ مِنْ شَرْعِهِمْ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصْمُدُوا، وَأَنْ يَثْبُتُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وَأَهْلُ الْعُدْوَانِ يَحْتَجُّونَ أحيانًا عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأحيانًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأحيانًا عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّرَائِعِ أَوِ الشَّعَائِرِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَعْتَزُّ بِدِينِهِ، وَأَنْ يَكْفِينَا شَرَّ أَعْدَائِنَا، وَأَنْ
يَجْعَلَ شُرُورَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿كَمَا﴾ الْكَافُ هُنَا لِلتَّغْلِيلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أَي: لِهَدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ، وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ:
كَإِرْسَالِنَا فِيكُمْ رَسُولًا، أَي: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنَّ عَلَيْنَا بِمَا سَبَقَ مِنَ التَّشْرِيعِ
بِالْإِتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ لِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْنَا، وَلِيَذْكُرْنَا بِمَنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا مِنَ الرُّسُلِ، وَهُوَ
مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أَي: مِنْكُمْ أَتْيَاهَا الْعَرَبُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ مِنَ الْعَرَبِ،
فَهُوَ هَاشِمِيٌّ قُرَشِيٌّ، وَهُوَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ نَبِيٌّ سِوَى
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أَي: يَقْرَأُهَا، وَالْمَرَادُ بِهَا: الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ،
﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أَي: يُزَكِّي عِبَادَاتِكُمْ، وَيُزَكِّي أَخْلَاقَكُمْ، وَيُزَكِّي نُفُوسَكُمْ، فَالذِّينَ
كُلَّهُ تَزْكِيَّةٌ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ ﷺ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ،
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وَهِيَ السُّنَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ مَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ
مِنَ الْحِكْمِ وَالْأَسْرَارِ فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَ بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما لم تكونوا تعلمون من قبل؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَبْلَ الرِّسَالَةِ أُمَّةً أُمِّيَّةً، لَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَكْتُبَ اسْمَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، فَحَصَلَ لَهُمْ عِلْمٌ وَرِكَاءٌ وَحِكْمَةٌ.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - مِنْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْنَا، حَيْثُ أَرْسَلَ فِيْنَا هَذَا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، الَّذِي يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ اللَّهِ، وَيُزَكِّيْنَا، وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

٢ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَتَرْكِيتِنَا، وَقَدْ عَلَّمَنَا ﷺ كُلَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا، حَتَّى قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا^(١).

٣ - ثُبُوتُ الزَّكَاةِ لِمَنْ اهْتَدَى بِمَا يَتْلُوهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَلَيْنَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾، وَمَنْ عَرَفَ حَالَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ عَرَفَ كَيْفَ زَكَّاهُمْ الْإِسْلَامُ، وَهَذَبَ أَخْلَاقَهُمْ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ الْعَصِيَّةَ وَالْجَاهِلِيَّةَ؟

٤ - الْحُثُّ عَلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، أَي: تَعَلُّمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ مِمَّا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

٥ - فَضْلُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ بِمَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤١).

٦- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَنْ تَلَا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ آيَاتِ اللَّهِ، وَزَكَاهُمْ بِمَا يُقَدِّمُ لَهُمْ مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَعَلَّمَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، كَانَ وَارِثًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ وَرِثَةَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرِثُونَهُمْ فِي أُمَمِهِمْ، يُعَلِّمُونَ الْأُمَّمَ مَا خَلَفَهُ الرُّسُلُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْحَيْرِ، وَيُعِينُونَهُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

٧- أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ مُشْتَمِلَانِ عَلَى الْحِكْمَةِ، وَالْحِكْمَةُ: هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، بِحَيْثُ تَكُونُ الْأَحْكَامُ مُطَابِقَةً لِمَا تَكُونُ فِيهِ الْمَصَالِحُ، وَدَرْءُ الْمَفَاسِدِ.

٨- فَضِيلَةُ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، حَتَّى انْتَقَلَتْ أُمَّةُ الْعَرَبِ مِنْ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ، إِلَى أُمَّةٍ عَالِمَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ.

٩- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي إِزْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ اللَّهِ، وَيُزَكِّيْنَا، وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُنَا مَا لَمْ نَكُن نَعْلَمُ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ، وَبَيَّنَّ ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ، فَقَالَ: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِالذِّكْرِ، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وَهَذَا الثَّوَابُ وَالْجَزَاءُ.

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أَي: اشْكُرُوا لِي مَا أُعْطَيْتُكُمْ مِنَ النِّعَمِ، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فَتَجَحَّدُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - الأمر بذكر الله، وذكر الله تعالى ينقسم إلى قسمين: ذكر واجب، وذكر تطوع ليس بواجب.

فالصلاة -مثلاً- من الأذكار الواجبة، وهي متضمنة لذكر الله؛ لأن فيها قراءة القرآن، وفيها الركوع والسجود، والقيام والقعود، والتسبيح والتعظيم لله عز وجل، ودعاء الله عز وجل، وكل هذا من ذكر الله.

والنوع الثاني: ذكر تطوع، كالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلوات النافلة. وينقسم الذكر من وجه آخر إلى قسمين:

- ذكر بالجوارح كالأقوال والأفعال، وهذا يقع من المؤمن والمنافق.
- وذكر بالقلب، وهذا لا يقع إلا من المؤمن.

٢ - أن جزاء الذاكرين لله أن يذكرهم الله، وقد ثبت في الحديث الصحيح: أن الله سبحانه وتعالى قال: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١)، وهم: الملائكة.

وعلى هذا فينبغي للإنسان الإكثار من ذكر الله عز وجل، والمؤمن يُمكنه أن يكون ذاكرًا لله تعالى دائماً، وذلك بأن يشاهد نعمة الله عليه، فإن نعم الله سبحانه وتعالى على العبد لا تُحصى، وكلُّ نعمة أنعم الله سبحانه وتعالى بها عليك فإنها تُذكرك بالله عز وجل،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُكُمْ أَنَّهُ نَفْسُهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَبِإِحْسَانِهِ وَبِفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، ولهذا أَثْنَى الله تعالى على الذَّاكِرِينَ على كُلِّ حالٍ، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الأحزاب: ٤١-٤٢].

٣- وَجُوبُ شُكْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وذلك بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، وَصَرْفِ نِعَمِهِ إِلَى مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِصَرْفِهَا إِلَيْهِ، فَلَا نَسْتَعِينُ بِنِعَمِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ.

٤- تَحْرِيمُ كُفْرِ النِّعْمَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾.

فنسأل الله تعالى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وبالإجابة جَدِيرٌ.

• • ❦ • •

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

قَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هَذَا نِدَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَجَّهَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ - وَهُوَ الْوَصْفُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَعْتَرِّضُ بِهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ - وَهُوَ لَا شَكَّ وَصْفُ تَكْرِيمٍ وَحَثٍّ وَإِعْرَاءٍ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ، فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤَمِّرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ^(١).

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٧٥).

وإذا صدر الله الخطاب بهذا النداء فإنه يُستفاد منه ثلاث فوائد:

الأولى: أهَمِّيَّة ما سِوَجَه إلى المؤمنین.

الثانية: أن امتثال ما سِوَجَه إليهم من مُقتَضیات الإیمان.

الثالثة: أن مُحَالَفته نقص في الإیمان.

وقوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: اطلبوا العون بالصبر والصلاة، فأما الصبر على الأمور ومصابرتها فإن كانت من المأمور بها فإن تصبر على أدائه كما أمرت به، وإن كانت من المنهي عنها فإن تصبر على اجتنابك لها؛ وذلك لأن النفوس ضعيفة، قد يشق عليها فعل الأوامر، فتصجر وتنسحب، ولا تكمل الواجب، وقد يشق عليها اجتناب النواهي، فتعجز عن الصبر، وتنتهك المحرمات، فلهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالصبر: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾، وما أُعطي الإنسان عطاءً أحسن وأوسع من الصبر، فإن الإنسان إذا صبر وعود نفسه على الصبر سهلت عليه الأمور.

وأما الصلاة إذا لجأ الإنسان إليها عند الشدائد فإنه يوشك أن تخفف عنه هذه الشدائد؛ لأن الإنسان يقف بين يدي الله عز وجل يناجيه بكلامه، ويتقرب إليه بالثناء عليه، ويدعوه، قال النبي ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثَرُ مَا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ، فَمَنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(١)، فالصلاة تعين الإنسان على شدائده، ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)

من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: «فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ».

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٨٧).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وهذا تَرْغِيبٌ فِي الصَّبْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ مُعَاجِلَةٌ نَفْسِهِ بِالصَّبْرِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - فَضِيلَةُ الْإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ وَصْفٌ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَزَّ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢ - أَنْ يَسْتَعِينِ الْإِنْسَانُ عَلَى أُمُورِهِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفِعْلِ إِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَوَامِرِ، وَعَلَى التَّرْكِ إِنْ كَانَتْ مِنَ النَّوَاهِي.

٣ - جَوَازُ الِاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ فِيهَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْعَوْنِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وَهَذِهِ اسْتِعَانَةٌ مُقَيَّدَةٌ غَيْرُ مُتَعَبَّدٍ بِهَا، أَمَّا الِاسْتِعَانَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمُتَعَبَّدُ بِهَا فَلَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

٤ - فَضِيلَةُ الصَّبْرِ، وَأَنَّهُ عَوْنٌ لِلْإِنْسَانِ عَلَى مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُجَرَّبٌ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَسْتَقِيلُ أَنْ يَقُومَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ؛ لِيَتَوَضَّأَ بِالمَاءِ البَارِدِ، وَيُصَلِّيَ فِي الْبَرْدِ، وَفِرَاشُهُ أَذْفَأُ لَهُ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اصْبِرْ عَلَى هَذَا، وَاحْتَسِبِ الْأَجْرَ، وَكَذَلِكَ رُبَّمَا يَشْقُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَرَدَّدَ إِلَى الْمَسَاجِدِ، فنقول: اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، وَرُبَّمَا يَشْقُ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ، فنقول: اصْبِرْ عَلَى الْجُوعِ، اصْبِرْ عَلَى الْعَطَشِ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ خَيْرٌ لَكَ، وَكَذَلِكَ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ مُصِيبَةٌ فَصَبِرَ وَانْتَظَرَ انْكِشَافَهَا هَانَتْ عَلَيْهِ.

٥ - أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ فَلْيَقْزِعْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

٦- أَنَّ الصَّلَاةَ عَوْنٌ لِلْعَبْدِ عَلَى مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ.

٧- فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ وَفَوَائِدُهَا، وَمَنْ تَأَمَّلَ الْوَاقِعَ وَجَدَ أَنَّ للصَّلَاةِ تَأثيرًا بالغًا فِي تَنْشِيطِ الْإِنْسَانِ، وَتَقْوِيَتِهِ، وَتَسْهِيلِ الْأُمُورِ أَمَامَهُ.

٨- إِبْثَاتُ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَالْمَعِيَّةُ هُنَا لَا تَقْتَضِي الْاِخْتِلَاطَ، يَعْنِي: لَا تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، لَكِنْ هَذِهِ الْمَعِيَّةُ تَقْتَضِي النَّصْرَ وَالتَّيْيِيدَ وَالتَّشْيِيتَ، وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ لِكُلِّ أَحَدٍ فَتَقْتَضِي الْإِحَاطَةَ بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

٨- التَّرْغِيبُ فِي الصَّبْرِ؛ لِأَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يُرَادُ بِهِ تَرْغِيبٌ هُوَ لَاءٌ بِالصَّبْرِ.

وَلِلصَّبْرِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: الْأَجْرُ الْكَثِيرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[الزمر: ١٠].

وَمِنْهَا: تَرْوِضُ النَّفْسَ عَلَى الْإِنْضِبَاطِ وَالْحِكْمَةِ وَعَدَمِ الْمَلَلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ، فَإِذَا صَبَرَ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِفَائِدَةِ الْاسْتِمْرَارِ فِيهِ، فَقَدْ رَوَّضَ نَفْسَهُ عَلَى مُلَاقَاةِ الْأُمُورِ وَمُعَانَاةِهَا.

ومنها: أَنَّ الصَّبْرَ سَبَبٌ لِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

ومنها: أَنَّ اللهَ مع الصَّابِرِينَ، وهذه أعظمُ فائدة: أَنَّ يَكُونَ اللهُ معك؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ اللهُ معه فَإِنَّهُ منصورٌ.

ومنها: أَنَّ الْإِنْسَانَ تَهْوُنُ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ فِيمَا إِذَا أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، ثُمَّ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ، ولهذا قال النبي ﷺ للرجل الذي أَرْسَلْتَهُ إِحْدَى بَنَاتِهِ لِيَحْضُرَ إِلَى غُلَامٍ عِنْدَهَا أَوْ جَارِيَةٍ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، قال النبي ﷺ لهذا الرجل: «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَبْقَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى»^(١).

••❦••

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

في هذه الآية يَنْهَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا لِلَّذِي يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ: أَمُوتَ، أي: أَنْ يَقُولُوا فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُمْ أَمُوتَ، ومعلومٌ أَنَّ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ سَيَمُوتُ حِسًّا، ولهذا يُدْفَنُ فِي الْأَرْضِ كَمَا يُدْفَنُ غَيْرُهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ؛ لِأَنَّ رُوحَهُ فَارَقَتْ جَسَدَهُ، لَكِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ - في الواقع -

(١) أخرجه بمعناه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أَحْيَاءُ حَيَاةً بَرَزَخِيَّةً، لَيْسَتْ كَحَيَاةِ الدُّنْيَا المَادِّيَّةِ الحَسِّيَّةِ ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ لِأَنَّ حَيَاتِهِمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، وَعَالَمِ الْغَيْبِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَشْعُرَ بِهِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أُمُورِ عَالَمِ الْغَيْبِ؛ لِأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ أَعْلَمِ الْعَالَمِينَ، وَأَصْدَقِ الْقَائِلِينَ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- نَهَى الْمُسْلِمَ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: إِنَّهُ مَيِّتٌ! هَذَا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْقَوْلَ هُنَا قَوْلُ اللِّسَانِ، أَمَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْقَوْلَ قَوْلُ الْقَلْبِ -يعني: اعتقاد القلب- فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ أَنْ يَقُولَ: مَاتَ فُلَانٌ! لَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا نَهْضِمَهُ حَقَّهُ، بَلْ نَقُولَ: مَاتَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّهُ رَجُلٌ مُجَاهِدٌ، وَلَا نَهْضِمَهُ حَقَّهُ.

٢- فَضِيلَةٌ مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾، أَي: بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ.

٣- جَوَازُ إِطْلَاقِ الْوَصْفِ بِاعْتِبَارَيْنِ، فَإِنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بِاعْتِبَارِ الْحَيَاةِ الْحَسِّيَّةِ؛ لِأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ فَارَقَتْ أَجْسَادَهُمْ، لَكِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ بِاعْتِبَارِ الْحَيَاةِ الْبَرَزَخِيَّةِ، فَهُمْ أَمْوَاتٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَأَحْيَاءٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَلَكِنْ لَا نَصِفُهُمْ بِالْوَصْفِ الْأَدْنَى، وَهُوَ الْمَوْتُ.

٤- أَنَّ عِلْمَ الْآخِرَةِ غَيْرُ مَشْعُورٍ بِهِ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لَا يُمَكِّنُ إدْرَاكُهُ حَسًّا.

٥- أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ أَوْ نَعِيمَ الْقَبْرِ أَمْرٌ لَا يُطَّلَعُ عَلَيْهِ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، لَكِنْ قَدْ يُطَّلَعُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا أَطَّلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ

كَانَا يُعَذِّبَانِ فِي قَبْرَيْهِمَا، حَيْثُ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَرْزِقُ مِنَ الْبُؤْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١).

٦- قُصُورِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ؛ حَيْثُ يَكُونُ الَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَهُ حَيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى نَقْصِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].



قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُؤَكِّدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ سَيَبْلُوُ عِبَادَهُ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، خَمْسَةُ أُمُورٍ كُلُّهَا فِيهَا الْإِتْلَاءُ وَالِامْتِحَانُ، وَيُؤَكِّدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ: اللَّامُ، وَنُونُ التَّوَكُّيدِ، وَالْقَسَمُ الْمُقَدَّرُ؛ لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: وَاللَّهُ لَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ وَهُوَ الذُّعْرُ، سِوَاءِ أَكَانَ هَذَا الْخَوْفُ مِنْ عَدُوٍّ حَقِيقِيٍّ مَائِلٍ أَمَامَ الْإِنْسَانِ، أَمْ مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مَعْلُومٍ، كَالْخَوْفِ الَّذِي يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أَي: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَآءَهُ، ﴿وَالْجُوعِ﴾ وَهُوَ نَقْصُ الطَّعَامِ، سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بَفَقْدِ الثُّقُودِ الَّتِي يَشْتَرِي بِهَا الْإِنْسَانُ طَعَامَهُ، أَمْ بِفَقْدِ الطَّعَامِ نَفْسِهِ، بَحِثْ لَا تُنْبِتِ الْأَرْضُ، أَوْ لَا يُجَلِّبُ إِلَى الْبَلَدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾

■ نقص من الأموال: بما يَخْصُلُ من الجَوَائِحِ والْفَيْضَانَاتِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُرْسِلُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ.

■ نقصُ الأنفُسِ: بالْمَوْتِ، كَالْأَوْبَةِ وَنَحْوِهَا.

■ نقصُ الثَّمَرَاتِ: أَيُّ: أَنْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ وَغَيْرِهَا تُصَابُ بِنَقْصٍ: إِمَّا فِي فَسَادِ ثَمَرَتِهَا، أَوْ هَلَاكِهَا، أَوْ ضَعْفِهَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَكُلُّ هَذِهِ مَصَائِبُ يُقَدِّرُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيَلُو عِبَادَهُ: أَيَصْبِرُونَ، أَمْ لَا يَصْبِرُونَ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أَيُّ: أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَسُرُّهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى هَذَا الْبَلَاءِ: الْخَوْفِ، وَالْجُوعِ، وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ.

وَالْخَطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ إِمَّا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْحُ تَوَجُّهُ الْخَطَابِ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الصَّابِرِينَ يَتَمَيِّزُونَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِمْ، وَبَيَّنَّ ثَوَابَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أَوَّلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَّلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أَيُّ: وَقَعَتْ فِيهِمْ مُصِيبَةٌ - أَيُّ: مَا يَسْوُؤُهُمْ وَيُخْزِيهِمْ - قَابَلُوا ذَلِكَ بِتَقْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي: بألستهم، مُعْتَرِفِينَ بها في قُلُوبِهِمْ.

وقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: له مُلْكًا وَخَلْقًا وَعِيْدًا، فله أن يَفْعَلَ بنا ما شاء، ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: سَنَرْجِعُ إليه مهما طَالَ الزَّمَن، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الصَّابِرُونَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، الصَّلَوَاتُ مِنَ الرَّبِّ عَلَى الْعَبْدِ قيل: إِنَّهَا الرَّحْمَةُ، والصَّوَابُ: أَنَّ الصَّلَوَاتِ غَيْرُ الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمَغَايِرَةَ، فَمَا هِيَ الصَّلَاةُ عَلَى الْعَبْدِ؟

الجواب: الصَّلَاةُ عَلَى الْعَبْدِ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهَا مَا قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى^(١). يعني: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثْنِي عَلَى الْمُصَلَّى عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ.

وعلى هذا فَمَعْنَى الْآيَةِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لَهُمْ ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: رَحْمَةٌ يَخْصُلُ بِهَا مَطْلُوبُهُمْ، وَيَنْجُونَ بِهَا مِنْ مَّرْهُوبِهِمْ. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ سَلَّمُوا الْأَمْرَ لِلَّهِ، وَقَالُوا: «إِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أي: الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهَدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ.

(١) انظر: تفسير مجاهد، (ص: ٥٥٢).

﴿هُم﴾ هذه يُسَمِّيها علماء النَحْوِ: ضَمِيرِ الحَضَر، يعني: أَنَّهَا تَحْضُر الحُكْمَ فيها بعدها، وَيَتَضَحُّ هذا بالمثال، فإذا قلت: «فُلَانٌ الْقَائِمُ»، أو قلت: «فُلَانٌ هُوَ الْقَائِمُ»، صار قَوْلُكَ: «فُلَانٌ هُوَ الْقَائِمُ» أَكَّدُ في الحَضَرِ والاختِصَاصِ من قولكَ: «فُلَانٌ الْقَائِمُ»، ولهذا فهي - في الحقيقة - مع إِفَادَتِهَا الحَضَرَ تُفِيدُ التَّوَكِيدَ.

في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - جواز التَّوَكِيدِ بالقَسَمِ في الأُمُورِ المُهِمَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾، ولكن يَنْبَغِي أن يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أن يُكْثِرَ مِنَ الْإِيْمَانِ، إِلَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إلى ذلك، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يُلْقِي الْخَبَرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ بِدُونِ تَوَكِيدٍ، لكن عند الحاجة لذلك يُؤَكِّدُهُ بالقَسَمِ.

٢ - أَنَّ الْخَوْفَ وَالْجُوعَ وَنَقْصَ الْأَمْوَالِ وَنَقْصَ الْأَنْفُسِ وَنَقْصَ الثَّمَرَاتِ كُلِّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْبَلَايَا.

٣ - بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ في تَدْبِيرِهِ لِحَلْقِهِ، حَيْثُ يُقَدَّرُ لَهُمُ الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ؛ لِيَبْلُوَهُمْ أَتَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

٤ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أن يَشْعُرَ بِقَدْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْأَمْنِ وَالْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَتُمُوِّ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ.

٥ - أَنَّ نَقْصَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مُصِيبَةٌ، فَتَكُونُ زِيَادَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ نِعْمَةً وَمِنْحَةً، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَتِ الْأَمْوَالُ، وَصُرِفَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَكَلِمَا كَثُرَ النَّاسُ، وَاسْتَعْمَلُوا حَيَاتَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ.

٦- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُبَشِّرَ أَهْلَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَكُونُ مِنْ ثَوَابِ هَذَا الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

والمبتلى بمُصِيبَةٍ مِنَ الْمَصَائِبِ الْمَذْكُورَةِ لَا يَحُلُّ مِنْ أَرْبَعِ حَالَاتٍ:
الحال الأولى: التَّسَخُّطُ والتَّضَجُّرُ.

الحال الثانية: الصَّبْرُ.

الحال الثالثة: الرِّضَا.

الحال الرابعة: الشُّكْرُ.

هكذا قَسَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَنْ يُصَابُونَ بِالْمَصَائِبِ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ.

فأما الحال الأولى -وهي التَّسَخُّطُ- فهي حَرَامٌ، لَا يَحِلُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَسَخَّطَ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، لَا بِقَلْبِهِ، وَلَا بِلِسَانِهِ، وَلَا بِفِعْلِهِ، وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ لَا يَحْزَنُ! بَلْ قَدْ يَحْزَنُ الْإِنْسَانُ، وَلَا يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْمَصِيبَةُ وَعَدَمُهَا، بَلْ تَكُونُ الْمَصِيبَةُ أَشَدَّ وَقَعًا عَلَيْهِ، وَيَحْزَنُ لَهَا، لَكِنْ يَصْبِرُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَاتَ، قَالَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان، رقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحال الثانية: الصَّبْرُ، وهو أن يتجرَّعَ أَلَمَ المِصِيبَةِ ويتأَلَّم، ولا يَسْتَوِي عنده وجود المِصِيبَةِ وعدمُها، بل هو مُتَكَدِّرٌ منها، لكنَّه لا يقول ما يُغْضِبُ اللهَ، ولا يَفْعَلُ ما يُغْضِبُ اللهَ، وهذا واجبٌ، فَإِنَّهُ يَجِبُ على الإنسان أن يَصْبِرَ، ولا يجوز أن يتسَخَّطَ، لا بقَوْلِهِ، ولا بقلْبِهِ، ولا بفِعْلِهِ.

الحال الثالثة: أن يَرْضَى بقَضَاءِ الله، أي: يَرْضَى بهذه المِصِيبَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ، والفرق بين الرِّضَا والصَّبْرِ: أَنَّهُ في حال الصَّبْرِ يتأَلَّم الإنسانُ من المِصِيبَةِ أَلَمًا قَلْبِيًّا، لكن لا يُظْهِرُ التَّسَخُّطَ، لا بقَوْلِهِ، ولا بقلْبِهِ، ولا بفِعْلِهِ، لكنَّه يتأَلَّم، إِلَّا أَنَّهُ صَابِرٌ عن فِعْلٍ ما لا يُرْضِي اللهَ.

أَمَّا في حال الرِّضَا فَإِنَّهُ لا يتأَلَّم، بمعنى: أَنَّهُ يرى أَنَّ وجودَ هذه المِصِيبَةِ عنده كعدمِها؛ لِأَنَّهَا من الله، لا يَكُونُ في قَلْبِهِ أَلَمٌ وَحَسْرَةٌ، ومَعْلُومٌ أَنَّ هذه الحالَ أَعْلَى من الحال الأولى، وإن كانت الحال الأولى -وهي الصَّبْرُ- أَشَدَّ من جِهَةِ مُعَانَاةِ مُنَازَعَةِ النَّفْسِ.

أَمَّا الحال الرَّابِعَةُ فهي الشُّكْرُ على هذه المِصِيبَةِ، ولكن قد نقول: كَيْفَ يَشْكُرُ الإنسانُ على مُصِيبَةٍ أَلَمَتْ به، وأَثَرَتْ عليه؟

فنقول: نعم، يَشْكُرُ اللهَ؛ لِأَنَّ هذه المَصَائِبَ عُقُوبَاتٌ مُعَجَّلَةٌ على ذُنُوبَ فَعَلَهَا، فيشْكُرُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن عَجَّلَ عُقُوبَةَ هذه الذُّنُوبِ في الدُّنْيَا قبل أن تَكُونُ في الآخِرَةِ، وأيضًا هو يَشْكُرُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يَحْصُلُ له من ثَوَابِ هذه المِصِيبَةِ، فيكون شُكْرُ الله منه على هذه المِصِيبَةِ من وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الأوَّلُ: أَنَّ عُقُوبَتَهُ عَجَّلَتْ، والعُقُوبَةُ في الدُّنْيَا أَهْوَنُ من عُقُوبَةِ الآخِرَةِ.

والوجه الثاني: أن الله تعالى يُثِيبُهُ على هذه المصيبة أكثر مما يتوقع.
فهذه أحوال من أُصِيبَ بمصيبة.

٧- أن من تَمَّامِ الصَّبْرِ: تَقْوِيضُ الأمرِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِندَ الْمَصَائِبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ولهذا يَنْبَغِي لِمَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ أَنْ يَسْتَرْجِعَ، فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وأن يقول ما جاءت به السُّنَّةُ: «اللهم آجِرْني في مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لي خَيْرًا منها»، فَإِنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ آجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا منها، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّهُ حِينَ مَاتَ زَوْجُهَا أَبُو سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو من أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا- قَالَتْ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَتْ: «إِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ آجِرْني فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لي خَيْرًا منها»، فَكَانَتْ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا: مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟! فَإِذَا بَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَزَوَّجُهَا بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ، فَأَعْطَاهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْهَا^(١).

٨- أن العِبَادَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ خَلْقًا وَمُلْكًا وَتَدْبِيرًا، فَهُوَ يَفْعَلُ فِيهِمْ مَا يَشَاءُ.

٩- الْإِيْمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فَمِنْ فَوَائِدِهَا:

١٠- أن الله تعالى يُعْطِي الصَّابِرِينَ هَذَا الثَّوَابَ الْجَزِيلَ.

١١- عَلُوُّ مَنْزِلَةِ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وَ(أولاء) اسم إشارة للبعيد، وذلك لَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

١٢ - بيان الثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالْجَزِيلِ لِلصَّابِرِينَ؛ حيث نَالُوا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ في الْمَلَأِ الْأَعْلَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٣ - بيانُ ضَعْفِ الْقَوْلِ بِأَنَّ الصَّلَاةَ من الله هي الرَّحْمَةُ، وذلك لأنَّ الله تعالى عَطَفَ الرَّحْمَةَ على الصَّلَوَاتِ، والعطفُ يَقْتَضِي الْمُغَايِرَةَ، فدلَّ ذلك على أَنَّ الصَّلَوَاتِ غَيْرُ الرَّحْمَةِ، وكما أسلفنا أَنَّ أبا الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: إِنَّ صَلَاةَ الله على عَبْدِهِ: ثَنَاؤُهُ عليه في الْمَلَأِ الْأَعْلَى^(١).

١٤ - أَنَّ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ يُوفَّقُونَ لِلْهِدَايَةِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

نسأل الله أَنْ يَجْعَلَنَا من الصَّابِرِينَ على الْبَلَاءِ، الشَّاكِرِينَ على الرَّخَاءِ، الْمُهْتَدِينَ بِهِدَايَةِ الله، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ: جَبَلَانِ مَعْرُوفَانِ شَرْقِيَّ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ، وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ: جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ، والثَّانِي: جَبَلُ قُعَيْقَعَانَ، وكان عليهما صَنْمَانٌ لِقُرَيْشٍ، فَتَحَرَّجَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآية: ﴿إِنَّ الصَّفَا

وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴿١﴾.

والشعائر: جمع شعيرة، وهي الحصلة المعظمة في كتاب الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وقوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ (أو) هنا للتنوين، يعني: أن من حج أو اعتمر فليستع بينهما، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أي: بينهما، والجُنَاح هنا بمعنى: الإثم.

ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أن الإنسان مأمور بالطواف بهما، فإنَّ شعائر الله معظمة، ومن تعظيمها: أن يطوف المسلم بين الصفا والمروة. ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا﴾ أي: من فعل طاعة - فإنَّ الطاعة خير - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يشكر هذا الفاعل، فيُعْطِيهِ جزاءه: الحسنَة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - أن الصفا والمروة من شعائر الله، ويتفرع على ذلك: أن الطواف بهما قربة إلى الله عز وجل.

٢ - أن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج والعمرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾.

٣ - أن نفي الجُنَاح لا يمنع أن يكون الشيء مأمورًا به؛ لأنه قد يُنفَى الشيء خوفًا من توهمه، مع بقاء أصل المشروعية.

(١) انظر: صحيح مسلم: كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن، رقم (١٢٧٧).

٤- أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَوْعِبَ الْإِنْسَانُ مَا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وَلَا يُمَكِّنُ تَحَقُّقُ الطَّوَّافِ بَهَا إِلَّا إِذَا اسْتَوْعَبَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَوْعِبَ السَّاعِي بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ مَا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ.

وَفِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَامَةُ الْاسْتِيعَابِ هِيَ مُتْتَهَى -شُبْكِ الْمَرِّ- الَّذِي جُعِلَ لِلْعَرَبَاتِ؛ فَإِنَّهُ بَانْتِهَائِهِ يَكُونُ انْتِهَاءُ الْمَسْعَى الْقَدِيمِ.

٥- الْحُثُّ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٦- إِبْثَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَهُمَا: (الشَّاكِر) وَ(الْعَلِيم)، وَإِبْثَاتُ مَا تَضَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ، وَهِيَ: الشُّكْرُ وَالْعِلْمُ، وَلَكِنْ لَا شُكْرَ إِلَّا عَلَى فِعْلِ مُحَمَّدٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ مَنْ فَعَلَ مَا يَقْرُبُ إِلَيْهِ وَيَرْضِيهِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِيمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَكَتَمَهُ، تَوَعَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ: أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُهُ، وَيَلْعَنُهُ أَيْضًا اللَّاعِنُونَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَشْنَى مَن تَاب وَأَصْلَحَ وَبَيَّنَّ، وَوَعَدَ مَنْ قَامَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يُتُوبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تحريمُ كُتْمِ ما أنزلَ اللهُ من البَيِّنَاتِ والهُدَى، وَأَنَّهُ من كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لَأَنَّ الْكَاتِمَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَنَةِ اللهُ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ.

٢- عَلُوُّ اللهِ عَزَّجَلْ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾، وَعُلُوُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ عَلُوُّ ذَاتِيٍّ، بمعنى: أَنَّهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

■ وَعُلُوُّ مَعْنَوِيٍّ، بمعنى: أَنَّ صِفَاتِهِ كُلَّهَا عَلَيَّا، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

٣- أَنَّ ما أنزلَه اللهُ عَزَّجَلْ بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٤- أَنَّ ما نَزَلَ من عِنْدِ اللهِ فَإِنَّهُ هُدًى يَهْتَدِي بِهِ كُلُّ مَنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى هِدَايَتَهُ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾.

٥- أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَيَّنَّ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ الْعِبَادُ فِي عِبَادَةِ اللهِ إِلَّا بَيْنَهُ عَزَّجَلْ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَهُ فِي الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَهُمْ إِلَّا بَيْنَهُ اللهُ عَزَّجَلْ؛ حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ،

وحتى تقوم عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

٦- أن أولئك الكافرين يستحقون اللعنة؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّعِنُونَ﴾، ومرتّب على ثبوت اللعنة لهؤلاء: أنّه يجب على أهل العلم أن يسيئوا
للناس ما أنزل الله تعالى من العلم، ولا يكتموا شيئاً منه؛ مDAHنة أو محاباةً لبعض
الناس.

٧- أن من تاب من ذنب فإن الله تعالى يتوب عليه، وهذا مستفيض مشهور
في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن التوبة لا بد لها من شروط:

الشرط الأول: أن تكون بإخلاص، ألاّ يحمل الإنسان على التوبة إلا وجهه الله،
ورجاء ثوابه، لا يريد بذلك جاهاً، ولا رئاسةً، ولا مدحاً من الناس.

الشرط الثاني: أن يندم على ما جرى عليه من المعصية، سواء كانت المعصية
بترك واجب، أم بفعل محرم.

الشرط الثالث: أن يقطع عما هو عليه من الذنب، فإن كان إهماً لا واجب قام
بالواجب، وإن كان فعلاً لمحرّم نزع عنه، وإذا كان حقاً لادمي فإنه لا بد أن يستحله
أو يؤدّيه حقه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل، فإن قال: إنه تائب، ولكن
من نيته أن يعود، فإن هذه التوبة ليست بصحيحة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهي بالنسبة لكل
فرد تنتهي بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس تنتهي بطلوع الشمس من مغربها،

وَدَلِيلُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَنْ﴾ [النساء: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَتِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وَذَلِكَ يَعْنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِنَّهَا إِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَلَكِنَّهُ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَتِهَا خَيْرًا﴾.

٨- أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي التَّوْبَةِ مِنَ الْإِصْلَاحِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾، فَإِذَا تَرْتَّبَ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ فُسَادُ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ التَّائِبُ بِإِصْلَاحِ هَذَا مَا أَمَكَّنَهُ.

٩- أَنْ مَنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ بِذَنْبٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ فِي التَّوْبَةِ بِمَا يُقَابِلُ هَذَا الذَّنْبَ، فَهَؤُلَاءِ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُمْ بِكِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَلِهَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾.

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ تَائِبٌ عَنْ كِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ، فنقول: إِنَّ هَذِهِ التَّوْبَةُ لَا تَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُصْلِحَ الْإِنْسَانُ مَا فَسَدَ عَلَى يَدَيْهِ بِمَعْصِيَتِهِ، فَالكَاتِمُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُ وَتَكُونَ صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا بَيَّنَّ.

١٠- أَنْ مَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، وَعَدُّ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ ذَنْبٍ، فَمَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْجَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْظُرُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

١١ - إثبات اسمين من أسماء الله، هما: (التَّوَّاب)، و(الرَّحِيم)، فالتَّوَّاب: هو الذي يُوقِّقُ للتَّوْبَةِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ، والدَّلِيلُ على ذلك: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي الَّذِينَ خُلِفُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قَدَّرَ لَهُمُ التَّوْبَةَ حَتَّى قَامُوا بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

أَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِي لِلتَّوْبَةِ فَهُوَ قَبُولُ التَّوْبَةِ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعْلُونَ﴾ [الشورى: ٣٥].

وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَهُوَ ذُو الرَّحْمَةِ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

■ عَامَّةٌ تَشْمَلُ كُلَّ الْخَلْقِ، حَتَّى الْكُفَّارِ، فَإِنَّهَا تَشْمَلُهُمْ.

■ وَخَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، لَا تَشْمَلُ الْكَافِرِينَ، وَدَلِيلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].



ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ﴾ (١١٦) خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١١٦)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَالْكَفَرُ نَوْعَانِ: نَوْعُ

جُحُودٍ، وَنَوْعُ اسْتِكْبَارٍ، فَالْجُحُودُ: يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ، وَالْاسْتِكْبَارُ: يَتَعَلَّقُ بِالْأَوَامِرِ

وَالنَّوَاهِي.

فَمَنْ كَذَّبَ خَبْرًا مِنْ أَخْبَارِ اللَّهِ أَوْ أَخْبَارَ رَسُولِهِ الثَّابِتَةَ عَنْهُ ﷺ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا، وَكُفْرُهُ هَذَا كُفْرٌ جُحُودٌ وَتَكْذِيبٌ، وَمَنْ صَدَّقَ، وَلَكِنْ اسْتَكْبَرَ، فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا، إِذَا اسْتَكْبَرَ عَنْ جَمِيعِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَكُفْرُهُ هَذَا كُفْرٌ اسْتِكْبَارٌ، وَمِنْهُ: كُفْرُ إِبْلِيسَ؛ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ لَهُ مَعَ جُمْلَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يَعْنِي: اسْتَمَرُّوا فِي كُفْرِهِمْ حَتَّى الْمَوْتِ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كُلُّ يَلْعَنُهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- كُلُّ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ، بَلْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ فِي النَّارِ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَي: فِي اللَّعْنَةِ، وَهِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هُمْ خَالِدُونَ فِيهَا لَا يُرْحَمُونَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أَي: بِقِلَّةِ أَلَمِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَي: لَا يُمَهَّلُونَ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، بَلِ الْعَذَابُ يُعَجَّلُ لَهُمْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَيُؤَاخِذُونَ عَلَى مَا فَعَلُوهُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ، مَا يَلِي:

١ - أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ إِلَّا إِذَا مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي الشَّرِيعَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُعَذَّبُ عَذَابَ الْكُفْرَةِ إِلَّا إِذَا مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢- خُلُود أهل النَّار في لَعَنَةِ الله؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وقد وَرَدَتْ آيَاتٌ ثَلَاثٌ تَدُلُّ على أَنَّ عَذَابَ النَّارِ مُؤَبَّدٌ، ففي سُورَةِ النَّسَاءِ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وفي سُورَةِ الْأَحْزَابِ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي سُورَةِ الْجِنِّ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا لَا يُعْرَفُ عن أهلِ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةِ السَّلَفِ إِلَّا القَوْلُ بأنَّ جَهَنَّمَ يُخَلَّدُ فيها أَصْحَابُهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ، والعِيَاذُ بالله.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

والخِطَابُ هنا لَجَمِيعِ البَشَرِ، يُخْبِرُ اللهُ تعالى أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَيؤكدُ ذلك بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا هُوَ، والإِلَهَ بمعنى: المَعْبُودُ حُبًّا وَتَعْظِيمًا.

وَيُبينُ عَزَّجَلَّ بعد ذلك أَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وفي هذا -والله أعلم- إشارةٌ إلى أَنَّ أَلُوهُيَّتَهُ وَرُبُوبِيَّتَهُ مَبْنِيَّةٌ على الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، ولهذا تَرى ما أَمَرَ اللهُ به أَمْرًا ليس بِشَاقٍّ على النَّاسِ، بل إذا وَجِدْتَ المَشَقَّةَ وَجَدْتَ التَّسْهِيلَ؛ لقولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»^(١)، وَقَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَسِّرِينَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١)، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢).

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ - إثبات ألوهية الله، ووحدانيته في هذه الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

٢ - أنه ينبغي في الكلام المهم أن يؤكد بما يؤيده؛ لقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ - إثبات اسمين من أسماء الله، هما: (الرَّحْمَن) و(الرَّحِيم)، وإثبات ما تَصَمَّنَاهُ من صفة، وإذا ذُكِرَ هذان الاسمان جميعًا صار الأوَّل للصفة، والثاني للفعل، وإن أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا شَمَلَ الْآخَرَ، وعلى هذا فيكون (الرَّحْمَن) أي: ذو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، و(الرَّحِيم) أي: الْمُوَصِّلَ رَحْمَتِهِ لِعِبَادِهِ.

وفي (الرَّحِيم) إثبات أن رحمة الله عَزَّجَلَّ تَتَعَدَّى لِلْمَرْحُومِ، ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨].

٤ - الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِي يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَيَقُولُونَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فيقال: إِنَّ الْعُجَابَ كُلَّ الْعُجَابِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ، كَيْفَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التقصير، باب إذا لم يُطَقْ قَاعِدًا صَلَّى عَلَى جَنْبٍ، رقم (١١١٧).

تَعْبُدُونَ مع الله غَيْرَهُ، وهو خالقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، الْمُتَفَرِّدُ بِخَلْقِهَا؟!

٥- تأكيدُ الجُمْلَةِ الحَبْرِيَّةِ بما يُؤَيِّدُهَا، لاسِيَّما في الأُمُور المُهِمَّةِ، ولا يُعَدُّ هذا تكرارًا في الكلام؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٦- الرَّدُّ على النَّصَارَى المُثَلَّثِينَ الذين يقولون: إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾.



ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذه جُمْلٌ تدلُّ على آيَاتٍ عَظِيمَةٍ، لكن لا يَنْتَفِعُ بهذا إِلَّا أَهْلُ الْعَقْلِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، كَيْفَ جَعَلَ الْأَرْضَ على هذا الْوَجْهِ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ؟! وَجَعَلَ السَّمَاءَ على هذا الْوَجْهِ، وَزَيَّنَهَا بِالنُّجُومِ؟! وَكَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْأَرْضُ على ما فيها من سَعَةِ عَظِيمَةٍ، تَكُونُ مَلْجَأً لِلخَائِفِينَ، وَمُزْدَرَعًا لِلْحَارِثِينَ؟! وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ بِأَفْلَاكِهَا وَنُجُومِهَا وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا، كُلُّهَا إِذَا تَأَمَّلَهَا الْإِنْسَانُ وَجَدَ فِيهَا آيَاتٍ عَظِيمَةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ يعني: فيه آيات لقوم يَعْقِلُونَ، واختلاف الليل والنهار أي: بالطول والقصر، وكذلك أيضًا بما يحدث فيهما من حوادث، وحروب، وأمن، ورخاء، وشدة، وقحط، وغيث، وغير ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْفُلُكُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ هذا أيضًا من الآيات لقوم يَعْقِلُونَ، والفلك: هي السفينة، تجري في البحر في هذه المياه العميقة الواسعة التي تتلاطم بالأمواج، وهذه الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس بحمل بني آدم من جهة إلى جهة، وحمل الأرزاق من بلد إلى بلد، وغير ذلك من الآيات العظيمة في الفلك ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

وقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يعني: في هذا أيضًا آيات لقوم يَعْقِلُونَ، ويريد بالماء الذي ينزل من السماء يريد به تبارك وتعالى: المطر، يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتجد الأرض هامدة يابسة، فإذا بها مخضرة تهتز، وفي هذا آيات على كمال قدرة الله عز وجل، وعلى قدرته على إحياء الموتى، كما يستدل الله سبحانه وتعالى على ذلك في آيات كثيرة من القرآن.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في الأرض من كل دابة من الدواب الكثيرة التي لا يمكن تعداد أجناسها، فضلًا عن أفرادها، وهذه الدواب كلها رزقها على الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

والدابة هنا: اسم لكل ما يدب على الأرض من صغير وكبير، وإنسان وحيوان.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ يعني: تَحْرِيفُهَا مِنْ جَنُوبٍ إِلَى شَمَالٍ، وَمِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ، وَهَنَّاكَ تَصْرِيفٌ آخَرُ: مِنْ حَارَّةٍ إِلَى بَارِدَةٍ، وَتَصْرِيفٌ ثَالِثٌ: مِنْ مُثِيرَةِ السَّحَابِ إِلَى مُلَقَّحَةٍ لَهُ، كُلُّ هَذَا التَّصْرِيفِ فِيهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، فَإِنَّ هَذَا التَّصْرِيفَ لِلرِّيَّاحِ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْخَلِيقَةُ كُلُّهَا عَلَى أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهِ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَلَوْ جَمَعَتْ جَمِيعَ الْمَكَائِنِ النَّفَّاثَاتِ، وَبِكُلِّ قُوَّاهَا، مَا اسْتَطَعَتْ أَنْ تَأْتِيَ بِأَدْنَى رِيحٍ مِنْ هَذِهِ الرِّيَّاحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هَذَا السَّحَابُ الَّذِي يَنْسَحِبُ فِي الْجَوِّ حَامِلًا الْمِيَاهَ الْعَظِيمَةَ، بَلْ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَّابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٣]، هَذَا السَّحَابُ الْمُسَخَّرُ الْمُدَّلَّلُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى يُوجِّهُهُ حَيْثُ شَاءَ.

فِي هَذَا كُلِّهِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي: لِقَوْمٍ عِنْدَهُمْ عُقُولٌ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَغَيْرِهَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

- ١- مَا أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي آخِرِهَا: ﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.
- ٢- الْإِشَارَةُ إِلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ خَالِقَهُمَا جَلَّ وَعَلَا لَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ، وَلَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَمَا مَسَّهُ مِنْ لُغُوبٍ، جَلَّ وَعَلَا^(١).

(١) قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

٣- العِبْرَةُ بِاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ فِيمَا سَبَقَ.

٤- نِعْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذَا الْاِخْتِلَافِ، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

٥- بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، حَيْثُ تَنْقُلُ النَّاسَ مِنْ بَرٍّ إِلَى بَرٍّ، وَتَنْقُلُ الْأَطْعِمَةَ وَمَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ حَتَّى يَنْتَفِعَ الصَّادِرُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَالْوَارِدُ إِلَيْهِمْ.

٦- تَمَامُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِإِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِهِ.

٧- بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ، حَيْثُ جَعَلَ هَذَا الْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنْ عَلُوٍّ لِيَشْمَلَ مَا اِزْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَا نَزَلَ مِنْهَا.

٨- بَيَانُ إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ: مِنَ الدَّوَابِّ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَشَرَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ هَذِهِ الدَّوَابَّ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَنْزِلُ أَحْيَانًا فِي أَرْضٍ قَفْرِ لَيْسَ حَوْلَهَا أَحَدٌ، فَإِذَا بِهِ يَرَى النَّمْلَ، وَيَرَى غَيْرَهَا مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

٩- بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَضَرُّيفِ الرِّيَّاحِ، وَهَذَا التَّضَرُّيفُ لَهُ حِكْمٌ عَظِيمَةٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَقْرُونٌ بِالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ: (الْحَكِيمُ)، وَهُوَ الْمُحْكِمُ الْمُتَّقِنُ لِكُلِّ مَا صَنَعَ، وَلِكُلِّ مَا شَرَعَ.

١٠- أَنَّ هَذَا السَّحَابَ مُسَخَّرٌ، أَي: مُذَلَّلٌ، يُصَرِّفُهُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ يَشَاءُ، وَلَا أَدَّلَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ اسْتِسْقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ، حَيْثُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:

يا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتَ الأموال، وانْقَطَعَت السُّبُلُ، فادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يديه، وقال: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا» ثلاث مرَّات، فما نزل من المنبر إِلَّا والمطرُ يَتَحَادَرُ من لِحْيَتِهِ^(١).

وكذلك قِصَّةُ الرَّجُلِ صَاحِبِ الْحَدِيقَةِ حينَ سَمِعَ رَجُلٌ آخَرُ صَوْتًا من السَّحَابِ يقول: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ! فَنَزَلَ الْمَطَرُ في حَرَّةٍ، ثُمَّ جَرى في شَرْجٍ منها حَتَّى أَرَوَى تلكَ الْحَدِيقَةَ، فَجَاءَ الَّذِي سَمِعَ الصَّوْتِ إِلَى صَاحِبِ الْحَدِيقَةِ يسأله: مَنْ أَنْتَ؟ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ الْاسْمَ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا سَأَلَهُ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ: مَا سَأَلْتُكَ؟ أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّحَابِ، يقول: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ! ثُمَّ سَأَلَهُ: مَاذَا كُنْتَ تَصْنَعُ في هَذِهِ الْحَدِيقَةِ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَجْعَلُهَا أَثْلًا: يَجْعَلُ ثُلْثًا لِلْقِيَامِ عَلَيْهَا، وَثُلْثًا لِنَفَقَتِهِ وَعِيَالِهِ، وَثُلْثًا يَتَصَدَّقُ بِهِ^(٢).

١١ - فَضِيلَةُ الْعَقْلِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ يَهْتَدِي بِهِ صَاحِبُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَا يَعْقِلُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ وَهَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا الْعَالِمُونَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة، رقم (٩٣٣)، ومسلم: كتاب الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يذكر مسلم تقاطر الماء من لحية النبي ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٠٧).

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥)

في هذه الآية يذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ يَعْنِي: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا، أَي: نُظَرَاءَ وَأَمْثَالًا يُسَوُّونَهُمْ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي الْمَحَبَّةِ، فَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَيُشِيرُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذَا إِلَى أَوْلَئِكَ الْعَابِدِينَ لِأَصْنَامِهِمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَهَا كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ، فَيَجْعَلُونَهَا شَرِيكَةً مَعَ اللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وهذا كَالِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي يُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ، وَالْمَعْنَى: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ لِأَصْنَامِهِمْ، أَوْ مِنْ هَؤُلَاءِ لِلَّهِ، يَعْنِي: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ، وَيَتَعَلَّقُونَ بِهِ أَشَدَّ حُبًّا وَتَعَلُّقًا مِنْ هَؤُلَاءِ بِأَصْنَامِهِمْ؛ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ مَحَبَّةٌ تَقْتَضِيهَا الْفِطْرَةُ وَالشَّرِيعَةُ، أَمَّا مَحَبَّةُ هَؤُلَاءِ لِأَصْنَامِهِمْ كَحُبِّ اللَّهِ فَهِيَ مَحَبَّةٌ لَا تَرْضَاهَا الشَّرِيعَةُ، وَلَا تَقْتَضِيهَا الْفِطْرَةُ.

ويجوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أَي: أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ مَحَبَّةٌ خَالِصَةٌ لَا يَشْرُكُهَا مَحَبَّةٌ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَمَحَبَّةُ هَؤُلَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى مَحَبَّةٌ فِيهَا شَرِكٌ، حَيْثُ يُحِبُّونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ كَمَحَبَّةِ اللَّهِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ، وَأَحَدُهُمَا لَا يُنَافِي الْآخَرَ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ حَمْلُهَا عَلَى الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَعْمٌ وَأَشْمَلُ.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا بالتخاذم
 أنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ أي: يُشَاهِدُونَهُ وَيَعَانُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأنَّ أَضْغَانَهُمْ لَيْسَ لَهَا قُوَّةٌ وَلَا حَوْلٌ، بل هي أَضْعَفُ وَأَهْوَنُ
 من أن يَكُونَ لَهَا قُوَّةٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾
 إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْتَأْذِنُ
 الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿[الحج: ١٧٣]﴾، وهنا يقول:
 ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأنه لا قُوَّةَ لِأَضْغَانِهِمْ،
 فَيُتَفَذَّهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ يعني: وَيَرُونَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ،
 يعني: لو رَأَوْا ذلك لتبدلت أحوالهم، ولعرفوا أنَّهم على خطإٍ وضلالٍ.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- تَحْرِيمُ تَشْرِيكِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ غَيْرِهِ، بحيث يَتَّخِذُ أَضْغَانًا يُحِبُّهَا كَحُبِّ
 اللَّهِ، سواء كانت هذه الأضغَان من الشَّجَرِ، أو الْحَجَرِ، أو الْبَشَرِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا
 كَمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ قَدْ شَرَّكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَحَبَّةِ، وَيُسَمَّى هَذَا النَّوعُ مِنَ الشُّرْكِ:
 شُرْكُ الْمَحَبَّةِ.

٢- أَنَّهُ يَجِبُ إِخْلَاصُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، والمراد بها: مَحَبَّةُ التَّذَلُّلِ وَالخُضُوعِ
 وَالْعِبَادَةِ، وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ الطَّبْعِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ بَشَرٍ
 أَوْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَرْكُوبٍ، فهذه لا تَعَلِّقُ لَهَا بِهَذَا الْبَابِ، وكذلك مَحَبَّةُ
 الْإِنْسَانِ لِأَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ وَأَصْحَابِهِ لَا تَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مَحَبَّةً مَعَ اللَّهِ،
 وهي من نوعٍ آخَرَ.

٣- شِدَّةُ مَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَتَمُّ مَحَبَّةٍ كَامِلَةٍ، أَكْمَلُ مِنْ مَحَبَّةِ هَؤُلَاءِ لِأَصْنَامِهِمْ، وَمَحَبَّةٍ خَالِصَةٍ أَخْلَصَ مِنْ مَحَبَّةِ هَؤُلَاءِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

٤- الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكًا فِي الْمَحَبَّةِ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

٥- أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكًا فِي الْمَحَبَّةِ كَانُوا ظَالِمِينَ، أَي: ظَالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ، حَيْثُ انْتَقَصُوهَا حَقَّهَا، وَهَكَذَا كُلُّ عَاصٍ لِلَّهِ فَإِنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُ أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، يَجِبُ أَنْ يَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَأَلَّا يُوقِعَهَا فِي الْمَهَالِكِ، فَتَهْلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ مُتَعَدَّةٍ: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

٦- إِبْثَاتُ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى جَمِيعًا، فَجَمِيعُ الْقُوَى لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، حَتَّى مَا يَخْلُقُهُ فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْقُوَى فَإِنَّهُ لِلَّهِ مُلْكُهُ، لَوْ شَاءَ لَسَلَبَ ذَا الْقُوَّةِ قُوَّتَهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

٧- التَّحْذِيرُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتٍ مُتَعَدَّةٍ: أَنَّ شِدَّةَ عَذَابِهِ إِنَّهَا تَكُونُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَتَاةِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّيْتُمْ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩-٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

٨- أَنَّ الْمَحَبَّةَ تَتَفَاضَلُ، فَيُحِبُّ الْإِنْسَانُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ الشَّيْءَ الْآخَرَ،

وإذا كانت محبة الله تعالى من الإيمان، ومن أفضل العبادات، وكانت تتفاضل، فهو دليل على أن الإيمان يتفاضل، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فقد صرح أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يتفاضل، وأنه يزيد وينقص، وأن من أسباب زيادته: طاعة الله عز وجل، ومن أسباب نقصانه: معصية الله عز وجل، بل إن الإيمان يزيد وينقص حتى في العلم الحاصل في القلب، فإن العلم الحاصل في القلب يتفاوت بحسب الطرق الموصلة إليه، فالإنسان يعلم بخبر الاثنين أكثر مما يعلم بخبر الواحد، وكلما تعدد المخبرون ازداد الإنسان يقيناً.

٩- أن يحذر الإنسان مما وقع لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكاً في المحبة، فأحبوا الأنداد كما يحبون الله، نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من أحبائه وأوليائه، وأن يهب لنا منه رحمة؛ إنه هو الوهاب.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾
 ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٤﴾

هذه الآية آية البراءة، أي: براءة أهل الشرك ممن اتخذوهم أنداداً يوم القيامة، وكذلك براءة المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة.

يقول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ (إذ هذه مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ تبرأ الذين اتبعوا، وهم السادة القادة الذين يقودون

النَّاسِ، سِوَا قَادُوهُمْ بِاسْمِ الشَّرْعِ، وَهُمْ مُحَرَّفُونَ لِلشَّرَائِعِ، كَأَيُّمَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَنَحْوِهِمْ، أَوْ قَادُوهُمْ بِاسْمِ الْإِمْرَةِ وَالسُّلْطَةِ، كَأُمَرَاءِ السُّوءِ.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾: يَتَّبِعُونَ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا يَحْتَجُّونَ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَلَكِنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا يَتَّبِعُونَ مِنْهُمْ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْمُتَّبِعِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ، وَأَتَمُّهُمْ عَلَى صَلَالٍ ﴿وَنَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي: الْمَوَدَّةَ ^(١). يَعْنِي: أَنَّ الْمَحَابَّبَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ تَقَطَّعَتْ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْآتِبَاعَ يَظُنُّونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ يَنْفَعُونَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَهُمْ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مِنْهُمْ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُمْ حَسْرَةً؛ لِأَنَّهُمْ يَنْدَمُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمَ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ (لَوْ) هُنَا لِلتَّمَنِّي، يَعْنِي: قَالُوا: لَيْتَ لَنَا كَرِهَةً - أَي: رُجُوعًا إِلَى الدُّنْيَا - فَتَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟! بَلْ لَا يَزِيدُهُمْ هَذَا إِلَّا حَسْرَةً، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أَي: هُمْ مِنْ أَهْلِهَا الَّذِينَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا.

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

- ١- التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْلِ السُّوءِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ قَادُوا اتِّبَاعَهُمْ إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْحَسْرَاتِ، وَدُخُولِ النَّارِ دُخُولًا لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا.
- ٢- أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَخْصٍ عَلاَقَةٌ لَغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَنْدَمُ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي التَّفْسِيرِ (٣/ ٢٧).

هذه العَلَاقة، وَيَتَبَرَّأ كُلُّ مِنَ الْآخَرِ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣- أَنْ كُلَّ سَبَبٍ لَيْسَ مَبْنِيًّا عَلَى أَصْلٍ صَحِيحٍ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَنْقَطِعُ، وَلَا يُوَصِّلُ صَاحِبَهُ إِلَى مَقْصُودِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

٤- تَتَابَعُ الْحَسَرَاتُ عَلَى هَؤُلَاءِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ ضَلُّوا بِضَلَالٍ مَتَّبِعِيهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، وَالْحَسْرَةُ: شِدَّةُ النَّدَمِ.

٥- بَيَانٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لَيْسُوا يَدْعُونَ إِلَى هُدًى وَصَلَاحٍ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى ضَلَالٍ وَفَسَادٍ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ التَّابِعِينَ لَيْسُوا بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ التَّابِعُونَ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ فَالْمَتَّبِعُونَ مِنْ بَابٍ أُولَى.

٦- الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ النَّارَ مُؤَبَّدَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا - وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ ثَلَاثٍ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا - دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّارَ لَا تَفْنَى، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٣٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ قَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الْأَمْرُ هُنَا لِلْإِبَاحَةِ، أَي: كُلُوا مِمَّا أَخْرَجَ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ حَالَ كَوْنِهِ حَلَالًا لَكُمْ طَيِّبًا، وَلَيْسَ بِخَبِيثٍ.

والإشارة في قوله: ﴿طَبَّأ﴾ إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون مَكْسَبُهُ على وجهٍ مُباحٍ حلال؛ لأنَّ الكَسْبَ المحَرَّم حَيْثُ.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ في خُطُواته، كُلِّمَا خَطَا خُطْوَةً مَشَيْتُمْ عليها، فَإِنَّهُ لَا يَجُرُّكُمْ إِلَّا إِلَى النَّارِ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ عَدُوَّكَ إِذَا خَطَا وَاتَّبَعْتَهُ فَسَيُوقِعُكَ فِي الْمَهَالِكِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَاذَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي: بِالْعَمَلِ السَّيِّئِ، وَهُوَ مَا دُونَ الْفَحْشَاءِ ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ الْعَمَلُ الْكَبِيرُ الَّذِي يُسْتَفْحَشُ فِي الْعُقُولِ وَالشَّرَائِعِ ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أي: وَأَنْ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، إِمَّا فِي ذَاتِهِ، أَوْ فِي أَسْمَائِهِ، أَوْ فِي صِفَاتِهِ، أَوْ فِي أَحْكَامِهِ، أَوْ فِي أَفْعَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُو إِلَى أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ عَلَى رَبِّهِ مَا لَا يَعْلَمُ، وَهَذَا مِنَ الْمَحْرَمَاتِ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد ما يلي:

١- وَجُوبُ الْعِنَايَةِ بِمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَدَّرَهَا بِالنِّدَاءِ، وَالتَّصْدِيرُ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ مَا وَجَّهَ إِلَى الْمُنَادَى.

٢- أَنَّ الْخِطَابَ فِي الْأَكْلِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ يَعْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وَكَلِمَةُ ﴿النَّاسُ﴾ عَامَّةٌ، لَكِنْ جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى تَوْجِيهٌ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فَهَلْ نُخَصِّصُ عُمُومَ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْآيَةِ

الأُخْرَى، ونقول: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذَنَ لَهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ خَاصَّةً، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُمْ الْأَكْلُ مِمَّا فِي الْأَرْضِ، بَلْ سَيُحَاسَبُونَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَإِنَّ مَا فِي الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهُ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ، عَلَى أَنَّهُ حَلَالٌ لَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْكَافِرُ؟ وَلَكِنِ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ هُنَا: إِمَّا عُمُومَ النَّاسِ، وَخُصُّصَ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْخُصُوصَ، يَعْنِي: عَبَّرَ بِ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ﴾، وَالْمُرَادُ بِهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، وَيَدُلُّ لِهَذَا: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣]، وَمَقْهُومُهُ: أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ الصَّالِحَاتِ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ مَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ فِيهِ تَبَعَةٌ عَلَيْهِمْ، وَحَلَالًا لِلْكَافِرِينَ، بِمَعْنَى: أَنَّنَا لَا نَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهِ، وَلَكِنَ عَلَيْهِمْ تَبَعَةٌ، وَأَنْتُمْ سَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لِمَ أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَكَفَرْتُمْ بِهِ؟!

٣- أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ حَلَالٌ لَنَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْأَصْلُ فِيمَا فِي الْأَرْضِ أَنَّهُ حِلٌّ لَنَا، فَمَنْ ادَّعَى تَحْرِيمَ شَيْءٍ مِمَّا فِي الْأَرْضِ قُلْنَا لَهُ: اثْبَتِ بِالدَّلِيلِ، فَإِنْ جَاءَ بِالَدَّلِيلِ وَإِلَّا فَالْأَصْلُ الْحِلُّ.

وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْحَيَوَانَ وَالْجَمَادِ، فَلِأَشْجَارٍ وَالثَّمَارِ وَغَيْرِهَا الْأَصْلُ فِيهَا الْحِلُّ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْمَنْعِ، وَالْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا الْأَصْلُ فِيهَا الْحِلُّ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْمَنْعِ.

٤- الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَسْبُ الْإِنْسَانِ لِهَذَا الْحَلَالِ عَلَى وَجْهِ طَيِّبٍ، وَالطَّيِّبُ هُنَا ضِدُّ الْحَيْثِ، وَالْحَيْثُ: كُلُّ مَا يَحْرُمُ مِنْ تَصَرُّفٍ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الْحَبَّامِ خَبِيثٌ»^(١)، فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَا تَأْكُلُهُ تَمَّا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَلَالِ مُكْتَسَبًا عَلَى وَجْهِ مَشْرُوعٍ.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلْإِنْسَانِ مَا اكْتَسَبَهُ بِوَجْهِ مُحَرَّمٍ، فَمَنْ اكْتَسَبَ مَا لَا بِالْغِشِّ أَوْ الْكَذِبِ أَوْ الرِّبَا أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَكْلُهُ، بَلْ هُوَ حَرَامٌ عَلَيْهِ، لَكِنْ مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ اللَّهِ وَانْتَهَى وَتَابَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الرِّبَا: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٥- تَحْرِيمُ اتِّبَاعِ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِأَيِّ طَرِيقٍ نَعْلَمُ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ؟

قُلْنَا: بِمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]، فَإِذَا هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ صَغِيرَةٍ فَذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ هَمَمْتَ بِمَعْصِيَةٍ كَبِيرَةٍ فَاحِشَةٍ فَذَلِكَ أَيْضًا مِنْ أَمْرِ الشَّيْطَانِ، فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ تَهْمُ بِهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَمْرِ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ اتَّبَعْتَ هَوَاكَ فِيهَا فَقَدْ اتَّبَعْتَ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ.

٦- التَّحْذِيرُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب، رقم (١٥٦٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّحْذِير من الشَّيْطَان يَتَفَرَّع عنه: التَّحْذِير من أَوْلِيَاء الشَّيْطَان الذين يَأْمُرُون بالفَحْشَاءِ والمنْكَر، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُم أَوْلِيَاؤُهُ، فالواجبُ على المُسْلِم الحذرُ من الشَّيْطَان؛ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ، والحذرُ من أَوْلِيَاء الشَّيْطَان؛ لِأَنَّهُمْ أَيْضًا عَدُوٌّ، ويدلُّ لهذا: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، وقوله تعالى في المنافقين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنَلْقَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفِكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، فالواجبُ الحذرُ من الشَّيْطَان وأَتْبَاعِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ لَنَا.

٧- بيانُ ما يَأْمُرُ به الشَّيْطَان، وهو أَنَّهُ يَأْمُرُ بالسُّوء -وهو المَعَاصِي الصَّغَار- والفَحْشَاءِ، وهي المَعَاصِي الكِبَار.

٨- تحريمُ القَوْلِ على الله بلا عِلْمٍ، وهذا يَشْمَلُ تحريمَ القَوْلِ عليه في ذَاتِهِ، وتحريمَ القولِ عليه في أَسْمَائِهِ، وتحريمَ القولِ عليه في صِفَاتِهِ، وتحريمَ القولِ عليه في أَحْكَامِهِ الكُونِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ، وذلك من قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾، فَإِنَّ هَذَا يَشْمَلُ القَوْلَ على الله في ذَاتِهِ، وفي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَامِهِ الكُونِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ.

أَمَّا القَوْلُ على الله في ذَاتِهِ فأن يقول قائل: إِنَّ ذَاتَ الله تعالى مِثْلُ ذَوَاتِنَا، يعني: مُكَوَّنَةٌ من أَجْزَاء يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا عن بَعْضٍ، ويبقى بَعْضُهَا دون بَعْضٍ، وما أَشْبَه ذلك، وهذا مُحَرَّم، نَفَاهُ الله تعالى عن نَفْسِهِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]، ونهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَضْرِبَ لَهُ الْأَمْثَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

أَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ فِي أَسْمَائِهِ فَيَشْمَلُ أَنْ يُثْبِتَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ أَسْمَاءً لَمْ يُسَمَّ بِهَا نَفْسَهُ، كَمَا سَمَّاهُ النَّصَارَى: (أَبَا)، فَهُمْ يَعْنُونَ بِالْأَبِ: الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَكُونُ قَوْلًا عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَيَشْمَلُ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ فِي أَسْمَائِهِ أَيْضًا: أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ أَسْمَائِهِ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠]، فَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ (الرَّحْمَنُ) مِنْ أَسْمَائِهِ، وَهَذَا قَوْلٌ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، بَلْ بِمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ.

وَمِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي صِفَاتِهِ: أَنْ يَقُولَ: إِنَّ صِفَاتَ اللَّهِ تَعَالَى كَصِفَاتِنَا، كَمَا قَالَ أَهْلُ التَّمَثِيلِ، فَقَالُوا: إِنَّ كُلَّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَوْصَافِهِ فَإِنَّهُ مُمَاتِلٌ لَصِفَاتِنَا، فَالْوَجْهُ وَالْيَدُ وَالْعَيْنُ كُلُّهَا مِثْلُ مَا لَنَا مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ كَذَبُوا فِيهَا ادَّعَوْا، وَخَالَفُوا الْمَسْمُوعَ وَالْمَعْقُولَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾، وَيَنْهَانَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَضْرِبَ لَهُ الْأَمْثَالَ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ؛ لِأَنَّنَا لَا نَعْلَمُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مِثِيلَ لَهُ.

وَيَشْمَلُ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي صِفَاتِهِ أَيْضًا: إِنْكَارَ الصِّفَاتِ، حَيْثُ زَعَمَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ صِفَاتٌ، أَوْ أَثْبَتُوا بَعْضَ الصِّفَاتِ وَأَنْكَرُوا بَعْضَهَا بِحُجَّةِ أَنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ مِنْ ثُبُوتِهَا لِلَّهِ، فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛ لِأَنَّنَا نَقُولُ لَهُمْ: أَيْنَ الْعَقْلُ الَّذِي يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ؟! كُلُّ عَقْلٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ عَقْلٌ فَاسِدٌ، وَعَقْلٌ مَرِيحٌ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ السَّالِمَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ - وَنَعْنِي بِالشَّهَوَاتِ: الْإِرَادَاتِ السَّيِّئَةِ - لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْكِرَ مَا أَثْبَتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

ومن القول على الله بلا عِلْمٍ في أَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ: أَنْ يُثَبَّتَ لشيءٍ من الأشياءِ سَبَبِيَّةٌ دُونَ عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ، فيقول القائل مثلاً: إِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ كَذَا حَدَثَ كَذَا، وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ، لَا بِنَصٍّ وَلَا بِتَجْرِبَةٍ، فيكون قد قال على الله ما لَا يَعْلَمُ.

ومن ذلك: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْمُشْعُوزِينَ بِأَنْ يُعَلِّقَ التَّائِمَ الشَّرَكِيَّةَ عَلَى الْمَرْضَى الَّذِينَ فِيهِمُ الْمَرَضُ فِي أَجْسَامِهِمْ أَوْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَيَدَّعِي أَنَّ ذَلِكَ يُزِيلُ هَذَا الْمَرَضَ دُونَ عِلْمٍ مِنْ شَرْعٍ، وَلَا عِلْمٍ مِنْ وَاقِعٍ، فيكون قد قال على الله في أَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَتَصَدَّرُونَ لِلْفَتَوَى وَهُمْ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ! فيكونون قد قَالُوا عَلَى اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَالْمُفْتِي لِعِبَادِ اللَّهِ بِمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ شَرِيعَةُ اللَّهِ هُوَ مُعَبَّرٌ عَنِ اللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ، أَوْ هَذَا حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، أَوْ الْإِجْمَاعِ، أَوْ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ.

أَمَّا أَنْ يُفْتِيَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي أَوَامِرِ الشَّيْطَانِ، وَيَكُونُ عَبْدًا مُطِيعًا لِلشَّيْطَانِ، وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ -لَوْ رَعَاهُمْ، وَتَوَقَّى الْمَسْئُولِيَّةَ- يَتَدَاَفَعُونَ الْفَتَوَى، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُفْتِي، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْمُسْتَفْتَى سَيَجِدُ مَنْ يُفْتِيهِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِلَّا فَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ -إِذَا سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ، وَالسَّائِلُ مُحْتَاجٌ إِلَى بَيَانِهِ- أَنْ يَكْتُمَهُ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ^(١).

(١) يعني في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وعلى هذا فإننا نُحذّر إخواننا طلبة العلم والعامّة أيضاً أن يُفتُوا بلا عِلْمٍ، بل عليهم أن يَلْتَزِمُوا الْوَرَعَ، وأن يَقُولُوا لَهَا لَا يَعْلَمُونَ: لَا نَعْلَمُ، فإنّ هذا -والله- هو العِلْمُ.

لكن إذا كان الإنسان عالماً بحُكْمِ المسألة من عالِمٍ يَثِقُ بِقَوْلِهِ، وأراد أن يَنْقُلَ قَوْلَ هذا العالمِ لِلْمُسْتَفْتِي، فإنّ هذا لا بأسَ به، مثل: أن يَأْتِيَهُ شخصٌ، ويقول: ما تَقُولُ في كذا وكذا؟ والمسؤول عامّيٌّ، لكن يقول: سَمِعْتُ الشَّيْخَ الْفُلَانِي يَقُولُ: إِنَّ حُكْمَهُ كذا وكذا، وهو مُتَيَقِّنٌ أَنَّ هذا ما سَمِعَهُ من العالمِ، فإنّ هذا لا بأسَ به، ويكون هذا رَاوِيًا، لا مُفْتِيًا.

وعلى كُلِّ حالٍ فإنِّي أُعيد وأُكرّر التَّحذِيرَ من الْفَتَوَى بِغَيْرِ عِلْمٍ، وأقول للإنسان: أنت في حِلٍّ -إذا لم يَكُنْ عندك عِلْمٌ- أن تَصْرِفَ الْمُسْتَفْتِيَّ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ.

وكان الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، يقول: اسأَلِ الْعُلَمَاءَ. وهذا يدلُّ على أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَيِّنَ شَخْصًا مُعَيَّنًا عِنْدَمَا يُحِيلُ النَّاسَ إِلَى اسْتِفْتَاءِ شَخْصٍ آخَرَ، بل يقول: «اسأَلِ الْعُلَمَاءَ» اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَخْشَى أَنَّهُ إِذَا قَالَ: «اسأَلِ الْعُلَمَاءَ» أَنْ يَذْهَبَ هَذَا السَّائِلُ إِلَى شَخْصٍ جَرِيءٍ يَتَجَرَّأُ عَلَى الْفَتَوَى بِغَيْرِ عِلْمٍ، فهنا يُعَيِّنُ مَنْ يُحِيلُهُ عَلَيْهِ، فيقول: اذْهَبْ إِلَى الشَّيْخِ الْفُلَانِي، فعنده الْعِلْمُ.

= مِنَ الْكِتَابِ وَبَشَرَتُوكَ بِهِ. فَمَّا قَلِيلًا أَوَّلَتْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٤﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المتبعين لأهوائهم المقتدين بكبرائهم من الآباء أو غيرهم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾، و(بل) هنا للإضراب الإبطالي، أي: بل لا نتبع ما أمرتمونا به، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

و﴿أَلْفَيْنَا﴾ بمعنى: وجدنا، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيْنَا سِدِّهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: وجدناه عند الباب.

قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون؟! والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يفهمونه ولا يفقهونه، وليس المعنى: لا يعرفونه، بل هم يعرفون الأشياء، وهم أذكياء، لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها إلى ما ينفعهم، ويتركون بها ما يضرهم، ولهذا قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم وفهم، لكن ليس عندهم عقل، وهناك فرق بين العقل والذكاء، فالعقل يحمل صاحبه على حسن التصرف، وأما الذكاء فقد يحمل صاحبه على حسن التصرف إن كان مقرونًا بالعقل، وقد يحمل على الطيش وعدم حسن التصرف إذا لم يكن مصحوبًا بعقل.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ مُعَانِدُونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾.

٢- أَنَّهُ يُجِبُّ اتِّبَاعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ، وفيما أُرْسِدَ إِلَيْهِ، أَمَّا مَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٧٨] وَأَمَّا مَا أُرْسِدَ اللَّهُ إِلَيْهِ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩، مُحَمَّد: ٣٣]، وهذا يدلُّنا على أَنَّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَإِنَّهُ مُطَاعٌ، كَالَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

وَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِرْشَادِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، فَأَحَالَنَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِلَى أَهْلِ الذِّكْرِ إِذَا كُنَّا لَا نَعْلَمُ؛ لِأَنَّ الْعَامِّيَّ قَدْ لَا يَعْلَمُ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الذِّكْرِ، أَي: أَهْلَ الْعِلْمِ.

٣- أَنَّ الْوَحْيَ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

٤- إِبْثَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا نَزَلَ مِنْهُ كَانَ دَلِيلًا عَلَى عُلُوِّهِ، وَهَذَا -أَعْنِي: إِبْثَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ- هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، حِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيٌّ بِذَاتِهِ، عَلِيٌّ بِصِفَاتِهِ.

٥- قُبْحُ التَّعَصُّبِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾.

٦- أَنَّ لِلْبَيْئَةِ تَأْثِيرًا، فَإِذَا عَاشَ الْإِنْسَانُ فِي بَيْئَةٍ صَالِحَةٍ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ صَالِحِهِ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ

عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(١).

٧- توبيخ مَنْ اتَّبَعَ آبَاءَهُ عَلَى غَيْرِ هُدًى وَعَقْلٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٨- نَعْيُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ بِأَنَّهُمْ لَا عَقْلَ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾، و﴿شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْعَقْلُ ضِدُّ الْجُنُونِ، فَإِذَا انْتَفَى الْعَقْلُ صَارَ الْجُنُونُ، وَالْمَجْنُونُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّوْبِيخُ؟
فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْعَقْلَ عَقْلَانِ:

الْأَوَّلُ: الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ شَرْطُ التَّكْلِيفِ، فَهَذَا ضِدُّهُ الْجُنُونُ.

وَالثَّانِي: الْعَقْلُ الَّذِي ضِدُّهُ السَّفَهَ، وَهُوَ عَقْلُ الرُّشْدِ، أَيْ: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ رَشِيدًا، وَلِهَذَا لَوْ وَجَدْنَا شَخْصًا عَاقِلًا مِنْ حَيْثُ التَّكْلِيفُ -أَي: لَيْسَ بِمَجْنُونٍ- لَكِنْ لَا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، قُلْنَا: هَذَا سَفِيهٌ! وَلَنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ غَيْرُ عَاقِلٍ، أَيْ: الْعَقْلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى الرُّشْدِ، فَأَمَّا الْعَقْلُ الَّذِي لَا يَحْمِلُهُ عَلَى الرُّشْدِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى: ذَكَاءً، وَلَا يُسَمَّى: عَقْلًا، وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالذَّكَاءِ.

فَنَقُولُ: الْعَقْلُ عَقْلَانِ: الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ شَرْطُ التَّكْلِيفِ، وَهَذَا ضِدُّهُ الْجُنُونُ، وَالْعَقْلُ الَّذِي هُوَ شَرْطُ حُسْنِ التَّصَرُّفِ، وَهَذَا ضِدُّهُ السَّفَهَ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩- أَنَّهُ رَبُّمَا يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَنَّ الْأَجْدَادَ يُسَمَّوْنَ: آبَاءَ، وهذا كثيرٌ في اللُّغَةِ وفي القرآن، أَنَّ (الآباء) تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْأَجْدَادُ وَالْآبَاءُ الْأَدْنَوْنَ.

وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ مَسْأَلَةٌ فَرَضِيَّةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْمَيْتُ، وَتَرَكَ جَدًّا مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ، وَإِخْوَانًا، فَإِنَّ مَالَهُ لَجَدِّهِ مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ، وَلَيْسَ لِإِخْوَانِهِ شَيْءٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جَدَّهُ مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ بِمَنْزِلَةِ أَبِيهِ، بَلْ هُوَ أَبٌ حَقِيقَةٌ، وَالْأَبُ لَا يَرِثُ مَعَ الْإِخْوَةِ شَيْئًا، وَهَذَا -أَعْنِي: الْقَوْلَ بِأَنَّ الْجَدَّ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ يَحْجِبُ الْإِخْوَةَ مُطْلَقًا- هُوَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ الَّذِي اخْتَارَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمِنْهُمْ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَشَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).



قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُنًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٧١)

المَثَلُ: بِمَعْنَى الشَّبهِ، وَبِمَعْنَى الصِّفَةِ، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ صَحِيحٌ، يَعْنِي: صِفَةُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَصِفَةِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ، أَوْ شَبَهُ هَؤُلَاءِ كَشَبِهِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ.

وَالَّذِي يَنْعِقُ هُوَ مُنَادِي الْحَيَوَانَاتِ، وَالَّذِي لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً هُوَ الْحَيَوَانُ، يَعْنِي: كَمَثَلِ الرَّاعِي يَنْعِقُ لِلْإِبِلِ، وَيَنْعِقُ لِلْغَنَمِ، وَيَنْعِقُ لِلْبَقَرِ، فَتُقْبَلُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ

(١) مجموع الفتاوى (٣١/٣٤٣)، والمختارات الجلية، (ص: ١٦٦) ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، قسم الفقه - المجلد الثاني.

أَنْ تَذَرِي مَاذَا يَصْنَعُ، حَتَّى إِنَّهُ رَبُّمَا يَنْعِقُ بِهَا لِيَذْبَحَهَا، فَتَأْتِي وَهِيَ لَا تَذَرِي.

فَاللهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخْبِرُ أَنَّ حَالَهُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَشَبَهُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ كَهَذَا الَّذِي يَنْعِقُ بِهَا لَا يَسْمَعُ، أَي: يَنْعِقُ بِالذَّابَّةِ وَالْبَهَائِمِ، وَهِيَ لَا تَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنداءً، لَا تَذَرِي مَا هُوَ، وَوَجْهَ الشَّيْءِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَتَّبِعُونَ مَنْ يَتَّبِعُونَ مِنْ آبَائِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَجْرُونَهِمْ إِلَى الْهَلَاكِ، وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ صُمُّ عَنْ الْحَقِّ، فَلَا يَسْمَعُونَهُ، بُكْمٌ عَنِ الْحَقِّ، فَلَا يَنْطِقُونَ بِهِ، غُمِّي عَنِ الْحَقِّ، فَلَا يُبْصِرُونَهُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَهَمْ بِنَاءٍ عَلَى فَقْدِ هَذِهِ الْحَوَاسِّ مِنْهُمْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَي: لَا يَعْقِلُونَ الْعَقْلَ السَّلِيمَ الَّذِي يُحْثُّهُمْ عَلَى الرُّشْدِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْغَيِّ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- سُوءُ مَثَلِ الْكُفَّارِ، حَيْثُ شُبِّهُوا بِالَّذِي يَنْعِقُ بِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنداءً، وَهُمْ أَهْلٌ لَذَلِكَ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢- التَّحْذِيرُ مِنَ التَّعَصُّبِ وَالتَّابِعَةِ لِغَيْرِ مَنْ يُعْلَمُ أَوْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ عَلَى هَدًى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفَّارَ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ كَالَّذِي يَنْعِقُ بِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنداءً.

٣- نَفْيُ الْكَمَالِ عَمَّنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، فَإِنَّ الصَّمَمَ وَالْبَكَمَ وَالْعَمَى نَقْصٌ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ قَدْ يَكُونُونَ مِنْ أَقْوَى النَّاسِ بَصَرًا، وَأَشَدَّهُمْ سَمْعًا، وَأَفْصَحَهُمْ لِسَانًا،

لكن لَمَّا كَانُوا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ ذَلِكَ صَارُوا كَالْفَاقِدِينَ لَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤- الإِشَارَةُ الْبَيِّنَةُ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالذِّكَاةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَنْ يَتَّبِعُونَهُ مِنْ آبَائِهِمْ وَكِبَرَانِهِمْ هُمْ أَذْكِيَاءُ، وَلَا يَفُوتُهُمْ شَيْءٌ مِمَّا يَشْتَهُونَهُ وَيَهْوَوْنَهُ، لَكِنَّهُمْ غَيْرُ عُقَلَاءَ فِي الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحْسِنُوا التَّصَرُّفَ لَأَنفُسِهِمْ، حَيْثُ أَوْقَعُوهَا فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢)

هنا وَجَّهَ الْخُطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وَتَصْدِيرُ الْخُطَابِ بِالنِّدَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَسْرَعَ الْمُنَادِي انْتِبَاهَهُ، وَيَتَّبِعَهُ لِمَا وَجَّهَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ تَوْجِيهَهُ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْمُتَّصِفَ بِهِ أَهْلٌ لِأَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ الْخُطَابُ، وَيُوجَّهَ إِلَيْهِ النِّدَاءُ.

ثُمَّ إِنَّ تَوْجِيهَهُ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ، كَمَا إِذَا قَالَ الْقَائِلُ لِشَخْصٍ مَا: يَا أَيُّهَا الْكَرِيمُ! نَزَلَ عَلَيْكَ ضَيْفٌ، يَعْنِي: وَمِنْ مُقْتَضَى كَرَمِكَ أَنْ تُكْرِمَ هَذَا الضَّيْفَ، كَذَلِكَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: مِنْ مُقْتَضَى إِيْمَانِكُمْ أَنْ تَمَثَّلُوا مَا أَمَرَكم اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِتَصْدِيرِهِ بـ ﴿يَتَايَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الإشارةُ إلى أَنَّ تَرَكَ الِامْتِثَالِ
مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ هَذَا النِّدَاءُ إِخْلَالٌ بِالِإِيمَانِ وَنَقْصٌ لَهُ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَايَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وَالْأَمْرُ هُنَا:
﴿كُلُّوا﴾ لِلإِبَاحَةِ، وَمَعْنَى ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ أَي: أَعْطَيْنَاكُمْ، ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ مَعْطُوفَةٌ
عَلَى ﴿كُلُّوا﴾، يَعْنِي: اجْمَعُوا بَيْنَ الْأَكْلِ وَالشُّكْرِ.

قال العلماء: وَالشُّكْرُ هُوَ الْاعْتِرَافُ بِالْقَلْبِ لِلْمُنْعَمِ، وَالتَّحَدُّثُ بِالنِّعْمَةِ بِاللِّسَانِ،
شُكْرًا لَا اِفْتِخَارًا، وَالْعَمَلُ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ، تَصَدِيقًا لِلْأَخْبَارِ، وَتَنْفِيزًا لِلْأَحْكَامِ.

وعلى هذا فَالشُّكْرُ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ، وَلَا يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَقُولَ
الْإِنْسَانُ: أَشْكُرُ اللَّهَ، أَوْ: أَنَا شَاكِرٌ لِلَّهِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ:

الْأَوَّلُ: التَّحَدُّثُ بِهَا بِالْقَلْبِ.

وَالثَّانِي: الْاعْتِرَافُ بِهَا بِاللِّسَانِ بِأَتَمِّهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَنَشْرُهَا بَيْنَ النَّاسِ،
لَا اِفْتِخَارًا وَلَا عُلُوءًا، وَلَكِنْ إِظْهَارًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ فِيمَا يُرْضِي الْمُنْعَمَ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ مِنْ مُقْتَضَى الْعِبَادَةِ الْحَقُّ أَنْ
يَشْكُرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١- أَهْمِيَّةُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي وَجَّهَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَجَّهَهُ هَذَا: أَنَّهُ صُدِّرَ بِالنِّدَاءِ،

وَبَوَصَفَ الْإِيمَانَ.

٢- فضيلة الإيمان، حيث كان أهله محلاً لإلقاء الخطاب إليهم.

٣- وجوب الأكل من الطيبات؛ لقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، ولكن دلت السنة على أن الأكل يكون أحياناً مباحاً، وأحياناً يكون مستحباً، وأحياناً يكون واجباً، فيكون واجباً إذا ترتب عليه بقاء الإنسان، ولهذا نقول: إن الذين يضربون عن الطعام والشراب حتى يهلكوا متحرون، أي: بمنزلة الذين نحروا أنفسهم؛ لأن الأكل والشرب يجب عند خوف الهلاك.

٤- الإشارة إلى أن ما في الأرض من عطاء الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وهذا يستلزم أن نشكر الله سبحانه وتعالى على ما رزقنا، وألا نتكل على أنفسنا، وألا نفخر بعملنا، وألا نكون كالذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً شكر نعمته، وحسن عبادته، وأن يزيدنا من فضله.

٥- أن الشكر محله القلب واللسان والجوارح، كما قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّْي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا^(١)

وبين الشكر والحمد عمومٌ وخصوصٌ، فمن جهة ما يكون به الشكر فالشكر أعم، ومن جهة مورد الشكر وموقعه فالحمد أعم؛ لأنه سبحانه وتعالى يُحمد على كمال صفاته وكمال إنعامه، ويُشكر سبحانه وتعالى على إنعامه فقط، ويكون الحمد باللسان فقط، ويكون الشكر بالقلب واللسان والجوارح.

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفاائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

٦- أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِهِ تَحْقِيقُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وهذه الجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ الَّتِي يَرِدُ مِثْلُهَا كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ تُفِيدُ مَعْنَى التَّحَدِّيِّ، أَي: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَاشْكُرْهُ، وَلَا تَكْفُرْ نِعْمَهُ.

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ، لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٢)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ التَّحْرِيمُ بِمَعْنَى الْمَنْعِ، وَالْجُمْلَةُ هُنَا فِيهَا الْحَصْرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾، يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: الْحَصْرُ هُوَ إِثْبَاتُ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا عَدَاهُ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيْتَةَ.

وَالْمَيْتَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ: كُلُّ مَا مَاتَ بِغَيْرِ ذِكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَيَشْمَلُ مَا مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَمَا مَاتَ بِغَيْرِ ذِكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ.

﴿وَالْدَّمَ﴾ هُوَ ذَلِكَ السَّائِلُ الْأَحْمَرُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَيَوَانِ ذِي الرُّوحِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ، لَكِنَّهُ هُنَا مُطْلَقٌ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مُقَيَّدٌ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ فَالْمُرَادُ بِالدَّمِ هُنَا: الدَّمُ الْمَسْفُوحُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ الْخِنْزِيرُ: حَيَوَانٌ مَعْرُوفٌ، وَلَحْمُهُ حَرَامٌ؛ لِأَنَّهُ رَجَسٌ وَخَبَثٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ما ذُبِحَ لغيرِ الله، أو ذُكِرَ عليه اسمُ غَيْرِ اللَّهِ، فما ذُبِحَ لِلصَّنَمِ مثلاً فهو حرامٌ وإن سُمِّيَ عليه، وما ذُبِحَ لِلأَكْلِ وَسُمِّيَ عليه اسمُ غَيْرِ اللَّهِ فهو حرامٌ، وإن كان الإنسانُ لم يَقْصِدْ به التَّعَبُّدَ، لكن أَهْلَ به لِغَيْرِ اللَّهِ.

وما سُمِّيَ عليه غَيْرُ اسمِ اللَّهِ، فمثلُ أن يقولَ: باسمِ الْمَسِيحِ، باسمِ الرَّئِيسِ، باسمِ الشَّعْبِ، وَيَذْبَحُ على هذا الاسمِ، فهذا أَيْضاً حَرَامٌ؛ لَفَقْدِ تَسْمِيَةِ اللَّهِ عليه، وَلَأنَّهُ ذُبِحَ على وَجْهِ الإِشْرَاقِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: مَنْ أُلْجِئَهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ: المَيْتَةِ، وَالدَّمِ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِذَا أَكَلَ. و﴿اضْطُرَّ﴾ أَصْلُهَا: «اضْطَرَّ» مِنَ الضَّرَرِ، أَي: مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَرَرٌ بِتَرْكِ الْأَكْلِ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَرَضَ أَوِ الْهَلَكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ هَذَا شَرْطٌ لِلضَّرُورَةِ، فَ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ أَي: غَيْرِ بَاغٍ لِلْحَرَامِ، وَغَيْرِ طَالِبٍ لَهُ، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أَي: وَلَا مُعْتَدٍ، بَحِثْ يَأْكُلْ بِدُونِ حَاجَةٍ، بَلْ يَأْكُلْ مِنْهُ مَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِهِ فَقَطْ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أَي: لَا عُقُوبَةَ، فَإِنْ كَانَ بَاغِيًّا أَوْ مُعْتَدِيًّا فَآكَلَ فَعَلَيْهِ الْإِثْمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: ذُو مَغْفِرَةٍ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْ عِبَادِهِ السَّيِّئَاتِ، رَحِيمٌ بِهِمْ، فَلَا يُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ مَا اضْطُرُّوا إِلَى أَكْلِهِ، وَكَانَ لَهُمْ فِيهِ انْتِفَاعٌ، فَمَنْ أَجَلَ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ رَفَعَ الْإِثْمَ عَنْ كَانَ مُضْطَرًّا، هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أَنَّ التَّحْلِيلَ والتَّحْرِيمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا إِلَى غَيْرِهِ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُحَرِّمَ شَيْئًا حَلَالًا، وَلَا أَنْ يُحِلَّ شَيْئًا حَرَامًا، إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١)، ولهذا لَمَّا قِيلَ يَوْمَ خَيْبَرَ: إِنَّ الْبُقُولَ مِنَ الْبَصَلِ وَالثُّومِ وَالْكَرَّاثِ وَمَا أَشْبَهَهَا قَدْ حُرِّمَتْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ»^(٢)، فإذا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْرَأُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، فَالتَّحْرِيمُ وَالتَّحْلِيلُ وَالْإِجَابُ وَالْكَرَاهَةُ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾، وَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٢- أَنَّ الْمَيْتَةَ حَرَامٌ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْعُمُومُ، لَكِنْ قَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ أَنَّ مِنَ الْمَيْتَاتِ مَا هُوَ حَلَالٌ، وَمِنْ ذَلِكَ: صَيْدُ الْبَحْرِ، فَإِنَّ مَيْتَتَهُ حَلَالٌ؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَيْدُهُ مَا أُخِذَ حَيًّا، وَطَعَامُهُ مَا أُخِذَ مَيِّتًا^(٣). وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدِمَانٍ، أَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْجَرَادُ وَالْحُوتُ، وَأَمَّا الدِّمَانُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً...، رقم (٥٦٥) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٨/ ٧٢٣-٧٢٧).

فَالطَّحَالُ وَالْكَبِدُ»^(١)، وعلى هذا فَمَيْتَةُ السَّمَكِ حلالٌ، ومَيْتَةُ الْجَرَادِ حلالٌ.

والحكمة في حل مَيْتَةِ الْجَرَادِ مع أَنَّهُ صَيْدٌ بَرِّيٌّ: أَنَّهُ ليس فيه دَمٌ، والعِلَّةُ في تحريم المَيْتَةِ: اخْتِقَانُ الرُّطوباتِ والدَّمِ فيها، ولهذا جاء في الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «مَا أَنَهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوا إِلَّا السِّنَّ وَالظُّفْرَ»^(٢)، فدلَّ ذلك على أَنَّ الْحِكْمَةَ من إِبَاحَةِ الْمَذَكَّى: كَوْنُهُ قد نَزَفَ دَمُهُ، ولم يَحْتَقِنْ، ولم يَبْقَ في العُرُوقِ.

٣- أَنَّ الدَّمَ حرامٌ، وقد بيَّنَّا في تفسيرها أَنَّ الْمُرَادَ به: الدَّمُ الْمَسْفُوحُ الَّذِي يَخْرُجُ من الحيوانِ عند ذَبْحِهِ وتَذَكُّيَتِهِ، فَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي يَبْقَى بعد التَّذَكِّيَةِ في العُرُوقِ فَإِنَّهُ حلالٌ وليس بحرامٍ، كدمِ الْكَبِدِ ودمِ الْقَلْبِ والطَّحَالِ وما أشبه ذلك، وذلك لِأَنَّهُ من مُدْكَاةٍ، فيكون حَلَالًا كَلَحْمِ الْمَذَكَّى.

٤- تحريمُ لحمِ الْخِنْزِيرِ، والخنزيرُ: حيوانٌ مَعْرُوفٌ خَبِيثٌ، من خصائصِهِ: أَنَّهُ يَأْكُلُ الْقَاذُورَاتِ كَالْعَذِرَاتِ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَةَ فِيهِ على أَثْنَائِهِ، وَأَنَّ في لحمِهِ جَرَائِمَ مُضِرَّةً مُهْلِكَةً مُفْسِدَةً للطَّبَائِعِ، ولهذا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾.

٥- أَنَّهُ لَا يَحِلُّ من الخنزيرِ أَيُّ جُزْءٍ من أَجْزَائِهِ كَالشَّحْمِ وَالْعَصَبِ وَالكَرْشِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾؛ فلا تَحُلُّ كَبِدُهُ، ولا أَمْعَاؤُهُ، ولا كِلَاءُهُ، بل كُلُّ ما فِيهِ فهو حرامٌ.

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤)، وأحمد (٩٧/٢).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الشَّرْكَ، باب قسمة الغنم، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب جواز الذَّبْحِ بكل ما أَنَهَرَ الدَّمَ، رقم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وننتقل من هذه الفائدة إلى فائدة أُخرى تتعلّق بالوضوء، وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بالوضوء من لحم الإبل، فقال: «تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ»^(١)، وسُئِلَ ﷺ: أَتَوْضَأُ من لحوم الإبل؟ قال: «نَعَمْ»، قال: أَتَوْضَأُ من لحوم الغنم؟ قال: «إِنْ شِئْتَ»^(٢)، فكونه ﷺ يردُّ الوضوء من لحم الغنم إلى المسبّية، ويجزّم بالوضوء من لحم الإبل، دَلِيلٌ على أَنَّ الوضوء من لحم الإبل واجبٌ، وَأَنَّ الوضوء من لحم الغنم ليس بواجبٍ، وهو كذلك.

ولكن ما المراد بلحوم الإبل؟

الجواب: المراد: جميع أجزائها، كما قلنا في لحم الخنزير، فإذا أكل الإنسان شيئاً من لحم الإبل من الكبِد، أو الأمعاء، أو الكرش، أو القلب، أو الفخذ، أو من أيّ موضع كان، فإنّه يلزمه أن يتوضأ، سواء أكل اللحم نيئاً أو مطبوخاً، ولكن لا حرج عليه إذا أكل أن يتوضأ وضوءاً فقط، دون أن يغسل الفرج، بل لا يغسل الفرج؛ لأنّ غَسْلَهُ في هذه الحال تعنّت وبدعة، فإنّ غَسَلَ الفرج لا تلازم بينه وبين الوضوء؛ لأنّ غَسَلَ الفرج إنّما يجب من بولٍ أو غائطٍ، وإذا لم يكن بولٌ ولا غائطٌ فليس هناك شيءٌ يُغسَلُ.

٦- تحريم ما ذبح لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهَلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ﴾.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (١٨٤)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٨١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٤)، وأحمد (٢٨٨/٤) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- تحريمُ ما ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ عليه، وإن لم يكن القصدُ منه غَيْرُ اللَّهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾، فإذا قالَ الرَّجُلُ إذا أراد أن يذبح الذَّبيحةَ: باسمِ الوطنِ، باسمِ الرَّئيسِ، باسمِ فلانٍ أو فلانٍ، فإنَّ الذَّبيحةَ لا تحلُّ، حتَّى وإن كان قد قصَدَ بها شيئاً مُباحاً، كما لو قصَدَ بها الأكلَ، فإنَّها لا تحلُّ؛ لأنَّه أَهْلَ بها لغيرِ اللَّهِ.

٨- سَعَةُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ أَباحَ هذه المُحرَّماتِ عندَ الضَّرورةِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

فإن قال قائل: هل نُجيزون أن يتداوى الإنسانُ بالمُحرَّمِ قياساً على أكلِ هذه الأربعةِ عندَ الضَّرورةِ؟

قلنا: لا، لا نُجيزُ ذلكَ، وذلكَ لأنَّ الدَّواءَ قد يحصلُ به الشِّفاءُ، وقد لا يحصلُ، بخلافِ أكلِ الميتةِ وما عُطِفَ عليها للمُضطرِّ، فإنَّه يحصلُ به الشِّبَعُ قطعاً.

والوجهُ الثَّاني من الفُرُوقِ بين هذه وهذه: أنَّ الشِّفاءَ لا يتعيَّنُ بتناولِ هذا الشَّيءِ المُحرَّمِ، بل قد يُشْفَى بدونَ تناوله، أو بتناولِ شيءٍ مُباحٍ، وأمَّا المُضطرُّ فيتعيَّنُ زوالُ ضُرورَتِهِ بأكلِهِ من هذه المُحرَّماتِ؛ لأنَّه ليس عنده شيءٌ سواها.

٩- إثباتُ القاعدةِ المشهورةِ عندَ أهلِ العِلْمِ، وهي: أنَّ الضَّروراتِ تُبيحُ المحظوراتِ، كما أنَّ الواجباتِ تسقطُ بالعجزِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٠- اعتبارُ النِّيَّةِ والمقاصدِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، وهذا أمرٌ معلومٌ من الشَّرِيعَةِ، فتجدُ الرَّجُلَ يأكلُ هذه الأكلَةَ؛ لِيَسْتَعِينَ بها على مُحَرَّمٍ، فتكونُ حراماً، ويأكلُ هذه الأكلَةَ؛ لِيَسْتَعِينَ بها على مأمورٍ، فتكونُ مأموراً بها.

١١ - أَنَّ هَذَا التَّخْفِيفَ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ كَوْنِهِ تَعَالَى غَفُورًا رَحِيمًا؛
لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٢ - إثبات هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ: (الْغُفُورُ) وَ(الرَّحِيمُ)، وَالْغُفُورُ: هُوَ السَّاتِرُ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ، الْمُتَجَاوِزُ عَنْهَا، فَالْغَفْرُ بِمَعْنَى: السَّتْرِ وَالتَّجَاوُزِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ اشْتِقَاقُهُ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقٌّ مِنَ الْمَغْفَرِ، وَالْمَغْفَرُ: مَا يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ عِنْدَ الْحَرْبِ، لَا تَقَاءِ السَّهَامِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الرَّأْسِ، فِيهِ سَتْرٌ، وَفِيهِ وَقَايَةٌ، وَلَيْسَ الْغَفْرُ مُجَرَّدَ السَّتْرِ، فَالْغُفُورُ: هُوَ الْمُتَجَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِ عِبَادِهِ، السَّاتِرُ لَهَا.

وَالرَّحِيمُ: ذُو الرَّحْمَةِ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ: عَامَّةٌ، وَخَاصَّةٌ، فَالْعَامَّةُ: هِيَ الَّتِي تَشْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَالْخَاصَّةُ: هِيَ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٣ - الصِّفَةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْ اجْتِمَاعِ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ: الْغُفُورِ الرَّحِيمِ؛ لِأَنَّ بِالْمَغْفِرَةِ زَوَالَ الْمَكْرُوهِ، وَبِالرَّحْمَةِ حُصُولَ الْمَطْلُوبِ، فَبِمَغْفِرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْصُلُ الْعَفْوُ، وَبِرَحْمَتِهِ يَحْصُلُ الْفَضْلُ، وَلِهَذَا نَجِدُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْرُنُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ كَثِيرًا، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَدْفَعَ عَنَّا مَا نَكْرَهُ، وَأَنْ يُحَقِّقَ لَنَا مَا نَطْلُبُ فِيهِ رِضَاهُ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٤ - جَوَازُ أَكْلِ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ لِلْمُضْطَرِّ الَّذِي اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِهَا، بَحِثْ يَخَافُ التَّلَفَ إِذَا لَمْ يَأْكُلْ.

١٥ - بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، حَيْثُ أَحَلَّ لَهُمْ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ عِنْدَ الْاضْطِرَارِ؛ لِدَفْعِ ضَرُورَتِهِمْ.

١٦ - أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمَنْ أُبِيحَ لَهُ أَكْلُ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ لِلضَّرُورَةِ، إِلَّا مَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ، بَحِثْ لَا يَتَجَاوَزُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ فَقَطْ، وَلَا يَمْلَأُ بَطْنَهُ بِذَلِكَ.

ولكن إذا خاف أن تبقى ضرورته فله أن يتزوّد من هذه المحرّمات، حتّى يضطرّ إلى أكلها مرّة ثانية.

١٧ - الرّدُّ على المُشْرِكِينَ فِيهَا حَرَمُوهُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَهُوَ مَا رَدَّ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤)

هذه الجملة مؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾، فـ ﴿إِنَّ﴾ أداة توكيد، و﴿الَّذِينَ﴾ اسمها، وجملة ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ خبرها.

وقوله: ﴿يَكْتُمُونَ﴾ أي: يُخْفُونَ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (الكتاب) هنا مفرد، والمراد به: الجنس، أي: الكتب، فيشمل ما أنزل الله من القرآن، والتّوراة، والإنجيل، وغيرها من الكتب المنزّلة على الرّسل.

وقوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يأخذون به ثمنًا قليلًا؛ لأنهم يخفونه لينالوا الجاه، أو لينالوا المال، أو ينالوا الحظوة عند الزعماء.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ هذا مُتَعَيِّنٌ فيما إذا كَتَمُوهُ من أجل المال، فإنهم لا يأكلون في بطونهم إِلَّا النَّارَ؛ لتَحْرِيمِ هذا المالِ عليهم؛ لأنَّ هذا المالَ حَرَامٌ عليهم من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أنهم أخذوه بغير حق.

والوجه الثاني: أنهم كَتَمُوا من أَجْلِهِ الْحَقَّ.

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: تَكَلِّمَ رِضًا، ولكنه يُكَلِّمُهُم تَكَلِيمَ إِهَانَةٍ؛ كقوله تعالى حين يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧) قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨].

وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُطَهِّرُهُم من آثامهم؛ لأنهم لَيْسُوا أَهْلًا لذلك.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُؤْلِمٌ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - تحريم كتم ما أنزل الله من الكتاب، وهذا يستلزم وجوب بيان ما أنزل الله من الكتاب، ولكنه لا يلزم إلا إذا اقتضت الحال بيانه، إمَّا بِسُؤَالِ سَائِلٍ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، أو بِسُؤَالِ سَائِلٍ بِلِسَانِ الْحَالِ، أمَّا لِسَانُ الْمَقَالِ فأن يأتي رجلٌ إلى عالمٍ من العلماء، ويقول: ما تقول في كذا وكذا؟ فيُفْتِيهِ، وأمَّا لِسَانُ الْحَالِ فأن يرى الإنسان شخصًا

يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادَةً عَلَى غَيْرِ وَجْهِ صَحِيحٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ.

٢- إِبْثَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ أَلْكِتَابٍ﴾.

٣- أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ مُنْزَلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

٤- تَحْرِيمُ أَخْذِ الْعَوَظِ عَلَى كِتْمَانِ الْحَقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

فَإِنْ قِيلَ: وَهَلْ يَحْرُمُ الْعَوَظُ عَلَى بَيَانِ الْحَقِّ، بِمَعْنَى: أَنْ يُعْطَى الْعَالِمُ أَجْرَةً عَلَى بَيَانِ الْحَقِّ؟

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: إِنْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ بَيَانُ الْعِلْمِ حَرْمَ عَلَيْهِ أَخْذُ الْعَوَظِ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فَلَهُ أَخْذُ الْعَوَظِ، وَلَكِنْ يَكُونُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِجَارِ.

٥- أَنْ كُلَّ مَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ قَلِيلٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى﴾ [النساء: ٧٧].

٦- أَنْ كَتَمَ مَا أَنَزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ -لِيَشْتَرِيَ بِهِ الْإِنْسَانَ ثَمَنًا قَلِيلًا- مِنْ كِبَائِرِ الدُّنُوبِ؛ لَوْجُودِ الْوَعِيدِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾.

٧- إِبْثَاتُ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ نَفْيَ تَكْلِيمِهِ لَهُؤُلَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُكَلِّمُ غَيْرَهُمْ، وَأَهْلُ الْحَقِّ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ يُثْبِتُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَمِنْ ذَلِكَ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، فَإِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

٨- إثبات يوم القيامة، وهو اليوم الذي يُبعث فيه الناس من قبورهم، وسُمِّيَ يومَ القيامة؛ لأنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ فيه من قُبُورِهِم لله عَزَّجَلَّ، ولأنَّه يُقام فيه العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولأنَّه يَقُومُ فيه الأَشْهَادُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

٩- أن الله تعالى يُزَكِّي مَنْ يشاء، فَإِنَّ نَفْسِي تَزَكِّيْتَهُ لهؤلاء دَلِيلٌ على ثبوتها لَصِدِّهِمْ.

١٠- أَنَّ هَؤُلَاءِ ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ نَمْنًا قَلِيلًا﴾ لَا يُزَكِّيهِمُ اللهُ يومَ الْقِيَمَةِ، بل هم أَهْلُ الْفِسْقِ وَالْجَوْرِ.

١١- أَنَّ هَؤُلَاءِ -مع إِعْرَاضِ اللهِ عَنْهُمْ، وَعَدَمِ تَكْلِيمِهِ إِيَّاهُمْ، وَتَزَكِّيَتِهِ لَهُمْ- لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ، أي: عَذَابٌ مُؤَلِّمٌ، وذلك عَذَابُ النَّارِ؛ لِشِدَّتِهِ، وَعِظْمِهِ -نعوذ بالله من النَّارِ- فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ فَضَلَّتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا كُلِّهَا بِتِسْعَةِ وَسْتَيْنَ جُزْءًا^(١) أي: أَنَّ نَارَ الدُّنْيَا كُلِّهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، أَعَادَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا، وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي جِوَارِ رَبِّ رَحِيمٍ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنة، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ

عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾ يُشِيرُ إِلَى الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ،

وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أَي: اخْتَارُوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى ﴿وَالْعَذَابِ

بِالْمَغْفِرَةِ﴾ اخْتَارُوا الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ، وَهُمْ قَدْ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ عَمْدًا، وَقَدْ يَخْتَارُونَ

ذَلِكَ عَمَى؛ لِأَنَّهُمْ رَاغُوا، فَأَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ النَّارَ عَذَابُهَا أَلِيمٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ،

وَهُؤُلَاءِ يَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتِمَادُونَ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا،

اخْتَارُوا هَذَا اخْتِيَارَ رَغْبَةٍ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ اخْتِيَارَهُمْ إِيَّاهُ بِالِاسْتِرَاءِ، وَالْمُشْتَرِي يَرْغَبُ

مَا اشْتَرَاهُ.

٢ - أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى صَارُوا

كَالَّذِينَ اشْتَرَوْا الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ، أَي: مَغْفِرَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

٣ - إِظْهَارُ التَّعَجُّبِ فِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾،

وَهَلْ يَعْجَبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ شَيْءٍ؟

الجواب: نعم، العَجَبُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أَثَبَّتَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ((بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ))^(١) [الصفات: ١٢]، وكذلك النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَرْلَيْنِ قَنْطِينٍ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»^(٢).

والعَجَبُ الصَّادِرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ هُوَ كَالْعَجَبِ الصَّادِرِ مِنَ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ الْعَجَبَ الصَّادِرَ مِنَ الْإِنْسَانِ مَنْشُؤُهُ اسْتِعْرَابُ الْأَمْرِ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ بِمُقَدَّمَاتِهِ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَيَكُونُ عَجَبُهُ مِنْ أَجْلِ خُرُوجِ الشَّيْءِ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ.

٤ - إِبْثَاتُ عَذَابِ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ

بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أَي: مَا أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ لَهُؤُلَاءِ، وَالْعُقُوبَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وَإِذَا كَانَ نَزْلُ الْكِتَابِ

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، انظر: التبصرة في القراءات السبع، (ص: ٦٥٣).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية، كما في مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٩)، وقد أخرجه ابن ماجه في المقدمة،

باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١) بلفظ: «ضَحِكَ رَبُّنَا» من حديث أبي رزين لقبط بن صبرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالحَقِّ فَإِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ الْحَقِّ سَوْفَ يَكُونُونَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، ولهذا قال: ﴿وَأِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - إثبات أن الله نَزَّلَ الْكِتَابَ.

٢ - إثبات علو الله عَزَّجَلَّ؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، والتَّزِيلُ لا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَعْلَى.

٣ - أنَّ الْكِتَابَ نَازِلَةٌ مِنْ اللَّهِ حَقًّا؛ لقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، وَأَنَّهَا نَازِلَةٌ بِالْحَقِّ أَيْضًا، فَقَدْ جَاءَتْ بِالْحَقِّ، وَهُوَ الصِّدْقُ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ.

٤ - أَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْكِتَابِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ فِي شِقَاقٍ - أي: فِي مُشَاقَّةٍ وَمُبَاعَدَةٍ عَنِ الْحَقِّ - بَعِيدٍ؛ لِأَنَّهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ.

٥ - أَنَّ جَمِيعَ مَا تَتَضَمَّنُهُ كُتُبُ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ؛ لِأَنَّهَا أَخْبَارٌ صَادِقَةٌ، وَأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ.

٦ - أَنَّ نُزُولَ الْكِتَابِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُزُولٌ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

٧ - خَطَرُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْكِتَابِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُبْتَلَى عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ فِي الْكِتَابِ بِالمُشَاقَّةِ الْبَعِيدَةِ لِلَّهِ وَلِرُسُلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البرُّ: هو الخير،
والتَّوَلَّى: بمعنى الاتجاه، و﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: جهة المشرق والمغرب،
يعني: أنه ليس البرُّ في أن يُوَلِّي الإنسان وَجْهَهُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ أَوْ قِبَلَ الْمَغْرِبِ، وإنما البرُّ
هو الإِيْمَانُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، والقيامُ بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سواء أُمِرَ بِالْإِتِّجَاهِ إِلَى الْمَشْرِقِ
أَوْ الْمَغْرِبِ، أَوْ إِلَى الشَّمَالِ، أَوْ إِلَى الْجَنُوبِ، أَوْ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ
الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: أن البرُّ برٌّ مَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَالْإِيْمَانُ بِاللَّهِ: هو الإِقْرَارُ الْمُسْتَلَزِمُ لِلْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ.

وَاللَّهُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ الْاسْمُ الْخَاصُّ بِهِ الَّذِي لَا يُسَمَّى
بِهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِمَذْلُولِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ جَمْعُ مَلَكٍ، وَهُمْ الْعَالَمُ الْغَيْبِيُّ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
بِأَوْصَافٍ وَأَفْعَالٍ جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَالْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، وَعِبَادُ اللَّهِ تَعَالَى،

يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ وَأَوْصَافٌ مَذْكُورَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

﴿وَالْكِتَابِ﴾ اسمُ جنسٍ، والمرادُ به: جميعُ الكتبِ المنزلةِ على الرُّسُلِ.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾ جمعُ نَبِيٍّ، وهو شاملٌ في هذه الآيةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

﴿وَأَنَّى الْمَالِ﴾ أي: أعطى المالَ ﴿عَلَى حَبِّهِ﴾ أي: على محبتهِ له، وحاجتهِ إليه

﴿ذَوَى الْقُرْبَى﴾ أي: أصحابُ القرابةِ ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمعُ يَتِيمٍ، واليَتِيمُ هو الَّذي

مَاتَ أَبُوهُ وَلَمْ يَبْلُغْ ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ همُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَسْكَنَهُمُ الْفَقْرُ ﴿وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾

أي: صَاحِبِ السَّبِيلِ، والسَّبِيلُ: هو الطَّرِيقُ، والمرادُ بِأَبْنَى السَّبِيلِ: الْمُسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ

به السَّفَرُ.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الْمُسْتَجِدِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: وآتى المالَ في الرِّقَابِ، وهم: الْأَرْقَاءُ، يَشْتَرِيهِمْ وَيُعْتِقُهُمْ.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أتى بها مُسْتَقِيمَةً، وَالصَّلَاةُ هُنَا: شَامِلَةٌ لِلْفَرِيضَةِ وَالنَّافِلَةِ.

﴿وَأَنَّى الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطَاهَا، ومفعولُ (آتَى) الثَّانِي مُحذوفٌ، أي: آتى الزَّكَاةَ

مُسْتَحِقَّهَا.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي: الَّذِينَ إِذَا عَاهَدُوا أَحَدًا مِنْ

النَّاسِ أَوْفُوا بِعَهْدِهِمْ، أي: أعطَوْهُ وَافِيًا لَا تَقْصَ فِيهِ، ﴿وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الْفَقْرُ

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الْمَرَضُ ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: أولئك الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا،

أي: صَدَقُوا مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِحْلَاصِهِمْ لَهُ، وَقِيَامِهِمْ بِطَاعَتِهِ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم الَّذِينَ قَامُوا بِالتَّقْوَى عَلَى حَسَبِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وما جاءت به رُسُلُهُ.

هذه الآية الكريمة اشتملت على فوائد عظيمة وأحكام جمّة، منها:

١ - أن البرّ ليس بالأعمال المطلقة، وإنما البرّ بالأعمال الصّادرة عن الإيمان بالله، واليوم الآخر ... إلخ.

٢ - أن الإيمان بالله من البرّ، والإيمان بالله يتضمّن أربعة أشياء:

الأوّل: الإيمان بوجوده.

والثاني: الإيمان برؤوبيّته.

والثالث: الإيمان بألوهيّته.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

فَمَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ أَقَرَّ بِوُجُودِهِ، وَلَكِنَّهُ انْتَقَصَ شَيْئًا مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَأَن زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُشَارِكًا فِي الْخَلْقِ أَوْ الْمُلْكِ أَوْ التَّدْبِيرِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ، وَمَنْ آمَنَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَلُوْهِيَّتِهِ، بَلْ صَرَفَ شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ، وَمَنْ آمَنَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ أَنْكَرَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ، فَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ.

٣ - الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وهو يشمل الإيمان بوجود هذا اليوم، وأنّ النَّاسَ سَيُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وكذلك الإيمان بما سَيَكُونُ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعِظَامِ، وما يَكُونُ مِنْ نَشْرِ كُتُبِ الْأَعْمَالِ، وَإِقَامَةِ الْوِزْنِ، وَالصَّرَاطِ،

وَحَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَنَعِيمِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللَّهُ رَبِّي، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَائِمًا يَقْرُنُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الَّذِي يَحْدُو الْإِنْسَانَ إِلَى الْعَمَلِ، وَهُوَ الَّذِي يَحْدُو الْمَرْءَ إِلَى الْأَسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَعَلَى شَرْعِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ هُنَاكَ عِقَابًا فِي تَرْكِ الْوَاجِبِ، وَفِعْلِ الْمَحْرَمِ، وَثَوَابًا فِي فِعْلِ الْوَاجِبِ، وَتَرْكِ الْمَحْرَمِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَنْهَضُ وَيَعْمَلُ لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.

٤- الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالْمَلَائِكَةُ لَهُمْ أَعْمَالٌ، وَلَهُمْ أَوْصَافٌ، عَلَى حَسَبِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وَمِنْ أَجْلِ الْمَلَائِكَةِ وَأَشْرَفِهِمْ فِيْمَا نَعَلِمُ: الْمَلَائِكَةُ الثَّلَاثَةُ: جَبْرَائِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَفْتِحُ صَلَاةَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيْمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١)، فَجَبْرَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

في الصُّورِ، وميكائيلُ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، فكلُّ واحدٍ من هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مُوَكَّلٌ بها فيه الحَيَاةُ، ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَفْتِحُ في صَلَاةِ اللَّيْلِ بِهَا ذِكْرَنَا.

ومن المَلَائِكَةِ: مَلَكُ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلُ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقد ورد في بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ اسْمَهُ: عِزْرَائِيلُ^(١)، وَلَكِنَّهُ لَا يَصْحُحُ عَنِ الْمَعْصُومِ ﷺ، ولهذا يكفينَا أَنْ نَقُولَ: مَلَكُ الْمَوْتِ، دون أن نُسَمِّيَهُ بِاسْمٍ آخَرَ.

ومن المَلَائِكَةِ الْمُعَيَّنِينَ: مَالِكُ خَازِنُ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ مَنَكُوتٌ ﴿[الزخرف: ٧٧].

ومن المَلَائِكَةِ: المَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ مَا يَقُولُهُ الْإِنْسَانُ وَمَا يَفْعَلُهُ، بل وما يَهْمُ بِهِ؛ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿[ق: ١٧، ١٨].

ومن المَلَائِكَةِ: المَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِحَلْقِ الذِّكْرِ، يَتَّبِعُونَهَا.

وَمَنْ أَرَادَ الْمَزِيدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ (الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ) لِابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ^(٢).

٥- الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الرُّسُلِ، وَالَّذِي نَعْرِفُ مِنْهَا:

■ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَهُوَ أَشْرَفُهَا وَأَجْلَاهَا، وَهُوَ الْمُهِمُّ عَلَيْهَا.

■ وَالتَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى مُوسَى.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١١ / ٩٣).

(٢) البداية والنهاية (١ / ٨٩).

■ والإنجيل الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى .

■ وَالزَّبُورُ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ دَاوُدَ .

■ وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَالْبَاقِي نُوْمُنُ بِهِ إِجْمَالًا .

٦- الْإِيْمَانُ بِالنَّبِيِّينَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ يَشْمَلُ الرُّسُلَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ مِنْ عِبَادِهِ رُسُلًا وَأَنْبِيَاءَ، وَالرُّسُلُ أَشْرَفُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَشْرَفُ الرُّسُلِ: أُولُو الْعِزِّمِ، وَهُمْ: إِبْرَاهِيمُ، وَمُحَمَّدٌ، وَنُوحٌ، وَمُوسَى، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَرْتِيْبُهُمْ فِي الْأَفْضَلِيَّةِ: مُحَمَّدٌ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ نُوحٌ وَعِيسَى، فَمَنْ عَلِمْنَا رِسَالَتَهُ بَعِيْنِهِ آمَنَّا بِهِ بَعِيْنِهِ، وَإِلَّا فَنُوْمُنُ بِهِمْ إِجْمَالًا .

٧- الثَّنَاءُ عَلَى مَنْ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيُطِيعُمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

٨- إِعْطَاءُ ذَوِي الْقُرْبَى -أَي: الْقَرَابَةِ- مِنَ الْمَالِ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، يَعْنِي: أَنَّ لَذَوِي الْقُرْبَى عَلَيْكَ حَقًّا أَنْ تُعْطِيَهُمْ مِمَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ .

ثُمَّ إِنَّ حَقَّ ذَوِي الْقُرْبَى قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وَهُوَ فِيمَنْ تَحِبُّ عَلَيْكَ نَفَقَتُهُ، وَقَدْ يَكُونُ تَطَوُّعًا فِيمَا سِوَى ذَلِكَ .

٩- الْإِحْسَانُ لِلْيَتَامَى وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ، وَذَلِكَ جَبْرًا لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ انْكِسَارِ الْقَلْبِ بِفَقْدِ آبِيهِمْ .

١٠- الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَسَاكِينِ مُطْلَقًا، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ؛ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى ذَلِكَ .

١١ - الإحسانُ إلى ابنِ السَّبِيلِ؛ لِحَاجَتِهِ إلى ذلك.

١٢ - الإحسانُ إلى السَّائِلِ، وإِعطَاؤُهُ ما سَأَلَ، ما لم يَسْأَلْ مُحَرَّمًا، وهذا يحتاجُ إلى تفصيل، فَمَنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ كانَ إعطَاؤُهُ بَوْصَفَيْنِ: السُّؤَالُ والحَاجَةُ، وَمَنْ لم نَعْلَمْ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ كانَ إعطَاؤُهُ بَوْصَفٍ واحدٍ، وهو السُّؤَالُ، وَمَنْ عَلِمْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُ استِثْثَارًا فهذا نَنْصَحُهُ ونُحَذِّرُهُ من السُّؤَالِ؛ لِأَنَّ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أموالَهُم تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، ولا تَزَالُ المسأَلَةُ بِالرَّجُلِ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وما في وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ، نَسألُ اللهَ العَافِيَةَ.

١٣ - فَضْلُ بَذْلِ المَالِ في إِعْتَاقِ الرِّقَابِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، وهذا يَشْمَلُ أَنْ يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ عَبْدًا فَيُعْتِقَهُ، أو أَنْ يُعِينَ مُكَاتَبًا في كِتَابَتِهِ، وغيرَ ذلك من صُورِ الإِعَانَةِ.

١٤ - الثَّنَاءُ على إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّمَا من البرِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾.

١٥ - الثَّنَاءُ على إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾، ولكن لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الزَّكَاةُ في مَحَلِّهَا، أي: في أَهْلِهَا الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِصَرْفِهَا إِلَيْهِمْ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، فلا يَجُوزُ أَنْ يُجَابِيَ الإنسانُ بها قَرِيبًا أو صَدِيقًا أو غَيْرَ ذلك، بل يُعْطِيها مَنْ هُوَ أَحْوَجُ وَأَحْوَجُ، وإذا اجتمعَ شَخْصَانِ مُسْتَحِقَّانِ لِلزَّكَاةِ: أَحَدُهُما قَرِيبٌ، والثَّانِي غَيْرُ قَرِيبٍ، فَإِنَّمَا تُعْطَى للقَرِيبِ؛ لِأَنَّ صَدَقَتَكَ على القَرِيبِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ.

١٦ - الشَّاءُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بِالْعَهْدِ، سِوَاءِ كَانَ الْعَهْدُ مَعَ مُسْلِمٍ، أَوْ مَعَ كَافِرٍ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: إِنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْعَهْدِ: الْقِيَامُ بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَهْدَهُ إِلَيْنَا بِمَا أَعْطَانَا مِنَ الْعُقُوبِ، وَبِمَا أَرْسَلَ إِلَيْنَا مِنَ الرُّسُلِ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَأَنْ نَقُومَ بِطَاعَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِهِ.

١٧ - الشَّاءُ عَلَى الصَّابِرِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْحَرْبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، فَالصَّبْرُ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ: صَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ، وَالصَّبْرُ فِي حَالِ الْحَرْبِ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ أَيْضًا.

١٨ - الشَّاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ السَّادَةِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ الْكَامِلَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَأَنْ يُهَيِّئَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغَاءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

ابْتَدَأَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْآيَةُ بِبَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وَابْتَدَأَ الْخِطَابَ بِالْبَدَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ؛ إِذْ إِنَّ النَّدَاءَ يَقْتَضِي تَنْبِيَهَ الْمُخَاطَبِ.

ثُمَّ إِنَّ تَوَجُّيْهِهِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ امْتِثَالَهُ مِنْ مُّقْتَضِيَاتِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ مُحَاكَفَتَهُ نَقْصٌ فِي الْإِيمَانِ، وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ، فِيمَا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تَنْهَى عَنْهُ ^(١).

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: فُرِضَ، ويحتمل أن يكون المعنى: شرع؛ لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية العفو، أو يقال: إِنَّهُ كُتِبَ أي: فُرِضَ فيما إذا طلبه صاحب الحق، فإنه فُرِضَ على ولاة الأمور تنفيذه.

والقصاص في الأصل: تتبّع الأثر، والمراد به هنا: أخذ الجاني بمثل جنايته، أي: قَتَلَهُ إن كان قد قَتَلَ، أو قَطَعَ عضوٍ منه إن كان قد قَطَعَ عضوًا، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ يعني: أَنَّهُ يُقْتَلُ الْحَرْ بِالْحَرْ، وَيُقْتَلُ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ؛ لِتَمَامِ الْمُكَافَأَةِ، فَالْحَرْ مُكَافِئٌ لِلْحَرْ، وَالْعَبْدُ مُكَافِئٌ لِلْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى مُكَافِئَةٌ لِلْأُنْثَى.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فَمَنْ عَفَى لَهُ فِي الْقِصَاصِ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَتَّبِعُ طَرِيقَيْنِ:

الْأَوَّلُ: اتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ، يعني: أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ يَتَّبِعُ مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْمَعْرُوفِ، فَلَا يَمْنُ عَلَيْهِ، وَلَا يُشَاقُّهُ.

الثَّانِي: ﴿وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، وهذا بالنسبة للمعفو عنه، يجبُ عليه أن يُؤَدِّيَ بِإِحْسَانٍ.

مثال ذلك: إذا عفا عن القصاص إلى الدية فإنَّ على العافي أن يتبع القاتل بالمعروف في طلب الدية، وعلى القاتل أن يؤدِّي إلى العافي الدية بإحسان.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: أَنَّ هذا الْحُكْمَ يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ: التَّخْفِيفَ، وَالرَّحْمَةَ، فَكَانَ تَخْفِيفًا؛ لِأَنَّ الْقِصَاصَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ مَفْرُوضًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْفَى عَنْهُ، وَأَمَّا فِي شَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْعَفْوَ وَاجِبٌ، فَفِي التَّوْرَةِ الْعَفْوَ مَمْنُوعٌ، وَفِي الْإِنْجِيلِ الْعَفْوَ وَاجِبٌ، أَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَإِنَّهَا بِالْخِيَارِ.

ففيه تَخْفِيفٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِسْقَاطِ الْقَتْلِ عَنِ الْقَاتِلِ، وَرَحْمَةٌ بِكَوْنِهِ يُعْطَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بِالْحَقِّ عَوْضًا عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الدِّيَّةُ.

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَاصِ، أَوْ الْعَفْوِ إِلَى الدِّيَّةِ، أَوْ الْعَفْوِ مَجَانًّا ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا عَفَا عَنْ الْقَاتِلِ حَمَلَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ بِالثَّأْرِ مَرَّةً أُخْرَى، فَيَعْتَدِي عَلَى الْقَاتِلِ مَرَّةً أُخْرَى.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَلِي:

١ - فَضِيلَةُ الْإِيمَانِ؛ حَيْثُ نُورُهُ بِفَضْلِهِ بِتَوَجُّهِهِ الْخَطَابِ إِلَى مَنْ اتَّصَفَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢ - وَجُوبُ الْقِصَاصِ فِي الْقَتْلِ، وَلَكِنْ لَهُ شُرُوطٌ مَعْرُوفَةٌ جَاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ، وَتَكَلَّمَ عَنْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ بَبَسْطٍ وَاسِعٍ مَذْكُورٍ فِي الْمَطَوَّلَاتِ.

٣ - أَنَّ الْحَرَّ يُقْتَلُ بِالْحَرِّ، وَلَوْ كَانَ الْقَاتِلُ أَفْضَلَ مِنَ الْمَقْتُولِ فِي عِلْمِهِ وَدِينِهِ وَخُلُقِهِ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ عَامٌّ فِي قَتْلِ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ، وَالْكَافِرِ بِالْمُسْلِمِ، أَمَّا قَتْلُ الْكَافِرِ بِالْمُسْلِمِ فَهَذَا جَائِزٌ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَأَمَّا قَتْلُ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ فَالصَّحِيحُ

أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ بِالْكَافِرِ، وَلَوْ كَانَ لِلْكَافِرِ عَهْدٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»^(١).

٤- أَنَّ الْعَبْدَ يُقْتَلُ بِالْحَرِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ فَقَتْلُهُ بِالْحَرِّ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَأَمَّا عَكْسُهُ - وَهُوَ قَتْلُ الْحَرِّ بِالْعَبْدِ - فَفِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْحَرَّ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْنَفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الشَّيْبُ الرَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢)، وَلِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ»^(٣).

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْحَرَّ لَا يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مُتَقَوِّمٌ، بِخِلَافِ الْحَرِّ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْحَرَّ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ، إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ قَتَلَهُ عَمْدًا؛ لِلْأَدِلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ كِتَابَةِ الْعِلْمِ، رَقْمُ (١١١) مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، رَقْمُ (٦٨٧٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْقِسَامَةِ، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، رَقْمُ (١٦٧٦) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ أُيْقَادِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْكَافِرِ؟، رَقْمُ (٤٥٣٠)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْقِسَامَةِ، بَابُ سِقُوطِ الْقُودِ مِنَ الْمُسْلِمِ لِلْكَافِرِ، رَقْمُ (٤٧٤٩)، وَأَحْمَدُ (١١٩/١) مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ فِي السَّرِّيَّةِ تَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْعُسْكَرِ، رَقْمُ (٢٧٥١)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَاؤُهُمْ، رَقْمُ (٢٦٨٥)، وَأَحْمَدُ (١٨٠/٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- أَنَّ الْعَبْدَ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾، وظاهرُ عُمومِ الآية: ولو اختلفا في القيمة، فلو كان المقتول لا يساوي إلا عشرة، والقاتل يساوي آلافًا، فإنه يُقتل به؛ لعُمومِ قوله: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾.

٦- أَنَّ الْأُنْثَى تُقْتَلُ بِالْأُنْثَى، وهنا مسألة: هل تُقتل بالرجل؟

الجواب: نعم، تُقتل بالرجل، أي: أَنَّ الْأُنْثَى إِذَا قَتَلَتْ رَجُلًا فَإِنَّهَا تُقْتَلُ بِهِ.

ومسألة أخرى: هل يُقتل الرجل بالأنثى؟

الجواب: نعم، يُقتل الرجل بالأنثى؛ لعُمومِ قوله تعالى: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ﴾، ولكن الله تعالى ذكر في الآية: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾؛ لتمام المكافأة من كل وجه.

٧- يُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أَنَّهُ إِذَا عَفَا أَحَدٌ مِنَ الْوَرِثَةِ عَنِ الْقِصَاصِ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ الْقِصَاصُ فِي حَقِّ الْجَمِيعِ؛ تَغْلِييًا لِجَانِبِ الرَّحْمَةِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُ الْعَافِي كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا.

مثال ذلك: لو فرضنا أَنَّ الْمَقْتُولَ لَهُ عَشْرَةُ إِخْوَةٍ، وَهُمْ وَرَثَتُهُ، فَطَالَ بِتِسْعَةٍ مِنْهُمْ بِالْقِصَاصِ، وَعَفَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَنِ الْقِصَاصِ، فَإِنَّ الْقِصَاصَ يَسْقُطُ، وَتَجِبُ الدِّيَّةُ لِلْجَمِيعِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، فَإِنَّ كَلِمَةَ ﴿شَيْءٌ﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، فَتَعَمُّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ.

٨- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَافِي عَنِ الْقِصَاصِ أَنْ يَتَّبَعَ الْقَاتِلَ بِالْمَعْرُوفِ، بَحِثٌ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِ وَلَا يُضْجِرُهُ؛ لِأَنَّهُ عَفَا عَنِ الْقِصَاصِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدِّيَّةُ دَيْنًا فِي ذِمَّةِ الْقَاتِلِ.

٩- وَجُوبُ أَدَاءِ الْقَاتِلِ لِلدِّيَةِ بِإِحْسَانٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي عَفَا عَنْهُ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِإِسْقَاطِ الْقِصَاصِ عَنْهُ، فَكَانَ الْأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ مِنْ مُكَافَأَتِهِ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ.

١٠- جَوَازُ النَّسْخِ فِي شَرَائِعِ اللَّهِ، وَهُوَ رَفْعُ الْحُكْمِ الثَّابِتِ بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ بِمُقْتَضَى دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(١) [البقرة: ١٠٦].

١١- حُبَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلتَّخْفِيفِ عَلَى عِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّيِّكُمْ﴾، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ فِي جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ، فَالشَّرِيعَةُ مَبْنَاهَا عَلَى الْيُسْرِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»^(٢)، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْقُضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٣).

١٢- حُبَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِرَحْمَةِ الْعِبَادِ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِعِبَادِهِ، كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ لَبْنِيهِ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

١٣- تَحْرِيمُ اعْتِدَاءِ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ عَلَى الْقَاتِلِ إِذَا عَفَوْا عَنْهُ، وَأَنْتَهُمْ إِذَا اعْتَدَوْا بَعْدَ ذَلِكَ أُخِذُوا بِمَا يَقْتَضِيهِ عُدْوَانُهُمْ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ وَرَثَةِ الْمَقْتُولِ لَمْ يَقْتَنِعْ بِالْعَفْوِ، فَذَهَبَ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ إِذَا تَمَّتْ شُرُوطُ الْقِصَاصِ.

(١) انظر: (ص: ٣٤٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم:

كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، رقم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤ - جَوَازُ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ؛ لِأَنَّ الْوَعِيدَ بِالْعَذَابِ يُؤَثِّرُ فِي كَمَالِ الْعِبَادَةِ وَالتَّعَبُّدِ.

وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: غَلَطُ مَنْ قَالَ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّ كَمَالَ الْعِبَادَةِ أَنْ تَتَعَبَّدَ لِلَّهِ تَعَالَى حُبًّا فِيهِ، لَا طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، وَلَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَشْرَفِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

• • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩)

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ أي: لكم في قتلِ القاتلِ المُتَعَمِّدِ إِذَا تَمَّتِ الشُّرُوطُ ﴿حَيَوةٌ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا قَتَلَ قُتِلَ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَمْتَنِعُ عَنِ الْقَتْلِ، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ لَهُ وَلِمَنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ، ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ الْقِصَاصَ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَتَّقُوا الْقَتْلَ الْمَوْجِبَ لِلْقِصَاصِ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ، مَا يَلِي:

١ - بَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ وَجُوبِ الْقِصَاصِ، وَهِيَ الْحِفَاظُ عَلَى حَيَاةِ الْبَشَرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾.

٢ - الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ قَتْلَ الْقَاتِلِ عَذْلٌ، أَي: مِنَ الْعَدْلِ؛ حَيْثُ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى: قِصَاصًا، وَهُوَ أَخَذُ الْجَانِي بِمِثْلِ جَنَائِيَّتِهِ.

٣- أن القصاصَ سببٌ للحياة، وليس سبباً للموت، خلافاً للظالم المعتدي الذي يقول: إنَّ القصاصَ زيادةٌ في الموت؛ فإنَّ القاتلَ إذا قُتِلَ انْضَمَّ قَتْلُهُ إِلَى قَتْلِ الْمَقْتُولِ، فيكونُ الْمَقْتُولُ نَفْسَيْنِ، فيقال: لَكُنَّا إِذَا قَتَلْنَا الْقَاتِلَ امْتَنَعَ عَنِ الْقَتْلِ آلاَفُ النَّاسِ، فكان في ذلك حياةُ البشرِ، ولولا الْعُقُوبَاتُ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي بَعْضِ الْمَعَاصِي لَانْتَهَكَ النَّاسُ هَذِهِ الْمَعَاصِي، ولم يُبَالُوا بِهَا.

٤- فَضِيلَةُ الْعَقْلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، فجعلَ الله تعالى الْعَقْلَ لُبًّا، ومعلوم أنَّ اللَّبَّ هو الْمُقْصُودُ، وأنَّ الْقُشُورَ ما هي إِلَّا إِطَارٌ لِحِفْظِ اللَّبِّ.

٥- أَنَّهُ يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِالْعَقْلِ فِي بَيَانِ حُسْنِ الشَّرِيعَةِ فِيمَا أَمَرَتْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَتْ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ بِأَمْرٍ، فيقول الْعَقْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ! وَلَمْ يَنْهَ عَنْ شَيْءٍ، فيقول الْعَقْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ!

٦- إِبْثَاتُ التَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيحِ الْعَقْلِيِّينَ، بِمَعْنَى: أَنَّ الْعَقْلَ يَشْهَدُ بِأَنَّ هَذَا حَسَنٌ، وَهَذَا قَبِيحٌ، لَكِنْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُحْلِلَ أَوْ يُحَرِّمَ أَوْ يُوجِبَ؛ لِأَنَّ هَذَا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ.

٧- إِبْثَاتُ الْعِلَلِ وَالْحَكَمِ فِيمَا شَرَعَهُ اللَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لِأَنَّ (لَعَلَّ) هُنَا لِلتَّعْلِيلِ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠)

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فُرِضَ ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا حَلَّ به الأجل، وهو كِنَايَةٌ عن قُرْبِ أَجَلِهِ بما يُشَاهِدُهُ في نَفْسِهِ من المَرَضِ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ الخَيْرُ هنا هو المَالُ الْكَثِيرُ ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ هذه نَائِبُ الْفَاعِلِ، وَعَامِلُهُ: ﴿كُتِبَ﴾، أي: كُتِبَتْ عَلَيْكُمُ الْوَصِيَّةُ، وَحُذِفَتْ تَاءُ التَّأْنِيثِ مِنْ ﴿كُتِبَ﴾؛ لَوَجْهَيْنِ: الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْوَصِيَّةَ تَأْنِيثُهَا غَيْرُ حَقِيقِيٍّ.

وَالثَّانِي: طُولُ الْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَامِلِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلْوَلَدَيْنِ﴾ وهما الأُمُّ وَالْأَبُ، ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وهم الإِخْوَةُ وَبَنُوهُمْ، وَالْأَبْنَاءُ وَبَنُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: الْأَبْنَاءُ وَالْبَنَاتُ وَأَوْلَادُهُمْ، الْمَهْمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَقْرَبِينَ: مَنْ كَانَ أَقْرَبَ فَأَقْرَبَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ: ﴿الْوَصِيَّةُ﴾، أي: أَنْ يُوصِيَ بِالْمَعْرُوفِ، لَا يَتَجَاوَزَ فَيُسْرِفَ، وَلَا يُقْصِرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ﴾.

﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي: عَلَى مَنْ اتَّصَفُوا بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرَضَ عَلَى مَنْ تَرَكَ مَالًا كَثِيرًا أَنْ يُوصِيَ وَلَدَيْهِ وَأَقَارِبِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ حَقٌّ عَلَى الْمُتَّقِينَ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- وجوب الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، بشرط: أن يترك خيراً، ولكن هذا العموم مخصص بقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»^(١)، أي: أنه مخصص بآيات الموارث، فإن آيات الموارث جعل الله فيها لكل وارث ما اقتضت حكمته أن يكون له. وعلى هذا فالورثة لا يوصى لهم؛ لأن الوصية للوارث تعدّ لحُدود الله عزّ وجلّ، فمثلاً: إذا أوصى الرجل لأُمّه بمالٍ زائد على نصيبها من الميراث، فهذا تعدّ لحُدود الله؛ لأن الله جعل للأُمّ السُدُس أو الثلث، حسب ما هو معلوم في علم الفرائض.

إذن: هذه الآية عامّة، لكنها خصّت بالورثة، فلا يوصى لهم.

وقيل: إن هذه الآية منسوخة، وإن الوصية لا تجب للأقارب الذين لا يرثون، ولكنّ النسخ يحتاج إلى شرط لا يتحقّق في هذه الآية، وهو ألاّ يُمْكِن الجمع بين النصّين، فإن أمكن الجمع بين النصّين فإنه لا نسخ؛ لأنّ النسخ يقتضي إبطال أحد النصّين، وهو أمرٌ ليس بالسّهل، فإذا أمكن الجمع بين النصّين فلا نسخ، وهنا يُمْكِن

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، رقم (٢٨٧٠)، والترمذي:

كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم (٢١٢٠)، وابن ماجه: كتاب الفرائض، باب

لا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣) وأحمد (٢٦٧/٥) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم (٢١٢١)، والنسائي:

كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية للوارث، رقم (٣٦٧١)، وأحمد (١٨٦/٤) من حديث

عمرو بن خارجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه في الموضع السابق، رقم (٢٧١٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجمع، فنقول: يجبُ على الإنسان أن يُوصِيَ للأقارب غير الوارثين إذا تركَ مالا كثيراً، وأما الوارثون فهم على ما قرَضَ الله لهم من الميراث.

مثال ذلك: رجلٌ مات عن أمِّه وأبيه وأخيه الشقيق، فأخوه الشقيق لا يرث؛ لأنَّ أباه يحجبُه، فيجبُ على هذا الرجل أن يُوصِيَ لأخيه الشقيق بشيءٍ من المال، قليلاً كان أو كثيراً، إن تركَ مالا كثيراً، أمّا إذا لم يترك إلا مالا قليلاً فإنه لا يجبُ عليه أن يُوصِيَ له، وهذا القولُ ذهبَ إليه جماعةٌ من أهل العلم، ومنهم ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا^(١)، أي: أنه يجبُ على الإنسان إذا تركَ مالا كثيراً أن يُوصِيَ لأقاربه غير الوارثين بما يشاء، لكنَّ جمهور الأئمة على أن الوصية للأقارب غير واجبة.

٢- اعتبار قول من حَضَرَه الموت، يعني: أن المحتَضِر يُعْتَبَر قَوْلُهُ، لكن بشرط: أن يكون معه عقلُهُ، فإن لم يكن معه عقلُهُ فلا عبرة بقَوْلِهِ.

٣- أنه إذا اعتبر قول من حَضَرَه الأجل فإن تَوَبَّته تُقْبَل، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ»^(٢).

٤- أن الأحكام منوطةٌ بأسبابها؛ لقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وهذا كما يُقال: على الإنسان الزكاة إن ملك النصاب.

٥- أن الله تعالى أَرْحَمُ من الأولاد بوالديهم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرَضَ على الأولاد أن يُوصُوا لوالديهم، وهذا يدلُّ على أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ من الإنسان بوالده.

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة: رقم (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وفي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]
 دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين بأولادهما، فيكون الله سبحانه وتعالى أرحم
 بالأصول من فرووعهم، وبالفروع من أصولهم.

٦- اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذا في مواضع كثيرة، وقد
 قال أحد الناطمين:

وَكُلُّ مَا آتَى وَلَمْ يُحَدِّدْ بِالشَّرْعِ كَالْحِرْزِ فَبِالْعُرْفِ احْدُدْ^(١)

فالعرف يكون مناطاً للأحكام في مواضع كثيرة؛ لقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٧- أن التقوى توجب للإنسان أن يقوم بأمر الله عز وجل؛ لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى
 الْمُتَّقِينَ﴾، ولا شك أن التقوى تحمّل الإنسان على فعل الطاعات وترك المحرمات،
 بل إن فعل الطاعات وترك المحرمات هو التقوى حقيقة.

٨- تأكيد الوصية للوالدين والأقربين، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ
 أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾، ثم قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن من لم يقيم هذه الوصية فإنه يفوته من التقوى بقدر مخالفته.

•••••

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ أي: غيره، أي: غير الوصية التي فرضها الله عز وجل في الآية

(١) انظر: منظومة في أصول الفقه وقواعده للشيخ رحمه الله، (ص: ٢٥١).

السَّابِقَةَ ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي: عَلِمَ بِهِ بِوَاسِطَةِ السَّمْعِ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، وليس على الْمُوصِي؛ لَأَنَّ الْمُوصِيَّ قَامَ بِمَا يَحِبُّ عَلَيْهِ، فَصَارَ الْإِثْمُ عَلَى الْمُبَدِّلِ الْمُغَيِّرِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يَسْمَعُ قَوْلَ مَنْ غَيَّرَ الْوَصِيَّةَ بِقَوْلِهِ، وَيَعْلَمُ حَالِ مَنْ غَيَّرَ بِقَوْلِهِ أَوْ كِتَابَتِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - تحريمُ تَغْيِيرِ الْوَصِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، وَلِأَنَّ تَغْيِيرَ الْوَصِيَّةِ تَصَرُّفٌ فِي حَقِّ الْغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ مَا سَيَأْتِي فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

٢ - أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَمِلَ الْخَيْرَ، ثُمَّ تَصَرَّفَ فِيهِ الْغَيْرُ بِمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ، فَلَا إِثْمَ عَلَى الْأَوَّلِ، وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى الثَّانِي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾.

٣ - إِبْثَاتُ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُمَا: (السَّمِيعُ)، وَ(الْعَلِيمُ)، وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ (السَّمِيعَ) لَهُ مَعْنَيَانِ:

المعنى الأول: إدراكُ الْمَسْمُوعِ، والمعنى الثاني: اسْتِجَابَةُ الطَّالِبِ السَّائِلِ.

وَمَثَلُوا لِلأَوَّلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وَمَثَلُوا لِلثَّانِي بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: لِمُجِيبِهِ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ^(١).

(١) انظر: (ص: ٤١٠).

وَأَمَّا (الْعَلِيم) فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ: وَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِلْمِ، وَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِهِ عَزَّوَجَلَّ، أَوْ مِنْ فِعْلٍ عِبَادِهِ، فِيمَا كَانَ مَاضِيًا، وَمَا كَانَ حَاضِرًا، وَمَا كَانَ مُسْتَقْبَلًا، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، أَي: لَا يَتَّصِفُ بِالْجَهْلِ وَلَا بِالنِّسْيَانِ.

٤- أَنْ الْإِيْمَانَ بِكَوْنِ اللَّهِ سَمِيعًا عَلِيمًا يَسْتَلْزِمُ أَلَّا يَقُولَ الْإِنْسَانُ قَوْلًا يُغْضِبُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ قَالَ فَقَدْ سَمِعَهُ عَزَّوَجَلَّ، وَأَلَّا يَعْمَلَ عَمَلًا يُغْضِبُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ عَمَلَ فَقَدْ عَلِمَهُ عَزَّوَجَلَّ، فَيُوجِبُ الْحَذَرَ مِنَ الْمَخَافَةِ.

وبهذه المناسبة أذكر إخواني المسلمين أَنْ يَتَّبِعُوا إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَهِيَ: أَنْ أَسْمَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرَادُ بِهَا الْإِيْمَانُ بِهَا وَبِمُقْتَضَاهَا، وَأَنْ يَتَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا﴾ أَي: مَيْلًا عَنِ الْحَقِّ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أَي: تَجَاوُزًا لِلْحَقِّ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: بَيْنَ الْمُوصِي وَمَنْ وَرَاءَهُ مِنَ الْوَرِثَةِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْأَسْتِثْنَاءِ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّهُ إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ، فَيَغْفِرُ لِمَن فَعَلَ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا، وَيَرْحَمُ مَن عَدَلَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أَنَّ مَن غَيَّرَ الْوَصِيَّةَ لَكَوْنِهَا تَتَضَمَّنُ الْجَنَفَ أَوْ الْإِثْمَ فَإِنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَنَفْيُ الْإِثْمِ هُنَا لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَجْرٌ، بَلْ لَهُ أَجْرٌ، لَكِن لِّمَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ مَا سَبَقَ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى مَن بَدَّلَ قَالَ: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وَنَفْيُ الْإِثْمِ هُنَا لَيْسَ الْمُرَادُ مُطْلَقًا: نَفْيُ الْإِثْمِ، بَلِ الْمُرَادُ: أَنَّهُ يُؤْجَرُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مُصْلِحٌ.

٢- أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ فِي الْوَصِيَّةِ جَوْرٌ أَوْ إِثْمٌ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُعَدَلَ.

مثال ذلك: رَجُلٌ أَوْصَى لِأَحَدِ الْوَرَثَةِ، فَيَجِبُ أَنْ تُلغَى هَذِهِ الْوَصِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا جَنَفٌ.

ومثال آخر: لو أَنَّ رَجُلًا أَوْصَى بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُعَدَلَ الْوَصِيَّةُ إِلَى الثُّلُثِ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَرِثَةُ.

٣- فَضِيلَةُ الصُّلْحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] كما قال الله عَزَّوَجَلَّ، وَيَدْخُلُ فِي جَمِيعِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْحُقُوقِ، فَمَتَى أُمِّكِنَ الْإِصْلَاحُ فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِذَا لَمْ يُمَكِّنِ الْإِصْلَاحُ رَجَعْنَا إِلَى الْمُحَاقَّةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَرَفَعَ الْأُمُورَ إِلَى الْحَاكِمِ الشَّرْعِيِّ.

٤- أَنَّ الصُّلْحَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِضَى الطَّرَفَيْنِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفْرَضَ الصُّلْحُ عَلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ دُونَ الْآخَرِ.

٥- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عزَّ وجلَّ: (الغفور) (الرحيم)، فالغفور: ذو المغفرة، والمغفرة: سترُ الذنب والتجاوز عنه، فيسترُ الله على عبده، فلا يعلم به العبادُ، ويعفو عنه، فلا يعاقبه عليه؛ لأنَّ «المغفرة» مأخوذة من المغفر، وهو ما يُوضع على الرأس لتوقي السهام، والمغفر فيه السَّترُ والوقاية.

وأما الرحيم فهو ذو الرحمة، ورحمة الله سبحانه وتعالى رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقد سبق لنا تفصيل القول في الرحمة، وأنها تنقسم إلى قسمين: عامّة، وخاصّة، فليُرجع إلى ذلك^(١).

نسأل الله تعالى أن يعمنا بمغفرته ورحمته، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، وأوليائه المتقين؛ إنه سميع قريب.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنَقُّونَ﴾

يُقَالُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ما قيل في سابقَتِها من أن ابتداء الخطاب بالنِّداء يدلُّ على أَهْمِيَّتِهِ، وتَوَجُّيْهِهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ يدلُّ على أَنَّ امْتِثَالَهُ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ مُحَالَفَتَهُ نَقْصٌ فِي الْإِيمَانِ.

(١) انظر: (ص: ٢٦، ١٦٦، ٣٣٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: فُرِضَ ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كما فُرِضَ ﴿عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجلِ التَّقْوَى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- وَجُوبُ الصِّيَامِ؛ لقَوْلِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، وَمَرْتَبَةُ صِيَامِ شهرِ رمضانَ من الدِّينِ: أَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا.
- ٢- أَهَمِّيَّةُ الصِّيَامِ، وَأَنَّهُ عِبَادَةٌ لَا تَصْلُحُ الْأُمَمُ إِلَّا بِهَا؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وَلَا يَلْزَمُ مَنْ كَتَابَتِهِ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا أَنْ يَكُونَ مُمِثْلًا وَمُسَاوِيًا لِمَا كُتِبَ عَلَيْنَا، فَقَدْ يَخْتَلِفُ فِي الْعَدَدِ وَالزَّمَنِ.
- ٣- تَسْلِيَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّ هَذَا الصِّيَامَ الَّذِي فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَشَقَّةِ قَدْ كُتِبَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَسَلَّى بِغَيْرِهِ فِيمَا يَنَالُهُ مِنْ مَشَقَّةٍ.
- ٤- فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، حَيْثُ التَّحَقَّتْ بِمَنْ سَبَقَهَا فِي الْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.
- ٥- أَنَّ الصِّيَامَ سَبَبٌ لِلتَّقْوَى؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ أَثَرُ التَّقْوَى بِالصِّيَامِ فَصِيَامُهُ نَاقِصٌ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْعُ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدْعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١)، فَفَائِدَةُ الصِّيَامِ وَحِكْمَةُ الصِّيَامِ: تَقْوَى الصَّائِمِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يَرْفُثُ، وَلَا يَفْسُقُ، بَلْ لَوْ قَاتَلَهُ أَحَدٌ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيُقِلْ: إِنِّي صَائِمٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَجَّئِنَبُؤُا قَوْلَكَ الزُّورَ﴾، رقم (٦٠٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- إثبات الحكمة في شرع الله عزَّ وجلَّ، وأنه جَلَّ وَعَلَا لا يشرع شيئاً إلا لحكمة، سواء عَلِمناها أم لم نَعْلَمها، فإن عَلِمناها فهذا من فضل الله علينا، حيث نَعْرِفُ به كَمَالِ الله عزَّ وجلَّ، وكَمَالِ شَرِيعَتِهِ، وتطمئنُّ نفوسنا أكثر، وإن جَهِلناها فما علينا إِلَّا التَّسْلِيمُ؛ لقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٧- أَنَّ الصَّيَامَ من مُقْتَضِيَاتِ الْإِيْمَانِ، حيث وُجِّهَ الْخِطَابُ فيه إلى الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ الصَّيَامُ﴾ إلخ.

•••••

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤)

قَوْلُهُ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: أَنَّ الصَّوْمَ الْمَفْرُوضَ ليس شُهُورًا، ولا سنواتٍ، ولا أَيَّامًا طَوِيلَةً، بل هو أَيَّامٌ مَّعْدُودَاتٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ يعني: وشقَّ عليه الصَّوْمُ ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (عِدَّةٌ) مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحذُوفٌ، والتَّقْدِيرُ: فعليه عِدَّةٌ من أَيَّامٍ أُخَرَ، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ يعني: على الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَهُ ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: إذا لم يُرِيدُوا الصَّوْمَ.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ يعني: فمن تطوَّعَ خَيْرًا ببذلِ الفدية فهو خيرٌ له، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كنتم من ذوي العلم.

ثم بين هذه الأيام المعدودات بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تصوير الأمر الشاقِّ بأمرٍ سهلٍ، حتَّى تنشطَ النفوسُ وتقبلَ عليه؛ لقوله: ﴿آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، فإنَّ الله تعالى عرَّضَ هذا الصَّومَ هذا المعرضَ الَّذي يُسهِّلُ على المرء أن يقومَ بالصَّيامِ.

٢- أنَّ المريض لا يلزمه الصَّومُ أداءً، بل له أن يؤخِّره حتَّى يبرأ؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، والمرضُ هنا مُطلقٌ، فيقتضي أيَّ مرضٍ كان، سواء كان المرضُ في عضوٍ من أعضائه، أو في كُلِّ بدنه، وسواء كان بالحمى أو غيرها.

لكن هل يُشترط أن يكون المرضُ شاقًّا؟

يُقال: نعم، لا بدَّ أن يكون هذا المرضُ شاقًّا على الإنسان أن يصومَ مع وجوده، فأما إذا كان لا يشقُّ عليه فلا وَجَهَ لكونه عُذرًا، هذا هو الَّذي عليه جمهورُ الأمة.

٣- أنَّ من كان مُسافرًا فإنَّه لا يلزمه أداءُ الصَّومِ، بل له أن يؤخِّره إلى وقتٍ آخر، وقد دلَّت النصوص على أنَّ السَّفرَ إن كان لا توجد فيه مشقَّةٌ بالصَّومِ فالأفضلُ أن يصومَ؛ اقتداءً برسول الله ﷺ، وتعجبًا لإبراء الذمَّة، ولأنَّه أسهلُّ من القضاء كما هو معروف، وأما إذا كان فيه شيءٌ من المشقَّةِ فالأفضلُ الفطرُ، وليس من البرِّ

أَنْ يَصُومَ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِيهِ مَشَقَّةٌ شَدِيدَةٌ فَإِنَّ الصَّوْمَ يَحْرُمُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شُكِيَ إِلَيْهِ مَا يَجِدُهُ النَّاسُ مِنَ الصَّوْمِ، فَأَفْطَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ! فَقَالَ: «أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ»^(١)، فَيَكُونُ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ.

وَلِلْمُسَافِرِ أَنْ يُفْطِرَ وَإِنْ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِ الصَّوْمُ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ مِنْهُمْ الصَّائِمُ، وَمِنْهُمْ الْمُفْطِرُ، وَلَا يَعْيبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

٤- أَنَّ الصَّيَامَ أَوَّلُ مَا فُرِضَ كَانَ النَّاسُ فِيهِ مُحْيَرِّينَ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْإِطْعَامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى التَّخْيِيرِ الَّذِي كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَقْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا، فَنَسَخَتْهَا^(٢).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ يُطَوَّقُونَهُ، أَيُّ: يَبْلُغُ طَاقَتَهُمْ، وَيَتَكَلَّفُونَ بِهِ، فَعَلَيْهِمْ فِدْيَةٌ، لَكِنْ هَذَا الْقَوْلُ يَنْقُضُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ قَادِرٌ عَلَى الصَّيَامِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٤)

من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٤٥٧).

وقال بعضهم: إِنَّ معنى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ أي: لا يُطِيقُونَهُ، وهذا أَبَعَدُ وَأَبَعَدُ.
فَالصَّوَابُ ما ذكرنا: أَنَّ الآيةَ دَالَّةٌ عَلَى التَّخِيرِ بَيْنَ الإِطْعَامِ وَالصَّيَامِ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ،
ثُمَّ تَعَيَّنَ الصَّيَامُ.

٥- بَيَانُ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي التَّشْرِيعِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُشَرِّعُ الأَحْكَامَ شَيْئًا
فَشَيْئًا، خُصُوصًا فِيما يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ أَرَادَ أَنْ يُحَرِّمَ
الْحُمْرَ جَعَلَ تَحْرِيمَهُ مُتَدَرِّجًا، وَهَكَذَا الصَّوْمُ لَمَّا أَرَادَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفْرِضَهُ عَلَى الْعِبَادِ
جَعَلَ فَرَضَهُ مُتَدَرِّجًا، فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يُخَيِّرُ الْإِنْسَانَ بَيْنَ أَنْ يَصُومَ وَيَفْدِي، ثُمَّ تَعَيَّنَ
الصَّوْمُ.

٦- أَنَّ التَّطَوُّعَ بِالْعِبَادَاتِ خَيْرٌ، سِوَاكَ كَانَ فِي أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، أَوْ فِيما دُونَهُ؛
لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٧- أَنَّ الأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ جِنْسًا وَنَوْعًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ،
وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٨- مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلصَّوْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٩- تَوْجِيهُ الخِطَابِ لِدَوِي الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يُدْرِكُ بِهِ مَا يُخْفَى عَلَى غَيْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ هو الشهر الذي بين شَعْبَانَ وشَوَّالٍ، وسُمِّيَ بذلك؛
لأنَّهُ كان حين التَّسْمِيَةِ مُوَافِقًا لِشِدَّةِ الرَّمْضَاءِ وَالْحَرِّ، ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾
أي: أُنْزِلَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أُنْزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، أَي: ابْتَدَأَ إِنْزَالَهُ،
وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (هُدًى) مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، أَي: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَجْلِ
هَدَايَةِ النَّاسِ، ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أَي: عِلَامَاتٍ وَاضِحَةٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَشْتَمِلُ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ أَهْلِ
الْحَيْرِ وَأَهْلِ الشَّرِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ «شَهِدَ» بِمَعْنَى: شَاهَدَ، وَيَحْتَمِلُ
أَن تَكُونَ بِمَعْنَى: حَضَرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سَبَقَ
الْقَوْلُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أَي: يُحِبُّ أَنْ يُيسِّرَ
عَلَيْكُمْ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُعَسِّرَ عَلَيْكُمْ، فَالْإِرَادَةُ هُنَا شَرْعِيَّةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ الواو حرف عطف، والمعطوف عليه محذوف يُعْلَم من السِّيَاق، فكأنه قال: لَتَقُومُوا بِطَاعَتِهِ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ. أي: عِدَّة الشَّهْرِ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ أي: من أجل هِدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- أَنَّ الصَّوْمَ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا مُعَيَّنٌ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ، وهو شهرُ رَمَضَانَ.
- ٢- أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي رَمَضَانَ، أي: ابْتَدَأَ اللَّهُ أَنْزَالَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي رَمَضَانَ.
- ٣- إثباتُ علوِّ الله؛ لقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾؛ لَأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، فإذا كان مُنْزَلًا كان الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَالِيًّا، جَلَّ وَعَلَا.
- ٤- أَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى وَبَيَانٌ وَفُرْقَانٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.
- ٥- الْحُثُّ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ حيثُ جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، ومعلوم أَنَّ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ الْهُدَى مِنْ أَيِّ مَكَانٍ كَانَ، وهذا يَحْصُلُ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا الْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.
- ٦- وَجُوبُ صَوْمِ رَمَضَانَ بِشُهُودِ هِلَالِهِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وقد تَبَيَّنَ بِالسَّنَةِ أَنَّ دُخُولَ شَهْرِ رَمَضَانَ يَثْبُتُ بِشَهَادَةِ وَاحِدٍ عَدْلٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى الْهِلَالَ، فَقَالَ لَهُ: «أَتَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ أَنْ

يَصُومُوا غَدًا^(١). وكذلك ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَرَأَى النَّاسُ الْهِلَالَ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي رَأَيْتُهُ، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ^(٢).

٧- أَنَّ الْهِلَالَ إِذَا شُوهِدَ فِي مَكَانٍ، وَلَمْ يُشَاهَدَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ أَنْ يَصُومَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّقَ وَجُوبَ الصَّوْمِ بِشُهُودِ الْهِلَالَ.

وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، فمنهم من قال: إنه إذا ثبتت رؤية هلال رمضان وجب على جميع الأمة الإسلامية أن تصوم في أي قطر كانت.

ومنهم من قال: إذا كان الناس تحت ولاية واحدة، وشوهد في هذه الولاية، وجب على كل أهل الولاية أن يصوموا، ولا فرق بين من رآه ومن لم يره.

ومنهم من قال: من رآه وجب عليه الصوم، ومن لم يره لم يجب عليه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: تختلف مطالع الهلال باتفاق أهل المعرفة، فإن اتفقت المطالع وجب الصوم، وإلا فلا^(٣).

وعمل الناس غالباً اليوم أنهم يتبعون من ثبت الشهر عنده على وجه يثقون به.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، والترمذي كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال رمضان، رقم (٢١١٤)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد اختلف في وصله وإرساله.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٢).

(٣) الاختيارات العلمية (ص: ١٥٨).

٨- أن الإنسان إذا فاته الشهر كاملاً، وكان الشهر ناقصاً -أي: كان تسعة وعشرين يوماً- فإنه لا يلزمه أن يقضي ثلاثين يوماً، بل لا يقضي إلا تسعة وعشرين يوماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَكَامٍ أُخَر﴾.

وظاهر الآية الكريمة: أنه لا فرق بين أن تكون هذه الأيام في العام الذي حصل فيه الفطر وفيما بعده، ولكن قد دلت السنة أنه لا يؤخر القضاء إلى ما بعد رمضان الثاني، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يكون على الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان^(١). وهذا يدل على أنه لا يؤخر إلى ما بعد رمضان الثاني، وإلا لكان ما بعد رمضان الثاني وما قبله سواء.

٩- أن الله سبحانه وتعالى كتب على عباده ما كتب من الفرائض، لا للإشفاق عليهم، ولا لإلحاق الحرج بهم، ولكنه عز وجل يريد بذلك التيسير والتسهيل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل للمريض الذي يشق عليه الصوم، أو المسافر الذي يشق عليه الصوم، أن يفطر؛ لأن هذا هو الأيسر في حقه.

١٠- أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام، ولم يتبين رجحان أحدها على الآخر، فإن مقتضى إرادة الله اليسر على العباد أن يؤخذ باليسر، وهذا هو القول الراجح، أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام، فبعضها يفيد التحريم، وبعضها يفيد الحل، واشتبه الأمر، فإننا نأخذ باليسر؛ لأن ذلك هو الموافق

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب متى يقضى قضاء رمضان؟، رقم (١٩٥٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء رمضان في شعبان، رقم (١١٤٦).

لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾.

١١ - الْحُثُّ عَلَى إِكْمَالِ الْعِدَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ؛ لَقَوْلِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا

الْعِدَّةَ﴾.

١٢ - تَكْبِيرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ عَلَى هِدَايَتِهِ لَنَا، وَتَسْهِيلِ الصَّوْمِ

عَلَيْنَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾، وَهَذَا يَكُونُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ مِنْ آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى أَنْ يَخْضُرَ الْإِمَامُ لَصَلَاةِ الْعِيدِ، فَيُكَبِّرُ النَّاسُ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ، يَجْهَرُ بِذَلِكَ الرِّجَالُ، وَتُسِرُّ بِهِ النِّسَاءُ.

وَصِفَةُ التَّكْبِيرِ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ»، أَوْ يَقُولَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ»، كُلُّ هَذَا جَائِزٌ.

١٣ - أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِفَ لِلَّهِ بِالْفَضْلِ عَلَى هِدَايَتِهِ إِيَّانَا؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٤ - الْحُثُّ عَلَى الشُّكْرِ، وَالشُّكْرُ: هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ عَقِيدَةً وَقَوْلًا وَعَمَلًا.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَنَا جَمِيعًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَأَنْ يُيسِّرَ لَنَا الْأُمُورَ، رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا

لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ الخطاب في هذه الآية لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، والمراد بالعباد

هنا: عِبَادُ الشَّرِيعَةِ، يعني: العِبَادُ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا شَرَعَ، فَهِيَ الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ هَذَا الْقُرْبُ حَقِيقِيٌّ، وَلَكِنَّهُ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِنَّهُ قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ، عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَالٍ فَوْقَ خَلْقِهِ، مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا رَبَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

يُجِيبُ دُعَاءَهُ، وَلَكِنْ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ شُرُوطٌ:

منها: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بِأَلَّا يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدًا فِي دُعَائِهِ.

ومنها: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ يُجِيبَ دُعَاءَهُ.

ومنها: شُعُورُ الْإِنْسَانِ بِالْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومنها: اجْتِنَابُ أَكْلِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّ أَكْلَ الْحَرَامِ مِنْ مَوَانِعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَقَدْ ذَكَرَ

النَّبِيُّ ﷺ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ! يَا رَبَّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذْيَ بِالْحَرَامِ، «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»^(١) فَاسْتَبْعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُسْتَجَابَ لِمَنْ يَأْكُلُ الْحَرَامَ، وَيَتَغَدَّى بِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليستجيبوا لأوامري، فيقوموا بها، وليستجيبوا لمقتضى نهيي، فيتركوا ما نهيت عنه، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: ليحققوا إيمانهم بالاستجابة لله عز وجل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (لعل) هنا للتعليل، أي: من أجل أن يرشدوا، والرشد: حُسن التصرف، ويُفسر في كل موضع بما يناسبه.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أن الله سبحانه وتعالى عالم بما يستقبل، كما هو عالم بما مضى، وبالحاضر، ووجه الدلالة: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، و(إذا) لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد وقوع الشرط.

٢- حرص الصحابة رضي الله عنهم على الأسئلة النافعة.

٣- فضيلة من تعبد لله بشريع، ووجه ذلك: إضافة عبوديتهم إلى الله، فقال تعالى: ﴿عِبَادِي﴾، وإضافة العبودية إلى الله تعالى شرف لا يساويه شرف، ولهذا يذكره الله عز وجل في مقام التّشريف، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، والعبودية لله عز وجل هي الحرية الحقيقية، وأما من تحرر من عبودية الله فقد استرق للشيطان، قال ابن القيم رحمه الله في التّوبة:

هَرَبُوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خَلَقُوا لَهُ وَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ^(١)

٤- قُرب الله تعالى لمن دَعاه، ولهذا يشعر الداعي بقُرب الله تبارك وتعالى كأنه يراه، وهذا من تمام الإحسان.

فإن قال قائل: هل قُرْبُ الله تعالى يُنافي عُلُوّه؟

قلنا: لا، لا يُنافي عُلُوّه؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس كمِثْلِهِ شيءٌ في جميع صفاته، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في (العَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّة): فإنَّ الله تعالى ليس كمِثْلِهِ شيءٌ في جميع نُعُوتِهِ، فهو قَرِيبٌ في عُلُوّه، عَلِيٌّ في دُنُوّه^(١).

٥- إجابةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للدَّاعِي؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا الإِطْلَاقُ مُقَيَّدٌ بِالْأَلَا يَدْعُو بِإِثْمٍ أَوْ قِطِيعَةٍ رَحِمٍ، كما جاءت بذلك السُّنَّةُ^(٢).

ومن الدُّعَاءِ بِالْإِثْمِ: أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَخْصٍ لَا يَسْتَحِقُّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِ.

فإن قال قائل: ما أَكْثَرَ مَنْ يَدْعُونَ الله، ولا يَجِدُونَ إجابةً!

فالجوابُ: أَنَّ ذلك إمَّا لِقَوَاتٍ شَرْطٍ، أو لَوْجُودِ مانعٍ، أو أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ادَّخَرَ ذلكَ لَهُمْ؛ ليكونَ مَثُوبَةً وَقُرْبَةً إِلَى الله تعالى.

٦- اشْتِرَاطُ الْإِخْلَاصِ فِي الدُّعَاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، يعني: ولم يُشْرِكْ معي أحداً.

٧- وَجُوبُ الاسْتِجَابَةِ لَهِ، وَالْإِيْمَانِ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

٨- أَنَّ الاسْتِجَابَةَ لَهِ وَالْإِيْمَانِ بِهِ سَبَبٌ لِلرُّشْدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يُستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم (٢٧٣٥/ ٩٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٩- إثبات العِلَل، وأنَّ أحكام الله تعالى وأفعاله مُعلَّلة بالحِكْمَة البالغة التي قد نُذِرَكمُها، وقد لا نُذِرُكمُها.



يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْكَنَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قَوْلُهُ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ﴾ المحلَّل والمحرَّم هو الله عزَّوجلَّ، ولا أَحَدٌ يُحِلُّلُ أو يُحَرِّمُ من دون الله عزَّوجلَّ، والحلالُ ضدُّ الحرام.

وقَوْلُهُ: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ يعني: اللَّيْلَةُ الَّتِي تَصُومُونَ مِنْ غَدِهَا.

وقَوْلُهُ: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعني بذلك: الجِمَاعُ ومُقَدَّمَاتِهِ.

ثُمَّ عَلَّلَ هَذَا الْحُكْمَ -وهو الإِحْلَالُ- بِأَنَّ لِبَاسَ لِلزَّوْجِ، وَالزَّوْجَ لِبَاسٌ لَهُنَّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الزَّوْاجَ سِتْرٌ لِلزَّوْجِ وَلِلزَّوْجَةِ، بِتَخْصِينِ الْفَرْجِ، وَغَضِّ الْبَصَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ السِتْرِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ أَحَلَّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَاجُ نَفْسَهُ، وَيَحْدَعُهَا، وَيُمِيلِي لَهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وَسَبَبُ ذَلِكَ:

أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسَيْنِ: نَفْسًا أَمَّارَةً بِالسُّوءِ، وَنَفْسًا مُطْمَئِنَّةً، فَالنَّفْسُ الْأُولَى تَأْمُرُهُ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالثَّانِيَةُ تَأْمُرُهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أَي: تَابَ عَلَيْكُمْ مَا سَلَفَ مِنْ فِعْلِكُمْ، وَعَفَا عَنْكُمْ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ، وَكَانَ النَّاسُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ إِذَا نَامَ الْإِنْسَانُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ حَرُمَ عَلَيْهِ الرَّفْتُ إِلَى امْرَأَتِهِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ مِنَ الْغَدِ، أَوْ إِذَا تَعَشَّى حَرُمَ عَلَيْهِ الرَّفْتُ إِلَى امْرَأَتِهِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ مِنَ الْغَدِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً لَهُمْ، وَتَسْهِيلًا عَلَيْهِمْ ^(١).

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ تَابَ عَلَيْهِمْ فِيمَا فَعَلُوا قَبْلَ التَّحْلِيلِ، وَعَفَا عَنْهُمْ، فَاسْقَطَ عَنْهُمْ وَجُوبَ الْإِمْسَاكِ إِذَا نَامُوا أَوْ صَلَّوْا الْعِشَاءَ.

ثُمَّ بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ أَبَاحَ لَنَا أَنْ نُبَاشِرَ النِّسَاءَ، وَأَنْ نَبْتَغِيَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، وَالْمَرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ هُنَا: مَا دُونَ الْجِمَاعِ، وَالْمَرَادُ بِابْتِغَاءِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا: الْجِمَاعُ؛ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي: مِنَ الْوَلَدِ، وَهَذَا لَا يَحْضُلُ إِلَّا بِالْجِمَاعِ، فَأَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نُبَاشِرَ النِّسَاءَ لَيْلَةَ الصِّيَامِ بِمَا دُونَ الْفَرْجِ وَبِالْجِمَاعِ.

وَأَبَاحَ أَيْضًا الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ، فَقَالَ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، وَالْخَيْطُ الْأَبْيَضُ: بَيَاضُ النَّهَارِ، وَالْخَيْطُ الْأَسْوَدُ: سَوَادُ اللَّيْلِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، رَقْمُ (١٩١٥) عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي النَّوْمِ.

وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ مَبْدِئِ فَرْضِ الصَّوْمِ، رَقْمُ (٢٣١٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

وقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيانٌ لوقتِ تَبَيُّنِ الخيطِ الأبيضِ من الخيطِ الأسودِ.

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تعالى بإتمامِ الصَّيَامِ -وهو الإمساكُ عن المُفْطَرَاتِ تَعَبُّدًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ- من حين أن يَتَبَيَّنَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ إلى اللَّيْلِ، وذلك غُرُوبِ الشَّمْسِ.

ثُمَّ نَهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ تُبَاشِرَ النِّسَاءُ، ونحن عَاكِفُونَ في المساجد، فقال: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ﴾ وهذا يَشْمَلُ الْجَمَاعَ وما دونه ﴿وَأَنْتُمْ عَنْكُمُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ يعني: والحال أنكم عَاكِفُونَ في المساجد.

والعُكُوفُ: هو لزوم المسجد للتفرُّغِ لطاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وَيَبِّنَ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ هذا الَّذِي شَرَعَهُ لنا من حُدُودِ الله، ونَهَانَا عن قُرْبَانِهَا، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وأحياناً يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾، قال العلماء: والفرقُ بينهما: أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْحُدُودُ فِي الْمَأْمُورَاتِ فَالْنَهْيُ عَنِ الْاِعْتِدَاءِ أَي: عَنِ تَعَدِّيهِا وَالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْهِيَّاتِ فَالْنَهْيُ عَنِ قُرْبَانِهَا؛ لِأَنَّ الْمَنْهِيَ عَنْهُ مِنْهِيَ عَنِ الْقُرْبِ مِنْهُ؛ لِثَلَا تَسْؤُلَ لَهُ النَّفْسُ أَنْ يَقَعَ فِي الْحَرَامِ الصَّرِيحِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أَي: مِثْلَ هَذَا الْبَيَانِ يُبَيِّنُ اللهُ لِلنَّاسِ آيَاتِهِ، أَي: آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ - إباحة الجماع والأكل والشرب في ليالي رمضان؛ لقوله: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ﴾، إلى أن قال: ﴿فَأَتَيْنَ بَشِيرُهُنَّ وَابْتَغَوْنَ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

٢ - بيان ما يحصل بالنكاح من ستر أحد الزوجين للآخر؛ لقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

٣ - إثبات علم الله عز وجل بها في نفوسنا؛ لقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وعلم الله تعالى عام شامل للظاهر والباطن، والخفي والجلي، والماضي والمستقبل والحاضر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

٤ - سعة عفو الله تعالى وحلمه، حيث تاب علينا وعفا عنا، حين علم ما يقع منا من اختيان النفوس.

٥ - أنه ينبغي للإنسان في جماعه أن يتبغى ما كتب الله له من الولد. ويتفرع على هذه الفائدة: أن من حكمة النكاح كثرة النسل؛ لتزداد الأمة؛ لأن زيادة الأمة القوة، والخير، والاستغناء عن الغير.

٦ - جواز الأكل والشرب والجماع إلى أن يتبين الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

ويتفرع على ذلك: أنه يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب ويجمع مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾، ولأن الأصل بقاء الليل.

٧- جواز صَوْمِ الْجُنُبِ، وَوَجْهُهُ: أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَبَاحَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُجَامِعَ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَغْتَسِلَ إِلَّا بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، فَيَكُونُ صَوْمُ الْجُنُبِ صَحِيحًا، وَقَدْ ثَبَتَ بِذَلِكَ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُصْبِحُ صَائِمًا وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ جَمَاعِ أَهْلِهِ^(١)، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

٨- أَنَّ الْأَصْلَ الثَّابِتَ لَا يَزُولُ إِلَّا بِبَيِّنٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾، وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَيَمَنَ أَشْكَلَ عَلَيْهِ: هَلْ أَحْدَثَ، أَوْ لَا؟ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَلَا يَنْصَرِفَ مِنْ صَلَاتِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا^(٢).

٩- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْفِطْرُ قَبْلَ تَحَقُّقِ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ آتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، وَاللَّيْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مَعَ الشَّكِّ فِي غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مَعَ الشَّكِّ فِي طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَوَجْهُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهُ هُنَاكَ قَالَ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، وَهَنَا قَالَ: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ بَقَاءُ مَا كَانَ عَلَى مَا كَانَ، فَالْأَصْلُ فِي مَسْأَلَةِ الْفَجْرِ بَقَاءُ اللَّيْلِ، وَالْأَصْلُ فِي مَسْأَلَةِ الْفِطْرِ بَقَاءُ النَّهَارِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ الصَّائِمِ يَصْبِحُ جُنُبًا، رَقْمُ (١٩٢٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ صَحَةِ صَوْمٍ مِنْ طَلَعِ عَلَيْهِ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ، رَقْمُ (١١٠٩) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْوُضُوءِ، بَابُ لَا يَتَوَضَّأُ مِنَ الشَّكِّ حَتَّى يَسْتَقِنَ، رَقْمُ (١٣٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَيْضِ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنْ مِنْ تَيَقُّنِ الطَّهَارَةِ ثُمَّ شَكٌّ ..، رَقْمُ (٣٦١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، رَقْمُ (٣٦٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠ - الإِشَارَةُ إِلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْاِعْتِكَافِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنِكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾، وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ أُنِيطَ بِهِ أَحْكَامٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ شَرَائِعِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنْ مَا هُوَ الْاِعْتِكَافُ الْمَشْرُوعُ الْمَسْنُونُ الَّذِي هُوَ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ؟
الجواب: هُوَ الْاِعْتِكَافُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، كَمَا اِعْتَكَفَ النَّبِيُّ ﷺ^(١).

١١ - أَنَّهُ لَا اِعْتِكَافَ إِلَّا فِي مَسْجِدٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ عَنِكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾، وَالْمَسَاجِدُ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَسَاجِدِ، مِنْ حِلٍّ أَوْ حَرَمٍ؛ لِأَنَّ (أَل) فِيهَا لِلْعُمُومِ، وَلَيْسَتْ لِلْعَهْدِ، وَعَلَى هَذَا فَيَصَحُّ الْاِعْتِكَافُ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ، سَوَاءَ كَانَ مِنَ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا.

وَمَا رُوِيَ عَنْ حُذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا اِعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢) فَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، وَإِنْ صَحَّ فَالْمَرَادُ: الْاِعْتِكَافُ التَّامُّ، وَأَمَّا الْاِعْتِكَافُ الْمُجَزِئُ فَيَصَحُّ وَيُجْزِئُ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ.

١٢ - أَنَّ مُبَاشَرَةَ النِّسَاءِ مِنَ الْمُعْتَكِفِ تُبْطِلُ الْاِعْتِكَافَ؛ لِأَنَّهُ مَنِهْيٌّ عَنْهَا فِي نَفْسِ الْاِعْتِكَافِ، وَالْمَنِهْيُّ عَنْهُ فِي نَفْسِ الْعِبَادَةِ يُفْسِدُهَا، كَمَا أَفْسَدَ الْكَلَامُ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهُ نُهِيَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْاِعْتِكَافِ، بَابُ الْاِعْتِكَافِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، رَقْمُ (٢٠٢٥) (٢٠٢٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْاِعْتِكَافِ، بَابُ اِعْتِكَافِ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، رَقْمُ (١١٧١) (١١٧٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ مَرْفُوعًا الطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مُشْكَلِ الْأَثَارِ (٢٠١/٧)، وَقَدْ أَخْرَجَهُ - مِنْ وَجْهِ آخَرَ - عَبْدُ الرَّزَّاقِ (٣٤٧/٤) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٩١/٣) مُوقُوفًا عَلَى حُذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣ - أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَدَّ لِعِبَادِهِ حُدُودًا، وَنَهَاهُمْ عَنْ قُرْبَانِهَا إِذَا كَانَتْ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾، وَإِنَّمَا حَدَّدَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ شَرِيعَتَهُ لِعِبَادِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَضْبَطُ وَأَيْسَرُ عَلَى الْمُكَلَّفِ، وَأَبْلَغُ فِي امْتِحَانِ الْمُكَلَّفِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْمُكَلَّفِينَ قَدْ يَهُونَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ دُونَ الشَّيْءِ الْآخِرِ، وَبَعْضُ الْمُكَلَّفِينَ يَصْغُبُ عَلَيْهِ كُلُّ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَبَعْضُ الْمُكَلَّفِينَ يَهُونُ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا، وَيَقُومُ بِهَا أَوْ جَبَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيهَا، فَكَانَ فِي هَذَا امْتِحَانٌ لِلْعِبَادِ.

١٤ - الْحَذَرُ مِنْ قُرْبَانِ مُحَارِمِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^(١).

١٥ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ الْأَحْكَامَ؛ لِيَتَّقُوهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٦ - أَنَّ فِي الْآيَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُكَلَّفُ قَبْلَ الْعِلْمِ، وَعَلَى هَذَا فَلَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِالْحُجَّةِ.

١٧ - أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: آيَاتِ شَرْعِيَّةٍ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَآيَاتِ كَوْنِيَّةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير - رضي الله تعالى عنه -.

١٨ - عِظْهُمْ شَأْنَ التَّقْوَى؛ حَيْثُ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى غَايَةً لِّبَيَانِهِ لِعِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٩ - جَوَازُ النَّسْخِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالنَّسْخُ: هُوَ رَفْعُ حُكْمِ النَّصِّ أَوْ لَفْظِهِ بِدَلِيلٍ، وَوَجْهُهُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبَاحَ لِعِبَادِهِ مُبَاشَرَةَ النِّسَاءِ بِالْجَمَاعِ وَمَا دُونَهُ، وَالْأَكْلَ وَالشُّرْبَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ ذَلِكَ مَمْنُوعًا إِذَا صَلَّوْا الْعِشَاءَ أَوْ نَامُوا، وَالنَّسْخُ هُنَا: نَسْخٌ مِنْ أَصْعَبَ إِلَى أَسْهَلٍ؛ لِأَنَّ إِحْلَالَ هَذَا الشَّيْءِ لِلْعِبَادِ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ التَّسْهِيلِ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ: أَنَّ النَّسْخَ يَكُونُ مِنْ أَخَفٍّ إِلَى أَشَدٍّ، وَمِنْ أَشَدٍّ إِلَى أَخَفٍّ، وَمِنْ مُسَاوٍ لِمُسَاوٍ.

فَمِثَالُهُ مِنَ الْأَخَفِّ إِلَى الْأَشَدِّ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَسَخَ التَّخْيِيرَ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْفِطْرِ مَعَ الْإِطْعَامِ، ثُمَّ عَيَّنَ الصَّيَامَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعِبَادَةَ إِذَا كَانَ فِيهَا تَخْيِيرٌ تَكُونُ أَيْسَرَ مِنَ التَّعْيِينِ.

وَمِثَالُهُ مِنَ الْأَصْعَبِ إِلَى الْأَسْهَلِ: هَذِهِ الْآيَةُ.

وَمِثَالُهُ مِنَ الْمُسَاوِي لِمُسَاوِيهِ: نَسْخُ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِعَمَلِ الْمُكَلَّفِ لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَأَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ.

وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ: ابْتِلَاءُ الْعِبَادِ، وَبَيَانُ الْمِنَّةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَخَفٍّ إِلَى أَشَدٍّ، أَوْ مِنْ مُسَاوٍ لِمُسَاوٍ فَالْحِكْمَةُ فِيهِ: الْابْتِلَاءُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَشَدٍّ إِلَى أَخَفٍّ فَالْحِكْمَةُ فِيهِ: بَيَانُ فَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْعِبَادِ؛ حَيْثُ خَفَّفَ عَنْهُمْ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨)

في هذه الآية ينهى الله عَزَّوَجَلَّ عِبَادَهُ أَنْ يَأْكُلُوا الْأَمْوَالَ بَيْنَهُمْ - حين يَتَدَاوَلُونَهَا - بالباطل، وهو ما كان ضِدَّ الْحَقِّ، وينحصر ذلك في شَيْئَيْنِ: إمَّا بِجَحْدٍ ما يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ بَذْلُهُ، وإمَّا بِدَعْوَى ما ليس من حَقِّهِ.

فمثال الأول - أعني: جَحْدَ ما يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ بَذْلُهُ - أَنْ يَكُونَ فِي ذِمَّةِ شَخْصٍ لغيره أَلْفُ دِرْهَمٍ، فَيَدَّعِيهِ صَاحِبُهُ، فَيُنْكِرُ الْمَطْلُوبُ، ويقول: إِنَّكَ لَا تَسْتَحِقُّ عَلَيَّ شَيْئًا! وَيَكُونُ الطَّالِبُ لَيْسَ عِنْدَهُ بَيِّنَةٌ، ففِي هَذِهِ الْحَالِ سَوْفَ يَحْكُمُ الْقَاضِي بِبَرَاءَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ إِذَا حَلَفَ؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»^(١).

ومثال الثاني - وهو ادِّعَاءُ ما ليس من حَقِّهِ - أَنْ يَدَّعِيَ شَخْصٌ عَلَى آخَرٍ أَنْ فِي ذِمَّتِهِ لَهُ مِئَةٌ دِرْهَمٍ، وَيَأْتِي بَيِّنَةٌ زُورٍ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، فَيَحْكُمُ الْقَاضِي عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ بِالْبَاطِلِ؛ بِنَاءً عَلَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ الْبَاطِلَةِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَاضِيَ سَيَحْكُمُ بِمَا يَظْهَرُ؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ»^(٢).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٥٢/١٠)، واللفظ له، وأصله في صحيح البخاري: كتاب الرهن، باب إذا اختلف الراهن والمرتهن، رقم (٢٥١٤)، وصحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخریجه (ص: ٧٦).

وقوله تعالى: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ بيان طريق ما يأكل الإنسان به الباطل، أن يُدلي بالأمر إلى الحكام، فيأتي بدعوى باطلة، ويُؤيدها بشهادة زور، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ يحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: تفعلون ذلك لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم، ويحتمل أن تكون للعاقبة، أي: أن أكلكم المال بالباطل يؤدي إلى هذه العاقبة الوخيمة، وهي أكل فريق من أموال الناس بالإثم.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا حق لكم في ذلك، وأن أكلكم المال بهذه الطريق أكل بالباطل.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١- حماية الأموال، وأن الله سبحانه وتعالى قد حمى أموال الناس أن يعتدي بعضهم على بعض فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

٢- أن الحاكم إذا حكم بما لا يستحقه المحكوم له، فإن ذلك لا يُنجزه عند الله؛ لقوله: ﴿لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

٣- الإشارة إلى أن الحاكم إذا أخطأ، وحكم بالباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لأنه ليس له إلا الظاهر، ويُؤيد هذا قول النبي ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ»^(١).

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم:

٤- أَنْ مَنْ أَكَلَ مَالَ غَيْرِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ أَكَلَهُ بِحَقٍّ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ أَكَلَهُ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ولكن متى عَلِمَ أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ وَجَبَ عَلَيْهِ رَدُّ الْحَقِّ إِلَى صَاحِبِهِ، أَوْ اسْتِحْلَالُهُ مِنْهُ.

مثال ذلك: رجلٌ ادَّعى على شخص بمئة ريالٍ، فقال المدَّعى عليه: إني قد قَضَيْتُهَا! ومن المعلوم أنَّ دَعْوَاهُ الْقَضَاءَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ إِلَّا بَيِّنَةٍ، ولكن إذا لم يكن له بَيِّنَةٌ فَإِنَّهُ سَوْفَ يُقْضَى عَلَيْهِ بِدَفْعِهَا إِلَى صَاحِبِهَا، وَيُلْزَمُ بِذَلِكَ، فإذا قُدِّرَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ قَدْ قَضَاهُ، وَلَكِنَّ الطَّالِبَ نَسِيَ، فَلَا إِثْمَ عَلَى الطَّالِبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، لكن متى ذَكَرَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ قَدْ أَوْفَى وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَ مِنْهُ.

٥- أَنَّهُ قَدْ يُؤْخَذُ مِنْهَا: أَنْ أَكَلَ مَالَ الْمَعَاهِدِ وَالْمُسْتَأْمِنِ وَالذَّمِّيِّ بِالْبَاطِلِ مُحَرَّمٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾، وهذا قد جاءت به السُّنَّةُ، بل قد جاء به القرآن، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنُهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩)

الخطابُ في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ لرسولِ الله ﷺ، والسائلُ هُمُ الصَّحَابَةُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، سألوا النبي ﷺ: لِمَ يَبْدُو الْقَمَرُ هِلَالًا أَوَّلَ الشَّهْرِ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَزَايَدُ
حَتَّى يُبْدِرَ؟ فَأَجِيبُوا بِهَذَا الْجَوَابِ.

وقيل: إِنَّ الصَّحَابَةَ سَأَلُوا عَنِ الْأَهْلِ، يعني: مَا الْحِكْمَةُ مِنْهَا؟ لَا عَنْ كَوْنِهَا
تَبْدُو هِلَالًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ثُمَّ تَبْدِرُ فِي مُتَنَصِفِ الشَّهْرِ^(١).

فأجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، حَيْثُ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿هِيَ
مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، فهذه الْحِكْمَةُ مِنَ الْأَهْلِ، أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ بَيَانًا لِلْوَقْتِ فِي
مُعَامَلَاتِهِمْ، وَفِي عِبَادَاتِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، فَعُمُومُ قَوْلِهِ:
﴿لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: جَمِيعَ مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَى الشُّهُورِ،
وكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْحَجِّ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْحَجَّ أَيْضًا مُقَيَّدٌ بِالشُّهُورِ الَّتِي بِالْأَهْلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ
اتَّقَى﴾، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَدِمَ مِنْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ مِنْ
بَابِ الْبَيْتِ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ مُتَسَلِّقًا الْجِدَارَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ، وَأَنَّ
الْبِرَّ هُوَ التَّقْوَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾، وَالتَّقْوَى: أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣/ ٢٨٠).

وَقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بِفَعْلٍ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

وَأَمَّا دُخُولُ الْبُيُوتِ فَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِالتَّقْوَى، وَبَيَّنَّ عَاقِبَتَهَا الْحَمِيدَةَ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١- حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ حِكْمِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي مَخْلُوقَاتِهِ وَمَشْرُوعَاتِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا السُّؤَالَ لَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورٍ شَرْعِيَّةٍ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورٍ كُوْنِيَّةٍ.

٢- أَنَّ الْمَوَاقِيتَ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ هِيَ الْأَهْلَةُ، وَبَنَاءً عَلَى ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْمَوَاقِيتَ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ -وَالْمَقْرُونَةُ بِأَشْهُرٍ وَهْمِيَّةٍ، لَيْسَ لَهَا عِلَامَاتٌ أُفْقِيَّةٌ- لَيْسَتْ هِيَ التَّوْقِيتُ الَّذِي وَضَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعِلَامَاتِ الْحِسِّيَّةَ الظَّاهِرَةَ.

وعلى هذا فَالتَّوْقِيتُ بِالْأَشْهُرِ الْهَلَالِيَّةِ هُوَ التَّوْقِيتُ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وَالشُّهُورُ الْاثْنَا عَشَرَ: هِيَ الشُّهُورُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ الَّتِي أَوَّلُهَا الْمُحَرَّمُ، وَآخِرُهَا ذُو الْحِجَّةِ.

وَإِنَّمَا لَزِمْنَا أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ أَشْهُرٌ حُرُمٌ إِلَّا فِي الشُّهُورِ الْعَرَبِيَّةِ الْهَلَالِيَّةِ، وَأَمَّا الشُّهُورُ الْإِفْرَنْجِيَّةُ أَوْ الشَّمْسِيَّةُ أَوْ غَيْرُهَا فَلَيْسَ فِيهَا أَشْهُرٌ حُرُمٌ بَلَا خِلَافٍ.

٣- أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُقَيَّدَةَ بِالشَّهْرِ تُعْتَبَرُ بِالْهِلَالِ، وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَسَائِلُ شَرْعِيَّةٍ وَمَسَائِلُ عَادِيَّةٍ.

فَأَمَّا الْمَسَائِلُ الشَّرْعِيَّةُ فَالصَّوْمُ، حَيْثُ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَبِمَاذَا نَعْرِفُ وَقْتَ دُخُولِهِ؟

الجوابُ على هذا: أَنَّنَا نَعْرِفُهُ بِالْهِلَالِ؛ لَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي عِيدِ الْفِطْرِ: إِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِالْهِلَالِ، وَلَكِنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَّتْ أَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِالْهِلَالِ، أَوْ بِإِكْمَالِ الشَّهْرِ الْمَاضِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْعِدَّةُ الْمُقَدَّرَةُ بِالْأَشْهُرِ، كَعِدَّةِ الْمُتَوَقِّ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ غَيْرُ حَامِلٍ؛ فَإِنَّ عِدَّتَهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، فَيُعْتَبَرُ ذَلِكَ بِالْأَشْهُرِ الْهِلَالِيَّةِ.

وَعِدَّةُ الْآيِسَةِ الْمُطَلَّقةِ، وَعِدَّةُ الْمُطَلَّقةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا تَحِيضُ، مُعْتَبَرَةٌ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَالْمُعْتَبَرُ بِهَذِهِ الْأَشْهُرِ: الْهِلَالُ.

وَمِنْهَا: الصَّيَّامُ فِي الْكُفَّارَةِ (كُفَّارَةُ الْقَتْلِ، وَكُفَّارَةُ الظَّهَارِ، وَكُفَّارَةُ الْجِمَاعِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ) حَيْثُ إِنَّ فِيهَا صِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، فَيُعْتَبَرَانِ بِالْأَشْهُرِ الْهِلَالِيَّةِ.

فَمَثَلًا: إِذَا ابْتَدَأَ الْإِنْسَانُ فِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ فِي صِيَامِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، فَإِنَّهُ يَنْتَهِي صِيَامَ الشَّهْرَيْنِ فِي الْيَوْمِ الْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّالِثِ، فَإِذَا قَدَّرْنَا أَنَّهُ ابْتَدَأَ صِيَامَ الشَّهْرَيْنِ فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمٍ، فَإِنَّهُ يَنْتَهِي فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ، وَعَلَى هَذَا فَقَسْ.

٤- إِبْطَالُ الْعَادَاتِ -وإن كانت مُتَقَرَّرَةً فِي النَّفْسِ- إِذَا كَانَتْ مُحَالِفَةً لِلشَّرْعِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا آبَائَكُمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، فَأَبْطَلَ هَذِهِ الْعَادَةَ.

٥ - أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِيَ الْأَشْيَاءَ مِنْ طُرُقِهَا وَأَبْوَابِهَا الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، وهذا كما يدخل فيه البيوت الحسية، يدخل فيه الأمور المعنوية، فينبغي للإنسان أَنْ يَأْتِيَ الْأُمُورَ مِنْ أَبْوَابِهَا، كَمَسَائِلِ الْعِلْمِ، يَأْتِي الْعِلْمَ مِنْ بَابِهِ، مِنْ أَوَّلِهِ، يَتَعَلَّمُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وكذلك مَسَائِلُ الْمُحَادَثَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، يَتَحَدَّثُ إِلَى النَّاسِ بِأَقْرَبِ الطُّرُقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْمَقْصُودِ.

وكذلك الرَّفْعُ إِلَى وُلاَةِ الْأُمُورِ، يَرْفَعُ إِلَى الْجِهَةِ الْمُبَاشِرَةِ لَهُ، ثُمَّ هِيَ تَرْفَعُ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي فَوْقَهَا، ثُمَّ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي فَوْقَهَا، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى رَأْسِ الدَّوْلَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ إِتْيَانِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا.

وهكذا جميعُ الْأُمُورِ، يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِيَهَا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ حَتَّى يَسْهُلَ عَلَيْهِ الْوُلُوجُ وَالْوُصُولُ إِلَى الْمَقْصُودِ.

٦ - أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَا عَلَى الصُّورِ وَالْهَيْئَاتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾.

٧ - بَيَانُ مَا كَثُرَ وَشَاعَ مِنْ أَنَّ الْكَلِمَتَيْنِ إِذَا أُفْرِدَتْ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى صَارَتَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَإِذَا جُمِعَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى صَارَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مَعْنَى، فَهَذَا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْبِرَّ هُوَ التَّقْوَى، لَكِنَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى قَالَ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، فَجَعَلَ التَّقْوَى غَيْرَ الْبِرِّ.

وعلى هذا فَإِذَا قُرِنَ الْبِرُّ بِالتَّقْوَى صَارَ الْبِرُّ فِعْلَ الْحَيَاتِ، وَالتَّقْوَى اجْتِنَابَ الْمَحْرَمَاتِ، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا مُنْفَرِدًا عَنِ الْآخَرِ شَمِلَ الْآخَرَ.

٨- وَجوبُ تَقْوَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَالتَّقْوَى هِيَ أَسَاسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَهِيَ الَّتِي أَوْصَى بِهَا اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وَلَهَا آثَارٌ حَمِيدَةٌ، ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّنَّةِ، فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبَعَ هَذِهِ الْآثَارَ الْحَمِيدَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَزَايَا هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ، وَهُوَ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١).

٩- أَنَّ الْأَحْكَامَ مُعَلَّلَةً بِالْعِلَلِ الْمُنَاسِبَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٠- إِبْثَاتُ الْأَسْبَابِ، وَرَبْطُ الْمُسَبِّبَاتِ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِأَنَّ الْأَسْبَابَ فَاعِلَةٌ بِنَفْسِهَا، فَغَلَا فِي إِثْبَاتِهَا، وَخِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي الْفِعْلِ. فَنفَى مَا فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْمُسَبِّبَاتِ مُرْتَبِطَةٌ بِأَسْبَابِهَا.

وَجْهُهُ مِنَ الْآيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فَحَكَمَ وَعَلَّلَ، الْحُكْمُ: هُوَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى، وَالتَّعْلِيلُ: أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَلَاحِ.



(١) لِلشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ فِي فَوَائِدِ التَّقْوَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِنْ إِصْدَارَاتِ مَوْسَسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ، بِرَقْمِ (٨٧).

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩)

في هذه الآية أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده أن يُقاتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ يُقاتِلُهُمْ، وأَلَّا يَعْتَدُوا على أَحَدٍ بِفِعْلٍ مَا لَا يَحِلُّ مِنْ تَمْثِيلٍ، أَوْ تَنْكِيلٍ، أَوْ غَدْرِ بِعَهْدٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١ - الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
والمقاتِلُ في سَبِيلِ اللَّهِ هو: الَّذِي يُقاتِلُ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العليا، لا يُقاتِلُ رِيَاءً، وَلَا شَجَاعَةً، وَلَا حِمِيَّةً، وَلَا مِنْ أَجْلِ غَنِيمَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا.
وقد سُئِلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقاتِلُ حِمِيَّةً، وَيُقاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

٢ - أَنَّهُ يَنْبَغِي ذِكْرُ مَا يُعِينُ الْمَرْءَ عَلَى الْفِعْلِ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ فِيهَا إِغْرَاءٌ لِقِتَالِهِمْ، يَعْنِي: كَمَا كَانُوا يُقاتِلُونَكُمْ فَلَا تَتْرُكُوهُمْ، بَلْ قَاتِلُوهُمْ.

٣ - أَنَّ مَنْ لَمْ يُقاتِلْنَا فَإِنَّا لَا نُقاتِلُهُ، وَلَكِنَّ الْمَفْهُومَ -كَمَا يَقُولُونَ- لَا عُمُومَ لَهُ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم: كتاب الإمامة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذْ يَصْدُقُ بَصُورَةٌ وَاحِدَةٌ، وَعَلَى هَذَا فَيُحْمَلُ هَذَا الْمَقْهُومُ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نُقَاتِلَهُمْ مَا اسْتَقَامُوا لَنَا.

وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّ الْمُعَاهِدِينَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

■ قِسْمٌ اسْتَقَامُوا لَنَا، وَبَقُوا عَلَى عَهْدِهِمْ، وَلَمْ نَخَفْ مِنْهُمْ خِيَانَةً، فَهَؤُلَاءِ يَجِبُ إِمَامُ الْعَهْدِ لَهُمْ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَغِيْمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

■ وَقِسْمٌ نَكَثَ عَهْدَهُ، وَغَدَرَ، وَخَانَ، وَهَذَا يَجِبُ أَنْ يُقَاتَلَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَنْ تَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٣-١٥].

■ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مَن بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ: مَن لَمْ يَسْتَغِيْمُوا لَنَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، بَلْ ظَاهِرٌ حَالِهِمُ الْاسْتِقَامَةُ، وَلَكِنَّا نَخَافُ مِنْ غَدَرِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ يُبَدَأُ إِلَيْهِمُ الْعَهْدُ، وَيُصَارُ حَوْنُ بَأْنِهِ لَا عَهْدَ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ.

٤- تَحْرِيمُ الْعُدْوَانِ حَتَّى عَلَى الْكُفَّارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَى كَافِرٍ -مُعَاهِدٍ أَوْ غَيْرِ مُعَاهِدٍ- فَقَدْ وَقَعَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنْ أَنْ تُمَثَّلَ بَمَنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: «وَلَا تُمَثِّلُوا»^(١)، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ الصَّغَارِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم (١٧٣١) من حديث

فقال: «وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»^(١)؛ لأنَّ ذلك من العُدوانِ؛ إذ إنَّ التَّمثِيلَ لا ضَرُورَةَ إليه، وَقَتْلَ الْوُلْدَانِ الصَّغَارِ وَالنِّسَاءِ وَمَنْ لَا يُقَاتِلُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ.

٥- إثباتُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وَوَجْهُ ذلك: أَنَّهُ لو لم يكن له مَحَبَّةٌ لم يكن لهذا النَّفْيِ فَائِدَةٌ؛ فَإِنَّ نَفْيَ مَحَبَّتِهِ لِلْمُعْتَدِينَ يَدُلُّ على إِثْبَاتِ مَحَبَّتِهِ لِلْمُقْسِطِينَ، وقد جاء ذلك مُصَرَّحًا به في كتابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(٢).

وَالْمَحَبَّةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، تَقْتَضِي الْإِثَابَةَ، وَالْإِنْعَامَ، وَالْإِحْسَانَ، وليست هي الإِثَابَةُ، كما فسَّرَها بها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ الإِثَابَةَ فَرَعٌ عَنِ الْمَحَبَّةِ.

٦- تحريمُ الاعتِدَاءِ، وذلك من وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: النَّهْيُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعَدُّوا﴾.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُنَبِّلُوهُمْ

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَنَ لَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(١١١)

في هذه الآية أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَقْتُلَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْنَاهُمْ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ أَي: وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يعني: أَخْرَجُوهُمْ

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق.

(٢) سورة المائدة آية (٤٢).

من ديارهم، كما أخرجوكم من دياركم.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يعني: الصّد عن سبيل الله الذي يقوم به هؤلاء المقاتلون من الكفار أشد من قتلهم إياهم، فأنتم إذا قتلتم قتلاً فإمّا أن يكون مأذوناً فيه أو لا، فإن كان مأذوناً فيه فلا لوم فيه، وإن كان غير مأذون فيه فإن الفتنه أشد منه؛ لما يترتب على الفتنه من سوء العاقبة، وشمول المضرّة.

ثم نهي الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله عند المسجد الحرام، والمسجد الحرام هو مسجد مكة، والمراد به هنا: مسجد الكعبة.

والعنديّة تقتضي ألا نقاتلهم في حمى هذا المسجد، وهو ما دخل في حدود الحرم.

وقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ «حتى» للغاية، أي: لا تقاتلوهم إلى أن يقاتلوكم فيه، أي: فيما عند المسجد الحرام.

﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ﴾ عند المسجد الحرام ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾، وتأمل الفرق بين التعبيرين، حيث قال في الأولى: ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ﴾، وفي الثانية لم يقل: فقاتلوهم. بل قال: ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾، وهو أشد وقعاً من المقاتلة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ جَاءَ الْكُفْرِينَ﴾ أي: مثل هذه المجازاة يجزى الكافرون.

ففي هذه الآية من الفوائد ما يلي:

١- وجوب قتل الكفار أين وجدناهم، وهذا له أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، إلا إذا كان بيننا وبينهم عهدٌ بدمّة، أو أمان، أو معاهدة، فإنه إن كان بيننا وبينهم

ذلك وَجَبَ الْوَفَاءُ لَهُمْ بِمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ دِينَ الْعَدْلِ، وَلَيْسَ دِينَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ.

٢- ذِكْرُ مَا يَكُونُ بِهِ الْحُثُّ عَلَى التَّزَامِ الْحُكْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَخْرِجُوهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوكُمْ. وَهَذَا - لَا شَكَّ - يُغْيِي الْمَرْءَ بِالْحُكْمِ، وَيَسْتَوْجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.

٣- أَنَّ صَدَّ النَّاسِ عَنِ دِينِهِمْ أَشَدُّ مِنْ قَتْلِهِمْ، وَوَجْهُهُ: أَنَّ صَدَّ النَّاسِ عَنِ الدِّينِ هَلَاكٌ يَكُونُ بِهِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْقَتْلُ فَهُوَ هَلَاكٌ يَكُونُ بِهِ خُسْرَانُ الدُّنْيَا فَقَطْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

٤- أَنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وَيُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ: مَا إِذَا كَانَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ، فَإِنْ كَانَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ حَرَامًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ﴾.

وَيُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ: مَا وَقَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - عَامَ غَزْوَةِ الْفَتْحِ، لَكِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ، حِينَ تَحَدَّثَ يَوْمَ الْفَتْحِ عَنْ عَظَمَةِ مَكَّةَ وَحُرْمَتِهَا، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِيهَا، وَقَالَ: «إِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي»^(١)،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم (١٣٤٩)، وفي كتاب العلم، باب ليلعلم العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، وفي كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، رقم (٢٤٣٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم (١٣٥٣) (١٣٥٤) (١٣٥٥) من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقال: «وَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ»^(١)، وهذا نصٌّ على أنَّ هذا من خصائصِ الرِّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، لكن إن كان القتالُ دِفاعاً فإنه جائزٌ.

٥- أنه إذا جاز قتلُ الدِّفاعِ جازَ قَصْدُ قَتْلِ مَنْ فِي الْحَرَمِ مِمَّنْ هَاجَمَ؛ لقوله: ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾، وهذا أبلغُ ممَّا لو قال: «إِنْ قَاتَلْتُمْ فَقَاتِلُوهُمْ»، وهي قِراءةٌ مشهورةٌ^(٢)، لكنَّ هذه القِراءةَ -أي: ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾- أبلغُ.

٦- بيانُ ما يُجَازَى به الكافرونَ من النِّكَالِ والعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

• • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٣)

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ أي: عن مُقاتَلَتِكُمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فَاغْفِرُوا لَهُمْ، وَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِمَا جَرَى مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ انْتِهَاءَهُمْ عَنْ ذَلِكَ -أي: عن مُقاتَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ- لَكُونِهِمْ أَسْلَمُوا، سَبَبٌ لَغُفْرَانِ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ؛ لقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

• • •

(١) تقدم تخريجه في الموضوع السابق من حديث أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: جامع البيان في القراءات السبع، للداني (٢/ ٩٠٩-٩١٠).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

الظَّالِمِينَ ﴿١١٣﴾﴾

الخطابُ هنا: للمؤمنين عموماً، والضَّميرُ (الهَاءُ) في قوله: ﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ يعني:

الكُفَّارَ.

و«حَتَّى» هنا للغاية، ويحتملُ أن تَكُونَ للتَّعْلِيلِ، فإن كانت للغاية فالمعنى: قَاتِلُوهُمْ إِلَى إِلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ. وإن كانت للتَّعْلِيلِ فالمعنى: قَاتِلُوهُمْ لئَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ. والغايةُ واحدةٌ، سواء قُلتنا بهذا أو بهذا.

وقوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لَا يَكُونَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، بحيث يَنْكَفُ شَرُّهُمْ ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ يعني: وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ، أي: يَكُونَ الدِّينُ الظَّاهِرُ هو دِينَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فلا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ يَتَسَاوَيَانِ: دِينٌ بَاطِلٌ، وَدِينٌ حَقٌّ، بل الواجبُ أن يَكُونَ الظَّاهِرُ العَالِي هو دِينَ الْحَقِّ.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ أي: إِنْ أَنْهَوْا وَكَفُّوا عَنْ مُقَاتَلَتِكُمْ وَالْعُدْوَانِ عَلَيْكُمْ ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: فَإِنَّمَا أَذْنَا لَكُمْ فِي مُقَاتَلَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ، فَإِذَا انْكَفَّوْا وَكَفُّوا شَرَّهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ مَا دَامَ الدِّينُ الظَّاهِرُ هو دِينَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١ - وَجوبُ قتالِ المُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الكُفَّارِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ وَالكُفَّارِ يَصُدُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ ضَرْراً كَبِيراً.

- ٢- الإشارةُ إلى أَنَّ الحَامِلَ على قِتَالِنَا للكُفَّارِ هو أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً، بَأَن يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ، فَلَا يَظْهَرُ فِي أَرْضِ اللَّهِ مِنْ شَرَائِعِ النَّاسِ إِلَّا شَرِيعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.
- ٣- أَنَّ الظَّالِمَ هو الْمُعْتَدِي، وهو المُسْتَحِقُّ أَنْ يُرَدَّ عُدْوَانُهُ.
- ٤- أَنَّ الظَّالِمَ أَهْلٌ لَأَن يُرَدَّ وَيُمْنَعَ مِنْ ظُلْمِهِ، سواء كان ظُلْمُهُ فِي الْأَمْوَالِ، أو فِي الدِّمَاءِ، أو فِي الْأَعْرَاضِ.



ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنَ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١١٤)

قَوْلُهُ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ يَعْنِي: الشَّهْرَ الْمُحَرَّمَ الَّذِي لَهُ حُرْمَةٌ وَمَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِهِ، وَالْأَشْهُرُ الْحُرُمُ أَرْبَعَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ.

و(الباءُ) فِي قَوْلِهِ: ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ لِلبَدَلِ، يَعْنِي: أَنَّ قِتَالَهُمْ إِيَّاكُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، أَوْ قِتَالَكُمْ إِيَّاهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، بَدَلٌ عَنْ قِتَالِ الْآخَرِ.

أَوْ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الْعُمْرَةَ الَّتِي فَاتَتْكُمْ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ - وَهُوَ ذُو الْقَعْدَةِ - سَوْفَ تَقْضُونَهَا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَلَيُّ بِالسِّيَاقِ.

وقوله: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي: مُقَاصَّةٌ، فَمِنْ انْتَهَكَ حُرْمَتَكَ فَانْتَهَكَ حُرْمَتَهُ، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سَمَّى الْمُجَازَاةَ: عُدْوَانًا؛ لِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَيْهَا هُوَ الْعُدْوَانُ، أَوْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ دُونَ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَانِيَ أَوَّلًا هُوَ الْمُعْتَدِي حَقِيقَةً، وَأَمَّا مَنْ اقْتَصَصَ لِحَقِّهِ فَلَيْسَ بِمُعْتَدٍ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّقْوَى، وَرَغَّبَ فِيهَا، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: مَعَهُم بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْمُعُونَةِ، وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِي الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مَا يَلِي:

١- وَجُوبُ الْعَدْلِ حَتَّى مَعَ الْكُفَّارِ وَالْأَعْدَاءِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]، أي: لَا يَحْمِلُكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، بَلْ اْعْدِلُوا، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

وَلَمَّا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ؛ لِيُخْرِصَ عَلَى الْيَهُودِ ثَمَرَ خَيْبَرَ، وَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، قَالَ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّكُمْ لَا بُغْضَ إِلَيَّ مِنْ أَمْثَالِكُمْ مِنَ الْقِرْدَةِ وَالْحَنَازِيرِ، وَإِنَّ حُبِّي إِيَّاهُ وَبُغْضِي إِيَّاكُمْ لَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَقُومَ بِالْعَدْلِ. فَقَالُوا لَهُ: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ^(١).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٣٧/٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد أخرجه مالك في (الموطأ): كتاب المساقاة، برقم (٢٠٥٠) مرسلًا.

وَوَجْهٌ ذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

٢- إثباتُ أَنَّ بَعْضَ الشُّهُورِ شَهْرٌ حَرَامٌ، وَبَعْضُهَا لَيْسَ كَذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، وَالْأَشْهُرُ الْحُرُمُ تَخْتَصُّ بِخَصَائِصٍ، مِنْهَا:

■ أَنَّ الذُّنُوبَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا.

■ أَنَّهُ يَحْرُمُ فِيهَا ابْتِدَاءُ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: بَلْ إِنَّ ابْتِدَاءَ الْقِتَالِ فِيهَا نُسْخٌ تَحْرِيمُهُ، وَإِنَّ ابْتِدَاءَ قِتَالِ الْكُفَّارِ فِيهَا جَائِزٌ، كَمَا فِي غَيْرِهَا.

ولكنَّ الرَّاجِحَ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ -أعني: الْإِبْتِدَاءُ- إِلَّا أَنْ يَبْدَأَنَا الْكُفَّارُ، أَوْ يَكُونَ الْقِتَالُ إِمَامًا لِقِتَالٍ سَابِقٍ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

٣- إثباتُ الْقِصَاصِ فِي غَيْرِ النَّفْسِ وَالْأَطْرَافِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ﴾.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ الْقِصَاصَ فِي النَّفْسِ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١)، لَكِنْ لَذَلِكَ شُرُوطٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يُباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْقِصَاصُ فِي الْأَطْرَافِ وَالْأَجْزَاءِ فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ أَيْضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ»^(١)، فَتَوَخَّذُوا الْيَدَ بِالْيَدِ، وَالرَّجْلَ بِالرَّجْلِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ، حَسْبَهَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

٤ - أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ الْعَدْلِ، وَلَيْسَ دِينَ الْجَوْرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

٥ - تَحْرِيمُ الزِّيَادَةِ عَلَى عُدْوَانِ الْغَيْرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بعد أن قَالَ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

٦ - الْغَايَةُ الْحَمِيدَةُ الَّتِي يَصُبُّو إِلَيْهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَالَّتِي تَحْصُلُ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ مَعِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وهذه مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، لَيْسَتْ كَالْمَعِيَّةِ الْعَامَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]؛ فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ الْعَامَّةَ مَعِيَّةُ الْإِحَاطَةِ بِالْخَلْقِ عِلْمًا، وَسَمْعًا، وَبَصَرًا، وَسُلْطَانًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ مَعِيَّةُ النَّصْرِ وَالتَّيْيِيدِ، وَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِلْمُتَّقِينَ، وَلِلْمُقْسِطِينَ، وَلِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأُمَثِلْتُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةً.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاحِ، بَابُ الصَّلَاحِ فِي الدِّيَةِ، رَقْمُ (٢٧٠٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واعلم أنَّ ما ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ مَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ فَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
مَعَ عِبَادِهِ، وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
[الحديد: ٤]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ هُوَ أَعْلَى
الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَعْنَى اسْتَوَاهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ: أَنَّهُ عَلَا عَلَيْهِ، وَهَذَا عُلوٌّ خَاصٌّ غَيْرُ
الْعُلُوِّ الشَّامِلِ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ.

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يَعْنِي: فِي أَيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ فَاللهُ مَعَكُمْ، لَكِنْ لَيْسَ الْمَعْنَى:
أَنَّهُ مَعَنَا بِذَاتِهِ فِي الْأَرْضِ، بَلْ هُوَ جَلَّ وَعَلَا مَعَنَا وَهُوَ فِي السَّمَاءِ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ،
فَهَا هِيَ الْعَرَبُ تَقُولُ: «مَا زِلْنَا نَسِيرُ، وَالْقَمَرُ مَعَنَا»، وَيَعُدُّونَ ذَلِكَ كَلَامًا حَقِيقِيًّا،
مَعَ أَنَّ الْقَمَرَ مَوْضِعُهُ فِي السَّمَاءِ.

٧- أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا فَعَلَ أَسْبَابَ النَّصْرِ -مِنَ التَّقْوَى وَغَيْرِهَا- أَنْ يَثِقَ
بَوَعْدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ اللهَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَثِقْ بِوَعْدِ اللهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِوَعْدِهِ؛ إِذْ إِنَّهُ
يَفْعَلُ وَهُوَ فِي شَكٍّ مِمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى أَوْ تَرَدَّدٍ، وَحِينَئِذٍ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا، بَلْ قَدْ يُؤَدِّي
ذَلِكَ إِلَى كُفْرِهِ إِذَا شَكَّ فِي مَدْلُولِ خَبَرِ اللهِ تَعَالَى.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنا جَمِيعًا مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ؛ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تبارك وتعالى بالإنفاق في سبيل الله، وهو بذل المال في أمرٍ يُقَرَّبُ إلى الله عزَّ وجلَّ من جهادٍ وغيره، وينهى جَلَّ وَعَلَا أن نُلْقِيَ بأيدينا إلى التَّهْلُكَةِ، أي: أن نَأْتِيَ ما فيه هلاكنا، سواء كان هذا الهلاك هلاكًا حَسِيًّا كقتل النفس، أو مَعْنَوِيًّا كالتَّأَخُّرِ عن الخير، وترك الإنفاق في سبيل الله.

ويأمر الله تبارك وتعالى فيها بالإحسان، ويُبيِّن ثمرته وغايته، بأن الله تعالى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي:

١ - الأمر بإنفاق المال فيما يُقَرَّبُ إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وربما يَشْمَلُ ذلك إنفاق النفس، بإتباع البدن فيما يُرضي الله تبارك وتعالى، فيكون فيها إشارة إلى الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس.

٢ - الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقول الله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ الشَّيْءَ لا يكون سَبِيلًا إلى الله إِلَّا حيثُ كان على شَرْعِهِ، والعمل بشَرع الله تعالى لا يكون مَقْبُولًا، إِلَّا إذا توافَق فيه الإخلاص، والمتابعة لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -.

٣ - نَهْيُ المرء أن يُلقِيَ بنفسه إلى التَّهْلُكَةِ، أي: إلى ما يُهْلِكُهُ، من الإحجام عن بذل ما يُطَلَبُ بذله، أو الإقدام على ما لا يَنْبَغِي الإقدام عليه.

٤ - أَنْ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا؛ حَيْثُ مَهَانَا أَنْ نُلقِيَ بِأَنْفُسِنَا إِلَى التَّهْلُكَةِ، إِذَنْ، فَهُوَ أَشَدُّ حِرْصًا مِنَّا عَلَى أَنْفُسِنَا، وَهَذَا مَعْلُومٌ مِنْ آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا: هَذِهِ الْآيَةُ، وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وَهُوَ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ آبَائِنَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ امْرَأَةً تَبْتَغِي وَلَدَهَا فِي السَّبْيِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ أَخَذَتْهُ، وَضَمَّتْهُ عَلَى صَدْرِهَا، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَتَنْظُنُونَ أَنَّ هَذِهِ تُلقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «لَلَّهِ أَشَدُّ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» هَذَا الْحَدِيثُ أَوْ مَعْنَاهُ^(١).

٥ - الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِحْسِنُوا﴾، وَفِيهِ تَفْصِيلٌ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ يَجِبُ الْإِحْسَانُ فِيهِ فَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ الْإِحْسَانُ فِيهِ كَمَالٌ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ فَهُوَ لِلْإِسْتِحْبَابِ.

وَالْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: مَا بَيَّنَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فِي قَوْلِهِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

وَالْإِحْسَانُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ: كَفُّ الْأَذَى، وَبَذْلُ النَّدَى، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَسُهُولَةُ الْقَوْلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، رقم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، رقم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- إثباتُ محبةِ اللهِ تعالى للمُحْسِنِينَ، ومن المعلوم أنَّ كُلَّ واحدٍ يَسْعَى إلى الوصولِ إلى محبةِ اللهِ، والإحسانُ طَرِيقٌ من طُرُقِهَا.

٧- حُسْنُ تَعْلِيمِ القرآنِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَذْكُرُ الْأَحْكَامَ، ثُمَّ يَذْكُرُ عِلَلَهَا وَغَايَتَهَا، وهذا مِمَّا يُحِثُّ النَّفْسَ على قَبُولِ الْحُكْمِ وَامْتِثَالِهِ.

نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَإِنِّي -بهذه المناسبة- أودُّ أَنْ أُنبِّهَ إلى ما يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ في بهائمِهِ وَمَوَاشِيهِ مِنَ الإِسَاءَةِ إِلَيْهَا، إمَّا بِالْجُوعِ، أو بِالظَّمْأِ، أو بِالْبَرْدِ، أو بِالْحَرِّ، أو بِالْعُنْفِ في الْحَلْبِ وَغَيْرِهِ، مع أَنَّ هَذِهِ الْبَهَائِمَ لَنَا فِيهَا أَجْرٌ؛ كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَى أَجْرٌ»^(١)، وأخْبَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ امْرَأَةً عَذِّبَتْ في نارِ جَهَنَّمَ بِهَرَّةٍ حَبَسَتْهَا، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا حِينَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ^(٢)، فَالَّذِي يَحِبُّ على الْإِنْسَانِ أَنْ يُحْسِنَ إلى ما أَمَرَ اللهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ على وَجْهِ الْوُجُوبِ.



(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في الأدب، باب فضل صدقة الماء، رقم (٣٦٨٦) من حديث سراقه ابن جعشم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ له.

كما أخرجه بنحوه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٣)، ومسلم: كتاب الألفاظ، باب فضل سقي البهائم، رقم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٥)، وفي كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، رقم (٣٣١٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢) (٢٢٤٣) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٤) من حديث أسماء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وأخرجه مسلم: كتاب صلاة الكسوف، باب ما عُرِضَ على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٤) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث

الصفحة

- أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ، فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلَا هَلِكَ ١٨٥
- أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ ٣٥٦
- أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ ٥٧٩
- أَتَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ تُلْقَى وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ ٦١٥
- أَتَوْضَأُ مِنْ لَحُومِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: نَعَمْ ٥٤٠
- أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ٥٣٨
- إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ٥٦٢
- إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ٥٩٥
- إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا ٣٦٧
- ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ٦٤، ٥٣
- إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ٥٠
- أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ١٩٤
- اكَتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٢٦٠
- أَكُلْ تَمْرَ خَيْرَ هَكَذَا؟ ٢٢٤
- أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ٣٧٧ / ٣٧٥، ٧٩
- أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ؟ ٤٢٩
- أَمَرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ ٤٠٣

- ١٣٦ إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا
 ٥٦٢، ٥٠٨، ٥٠ إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ
 ١٥٥ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ
 ٤٥٧ أَنَّ الصَّيَامَ أَوَّلُ مَا فُرِضَ كَانَ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْإِطْعَامِ وَالصَّيَامِ
 ٤٩٧ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا
 ٥٦٧ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ
 ١٢٨ إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّ هُمَا
 ٥٦٦ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ
 ٤١ إِنَّ امْرَأَةً بَعِثْنَا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبَيْتٍ
 ٦١٥ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ
 ٢٨١ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 ٣٣٦ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى إِلَيْهِ بَتَمْرٍ جَيِّدٍ
 ٣٩٩ إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ
 ٢٧٥ إِنَّ مَوْضِعَ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
 ٣٦٠، ٢٨١، ٢٣٠ أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ
 ٢٥ أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ
 ٤١٦ أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي
 ٢٢١ أَنْتَ مِنْهُمْ
 ٥٩٤، ٩٠، ٧٦ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ
 ٦٠٦ إِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي

- ٣٦٠ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى
- ٥٠٨ إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ
- ٥٤ إِنَّمَا كَانَ يَخْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيدِكَ هَكَذَا
- ٥٩٠ أَنَّهُ كَانَ يُضْبِحُ صَائِمًا وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ جَمَاعِ أَهْلِهِ
- ٥٣٨ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
- ٢٩٥ إِنَّمَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ
- ٤٩٣ إِنَّمَا لِيُعَذِّبَانِ، وَمَا يُعَذِّبَانِ فِي كَبِيرٍ
- ٢٩١ أَوَّلُ مَا يُفْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الدَّمَاءُ
- ٥٧٦ أُولَئِكَ الْعَصَاةُ، أُولَئِكَ الْعَصَاةُ
- ٢٩٠ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟
- ٨٢ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ
- ٨٢، ٧٥ آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ
- ٣٦٥ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
- ٣٥٢ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِئَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مِئَةٍ وَالرَّجْمُ
- ٥٩٤ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ
- ٥٨٠ تَرَأَى النَّاسُ الْهِلَالَ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي رَأَيْتُهُ، فَصَامَهُ
- ٥٤٠ تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ
- ٣٩٩ ثُمَّ ازْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا
- ٥٢٣ ثُمَّ الْكَلْبُ خَيْثُ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَيْثُ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ خَيْثُ
- ١٨٧ حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ

- ٤٦٨ خَالِفُوا الْمَجُوسَ، وَقُرُّوا اللَّحَى، وَحُقُّوا الشَّوَارِبَ.
- ١٥٢ خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ.
- ١١٣ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى.
- ٥٠٩ صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ.
- ٣٩١ الصَّلَاةُ عَلَى وَفْتِهَا.
- ٥٤٨ عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غَيْرِهِ.
- ١٩٣، ٤٦ عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ.
- ٦١٨، ٤١ عَذَّبَتْ امْرَأَةً فِي هِرَّةٍ رَبَطْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ.
- ٥٨٣ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!.
- ٤٠٣ فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ.
- ٢٣١ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ.
- ٥٩٢ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ.
- ٦١٦ فِي كُلِّ ذَاتِ كَيْدٍ حَرَى أَجْرٌ.
- ٢٣ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.
- ١٢٥ قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ.
- ٣٣ قَالَ اللَّهُ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِّ.
- ٢٩ قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ.
- ٤٧٠ قَدْ فَعَلْتُ.
- ٣٨ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.
- ٤٨٨ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَنَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ.

- كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعاتٍ معلّوماتٍ مُحَرَّمْنَ، ثُمَّ نُسَخْنَ بِخَمْسِ
معلوماتٍ ٣٤٤
- كان يَكُونُ عَلَى الصَّوْمِ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ إِلَّا فِي شَعْبَانَ ٥٨١
- كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُخَيَّرُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ٥٠
- كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ ٦١٢
- كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ ٥٧
- كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ٥٢٩
- الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ ٢٠٤
- لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ ٥٩١
- لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ ٣٦٧
- لَا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا ٤٦٤
- لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ ٢٠١
- لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ٥٧
- لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ٩٠، ٧٦
- لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ ٦١٣، ٥٦٠
- لَا يَقْتُلُ مُسْلِمٌ بَكَافِرٍ ٥٦٠
- لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ١٠١
- لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٣٧
- لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ أَمُرَّ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ٦٥
- اللَّهُمَّ اغْنِنَا ٥١٤، ٢١٥

- اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ٥٥٣
- اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ٣٨٥
- لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ، وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٢٥٥
- لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَخْشَ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ ٣٧
- لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ ٧٧
- مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا ٤٢
- مَا أَنَهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوا إِلَّا السِّنَّ وَالْظُّفْرَ ٥٣٩
- مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ ٤٦٣
- مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ٤٣٥
- مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ ٣٩٣
- مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يَنْصَرَانِهِ ١٣٢
- مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنَزِلَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ٣٨٠
- مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ٦٩
- مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟ ٤٥
- مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ! ٤٢٦
- مُرَهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَبْقَى ٤٩١
- مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ٢٨٢
- مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ ٢٨٦
- مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّفَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ١٤١
- مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ٤٦٨، ٤٤٥، ٤٧

- مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ٤٨٦
- مَنْ سَرَّتهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ ٣٨٠
- مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ٢٧٦
- مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ٢٩٩
- مَنْ طَلَبَ عِلْمًا وَهُوَ مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ ١٧٨
- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ٦٧، ١٠٤، ١٢٢، ٢٣١، ٢٨٢، ٣٦٠
- مَنْ قَاتَلَ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٦٠٢
- مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ٣٧٨
- مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْجَهْلِ، وَالْعَمَلِ بِهِ ٥٧٣، ٢٤٧
- الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ٣١١
- الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَذْنَاهُمْ ٥٦٠
- نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٣٩٠
- هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ٣٤
- هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟ ٦٥
- هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ ٤١٩
- وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ٤٤١، ٣٢٤، ٣١٥، ٢٧٦
- وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثَرُ وَفِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ، فَقَمِنُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ٤٨٨
- وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ ٤٥٣
- وَيُؤْمِنَنَّ خَيْرٌ لَهِنَّ ٦٥
- وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ، صَدَقَةٌ ٣٥

- وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ٣٩٨
- وَلَا تُمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ٦٠٤
- وَمَوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ٤٠٨، ٣٣٤
- يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ ٣١٥
- يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ٢٠٥
- يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ٣٨١
- يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ ٤٣٢
- يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا ٥٠
- يَوْمَ الْقَوْمِ أَفْرُؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً ٣٩٦



أحاديثُ مذكورةٌ بالمعنى

- أمر النبي ﷺ أن يُخْرَجَ إلى صلاة العيد النساء ٦٥
- فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ ١٠٤
- عُرِضَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي صَلَاةَ الْكُسُوفِ ١١٨
- ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ هِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ١٦٥
- لَا يَسْمَعُ بِهِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ ١٧٧
- كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَنَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ ١٨٧
- أَصَابَ النَّاسَ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ عَطَشٌ وَقَلَّةُ مَاءٍ ٢١٧
- دَخَلَ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ ٢٢١
- ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ! ٢٢٣
- أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ ٢٣٤
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ ٢٤١
- أَنَّ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ الْغَدْرَ بِالْعَهْدِ ٣٢٢
- لَمَّا سَجَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِسِحْرِ عَظِيمٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ سُورَتِي الْمَعُودَتَيْنِ ٣٣٢
- حَدِيثُ الْمَسِيِّ فِي صَلَاتِهِ ٣٥٣
- صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا ٣٩٥
- لَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ طَوَافِ الْقُدُومِ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ ٣٩٧
- لَمَّا بَالَ الْأَعْرَابِيُّ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَمَرَ بِذُنُوبٍ مِنْ مَاءٍ ٤٠٤ / ٤٠٢
- قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ ٤٣٦ / ٤٣٦
- لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ صَارَ يَتَّجِهُ فِي صَلَاتِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ٤٤٩

- ٤٥٠ كان النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ يُحِبُّ أَنْ يُوَافِقَ أَهْلَ الْكِتَابِ
- ٤٧٠ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ
- ٥٤٦ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ فَضَّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا كُلِّهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جِزَاءً
- ٥٩٠ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَلَا يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا
- ٥٩١ اعْتَكَفَ النَّبِيُّ ﷺ



فهرسُ الموضوعاتِ والفوائدِ

الموضوع	الصفحة
تقديم.....	٥
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين.....	٧
المُقدِّمة.....	١٧
كُلُّ آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ فِهي مُتَضَمِّنَةٌ لفوائدَ عَظِيمَةٍ.....	١٧
يُؤْتِي الإنسانُ العِلْمَ بحسب ما معه من الإيمان والهُدَى والتَّقَى.....	١٧
كُلَّمَا كان الإنسانُ أَشدَّ إقبَالاً على القرآن وإيماناً وَحُبًّا وتَدَبُّراً له كان له أَفْهَمُ.....	١٧
أَمْثَلُهُ على كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُوثُوقَةِ.....	١٧
لَمْ يَنْزَلِ القرآنُ لِمَجَرَّدِ التَّلَاوَةِ اللَّفْظِيَّةِ فَقَطْ، بَلْ نَزَلَ لَهَا ولِأَجْلِ التَّدَبُّرِ والتَّذَكُّرِ.....	١٨
مَنْ تَكَلَّمَ في معنى آيَةٍ من كتابِ اللَّهِ فهو شاهِدٌ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَرَادَ بِهَا كَذَا وكَذَا.....	١٨
تَحْرِيفُ نُصُوصِ القرآنِ إلى ما يُوَافِقُ هوى الإنسانِ أَشدُّ من الكلامِ في معاني كِتَابِ اللَّهِ من غيرِ عِلْمٍ.....	١٩
لَا يَتَكَلَّمُ الإنسانُ في معنى آيَةٍ من كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَن يَعْلَمَ أو يَغْلِبَ على ظَنِّهِ أَنَّ هَذَا هو المرادُ.....	١٩
الفهمُ في كتابِ اللَّهِ يَحْصُلُ به للعبدِ خَيْرٌ كثيرٌ.....	١٩
النَّاسُ من حيثِ العِلْمُ والفهمُ على أربعةِ أقسامٍ.....	١٩
الأنواعُ الثَّلَاثَةُ للدَّلالةِ، ومِثَالُ ذلك.....	٢٠
(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ.....	٢٣

[١-٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾

- ٢٣..... مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾
- ٢٣..... عَظَمَ مَنَزِلَةَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَفَضْلِهَا
- ٢٣..... الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشَّانِ وَالْتِمَجِيدِ
- ٢٤..... لَا يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ إِلَّا مَنْ كَمَلَ فِي صِفَاتِهِ وَفِي أَعْمَالِهِ
- ٢٤..... الْحَمْدُ الْمَطْلُوقُ الْكَامِلُ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ
- ٢٤..... الرَّبُّ هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، وَإِضَافَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ إِضَافَةٌ نَاقِصَةٌ.....
- ٢٥..... الْعَالَمُونَ كُلُّهُمْ مُفْتَخِرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ
- لَا حَقَّ لِأَيِّ أَحَدٍ فِي التَّدْبِيرِ وَالْخَلْقِ، وَلِذَا لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ وَيَصْرِفَ شَيْئًا مِنْ
- ٢٥..... الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ
- ٢٥..... دَلَالَةُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ
- ٢٥..... كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ انْتِظَامٍ وَاتِّسَاقٍ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
- ٢٦..... الرَّحْمَةُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لِلَّهِ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْإِحْسَانُ أَوْ إِرَادَتُهُ
- ٢٦..... رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لَخَلْقِهِ رُبُوبِيَّةٌ رَحْمَةٌ وَإِحْسَانٌ
- ٢٦..... وَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ
- ٢٦..... رَحْمَةُ اللَّهِ لَخَلْقِهِ عَلَى نَوْعَيْنِ
- ٢٧..... لَا يَلِزُ مِنْ اتِّصَافِ اللَّهِ بِالرَّحْمَةِ أَنْ يَكُونَ مُمَازِلًا لِلْمَخْلُوقِ فِي ذَلِكَ
- ٢٧..... تَأْتِي كَلِمَةُ (الدِّينِ) فِي الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهَا أَحَدٌ مَعْنَيْنِ
- ٢٧..... سَبَبُ إِضَافَةِ الْمَلِكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّهِ، مَعَ أَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ كُلُّهُمَا مُلْكُ اللَّهِ
- ٢٨..... مَا لِأَحَدٍ فِي الْآخِرَةِ مُلْكٌ وَإِنْ قُلَّ، وَلَا فَرْقَ فِيهَا بَيْنَ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ

- ينبغي للإنسان أن يقرأ ببعض القِرَاءات الْوَارِدَةِ من غير أن يكون هذا أمام النَّاس ٢٨
- الفرقُ بين الْمَالِكِ وَالْمَلِكِ ٢٨
- لو أَنَّ النَّاسَ مَا خُلِقُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا لِأَجْلِهَا لَكَانَ هَذَا قَدْحًا فِي اللَّهِ ٢٨
- لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِشَرِّ اللَّهِ حَقَّ الْقِيَامِ إِلَّا إِذَا آمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ٢٩
- الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ ٢٩
- نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِسِتْرِ ذُنُوبِهِمْ وَمَغْفِرَتِهَا ٢٩
- مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَلَى عَمَلِهِ اجْتَهَدَ فِي أَدَائِهِ، وَخَافَ مِنْ عَاقِبَةِ تَرْكِهِ ٣٠
- مُجَازَاةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ، وَلِلْكَافَرِ هِيَ عَدْلٌ ٣٠
- لَا يُخْرِجُ الْكَافِرُ مِنَ النَّارِ وَلَا يَفْنَى، دَلٌّ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ٣٠
- كُلُّ قَوْلٍ يُخَالِفُ أَبَدِيَّةَ النَّارِ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ ٣١
- كَيْفَ يَكُونُ عَذَابُ الْكَافِرِ مُؤَبَّدًا، مَعَ أَنَّ مُدَّةَ بَقَائِهِ فِي الدُّنْيَا لَا تُقَارَنُ بِهَذَا؟ ٣١
- [٤] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٣٢
- تَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ ٣٢
- حَاجَةُ الْعَبْدِ وَافْتِقَارُهُ إِلَى الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ ٣٢
- دَلَالَةُ التَّرَكِيبِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ٣٣
- قَاعِدَةُ لُغَوِيَّةٍ: تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْحَضَرَ ٣٣
- لَا تَتِمُّ عِبَادَةُ أَحَدٍ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ ٣٣
- لَا تُقْبَلُ الْعِبَادَةُ مِنَ الْعَابِدِ إِذَا أَشْرَكَ فِيهَا أَحَدًا مَعَ اللَّهِ ٣٣
- يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ حَالُ الْعِبَادَةِ أَنْ يَسْتَحْضَرَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ ٣٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤) ٣٤

- لا يَسْتَعِينُ الْعَبْدُ اسْتِعَانَةً مُطْلَقَةً بِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٤
- الاسْتِعَانَةُ بِالْمَخْلُوقِ فِيهَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ جَائِزَةٌ ٣٥
- يَحْرُمُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَهُوَ مِنَ الشَّرْكِ ٣٥
- يَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يَسْتَجْلِبُ انْتِبَاهَ الْمُخَاطَبِ ٣٥
- دَلَالَةُ وَفَائِدَةُ الِاتِّفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخَطَابِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ٣٥
- يَنْبَغِي لِلْأُمَّةِ أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَمَأْخُذُ هَذَا مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ٣٦
- الِاتِّبَانُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِ اللَّهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لَهُ فَائِدَتَانِ ٣٦
- يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِرَبِّهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ وَإِنْ سَهَّلَتْ أَوْ دَقَّتْ ٣٧
- مَنْ أَرَادَ تَيْسِيرَ أُمُورِهِ فَعَلِيهِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ٣٧
- الْحِكْمَةُ مِنَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي الْيَمِينِ: أَنْ يَشْعُرَ الْعَبْدُ بِاسْتِعَانَتِهِ بِرَبِّهِ ٣٧
- [٥-٧] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٨
- غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٣٨
- آيَاتُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٣٨
- كَلِمَةُ الْهُدَايَةِ تَتَعَدَّى بِنَفْسِهَا، وَتَتَعَدَّى بِ: (إِلَى)، حَسَبَ اخْتِلَافِ مَعْنَاهَا ٣٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٥) ٣٩
- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٣٩
- افْتِقَارُ الْإِنْسَانِ فِي الْهُدَايَةِ إِلَى رَبِّهِ جَلَّوَعَلَا ٣٩
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَطْرُدَ مِنْهُ الْعُجْبَ بِنَفْسِهِ ٣٩
- لَا يَلِزُ مَنْ كَوَّنَ الْهُدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ أَنْ يَكُونَ لِلْعُصَاةِ حُجَّةٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ، وَبَيَانُ ذَلِكَ ٣٩

- سؤال الله ودُعاؤه بحُصول شيء لا يعني أن يتوقف الإنسان عن فعل أسبابه ٣٩
- من حرمه الله الهداية فليعلم الله بأنه ليس أهلاً لها، ومن هداه فليعلمه بأنه أهل لها ٤٠
- دين الإسلام دين واسع شامل ٤٠
- دين الإسلام شامل لكل ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومَعادِهِ ٤٠
- الرد على من زعم أن الإسلام يختص فيما بين العبد وربّه ٤٠
- أطول آية في كتاب الله تتعلق بمعاملة الخلق بعضهم مع بعض ٤١
- نظم الإسلام علاقة الإنسان بالبهايم ٤١
- كيف يكون الإسلام شاملاً لكل نواحي الحياة، وقد قال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»؟ ٤١
- طريق الحق طريق واحد لا يتعدّد، وطرق الباطل كثيرة مُتنوّعة مُعوجة ٤٢
- لا يظن أن في الإسلام قُصوراً إلا من كان قاصراً الفهم أو العلم أو كان سيئ القصد ٤٢
- من كمال حكمة الله ورحمته: أنه جعل صراطه مستقيماً لا ضلال فيه ولا اعوجاج ٤٣
- كيف نجمع بين تفرّد الله بالهداية وقوله عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ ٤٣
- الأصناف الأربعة الذين أنعم الله عليهم ٤٤
- الفرق بين المغضوب عليهم والضالين ٤٤
- أول من يدخل في المغضوب عليهم: اليهود، وفي الضالين: النصارى ٤٤
- فوائد الآيتين (٦-٧) ٤٤
- قسم الناس في سورة الفاتحة إلى ثلاثة أقسام ٤٤
- ينبغي للإنسان أن يبحث عن سيرة الذين أنعم الله عليهم، ويفتدي بهم ٤٥

- ٤٥..... خَيْرٌ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مُحَمَّدٌ ﷺ
- ٤٥..... من أفضل الكتب في السيرة النبوية: كتاب البداية والنهاية لابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ
- ٤٥..... نِعْمَةُ الدِّينِ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَةِ الدُّنْيَا
- ٤٦..... مَنْ سَلَكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ كَانَ فِي نِعْمَةٍ وَسُرُورٍ وَانْشِرَاحٍ
- ٤٦..... الفائدة المستنبطة من إسناد النعمة إلى الله في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾
- ٤٦..... ينبغي للعبد أن يحمَدَ رَبَّهُ على كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَفْعَلُهُ
- ٤٧..... مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْغَضَبِ
- ٤٧..... يَجِبُ عَلَى مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ
- ٤٧..... التَّشْبَهُ بِالْكَفَّارِ فِي الظَّاهِرِ يُؤَدِّي إِلَى التَّشْبَهُ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ
- يَحْرُمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مُنَاصَرَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ وَلَوْ فِي مُنَاصَرَةِ بَعْضِهِمْ
- ٤٧..... على بعض، بل تجب مُعَادَاتُهُمْ وَبُغْضُهُمْ
- لا حَرَجَ أَنْ يَفْرَحَ الْمُؤْمِنُونَ بِانْتِصَارِ بَعْضِ الْكَفَّارِ عَلَى بَعْضٍ إِذَا كَانَ الْمُنتَصِرُ أَقْلًا
- ٤٨..... خَطَرًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ
- يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَّعِدَ وَيَتَنَزَّهَ عَنِ الْاِسْتِكْبَارِ عَلَى الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ، وَعَنِ الْجَهْلِ
- ٤٨..... بِالْحَقِّ
- ٤٨..... ينبغي للمؤمن أن يَجْمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ
- ٤٩..... حُكْمُ طَلَبِ الْعِلْمِ
- ٤٩..... هل يُسْتَحَبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَضَّأَ بِالماءِ الباردِ فِي شِدَّةِ الْبَرْدِ، مَعَ وُجُودِ المَاءِ الدَّافِئِ؟
- ٥٠..... قاعدة الشريعة: ما كان أيسرَ كان أَفْضَلَ وَأَوْلى
- ٥٠..... أهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَالتَّأَنِّي قَبْلَ الْفَتْوَى وَالْحُكْمِ

- قد يَصْعُبُ انتِشَالُ الْكَلِمَةِ الْخَطَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بَعْدَ انْتِشَارِهَا فِيهِمْ..... ٥١
- التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الْعَالِمِ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَهُ، وَالْمَرَادُ بِالْعَالِمِ هُنَا..... ٥١
- سَبَبُ إِهْمَامِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾..... ٥١
- يُحِبُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْضَبُوا عَلَى كُلِّ مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ..... ٤٨
- ثُبُوتُ صِفَةِ الْغَضَبِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى كِهَالِ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ..... ٥٢
- لَا يَصِحُّ تَفْسِيرُ غَضَبِ اللَّهِ بِأَنَّهُ الْإِنْتِقَامُ أَوْ إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ..... ٥٢
- دَلَالَةُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ صِفَةُ كِهَالٍ، وَأَنَّ الْجَهْلَ صِفَةُ مَمْقُوتَةٍ..... ٥٢
- عِلْمُ الْمَرْءِ بِرَبِّهِ وَبِأَحْكَامِهِ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِهِ الثَّنَاءَ..... ٥٢
- هَلِ الْعِلْمُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا أَمْرٌ مَحْمُودٌ؟..... ٥٣
- دَلَالَةُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنَّ الْجَاهِلَ لَا يُعَاقَبُ..... ٥٣
- قَدْ يُؤَاخِذُ الْجَاهِلُ إِذَا كَانَ مُفَرِّطًا فِي التَّعَلُّمِ..... ٥٣
- هَلِ يُؤْمَرُ الْجَاهِلُ بِقَضَاءِ الْمَأْمُورِ لَوْ تَرَكَهُ؟..... ٥٣
- كَيْفَ كَانَتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ أُمُّ الْقُرْآنِ؟..... ٥٥
- دَلَّتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ..... ٥٥
- رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى نَوْعَيْنِ، وَقَدْ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١)..... ٥٥
- رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ..... ٥٥
- لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا أَوْ يَدَعَهُ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ..... ٥٦
- دَلَالَةُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الْإِيْمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَبِالْقَدَرِ..... ٥٦
- يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ وَأَهْمِيَّةِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَوْجَبَ قِرَاءَتَهَا عَلَى كُلِّ مُصَلٍّ..... ٥٧
- مِنْ الْبِدْعِ: الْإِسْتِفْتَاخُ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ..... ٥٧

- سورة الفاتحة سورة يُرْفَى بها المريضُ واللَّدِيغُ ٥٧
- (٢) سورة البقرة ٥٨
- [١-٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٥٨
- أشار الله إلى القرآن بإشارة البعيد؛ للدلالة على عُلُوِّ مَرَاتِبِهِ، وعَظِيمِ مَنَزَلَتِهِ ٥٨
- سُمِّي القرآن بالكتاب لثلاثة أسباب ٥٨
- يُصَدِّقُ الْمُتَّقُونَ بِأَخْبَارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ أَوْ يَسْمَعُونَهُ ٦٢
- من صفة المتقين: إقامة الصلاة، والإنفاق من أموالهم ٦٢
- فوائد الآيات (١-٥) ٥٩
- انقسم النَّاسُ في القرآن إلى ثلاثة أقسام ٥٩
- الحكمة من تأخير الكلام عن صفات المنافقين أول سورة البقرة ٥٩
- المَغْزَى من الحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ أوائل بعض السُّور ٦٠
- الحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ أوائل بعض السُّور لا مَعْنَى لها في نفسها ٦٠
- الفائدة من الإِشَارَةِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ بِالْبَعِيدِ في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ٦٠
- مَنْ أَنْكَرَ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ اتَّفَقَ الْقُرَّاءُ عَلَيْهِ فَهُوَ كَافِرٌ ٦١
- القراءات السَّبْعُ ثَابِتَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وتَجُوزُ الْقِرَاءَةُ بِهَا ٦١
- كَلِمًا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتَقَى اللَّهَ كَانَ أَعْظَمَ اهْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ، وَتَنْقُصُ هِدَايَتُهُ بِهِ بِقَدْرِ نَقْصِ تَقْوَاهُ ٦١
- أَسَاسُ التَّقْوَى هُوَ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ ٦٢
- النَّاسُ فِيْمَا يُخْبِرُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٦٢
- لَا يُمْدَحُ الْإِنْسَانُ بِإِيمَانِهِ بِمَا يُشَاهِدُهُ ٦٣

- ٦٣..... إقامة الصَّلَاة يشمل إقامة الصَّلَاة المفروضة والنَّافِلَة
- ٦٣..... من النقص في الصَّلَاة: أن تُؤدَّى على غير وجه الطَّمَأْنِينَة
- ٦٣..... الطَّمَأْنِينَة في الصَّلَاة ركنٌ لا تصحُّ الصَّلَاةُ إلَّا به
- الحكمة من أمرِ النبي ﷺ المسمى في صَلَاتِهِ أن يُعيد الصَّلَاةَ أكثرَ من مرَّةٍ، ولم يُعلِّمه
- ٦٤..... من أوَّل مرَّةٍ
- ٦٤..... سببُ أمرِ النبي ﷺ المسمى في صَلَاتِهِ بِإِسْبَاغِ الوُضوءِ، مع أنَّه لم يُشَاهِدْهُ يُحِلُّ به
- ٦٥..... من إقامة الصَّلَاة: أن تُؤدَّى في المساجد جَمَاعَةً
- ٦٥..... لا تجبُ صَلَاةُ الجَمَاعَةِ على المرأةِ في المَسَاجِدِ، وبَيْتِهَا أَفْضَلُ، إلَّا في صَلَاةِ العِيدِ
- ٦٦..... تعدادُ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الحَمْسِ
- ٦٦..... طريقةُ مَعْرِفَةِ أَنَّ الشَّمْسَ قد زَالَتْ
- ٦٦..... مقدارُ وَقْتِ صَلَاةِ المغربِ بالسَّاعَاتِ
- ٦٧..... كَيْفِيَّةُ مَعْرِفَةِ نِصْفِ اللَّيْلِ
- ٦٧..... لا يجوزُ لِلإِنْسَانِ أن يُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ عن وَقْتِهَا لِغَيْرِ عُدْرٍ
- ٦٧..... السَّبَبُ الَّذِي يُبِيحُ الجَمْعَ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ يَجْعَلُ وَقْتَ الصَّلَاتَيْنِ وَقْتًا وَاحِدًا
- ٦٧..... مَنْ أَخَّرَ الصَّلَاةَ عن وَقْتِهَا بِدُونِ عُدْرٍ لم تُقْبَلِ مِنْهُ
- ٦٨..... الإنفاقُ مِنَ المَالِ يَنْقَسِمُ إلى وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ
- التَّحْذِيرُ مِنَ حَبْسِ المَالِ، وَعَدَمِ صَرْفِهِ فِي الوُجُوهِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإنسانِ أن يَصْرِفَهُ
- ٦٨..... فِيهَا مِنْ نَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ
- ٦٨..... يُثَابِ الإنسانُ عَلَى كُلِّ نَفَقَةٍ يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، وَهِيَ لَا تَزِيدُ مَالَهُ إلَّا نَهَاءً وَبِرَكَّةً
- [٧-٦] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ...﴾ ٦٩.....

- الجمع بين قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وبين ما وُجِدَ من إسلام بعض الكفار..... ٧٠
- فوائد الآيتين (٦-٧)..... ٧٠
- لا يُمكنُ أن يُؤمنَ مَنْ حَقَّتْ عليه كلمةُ العذاب..... ٧٠
- واجبُ أهلِ العلم أن يُبلغوا، ولا يُضُرُّهم مَنْ ضَلَّ بعد ذلك..... ٧١
- ينبغي لمن هداه الله أن يحمَدَ رَبَّهُ على هذه النعمة العظيمة..... ٧١
- الله عَزَّجَلَّ أن يَمُنَّ على بعض عِبَادِهِ بالهداية؛ لأنَّ له أن يفعل ما يشاء..... ٧٢
- لا يهدي الله للهُدَى إِلَّا مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ أَهْلٌ لهذا..... ٧٢
- ينبغي الحذرُ من الزَّيغ والضَّلال، وأن يُخَشِيَ العبدُ من هذا..... ٧٢
- [٨-٩] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ...﴾..... ٧٣
- تعريفُ النِّفاق..... ٧٥
- تقاربُ معاني الخِدَاعِ والمَكْرِ والكَيْدِ..... ٧٣
- الحسابُ يومَ القِيَامَةِ يكونُ على ما في القُلُوب..... ٧٤
- فوائد الآيتين (٨-٩)..... ٧٥
- لم يَحْدُثِ النِّفاقُ في هذه الأُمَّة إِلَّا بعد قُوَّتِهَا وَعِزَّتِهَا في عَزْوَةِ بدرٍ، وَوَجْهُ ذلك..... ٧٥
- لا يَنْفَعُ العبدَ قَوْلُهُ ما لم يكن القلبُ مطابقاً له..... ٧٥
- تُجْرَى أحكامُ الدُّنيا على الظَّاهر، لا على الباطن، وهذا هو سببُ عَدَمِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ..... ٧٥
- للمُنافقين..... ٧٥
- لا يُسَاءُ بالإنسان الظَّنُّ بخلاف ظاهِرِهِ، إِلَّا إذا وُجِدَتْ قرائنُ قوِيَّةٌ..... ٧٦
- التَّحذِيرُ من إطلاق قول: هذا مُنافقٌ، هذا كافرٌ..... ٧٦

- لا يُسَمَّى المنافق: مؤمنًا، لكن هل يُسَمَّى: مُسْلِمًا؟..... ٧٦
- المكرُّ والخِدَاع والكيدُ أُمُورٌ ممقوتةٌ ما لم تكن في مُقابلةٍ مَن يصنعُ هذا..... ٧٧
- وُجُوبُ الحذرِ من المنافقين وخِدَاعِهِمْ..... ٧٨
- المنافقون أعداءُ للمؤمنين، كما أَنَّهُم أعداءُ الله عَزَّجَلَّ..... ٧٨
- الاحترازُ من أن يُفْضِيَ المؤمنُ بأسْراره إلى المُنافِقين..... ٧٨
- قد يَعْمَى الإنسانُ عن الضَّلالةِ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّ ما عَمِلَهُ حَسَنٌ..... ٧٨
- بأيِّ شيءٍ يُوزَنُ حُسْنُ العملِ وقُبْحُهُ؟..... ٧٨
- [١٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا... ﴾..... ٧٩
- فوائد الآية (١٠)..... ٧٩
- قد يَمْرُضُ القلبُ معنويًّا حَتَّى يَقْبَلَ الباطل، وَيَرْفُضَ الحقَّ..... ٧٩
- مدارُ الصَّلاحِ والفسادِ في العَمَلِ على القلبِ..... ٧٩
- أهمِّيَّةُ العِنايةِ بصَّلاحِ القلبِ..... ٧٩
- مَرَضُ القلبِ أشدُّ فَتْكًا وأعظمُ خطرًا من مَرَضِ البدنِ..... ٨٠
- إذا لم يَحْرِصِ الإنسانُ على عِلاجِ مَرَضِ قَلْبِهِ فقد يُعاقَبُ بزيادةِ مَرَضِهِ..... ٨٠
- عُقُوبَةُ مَرَضِ القلبِ أعظمُ من مُصِيبَةِ فَقْدِ الولدِ والأهلِ والمالِ..... ٨٠
- من عدَلَ اللهُ في قَضائِهِ وقَدَرِهِ: أَنَّهُ لم يَزِدِ المنافقين مَرَضًا في قُلُوبِهِمْ إِلَّا حيث كانت قُلُوبُهُمْ مريضةً..... ٨٠
- إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ في مُسَبِّباتِها، وهي من مُقتَضياتِ حِكْمَةِ الله، والرَّدُّ على مَن أنكَرُوا ذلك..... ٨٠
- تأثيرُ الأسبابِ في مُسَبِّباتِها تأثيرٌ وسيلَةٌ، لا تأثيرٌ ذاتيٌّ كان منها..... ٨١

- لو قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولم يقل: ﴿وَسَلْمًا﴾ لتأذى بها إبراهيم عليه السلام ٨١
- تفاوتت عقوبة الكذب بتفاوت مراتبه ٨٢
- الكذب كله حرام، ولا يقسم إلى كذب أبيض وأسود ٨٢
- جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يوصفوا به ٨٢
- من عرف بالكذب بين الناس لم يوثق بخبره ٨٣
- [١٢-١١] قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ ٨٣
- الحكمة من إيهام القائل في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ٨٣
- الحكمة من مقابلة قول أهل النفاق: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بتكذيب الله لهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ٨٣
- فوائد الآية (١٢-١١) ٨٤
- لا يخلو أهل النفاق من ناصح لهم ومذكر ٨٤
- ذكر صور من إفساد أهل النفاق في الأرض ٨٤
- يؤد أهل النفاق أن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت ٨٤
- كل نظام خالف حكم الله فهو طاغوت ٨٤
- الفساد المترتب على رجوع الناس إلى غير شريعة الله للتحاكم بينهم ٨٥
- كل حكم خالف شرع الله فهو ظلم وجور ٨٥
- نال النبي ﷺ من المنافقين كل أذى أمكنهم أن يلحقوه به من قول وفعل ٨٥
- المنافقون لا يؤذون النبي ﷺ لشخصه، ولكن لما جاء به من الحق ٨٥
- كما يؤذي أهل النفاق النبي ﷺ فإنهم يؤذون أتباعه؛ ليحدثوا من اتباع شره ٨٦
- وجوب الصبر على أذى أهل النفاق ٨٦

- ٨٦..... من إفساد أهل النفاق: التَّشْيِطُ عن الجِهَاد
- ٨٦..... الكُفَّار أَشْجَعُ من المنافقين
- ٨٦..... من إفساد المنافقين: موالاة الكُفَّار
- ٨٦..... الكُفَّار إخوانٌ لأهل النفاق
- ٨٦..... ذَكَرَ اللهُ فساد المنافقين في ستِّ سُوَرٍ
- ٨٧..... كُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى بَاطِلٍ أَوْ فَسَادٍ فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى حَقٍّ وَصَلَاحٍ
- المرجعُ في تمييز الحقِّ من الباطل، والصَّلاح من الفساد، هو كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ
- ٨٧..... [١٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ...﴾
- وَجْهُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ حِينَ نَفَى الشُّعُورَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وَحِينَ نَفَى الْعِلْمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
- ٨٨..... ■ فوائد الآية (١٣).
- يَدَّعِي أَهْلُ النِّفَاقِ أَنَّ الْإِيْمَانَ سَفَهٌ، يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، أَوْ يَقُولُونَهُ صَدًّا عَنْ سَبِيلِ اللهِ
- ٨٨..... من طَرُقِ أَهْلِ النِّفَاقِ فِي الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللهِ: عَيْبُ اتِّبَاعِهِ
- ٨٩..... وَجُوبُ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ، وَبَيَانُ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ
- ٨٩..... وَصَفُ السَّفَهِ وَصَفُ رَدِيءٍ كُلِّ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ وَيَنْفِرُ
- ٨٩..... السَّفَهُ كُلُّ السَّفَهِ أَنْ يَرِغِبَ الْإِنْسَانُ عَنْ دِينِ اللهِ بَلَّغَ مَا بَلَغَ مِنْ ذِكَاةٍ وَإِدْرَاكِ
- ٨٩..... [١٤-١٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا...﴾
- ٩٠..... معنَى استهزاءِ اللهِ بِالْمُنَافِقِينَ، وَلَا زِمُهُ

- فوائد الآيتين (١٤-١٥) ٩٠
- أهل النِّفاق يُخَادِعُونَ أهل الإيمان والكُفْر، وإن اختلف خِدَاعُهُمْ للطَّائِفَتَيْنِ ٩٠
- كان المؤمنون إذا قال لهم المنافقون: «آمَنَّا» تَرَكُوهُمْ؛ مُعَامِلَةً لَهُمْ بِظَاهِرِ حَالِهِمْ ٩٠
- الأحكامُ في الدُّنْيَا تكونُ على الظَّاهِر، وفي الآخِرَةِ على الباطن ٩٠
- الفرقُ بين قول أهل النِّفاق للمؤمنين: ﴿آمَنَّا﴾، وقولهم للكفار: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ٩١
- قاعدةُ أهل السُّنَّة: أن تُجْرَى صفاتُ الله على ظاهرها اللَّاتِقِ به ٩١
- كُلُّ وَصْفٍ وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فهو وَصْفٌ كَمَالٍ ٩١
- لا يَصِفُ اللهُ نَفْسَهُ بالاستهزاء على وَجْهِ الإِطْلَاق، ولكن في مُقَابَلَةٍ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ٩١
- الاستهزاء إذا كان في مُقَابَلَةٍ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ كان صِفَةً كَمَالٍ ٩٢
- قاعدةُ أهل السُّنَّةِ فيما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ ٩٢
- كُلُّ صِفَةٍ وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ فَإِنَّ حَقِيقَتَهَا تُخَالِفُ ما يَتَّصِفُ به العبدُ من جنسها ٩٢
- أنزل اللهُ كِتَابَهُ؛ لِيُبينَ للنَّاسِ الْهُدَى ٩٢
- لا يَسُوغُ للعبد أن يَحْكُمَ على رَبِّهِ بِعَقْلِهِ ٩٣
- وظيفةُ الْمُؤْمِنِ نحو ما أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ٩٣
- من حِكْمَةِ اللهِ: أَنَّهُ يَجْعَلُ الْجِزَاءَ من جِنْسِ الْعَمَلِ ٩٢
- جِزَاءُ اللهِ دائِرَتانِ بين الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ٩٢
- [١٦] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى...﴾ ٩٣
- فائدةُ الإِشارةِ بِاسْمِ الْبَعِيدِ في وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ في قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
- اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ ٩٣
- الإِشارةُ لِلْبَعِيدِ قد تكون لَعُلَّوْ مَرَّتَيْهِ، وقد تكون لَدُنُوْ مَرَّتَيْهِ ٩٣

- فائدة التعبير بالاشتراء في قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ ٩٣
- فوائد الآية (١٦) ٩٤
- كُلٌّ مِّنْ اخْتَارَ الضَّلَالَةَ، وَتَرَكَ الْهُدَى، فَهُوَ سَفِيهٌ ٩٤
- يَحْرِصُ الْمُنَافِقُونَ عَلَى فِعْلِ كُلِّ ضَلَالَةٍ ٩٤
- [١٨-١٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ ٩٤
- المثل الأول الذي ذَكَرَهُ اللهُ لِلْمُنَافِقِينَ ٩٤
- وَجْهُ التَّعْبِيرِ بِالنُّورِ دُونَ النَّارِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ٩٤
- فوائد الآيتين (١٨-١٧) ٩٥
- مِنَ الْبَلَاغَةِ: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ الْمُحْسُوسَةِ لِلْمُخَاطَبِ، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ ٩٥
- لَا يَنْتَفِعُ الْمُنَافِقُونَ بِمَا يُبْصِرُونَهُ مِنْ نُورِ الْهُدَى؛ لِعِلْمِ اللهِ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لَهُ ٩٦
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ زَغَلٍ وَخَبْثٍ ٩٦
- الاهتمام بطهارة القلبِ أَوَّلَى مِنْ الْاهْتِمَامِ بِطَهَارَةِ الْبَدَنِ وَالثِّيَابِ ٩٦
- يَحْسِبُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّهُمْ عَلَى صَوَابٍ وَحَقٍّ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ بُعْدِ رُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ ٩٦
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْمَالِهِ، وَيُصَحِّحَ مَا كَانَ مِنْهَا خَطَأً ٩٧
- [٢٠-١٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...﴾ ٩٧
- المثل الثاني الذي صَرَّبَهُ اللهُ لِلْمُنَافِقِينَ ٩٧
- يُظَنُّ الْمُنَافِقُ أَنَّهُ هُوَ الْمَعْنِيُّ بِكُلِّ آيَةٍ يَصِفُ اللهُ فِيهَا عُيُوبَهُمْ ٩٨
- فوائد الآيتين (٢٠-١٩) ٩٨
- أَهْلُ النِّفَاقِ ضَعَفَاءُ أَمَامَ شَرِّعِ اللهِ ٩٨
- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّقَبَلَ الْحَقَّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ، أَيَّا كَانَ ٩٩

- ٩٩..... الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَالْمَطَرِ الَّذِي يُغِيثُ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ
- ٩٩..... حَالُ النَّاسِ مَعَ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ غِيْثٌ لِلْقُلُوبِ
- ٩٩..... أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: «مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»
- ١٠٠..... مَشِيئَةُ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ
- ١٠٠..... حِكْمَةُ اللَّهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ خَفِيٌّ
- مَا يَرُدُّ عَلَى الذَّهْنِ مِنَ الْإِشْكَالِ فِي بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهَا يَنْشَأُ مِنْ قُصُورِ الْإِنْسَانِ
- ١٠٠..... أَوْ تَقْصِيرِهِ
- مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ: أَنْ يُعَلِّمَهُ حِكْمَتَهُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فَعَلَيْهِ أَنْ
- ١٠٠..... يُسَلِّمَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ
- ١٠٠..... قُدْرَةُ اللَّهِ قُدْرَةٌ تَامَّةٌ لَا يَعْزِيهَا أَيُّ عَجْزٍ
- ١٠١..... يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ كُلَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ، وَلَا يَسْتَضْعِبُ حُصُولَهُ
- ١٠٢..... [٢١] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾
- السَّبَبُ فِي تَوْجِيهِ الْخِطَابِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا
- ١٠٢..... رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
- ١٠٢..... تَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ
- ١٠٢..... قَدْ تُطَلَّقَ الْعِبَادَةُ أَحْيَانًا عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ تَعْبُدًا لِرَبِّهِ
- ١٠٢..... غَايَةُ الْعِبَادَةِ هِيَ التَّقْوَى
- ١٠٢..... تَعْرِيفُ التَّقْوَى
- ١٠٢..... ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢١).
- ١٠٢..... إِذَا صُدِّرَ الطَّلَبُ بِالنَّدَاءِ دَلٌّ عَلَى الْعِنَايَةِ بِهِ

- ١٠٢ العبادَةُ حقُّ لله واجبٌ على كلِّ الناس
- تختلفُ شرائعُ الرُّسل باختِلَافِ ما تَصْلُحُ به أحوالُ الخَلْقِ، واجتمعت هذه الشَّرَائِعُ
- ١٠٣ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ
- ١٠٣ أساسُ العِبَادَةِ أَمْران لا تصحُّ بدونهما
- لا يُمكن أن تَتَحَقَّقَ متابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ في العملِ إِلَّا إذا وافق سُنَّتُهُ في سِتَّةِ أُمُورٍ،
- ١٠٣ وتفصيلُ ذلك
- ١٠٤ لو ضَحَّى الإنسانُ بِفَرَسٍ لم تصحَّ أَضحِيَّتُهُ
- ١٠٤ إذا زاد العبدُ على القَدْرِ الذي شَرَعَهُ اللهُ في العبادَةِ فهل تبطلُ عبادَتُهُ؟
- ١٠٤ إذا أَخْرَجَ الإنسانُ في زكاةِ الفِطْرِ صَاعَيْنِ من طَعَامٍ فهل يُثابَ عليهما ثوابُ الزَّكاةِ؟ ..
- ١٠٥ إذا تَوَضَّأَ الإنسانُ مُنْكَسًّا في أَعْضاءِ الوُضوءِ لم يصحَّ وُضُوؤُهُ
- ١٠٥ لا يصحُّ الاعتِكَافُ في اليُّبُوتِ، وإنَّها مكانُ الاعتِكَافِ المساجدُ
- ١٠٦ [٢٢] قولُ اللهِ عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾
- ١٠٦ إذا عَلِمَ العبدُ أَنَّهُ لا شريكَ لله في رُبُوبِيَّتِهِ اقْتَضَى هذا ألا يكونَ له شريكٌ في ألُوْهِيَّتِهِ ...
- ١٠٦ ■ فوائدُ الآية (٢٢).
- ١٠٦ من نِعْمَةِ اللهِ: أَنْ جَعَلَ الأرضَ مُسْتَقَرَّةً لبني آدمَ
- ١٠٧ من نِعْمَةِ اللهِ: أَنَّهُ أَحْكَمَ بِنَاءَ السَّمَاءِ، فلا تقعُ على الأرضِ
- ١٠٧ للأسبابِ أَثَرٌ في مُسَبِّباتِها، لا يَشْكُ في هذا عاقلٌ
- ١٠٧ تأثيرُ الأسبابِ في مُسَبِّباتِها هو من خَلْقِ اللهِ
- ١٠٧ أصنافُ النَّاسِ في مسألة تأثيرِ الأسبابِ في مُسَبِّباتِها
- إذا شاء اللهُ أَنْ يَسْلُبَ السَّبَبَ تأثيرَه في المُسَبَّبِ فَعَلَّ، كما فَعَلَ في النَّارِ التي أُلْقِيَ فيها
- ١٠٧ إبراهيم عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

- ١٠٧ رَحْمَةُ اللَّهِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ
- ١٠٨ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ شُكْرُ نِعَمِ اللَّهِ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ
- ١٠٨ مَنْ اجْتَرَأَ عَلَى الْمُحَرَّمِ مَعَ الْعِلْمِ أَعْظَمُ جُرْمًا مِمَّنْ فَعَلَهُ مَعَ الْجَهْلِ
- ١٠٨ مَنْ مَلَكَ أَرْضًا مَلَكَ هَوَاءُهَا وَقَرَارُهَا
- إِذَا طَالَتْ أَغْصَانُ شَجَرَةِ الْجَارِ حَتَّى دَخَلَتْ بَيْتَ الرَّجُلِ فَلَهُ أَنْ يُطَالِبَ جَارَهُ بِإِزَالَةِ غُصْنِهِ
- ١٠٨ [٢٣-٢٤] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...﴾
- مُنَاسِبَةٌ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ لِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾
- ١٠٩ أَشْرَفُ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ: الْعُبُودِيَّةُ، وَالرَّسَالَةُ
- ١٠٩ وَصَفَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْعُبُودِيَّةِ حِينَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ، وَفِي الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَحَالِ التَّحَدِّيِّ بِالْقُرْآنِ
- ١٠٩ تَزْدَادُ حَرَارَةُ النَّارِ بِالْحِجَارَةِ الَّتِي تُحْمَى فِيهَا
- ١١٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٢٣-٢٤)
- ١١٠ تَحَدَّى اللَّهُ لِلْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ
- ١١١ عُلُوُّ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى عُلُوِّ ذَاتٍ، وَعُلُوِّ صِفَةٍ
- ١١١ عُلُوُّ اللَّهِ بِذَاتِهِ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ، وَالْعَقْلِ، وَالْفِطْرَةِ
- ١١٢ قِصَّةُ أَبِي الْمَعَالِيِّ مَعَ أَبِي الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيِّ فِي إِثْبَاتِ عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى
- ١١٣ لَا يَعْنِي عُلُوُّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مُحْضُورًا بِشَيْءٍ
- ١١٣ مَا مِنْ صِفَةٍ كَمَالٍ إِلَّا وَلِلَّهِ أَعْلَاهَا وَأَكْمَلُهَا

- ١١٤ لا يستحقُّ العبادةَ إِلَّا مَنْ كانَ كاملَ الصِّفاتِ
 القرآنُ كلامُ الله، أجمع على هذا السَّلفُ وأئمةُ الأُمَّة، تكلم به الله، وسَمِعَهُ منه جبريلُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ، وألقاه على قلبِ النبي ﷺ ١١٤
 يُعتبرُ الكلامُ صفةً من صفاتِ الكَمال، وبهذا عِلْمُ أَنَّ القرآنَ كلامُ الله ليس مخلوقًا. ١١٥
 يَشْرَفُ الكلامُ بِشَرَفِ المتكلم به ١١٥
 أشرفُ المناقبِ للإنسان: أن يكونَ عَبْدًا لله تعالى ١١٥
 لا يُمكن أن يَخْلُو الإنسانُ من أن يكونَ مُتَدَلِّلًا لشيءٍ ١١٥
 لا حقَّ للنبي ﷺ في شيءٍ من خصائصِ الرُّبُوبِيَّةِ ١١٥
 لو كان النبي ﷺ يَمْلِكُ ضرًّا ورشدًا لأحدٍ لَأَنقَذَ مَنْ شاء من الهلاكِ والضَّلالِ ... ١١٦
 ضلال مَنْ يُعَلِّقُ حاجاته بالنبي ﷺ، ويرى أنَّها حينئذٍ أقربُ أن تُقْضَى من أن يُنزَلها
 رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ ١١٦
 ضلَّ في مقامِ النبي ﷺ طائِفَتان ١١٦
 العُبودِيَّةُ لله تعالى تَنقَسِمُ إلى قِسْمَيْن ١١٦
 ما من مخلوقٍ إِلَّا وهو ذليلٌ لِقَضَاءِ الله وقَدَرِهِ ١١٧
 لا يُمدَحُ الإنسانُ بالعبوديةِ الكونيةِ لله تعالى ١١٧
 من آدابِ المُحاجةِ والمناظرة: تحذِّي الحُصْمَ، وفائدةُ ذلك ١١٧
 لا ينبغي للإنسان أن يَتَحَدَّى إِلَّا إذا وثقَ أَنَّ حُصْمَهُ عاجزٌ عن أن يَغْلِبَهُ ١١٧
 لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتي بسورةٍ من مِثْلِ القرآن، ولو دَعَا مَنْ دَعَا لِيُعينَهُ ١١٨
 دلالةُ القرآن على أَنَّ الجنةَ والنَّارَ موجودتان الآن، ولا تَفْنِيان أبدًا ١١٨
 ذَكَرَ اللهُ تَأْيِيدَ النَّارِ في القرآن في ثلاثة مواضع ١١٩

- سَيَقَى الْقُرْآنُ آيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ..... ١١٩
- [٢٥] قول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ ١٢٠
- معنى كون القرآن مثاني..... ١٢٠
- سبب تسمية البشارة بهذا الاسم..... ١٢١
- كُلُّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِسْتِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ عَامِلٌ لِلصَّالِحَاتِ..... ١٢١
- لَا صَلَاحَ لِأَيِّ عَمَلٍ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ..... ١٢١
- لَا تَتَحَقَّقُ مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ الْعِبَادَةِ لِهَدْيِهِ فِي أُمُورِ سِتَّةٍ..... ١٢١
- مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ بِعِبَادَةٍ مُقَيَّدَةٍ بِسَبَبٍ لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ فَهِيَ مَرْدُودَةٌ عَلَى فَاعِلِهَا..... ١٢٢
- الأصل في معنى الجنة، وسبب تسميتها بذلك..... ١٢٢
- الأنهار التي تجري في الجنة على أربعة أصناف..... ١٢٢
- ثمرات الجنة تتشابه في اللون والحجم، وتختلف في الطعم، وفي هذا زيادة لنعيم أهل الجنة..... ١٢٣
- أزواج الجنة مطهرات في الظاهر والباطن..... ١٢٣
- فوائد الآية (٢٥)..... ١٢٣
- ينبغي أن يُبَشِّرَ الإنسان بثواب عمله..... ١٢٣
- مجرد العقيدة لا تكفي لدخول الجنة، بل لابد من إيمان وعمل صالح..... ١٢٣
- كلما كان الإنسان أقوى إيماناً وأكثر عملاً كان أحق بأن يُبَشِّرَ بالجنة..... ١٢٣
- العمل الفاسد لا يرفع صاحبه عند ربه، ولا ينفعه..... ١٢٤
- لا يجوز للإنسان أن يُصَلِّيَ بغير وضوء أو بنجاسة لا يُغْفَى عنها، ومن فعل هذا كان كالمستهزئ بالله..... ١٢٤

- في الجنة قُصُورٌ شَاخِئَةٌ، وَأَشْجَارٌ عَالِيَةٌ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾..... ١٢٤
- أَنهَارٌ وَثَمَارُ الْجَنَّةِ لَا تُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي أَسْمَائِهَا ١٢٤
- الْحَيَاةُ فِي الْآخِرَةِ - فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - تَخْتَلِفُ عَنِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا ١٢٥
- كَمَا يَتَنَعَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِطَعْمِ ثَمَارِهَا يَتَنَعَّمُونَ بِأَلْوَانِهَا ١٢٥
- الْبَشَارَةُ بِالشَّيْءِ تَقْتَضِي الْحَثَّ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي الْبَشَارَةِ ١٢٦
- [٢٦] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .. ١٢٦
- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فِي الْقُرْآنِ بِالْعَنْكَبُوتِ، وَبِالدُّبَابِ، وَبِالْبَعُوضَةِ ١٢٧
- انْقِسَامُ النَّاسِ نَحْوَ الْأَمْثَالِ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ ١٢٧
- ثُبُوتُ صِفَةِ الْحَيَاءِ لِلَّهِ مِنْ غَيْرِ الْحَقِّ ١٢٨
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَقِدَ ثُبُوتَ صِفَةِ الْحَيَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى ١٢٨
- اجْتِمَاعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ الصِّفَاتُ الْأَرْبَعُ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ الْحَبِيرِ ١٢٨
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٢٦) ١٢٩
- مَنْ أَرَادَ الْبَيَانَ وَالْإِيضَاحَ فَعَلَيْهِ بَضْرِبُ الْأَمْثَالِ ١٢٩
- الْهُدَايَةُ وَالضَّلَالَةُ بِيَدِ اللَّهِ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُلْجَأَ إِلَى رَبِّهِ بِطَلَبِ الْهُدَايَةِ ١٣٠
- كُلُّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ أَوْ أَضَلَّهُ فَإِنَّهَا كَانَتْ ذَلِكَ عَنْ حِكْمَةٍ ١٣٠
- مَنْ طَلَبَ الْخَيْرَ، وَسَلَكَ سُبُلَهُ، وَفَقَّ لَهُ ١٣٠
- الْإِرَادَةُ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ١٣٠
- الْفَرْقُ بَيْنَ نَوْعِي الْإِرَادَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اللَّهِ ١٣١
- قَدْ يَكُونُ فُسْقُ الْعَبْدِ سَبَبًا لَضَلَالِهِ ١٣١

- ١٣١ قد يكونُ الْفِسْقُ كُفْرًا
- ١٣٢ [٢٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَتَفَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾
- ١٣٢ عَهْدُ اللَّهِ الَّذِي عَهِدَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ
- ١٣٢ قَطَعَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ يشملُ حقوقُ الله وحقوقُ العباد
- ١٣٢ المعاصي من أسباب الفسادِ في الأرض
- ١٣٣ كُلُّ إِنْسَانٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ
- ١٣٣ ■ فوائد الآية (٢٧)
- ١٣٣ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَمَنْ أَوْفَى أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بعَهده
- ١٣٤ الإصلاحُ في الأرض من صفات أهلِ الْحَيْرِ، والإفسادُ فيها من صفاتِ الْفَاسِقِينَ
- ١٣٥ [٢٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ...﴾ ...
- ١٣٥ ■ فوائد الآية (٢٨)
- الإنسانُ قبل أن تُنْفَخَ فيه الرُّوحُ ميِّتٌ، لا يَثْبُتُ لَهُ أَحْكَامُ الْأَحْيَاءِ، ولو سَقَطَ قبل ذلك لم تَثْبُتْ لَهُ أَحْكَامُ الْمَيِّتِ
- ١٣٥ متى تُنْفَخُ الرُّوحُ في الإنسان؟
- ١٣٦ قَوْلُ مَنْ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ﴾ من باب التَّلْيِيسِ والتَّمويه
- سَبَبُ انْتِقَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُحَاجَّةِ الرَّجُلِ الْكَافِرِ مِنَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ إِلَى إِخْرَاجِ الشَّمْسِ
- ١٣٦ لِيُخْرِصَ الْإِنْسَانُ إِلَّا يَفْقِدَهُ رَبُّهُ حَيْثُ أَمَرَهُ، وَأَلَّا يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاَهُ
- ١٣٧ قد يُطْلَقُ الْمَوْتُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَيَاةٌ
- ١٣٧ [٢٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾

- فوائد الآية (٢٩) ١٣٨
- تَحَدَّى اللَّهُ الْخَلْقَ أَنْ يَخْلُقُوا شَيْئًا وَلَوْ قَلَّ ١٣٨
- الأصلُ في كلِّ ما في الأرض الحلَّ والإباحة، وَمَنْ ادَّعى تحريمَ شيءٍ فعليه الدَّلِيلُ ١٣٨
- خَلَقَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الأرضَ قبلَ السَّمَوَاتِ، ودَحَا الأرضَ بعدَ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ١٣٩
- عَلَّمَ اللَّهُ عَلَى نَوَعَيْنِ ١٤٠
- دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ سَبْعٌ ١٤٠
- [٣٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ... ١٤١
- إِعْرَابُ (إِذ) الَّتِي تُبْتَدَأُ بِهَا الْقِصَصُ فِي الْقُرْآنِ ١٤١
- الْمَلَائِكَةُ خُلِقَتْ مِنْ نُورٍ، خَلَقَهَا اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ ١٤٢
- كَانَ خَلْقُ الْجَنِّ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٤٢
- فوائد الآية (٣٠) ١٤٢
- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بَصَوْتٌ مَسْمُوعٌ، وَحُرُوفٌ مَتَالِيَةٌ ١٤٢
- الرُّبُوبِيَّةُ الْخَاصَّةُ تَقْتَضِي عَنَاءً أَكْثَرَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ الرُّبُوبِيَّةُ الْعَامَّةُ ١٤٣
- رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ عَلَى نَوَعَيْنِ ١٤٣
- الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ عُقُولٌ وَفُهُومٌ، يَتَكَلَّمُونَ وَيُحَاوِرُونَ ١٤٣
- الْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ عِبَارَةٌ عَنْ قُوَى الْخَيْرِ قَوْلٌ بَاطِلٌ يَرُدُّهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ١٤٣
- يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِ الذَّاتِ اللَّازِمَةِ، وَبِصِفَاتِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَشِيئَتِهِ ١٤٤
- كَانَ فِي الْأَرْضِ عَمَارٌ قَبْلَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٤٤
- كَانَ مَنْ سَبَقَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْأَرْضِ فِيهِمْ سَفْكُ الدِّمَاءِ، وَالْإِفْسَادُ فِي
الأرض ١٤٤

- تَعْظِيمُ شَأْنِ الدِّمَاءِ ١٤٤
- عَطْفُ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ يَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ وَالْاهْتِمَامِ بِهِ ١٤٤
- الْمَلَائِكَةُ يَشْغُلُونَ أَوْقَاتَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَقْدِيسِهِ ١٤٤
- مَعْنَى تَسْبِيحِ اللَّهِ ١٤٤
- يُنَزِّهِ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كُلِّ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ ١٤٤
- التَّشْبَهُُ بِالنَّاقِصِ نَقْصٌ، وَلِذَا يُنَزِّهِ اللَّهُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ ١٤٥
- دَلَالَةُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقَدِّسُ لَكَ﴾ عَلَى إِخْلَاصِ الْمَلَائِكَةِ ١٤٥
- بَيَانُ خَطِئِ مَنْ يُحَوِّلُ (أَفْعَلَ) التَّفْضِيلَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ إِلَى اسْمِ فَاعِلٍ ١٤٦
- إِذَا أَشْكَلَ عَلَى الْعَبْدِ مَسْأَلَةٌ فَلْيَكِلْ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ، وَلَيْسَأَلْهُ أَنْ يَزِيدَهُ عِلْمًا ١٤٦
- [٣٢-٣١] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ ١٤٦
- عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ ١٤٦
- الْحِكْمَةُ مِنْ سُؤَالِ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ يُنَبِّؤُوهُ بِأَسْمَاءِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ ١٤٦
- لِمَاذَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: عَرَضَهَا؟ ١٤٧
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٣٢-٣١) ١٤٧
- مِنْ تَفْضِيلِ اللَّهِ لآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ١٤٧
- كُلُّ عِلْمٍ عِنْدَ مَخْلُوقٍ فَإِنَّهَا هُوَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٤٧
- مَعْنَى اسْمِي اللَّهِ: (العليم) و(الحكيم)، وَاسْتِثْقَاؤُهَا ١٤٨
- [٣٣] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَتَدَارَأُ مِنْهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ...﴾ ١٤٨
- غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَشْمَلُ أَمْرَيْنِ ١٤٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٣) ١٤٩

- بُطْلَانُ قول مَنْ قال: إِنَّ كَلامَ اللَّهِ هو المعنى القائمُ بالنَّفْس ١٤٩
- من نِعْمَةِ اللَّهِ على عَبْدِهِ: أن يُبَيِّنَ له الحَقَّ بالطَّرِيقِ التي يطمئنُّ بها ١٤٩
- يُجِبُّ على العبد أن يَشْكُرَ رَبَّهُ على ما عَلَّمَهُ من الحَقِّ ١٥٠
- للملائكة إرادةٌ وقُدْرَةٌ على أَعْمَالِهِم ١٥٠
- [٣٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ ... ١٥١
- سُجُودُ الملائكة لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس سُجُودَ عِبَادَةٍ، وَلَكِنَّهُ سُجُودُ تَعْظِيمٍ ١٥١
- الأصل في صِيغَةِ الْعُمُومِ: أن تَشْمَلَ جميع أفرادها ١٥١
- لماذا جَمَعَ اللهُ بين الإِباء والاستكبار في وَصْفِ اسْتِنكَافِ إبليس أن يَسْجُدَ لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ ١٥١
- سببُ اسْتِكْبَارِ إبليس أن يَسْجُدَ لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٥١
- الفرقُ بين الاستثناء المتَّصل والاستثناء المُتَفَصِّل ١٥٢
- الأصلُ في الاستثناء: أن يكون مُتَّصِلًا ١٥٢
- اختلافُ أهلِ العِلْمِ في نوعِ الاستثناء في قول الله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ١٥٢
- إذا لم يَكُنْ إبليسُ من الملائكة فكيف صَحَّ توجُّهُ الخِطَابِ إليه بالسُّجُودِ لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع أن المأمورَ هم الملائكة؟ ١٥٢
- غَلَبَ على إبليس طَبْعُهُ الخبيثُ، فاستنكف أن يَسْجُدَ لآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٥٢
- قد تأتي (كان) مَسْلُوبَةً الدَّلالة على الزَّمان، ويكون المراد بها: تحقُّقُ اتِّصافِ المَوْصُوفِ بالصفة ١٥٣
- فوائد الآية (٣٤) ١٥٣
- عِبَادَةُ اللَّهِ هي طَاعَتُهُ، ولو كان بأمرٍ يكون شِرْكًَا لولا أَمْرُ اللَّهِ به ١٥٣

- ١٥٤ مَنْ تَظَاهَرَ بِعَمَلٍ قَوْمٍ كَانَ مِنْهُمْ
- ١٥٤ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَامِلُ مَنْ تَلَبَّسَ بِالْإِسْلَامِ ظَاهِرًا مُعَامَلَةً الْمُسْلِمِينَ
- ١٥٤ التَّحْذِيرُ مِنَ السَّرَائِرِ الْحَقِيقَةِ، وَوُجُوبِ تَنْقِيَةِ الْقَلْبِ مِنْهَا
- ١٥٥ تَرَكُ السُّجُودَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُفْرٌ
- ١٥٥ الْإِسْتِدْلَالُ بِكُفْرِ إِبْلِيسَ لَمَّا اسْتَكْبَرَ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ ﷺ عَلَى أَنَّ تَارَكَ الصَّلَاةَ كَافِرٌ
- ١٥٦ [٣٥] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا...﴾
- ١٥٦ زَوْجُ آدَمَ هِيَ حَوَاءُ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضَلْعِ آدَمَ بِلَا أُمٍّ
- ١٥٦ الْمِرَادُ بِالْجَنَّةِ الَّتِي أُسْكِنَهَا آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ١٥٦ إِذَا كَانَ لِلْفَرْقِ مَعْنَى مَقْهُومٍ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ حُمِلَ عَلَيْهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ
- ١٥٦ لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ نَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِِيَ عَنْهَا آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَبَبَ ذَلِكَ
- ١٥٧ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٣٥)
- ١٥٧ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ مَبْدَأُ خَلْقِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ
- ١٥٧ النَّاسُ مِنْ حَيْثُ الْإِنْجَابُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ
- ١٥٧ قَدْ يَأْتِي الزَّوْجُ يُرَادُ بِهِ الصَّنْفُ
- ١٥٨ قَدْ تُسَوَّلُ لِلْعَبْدِ نَفْسُهُ حَتَّى يَخْتَارَ الْأَدْنَى عَلَى الْأَفْضَلِ
- ١٥٨ يُغْنِي التَّعْيِينَ بِالْإِشَارَةِ عَنِ التَّعْيِينِ بِالنُّطْقِ، وَثَمَرُهُ هَذَا
- ١٥٨ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَحْمِيَ شَيْئًا نَهَى أَنْ يُقْتَرَبَ مِنْهُ
- ١٥٩ إِقْدَامُ الْعَبْدِ عَلَى الْمَحْرَمِ ظُلْمٌ، وَوَجْهُ ذَلِكَ
- ١٥٩ [٣٦] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ...﴾
- ١٥٩ اسْتِيقَاقُ كَلِمَةِ: (شَيْطَان)

- اِخْتِلَافُ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ ١٥٩
- تَوَجُّهُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَهْبِطُوا﴾، مَعَ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى اثْنَيْنِ ١٦٠
- مَنْ جَهَلَ مَكَانَ مَوْتِهِ فَهُوَ بِجَهْلِ زَمَانِ مَوْتِهِ أَوَّلَى ١٦١
- فوائد الآية (٣٦) ١٦١
- مِنْ عَدَاوَةِ إِبْلِيسَ لِلْإِنْسَانِ: إِخْرَاجُهُ لِأَبَوَيْهِ آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ ١٦١
- دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ لِلْأَسْبَابِ تَأْثِيرًا فِي مُسَبِّبَاتِهَا ١٦١
- انْقِسَامُ النَّاسِ فِي تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ فِي مُسَبِّبَاتِهَا ١٦١
- التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَأَنَّهُ بِمَعْصِيَةٍ وَاحِدَةٍ أُخْرِجَ أَبَوَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ١٦٢
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ عَدُوِّهِ إِبْلِيسَ غَايَةَ التَّحَرُّزِ ١٦٣
- الْأَرْضُ هِيَ مُسْتَقَرُّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ، وَهِيَ مُسْتَقَرُّ لَنْ يَدُومَ ١٦٣
- كُلُّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَى ابْنِ آدَمَ يُنْعِدُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَيُذْنِيهِ مِنَ الْآخِرَةِ ١٦٣
- [٣٧] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾ ١٦٤
- الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاها آدَمُ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا ١٦٤
- قَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُذْنِبَ ١٦٤
- فوائد الآية (٣٧) ١٦٤
- رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ ١٦٤
- تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ تَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ ١٦٥
- التَّوْبَةُ النَّصُوحُ مَا جَمَعَتْ خَمْسَةَ شُرُوطٍ ١٦٥
- وَقْتُ قَبُولِ التَّوْبَةِ ١٦٥

- اسمُ الله (التَّوَاب) له مَعْنَيَانِ ١٦٦
- وَجْهٌ مجيء اسمِ الله (التَّوَاب) بصيغة المبالغة ١٦٦
- رَحْمَةُ الله على نوعين ١٦٦
- كُلُّ الخَلْقِ قد دَخَلُوا في رَحْمَةِ الله مؤمنهم وكافرهم ١٦٦
- أَسْمَاءُ الله تتضمن الدَّلالة على ذاتِهِ، وعلى الصِّفَةِ، وعلى الأثر المترتب عليها ١٦٧
- [٣٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى...﴾ ١٦٧
- النَّاسُ أمامَ هُدًى الله على قِسْمَيْنِ ١٦٧
- مَنْ اتَّبَعَ هُدًى الله فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ وَلَا يَحْزَنُ، وسببُ ذلك ١٦٨
- الأصل في الخُلُود: المُكثُ الدَّائِمُ، ولا يكون مؤقتًا إِلَّا بدليل ١٦٨
- فوائد الآية (٣٨) ١٦٨
- التَّمْهِيدُ للكلام من حُسْنِ التَّعْلِيمِ، ولو تَصَمَّنَ تَكَرَّارًا ١٦٨
- من رَحْمَةِ الله عِبَادَهُ: أَنَّهُ لم يَكِلِ الأمرَ في عِبَادَتِهِ إلى عُقُولِهِمْ ١٦٩
- لَا يُطَلَّبُ الهُدًى إِلَّا من الله جَلَّوَعَلَا ١٦٩
- دَلَالَةُ الإِضَافَةِ في قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَبْعِ هُدَاى﴾ ١٦٩
- مَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ فعليه بِاتِّبَاعِ هُدًى الله ١٦٩
- [٣٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ...﴾ ١٧٠
- فوائد الآية (٣٩) ١٧٠
- من كَمَالِ الْقُرْآن: أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَثَوَابَهُمْ ذَكَرَ أَهْلَ النَّارِ وَعِقَابَهُمْ، وهذا من معاني كونه مَثَانِي، والحكمةُ من هذا ١٧٠
- إِذَا اجْتَمَعَ الكُفْرُ والتَّكْذِيبُ في سياقٍ واحدٍ كان التَّكْذِيبُ في الخبر، والكُفْرُ في الأمر. ١٧١

- آياتُ الله على نوعين ١٧١
- التكذيبُ بالآيات الكونية يقع على صُور ١٧١
- تحدَّى الله الخلقَ كلَّهم أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن ١٧٢
- ذَكَرَ الله تأييدَ عَذَابِ النَّارِ في ثلاثةَ مواضعَ ١٧٢
- الخلافُ في تأييدِ النَّارِ خلافُ مَرْجُوحٍ مُخالفٍ لصريحِ القرآن ١٧٢
- [٤٠] قول الله عزَّوجلَّ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ ... ١٧٣
- مَنْ هو إِسْرَءِيلُ ؟ ١٧٣
- معنى إِسْرَءِيلَ: العابدُ لله ١٧٣
- ذِكْرُ النِّعْمَةِ يكونُ بِالْقَلْبِ وبِاللِّسَانِ ١٧٣
- ما أَنْعَمَ اللهُ به على أَوَّلِ الْأُمَّةِ فهو نِعْمَةٌ على آخرها ١٧٣
- مراتبُ مصادر تفسير القرآن ١٧٤
- الرَّهْبَةُ أَشَدُّ الْخَوْفِ ١٧٤
- فوائد الآية (٤٠) ١٧٤
- تَذَكُّرُ النِّعَمِ من أسبابِ شُكْرِهَا ١٧٤
- لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ في حياته من رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ ١٧٥
- [٤١] قول الله عزَّوجلَّ: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ ... ١٧٥
- كانت قبائلُ الْيَهُودِ في المدينة على عهدِ النَّبِيِّ ﷺ ثلاثَ قبَائِلَ ١٧٥
- تصديقُ القرآن لِمَا سَبَقَهُ من الكُتُبِ له معنيان ١٧٥
- جوابُ الإشكالِ في إفرادِ الصَّيْغَةِ في قول الله تعالى: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ مع أَنَّ الْمُخَاطَبَ جماعةٌ ١٧٦

- ١٧٦ حَالُ الْيَهُودِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَالُهُمْ بَعْدَ بَعْثَتِهِ
- ١٧٦ انْقَلَبَتِ الْأُمُورُ عَلَى عَكْسٍ مُرَادِ الْيَهُودِ بِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ
- ١٧٧ تَعْرِيفُ التَّقْوَى
- ١٧٧ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤١)
- ١٧٧ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مُلْزَمُونَ بِالْإِيَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَعِنْدَهُمْ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ
- ١٧٧ لَا يَتِمُّ إِيَانٌ مِّنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ
- ١٧٧ أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِهِ
- ١٧٧ يُلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ نَازِلًا أَنْ تَنْبُتَ لَهُ صِفَةُ الْعُلُوِّ
- ١٧٧ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْعَالِمَ عَلَى مَخَالَفَةِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مِنْ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْجَاهِلَ
- ١٧٨ كَيْفَ يَكُونُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَوَّلَ كَافِرٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ كَفَرَتْ بِهِ قَبْلَهُمْ ؟
- ١٧٨ كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَثُرَ
- ١٧٨ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ يَتَغَيَّرُ بِذَلِكَ عَرْضًا مِنَ الدُّنْيَا
- ١٧٨ كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ وَجُوبِ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالتَّقْوَى، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ؟
- ١٧٨ [٤٢] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ ...﴾
- ١٧٩ كَانَ أَحْبَابُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُهْبَانُهُمْ يَخْلِطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ
- ١٨٠ سَبَبُ كَيْتَمَانِ الْيَهُودِ لِلْحَقِّ
- ١٨٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (٤٢)
- ١٨٠ كُلُّ مَا تُهَيِّتُ عَنْهُ أُمَّةٌ سَابِقَةٌ مَّا هُوَ قَبِيحٌ لِّذَاتِهِ فَإِنَّهُ تُنْهَى عَنْهُ سَائِرُ الْأُمَمِ بَعْدَهَا
- ١٨٠ التَّحْذِيرُ مِنْ زَخْرَفَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ لِأَقْوَالِهِمْ

- ١٨٠ من طرائق أهل البدع: الإتيان باللفاظ مجملة.
- ١٨١ كل من زخرف باطله فقد شابه اليهود والنصارى
- ١٨١ كتمان الحق له حالان
- ١٨١ القول على الله بلا علم من محرمات الشريعة
- ١٨٢ [٤٣] قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾
- ١٨٢ المراد بالركوع في قول الله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾
- ١٨٢ ■ فوائد الآية (٤٣).
- ١٨٢ إقامة الصلاة على مرتبتين
- ١٨٣ يجب على العبد أن يذل ويخضع لربه
- هل يصح الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ على وجوب صلاة الجماعة؟
- ١٨٣ [٤٤] قول الله عز وجل: ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ...
- ١٨٤ الفرق بين البر والتقوى
- ١٨٤ أول ما يندأ به العاقل: أن يصلح نفسه، ثم يصلح غيره
- ١٨٤ ■ فوائد الآية (٤٤).
- ١٨٤ الإنكار على من يأمر الناس بالبر، ويترك نفسه
- ١٨٥ ترك الأمر بالخير لما أمر به وفعله لما نهى عنه من أسباب استخفاف الناس بذلك
- ١٨٥ وجوب البداية بإصلاح النفس
- ١٨٥ يلحق العالم من اللوم ما لا يلحق الجاهل
- ١٨٥ كل شيء خالف الشرع فهو مخالف للعقل أيضا

- الفرق بين الذكاء والعقل ١٨٥
- [٤٥] قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ ١٨٦
- مَرْجِعُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ١٨٦
- الْخُشُوعُ هُوَ أَعْظَمُ الذُّلِّ وَأَكْمَلُهُ ١٨٦
- فوائد الآية (٤٥) ١٨٦
- مَنْ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْأُمُورِ لَا يَتِمُّ لَهُ مَطْلُوبُهُ ١٨٦
- الصَّبْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ١٨٦
- مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى مُكَابَدَةِ الْأُمُورِ: الصَّلَاةُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ ١٨٧
- قِصَّةُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَقْطَعُوا قَدَمَهُ ١٨٨
- مَنْ كَانَ خَاشِعًا لِلَّهِ مُحِبًّا لَهُ سَهَّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالصَّبْرُ ١٨٨
- [٤٦] قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ١٨٨
- فوائد الآية (٤٦) ١٨٨
- مَنْ أَيقَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ عَاشَ سَعِيدًا، وَقَوِيَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ١٨٩
- [٤٧-٤٨] قول الله عز وجل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ ١٨٩
- نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِهِمْ ١٨٩
- فوائد الآيتين (٤٧-٤٨) ١٩٠
- يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يُذَكِّرَ الْمَدْعُوَّ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ١٩٠
- حَقِيقَةُ الشُّكْرِ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ ١٩٠
- تَفْضِيلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَانِهِمْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ١٩٠
- لَا وَقَايَةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِفِعْلِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ١٩٠

- لا تُقْبَلُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ لَا يَرْضِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمَّا مَنْ ارْتَضَاهُمْ فَتَنْفَعُهُمُ
الشَّفَاعَةُ ١٩٠
- الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِشَرِطَيْنِ ١٩٠
- [٤٩-٥٠] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ ١٩١
- سَبَبُ تَقْتِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ لِأَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٩٢
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٤٩-٥٠) ١٩٢
- أَكْبَرُ إِذْلَالٍ لِلشُّعُوبِ أَنْ يُقْتَلَ الرَّجَالُ، وَتُسْتَبْقَى النِّسَاءُ ١٩٣
- ابْتِلَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ يَكُونُ بِالمَصَائِبِ، وَيَكُونُ بِالنِّعَمِ ١٩٣
- لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمَنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ١٩٣
- ثُبُوتُ الْحِكْمَةِ فِيهِمَا يُقَدَّرُهُ اللَّهُ وَفِيهِمَا يَشْرَعُهُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدَّرَ أَوْ يَشْرَعَ شَيْئًا عَبَثًا .. ١٩٣
- قَدْ تَخْفَى حِكْمَةُ اللَّهِ فِي أَعْمَالِهِ لِقُصُورِ فِينَا أَوْ تَقْصِيرِ مِنَّا ١٩٣
- تَخْتَلِفُ قُوَّةُ الْبَلَاءِ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْمُبْتَلَى ١٩٤
- مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي فَرْقِ الْبَحْرِ: أَنْ جَعَلَ بَيْنَ الطُّرُقِ فُرْجًا يَنْظُرُ النَّاسُ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ١٩٤
- مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّهُ وَهُوَ يُشَاهِدُ ١٩٥
- الْجَوَابُ عَمَّا أَيْسَ أَنْ يَهْزِمَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ الْيَوْمَ بِسَبَبِ تَقَدُّمِهِمْ ١٩٥
- إِذَا صَدَّقَ الْمُسْلِمُونَ رَبَّهُمْ هَيَّا لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ ١٩٥
- [٥١-٥٢] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ...﴾ ١٩٥
- فِتْنَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ ١٩٦
- كَيْفَ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ؟ ١٩٦

- فوائد الآيتين (٥١-٥٢) ١٩٧
- كان وَعَدَ الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثين ليلةً، ثُمَّ زِيدَ عليها عشرٌ ١٩٧
- مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ في صِفَةِ الكلامِ لله عَزَّوَجَلَّ ١٩٧
- كلامُ الله باعْتِبَارِ أَصْلِهِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، وباعْتِبَارِ آحَادِهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ ١٩٧
- قد عَلِمَ بنو إسرائيل حين عَبَدُوا الْعِجْلَ أَنَّهُمْ على ضلالٍ ١٩٨
- مَنْ مِنَ اللَّهِ عليه بالعَفْوِ والتَّوْبَةِ فليَشْكُرْ رَبَّهُ على هذا ١٩٨
- إثباتُ الْحِكْمَةِ لله في أفعاله، وخَفَاؤُهَا إِنَّمَا هو بسببِ مَنَّا ١٩٨
- [٥٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ...﴾ ١٩٩
- أظلمُ الظُّلْمِ: أن يَتَّخِذَ الْعَبْدُ إِلَهًا يَعْبُدُهُ غيرَ الَّذِي خَلَقَهُ ١٩٩
- قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يُراد به أن يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فما وَجْهُ هذا التَّعْبِيرِ؟ ١٩٩
- فوائد الآية (٥٤) ٢٠٠
- ينبغي للدَّاعِيَةِ أن يتلَطَّفَ مع مَنْ يَدْعُوهُ، وأن يستعمل الألفاظَ التي تَجْعَلُهُ يَقْبَلُ النَّصِيحَةَ ٢٠٠
- ينبغي للدَّاعِيَةِ إذا ذَكَرَ دَاءَ لِلنَّاسِ في دينهم أن يَذْكُرَ لَهُمْ دَوَاءَهُ ٢٠٠
- من سَفَهَ بني إسرائيل: أَنَّهُمْ صَنَعُوا عِجْلًا بأيديهم، ثُمَّ عَبَدُوهُ ٢٠٠
- من حَقَّ الْبَارِئُ الَّذِي خَلَقَكَ: أن تتوبَ إِلَيْهِ، وتَفَرَّ من مَعْصِيَتِهِ إلى طاعته ٢٠٠
- شُرُوطُ التَّوْبَةِ الْخَمْسَةُ التي لا تصحُّ بدونها ٢٠٠
- كيف يُخْلِصُ الْعَبْدُ في توبته؟ ٢٠٠

- إذا تاب العبدُ من مُحَرَّم تَرَكَه حَالًا، وإذا تاب من تَرَكَ واجبٍ فَعَلَهُ إذا أَمَكَّن أو فَعَلَ
بدله ٢٠١
- مَنْ تاب إلى الله، وهو يُنَوِي أن يعودَ، فليس بتائبٍ حَقِيقَةً ٢٠١
- وقتُ قبولِ التَّوْبَةِ ٢٠١
- من نِعْمَةِ الله على هذه الأُمَّة: أَنَّهُ لم يجعل تَوْبَتَهُ عليها كَتَوْبَتِهِ على بني إِسْرَائِيلَ في
الثَّقَل ٢٠١
- إِقْلَاعُ العبدِ عن الذَّنْبِ والتَّوْبَةُ منه خيرٌ من الاستِمْرَارِ عليه ٢٠٢
- قد يكونُ العبدُ بعد التَّوْبَةِ أَحْسَنَ حَالًا منه قبل الذَّنْبِ ٢٠٢
- من مَنَّةِ الله على عِبَادِهِ: قَبُولُ تَوْبَتِهِمْ إذا صَدَّقُوا فيها ٢٠٢
- تُبُوتُ اسمي الله: (التَّوَابُ) و(الرَّحِيمُ)، ومعناها ٢٠٢
- رَحْمَةُ الله لِحَلِّقِهِ على قسمين ٢٠٢
- [٥٥-٥٧] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ... ٢٠٣
- عِنَادُ بني إِسْرَائِيلَ واستِكْبَارُهُمْ حين أَبَوْا أن يُؤْمِنُوا حتى يَرَوْا الله عِيَانًا ٢٠٣
- الشُّكْرُ: أن يقوم العبدُ بطاعة المُنْعَم، ولا يكفي في ذلك مُجَرَّدُ القول ٢٠٣
- الشُّكْرُ يكونُ بالقلب واللسان والجوارح، وكيف يكونُ ذلك؟ ٢٠٤
- الغمام: السَّحَابُ الأَبْيَضُ الَّذِي يَقي من حرِّ الشَّمْسِ ٢٠٤
- الْمُنُّ والسَّلْوَى اللَّذَانِ أَنْزَلَهُمَا اللهُ على بني إِسْرَائِيلَ ٢٠٤
- كيف كانت الكَمَاءَةُ مِنَ الْمُنِّ؟ ٢٠٤
- من مَنَّةِ الله على عَبْدِهِ: أن يُيسِّرَ له الاستِمْتَاعَ بالطَّيِّبَاتِ ٢٠٥
- مَنْ فَرَطَ في حقِّ الله فليس بظالمٍ لله، ولكنَّه ظالمٌ لِنَفْسِهِ ٢٠٥

- نَفْسُ الْإِنْسَانِ أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرَعَاهَا، وَلَا يُوقِعَهَا فِي الْمَهْلَكَةِ ٢٠٥
- فوائد الآيات (٥٥-٥٧) ٢٠٦
- قَدْ يُعَاجِلُ الْإِنْسَانُ بِالْعُقُوبَةِ إِذَا عَظُمَ ذَنْبُهُ ٢٠٦
- أَخَذَتِ الصَّاعِقَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَمُوتُونَ ٢٠٦
- أَسْبَابُ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ: خَيْرٌ يُثْلَبُ، أَوْ شَرٌّ يُدْفَعُ ٢٠٦
- كَثِيرًا مَا يُخْتِمُ اللَّهُ آيَاتِ الْأَحْكَامِ بِاسْمِهِ (العليم) و(الحكيم) ٢٠٧
- السَّحَابُ لَا يُجْرِي إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَقِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي سُقِيَ حَقِيقَتَهُ وَخَدَّاهَا ٢٠٧
- لَمْ يَأْذِنْ اللَّهُ لِعِبَادِهِ بِأَكْلِ غَيْرِ الطَّيِّبَاتِ ٢٠٨
- كُلُّ شَيْءٍ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فَهُوَ خَبِيثٌ ٢٠٨
- قَدْ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ نِعْمَةً مِنْهُ؛ عُقُوبَةً لَهُمْ فِي ذَلِكَ ٢٠٨
- قَدْ يُحَرِّمُ الْعَبْدُ نِعْمَةً مِنَ النِّعَمِ بِأَمْرٍ نَحْوِ بَيْنِهِ وَبَيْنَهَا ٢٠٨
- عِلْمُ الْعَبْدِ أَنَّ النِّعَمَ الَّتِي عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ يُوجِبُ لَهُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ ٢٠٩
- لَا يَضُرُّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ ٢٠٩
- إِذَا كَانَ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ فِي الْمَهَالِكِ الْحَسِّيَّةِ فَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُلْقِيَهَا فِي الْمَهَالِكِ الْمَعْنَوِيَّةِ ٢٠٩
- مَا يَضُرُّ الدِّينَ أَوَّلَى بِالْمُرَاعَاةِ مِمَّا يَضُرُّ الْبَدَنَ ٢١٠
- قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَدُوًّا لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ٢١٠
- وَجُوبُ الْإِعْتِبَارِ وَالِاتِّعَازِ فِيهَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْمَعَاصِي ٢١٠
- [٥٩-٥٨] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ٢١٠

- الفائدة من إظهار الضمير في قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ٢١١
- فوائد الآيتين (٥٨-٥٩) ٢١٢
- يُشْرَعُ سُجُودُ الشُّكْرِ عند تجدد النعم، ودلالة القرآن على ذلك ٢١٢
- سُجُودُ الشُّكْرِ مُجَرَّدُ سُجُودٍ، وليس صلاةً، وصفته ٢١٢
- ينبغي للإنسان إذا انتصر ألا يغتر بذلك ٢١٢
- وَعَدَ اللهُ المستغفرين بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ ٢١٢
- من أبعد الناس عن الشُّكْرِ: بنو إسرائيل ٢١٣
- مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ كَانَ حَرِيًّا بِأَنْ يُعَذَّبَ وَيُعَاقَبَ ٢١٣
- أفعال الله تعالى مَرْبُوطَةٌ بِحِكْمِهَا وَأَسْبَابِهَا ٢١٣
- من حِكْمَةِ اللهِ تعالى: أَنْ رَبَطَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا ٢١٣
- [٦٠] قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ .. ٢١٤
- نِعْمَةُ اللهِ على بني إسرائيل بِتَفْجِيرِ الْعُيُونِ مِنَ الْحَجَرِ ٢١٤
- إفساد الأرض يكون بفعل المعاصي ٢١٤
- فوائد الآية (٦٠) ٢١٥
- مهما عَلَتْ منزلة الرجل فهو مُفْتَقِرٌ إلى ربه تعالى ٢١٥
- يحبُّ على مَنْ أصابه الضُّرُّ ألاَّ يُلْجَأَ إِلَّا اللهُ تعالى، ودَعْوَةُ غيره شركٌ أكبرٌ يُخْرِجُ من
الْمِلَّةِ ٢١٦
- الآيَاتُ الثَّلَاثُ التي وَقَعَتْ في عصا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢١٧
- ما من آيةٍ لنبيٍّ إِلَّا وللنبيِّ ﷺ مِثْلُهَا أو أعظمُ، تقعُ على يديه أو على يَدَيِ أَحَدٍ
أتباعه ٢١٧

- ما وَقَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ من تَفَجَّرَ الماء من الأواني أعظمُ ممَّا وقع لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 من تَفَجَّرَ الْحَجَرُ بِالماء ٢١٧
- ينبغي عند التَّزاحم أن يُقَسَّم الماءُ وَيُوزَّع بين النَّاسِ ٢١٨
- أحقُّ النَّاسِ بالماء النَّابِع في الأرض مَنْ وَقَعَ الماءُ في أرضه ٢١٨
- يجبُ أن تكون النِّعَمُ سببًا لَشُكْرِ الله والقيامِ بطاعته ٢١٨
- جَبَلَتِ النَّفْسُ البشريَّةُ على الأَشْرِ والبَطَرِ إذا وَسَّعَ لها في الرِّزْقِ ٢١٨
- مَمَّا يُعِينُ على شُكر النِّعْمَةِ: التَّفَكُّرُ في مِنَّةِ الله بها ٢١٩
- [٦١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُّضِيرَكَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ...﴾ ٢١٩
- أذلُّ النَّاسِ وَأَجْبَنُهُم: هم اليهودُ ٢٢٠
- صورةٌ من صُورِ كُفْرِ بني إسرائيل بآياتِ الله الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ ٢٢٠
- فوائد الآية (٦١) ٢٢١
- من سَفَهَ بني إسرائيل: أنَّهم لم يَصْبِرُوا على طعامٍ واحدٍ طيِّبٍ ٢٢١
- يجوزُ للإنسان أن يتوسَّلَ بدُعاء مَنْ تُرَجَى إجابته ٢٢١
- هل يُشْرَعُ للإنسان أن يَطْلُبَ مَنْ تُرَجَى إجابَةُ دعوته أن يَدْعُو؟ ٢٢٢
- دُعاء الإنسان بِنَفْسِهِ عبادةٌ تُحَدِّثُ له إنباءً وافتقارًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ٢٢٢
- التَّوَسُّلُ إلى الله عند الدُّعاء بوصفِ الرُّبوبيَّةِ ٢٢٣
- من انحطَّاطِ هِمَّةِ بني إسرائيل: طَلَبُهُمُ الأدنى مع توفُّرِ الأعلى معهم ٢٢٣
- يجوزُ للإنسان أن يُفَضِّلَ بعضَ الطَّعامِ على بعضٍ ٢٢٣
- لا يُلام الإنسان إذا اختار الأَطيبَ من الطَّعام، ولا يُعَدُّ هذا إسرَافًا ٢٢٣
- كلُّ ما كان مَوْجُودًا مَبْدُوءًا لا يحتاجُ الإنسان أن يَدْعُو الله بِحُصُولِهِ، والدُّعاء في

- ٢٢٤ مثل هذا سفة.
- ٢٢٥ مهما اغتنى اليهود فإن قلوبهم فقيرة، ولذا نَحِدُ منهم حرصًا عظيمًا على جمع المال ...
- ٢٢٥ قد تحلُّ الذلَّةُ والمسكنةُ والغضبُ بالعبد بسبب كُفْرِهِ
- ٢٢٦ كلُّ أمرٍ شاءه اللهُ فإنما شاءه عن حِكْمَةٍ
- الصِّفَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، وليست
٢٢٦ مُقَيِّدَةً، والحكمةُ منها
- ٢٢٦ بنو إسرائيل أصحابُ مَعْصِيَةٍ واعتداءٍ على الله وعباده
- ٢٢٧ [٦٢] قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ﴾
- ٢٢٧ وصفُ أَتْبَاعِ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالذين هَادُوا
- ٢٢٧ سببُ تسمية النَّصارى بهذا الاسم
- ٢٢٧ مَنْ هُوَ الصَّابِيُّ؟
- كلُّ مَنْ بَقِيَ على اليهوديةِ أو النصرانيةِ بعد بعثة النَّبِيِّ ﷺ فليس على حقٍّ، ولا يُعْتَبَرُ
٢٢٧ مؤمنًا بالله واليوم الآخر
- ٢٢٨ الأمور الأربعة التي يتضمَّنُها الإيمانُ بالله
- ٢٢٨ لا يكونُ العملُ صالحًا حتى يَجْتَمِعَ فيه أمران
- ٢٢٨ ذكرُ الأمور التي يتضمَّنُها الإيمانُ باليوم الآخر
- ٢٢٩ ■ فوائد الآية (٦٢)
- ٢٢٩ كلُّ مَنْ نُسخَ دينُهُ وَجَبَ عليه أن يتحوَّلَ إلى الدِّينِ النَّاسخِ، فإن لم يفعل فهو كافرٌ
- ٢٢٩ مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فقد كَفَرَ بِنَبِيِّهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ
- ٢٣٠ لا يثبتُ الأجرُ في العمل حتى يكون خالصًا لله موافقًا لشريعته

- ٢٣٠ ما يفعل الإنسان إذا وسوس له الشيطان بأنه مُراءٍ بعمله
- ٢٣١ كيف يصنع الإنسان إذا وقع في قلبه الرياء وهو في العبادة؟
- ٢٣١ مهما خلصت نية العبد فلن يقبل عمله حتى يوافق شريعة النبي ﷺ
- ٢٣١ مَنْ تَعَبَّدَ لله بعبادة فعلية أن يُثَبَّتَ أنَّها ثابتة عن النبي ﷺ
- ٢٣٢ مهما حسنت البدعة في قلوب مُبتدعيها فهي سيئة
- ٢٣٣ من نعمة الله على عباده: أنه جعل ثوابهم بمنزلة الأجر الذي يلزم وفاؤه
- ٢٣٣ مَنْ أَحَبَّ أن يُبعد عنه الخوف والحزن في الدنيا والآخرة فعليه بالإيمان والعمل الصالح
- ٢٣٣ [٦٤-٦٣] قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ...﴾
- ٢٣٤ ■ فوائد الآيتين (٦٤-٦٣)
- ٢٣٤ ينبغي تذكير الإنسان بنعم الله عليه، لاسيما مع طول العهد
- ٢٣٤ كيف كان إنذار الله تعالى لهذه الأمة؟
- ٢٣٥ يجبُ على الإنسان أن يأخذ شريعة الله على وجه القوة بلا تَوَانٍ ولا ضعفٍ
- ٢٣٥ التَّوَانِي في أوامر الله على قِسْمَيْنِ
- ٢٣٥ يحصلُ ذِكْرُ الكُتُبِ المنزلة من عند الله بطريقتين
- ٢٣٥ مَنْ أَرَادَ التَّقْوَى فعليه أن يأخذ الشرائع بالقوة
- ٢٣٦ أَجْمَعُ تفسيرٍ للتَّقْوَى
- ٢٣٦ النَّاسُ في الأسباب على ثلاثة أقسام
- ٢٣٧ لا تؤثر الأسباب بنفسها، ولكن بما أودعه الله فيها من القوى، ودليل ذلك
- بَلَّغَ عِظْمُ النَّارِ التي أُلْقِيَ فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن قومَه لم يتمكنوا من

- ٢٣٧ القُرْبِ منها، كما قال بعضُ العلماء.....
- من قَسَوَ قُلُوبَ بني إسرائيل: أَتَمَّ كَفَرُوا بعدما أُنْذِرُوا إنذارًا شديدًا برفع الطُّورِ
فَوَقَّهَم..... ٢٣٧
- ٢٣٧ بنو إسرائيل قومٌ لا يَشْكُرُونَ مع كَثْرَةِ نِعَمِ الله عليهم.....
- وَصَفَ بنو إسرائيل رَبَّنَا بِصِفَاتٍ يُنْزِعُ اللهُ عنها..... ٢٣٧
- ٢٣٨ قد يتداركُ اللهُ العبدَ بِفَضْلِهِ، فلا يَقَعُ في الخُسْران.....
- فائدةٌ تذكيرِ آخِرِ الأُمَّةِ بِأَفْعَالِ أَوَائِلِهَا..... ٢٣٨
- ٢٣٨ هل يصحُّ أن يُضَافَ فِعْلُ أَوَّلِ الأُمَّةِ إلى آخِرِها؟.....
- لا ينبغي للعبد أن يُضَيَّفَ مِنَّةَ الله عليه إلى مُجَرَّدِ فِعْلِهِ..... ٢٣٨
- [٦٥-٦٦] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ...﴾..... ٢٣٩
- ابتلاءُ الله لبني إسرائيل بتحريم الصيدِ يومِ السَّبْتِ، وأنَّ الحَيَّتَانِ لا تأتي إلا في ذلك
اليوم..... ٢٣٩
- فوائد الآيتين (٦٥-٦٦)..... ٢٣٩
- ٢٤٠ التَّحِيلُ على محارمِ الله لا يَقْلِبُهَا حلالًا، بل يَزِيدُهَا قُبْحًا لثلاثةِ أَوْجُهٍ.....
- ٢٤٠ المنافقونَ أَعْظَمُ جُرْمًا من أهلِ الكُفْرِ الصَّرِيحِ.....
- ٢٤٠ مَنْ أَكَلَ الرِّبَا بِالْحَيْلِ كانَ أَعْظَمَ إِثْمًا مَنْ أَكَلَهُ صِرَاحَةً.....
- ٢٤١ مَنْ تَزَوَّجَ امرأةً لِيُحْلِلَها لِرَوْجِها لم يَحِلَّ بِذلك.....
- ٢٤١ المقصودُ بالنِّكاحِ: أن تبقى المرأةُ عندَ رَوْجِها، لا أن يُطَلَّقَها بعد أن يُجامعها.....
- ٢٤٢ قد تقعُ العُقُوبَةُ مُجَانِسَةً لِلْعَمَلِ، ودليلُ ذلك من قِصَّةِ أصحابِ السَّبْتِ.....
- ٢٤٢ قولُ الله تعالى يَنْقَسِمُ إلى قسمين.....

- ٢٤٣ الفرق بين القول الكوني والشرعي
- ٢٤٣ ثبوت صفة الكلام لله تعالى
- ٢٤٣ القردة الموجودة الآن ليست من جنس الذين مسخوا من بني إسرائيل
- ٢٤٣ ليس لأولئك الذين قبلوا قردة من بني إسرائيل نسل
- ٢٤٣ تكذيب من زعم أن أصل البشر قردة، ومن زعم هذا فهو كافر
- ٢٤٤ من رام مرتبة لا يستحقها عوقب بنقيض قصده
- ٢٤٤ يزاد العبد رفعة عند الله كلما تواضع للحق والخلق
- ٢٤٤ كل جعل أضافه الله إلى نفسه فلا يخرج عن أحد قسمين
- ٢٤٥ أعظم الناس انتفاعاً بالموعظة هم المتقون
- ٢٤٥ ذكر بعض فوائد التقوى من كتاب الله
- [٦٧-٧٤] قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾
- ٢٤٦ قصّة القوم من بني إسرائيل الذين اختلفوا فيمن قتل المقتول
- ٢٤٧ قد يرد الجهل بمعنى: عدم العلم، وقد يرد بمعنى: العدوان
- ٢٥٠ وجه تشبيه قلوب بني إسرائيل في قسوتها بالحجارة دون الحديد
- ٢٥٠ ■ فوائد الآيات (٦٧-٧٤)
- ٢٥٠ من الأمور التي جبل الناس عليها: الرجوع إلى الأنبياء في الأمور التي طريقها الشرع
- ٢٥٠ وجوب الرجوع إلى العلماء فيما يشكل على الأمة من أمرها
- ٢٥١ أساس مشاكل هذه الأمة: غفلتها عن كتاب ربها عز وجل وسنة نبيها ﷺ
- ٢٥١ من عتو بني إسرائيل: تأخرهم في تنفيذ أوامر الله

- لا ينبغي لمن أُمِرَ بأمرٍ مُطلقٍ أن يستفصل فيه، والاستفصال فيه - زمن الوحي - دليل
 ٢٥١ على عدم إرادة الامتثال
- لا حرج على العبد أن يبحث عما يُقيّد الأوامر الشرعية بعد انقطاع الوحي ٢٥١
 الاستهزاء بالإنسان والسخرية به ضربٌ من العُدوان عليه، لا يقع إلا من سفيه
 أو جاهل ٢٥٢
- إذا كان الأنبياء لا يلجؤون إلا إلى الله فمن دونهم أولى بذلك ٢٥٢
- لا بأس أن يكون الجواب عن المجمل مُفصلاً إذا عُلِمَ المراد منه ٢٥٢
- الاسم الموصول اسمٌ مُبهمٌ مجملٌ ٢٥٢
- أحسن ما يُتقرب إلى الله به من بهيمة الأنعام ما كان مُتوسّطاً في سنّه ٢٥٣
- كل ما أُمِرَ به وجب امتثاله على الوجه الذي أُمِرَ به من غير زيادة ولا نقصان ٢٥٣
- تهاون بني إسرائيل وتفریطهم وتعتّتهم في تنفيذ أوامر الله ٢٥٤
- ما كان من الحيوان جميلاً كان التقرب به إلى الله أفضل ٢٥٤
- مما يحصل به تيسير الأمر: أن يُقرن بمشيئة الله ٢٥٥
- حكم الاستثناء في الأيمان ٢٥٦
- وقوع الاحتراس في كتاب الله ٢٥٦
- قول بني إسرائيل لموسى: ﴿الْتَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾ دليلٌ على تعاظمهم وترفعهم ٢٥٧
- يجوز للإنسان أن يحث الأرض ويسقي الزرع بالبقر ٢٥٨
- ينبغي أن تكون البقرة التي تُستعمل في الحرث مُدَلّلة طيعة؛ لئلا تُفسد أكثر مما
 تُصلح ٢٥٨
- لا يُستعمل من الأشياء إلا ما دلّت التجارب على أنّه صالح فيها، ودلالة القرآن
 على هذا ٢٥٨

- ٢٥٨ يجوزُ للإنسان أن يُؤخَّر ذِكْرُ السَّبَبِ عن المسبَّبِ ..
- ٢٥٨ الحكمةُ من تقديم ذِكْرِ قِصَّةِ ذَبْحِ البقرة على ذكر سبب الأمرِ بذَبْحِها ..
- ٢٥٨ لا يَقْدِرُ على الإحياء والإماتة إلا الله تعالى ..
- ٢٥٩ مهما كَتَمَ الإنسانُ من شيءٍ فَإِنَّ اللهَ سَيُخْرِجُهُ إذا كان في إِخْرَاجِهِ مصلحةٌ للنَّاسِ ..
- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ يشمل السُّلْطَانُ الشرعيَّ والسُّلْطَانُ القَدْرِيَّ ..
- ٢٥٩ ذِكْرُ في سورة البقرة خَمْسُ قِصَصٍ فيها إحياءٌ للموتى في الدُّنيا ..
- ٢٥٩ يجوز أن يكون الأمرُ مُبْهَمًا إذا أُمْكِنَ امْتِثَالُهُ ..
- ٢٦١ قدرةُ الله على بَعْثِ الموتى بكلمةٍ واحدةٍ ..
- ٢٦١ يُرِي اللهُ عِبَادَهُ من الآيات ما يكون بها الرُّشْدُ والعَقْلُ ..
- ٢٦١ آياتُ الله على نَوَعَيْنِ ..
- ٢٦١ من أَسْبَابِ العقل: تدبُّرُ الآياتِ ..
- ٢٦١ العَقْلُ على قسمين: عَقْلُ إدراكٍ، وعَقْلُ تصرُّفٍ ..
- ٢٦١ هل الكفار عُقَلَاءُ؟ ..
- ٢٦٢ لم يَزِدْ بنو إسرائيل بالآيات والنِّعَمِ عليهم إِلَّا قَسْوَةً في قُلُوبِهِمْ ..
- ٢٦٢ الواجبُ على العبد إذا رَأَى شيئًا من آيات الله ..
- ٢٦٣ مَنْ رَأَى الآيةَ، وازداد قلبه قَسْوَةً، كان أَعْظَمَ إثمًا مَنْ لم يَرها ولم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ
- ٢٦٣ ما يَقَعُ بين النَّاسِ من الفِتَنِ والحُرُوبِ ضَرْبٌ من الآيات التي يُحذِّرُ اللهُ بها عِبَادَهُ ..
- ٢٦٤ من الحِجَارَةِ ما يكونُ خيرًا من بعض قُلُوبِ بني آدم ..
- ٢٦٤ التَّحْذِيرُ من كُلِّ عَمَلٍ لا يُرْضِي اللهُ عَزَّجَلَّ ..

- يُوصَفُ اللهُ تَعَالَى بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ.....
- ٢٦٤ لَا يَذْكُرُ اللهُ صِفَةً سَلْبِيَّةً لَهُ إِلَّا لِسَبِّ يَقْتَضِي ذَلِكَ
- ٢٦٥ كُلُّ صِفَةٍ مَنفِيَّةٍ عَنِ اللهِ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ كِبَالِ ضِدِّهَا، وَأَمْثَلَةٌ عَلَى ذَلِكَ
- ٢٦٥ أَهْلُ الْبِدْعِ يُكْثِرُونَ مِنْ وَصْفِ اللهِ بِالصِّفَاتِ الْمَنفِيَّةِ
- ٢٦٦ جَاءَ هَذَا الْقُرْآنُ تَفْصِيلاً لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ
- [٧٧-٧٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلِمَ اللهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ...﴾
- ٢٦٦ ■ فوائد الآية (٧٥-٧٦)
- ٢٦٧ تَبْعُدُ هِدَايَةُ مَنْ عَصَى اللهَ عَنِادٍ
- ٢٦٧ مَنْ رَدَّ الْحَقَّ أَوَّلَ مَا جَاءَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَحْرِمَهُ اللهُ الْهِدَايَةَ
- ٢٦٨ كَلَامُ اللهِ يَسْمَعُهُ مَنْ وُجَّهَ إِلَيْهِ، اتَّفَقَ عَلَى هَذَا أَهْلُ السُّنَّةِ
- ٢٦٨ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ
- ٢٦٨ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ
- ٢٦٩ خَاطَبَ اللهُ عِبَادَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ لِيُفْهَمَ عَلَى مُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
- ٢٦٩ تَحْرِيفُ الشَّيْءِ بَعْدَ عَقْلِهِ أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيفِهِ مَعَ الْجَهْلِ بِهِ
- ٢٦٩ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهِ
- ٢٦٩ سَلَكَ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ مَسَلَكَ أَهْلِ النِّفَاقِ
- ٢٦٩ كَانَتْ نُبُوَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعْلُومَةً عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
- ٢٧٠ مِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: مَا عَلَّمَهُ إِيَّاهُمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ
- ٢٧٠ صَدَّ الْحَسَدُ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ

- أَهْلُ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ٢٧٠
- اتَّفَقَتْ الرِّسَالَاتُ السَّمَاوِيَّةُ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ٢٧٠
- وَقُوعُ الْخُصُومَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٢٧٠
- مَنْ ادَّعَى فِي الْعَلَنِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَقَدْ أَتَى مَا يُخَالِفُ الْعَقْلَ، وَتَوْضِيحُ ذَلِكَ ٢٧١
- التَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَوْامِرِ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ٢٧١
- [٧٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي...﴾ ٢٧٢
- وَصَفَ اللَّهُ بِالْأُمِّيَّةِ أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَا يَفْقَهُونَ مَعْنَاهُ ٢٧٢
- مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْقِرَاءَةَ أَوْ الْكِتَابَةَ فَهُوَ أُمِّيٌّ، وَسَبَبُ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ ٢٧٢
- فوائد الآية (٧٨) ٢٧٢
- هَدْيُ الصَّحَابَةِ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ ٢٧٢
- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ تَعَلُّمِ أَلْفَاظِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَعَلُّمِ مَعَانِيهِ ٢٧٣
- مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى الْكِتَابِ وَقَعَ فِي الظَّنِّ وَالْوَهْمِ ٢٧٣
- يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْحَرَصُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ ٢٧٣
- [٧٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ ٢٧٤
- فوائد الآية (٧٩) ٢٧٥
- يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْتَرِيَ قَوْلًا وَيُنْسِبَهُ إِلَى اللَّهِ ٢٧٥
- طَرَائِقُ الْعِلْمِ بِالتَّحْرِيمِ مِنَ النُّصُوصِ ٢٧٥
- قَدْ يَأْتِي فِي الْقُرْآنِ تَأْكِيدُ الْأَمْرِ بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ ٢٧٥
- كُلُّ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَهُوَ قَلِيلٌ إِذَا اشْتَرَاهُ الْإِنْسَانُ بِالْآخِرَةِ ٢٧٥

- إذا تَرَتَّبَ على العمل سَيِّئَاتٌ كَثِيرَةٌ عُوِقَبَ الْإِنْسَانُ على كُلِّ سَيِّئَةٍ تَرَتَّبَتْ عَلَيْهِ،
 ٢٧٦ وكذلك العمل الصَّالِحُ يُثَابَ على كُلِّ حَسَنَةٍ تَرَتَّبَتْ عَلَيْهِ. ٢٧٦
- [٨٠] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَتْيَا مَاءً مَعْدُودَةً...﴾ ٢٧٦
 ٢٧٦ ادَّعى اليهودُ في دُخُولِ النَّارِ أَمْرَيْنِ كَذَبُوا فِيهِمَا. ٢٧٦
 ٢٧٧ كُلُّ مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا بِمُحَمَّدٍ ﷺ مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ٢٧٧
 ٢٧٧ ■ فوائد الآية (٨٠). ٢٧٧
- الكَذِبُ والحَسَدُ والخِيَانَةُ والمَكْرُ كُلُّهَا مِنْ صِفَاتِ الْيَهُودِ. ٢٧٧
 ٢٧٧ إِحْدَى طَرَائِقِ الْقُرْآنِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْخُصُومِ. ٢٧٧
 ٢٧٨ لَا يُبَالِي الْيَهُودُ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ إِذَا أَدَّى هَذَا إِلَى نَيْلِ مَا يُرِيدُونَ ٢٧٨
 ٢٧٨ [٨١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ...﴾ ٢٧٨
 ٢٧٨ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ هُمُ الْيَهُودُ. ٢٧٨
 ٢٧٨ ■ فوائد الآية (٨١). ٢٧٨
- أَحْكَامُ اللَّهِ الْجَزَائِيَّةُ مُعَلَّقةٌ بِالْأَوْصَافِ دُونَ الْأَعْيَانِ. ٢٧٩
 ٢٧٩ مَنْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ اسْتَحَقَّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ. ٢٧٩
 ٢٧٩ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ عَصَاةَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ الْمَشِيشَةِ. ٢٧٩
 ٢٧٩ بَطْلَانُ أَمَانِيٍّ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ حُجَّةٌ لَهُ فِيمَا يَغْشَاهُ مِنَ الْحَرَمَاتِ وَالْكَبَائِرِ. ٢٧٩
 ٢٧٩ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ حَتَّى يَسْتَحِقَّ الْخُلُودَ فِيهَا. ٢٧٩
 ٢٨٠ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ تَأْيِيدَ عَذَابِ النَّارِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ. ٢٨٠
 ٢٨٠ أَخْبَارَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ٢٨٠

- [٨٢] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ﴾ ٢٨١
- من طَرِيقَةِ الْقُرْآن: أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ أَهْل النَّارِ وَعَذَابِهِمْ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَثَوَابِهِمْ، وفائدة
هذه الطَّرِيقَةِ ٢٨١
- لا يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا حَتَّى يَجْمَعَ وَصْفَيْنِ ٢٨١
- مَنْ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ مِنْ عَمَلِهِ صَارَ مُشْرِكًا، وَمَنْ فَقَدَ الْمَتَابَعَةَ صَارَ مُبْتَدِعًا ٢٨١
- فوائد الآية (٨٢) ٢٨٢
- لا يَتِمُّ دُخُولُ الْعَبْدِ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَكُونَ مُؤْمِنًا عَامِلًا لِلصَّالِحَاتِ ٢٨٢
- أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ فِيهَا ٢٨٣
- [٨٣] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ ٢٨٣
- يُعَبِّرُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ أَحْيَانًا، وَبصِيغَةِ الْجَمْعِ أَحْيَانًا ٢٨٣
- بنو إِسْرَءِيلَ بنو عَمٍّ لِلْعَرَبِ ٢٨٤
- المِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ٢٨٤
- الْيَتِيمُ: مَنْ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ ٢٨٤
- وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْفَقِيرِ بِالْمُسْكِينِ ٢٨٤
- الْقَوْلُ الْحَسَنُ لِلنَّاسِ يَكُونُ حَسَنًا فِي طَرِيقَتِهِ وَفِي مَعْنَاهُ ٢٨٤
- فوائد الآية (٨٣) ٢٨٥
- مَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ مِنْ أَحْبَابٍ مَنْ سَلَفَ يُرَادُ بِهَا الْإِعْتِبَارُ وَالِاتِّعَاطُ ٢٨٥
- أَمَرَتْ جَمِيعُ الْأُمَمِ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَخَدَهُ ٢٨٥
- وُجُوبُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، وَيَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ٢٨٦

- أَحَقُّ الْوَالِدَيْنِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ هِيَ الْأُمُّ، وَلَا يَعْنِي هَذَا أَلَّا يُعْطَى الْأَبُ حَقَّهُ ٢٨٦
- الإحسانُ إلى الوالدين بالفعل يكونُ بالمال ويكونُ بالبدن ٢٨٦
- الإحسانُ إلى ذوي القربى يشملُ مَنْ كان قرابةً من جهة الأب، وَمَنْ كان قرابةً من جهة الأم ٢٨٧
- سببُ الأمرِ بالإحسانِ إلى اليتامى ٢٨٧
- الإحسانُ إلى المساكين مُسْتَحَبٌّ ما لم يكونوا في ضَرُورةٍ ٢٨٧
- وَجُوبُ الْقَوْلِ الْحَسَنِ لِلنَّاسِ ٢٨٧
- يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُقِيمَ الصَّلَاةَ بِوَاجِبَاتِهَا ٢٨٨
- كانت الصَّلَاةُ مَشْرُوعَةً فِي الْأُمَمِ الَّتِي قَبَلْنَا ٢٨٨
- جَمَعَ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَيْنَ الانْحِرَافِ الْقَلْبِيِّ وَالْانْحِرَافِ الْبَدَنِيِّ ٢٨٨
- [٨٤-٨٥] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...﴾ ٢٨٩
- وَجْهٌ إِضَافَةٌ الدَّمَاءِ إِلَى مَنْ نُهِىَ عَنْ سَفْكِهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
- ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ ٢٨٩
- عَذَابُ مَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ ٢٩٠
- فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (٨٤-٨٥) ٢٩٠
- فَائِدَةُ الْإِتِّفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ ٢٩٠
- حَرْمُ سَفْكِ الدَّمَاءِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ كَمَا حَرُمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ٢٩٠
- مِنْ أَعْظَمِ الْعُدْوَانِ فِي التَّخْرِيمِ وَالْجَزَاءِ: سَفْكُ الدَّمِ بَغَيْرِ حَقٍّ ٢٩١
- يَحْرُمُ إِخْرَاجُ الْإِنْسَانِ مِنْ بَلَدِهِ بَغَيْرِ حَقٍّ ٢٩١
- مَنْ عَتَوَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَقَضَهُمُ الْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ٢٩١

- ٢٩٢ التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِبَعْضِ الشَّرِيعَةِ وَالْكَفْرِ بِبَعْضِهَا
- ٢٩٣ عَذُلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِسْبَةِ الذَّنْبِ إِلَى بَعْضِ الْقَوْمِ لَا كُلَّهُم
- ٢٩٣ وَجُوبُ مُرَاعَاةِ الْعَدْلِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّاسِ
- ٢٩٣ عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَرَاتِبَ تَتَفَاوَتْ فِي الشَّدَّةِ
- ٢٩٣ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى مُثَبَّتَةٌ وَمَنْفِيَّةٌ
- ٢٩٣ الصِّفَاتُ الْمُنْفِيَّةُ عَنِ اللَّهِ يُرَادُ بِهَا إِثْبَاتُ كَمَالِ ضِدِّهَا، لَا مُجَرَّدُ النَّفْيِ
- ٢٩٤ [٨٦] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾
- ٢٩٤ ■ فوائد الآية (٨٦)
- ٢٩٤ التَّحْذِيرُ مِنْ تَقْدِيمِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
- ٢٩٥ مَنْ اشْتَرَى دُنْيَاهُ بِأَخْرَاهُ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ
- ٢٩٥ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا
- ٢٩٦ [٨٧] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾
- ٢٩٦ خَتَمَ اللَّهُ رُسُلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- الآيَاتُ الَّتِي أُوتِيَهَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَوْعَيْنِ، مِنْهَا مَا كَانَ قَبْلَ
وُجُودِهِ، وَمِنْهَا مَا كَانَ بَعْدَ وُجُودِهِ
- ٢٩٦ أَيْدَ اللَّهِ عَبْدَهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرُوحِ الْقُدُسِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٢٩٧ انْقِسَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ
- ٢٩٧ ■ فوائد الآية (٨٧)
- ٢٩٧ أَفْضَلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَعْظَمُ كُتُبِهِمُ: التَّوْرَةُ
- ٢٩٧ وَجْهُ الْقَرْنِ بَيْنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ كَثِيرًا

- ٢٩٧ ما من أُمَّةٍ إلا وقد بَعَثَ اللهُ إليها نذِيرًا
- ٢٩٨ من حِكْمَةِ اللهِ بِبَعَثِ الرُّسُلِ تَبَاعًا: أَنْ تَبْقَى آثَارُ الرِّسَالَةِ فِي الْعِبَادِ
- ٢٩٨ ما بَعَثَ اللهُ رَسولًا إلا وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ ما على مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ، وهذا من حِكْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ
- ٢٩٩ تَأْيِيدُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرُوحِ الْقُدُسِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِالِلهِ
- ٢٩٩ بَرَاءَةُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ دَعْوَى أَنَّهُ إِلَهٌ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ
- ٣٠٠ [٨٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ...﴾
- ٣٠٠ إِذَا رَانَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ عَلَى قَلْبِهِ طُبِعَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ خَيْرٌ
- ٣٠٠ ■ فوائد الآية (٨٨).
- ٣٠١ كُفْرُ الْإِنْسَانِ بِرَبِّهِ يُوجِبُ انْطِمَاسَ قَلْبِهِ وَالطَّبْعَ عَلَيْهِ
- ٣٠١ يَقِلُّ أَنْ يَكُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُؤْمِنُونَ
- ٣٠١ [٨٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ...﴾
- ٣٠١ تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ لَكُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى وَجْهَيْنِ
- ٣٠١ كَانَ الْيَهُودُ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَنْصِرُونَ عَلَى الْكُفَّارِ هَذَا النَّبِيَّ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ بِهِ
- ٣٠٢ الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ لَهُ فَوَائِدُ
- ٣٠٣ ■ فوائد الآية (٨٩).
- ٣٠٣ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْقُرْآنِ
- ٣٠٣ مِنْ أَسْبَابِ كُفْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ
- ٣٠٤ كُفْرُ الْإِنْسَانِ عَنْ مَعْرِفَةٍ أَشَدَّ مِنْ كُفْرِهِ عَنْ جَهْلِ

- كُلُّ كَافِرٍ فَقَدْ اسْتَحَقَّ لَعْنَةُ اللَّهِ ٣٠٤
- [٩٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَسْكَمَا أَشْتَرُوا بِوَدِّ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ .. ٣٠٤
- سَبَبُ كُفْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُوَ الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ مِمَّا فَضَّلَ بِهِ الْعَرَبُ مِنْ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ
- منهم ٣٠٤
- فوائد الآية (٩٠) ٣٠٥
- من طبيعة بني إِسْرَائِيلَ: الْبَغْيُ، وَالْعُتُو، وَالتَّمَرُّدُ عَلَى الْحَقِّ ٣٠٥
- أَعْظَمُ فَضْلٍ يَمُنُّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ هِدَايَتِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ الْعِلْمَ ٣٠٥
- الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ ٣٠٥
- مَشِيئَةُ اللَّهِ عَامَّةٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَفْعَالِ عِبَادِهِ ٣٠٦
- [٩١] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا...﴾ ٣٠٦
- تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ عَلَى وَجْهَيْنِ ٣٠٧
- فوائد الآية (٩١) ٣٠٧
- التَّحْذِيرُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِمَا مَعَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ بَاطِلًا ٣٠٧
- يَنْبَغِي فِي الْمَحَاجَّةِ أَنْ يَذْكُرَ الْمَحَاجُّ مَا يَخْصُلُ بِهِ إِفْحَامُ الْخَصْمِ ٣٠٨
- مَدَارُ قَبُولِ الْحَقِّ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُوَافِقَ مَا تَهَوَّاهُ أَنْفُسُهُمْ ٣٠٨
- [٩٢] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ...﴾ ٣٠٨
- سَبَبُ عِبَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعِجْلِ ٣٠٩
- فوائد الآية (٩٢) ٣٠٩
- كَانَتْ عِبَادَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعِجْلِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ إِلَهًا ٣٠٩

- [٩٣] قول الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ...﴾ ٣١٠
- كيف صحَّ أن يُخاطَب بنو إسرائيل زمن النبي ﷺ بما فعله المتقدِّمون منهم؟ ٣١٠
- فوائد الآية (٩٣) ٣١١
- قُدْرَةُ الله على نَتَقِ الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل حتى صار كالظِّلَّة ٣١١
- قد يُطلَقُ السَّمْعُ ويُراد به الاستجابة والقبول ٣١١
- يجبُ على الإنسان أن يأخذ ما نَزَلَ عليه من وحي الله بقُوَّة ٣١١
- قد يُبتلى العبدُ بحُبِّ الباطل إذا وَقَعَ منه إعراضٌ عن الحقِّ ٣١٢
- عُقُوبَةُ رَدِّ الحقِّ في أوَّلِ مرَّة ٣١٢
- أولى ما يَسْلُكُهُ المُحَاجُّ من الطَّرِيق ما يحصلُ به تحديُّ الخصم ٣١٢
- [٩٤-٩٦] قول الله عزَّوجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ ٣١٣
- فوائد الآيات (٩٤-٩٦) ٣١٤
- مَن كان على باطلٍ فلن يَتَمَنَّى الموتَ في مقام التَّحدِّي ٣١٤
- دلالةُ النَّفْيِ على التَّأْيِيد يكون بحسب الحالِ والقرينة ٣١٤
- كُفَّارُ بني إسرائيل أَحْرَصُ النَّاسِ على الحَيَاةِ حتى من المُشْرِكِينَ ٣١٥
- لا يُغْنِي عن الإنسان طُولُ عُمرِهِ إذا لم يكن على حقٍّ ٣١٥
- عُمُرُ الإنسان الحقيقيُّ هو ما أَمَّضَاهُ في طاعة الله ٣١٥
- ينبغي لِمَن دعا لشَخْصٍ بطول العُمُر أن يَقِرَّ ذلك بطاعة الله ٣١٦
- دلالةُ النُّصُوصِ على عُمُومِ عِلْمِ الله بِكُلِّ شيء ٣١٦
- فائدةُ عِلْمِ الإنسان بأنَّ الله عليمٌ بِكُلِّ شيء ٣١٦
- [٩٧-٩٨] قول الله عزَّوجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ٣١٧

- أَوَّلَ مَنْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ لِحَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُمُ الْيَهُودُ ٣١٧
- سَبَبُ مُعَادَاةِ الْيَهُودِ لِحَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣١٧
- سَبَبُ تَخْصِيصِ الْقَلْبِ بِنَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٣١٧
- مَنْ عَادَى اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ فَقَدْ كَفَرَ ٣١٨
- وَجْهُ تَخْصِيصِ حَبْرِيْلَ وَمِيكَالَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَحَبْرِيْلَ وَمِيكَالَ﴾ ٣١٨
- فَائِدَةُ الْإِظْهَارِ مَوْضِعَ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَحَبْرِيْلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ٣١٨
- بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ كُلِّ مَا تَحْتَاجُهُ الْأُمَّةُ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا ٣١٨
- فوائد الآيتين (٩٧-٩٨) ٣١٩
- مِنْ فَصَائِلِ حَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ نَزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ٣١٩
- قَلْبُ الْعَبْدِ هُوَ مَحَلُّ وَعْيِهِ وَحِفْظِهِ ٣١٩
- إِذْنُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ ٣١٩
- لَا يَهْتَدِي وَيَنْتَفِعُ وَيَسْتَبْشِرُ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا الْمُؤْمِنُ ٣١٩
- كُلُّ كَافِرٍ فَهُوَ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَعَالَى ٣٢٠
- كُلُّ مَنْ عَادَى اللَّهَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَدُوًّا لِلْمُؤْمِنِينَ ٣٢٠
- [٩٩] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ٣٢٠
- فوائد الآية (٩٩) ٣٢٠
- كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْآيَاتِ فَهِيَ مَعْلُومَةٌ الْمَعْنَى، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ لَا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ ٣٢١

- ٣٢١ لا يَكْفُرُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مَنْ كَانَ فَاسِقًا
- ٣٢١ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْتَنُوا بِالْقُرْآنِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ جَائِسِيرُونَ عَلَيْهِ
- ٣٢٢ [١٠٠] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْكَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾
- ٣٢٢ ■ فوائد الآية (١٠٠)
- ٣٢٢ إِذَا وَقَعَ الْخَطَأُ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا
- ٣٢٢ نَقَضَ الْعُهُودَ أَمَارَةً عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ
- ٣٢٣ [١٠١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾
- ٣٢٣ تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَقَعُ عَلَى وَجْهَيْنِ
- ٣٢٣ لَمْ يَكُنْ كُلُّ أَهْلِ الْكِتَابِ كُفَّارًا بِالنَّبِيِّ ﷺ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ
- ٣٢٤ ■ فوائد الآية (١٠١)
- ٣٢٤ النَّبِيُّ ﷺ مُرْسَلٌ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ
- ٣٢٤ قَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ
- ٣٢٥ كُلُّ مَنْ نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّمَا نَبَذَهُ عَنْ عِلْمٍ
- ٣٢٥ لَا يُرْجَى مِنْ نَبَذِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِكِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ
- ٣٢٥ مَنْ نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ أُعْطِيَ كِتَابَهُ فِي الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ جَزَاءً وَفَاقًا
- ٣٢٥ مَنْ نَبَذَ الْحَقَّ عَنْ عِلْمٍ كَانَ أَشَدَّ لَوْمًا مِمَّنْ نَبَذَهُ عَنْ جَهْلِ
- ٣٢٥ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مَنْ أَنْ يَنْبَذَ الْحَقَّ وَرَاءَ ظَهْرِهِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بِهِ، وَمَنْ فَعَلَ
- ٣٢٥ هَذَا فَقَدْ شَابَهَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
- ٣٢٦ [١٠٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى مَلَكِ سُلَيْمَانَ﴾

- كانت الشَّيَاطِينُ زَمَنَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتْلُو عَلَى النَّاسِ وَتُلْقِي فِي قُلُوبِهِمْ
 ٣٢٦ أنواعاً من السَّحْرِ والكُفْرِ
- كان سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَفْضَلِ أَنْبِيَاءِ بني إِسْرَائِيلَ، وكان بعد مُوسَى
 ٣٢٦ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمُدَّةٍ
- الأنبياءُ مَعْصُومُونَ من الكُفْرِ وأسبابِهِ ٣٢٦
- تعليمُ النَّاسِ السَّحَرَ يُعْتَبَرُ كُفْرًا ٣٢٦
- اختبارُ الله عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ بِالْمَلَكَيْنِ (هَارُوتَ وَمَارُوتَ) ٣٢٧
- سِحْرُ الصَّرَفِ والعَطْفِ من أَشَدِّ أنواعِ السَّحْرِ ضرراً ٣٢٧
- صِلَةُ الرَّجُلِ بِزَوْجَتِهِ تُعْتَبَرُ من أَقْوَى الصَّلَاتِ ٣٢٧
- كُلُّ ضَرَرٍ يَخْصُلُ من السَّحْرِ فَإِنَّمَا هو صَادِرٌ عن إِذْنِ الله وَإِرَادَتِهِ ٣٢٧
- كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحَرَ لم يكن له في الآخرة نصيبٌ، وَإِنَّمَا يُمْتَعَ في الدُّنْيَا كما تُمْتَعُ
 ٣٢٨ الأنعامُ
- مَنْ كان من ذَوِي الْعِلْمِ ابْتَعَدَ عن السَّحْرِ ولم يَتَعَلَّمْهُ ٣٢٨
- فوائد الآية (١٠٢) ٣٢٨
- العملُ بالسَّحْرِ وتَعْلِيمُهُ كُفْرٌ ٣٢٩
- السَّحَرُ يكونُ على نَوْعَيْنِ، فمنه ما يكونُ كُفْراً، ومنه ما لا يكونُ ٣٢٩
- كيف يُعَامَلُ الشَّخْصُ إِذَا ثَبَتَ عَلَيْهِ التَّعَامُلُ بالسَّحْرِ؟ ٣٢٩
- كُلُّ شَيْءٍ أَذِنَ اللهُ بِهِ شَرْعاً فهو حَقٌّ ولو كان في نفسه باطلاً، وأمثلةٌ على ذلك ٣٢٩
- السُّجُودُ لغيرِ الله كُفْرٌ وشُرْكٌ ما لم يَأْذَنِ اللهُ فِيهِ ٣٢٩
- يَعْظُمُ قَتْلُ النَّفْسِ إِنَّمَا إِذَا كانَ المَقْتُولُ من أَقَارِبِ القَاتِلِ ٣٣٠

- ٣٣٠ قد يُسِّرَ اللهُ للعبد أسباب المعصية ليختبره
- ٣٣٠ من تمام النصيح للناس: أن يُبين الإنسان الأمر لغيره على وجه واضح لا لبس فيه
- ٣٣١ من أعظم أنواع السحر: سحر العطف والصرف
- ٣٣١ لا يقع أثر للسحر إلا أن يأذن الله بذلك
- ٣٣١ من لجأ إلى الله في كشف بلائه واستعاذ به واستعان فإن الله قادر على كشف ضره ..
- ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى ربه في كشف بلائه، وهو أقوى أنواع الأدوية تأثيراً
- ٣٣١ في السحر
- ٣٣٢ السحر ضرر على الساحر كما أنه ضرر على المسحور
- ٣٣٢ كُفِّرَ الساحر
- ٣٣٢ من أجهل الناس: من تعلَّم السحر
- ٣٣٣ [١٠٣] قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ ...
- ٣٣٣ ■ فوائد الآية (١٠٣)
- من سعة فضل الله ورحمته: أنه يعرض التوبة على الساحر، كما عرَضَها على من
- ٣٣٣ عَذَّبَ أوليائه
- ما عند الله من الثواب خير مما يحصل من مكاسب الدنيا، دلَّ على هذا الكتاب
- ٣٣٤ والسنة
- ٣٣٤ كلُّ من تعلَّم السحر مع علمه بضرره في الآخرة فهو من ذوي الجهل
- ٣٣٤ من لم يعمل بما علم فهو أشدُّ قبحاً من الجاهل، وأبعد من أن يرجع الحق
- ٣٣٥ [١٠٤] قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...﴾
- ٣٣٥ سبب نهى المؤمنين أن يقولوا للنبي ﷺ: «راعنا»

- فوائد الآية (١٠٤) ٣٣٥
- من خِصَالِ الْمُؤْمِنِ: امْتِثَالُ أَمْرِ اللَّهِ ٣٣٥
- يَنْبَغِي أَنْ يُنَادَى الْإِنْسَانُ بِأَحَبِّ أَوْصَافِهِ إِلَيْهِ ٣٣٥
- أَحَبُّ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ أَنْ يُنَادَى بِاسْمِ الْإِيمَانِ ٣٣٥
- يَجُزُّ أَنْ يُخَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ٣٣٦
- النَّهْيُ عَنْ قَوْلٍ: «رَاعِنَا» لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ ٣٣٦
- إِذَا مَنَعَ الْإِنْسَانُ النَّاسَ مِنْ شَيْءٍ فَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمُ الْمَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ،
وفائدة ذلك ٣٣٦
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْمَعَ وَيُطِيعَ أَوْامِرَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٣٧
- مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْكُفْرِ ٣٣٧
- [١٠٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ .. ٣٣٧
- رَحْمَةُ اللَّهِ لِلْعِبَادِ عَلَى نَوْعَيْنِ ٣٣٨
- فَضْلُ اللَّهِ عَظِيمٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ وَشُمُولِهِ مَكَانًا وَزَمَانًا ٣٣٨
- فوائد الآية (١٠٥) ٣٣٨
- لَا يَوْذُ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْزِلَ الْخَيْرُ بِالْمُؤْمِنِينَ ٣٣٨
- يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحْذَرُوا مِنْ مَكْرِ الْكُفَّارِ، وَأَلَّا يَغْتَرُّوا بِحَلَاوَةِ أَلْسِنَتِهِمْ ٣٣٩
- مَنْ كَرِهَ الْخَيْرَ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ فَفِيهِ شُبُهَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ ٣٣٩
- الْحَسَدُ كَرَاهَةٌ نُزُولِ الْخَيْرِ بِالْإِنْسَانِ وَإِنْ لَمْ يَتَمَنَّ زَوْالَهُ ٣٣٩
- رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى نَوْعَيْنِ ٣٣٩
- كُلُّ فِعْلٍ صَادِرٍ مِنَ اللَّهِ أَوْ مِنَ الْعِبَادِ فَإِنَّهَا هُوَ صَادِرٌ عَنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ ٣٤٠

- هل يصحُّ احتِجَاجُ العاصي على مَعْصِيَتِهِ بِالْقَدَرِ؟ ٣٤٠
- الْقَدَرُ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يُعْلَمُ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِهِ ٣٤١
- لا يُلِيقُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ الْفَضْلَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ ٣٤٢
- مَنْ سَأَلَ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ بَنِيَّةً صَالِحَةً وَعَزَمَ صَادِقٍ وَافْتَقَرَ إِلَيْهِ أَجَابَ لَهُ سُؤْلُهُ ٣٤٢
- [١٠٦-١٠٧] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾ ٣٤٢
- النَّسْخُ يَكُونُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، أَحَدُهَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى ٣٤٢
- الآيَةُ النَّاسِخَةُ تَكُونُ خَيْرًا مِنَ الْمُنْسُوخَةِ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ خَيْرًا مِنْهَا فِي الْعَمَلِ، وَلَكِنْ مِثْلَهَا ٣٤٣
- فوائد الآيتين (١٠٦-١٠٧) ٣٤٣
- النَّسْخُ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقَعُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، وَأَمَثَلُهُ ذَلِكَ ٣٤٣
- كَيْفَ تُنْسَخُ الْآيَةُ لَفْظًا وَحُكْمًا، ثُمَّ يَثْبُتُ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ بِهَا بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؟ ٣٤٥
- الْحِكْمَةُ مِنْ نَسْخِ اللَّفْظِ وَبَقَاءِ الْحُكْمِ ٣٤٥
- الْحِكْمَةُ مِنْ نَسْخِ الْحُكْمِ وَبَقَاءِ اللَّفْظِ ٣٤٥
- قَدْ يُنْسِي اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ٣٤٥
- النَّسْخُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ أَوْ مَا هُوَ مِثْلٌ ٣٤٥
- الْحُكْمُ النَّاسِخُ قَدْ يَكُونُ أَشَدَّ مِنَ الْمُنْسُوخِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْعَكْسِ، وَقَدْ يَسْتَوِيَانِ، وَبَيَانُ وَجْهِ الْخَيْرِيَّةِ فِي كُلِّ نَوْعٍ ٣٤٦
- قُدْرَةُ اللَّهِ مُتَقَرَّرَةٌ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِفِطْرَتِهِ ٣٤٧

- قُدْرَةُ اللَّهِ تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ ٣٤٧
- مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَاصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى ٣٤٧
- مُلْكُ الْإِنْسَانِ لِمَا يَمْلِكُهُ مُلْكٌ مُقَيَّدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهِ، بِخِلَافِ مُلْكِ اللَّهِ ٣٤٨
- لَا وَلِيَّ وَلَا نَصِيرَ لِأَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ٣٤٨
- وَلَايَةُ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ: عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ ٣٤٨
- [١٠٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...﴾ ٣٤٩
- سُؤَالُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرْبٌ مِنَ الْكُفْرِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِآيَةٍ فَإِنَّهَا يَتَّبِعُ هَوَاهُ ٣٤٩
- فوائد الآية (١٠٨) ٣٤٩
- كَانَ قَوْمُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَوِي تَعَنُّتٍ وَتَشَدُّدٍ وَاقْتِرَاحٍ لِلآيَاتِ ٣٤٩
- إِذَاءُ الْمُرْسَلِينَ مِنْ دَيْدَنِ الْمُكَذِّبِينَ ٣٥٠
- مَنْ اخْتَارَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ السَّبِيلَ، وَإِنْ صَلَحَتِ الْأُمُورُ فِي وَجْهِهِ ٣٥٠
- مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى التَّوْفِيقِ ٣٥٠
- كُلُّ كَافِرٍ فَقَدْ أَخْطَأَ السَّبِيلَ الْحَقَّ، وَسَلَكَ الطَّرِيقَ الْمَعْوَجَّ ٣٥٠
- [١٠٩] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا...﴾ ٣٥٠
- حَمَلَ الْحَسَدُ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّوْا زَيْدَادَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ ٣٥٠
- أَمْرُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوا وَيَصْفَحُوا عَنِ الْكُفَّارِ كَانَ مُقَيَّدًا بِحَالِ مُعَيَّنَةٍ ٣٥١
- فوائد الآية (١٠٩) ٣٥١
- مَنْ حَسَدَ النَّاسَ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَدْ شَابَهَ الْيَهُودَ فِي ذَلِكَ ٣٥١

- ٣٥١ ينبغي للمؤمنين أن يجذروا من كَيْدِ الأَعْدَاءِ وَخِدَاعِهِمْ.
- ٣٥٢ حَسَدُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ عَنْ عَقْلِ وَتَرَوْهُ.
- ٣٥٢ ينبغي للإنسان أن يجذر من أن يكونَ في قلبه حُبٌّ لانتِشارِ الكُفْرِ والمعاصي بين المسلمين.
- ٣٥٢ جاء التَّشْرِيعُ بالتَّدْرِجِ في مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ.
- ٣٥٢ الأحكامُ التي جاءت بها الشَّريعةُ أَحْكَامٌ مُؤَبَّدَةٌ وَأَحْكَامٌ مُؤَمَّدَةٌ.
- ٣٥٣ إذا خَالَفَ الإنسانُ الأَمْرَ أو النَّهْيَ عن جَهْلٍ كان مَعْذُورًا.
- ٣٥٣ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ ومات وهو مُسْلِمٌ لَمْ يَضُرَّهُ مَا فَعَلَ مِمَّا يُنَاقِضُ الْإِسْلَامَ جهلاً
- ٣٥٤ تنبيهٌ على قَوْلِ بعضِ النَّاسِ: إِنَّ اللَّهَ على ما يشاء قَدِيرٌ.
- ٣٥٤ [١١٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾.
- ٣٥٤ الأمرُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ يَشْمَلُ فَرَضَهَا وَنَفْلَهَا.
- ٣٥٤ تختصُّ الزَّكَاةُ بالفَرَضِ، وَأَمَّا النِّفْلُ فَيُسَمَّى: صدقةً أو نفلاً وما أشبه ذلك.
- ٣٥٤ يختلفُ مِقْدَارُ الزَّكَاةِ بِحَسَبِ مَا على الإنسان من المَوْنَةِ.
- ٣٥٤ إخبارُ الله لِعِبَادِهِ بِأنَّه بصيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ يعني الحثَّ على العَمَلِ الصَّالِحِ واجتنابِ العَمَلِ الْمَحْرَمِ.
- ٣٥٥ ■ فوائد الآية (١١٠).
- ٣٥٥ إقامة الصَّلَاةِ على قِسْمَيْنِ: وَاجِبَةٍ، وَمُسْتَحَبَّةٍ.
- ٣٥٥ ما تُؤَوِّي النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لِلأُمَّةِ كُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ في أَمْرِ دِينِهَا وَدُنْيَاها.
- ٣٥٦ كُلُّ مَا يُقَدِّمُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْخَيْرِ فَلَنْ يَضِيعَ، وسيجدُ ثَوَابَهُ أَحْوَجَ ما يكونُ إليه.
- ٣٥٦ قد يأتي العبدُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ يومَ الْقِيَامَةِ يكونُ لغيرِهِ.

- تحذيرُ الله تعالى لِعِبَادِهِ أَنْ يُحَالِفُوا أَوْامِرَهُ ٣٥٦
- [١١١-١١٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا
- أَوْ نَصْرَى﴾ ٣٥٧
- إِحْسَانُ الْعَمَلِ يَعْنِي اتِّبَاعَ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ٣٥٧
- لَا يَخْصُلُ الْعَبْدُ عَلَى ثَوَابِ الْعَمَلِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ ٣٥٧
- وَجْهٌ تَسْمِيَةِ ثَوَابِ اللَّهِ بِالْأَجْرِ ٣٥٨
- فوائد الآيتين (١١١-١١٢) ٣٥٨
- أَهْلُ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ٣٥٨
- يَنْبَغِي لِلْمُنَظِّرِ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى قَوْلِ خَصْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ بُرْهَانَهُ عَلَيْهِ ٣٥٨
- الْمُحَاجَّةُ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَدْخُصُ حُجَّةَ الْخَصْمِ وَتُفْحِمُهُ ٣٥٩
- يَنْبَغِي الْإِنْصَافُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَصْمِ، وَأَنْ يُطْلَبَ مِنْهُ بُرْهَانُهُ ٣٥٩
- كُلُّ مَنْ ادَّعَى حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُقِيمَ الْبَيِّنَةَ عَلَيْهِ ٣٥٩
- بُطْلَانُ دَعَاوِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي تَرْكِيتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ٣٥٩
- لَا يَخْصُلُ الثَّوَابُ عَلَى الْعَمَلِ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ ٣٥٩
- لَا تَتَحَقَّقُ مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ الْعَمَلِ لَشَرِيعَتِهِ فِي سِتَّةِ أُمُورٍ ٣٦١
- لَا يَصِحُّ أَنْ يُضْحَى الْإِنْسَانُ بِالْفَرَسِ وَنَحْوِهَا مِمَّا لَمْ يُشْرَعْ وَلَوْ كَانَ أَغْلَى ثَمَنًا مِنْ
- بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ٣٦١
- لَا تُجْزَى الْأُضْحِيَّةُ حَتَّى تَكُونَ فِي أَيَّامِ الذَّبْحِ الْمَشْرُوعَةِ ٣٦١
- لَا يَصِحُّ الْاِعْتِكَافُ فِي غَيْرِ مَسْجِدٍ ٣٦٢
- لَا يَصِحُّ الْوُضُوءُ وَلَا الصَّلَاةُ مُنْكَسِنِينَ ٣٦٢

- كُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مُخْلِصًا لِّلَّهِ فِيهِ مُتَابِعًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِيهِ ثَبَتَ أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ ٣٦٢
- مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ رُبُوبِيَّةً خَاصَّةً: أَنْ يُوقِّعَهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الْخَالِصِ لَهُ تَعَالَى ٣٦٢
- كُلُّ مَنْ أَخْلَصَ عَمَلَهُ وَوَافَقَ فِيهِ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يُصِبْهُ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ،
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَقَعَ بِهِ الْخَوْفُ وَالْحُزْنُ ٣٦٢
- كُلُّ ثَوَابٍ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ ثَوَابٌ عَظِيمٌ ٣٦٣
- [١١٣] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾ ٣٦٣
- كَانَ النَّصَارَى عَلَى حَقٍّ حِينَ كَانَتْ مِلَّتُهُمْ قَائِمَةً قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ ٣٦٣
- الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ٣٦٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١١٣) ٣٦٤
- الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَائِمَةٌ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تُضَلِّلُ الْأُخْرَى، ثُمَّ صَارَتْ
هَذِهِ الْعَدَاوَةُ بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَايَةً ٣٦٤
- كُلُّ جَاهِلٍ يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ مُخَالَفَهُ عَلَى بَاطِلٍ ٣٦٤
- سَوْفَ يَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ مَنْ اخْتَلَفُوا فِي كُتُبِهِ وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ ٣٦٥
- الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ ٣٦٥
- [١١٤] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ...﴾ ٣٦٥
- عَظُمَ ظُلْمُ مَنْ مَنَعَ ذِكْرَ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ، وَسَعَى فِي تَحْرِيبِهَا ٣٦٥
- بُشِّرَى اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الَّذِينَ يَمْنَعُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ٣٦٨
- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ
لَا يَتَنَافَيَانِ ٣٦٦
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١١٤) ٣٦٦

- يَحْرُمُ مَنْعُ النَّاسِ مِنَ الْمَسَاجِدِ أَنْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِيهَا ٣٦٦
- إِنَّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِيُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ فِيهَا ٣٦٦
- لَا يَحِلُّ إِيقَاعُ أُمُورِ الدُّنْيَا مِنَ الْبَيْعِ وَنَحْوِهِ فِي الْمَسَاجِدِ ٣٦٧
- ذَكَرَ اللَّهُ يَكُونُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ ٣٦٧
- تَحْصُلُ عِمَارَةُ الْمَسَاجِدِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ٣٦٨
- خَرَابُ الْمَسَاجِدِ يَكُونُ بِمَنْعِ ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا، وَيَكُونُ بِخَرَابِهَا الْحَسِّيِّ بِالْهَدْمِ ٣٦٨
- بُشِّرَى اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الَّذِينَ يَمْنَعُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ٣٦٨
- مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ تَنَالَهُ عُقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا وَعُقُوبَةٌ فِي الْآخِرَةِ ٣٦٨
- [١١٥] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾ ٣٦٩
- اللَّهُ تَعَالَى وَاسِعٌ فِي صِفَاتِهِ وَهَبَاتِهِ وَفَضْلِهِ ٣٦٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١١٥) ٣٦٩
- عُمُومُ مُلْكِ اللَّهِ وَشُمُولُهُ لَا يَتَأْتَى لِأَحَدٍ سِوَاهُ ٣٦٩
- مَهْمَا تَوَلَّى الْإِنْسَانُ وَاتَّجِهَ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ٣٦٩
- الْمَرَادُ بِوَجْهِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ٣٧٠
- إِذَا صَلَّى الْإِنْسَانُ بِاجْتِهَادٍ إِلَى جِهَةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا هِيَ جِهَةُ الْقِبْلَةِ فَإِنَّ صَلَاتَهُ صَحِيحَةٌ ٣٧٠
- وَلَوْ بَانَ الْقِبْلَةُ فِي جِهَةٍ أُخْرَى ٣٧٠
- ثُبُوتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ فِي ذَلِكَ ٣٧٠
- كُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ صَغِيرٌ ٣٧٠
- التَّحْذِيرُ مِنْ مُحَالَفَةِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَفِعْلِ نَوَاهِيهِ ٣٧١
- [١١٦-١١٧] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ...﴾ ٣٧١

- لا يَتَّخِذُ الْوَلَدَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، وَلِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهًا عَنْهُ ٣٧١
- فوائد الآيتين (١١٦-١١٧) ٣٧٢
- لا ينبغي لله أن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٣٧٣
- الجوابُ عَمَّا اسْتَدَلَّ بِكَوْنِ الْمَسِيحِ ابْنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أَبِي ٣٧٣
- مهما عَظُمَ الْأَمْرُ فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ٣٧٣
- إثباتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ بِحُرُوفٍ، وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ ٣٧٣
- القولُ الَّذِي فِي النَّفْسِ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْقَوْلِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ ٣٧٤
- القولُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يُرَادُ بِهِ الْقَوْلُ الْمَسْمُوعُ ٣٧٤
- كُلُّ شَيْءٍ يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ إِذَا وَجَّهَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ بِ(كن) ٣٧٤
- [١١٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا آيَةً﴾ ... ٣٧٤
- كَانَ الْجَاهِلُونَ يَطْلُبُونَ مِنَ الرُّسُلِ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمْ ٣٧٤
- مَا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِلَّا وَآتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ ٣٧٥
- تَشَابَهُ الْقُلُوبِ يَتَّبِعُ عَنْهُ تَشَابَهُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ ٣٧٥
- لا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُوقِنًا ٣٧٦
- فوائد الآية (١١٨) ٣٧٦
- بَلَغَ الْعِنَادُ بِالْكَفَّارِ أَنَّهُمْ لَا يَتَنَفَّعُونَ بِالْآيَاتِ الَّتِي يُرْتِيهَا اللَّهُ رُسُلَهُ ٣٧٦
- طَلَبُ الْكَفَّارِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ يَأْتُوا بِالْآيَاتِ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَأْتُوا
بِآيَاتٍ ٣٧٦
- كُلُّ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ ٣٧٦
- الْقُلُوبُ هِيَ الَّتِي تُوجَّهَ الْبَدَنُ، وَبَصَلَاحِهَا صَلَاحُ الْبَدَنِ، وَبِفَسَادِهَا فِسَادُهُ ٣٧٧

- أَعْمَالُ الْكُفَّارِ الْمُتَأَخِّرِينَ تُشَابِهُ أَعْمَالُ الْكُفَّارِ السَّابِقِينَ ٣٧٧
- كُلُّ مَنْ شَكَّ فِي الرِّسَالَةِ فَلَنْ تَتَبَيَّنَ لَهُ الْآيَاتِ، بَلْ تَزِيدُهُ عَمًى وَضَلَالًا ٣٧٧
- أَقْسَامُ النَّاسِ فِي آيَاتِ اللَّهِ ٣٧٧
- مَنْ قَرَأَ الْأَذْكَارَ شَاكًّا فِي نَفْعِهَا فَلَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا ٣٧٨
- [١١٩] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ ٣٧٨
- دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرْسِلَ حَقًّا، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ ٣٧٩
- مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ بَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ ٣٧٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١١٩) ٣٧٩
- كُلُّ مَنْ خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ فَهُوَ عَلَى بَاطِلٍ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ أَوْ فِي بَعْضِهَا ٣٨٠
- لَيْسَ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ ٣٨٠
- يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَبْشِرَ بِفِعْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ٣٨٠
- التَّوَفِيقُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ دَلِيلٌ عَلَى التَّيْسِيرِ لِلْيُسْرَى ٣٨٠
- إِذَا رَأَى الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ يُسِّرُهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِذَا وَجَدَ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ فَلْيُبَادِرِ بِالتَّوْبَةِ ٣٨١
- لَا يُسْأَلُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ضَلَالِ الصَّالِّينَ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْبَلَاغِ ... ٣٨١
- لَا يَسْتَفِيدُ أَصْحَابُ النَّارِ مِنْ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ... ٣٨٢
- [١٢٠] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبْجَعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ ٣٨٢
- الْيَهُودُ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٣٨٢
- نُسِخَتْ شَرِيعَةُ الْيَهُودِ بِشَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ ٣٨٢

- آخرُ أنبياء بني إسرائيل: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس بَيْنَهُ وبين النَّبِيِّ ﷺ رسولٌ ٣٨٢
- كان النَّصَارَى على دِينِ حَقٍّ قبل أن يُبعثَ النَّبِيُّ ﷺ ٣٨٢
- لَمَّا كَفَرَ النَّصَارَى بالنبي ﷺ صار هذا كُفْرًا بعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٣٨٣
- ضميرُ الفَصْلِ يُفيد الحَصَرَ ٣٨٣
- عُقُوبَةُ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بعد الْعِلْمِ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ٣٨٤
- فوائد الآية (١٢٠) ٣٨٤
- التَّحْذِيرُ الشَّدِيدُ من اتِّبَاعِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ٣٨٤
- الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَفْرَحُونَ وَيُسْرُونَ بِمَنْ يَتَّبِعُ مِلَّتَهُمْ ٣٨٤
- لا يَخْتَصُّ الْهُدَى بِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، إِنَّمَا هُوَ اتِّبَاعُ هُدَى اللَّهِ على أَيِّ نَبِيٍّ نَزَلَ ٣٨٤
- نَسَخَتْ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعَ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ٣٨٤
- لا تَنْزِلُ الْعُقُوبَةُ على الْعَبْدِ حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بِالْأَمْرِ ٣٨٥
- لا أَحَدٌ يَمْنَعُ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ من خَيْرٍ أو شَرٍّ ٣٨٥
- التَّنْبِيهُ على عِظَمِ التَّحْذِيرِ من اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ٣٨٦
- [١٢١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ...﴾ ٣٨٦
- تِلَاوَةُ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ على رُسُلِهِ على ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ ٣٨٦
- مَنْ لَمْ يَتْلُ الْكِتَابَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ فِي لَفْظِهِ أو مَعْنَاهُ أو تَطْبِيقِهِ فَقَدْ نَقَصَ إِيْمَانَهُ بِقَدْرِ ذَلِكَ ٣٨٧
- مَنْ كَفَرَ بِالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فَهُوَ خَاسِرٌ، وَمَنْ آمَنَ بِهَا فَهُوَ الرَّابِحُ ٣٨٧
- فوائد الآية (١٢١) ٣٨٧
- حَقِيقَةُ الْإِيْمَانِ بِالْكِتَابِ: أَنْ يَتْلُوهُ الْإِنْسَانُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ٣٨٧

- تَجِبُ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي تَرْتِيبِ الْحُرُوفِ وَإِعْرَابِهَا ٣٨٧
- مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَتْلُهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ ذَلِكَ ٣٨٧
- التَّحْذِيرُ مِنْ تَحْرِيفِ آيَاتِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا ٣٨٨
- التَّحْرِيفُ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ أَشَدُّ مِنَ التَّحْرِيفِ فِي آيَاتِ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ ٣٨٨
- الْوَاجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي نُصُوصِ الصِّفَاتِ ٣٨٨
- تِلَاوَةُ الْكِتَابِ قَدْ تَكُونُ تِلَاوَةً تَامَّةً، وَقَدْ تَكُونُ تِلَاوَةً نَاقِصَةً ٣٨٩
- مَنْ لَمْ يَقُمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَقَدْ نَقَصَ إِيْمَانُهُ بِالْكِتَابِ
بَقَدْرِ هَذَا ٣٨٩
- طَرِيقُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ٣٨٩
- كُلُّ مَنْ كَفَرَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ أُوتِيَ مَا أُوتِيَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا .. ٣٨٩
- [١٢٢] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتَیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْكُمْ...﴾ ٣٩٠
- ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَءِیْلَ ٣٩٠
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٢٢) ٣٩١
- يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ تَذَكُّرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ لِيَشْكُرَهَا ٣٩١
- تَزَادُ النِّعَمُ بِالشُّكْرِ، وَتَرْتَفِعُ بِالْكُفْرِ ٣٩١
- النَّبِيُّ ﷺ مُرْسَلٌ إِلَى بَنِي إِسْرَءِیْلَ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ ٣٩١
- تَفَاضُلُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ يَكُونُ بِإِيْمَانِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ ٣٩١
- تَتَفَاضَلُ الْأَعْمَالُ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا يَتَفَاضَلُ الْعَامِلُونَ ٣٩١
- يَجِبُ عَلَى مَنْ أُوتِيَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ مِنَ الشُّكْرِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ دُونَهُ ٣٩٢
- النَّاسُ فِيمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ عَلَى نَوْعَيْنِ، وَوَظِيفَةُ كُلِّ نَوْعٍ ٣٩٢

- [١٢٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا...﴾ ٣٩٢
- في يوم القيامة لا يُغني الوالد عن الولد، ولا الولد عن الوالد ٣٩٢
- متى تنفع الشفاعة يوم القيامة؟ ٣٩٢
- فوائد الآية (١٢٣) ٣٩٣
- لا يمكن لأحد أن ينفع أحدًا يوم القيامة ٣٩٣
- الشفاعة على قسمين ٣٩٣
- الصلاة على الميت نوع من الشفاعة له ٣٩٣
- يأمل المشركون أن الأصنام التي يعبدونها تنفعهم عند الله يوم القيامة ٣٩٤
- [١٢٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾ ٣٩٤
- الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٣٩٤
- أكبر الأئمة من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو محمد ﷺ ٣٩٥
- أبعد الناس عن الإمامة من كان ذا ظلم لنفسه ٣٩٦
- فوائد الآية (١٢٤) ٣٩٦
- الفائدة من ذكر ابتلاء الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ٣٩٦
- كان إبراهيم عليه السلام ذا شفقة على ذريته، ولذا سأل الله أن يجعل منهم أئمة ٣٩٦
- كل من كان أقوم لله بما أمر كان بالإمامة أخرى ٣٩٦
- كره الله الظلم، فلم يجعل للظالم إمامة ٣٩٧
- [١٢٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا...﴾ ٣٩٧
- موقع مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسبب تسميته بذلك ٣٩٧
- كيف يتخذ الإنسان من مقام إبراهيم مصلًى؟ ٣٩٧

- ٣٩٨ أَكْبَرُ أَوْلَادِ إِبْرَاهِيمَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَكَانَ مِنْ سُرِّيَّتِهِ هَاجِرُ ٣٩٨
- ٣٩٨ سَبَبُ بَدْءِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِذِكْرِ الطَّائِفِينَ قَبْلَ الْعَاكِفِينَ وَالْمُصَلِّينَ ٣٩٨
- ٣٩٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٢٥) ٣٩٩
- ٣٩٩ مِنْ مَظَاهِرِ كَوْنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ: تَرُدُّ النَّاسَ عَلَيْهِ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ٣٩٩
- ٣٩٩ مَكَّةُ بَلَدٌ آمِنٌ ٣٩٩
- ٣٩٩ يَحْرُمُ الْقِتَالُ فِي مَكَّةَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الدَّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ ٣٩٩
- ٤٠٠ حُكْمُ رَكَعَتِي الطَّوَافِ ٤٠٠
- ٤٠٠ ثَلَاثُ سَنَنِ يُشْرَعُ لِلْإِنْسَانِ فِعْلُهَا فِي رَكَعَتِي الطَّوَافِ ٤٠٠
- ٤٠٠ أَخْطَاءُ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ٤٠٠
- هل يحقُّ للإنسان أن يُصَلِّيَ رَكَعَتِي الطَّوَافِ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ إِذَا كَانَ الْمَطَافُ مُزْدَحَمًا؟ ٤٠٠
- ٤٠١ مِنْ صُورِ إِمَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ أَنْ تَتَّخَذَ مِنْ مَقَامِهِ مُصَلًّى ٤٠١
- ٤٠١ الْعَهْدُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَتِهِمَا ٤٠١
- ٤٠١ تَعْظِيمُ شَأْنِ الطَّوَافِ وَفَضِيلَتُهُ ٤٠١
- ٤٠١ تَطْهِيرُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٤٠١
- ٤٠١ الشَّرْكُ نَجَاسَةٌ، وَلِذَا يُطَهَّرُ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَلَا يُمَكَّنُ أَحَدٌ مِنْهُ ٤٠١
- ٤٠٢ يُشْرَعُ لِلطَّائِفِ أَنْ يَكُونَ عَلَى طَهَارَةٍ ٤٠٢
- ٤٠٢ مَنْ طَافَ مُحْدِثًا حَدَثًا أَصْغَرَ فَهَلْ يَصِحُّ طَوَافُهُ؟ ٤٠٢
- ٤٠٣ يُشْرَعُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ٤٠٣
- ٤٠٣ التَّعْيِيرُ عَنِ الْعِبَادَةِ بِجُزْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا ٤٠٣

- ٤٠٣ حَدُّ الرُّكُوعِ الْمُجْزِئِ
- ٤٠٣ يُشْتَرَطُ فِي السُّجُودِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْأَعْضَاءِ السَّبْعَةِ
- ٤٠٤ يَجِبُ تَطْهِيرُ الْمَسَاجِدِ فَرَضًا كِفَائِيًّا
- ٤٠٤ كَيْفَ يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا رَأَى فِي الْمَسْجِدِ قَدْرًا؟
- ٤٠٤ [١٢٦] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾
- ٤٠٤ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ
- وَجْهٌ تَخْصِيصِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعْوَتَهُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ بِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ..... ٤٠٥
- ٤٠٦ أَهْلُ النَّارِ يُدْفَعُونَ دَفْعًا إِلَيْهَا
- ٤٠٦ ■ فوائد الآية (١٢٦)
- ٤٠٦ إجابة الله لدعوة خليله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ
- ٤٠٦ لَمْ تَكُنْ مَكَّةَ بَلَدًا زِرَاعِيًّا، لَكِنْ صَارَتْ تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ
- ٤٠٧ كُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْوَى إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ صَارَ أَكْثَرَ أَمْنًا
- ٤٠٧ قَدْ يُعْطِي اللَّهُ السَّائِلَ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ
- ٤٠٧ لَا يُقَرُّ الْكَافِرُ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ
- ٤٠٧ يَرْزُقُ اللَّهُ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا، وَيُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
- ٤٠٨ مَهْمَا طَالَتِ الدُّنْيَا فَهِيَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ
- ٤٠٨ [١٢٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾
- ٤٠٨ كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَبَا الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
- ٤٠٨ أَبُو الْعَرَبِ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ

- فوائد الآية (١٢٧) ٤٠٩
- من فضيلة إبراهيم وإسماعيل: رفع القواعد من البيت ٤٠٩
- تواضع الأنبياء لشريعة الله ٤٠٩
- مهما عظمت منزلة العبد فهو مفتقر إلى ربه عز وجل ٤٠٩
- الشأن كل الشأن أن يقبل من العبد عمله ٤٠٩
- أسماء الله عز وجل تدل على صفاته، وليست أسماء مجردة كما يقول أهل البدع ٤١٠
- سمع الله عز وجل ينقسم إلى قسمين ٤١٠
- سمع الله الذي هو بمعنى إدراك الصوت على قسمين ٤١٠
- علم الله أزلّي أبدي ٤١١
- جاء ذكر علم الله في القرآن على سبيل الإجمال وعلى سبيل التفصيل ٤١١
- فائدة إيمان العبد بأن الله سميعٌ عليهم ٤١١
- [١٢٨] قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾ ٤١١
- إسلام العبد لله يتضمن إخلاصه له ٤١٢
- لا يصدق على أمة أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا أمة محمد ﷺ ٤١٢
- توبة الله على عباده لها مغنيان ٤١٢
- التوبة تكون من ذنوب العبد مع ربه، ومع خلقه ٤١٢
- فوائد الآية (١٢٨) ٤١٣
- ما من أحد إلا وهو مفتقر إلى ربه أن يوفقّه للاستسلام له ٤١٣
- إذا آمن الإنسان على دعاء الداعي صار الدعاء لهما جميعاً ٤١٣
- ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يرزقه ذريةً صالحةً ٤١٣

- ٤١٤ لَا يَسْتَغْنِي عَبْدٌ مَهَا عَلَتْ مَنَزِلَتُهُ عَنْ أَنْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ
- ٤١٤ أَهْمِيَّةُ الْعِنَايَةِ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَاتِ وَمَعْرِفَةِ ذَلِكَ
- ٤١٤ التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَذَانِ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ
- ٤١٤ إِذَا كَبَّرَ الْمُصَلِّي تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ
- ٤١٤ لَا يَسْتَغْنِي عَبْدٌ عَنْ تَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنْ عَظُمَتْ مَنَزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
- ٤١٥ شُرُوطُ صِحَّةِ التَّوْبَةِ وَقَبُولِهَا
- ٤١٥ إِذَا حَضَرَ مَوْتُ الْإِنْسَانِ أَوْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَقَدْ انْغَلَقَ بَابُ التَّوْبَةِ
- ٤١٥ يَنْبَغِي لِمَنْ دَعَا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الَّتِي تُنَاسِبُ سُؤَالَهِ
- ٤١٦ رَحْمَةُ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ
- ٤١٦ وَجْهٌ تَسْمِيَةُ الْجَنَّةِ بِالرَّحْمَةِ
- ٤١٦ كُلُّ صِفَاتِ اللَّهِ غَيْرٌ مَخْلُوقَةٌ
- ٤١٦ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ عَلَى نَوْعَيْنِ: عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، وَمُقْتَضَى كُلِّ رَحْمَةٍ
- ٤١٧ [١٢٩] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ...﴾
- ٤١٧ لَيْسَ فِي ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيٌّ سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ
- ٤١٧ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾
- ٤١٨ عِزَّةُ اللَّهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ
- ٤١٨ اسْمُ اللَّهِ (الْحَكِيمُ) مُسْتَقٌّ مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِحْكَامِ
- ٤١٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٢٩)
- ٤١٨ شِدَّةُ حَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَى إِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ
- ٤١٨ مَهَا عَظُمَتْ الْعُقُولُ فَلَنْ تَسْتَقِلَّ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ ...

- ٤١٩ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى لِكِتَابِهِ
- ٤١٩ كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ آيَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَعَلَى أَنَّهُ شَرَعُ اللهِ
- ٤١٩ لَمْ يَدْعِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا تَحْتَاجُهُ أُمَّتُهُ إِلَّا عَلَّمَهُمْ إِيَّاهُ
- ٤١٩ جَاءَتْ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْحِكْمَةِ الَّتِي تُطَابِقُ الْمَصَالِحَ
- ٤١٩ دَلَالَةُ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى ثُبُوتِ الْاسْتِدْلَالِ بِالْقِيَاسِ
- ٤١٩ كُلُّ مَثَلٍ فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْقِيَاسِ
- ٤٢٠ سَبَبُ فَسَادِ الْأَقْسِيسَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ
- ٤٢٠ تَرْكِيةُ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ تَشْمَلُ أَمْرَيْنِ
- ٤٢٠ أَقْسَامُ عِزَّةِ اللهِ تَعَالَى
- ٤٢١ الْحِكْمَةُ فِي أَحْكَامِ اللهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ عَلَى نَوْعَيْنِ، وَمَثَلَانِ فِي ذَلِكَ
- ٤٢٢ نَفْعُ الصَّلَاةِ لِلْعَبْدِ فِي الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ وَالْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ
- ٤٢٢ الْحُكْمُ الْكُونِيُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي هَذَا أَحَدٌ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَرُدَّهُ وَيُضَادَّهُ...
- ٤٢٣ كُلُّ حُكْمٍ كُونِيٍّ أَوْ شَرْعِيٍّ فَلَهُ حِكْمَةٌ وَصِفِيَّةٌ وَحِكْمَةٌ غَائِيَّةٌ
- ٤٢٣ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لَمْ يَسْتَمِدَّ الْعِزَّةَ إِلَّا مِنْهُ
- ٤٢٣ اسْتِمْدَادُ الْعِزَّةِ مِنَ اللَّهِ تَكُونُ بِأَمْرَيْنِ
- ٤٢٣ مَنْ عَلِمَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ رَضِيَ بِمَا قَضَاهُ كَوْنًا وَشَرْعًا
- كما أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَجَاسَرُ أَنْ يُخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ الْكُونِيَّ فَكَذَلِكَ لَا يَتَجَاسَرُ عَلَى مُخَالَفَةِ
- ٤٢٤ أَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ
- [١٣٠] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾
- ٤٢٤ لَا يَرْغَبُ عَنِ الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا مَنْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ
- ٤٢٤ السَّفَهَ

- ٤٢٤ مَن اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُصْطَفًى فِي الدُّنْيَا، وَصَالِحًا فِي الْآخِرَةِ
- ٤٢٥ ■ فوائد الآية (١٣٠)
- ٤٢٥ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِحْلَاصِ وَمُتَابَعَةِ شَرَعِ اللَّهِ
- ٤٢٥ الْعَقْلُ وَالرُّشْدُ وَالصَّلَاحُ تَقْتَضِي اتِّبَاعَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ٤٢٥ صَفْوَةُ أَعْمَالِ الْخَلْقِ مَا كَانَ عَلَيْهِ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ٤٢٥ قِمَّةُ الصَّالِحِينَ هُمُ الرُّسُلُ
- ٤٢٥ إِذَا ذُكِرَ الصَّلَاحُ مَعَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ كَانَ قِسْمًا لَهَا، وَإِذَا ذُكِرَ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ
- ٤٢٦ يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ النَّبِيُّ بِأَنَّهُ صَالِحٌ
- ٤٢٦ [١٣١] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
- ٤٢٦ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ: أَنْ يُسَلِّمَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ
- ٤٢٧ ■ فوائد الآية (١٣١)
- ٤٢٧ مَن أَحْسَنَ عَمَلَهُ قَبِضَ اللَّهُ لَهُ مَن يُحْيِي ذِكْرَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ
- ٤٢٧ [١٣٢] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ...﴾
- ٤٢٨ ■ فوائد الآية (١٣٢)
- ٤٢٨ أَهْلُ الْقِيَامِ بِالْإِسْلَامِ وَالِدَعْوَةِ إِلَيْهِ هُمُ الذُّكُورُ
- ٤٢٨ وَجُوبُ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ
- ٤٢٨ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ
- ٤٢٩ [١٣٣] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ...﴾
- وَجْهٌ ذِكْرِ إِسْمَاعِيلَ فِي آبَاءِ يَعْقُوبَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
- ٤٢٩ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾

- فوائد الآية (١٣٣) ٤٢٩
- ٤٢٩ كان أنبياءُ الله يَحْرِصُونَ على أن يكونَ بُنُوهم على تَوْحِيدِ الله والاستِسْلامِ له
- ٤٣٠ هل قَوْلُ الْمُحْتَضَرِّ مُعْتَبَرٌ وَيُعْمَلُ به؟
- ٤٣٠ ينبغي للإنسان أن يُورَثَ من بَعْدِهِ ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ
- ٤٣٠ اقْتِدَاءُ الابنِ بِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ
- ٤٣٠ ينبغي لِمَنْ ابْتُلِيَ بِمَعْصِيَةٍ أَنْ يَحْرِصَ على أَلَّا يُشَاهِدَهُ أَهْلُهُ عليها
- قد يُسَمَّى الجَدُّ أَبًا، وهذا يدلُّ على أَنَّ الجَدَّ يَحْجِبُ الإِخْوَةَ إذا لم يكن في المسألة
- أَبٌ ٤٣٠
- ٤٣١ يصحُّ أن يُطْلَقَ على العمِّ (أَبٌ) من باب التَّغْلِيبِ
- ٤٣١ لا يَتِمُّ تَوْحِيدُ رَجُلٍ حَتَّى يَعْتَقِدَ وَحْدَانِيَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ
- ٤٣١ [١٣٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾
- فوائد الآية (١٣٤) ٤٣١
- ٤٣١ نَسَبُ الْعَبْدِ لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ الله
- ٤٣٢ لَا يَنْتَفِعُ الابْنُ بِكَسْبِ أَبِيهِ، وَلَا الْأَبُ بِكَسْبِ ابْنِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ سَبَبًا فِي ذَلِكَ
- ٤٣٢ [١٣٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾
- ٤٣٣ لَا اهْتِدَاءَ لِلْإِنْسَانِ وَلَا هِدَايَةَ لَهُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ
- فوائد الآية (١٣٥) ٤٣٣
- ٤٣٣ لَا يَأْلُو أَهْلُ الْبَاطِلِ جُهْدًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى بَاطِلِهِمْ وَتَضْلِيلِ النَّاسِ
- ٤٣٣ قَدْ يَدْعِي أَهْلُ الْبَاطِلِ أَمْرًا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ
- ٤٣٣ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ قَالَ بَاطِلًا أَنْ يُبَيِّنَ الْحَقَّ

- عِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرْكَ ٤٣٤
- [١٣٦] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ ٤٣٤
- الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ ٤٣٤
- المرادُ بالأسْبَاطِ في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَاسْمِعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ ٤٣٥
- لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ آيَةٌ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ صِدْقَ مَا بُعِثَ بِهِ ٤٣٥
- لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ، وَلَكِنْ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ .. ٤٣٦
- شَرِيعَةٌ مَنْ قَبْلُنَا إِنْ وَافَقَتْ شَرِيعَتَنَا عَمِلْنَا بِهَا، وَإِلَّا فَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِهَا ٤٣٦
- الآيَاتُ الَّتِي يُسَنُّ الْقِرَاءَةُ بِهَا فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ ٤٣٦
- فوائد الآية (١٣٦) ٤٣٧
- الْإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا ٤٣٧
- أَحْكَامُ الْقُرْآنِ أَحْكَامٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَتَحْقِيقِ الْمَصْلَحَةِ ٤٣٧
- يَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ ٤٣٧
- يَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَتَعَدُّادُ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهَا ٤٣٧
- مَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَجَبَ تَصَدِيقُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ فَلِكُلِّ أُمَّةٍ شَرِيعَتُهَا ٤٣٨
- مِنْ فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَنَّهَا صَدَقَتْ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ٤٣٩
- [١٣٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا...﴾ ٤٣٩
- تَوْجِيهِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ...﴾ ٤٣٩

- ٤٤٠ حين كان المسلمون مُعْتَزِّينَ بِدِينِهِمْ صار أهل الكتاب أذلةً بين أيديهم.
- ٤٤٠ ■ فوائد الآية (١٣٧)
- ٤٤٠ لا هِدَايَةَ لِأَحَدٍ بِغَيْرِ مَا آمَنْتَ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ.
- ٤٤٠ بُعِثَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنِ الْحَقِّ.
- ٤٤٠ مَنْ ظَنَّ أَنَّ دِينَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْيَوْمَ دِينُ هِدَايَةٍ وَمَقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ.
- ٤٤١ يَلْزَمُ كُلَّ أُمَّةٍ قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تُؤْمِنَ بِشَرِيعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَتَّبِعَهَا.
- ٤٤١ هَذِهِ الْأُمَّةُ سَابِقَةٌ لغيرها من الأمم في الفضلِ وفي مَشايدِ يومِ الْقِيَامَةِ.
- ٤٤١ بُشِّرِ اللَّهَ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَكْفِيهِ كُلَّ عَدُوٍّ.
- ٤٤١ إِذَا عَلِمَ الْمُسْلِمُ بِكَفَايَةِ اللَّهِ لَهُ فَلْيَتَمَسَّكَ بِدِينِهِ.
- ٤٤٢ ثُبُوتُ اسْمِي اللَّهِ (السَّمِيعِ) وَ(الْعَلِيمِ)، وَثُبُوتُ مَا تَصَمَّنَاهُ مِنْ صِفَةٍ.
- ٤٤٢ [١٣٨] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً...﴾
- ٤٤٢ ■ فوائد الآية (١٣٨)
- ٤٤٢ مِنْ فَضِيلَةِ هَذَا الدِّينِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ.
- ٤٤٣ أَحْسَنُ شَرِيعَةٍ يَسْتَمْسِكُ بِهَا الْبَشَرُ شَرِيعَةُ رَبِّهِمْ.
- ٤٤٣ مُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ: امْتِثَالُ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ.
- ٤٤٣ تَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ يُفِيدُ الْحَصَرَ.
- ٤٤٣ [١٣٩] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...﴾
- ٤٤٣ وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْمُخَاصَمَةِ: مُحَاجَّةٌ.
- ٤٤٤ ■ فوائد الآية (١٣٩)

- ٤٤٤ ينبغي لِمَن حَاجَّ أَحَدًا أَنْ يَذْكُرَ الْأَشْيَاءَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهَا بَيْنَهُمَا
- ٤٤٤ ينبغي للإنسان أَنْ يَعْتَزَّزَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْحَقِّ وَيَتَبَرَّأَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ
- ٤٤٥ ينبغي للمؤمن أَنْ يَكُونَ ذَا شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ يَعْتَزُّ بِدِينِهِ
- ٤٤٥ التحذيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالْكَفَّارِ
- [١٤٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى...﴾
- ٤٤٥ ■ فوائد الآية (١٤٠)
- ٤٤٦ بُطْلَانُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَبَنِيهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا مِثْلَهُمْ
- ٤٤٧ قاعدةٌ عظيمةٌ نافعةٌ فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالتَّخْرِيفِ
- ٤٤٧ يجبُ عَلَى الْإِنْسَانِ نَشْرُ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُ
- ٤٤٧ مَنْ كَتَمَ عِلْمًا فَهُوَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ
- ليس فِي صِفَاتِ اللَّهِ نَفْيٌ مُحْضٌ، بَلْ كُلُّ صِفَةٍ مُنْفِيَّةٍ عَنِ اللَّهِ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى ثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهَا
- ٤٤٧ [١٤١] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾
- ٤٤٨ [١٤٢] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾
- ٤٤٨ السَّيْنُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ تَدُلُّ عَلَى أَمْرَيْنِ
- ٤٤٩ كُلُّ مَنْ جَانَبَ الرُّشْدَ فِي تَصَرُّفَاتِهِ فَهُوَ سَفِيهٌ
- ٤٤٩ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ يَتَّجِهُ فِي صَلَاتِهِ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
- ٤٤٩ قِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ إِنَّمَا كَانَتْ نَحْوَ الْكَعْبَةِ
- ٤٥٠ ■ فوائد الآية (١٤٢)

- ٤٥٠ عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَسْبِقُهُ جَهْلٌ، وَلَا يَلْحَقُهُ نَسْيَانٌ
- ٤٥٠ لَا يَغْتَرِضُ عَلَى شَرَعِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ سَفِيهًا
- ٤٥٠ سَبَبُ تَوَجُّهِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي صَلَاتِهِ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ
- ٤٥١ لَا يَهْدِي اللَّهُ عَبْدًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، وَكُلُّ فَعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ فَإِنَّهَا هُوَ لِحِكْمَةٍ
- ٤٥١ هِدَايَةُ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ
- ٤٥٢ وَصَفَ اللَّهُ طَرِيقَهُ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِفَائِدَتَيْنِ
- ٤٥٢ [١٤٣] قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾
- ٤٥٢ تَرَدُّدُ كَلِمَةِ (أُمَّة) فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ مَعَانٍ
- ٤٥٣ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَشْهَدُ عَلَى مَنْ سَبَقَهَا، وَتَشْهَدُ لَهُ أَيْضًا
- ٤٥٤ لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَقَعَ فِي بَعْضِ النَّاسِ شَكٌّ وَارْتِيَابٌ وَرَدَّةٌ
- ٤٥٤ تَوَجُّيْهِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ مَعَ أَنَّ عِلْمَهُ سَابِقٌ عَلَى هَذَا
- ٤٥٤ (أَل) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ
- ٤٥٤ الدُّهُنِيِّ، وَأَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ
- ٤٥٤ مَتَى تَكُونَ (أَل) لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ؟
- ٤٥٥ مَنْ هَذَا اللَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ مُوَافَقَةُ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَلَا تَصْعُبُ إِلَّا عَلَى ضَعِيفِ الْإِيمَانِ
- ٤٥٥ إِذَا جَاءَتْ (مَا كَانَ) فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى امْتِنَاعِ الشَّيْءِ غَايَةَ الْامْتِنَاعِ
- ٤٥٥ الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ
- ٤٥٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٤٣)
- ٤٥٥ مَنْ تَعْدِيلِ اللَّهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: أَنْ جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ

- ٤٥٦ كيف يَكُونُ النَّبِيُّ ﷺ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِهِ، وقد مات؟
- ٤٥٦ قد يَنْتَلِي اللهُ عِبَادَهُ بِشَرْعِ بَعْضِ الشَّرَائِعِ ثُمَّ نَسَخَهَا.
- ٤٥٦ عَلَّمَ اللهُ تَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ.
- ٤٥٧ النَّسْخُ يَقَعُ عَلَى أَرْبَعِ صُورٍ.
- ٤٥٧ الْحِكْمَةُ مِنْ تَدْرِيجِ النَّاسِ بِالشَّرَائِعِ مِنَ الْأَخْفِ إِلَى الْأَثْقَلِ.
- ٤٥٨ وَفُوعِ النَّسْخِ دَلِيلٌ عَلَى صَدَقِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.
- ٤٥٩ مِنْ لُطْفِ اللهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَمْ يُهْدِرْ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ الْمَنْسُوخَةِ.
- ٤٥٩ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى دُخُولِ الْأَعْمَالِ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ.
- ٤٥٩ كُلُّ اسْمٍ مِّنْ أَسْمَاءِ اللهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةً، وَلَيْسَتْ كُلُّ صِفَةٍ لِّلَّهِ يُشْتَقُّ مِنْهَا اسْمٌ.
- ٤٥٩ قد يُخْبَرُ عَنْ اللهِ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ.
- ٤٦٠ [١٤٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ...﴾.
- ٤٦٠ الدَّلَالَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِلْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ﴾.
- ٤٦١ ■ فوائد الآية (١٤٤).
- ٤٦١ اجْتَمَعَتِ الْأَدِلَّةُ الْخَمْسَةُ عَلَى إِبْثَاتِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ.
- ٤٦١ عُلُوُّ اللهِ تَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ.
- ٤٦٢ الْخُطَابُ الْمَوْجَّهَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ.
- ٤٦٣ يَجِبُ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ فِي أَيِّ مَكَانٍ يُصَلِّي فِيهِ الْإِنْسَانُ.
- الْوَاجِبُ فِي اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ اسْتِقْبَالُ الْجِهَةِ، لَا إِصَابَةَ عَيْنِ الْكَعْبَةِ إِلَّا أَنْ يَتَيَسَّرَ
- ٤٦٣ ذَلِكَ.
- ٤٦٣ لَا يَضُرُّ الْإِنْجِرَافَ الْيَسِيرَ عَنِ الْقِبْلَةِ.

- ٤٦٤ يُسْتَشْتَى مِنْ وَجُوبِ الْإِتِّجَاهِ إِلَى الْقِبْلَةِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ
- ٤٦٥ أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حَقٌّ
- ٤٦٥ مَنْ عَلِمَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْعُقُوبَةِ
- ٤٦٥ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ
- ٤٦٦ مَا نَفَى اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ لَا يُرَادُ بِهِ مُجَرَّدُ النَّفْيِ، بَلْ إِثْبَاتُ كِهَالِ ضِدِّهَا
- ٤٦٧ [١٤٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْنَا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا نَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾
- ٤٦٧ نَسَخَتْ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ قَبْلَهَا
- ٤٦٧ أَهْلُ الْكِتَابِ فِيهَا بَيْنَهُمْ مُخْتَلِفُونَ، لَا يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
- ٤٦٧ لَا يُلْزَمُ مِنْ تَعْلِيلِ الْفِعْلِ ب: (إِنْ) الشَّرْطِيَّةِ وَجُودِ الْمُعْلَقِ
- ٤٦٨ ■ فوائد الآية (١٤٥)
- ٤٦٨ مِنْ تَمَرُّدِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاسْتِكْبَارِهِمْ: أَتَاهُمْ لَوْ أَتَوْا بِكُلِّ آيَةٍ مَا قَبِلُوهَا
- ٤٦٨ بَرَاءَةُ الْمُؤْمِنِ مِنْ كُلِّ دِينٍ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ
- ٤٦٨ نَحِبُ مُخَالَفَةَ الْمُشْرِكِينَ فِيهَا يُخْتَصُّ بِهِمْ
- ٤٦٨ التَّشْبَهُ بِالْكَفَّارِ فِي الظَّاهِرِ يُؤَدِّي إِلَى التَّشْبَهِ بِهِمْ فِي الْبَاطِنِ
- ٤٦٨ قَوْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»
- ٤٦٩ مِنْ مَفَاسِدِ التَّشْبَهِ بِالْكَفَّارِ: عُلوُّهُمْ وَتَرْفُعُهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ
- ٤٦٩ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَقِدَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ هُوَ الْأَعْلَى
- ٤٦٩ اخْتِلَافُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمِّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
- ٤٦٩ كُلُّ أَمْرٍ حَذَرَ اللَّهُ مِنْهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَالْمُؤْمِنُونَ مُحَذَّرُونَ مِنْهُ أَيْضًا
- ٤٧٠ لَا حَرَجَ فِي اتِّبَاعِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا قَالُوهُ مِنَ الْحَقِّ

- ٤٧٠ لا يَأْتُمُ الْعَبْدَ بِالْحَرَامِ حَتَّى يَعْلَمَ بِتَحْرِيمِهِ
- ٤٧١ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَا يُؤْتِمُّهُمْ بِمَا يَجْهَلُونَهُ.
- ٤٧١ [١٤٦-١٤٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَنَّا يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ ٤٧١
- الحِكْمَةُ مِنَ النَّصِّ عَلَى الْأَبْنَاءِ دُونَ الْأَوْلَادِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ ٤٧١
- ٤٧٢ كَيْفَ نَهَى اللَّهُ نَبِيَّهٖ ﷺ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَرَيْنِ، مَعَ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ ؟
- ٤٧٢ ■ فوائد الآيتين (١٤٦-١٤٧).
- ٤٧٢ أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ
- الحِكْمَةُ مِنَ التَّعْبِيرِ بِكَلِمَةِ (فَرِيقٍ) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
- الْحَقَّ﴾ دُونَ تَعْمِيمِ الْحُكْمِ ٤٧٢
- ٤٧٣ ذُمْ مَنْ كَتَمَ حَقًّا يَعْلَمُ بِهِ.
- ٤٧٣ يَجِبُ بَيَانُ الْحَقِّ لِلْأُمَّةِ مَتَى اخْتَجَاجَتْ إِلَى ذَلِكَ بِلِسَانِ خَالِهَا أَوْ مَقَالِهَا.
- لا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ بَيَانُ الْعِلْمِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ السَّائِلَ لَا يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ الْوُصُولَ إِلَى
- الْحَقِّ ٤٧٣
- ٤٧٤ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ.
- ٤٧٤ مَا ثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ
- قَدْ يَرُدُّ النَّهْيُ فِي الشَّرِيعَةِ عَنْ أَمْرٍ لَا يُمَكِّنُ وَقُوعَهُ ٤٧٤
- ٤٧٥ [١٤٨] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ ٤٧٥
- ٤٧٥ الْخَيْرَاتُ اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ
- فوائد الآية (١٤٨) ٤٧٦

- كُلُّ إِنْسَانٍ فَلَهُ وَجْهَةٌ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا ٤٧٦
- قُدْرَةُ اللَّهِ تَامَّةٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٤٧٦
- [١٤٩] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلُ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ... ٤٧٦
- لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِعِظَمِ أَمْرِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَّا لَوْ كَانَ مَوْجُودًا حِينَ حُوِّلَتْ ٤٧٦
- تَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ٤٧٧
- فوائد الآية (١٤٩) ٤٧٧
- تَكَرُّرُ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ لَا يُعْتَبَرُ تَكَرُّرًا زَائِدًا، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ تَرْسِيخِهِ فِي النُّفُوسِ ٤٧٧
- يَتَعَيَّنُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ أَنْ يَتَوَجَّهَ فِي صَلَاتِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ ٤٧٧
- إِذَا تَبَيَّنَ لِلْإِنْسَانِ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ أَنَّهُ يُصَلِّي إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرِفَ نَحْوَهَا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ ٤٧٧
- كُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ الْحَقُّ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ شَرِيعَتَهُ مِنَ الْبِدْعِ فَهُوَ مَذْمُومٌ بَاطِلٌ ٤٧٨
- [١٥٠] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلُ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ... ٤٧٩
- كُرِّرَ الْأَمْرُ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُتَّبَعُ الْأَمْرُ بِمَعْنَى عَظِيمٍ ٤٧٩
- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ؛ لئَلَّا تَحْتَجَّ عَلَيْهِ طَائِفَتَانِ ٤٨٠
- النَّهْيُ عَنْ خَشْيَةِ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَى ظُلْمٍ ٤٨٠
- فوائد الآية (١٥٠) ٤٨١
- أَحْكَامُ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهَا عِلَّةٌ وَحِكْمَةٌ، وَلَيْسَتْ لِمُجَرَّدِ الْمَشْيِئَةِ، وَالْجَوَابُ ٤٨١
- عَمَّنْ نَفَى ذَلِكَ ٤٨١

- ٤٨١ ينبغي للإنسان أن يتَجَنَّبَ كُلَّ سَبِيلٍ يكون عليه به حُجَّةٌ
- ٤٨٢ كُلُّ ظالم فهو من أهل العناد والشقاق
- ٤٨٢ تحَرُّمُ خشيةِ الناس حيث يكون بها ضياعُ حقِّ الله
- ٤٨٢ تحَرُّمُ المداينة في دين الله، بل على الإنسان أن يَعْتَزَّ بِدينه
- ٤٨٢ امْتِثَالُ أمرِ الله واجْتِنَابُ نهيه سببٌ للهداية
- ٤٨٢ من الناس أقوامٌ يَحْتَجُّونَ على المسلمين في كُلِّ ما جاء في شرعهم
- ٤٨٣ [١٥١] قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ ..
- ٤٨٣ كُلُّ ما جاء به النبي ﷺ فهو تَرْكِيةٌ لِلْعِبَادَةِ في عِبَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ
- ٤٨٣ المراد بالحكمة في قولِ الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾
- ٤٨٤ حَالُ الْعَرَبِ قبل بعثة النبي ﷺ
- ٤٨٤ ■ فوائد الآية (١٥١)
- ٤٨٤ قيامُ النَّبِيِّ ﷺ بها وَجَبَ عليه من تِلَاوَةِ كِتَابِ الله وَتَرْكِيةِ نُفُوسِ النَّاسِ وَتَعْلِيمِهِمْ
- ٤٨٤ كُلُّ مَنْ اهْتَدَى بِآيَاتِ الله فَقَدْ زَكَّى
- ٤٨٥ مَنْ تَلَا آيَاتِ الله على عِبَادِهِ، وَوَعَظَهُمْ، وَعَلَّمَهُمْ، كَانَ وَارِثًا لِلنَّبِيِّ ﷺ
- ٤٨٥ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ كلاهما مُشْتَمِلٌ على الْحِكْمَةِ
- ٤٨٥ ينبغي تَذَكُّيرُ النَّاسِ بنعمة الله عليهم ببعثة النبي ﷺ
- ٤٨٥ [١٥٢] قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾
- ٤٨٦ ■ فوائد الآية (١٥٢)
- ٤٨٦ ذِكْرُ الله من حيث وَجُوبُهُ يَنْقَسِمُ إلى قسمين، وباعتبار آله ينقسم إلى قِسْمَيْنِ أيضًا
- ٤٨٦ جزاءُ الله لِعِبَادِهِ الذَّاكِرِينَ له

- كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْعَبْدَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهَذَا مِنْ ذِكْرِهِ ٤٨٦
- شَكَرُ اللَّهِ يَكُونُ بَطَاعَتَهُ وَصَرَفَ نِعَمِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ٤٨٧
- يَجْرُمُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكْفُرَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ٤٨٧
- [١٥٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ ٤٨٧
- الْوَصْفُ بِالْإِيَّانِ وَصِفٌ يَعْتَرِضُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ٤٨٧
- وَصِيَّةُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ سَمَاعِ آيَةِ صُدِّرَتْ بِالنِّدَاءِ بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ٤٨٧
- تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ بِوَصْفِ الْإِيَّانِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ ٤٨٨
- يَسْهُلُ الْأَمْرُ عَلَى الْعَبْدِ إِذَا عَوَّدَ نَفْسَهُ الصَّبْرَ ٤٨٨
- أَثَرُ الصَّلَاةِ فِي تَخْفِيفِ الشَّدَائِدِ ٤٨٨
- إِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ سَهَّلَ عَلَيْهِ الصَّبْرَ ٤٨٩
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٥٣) ٤٨٩
- تَجَوُّزُ الاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ إِذَا كَانَ سَبَبًا فِي ذَلِكَ ٤٨٩
- مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَلْيَقْزَعْ إِلَى الصَّلَاةِ ٤٨٩
- لِلصَّلَاةِ أَثَرٌ بِالْغُفْرِ فِي تَقْوِيَةِ الْإِنْسَانِ وَتَنْشِيطِهِ ٤٩٠
- مَعِيَّةُ اللَّهِ لِلصَّابِرِينَ لَا تَقْتَضِي مُحَالَطَتَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ ٤٩٠
- فَوَائِدُ الصَّبْرِ ٤٩٠
- الصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ ٤٩١
- الصَّبْرُ عَلَى الْمُصِيبَةِ مِنْ أَسْبَابِ تَهْوِينِهَا وَتَخْفِيفِهَا ٤٩١
- [١٥٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ...﴾ ٤٩١
- حَيَاةٌ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيَاةٌ بَرَزَخِيَّةٌ لَيْسَتْ كَحَيَاةِ الدُّنْيَا ٤٩١

- هل يُنْهَى المسلمُ أن يقولَ لِمَن قُتِلَ في سبيلِ الله: إِنَّهُ مَيِّتٌ؟ ٤٩٢
- يُجَوِّزُ أن يُطْلَقَ الوَصْفَانِ المُتَنَاقِضَانِ على شيءٍ واحدٍ، لكن باعْتِبَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ٤٩٢
- عِلْمُ الآخِرَةِ من نعيمٍ وعذابٍ أمرٌ لا يَشْعُرُ به العبادُ في الدُّنْيَا إِلَّا مَنْ أَطْلَعَهُ اللهُ على ذلك ٤٩٢
- [١٥٧-١٥٥] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ ٤٩٣
- المراد بِصَلَاةِ اللهِ على عَبْدِهِ ٤٩٥
- فائدةٌ ضَمِيرِ الفَصْلِ في بيانِ الحَضَرِ والاختِصاص ٤٩٥
- فوائد الآيات (١٥٧-١٥٥) ٤٩٦
- يُجَوِّزُ تأكيدُ الأُمُورِ المُهِمَّةِ بالقَسَمِ ٤٩٦
- لا ينبغي للإنسان أن يُكْثِرَ من الأَيْمَانِ لغيرِ حَاجَةٍ ٤٩٦
- من حِكْمَةِ اللهِ في تَدْبِيرِهِ لخلْقِهِ: أن يُقَدِّرَ لَهُمُ الضَّرَاءَ والسَّرَّاءَ لِيَبْلُوَهُمُ أَهْمُ أَحْسَنُ عملاً ٤٩٦
- ينبغي للإنسان أن يَشْعُرَ بِنِعَمِ اللهِ عليه ٤٩٦
- إذا كان نَقْصُ الشَّيْءِ مُصِيبَةً فزِيَادَتُهُ نِعْمَةً ٤٩٦
- ينبغي تبشِيرُ أَصْحَابِ العملِ الصَّالِحِ بما يكونُ لَهُمُ من الثَّوَابِ ٤٩٧
- المُبْتَلَى بالمصائبِ لا يَخْلُو من أربعِ حَالَاتٍ ٤٩٧
- لا يَحِلُّ للإنسان أن يَتَسَخَّطَ على قَضَاءِ اللهِ ولو بِقَلْبِهِ ٤٩٧
- تَحْرِيمُ التَّسَخُّطِ على المصائبِ لا يعني أَلَّا يَحْزَنَ الإنسانُ على ما أَصَابَهُ ٤٩٧
- الْفَرْقُ بين مقامِ الصَّبْرِ والرِّضَى ٤٩٨
- شُكْرُ اللهِ على المصائبِ يكونُ على وَجْهَيْنِ ٤٩٨

- من تمام الصَّبْرِ عند المَصَائِب: تفويض الأمر إلى الله ٤٩٩
- المَسْنُون للعبد أن يَقُولَهُ إذا أُصِيب بِمُصِيبَةٍ ٤٩٩
- العِبَادُ ملكٌ لله خلقًا وتديرًا، له أن يَفْعَلَ فيهم ما شاء ٤٩٩
- الدَّلَالَةُ اللَّفْظِيَّةُ قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ على عُلُوِّ ٤٩٩
- منزلة الصَّابِرِينَ ٤٩٩
- الصَّابِرُونَ ينالون من رَبِّهِم الشَّاءَ عليهم في المَلَأِ الْأَعْلَى ٥٠٠
- تضعيفُ القولِ بأنَّ الصَّلَاةَ من الله هي الرَّحْمَةُ ٥٠٠
- الصَّبْرُ على المصائب من أسباب الهداية ٥٠٠
- [١٥٨] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ ٥٠٠
- من تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ أن يَطُوفَ العبدُ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ٥٠١
- فوائد الآية (١٥٨) ٥٠١
- نَفْيُ الْجُنَاحِ في عملٍ ما لا يعني أَنَّهُ لَا يَحِبُّ ٥٠١
- يُشْتَرَطُ في صَحَّةِ السَّعْيِ: أن يَسْتَوْعِبَ الإنسانُ ما بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ٥٠٢
- مُنْتَهَى الْمَسْعَى في هذا الزَّمن ٥٠٢
- ثُبُوتُ اسْمِي اللَّهِ: (الشَّاكِر) و(العَلِيم) وما تَضَمَّنَاهُ من صِفَةٍ ٥٠٢
- [١٥٩-١٦٠] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ﴾ ... ٥٠٢
- الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ على مَنْ أُوتِيَ عِلْمًا فَكْتَمَهُ ٥٠٢
- فوائد الآيتين (١٥٩-١٦٠) ٥٠٣
- عُلُوُّ اللَّهِ تعالى يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ ٥٠٣
- كُلُّ ما أَنْزَلَهُ اللَّهُ فهو بيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى ٥٠٣

- كُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْعِبَادُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ قَدْ بَيَّنَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ٥٠٣
- إِذَا اسْتَحَقَّ كَاتِمُ الْعِلْمِ اللَّعْنَةَ وَجَبَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَلَّا يَكْتُمُوا مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ٥٠٤
- لَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا بِشُرُوطِ خَمْسَةٍ ٥٠٤
- يَنْتَهِي وَقْتُ التَّوْبَةِ بِمَوْتِ الْعَبْدِ أَوْ بَطْلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ٥٠٤
- لَا بُدَّ فِي صِحَّةِ التَّوْبَةِ مِنْ إِصْلَاحِ مَا فَسَدَ بِسَبَبِ الذَّنْبِ ٥٠٥
- مَنْ عَصَى اللَّهَ بِذَنْبٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ فِي تَوْبَتِهِ بِمَا يُقَابِلُ هَذَا الذَّنْبَ ٥٠٥
- وَعَدُ اللَّهِ التَّائِبَ مِنْ ذَنْبٍ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْهِ ٥٠٥
- اسْمُ اللَّهِ (التَّوَابِ) لَهُ مَعْنَيَانِ ٥٠٦
- رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى نَوَّاعِينَ ٥٠٦
- [١٦١-١٦٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ...﴾ ٥٠٦
- الْكُفْرُ يَقَعُ عَلَى نَوَّاعِينَ ٥٠٦
- فوائد الآيتين (١٦١-١٦٢) ٥٠٧
- لَا يَسْتَحِقُّ الْكَافِرُ الْوَعِيدَ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى كُفْرِهِ ٥٠٧
- دَلَّتْ ثَلَاثُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ عَذَابَ النَّارِ مُؤَبَّدٌ ٥٠٨
- لَا يُعْرَفُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ النَّارِ يُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَدِينَ ٥٠٨
- [١٦٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٥٠٨
- أُلُوْهِيَّةُ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتُهُ لِحَلْقِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ ٥٠٨
- مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِلَّا كَانَ يَسِيرًا عَلَى عِبَادِهِ، فَإِنْ وَجَدْتَ الْمَشَقَّةَ وَجِدَ مَعَهَا التَّيْسِيرُ ٥٠٨
- فوائد الآية (١٦٣) ٥٠٩

- ينبغي لمن قال قولاً مُهِمًّا أَنْ يُؤَكِّدَهُ بِمَا يُؤَيِّدُهُ ٥٠٩
- اسْمَاَ اللَّهِ (الرَّحْمَن) و(الرَّحِيم) إِذَا اجْتَمَعَا دَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى مَعْنَى، وَإِذَا انفَرَدَا
دَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى الْآخَر ٥٠٩
- استنكارُ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجَابٌ﴾ ٥٠٩
- [١٦٤] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ... ٥١٠
- تَضْرِيفُ الرِّيَّاحِ لَهُ صُورٌ ٥١٢
- فوائد الآية (١٦٤) ٥١٢
- حِكْمَةُ اللَّهِ فِي كَوْنِ الْمَطَرِ يَنْزِلُ مِنْ عَلُوٍّ ٥١٣
- مِنْ نَشْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلدَّوَابِّ فِي الْأَرْضِ: أَنَّكَ تَنْزِلُ الْأَرْضَ الْقَفْرَ، فَتَجِدُ فِيهَا النَّمْلَ
وغيره من الحشرات ٥١٣
- صورتان من عَظِيمِ تَضْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لِلسَّحَابِ ٥١٣
- مِنْ فَضِيلَةِ الْعَقْلِ: أَنَّهُ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللَّهِ ٥١٤
- [١٦٥] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا...﴾ ٥١٥
- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ٥١٥
- مَحَبَّةُ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ مَحَبَّةٌ تَقْتَضِيهَا الْفِطْرَةُ وَالشَّرِيعَةُ ٥١٥
- إِذَا احْتَمَلَتِ الْآيَةُ مَعْنَيْنِ لَا تَنَافِي بَيْنَهُمَا وَجَبَ حَمْلُهَا عَلَيْهِمَا جَمِيعًا ٥١٥
- فوائد الآية (١٦٥) ٥١٦
- يَحْرُمُ أَنْ يُشْرَكَ مَعَ اللَّهِ أَحَدٌ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيُسَمَّى هَذَا شِرْكََ الْمَحَبَّةِ ٥١٦
- مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يُرَادُ بِهَا مَحَبَّةُ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ وَالْعُبُودِيَّةِ ٥١٦

- ٥١٧ كُلُّ عَاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ حَيْثُ أَوْقَعَهَا فِي الْمَهَالِكِ
- ٥١٧ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَزْعَى نَفْسَهُ، وَأَنْ يُجَنِّبَهَا الْمَهَالِكَ
- ٥١٧ جَمِيعُ الْقُوَى فِي هَذَا الْكَوْنِ هِيَ مُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى
- ٥١٧ لَا يَسْتَحِقُّ عَذَابَ اللَّهِ الشَّدِيدِ إِلَّا الْكُفَّارُ وَالْعُتَاةُ
- ٥١٨ دَلَالَةُ تَفَاوُتِ مَحَبَّةِ الْعَبِيدِ لِرَبِّهِمْ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ
- ٥١٨ يَزِيدُ الْإِيمَانُ وَيَنْقُصُ بِتَفَاوُتِ الْعِلْمِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْقَلْبِ
- ٥١٨ [١٦٦-١٦٧] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾
- ٥١٨ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّأُ أَهْلُ الشِّرْكِ مِمَّا أَشْرَكُوا بِهِ، وَيَتَبَرَّأُ الْمُتَّبِعُونَ مِنَ التَّابِعِ
- قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ يَشْمَلُ الْمُتَّبِعِينَ بِاسْمِ الْعِلْمِ، وَبِاسْمِ السُّلْطَةِ
- ٥١٩ وَالْإِمَارَةِ
- ٥١٩ سَبَبُ تَقَطُّعِ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ التَّابِعِينَ وَالْمُتَّبِعِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
- ٥١٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (١٦٦-١٦٧)
- ٥١٩ التَّحْذِيرُ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْلِ الشُّوءِ
- ٥١٩ كُلُّ عِلَاقَةٍ لَيْسَتْ لِلَّهِ تَنْقَلِبُ نَدَمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
- ٥٢٠ كُلُّ سَبَبٍ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ صَحِيحٌ فَسَوْفَ يَنْقَطِعُ بِصَاحِبِهِ
- ٥٢٠ [١٦٨-١٦٩] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾
- ٥٢١ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَكْسَبُهُ مِنْ طَرِيقٍ مُبَاحٍ حَلَالٍ
- ٥٢١ الْفَرْقُ بَيْنَ الشُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالشُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾
- ٥٢١ ■ فَوَائِدُ الْآيَتَيْنِ (١٦٨-١٦٩)
- ٥٢١ تَصْدِيرُ الْآيَةِ بِالنَّدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْعِنَايَةِ بِهَا فِيهَا

- إباحة الأكلِ ممَّا في الأرضِ هل يختصُّ بالمؤمنين، أو يشملُ الكُفَّارَ أيضًا؟ ٥٢١
- الأصلُ فيما على الأرضِ الحلُّ والإباحةُ، ومَن حرَّم منه شيئًا طُولِبَ بالدَّلِيلِ ٥٢٢
- لا يحلُّ للإنسانِ ما اكتسَبَه من المالِ على وجهِ مُحَرَّم ٥٢٣
- كيف يَعْرِفُ الإنسانُ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ؟ ٥٢٣
- التَّحْذِيرُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ ٥٢٤
- القولُ على الله بلا عِلْمٍ يشملُ القولَ عليه في ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، وأمثلةٌ ذلك ٥٢٤
- حُجَّةُ أهلِ التَّعْطِيلِ في إنْكَارِ بعضِ الصِّفَاتِ التي أثبتَّها اللهُ لِنَفْسِهِ ٥٢٥
- كُلُّ عقلٍ يمنعُ أن يتَّصفَ اللهُ بِصِفَاتِ الكَمالِ فهو عقلٌ فاسِدٌ ٥٢٥
- مَنْ زَعَمَ أنَّ شيئًا هو سببٌ لشيءٍ آخَرَ، ولم يثبتْ هذا بنصٍّ أو تجرِيةٍ، فقد قال على الله بلا عِلْمٍ ٥٢٦
- التَّحْذِيرُ من أثرِ الفُتْيَا بلا عِلْمٍ ٥٢٦
- كان السَّلَفُ يَتَدَفَّعونَ الفُتْيَا ٥٢٦
- إذا كان الإنسانُ عالمًا بقولِ عالمٍ في مسألةٍ ما فله أن ينقلَ ما قاله هذا العالمُ ٥٢٧
- منهْجُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ اللهُ في الفُتُوى فيما لا عِلْمَ له به ٥٢٧
- لا ينبغي للعالمِ أن يُحيلَ السَّائلَ إلى عالمٍ مُعَيَّنٍ إلا أن يخشى أن يَسْتَفْتِيَ جريئًا على الفُتُوى ٥٢٧
- [١٧٠] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
- ءَابَاءَنَا...﴾ ٥٢٨
- الفرقُ بين العقلِ والذكاء ٥٢٨

- فوائد الآية (١٧٠) ٥٢٩
- كُلُّ مَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَرْشَدَ فَالْوَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ اتِّبَاعُهُ ٥٢٩
- مَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَمْرٍ فَهُوَ كَالَّذِي أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ٥٢٩
- ثُبُوتُ نُزُولِ الْوَحْيِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ ٥٢٩
- تَقْيِيحُ التَّعَصُّبِ إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى جَهْلِ وَضَلَالٍ ٥٢٩
- أَثَرُ الْبَيْئَةِ فِي صَلَاحِ الْعَبْدِ وَفَسَادِهِ ٥٢٩
- الْعَقْلُ عَلَى قِسْمَيْنِ ٥٣٠
- تَسْمِيَةُ الْأَجْدَادِ بِالْآبَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَدَّ يَحْجِبُ الْإِخْوَةَ فِي الْمِيرَاثِ ٥٣١
- [١٧١] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ...﴾ ٥٣١
- شَبَهُ الْكُفَّارِ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي يَنْعِقُ بِهَا الرَّاعِي ٥٣١
- فوائد الآية (١٧١) ٥٣٢
- التَّحْذِيرُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِمَنْ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى هُدًى ٥٣٢
- مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالشَّيْءِ فَهُوَ كَالْفَاقِدِ لَهُ ٥٣٢
- [١٧٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ ٥٣٣
- تَصْدِيرُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ ٥٣٣
- الدَّلَالَةُ الثَّلَاثُ لِلتَّخْصِيسِ النَّدَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا ٥٣٣
- يَحْصُلُ الشُّكْرُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ ٥٣٤
- فوائد الآية (١٧٢) ٥٣٤
- حُكْمُ الْإِضْرَابِ عَنِ الطَّعَامِ ٥٣٥
- كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهَا هُوَ عَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الشُّكْرَ وَالتَّوَكُّلَ وَالْحُضُوعَ ٥٣٥

- ٥٣٥ يكون الشُّكْرُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ
- ٥٣٥ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ
- ٥٣٦ بِالشُّكْرِ تَتَحَقَّقُ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ
- ٥٣٦ [١٧٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ...﴾
- ٥٣٦ تَصْدِيرُ الْجُمْلَةِ بـ (إِنَّمَا) دَلِيلٌ عَلَى الْحَضَرِ
- ٥٣٦ تَعْرِيفُ الْمَيْتَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى
- ٥٣٦ الدَّمُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ هُوَ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ
- ٥٣٧ مَا أَهْلٌ بِهِ لغير الله مِنَ الذَّبَائِحِ يَشْمَلُ أَمْرَيْنِ
- ٥٣٧ شَرْطُ جَوَازِ الْأَكْلِ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ
- ٥٣٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٧٣)
- ٥٣٨ التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ مَرْدُهُمَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَشْرُكُهُ فِيهِمَا أَحَدٌ
- مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ أَوْ الْأُمَرَاءَ فِي تَحْلِيلٍ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَوْ تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ
- ٥٣٨ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
- ٥٣٨ كُلُّ مَيْتَةٍ حَرَامٌ إِلَّا مَيْتَةَ الْبَحْرِ وَالْجَرَادِ
- ٥٣٩ الْحِكْمَةُ فِي تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ، وَاسْتِثْنَاءِ الْجَرَادِ مِنْهَا
- ٥٣٩ لَا بَأْسَ بِالدَّمِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْعُرُوقِ بَعْدَ التَّدْكِيَةِ
- ٥٣٩ مِنْ أَسْبَابِ تَحْرِيمِ أَكْلِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ
- ٥٣٩ لَا يَحِلُّ أَكْلُ شَيْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْخِنْزِيرِ
- ٥٤٠ نَقْضُ الْوُضُوءِ بِأَكْلِ لَحْمِ الْجُزُورِ يَشْمَلُ أَكْلَ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ
- ٥٤٠ لَا يَلْزَمُ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْوُضُوءُ مِنْ غَيْرِ بَوْلٍ وَلَا غَائِطٍ أَنْ يَغْسِلَ فَرْجَهُ

- إذا جاز أكلُ المحرّمات عند الضرورة فهل يعني هذا جواز تناول المحرّمات للتداوي؟ ٥٤١
- قاعدة: الضرورات تُبيح المحرّمات، والواجبات تُسقط بالعجز ٥٤١
- اختلاف الأعمال باختلاف النيات والمقاصد ٥٤١
- من مقتضيات كون الله غفوراً رحيمًا أن خففَ عن عباده فيما حرّم عليهم ٥٤٢
- المغفرة تتضمن أمرين ٥٤٢
- رحمة الله عامّة وخاصّة ٥٤٢
- بمغفرة الذنوب يحصل زوالُ المكروه، وبالرحمة يحصل المطلوب ٥٤٢
- من جاز له أكلُ المحرّم للضرورة فلا يحلُّ له أن يتجاوز ما دعت إليه الضرورة ٥٤٣
- إذا خاف الإنسان من حاجته للمحرّم عند الضرورة فله أن يتزوّد منه، فإذا اضطرَّ إليه أكله ٥٤٣
- [١٧٤] قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ...﴾ ٥٤٣
- من نال مالاً مقابل كتّم العلم كان هذا المال حراماً عليه من وجهين ٥٤٤
- فوائد الآية (١٧٤) ٥٤٤
- يجب بيان ما أنزل الله من الكتاب متى اقتضت الحال بيانه، إمّا بلسان الحال أو بلسان المقال ٥٤٤
- هل يحرم أخذُ العوض مُقابل بيان الحق؟ ٥٤٥
- كلُّ شيء من متاع الدنيا فهو قليل ٥٤٥
- من كبائر الذنوب: أن يكتم العالم ما أنزله الله من الكتاب لنيل شيء من الدنيا ٥٤٥
- أهل السنة يُثبتون لله الكلام بحرفٍ وصوتٍ مسموع ٥٤٥

- ٥٤٥ القرآنُ كلامُ الله، منه بدأ، وإليه يعودُ.
- ٥٤٦ سُمِّي يوم القيامة بذلك لثلاثة أسباب
- ٥٤٦ فُضِّلَت نارُ الآخرة على نار الدنيا بتسعة وستين جزءً
- [١٧٥] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ
- ٥٤٧ بِالْمَغْفِرَةِ﴾
- ٥٤٧ ■ فوائد الآية (١٧٥)
- ٥٤٧ مَنْ اشْتَرَى الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى كَانَ كَمَنْ اشْتَرَى الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ
- ٥٤٧ ثُبُوت صِفَةِ الْعَجَبِ لِلَّهِ
- ٥٤٨ الْفَرْقُ بَيْنَ عَجَبِ اللَّهِ وَعَجَبِ الْإِنْسَانِ
- [١٧٦] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾
- ٥٤٨ ■ فوائد الآية (١٧٦)
- ٥٤٩ الْكِتَابُ الَّتِي نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كُتِبَ جَاءَتْ بِالْحَقِّ: الصَّدُقُ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ
- ٥٤٩ فِي الْأَحْكَامِ
- [١٧٧] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾
- ٥٥٠ لَا يُسَمَّى أَحَدٌ بِاسْمِ (اللَّهِ) إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ أَنْ يُوصَفَ بِمَذْلُوه
- ٥٥٠ غَيْرُهُ
- ٥٥٠ سُمِّي يوم القيامة باليوم الآخر؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ
- ٥٥١ تَعْرِيفُ الْيَتِيمِ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
- ٥٥٢ ■ فوائد الآية (١٧٧)
- ٥٥٢ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ

- ٥٥٢ الإيمان باليوم الآخر يتضمّن الإيمان بأمور
- ٥٥٣ الحكمة من القرن بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر
- ٥٥٣ ذكر بعض الملائكة الذين وردت بهم النصوص
- ٥٥٣ أجل الملائكة وأشرفهم ثلاثة
- الحكمة من استفتاح النبي ﷺ صلاة الليل بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل» ٥٥٣
- ٥٥٤ لا يصح تسمية ملك الموت بعزرائيل
- ٥٥٤ ما يعرف من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه خمسة
- ٥٥٥ الرسل أشرف من الأنبياء
- ٥٥٥ أشرف الرسل خمسة، وهم أولو العزم
- ٥٥٥ كيف يؤمن الإنسان بأنبياء الله؟
- ٥٥٥ الإحسان إلى اليتامى يكون للأغنياء منهم والفقراء
- ٥٥٦ هل يعطى من سأل مالا وإن كنا نجهل حاله؟
- ٥٥٦ بذل المال في الرقاب يشمل إعتاق العبد وإعانة المكاتب
- ٥٥٦ لا يعتبر العبد قد أدى زكاة ماله حتى يضر فيها في أهلها
- ٥٥٦ إذا اجتمع عند الإنسان فقيران أحدهما قريب كان إعطاء قريب أفضل
- ٥٥٧ الوفاء بالعهد يشمل العهد مع الله ومع الناس
- ٥٥٧ أثنى الله على الصابرين في ثلاثة مقامات
- ٥٥٧ [١٧٨] قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ...﴾
- ٥٥٨ معنى الكتابة في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾

- ٥٥٨ مَن عفا عن الجاني فلا يَمُنَّ عليه ويُشاقَّه بسبب ذلك
- ٥٥٩ كانت مشروعية العفو عن القصاص تخفيفاً لهذه الأمة ورحمةً لها
- ٥٥٩ كان العفو عن القصاص ممنوعاً في التَّوراة ومُتَحَتِّماً في الإنجيل
- ٥٥٩ ■ فوائد الآية (١٧٨)
- ٥٥٩ يُقْتَلُ الحرُّ بالحرِّ ولو كان القاتلُ أَفْضَلَ في العِلْمِ والدِّينِ والخُلُقِ
- ٥٥٩ لا يُقْتَلُ المسلمُ إذا قَتَلَ كافراً ولو كان الكافرُ مُعَاهِداً
- ٥٦٠ يُقْتَلُ العبدُ إذا قَتَلَ حرّاً، لكن هل يُقْتَلُ الحرُّ إذا قَتَلَ عبداً؟
- ٥٦١ إذا قَتَلَ العبدُ عبداً اقْتَصَّ منه ولو كان القاتلُ أَعْلَى في القيمة
- ٥٦١ هل تُقْتَلُ المرأةُ إذا قَتَلَتْ رَجُلًا؟ وهل يُقْتَلُ الرَّجُلُ إذا قَتَلَ امرأةً؟
- ٥٦١ إذا عفا أحدُ الوَرَثَةِ عن القصاص سَقَطَ في حقِّ الجميع
- ٥٦٢ من مُكَافَأَةٍ مَن عفا عن الجِنَاية: أن يُؤَدِّيَ المَعْفُو عنه ما وَجَبَ عليه بإِحسانٍ
- ٥٦٢ مَحَبَّةُ الله لِلتَّخْفِيفِ على عِبَادِهِ
- ٥٦٢ مَبْنَى الشَّرِيعَةِ على اليُسْرِ
- يَحْرُمُ أن يعتديَ أولياءُ المَقْتُولِ على القاتلِ بعد العَفْوِ عنه، ومَن قَتَلَ منهم بعد العَفْوِ
- ٥٦٢ وَجَبَ عليه القصاصُ بشُرْطِهِ
- ٥٦٣ خطأ القول بأن كَمَالَ العِبَادَةِ أن تتعبدَ حبّاً لله، لا طَمَعاً في ثوابه، وخَوْفاً من عِقَابِهِ
- ٥٦٣ [١٧٩] قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ...﴾
- ٥٦٣ كيف يكونُ القصاصُ حياةً للنَّاسِ؟
- ٥٦٣ ■ فوائد الآية (١٧٩)
- ٥٦٣ من العَدْلِ: أن يُقْتَلَ القاتلُ

- ٥٦٤ تَفْنِيدُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقِصَاصَ يُعْتَبَرُ زِيَادَةً فِي عِدَدِ الْمَوْتَى
- ٥٦٤ يَجُوزُ الْإِسْتِدْلَالُ بِالْعَقْلِ فِي بَيَانِ حُسْنِ الشَّرِيعَةِ
- مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرِ، فَقَالَ الْعَقْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ! وَمَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ الْعَقْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ!
- ٥٦٤ لِلْعَقْلِ أَنْ يُحَسِّنَ وَيُقَبِّحَ، لَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُحْلِلَ أَوْ يُحَرِّمَ أَوْ يُوجِبَ
- [١٨٠] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ...﴾
- ٥٦٥ وَجْهُ حَذْفِ التَّاءِ مِنَ الْفِعْلِ: ﴿كُتِبَ﴾ مَعَ أَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مُؤَنَّثٌ ...
- ٥٦٦ هَلْ تَجِبُ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ مَا لَا كَثِيرًا؟
- ٥٦٦ لَا يُجْزَأُ عَلَى نَصٍّ بِأَنَّهُ مَنْسُوخٌ حَتَّى يَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّصِّ الَّذِي يُخَالِفُهُ
- ٥٦٦ مُقْتَضَى الْقَوْلِ بِالنَّسْخِ هُوَ إِبْطَالُ أَحَدِ النَّصِّينِ
- ٥٦٧ يُعْتَبَرُ قَوْلُ الْمُحْتَصِرِ إِذَا كَانَ يَعْقِلُ مَا يَقُولُ
- ٥٦٧ كُلُّ مَنْ اعْتَبَرَ قَوْلُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ
- ٥٦٧ اللَّهُ أَرْحَمُ بِالْوَالِدَيْنِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِالْأَوْلَادِ مِنْ وَالِدِهِمْ
- ٥٦٨ الْعُرْفُ مُعْتَبَرٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ
- ٥٦٨ مِنْ مُوَجِّبَاتِ التَّقْوَى: أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ
- ٥٦٨ [١٨١] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِنَّمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَدْلُونَهُ...﴾
- ٥٦٩ يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُعَيِّرَ وَصِيَّةَ الْمُوصِي
- ٥٦٩ إِذَا فَعَلَ إِنْسَانٌ خَيْرًا، ثُمَّ تَصَرَّفَ فِيهِ غَيْرُهُ بِمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ، كَانَ الْإِثْمُ عَلَى الثَّانِي
- ٥٦٩ اسْمُ اللَّهِ (السَّمِيعُ) لَهُ مَعْنَيَانِ

- مَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لَزِمَهُ إِلَّا يَقُولَ أَوْ يَعْمَلَ مَا يُغْضِبُ اللَّهَ ٥٧٠
- يُرَادُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْإِيمَانُ بِهَا، وَبِمُقْتَضَاهَا، وَأَنْ يَتَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ ٥٧٠
- [١٨٢] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِيْمًا فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ...﴾ ٥٧٠
- فوائد الآية (١٨٢) ٥٧١
- مَنْ غَيَّرَ وَصِيَّةَ الْمُوصِي لَكُونِهَا ظُلْمًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهَا إِثْمٌ ٥٧١
- يَجِبُ تَعْدِيلُ الْوَصِيَّةِ إِذَا وَقَعَ فِيهَا جَوْرٌ أَوْ إِثْمٌ ٥٧١
- كَلَّمَا أَمَكَّنَ الصُّلْحُ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ كَانَ أَوْلَى ٥٧١
- لَا بُدَّ فِي الصُّلْحِ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ أَنْ يَكُونَ عَنْ رِضَى مِنْهُمَا ٥٧١
- مَغْفِرَةُ الذَّنْبِ تَتَضَمَّنُ سِرَّهُ عَنِ الْعِبَادِ، وَتَرْكُ الْمُواخَذَةِ بِهِ ٥٧٢
- [١٨٣] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ ٥٧٢
- إِبْتِدَاءُ الْخِطَابِ بِالنَّدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ ٥٧٢
- فوائد الآية (١٨٣) ٥٧٣
- لَا تَصْلُحُ الْأُمُ بِدُونِ عِبَادَةِ الصِّيَامِ ٥٧٣
- لَا يَلْزَمُ مِنْ كِتَابَةِ الصِّيَامِ عَلَى مَنْ قَبَلْنَا أَنْ يَكُونَ مِمَّاثِلًا لِمَا هُوَ فِي شَرْعِنَا ٥٧٣
- الصِّيَامُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ التَّقْوَى، فَمَنْ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ أَثَرُ التَّقْوَى بِالصِّيَامِ فَصِيَامُهُ نَاقِصٌ ٥٧٣
- لَا يَشْرَعُ اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا لِحُكْمَةٍ، وَمَنْ فَضَّلَهُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْلَمَ بِهَا ٥٧٤
- مَنْ جَهِلَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي تَشْرِيعِهِ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا التَّسْلِيمُ ٥٧٤
- [١٨٤] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿آيَاتًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ .. ٥٧٤
- فوائد الآية (١٨٤) ٥٧٥

- ٥٧٥ تَصْوِيرُ الْأَمْرِ الشَّاقِّ بِالْأَمْرِ الْيَسِيرِ مِمَّا يُنَشِّطُ النَّفْسَ عَلَى عَمَلِهِ
- ٥٧٥ لَا يَلْزَمُ الْمَرِيضُ أَنْ يَصُومَ، وَلَهُ أَنْ يُؤَخِّرَهُ حَتَّى يَبْرَأَ
- ٥٧٥ ضَابِطُ الْمَرَضِ الَّذِي يُبَاحُ مَعَهُ الْفِطْرُ فِي رَمَضَانَ
- ٥٧٥ هَلِ الْأَفْضَلُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُفْطِرَ فِي رَمَضَانَ؟
- ٥٧٦ يَجُوزُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُفْطِرَ فِي رَمَضَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّيَامُ
- كَانَ النَّاسُ مُخَيَّرِينَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بَيْنَ الصَّيَامِ وَالْإِطْعَامِ، وَأَقْوَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ
عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾
- ٥٧٦ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي تَشْرِيعِهِ: أَنَّهُ يَتَدَرَّجُ فِي التَّشْرِيعِ
- ٥٧٧ تَفَاضُلُ الْأَعْمَالِ فِي الْجِنْسِ وَالنَّوعِ
- ٥٧٧ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلصَّيَامِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾
- ٥٧٧ مِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يُدْرِكُ بِهِ مَا يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِ
- ٥٧٨ [١٨٥] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾
- ٥٧٨ سَبَبُ تَسْمِيَةِ رَمَضَانَ بِهَذَا الْأِسْمِ
- ٥٧٨ كَانَ ابْتِدَاءُ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ
- ٥٧٩ تَوْجِيهُ دُخُولِ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾
- ٥٧٩ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٨٥)
- ٥٧٩ مِنْ لَازِمِ إِثْبَاتِ نُزُولِ الْقُرْآنِ إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللَّهِ
- ٥٧٩ كَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى يَصِفُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ هُدًى لِلنَّاسِ يَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى تَدَبُّرِهِ
- ٥٧٩ يَجِبُ صَوْمُ رَمَضَانَ بِرُؤْيَا هَلَالِهِ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ رُؤْيَا عَدَلٍ
- دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ الْهَلَالَ إِذَا شُوهِدَ فِي بَلَدٍ دُونَ آخَرٍ لَمْ يَلْزَمِ الصَّوْمُ فِيهَا لَمْ يُشَاهَدَ

- فيه، وخلاف أهل العلم في ذلك ٥٨٠
- مَنْ فَاتَهُ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ كَامِلًا لِعُذْرٍ لَمْ يَلْزَمْهُ أَنْ يَقْضِيَ إِلَّا عَدَدَ أَيَّامِ الشَّهْرِ
ولو كانت تِسْعَةً وَعَشْرِينَ يَوْمًا ٥٨١
- لَا يُؤَخَّرُ قِضَاءُ رَمَضَانَ إِلَى شَهْرِ رَمَضَانَ الَّذِي بَعْدَهُ ٥٨١
- كُلُّ فَرِيضَةٍ كَتَبَهَا اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ إِنَّمَا أَرَادَ بِهَا الْيُسْرَ، لَا الْهَاقَ الْحَرَجَ بِهِمْ ٥٨١
- إِذَا تَعَارَضَتِ الْأَدَلَّةُ فِي حُكْمٍ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ رُجْحَانُ أَحَدِهَا، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ بِالْأَيْسَرِ ٥٨١
- مَشْرُوعِيَّةُ التَّكْبِيرِ عِنْدَ انْتِهَاءِ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَمَتَى يَبْتَدِئُ وَيَنْتَهِي؟ ٥٨٢
- صِفَةُ التَّكْبِيرِ الْمَشْرُوعِ فِي خِتَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ ٥٨٢
- يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَدَايَتِهِ لِلْحَقِّ ٥٨٢
- قِيَامُ الْعَبْدِ بِطَاعَةِ الْمُنْعَمِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ هُوَ الشُّكْرُ ٥٨٢
- [١٨٦] قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾ ٥٨٣
- قُرْبُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُنَافِي عُلوُّهُ ٥٨٣
- شُرُوطُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ ٥٨٣
- مِنْ أَكْبَرِ مَوَانِعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ: أَكْلُ الْحَرَامِ ٥٨٣
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٨٦) ٥٨٤
- إِضَافَةُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ شَرَفٌ لَا يُسَاوِيهِ شَرَفٌ ٥٨٤
- مَنْ تَحَرَّرَ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ فَقَدْ ابْتَلَى بِرِقِّ الشَّيْطَانِ ٥٨٤
- مِنْ تَمَامِ الْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: أَنْ يَسْتَشْعِرَ الدَّاعِيَ قُرْبَ اللَّهِ مِنْهُ ٥٨٤
- إِطْلَاقُ بَعْضِ النَّصُوصِ فِي إِجَابَةِ الدُّعَاءِ مُحْمُولٌ عَلَى أَلَّا يَدْعُو بِإِثْمٍ، وَلَا قَطِيعَةٍ رَحِمٍ ٥٨٥
- دُعَاءُ الْإِنْسَانِ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الدُّعَاءَ دَعَاءٌ بِالْإِثْمِ ٥٨٥

- ٥٨٥ مَنْ لَمْ تُجِبْ دَعْوَتَهُ فَذَلِكَ لِسَبَبٍ مِنْهُ أَوْ لَخَيْرٍ أَدَّخَرَهُ اللَّهُ لَهُ
- ٥٨٥ وَجُوبِ الاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَالْإِيْمَانِ بِهِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِرُشْدِ الْعَبْدِ
- ٥٨٦ [١٨٧] قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾
- ٥٨٦ لَا أَحَدَ يُحِلُّ أَوْ يُحَرِّمُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ
- ٥٨٦ كَيْفَ يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِبَاسًا لِلْآخَرِ؟
- ٥٨٧ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيهِ نَفْسَان: مُطْمَئِنَّةٌ، وَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ
- ٥٨٧ كَيْفِيَّةُ الصِّيَامِ أَوَّلُ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ
- ٥٨٨ وَقْتُ الْإِمْسَاكِ الْوَاجِبِ فِي الصِّيَامِ
- ٥٨٨ النَّهْيُ عَنِ مُبَاشَرَةِ النِّسَاءِ فِي الْاِعْتِكَافِ يَشْمَلُ الْجَمَاعَ وَمَا دُونَهُ
- الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾
- ٥٨٨ ■ فوائد الآية (١٨٧)
- ٥٨٩ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَامٌّ شَامِلٌ لِمَا ظَهَرَ وَبَطَنَ، وَلِمَا مَضَى وَمَا يُسْتَقْبَلُ
- ٥٨٩ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ أَنْ يَتَّعِجَ بِذَلِكَ الْوَلَدِ
- ٥٨٩ كَثْرَةُ الْأُمَّةِ سَبَبٌ لِقُوَّتِهَا وَاسْتِغْنَائِهَا عَنْ غَيْرِهَا
- ٥٨٩ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ وَيُجَامِعَ وَلَوْ كَانَ يَشْكُ فِي طُلُوعِ الْفَجْرِ
- ٥٩٠ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى صِحَّةِ صَوْمِ الْجُنُبِ
- ٥٩٠ كُلُّ أَصْلٍ ثَبَتَ فَإِنَّهُ لَا يُزَالُ عَنْهُ إِلَّا بِبَيِّنٍ
- ٥٩٠ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُفْطِرَ مِنْ صِيَامِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ
- دَلَالَةُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ
- ٥٩١ الْاِعْتِكَافِ

- الاعتِكَاف الذي يُعْتَبَر من سُنَّة النبي ﷺ هو اعتِكَاف العَشْرِ الأَوَاخِر من رمضان ٥٩١
- يَصِحُّ الاعتِكَاف في كُلِّ مَسْجِدٍ، ولا يَصِحُّ في غير مَسْجِدٍ ٥٩١
- مُبَاشَرَةُ الْمُعْتَكِفِ لِنِسَائِهِ تُفْسِدُ اعتِكَافَهُ ٥٩١
- حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ في وَضْعِ حُدُودٍ لِعِبَادِهِ في شَرِيعَتِهِ ٥٩٢
- لا يُكَلِّفُ الإنسانُ ولا تَقُومُ عَلَيْهِ الحُجَّةُ قَبْلَ العِلْمِ ٥٩٢
- آيَاتُ اللَّهِ على قِسْمَيْنِ: شَرْعِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ ٥٩٢
- غَايَةُ اللَّهِ من تَبَيَّانِهِ الأحْكَامَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ ٥٩٣
- النَّسْخُ الذي وَقَعَ في الشَّرِيعَةِ على ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، ومِثَالُ كُلِّ قِسْمٍ ٥٩٣
- الحِكْمَةُ من نَسْخِ بَعْضِ الأحْكَامِ ٥٩٣
- [١٨٨] قولُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ ٥٩٤
- أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ على وَجْهَيْنِ ٥٩٤
- اللَّامُ في قولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ﴾ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ... ٥٩٥
- فَوَائِدُ الآيَةِ (١٨٨) ٥٩٥
- حِمَايَةُ اللَّهِ لِأَمْوَالِ النَّاسِ أَنْ يَعْتَدِيَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ فِيهَا ٥٩٥
- مَنْ حَكَّمَ لَهُ الحَاكِمُ بَإِ لا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يُنْجِهِ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ ٥٩٥
- لا إِثْمَ على الحَاكِمِ إِذَا أَخْطَأَ وَحَكَّمَ بِالْبَاطِلِ ٥٩٥
- مَنْ أَكَلَ مالَ غَيْرِهِ يَظُنُّهُ حَقًّا لَهُ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ، لَكِنْ مَتَى عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَجَبَ عَلَيْهِ رَدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ أو اسْتِخْلَالُهُ ٥٩٦
- لا تُقْبَلُ دَعْوَى المَدِينِ بالقَضَاءِ إِلا بَبِيئَةٍ ٥٩٦
- تَحْرِيمُ أَكْلِ مالِ المُعَاهَدِ والمُسْتَأْمِنِ والذَّمِّيِّ بِالْبَاطِلِ ٥٩٦

- [١٨٩] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ ٥٩٧
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٨٩) ٥٩٨
- التَّوَقِيتُ بِالْأَشْهُرِ الْهِلَالِيَّةِ هُوَ التَّوَقِيتُ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ ٥٩٨
- كُلُّ مَا قُيِّدَ بِالشَّهْرِ فَإِنَّهُ مُعْتَبَرٌ بِالْهِلَالِ ٥٩٩
- كُلُّ عَادَةٍ خَالَفتِ الشَّرْعَ فَهِيَ بَاطِلَةٌ وَإِنْ تَقَرَّرَتْ فِي النُّفُوسِ ٥٩٩
- لَا تُؤْتَى الْأَشْيَاءُ -حِسِّيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ- إِلَّا مِنْ طُرُقِهَا وَأَبْوَابِهَا ٦٠٠
- مَدَارُ الْعَبْدِ عَلَى التَّقْوَى، لَا عَلَى الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ ٦٠٠
- قَدْ تَقَرَّنَ الْكَلِمَتَانِ، فَتَفَرَّدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ بِمَعْنَى، فَإِذَا انْفَرَدَتَا أَغْنَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ عَنِ الْأُخْرَى ٦٠٠
- وُجُوبُ التَّقْوَى، وَهِيَ أَسَاسُ الْحَيْرِ وَوَصِيَّةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ٦٠١
- إِبْثَاتُ الْأَسْبَابِ، وَرَبَطُ الْمُسَبِّبَاتِ بِهَا ٦٠١
- [١٩٠] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ٦٠٢
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٠) ٦٠٢
- ضَابِطُ الْمُقَاتِلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٦٠٢
- كُلُّ مَا أَعَانَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ذِكْرُهُ مُتَأَكِّدًا عِنْدَ الْأَمْرِ بِهِ ٦٠٢
- الْمَفْهُومُ لَا عُمُومَ لَهُ، وَيَصْدُقُ بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ ٦٠٢
- الْمُعَاهَدُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٦٠٣
- تَحْرِيمُ الْعُدْوَانِ وَإِنْ كَانَ عَلَى كَافِرٍ ٦٠٣
- نَفْيُ حُبِّهِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهَا لِمَنْ خَالَفَهُمْ ٦٠٤
- [١٩١] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ٦٠٤

- ٦٠٥ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩١)
 ٦٠٥ وَجُوبُ قَتْلِ الْكُفَّارِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ
 ٦٠٦ صَدُّ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ أَشَدُّ مِنْ قَتْلِهِمْ
 ٦٠٦ تَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ إِلَّا إِذَا كَانَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ
 ٦٠٧ [١٩٢] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فِانَ اللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾
 ٦٠٨ [١٩٣] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾
 ٦٠٨ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٣)
 ٦٠٩ شُرْعَ قِتَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ
 ٦٠٩ كُلُّ ظَالِمٍ فَهُوَ أَهْلٌ لَأَنْ يُرَدَّعَ وَيُمنَعَ
 ٦٠٩ [١٩٤] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾
 ٦٠٩ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ أَرْبَعَةٌ
 ٦١٠ وَجْهٌ تَسْمِيَةِ الْقِصَاصِ مِنَ الْمُعْتَدِي عُدْوَانًا
 ٦١٠ ■ فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٤)
 ٦١٠ وَجُوبُ الْعَدْلِ مَعَ الْكُفَّارِ وَالْأَعْدَاءِ
 ٦١١ خَصَائِصُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
 ٦١١ حُكْمُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
 ٦١١ دَلَالَةُ الْآيَةِ عَلَى ثُبُوتِ الْقِصَاصِ فِي النَّفْسِ وَالْأَطْرَافِ وَغَيْرِهَا
 ٦١٢ مَعِيَّةُ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ
 ٦١٣ مَعِيَّةُ اللَّهِ لَا تُنَافِي فَوْقِيَّتَهُ
 ٦١٣ مَنْ فَعَلَ أَسْبَابَ النَّصْرِ فَلْيَتَّقِ بِوَعْدِ اللَّهِ

- [١٩٥] قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ٦١٤
- فَوَائِدُ الْآيَةِ (١٩٥) ٦١٤
- الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ يَشْمَلُ إِنْفَاقَ الْمَالِ وَإِنْفَاقَ النَّفْسِ ٦١٤
- اللَّهُ أَرْحَمُ بِالنَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَبَائِهِمْ ٦١٥
- كَيْفِيَّةُ الْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَفِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ ٦١٥
- التَّنْبِيْهِ عَلَى خَطَا بَعْضِ النَّاسِ بِالْإِسَاءَةِ إِلَى الْحَيَوَانِ ٦١٦
- فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ ٦١٧
- فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ وَالْفَوَائِدِ ٦٢٧

